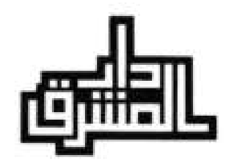
أخلاق الإسلام

للإمام يوسف القرضاوي





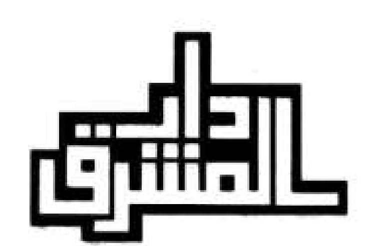


أخلاق الإسلام


شباب
النادي الشبابي

أخلاق الإسلام

للإمام يوسف القرضاوي





الفهرسة أثناء النشر - إعداد دار المشرق

القرضاوي، يوسف (الإمام)
أخلاق الإسلام/ الإمام يوسف القرضاوي.
٦٤٠ص.
١. الإسلام - دراسات. أ. العنوان.
297

«الآراء التي يتضمنها هذا الكتاب لا تعبر
بالضرورة عن وجهة نظر دار المشرق»

الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠١٧

دار المشرق
القاهرة - المعادي - شارع المعراج
almashriq.books@gmail.com

مركز دراسات التشريع الإسلامي والأخلاق
كلية الدراسات الإسلامية
جامعة حمد بن خليفة
الدوحة - قطر
ص. ب ٣٤١١٠

المحتويات

الباب الثالث

أركان النظرية الأخلاقية في الإسلام

الباب الرابع

الأخلاق العمليَّة

مقدِّمة

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ١ ـ ٧].

وأزكى صلوات الله وتسليماته على أنبيائه ورسله، الذين أرسلهم الله للناس مبشِّرين ومنذِرين؛ لِيُعلِّموهم من جهالة، ويهدوهم من ضلالة، ويوظِّفوهم في أعظم ما خُلق له الإنسان، وهو معرفة الله تعالى وعبادته، والنيابة عنه في إقامة شرعه، وصيانة حقِّه، وإقامة العدل في أرضه، التي أُمروا أن يَعْمُروها ويُحْيُوها، ويمشوا في مناكبها ويأكلوا من رزقه. وختمهم بمحمد ﷺ، الذي أنزل عليه آخر كتبه المُقدَّسة (القرآن)، وخَصَّه بالشريعة العامَّة الخالدة؛ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، بإذن ربِّهم إلى صراط العزيز الحميد. صلوات الله تعالى وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه، الذين آمنوا به وعزَّروه ونصروه، واتبعوا النور الذي أُنزل معه، أولئك هم المفلحون.

ورضي الله عمَّن سار على هديهم، واتَّبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

(أما بعد)

فإني أشعر أنَّ الأخلاق جزء أساسي من كياني، أو من ثقافتي الإسلامية، وكلَّما اقتربتُ من نصوص القرآن والسنة، وغُصْت فيهما، وأصغيت إلى علمائهما الراسخين، رأيتني أزداد قربًا والتصاقًا بها.

وأعتقد أن أول عالم قرأتُ له، وشُغفت به كان الإمام أبا حامد الغزالي (ت٥٠٥هـ)، وقد عرَفتُه في كتابين له، أحدهما معروف، لدى الخاص والعام،

وهو: **(إحياء علوم الدين)**. والثاني: من أواخر ما ألَّفه في حياته، هو **(منهاج العابدين)**.

والأخلاق في الكتابَين واضحة، حتى إن الغزالي اعتبر النصف الأخير من **(الإحياء)** ـ وهو يتضمَّن: ربع المهلكات، وربع المنجيات. وكلٌّ منهما يتضمن عشرة كتب ـ يشتملان على الأخلاق: أخلاق الهَلَكة، وأخلاق النَّجَاة.

ولما أصبحتُ في القسم الثانوي، والقسم العالي، تعرَّفتُ على مدرسة شيخ الإسلام ابن تيمية (ت٧٢٨هـ)، وتلميذه ابن القيم (ت٧٥١هـ): ووجدتُهما ومَن معهما من الأئمة الأعلام يهتمون بهذا الأمر، وإن كان أخذهما أصفى من أخذ الغزالي، فقد استولى التصوُّف على الغزالي، فجعل في ترجيحاته واختياراته بعض الخلل، على حين احتكمت المدرسة التَّيْمِيَّة إلى نصوص الكتاب وصحيح السنة، ومقاصدهما، فكانت ثقافتها أنقى، ولله أتقى.

وفي كليَّة أصول الدين، بدأنا ندرس فلسفة الأخلاق في كتاب شيخنا الدكتور محمد يوسف موسى: **(مباحث في فلسفة الأخلاق)**، ولم يدرِّسه لنا، فقد ترك الكلية، وأخذ في اتجاه آخر كان يتقنه وهو: الشريعة الإسلامية. وإنما درَّسه لنا الدكتور منصور علي رجب.

وفي السنة الثانية درَسْنا **(تاريخ النظريات الأخلاقيَّة وتطبيقاتها العملية)** الذي كان يدرِّسه لنا مؤلِّفُه، وهو الشيخ أبو بكر ذكري، رحم الله الجميع.

وكان هذا جزءًا من دراسة مادة (الفلسفة الإسلامية)، التي كانت مقرَّرة على طلاب كلية أصول الدين. وكنا ندرس الفلسفة وفروعها في كلِّ السنوات، ومن هذه الفروع: الأخلاق والمنطق. وقد دَرَسنا المنطق القديم، وشيئًا من المنطق الحديث.

والفلسفة الإسلاميَّة التي كنا ندرسها هي فلسفة (المدرسة المَشَّائيَّة الإسلاميَّة)، التي تمثَّلت في الكندي (ت٢٥٦هـ)، والفارابي (ت٣٣٩هـ)، وابن سينا (٤٢٧هـ)، وما تفرَّع عنهم في الشرق، وكذلك ابن باجه (ت٥٣٣هـ)، وابن الطُّفَيْل (ت٥٨١هـ)، وابن رشد الحفيد (ت٥٩٥هـ)، وما تفرَّع منهم في الغرب.

واعتبروا هؤلاء يمثِّلون الفلسفة الإسلامية، والحقيقة أنهم تلاميذ للفلسفة الإغريقية واليونانية، التي يقوم على رأسها الفلاسفة الثلاثة الكبار: سقراط، وأفلاطون، وأرسطو، وما تفرَّع عنهم بعد ذلك.

ولا ننكر أن هؤلاء التلاميذ حاولوا أن يكون لهم كيان يخصُّهم ويعبِّر عنهم، فقد قام صراع عندهم بين الدين والفلسفة، حاولوا فيه أن يوفِّقوا بين الفلسفة التي اعتنقوها، والدين الذي آمنوا به، ولكنهم غلَّبوا الفلسفة على الدين، وسمَّوا أرسطو (المعلِّم الأوَّل). مع أن المسلمين جميعًا معلِّمُهم الأوَّل والأعظم هو محمد بن عبد الله، الذي آتاه الله الرسالة العامَّة الخالدة، وأثنى عليه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤]. وقال له: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. على أن هؤلاء المشَّائين المسلمين كانوا أفضل من جماعة (إخوان الصفا)، الذين كانوا أقرب إلى (التلفيق) منهم إلى (التوفيق).

على أني وإن درست الفلسفة التي سُمِّيت إسلامية، فلم أدرسها على أساتذة يؤمنون بها، ويتعصَّبون لها، بل يفكرون في كلِّ ما جاء عن الغرب، وينقدونه وينتقون منه، منهم الدكتور حمودة غرابة، الذي كانت رسالته للدكتوراه عن: (ابن سينا بين الدين والفلسفة)، والدكتور عبد الحليم محمود، الذي درَّسنا الفلسفة مدةَ سنتَيْن، وكان يقول: «الفلسفة لا رأي لها، لأنها تقول الرأي وضده، والفكرة ونقيضها»[1]. ولهذا عرفتُ الفلسفة ثقافة ومعرفة، ولم أعرفها إيمانًا وفكرة. واستفدت من دراستها في تعميق الفكر، وتوسيع المدارك، والقدرة على معرفة (الآخر) ومناقشته.

وحين عرَفتُ الأخلاق، فأحمد الله أني لم آخذها من طريق فريقِ المتصوِّفة وحدهم، كما بدأتُ بالغزالي، ولكني وسَّعت آفاقي ومصادري ومشايخي، ووازنت بين الصوفية بعضهم وبعض، وبين الصوفية وأساتذة الفلسفة، وبينهم وبين رجال القرآن والسنة، فدرستُ ما كتبه ابن مسكويه (ت٤٢١هـ)، وما كتبه الراغب الأصفهاني (ت٥٠٢هـ) في كتابه «**الذريعة إلى مكارم الشريعة**»، وما كتبه أمثال ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ)، وابن عبد السلام (ت٦٦٠هـ)، والنووي (ت٦٧٦هـ)، وابن تيمية (ت٧٢٨هـ)، وابن القيم (ت٧٥١هـ).. وغيرهم.

ومن هنا نحمد الله على استقامة الميزان، فقد وضع القرآن في أيدينا قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ

---

(١) مقال: (الفلسفة) للشيخ عبد الحليم محمود (٥/ ١٤١)، مجلة البحوث، العدد الخامس، من المحرم إلى جمادى الثانية لسنة ١٤٠٠هـ.

﴿بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ٩﴾ [الرحمن: ٧ ـ ٩]. فالمطلوب من المسلم: التوسط والاعتدال في الميزان، لا يطغى في الميزان، ولا يُخسِر في الميزان، وهذا هو شأن (الأمَّة الوسط) التي جعلها الله للناس، كما قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وعلى الرغم مما كتبه شيوخنا من علماء الأزهر الذين أتقنوا اللغات الأوروبية، وابتعثهم الأزهر، أو ابتعثوا أنفسَهم، أو ابتعثتهم جهةٌ إلى أوروبا، وما كتبه أساتذة الجامعة المصريَّة المدنيَّة ـ وما أضيف إليها بعدُ من جامعات ـ حول فلسفات الأخلاق ونظرياتها، واختلاف فلاسفتها في الأسس الفكرية والفلسفية حول النظريات الأخلاقية المتفاوتة، أو المتناقضة تناقضًا بعيدًا؛ كانت مجتمعاتنا، أو كانت أمتنا الكبرى، التي تمتدُّ بين إندونيسيا وماليزيا إلى المغرب وموريتانيا، في حاجة إلى عقليَّة إسلاميَّة قوية مستوعبة، قادرة على التعمُّق والبحث الواسع، ومناقشة الفلاسفة الكبار، الذين شرَّقوا وغرَّبوا، وشمألوا وأجنبوا، بثقة بالغة، وقدرة واثقة، لعرض نظرية الإسلام، أو نظرية القرآن، بما فيها من إشعاعات وإلماعات، وتأصيلات وتلويحات، وإشارات وإرشادات، فشرحت بأسلوبها الفريد الناصع، ما تعطيه هذه الفكرة الكلية من قواعد كبيرة، ومفردات وفيرة، وتعليلات غزيرة، ومناقشات كثيرة، وضَّحت مفهومَها، وبيَّنت ما يخالفها، وما يقاربها، وما تقوم عليه، وما يتفرَّع منها.

كان العالَم في حاجة إلى شخصية إسلامية مرموقة، يرتضيها الناس، يرتضون علمها، ويرتضون إيمانها، ويرتضون قدرتها، فتمثَّلت في شيخنا الإمام العلامة الشيخ الدكتور محمد عبد الله دراز، الذي بعثه الأزهر إلى فرنسا، وقامت عليه الحرب وهو هناك، وقد حدَّثنا عن جهاده وجهوده، في هذا الوقت الذي ضاق عليه وعلى الفرنسيين، حتى أَخْرج كتابه الذي كتبه باللغة الفرنسية، وقدَّمه إلى جامعة (السوربون)، ونال عليه أعلى الدرجات وسمَّاه: **«دستور الأخلاق في القرآن»**.

ولا يعني هذا أن يُستغنَى عن السنة، فما السنة إلا بيانٌ للقرآن، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤﴾ [النحل: ٤٤].

فالقرآن هو الأصل الأوَّل، الذي عليه تُراجع الأفكار، وإليه الاستناد، وبه

الاحتجاج. ولكنه لا يستغني عن السُّنة، ولا عن كل المصادر الأخرى المتَّفق عليها، كالإجماع والقياس، والمختلف فيها، كالعرف والمصلحة المرسلة، والأدلة الأخرى المختلَف فيها.

لم يتهيَّأ للشيخ الفرصة، لينقل كتابه إلى العربية، بأسلوبه الأخَّاذ ـ كما عرفناه في كتبه الأخرى، مثل: (**النبأ العظيم**) ـ حتى هيَّأ الله له أخانا وصديقَنا أستاذ دار العلوم: عبد الصبور شاهين، الذي أجاد الفرنسية، وترجم منها عددًا من كتب المفكر الجزائري مالك بن نبي، ثم هيَّأ الله له أن يترجم كتاب شيخنا دراز، فجزاه الله خيرًا.

وإن كان بعض إخواننا الشرعيين الخالصين، يستصعبون لغتَه، وذلك أنه كتاب في الفلسفة، وما كان في الفلسفة لا يكون مثل كتاب في الأدب وفي الدين.

لهذا كان كتاب شيخنا دراز هو مرجعنا الأول، فيما نكتبه عن فلسفة الأخلاق في الإسلام، إلى جوار ما درَّسه لنا في تخصُّص التدريس بالأزهر، وهو كتابه المركَّز (**كلمات في مبادئ علم الأخلاق**)، وما قرأناه له في كتبه الأخرى، وكلها كتب أصيلة وبينة، والحمد لله.

وهذا كتابي: (**أخلاق الإسلام**)، الذي أعلنتُ عنه منذ أكثر من أربعين سنة، فقد وعدت قرائي في تلك الآونة أن أؤلِّف كتابين: أحدهما في: (عقائد الإسلام في ضوء القرآن والسنة). والآخر: في (أخلاق الإسلام). وشُغِلتُ عن الأمرين، وإن لم تخْلُ كتاباتي من قديم عن أمور تتعلَّق بـ (العقائد)، وأخرى تتعلق بـ (الأخلاق)، وأصدرت ثالث كتاب في سلسلة مؤلفاتي: «**الإيمان والحياة**». واشتركتُ في تأليف كتب أصيلة في (العقائد) وفي (الأخلاق)، للمعاهد الثانويَّة في قطر، واستفاد منها بعض البلاد، كما صدرت رسائل في (**وجود الله**)، وفي (**حقيقة التوحيد**)، وفي (**عقيدة القدر**)، ولكن السلسلة لم تُستكمَل، ولم يجمعها كتابٌ واحد.

وكذلك في جانب الأخلاق، تحدَّثت في عدد من كتبي عن الجانب الأخلاقي، في بعض فصول كتب الدعوة والتربية، كما يضمُّها بعض كتب التفسير والحديث. كما كتبتُ كتابًا كبيرًا في (**دور القيم والأخلاق في الاقتصاد**

الإسلامي)، وهو كتاب صدر في طبعته الأولى في (٤٤٠) صفحة. وقد عُنيت بتوثيقه وتقسيمه وتفصيله ليشمل: الإنتاج والاستهلاك والتداول والتوزيع.

وقد قلتُ في مقدِّمة كتابي هذا كلمات مهمَّة أقتبس منها هذه الكلمة: «إن الإسلام رسالة قِيَم وأخلاق في الدرجة الأولى، حتى صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «إنما بُعثتُ لأتمِّم مكارم الأخلاق»[١]. فحصر رسالته في هذه المهمَّة الأخلاقيَّة، ولا غرو أن **ربط الإسلام الأخلاق بالعقيدة**، حتى نفى الإيمان عمَّن لا أمانة له[٢]، وعمَّن بات شبعان وجاره إلى جنْبه جائع[٣]، وعمَّن زنى أو سرق أو شرب الخمر[٤]. وجعل من لوازم الإيمان: صلة الرحم، وإكرام الجار، وقول الخير: «مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذِ جاره، مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقُل خيرًا أو ليصمت»[٥].

كما ربط الأخلاق بالعبادات، وجعلها من ثمراتها وفوائدها: فإقامة الصلاة: ﴿تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. والزكاة: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]. والصيام: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١، ١٨٣]. والحج: لا ينال الله منه هَدْيٌ ولا لحم ولا دم، ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

وإذا لم تؤتِ هذه العبادات أُكُلها في الأخلاق والسلوك، فقد فقدت قيمتها عند الله: «رُبَّ قائم ليس له من قيامه إلا السهر، ورُبَّ صائم ليس له من صيامه

---

(١) رواه أحمد (٨٩٥٢)، وقال مخرِّجوه: صحيح، وهذا إسناد قوي رجاله رجال الصحيح غير محمد بن عجلان فقد روى له مسلم متابعة وهو قوي الحديث، والبخاري في الأدب المفرد في حسن الخلق (٢٧٣)، والحاكم في تواريخ المتقدمين (٢/ ٦١٣)، وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٤٥)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد (١٢٣٨٣)، وقال مخرِّجوه: حديث حسن، وأبو يعلى (٢٨٦٣)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٠٤)، عن أنس بن مالك.

(٣) رواه الطبراني (١/ ٢٥٩)، والبزار (٧٤٢٩)، وحسَّن إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٣٨٧٤)، والهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٥٥٤)، وابن حجر في القول المسدَّد (١/ ٢١)، عن أنس بن مالك.

(٤) إشارة إلى الحديث المتفق عليه: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن». رواه البخاري في المظالم والغصب (٢٤٧٥)، ومسلم في الإيمان (٥٧)، عن أبي هريرة.

(٥) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠١٨)، ومسلم في الإيمان (٤٧)، عن أبي هريرة.

إلا الجوع»[1]. «مَن لم يَدَع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يَدَع طعامه وشرابه»[2].

كما ربط الإسلام المعاملات بالأخلاق أيضًا، من الصدق والأمانة، والعدل والإحسان، والبر والصلة والمرحمة.

وربط الحياة كلَّها بالأخلاق، فلا انفصال بين العلم والأخلاق، ولا بين السياسة والأخلاق، ولا بين الاقتصاد والأخلاق، ولا بين الحرب والأخلاق، فالأخلاق لُحْمَة الحياة الإسلامية وسَدَاها.

ومثل الأخلاق: القيم، سواء كانت قِيَمًا دينيَّة ربَّانية، وعلى رأسها: الإيمان بالله تعالى، وبرسالاته، وبالجزاء العادل في الآخرة. وما يثمره هذا الإيمان من قِيَم أخرى مثل: حب الله تعالى، والرجاء في رحمته، والخشية من عقابه، والتوكُّل عليه، والإخلاص له.

أم كانت قِيَمًا إنسانيَّة مثل: الحرية، والكرامة، والعدل، ورعاية الفطرة، والاعتدال أو الوسطيَّة، واحترام الحقوق، والمساواة بين الناس، والرحمة بالضعفاء، إلى آخر تلك المعاني الجميلة»[3].

أدخل العلماء المسلمون ـ على اختلاف تخصصاتهم ـ الأخلاق في كل معارفهم، بحيث لا يحصل علم ولا عمل، دينيٌّ أو دنيويٌّ، فرديٌّ أو اجتماعيٌّ، ماديٌّ أو روحيٌّ، إلا إذا اكتنفته الأخلاق ووجَّهته، وكان لها هدايتها وتأثيرها فيه.

وجدنا من الصوفية من وجَّه التصوف كله إلى الأخلاق، فنجد من شيوخهم من نقل عن المعروفين والموثقين منهم: أن التصوف هو الخُلُق، فمن زاد عليك في الخُلُق، فقد زاد عليك في التصوف[4].

---

(١) رواه أحمد (٨٨٥٦)، وقال مخرِّجوه: إسناده جيد، وابن ماجه (١٦٩٠)، والحاكم (١/ ٤٣١)، وصحَّحه على شرط البخاري، ووافقه الذهبي، كلاهما في الصوم، عن أبي هريرة.

(٢) رواه البخاري في الصوم (١٩٠٣)، وأحمد (٩٨٣٩)، وأبو داود (٢٣٦٢)، والترمذي (٧٠٧)، وابن ماجه (١٦٨٩)، ثلاثتهم في الصيام، عن أبي هريرة.

(٣) دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي.

(٤) هو قول أبي بكر محمد بن علي بن جعفر الكتاني، انظر: الرسالة القشيرية (٢/ ٤٤٢)، وإحياء علوم الدين (٣/ ٥٢)، ومدارج السالكين (١/ ٤٦٣).

وعقَّب على ذلك الإمام ابن القيم وهو يشرح رسالة (**منازل السائرين إلى مقامات إياك نعبد وإياك نستعين**) للهروي، في كتابه الشهير: (**مدارج السالكين**)، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الدين كله هو الخُلُق، فمن زاد عليك في الخُلُق، فقد زاد عليك في الدين»[١].

وعرَّف بعض العلماء من الصوفية التصوف، فحرره في عبارة وجيزة جامعة، فقال: التصوف هو الصدق مع الحق، والخُلُق مع الخَلْق[٢].

وهذا التعريف الثنائي يمكن أن يتوحد؛ لأن (الصدق) ما هو إلا خُلُق من الأخلاق، فالصدق لم يخرج عن الأخلاق، وبهذا يدخل الدين كله في الأخلاق.

وهذا ما ثبت بتفسيره ﷺ الظلمَ في آية سورة الأنعام: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢]، أن الظلم في الآية هو الشرك. ومعنى الآية: الذين آمنوا ولم يخلطوا إيمانهم ـ أي: توحيدهم ـ بشرك، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون[٣].

لقد أجمع أهل الدين، وأهل العقل، وأهل العلم، وأهل الأدب، وأهل الفن، كلهم أجمعوا على ضرورة الأخلاق للإنسان وللمجتمع وللحياة، وأبدع في ذلك الشعراء والأدباء، وأظن أن أعظم شاعر جمع في شعره الدرر المنظومة الرائعة هو أمير شعراء العرب أحمد شوقي، ولعل أعظم ما قال في ذلك:

صلاح أمرِكَ للأخلاق مرجعه ... فقوِّم النَّفْسَ بالأخلاق تستقمِ

فالنفس من خيرها في خير عافيةٍ ... والنفس من شرِّها في مَرتعٍ وَخِمِ

وقال:

وإنما الأمم الأخلاقُ ما بقيتْ ... فإن همُو ذهبتْ أخلاقُهم ذهبوا

---

(١) انظر: مدارج السالكين، فصل: الدين كله خلق (٢/ ٢٩٤) بتحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، طبع دار الكتاب العربي ـ بيروت، ط. الثالثة، ١٩٩٦م.

(٢) نسبه ابن السبكي في طبقات الشافعية الكبرى إلى أبيه، انظر الطبقات (١٠/ ٢٩٥).

(٣) إشارة إلى الحديث الذي رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٦٠) عن ابن مسعود، قال: لما نزلت ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]. قلنا: يا رسول الله، أيُّنا لا يظلم نفسه؟ قال: «ليس كما تقولون: لم يلبسوا إيمانهم بظلم، بشرك، أولم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه: ﴿يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣]؟».

وقال:

وإذا أصيبَ القومُ في أخلاقهم فأقِمْ عليهم مأتمًا وعويلَا

فعلينا جميعًا أن نقف مع الداعين لبناء الأخلاق القويمة، المؤسَّسة على الإيمان والعقل، فإن أمةً تُبنى على إيمان عميق، وخُلُق وثيق، لا يمكن أن تُهزَم أبدًا، وسينصرها الله في كل الميادين، وينصر أجيالها الصالحين المُصْلِحين، الذين يِقودونها بمواريث النبوات الهادية، والعقول المشرقة، إلى قيم الحقِّ والخير.

وها أنا أقدِّم اليوم هذا الكتاب الذي طال انتظاره، وتأخَّر صدوره، وكان مشروعًا علميًّا أعلنت عنه منذ أربعين عامًا، ووعدت في افتتاح مركز (التشريع والأخلاق) أن يكون في مطبوعاته، فجمعتُ ما تفرَّق لديَّ من كتابات قديمة متناثرة، وأضفت عليها إضافات ضافية، ورتَّبْتُها ترتيبًا جديدًا.

ويسعدني أن يكون هذا الكتاب من إصدارات مركزين علميين، أتَّصل بهما ويتصلان بي اتِّصالا وثيقًا، وهما: (مركز القرضاوي للوسطية الإسلامية والتجديد) الذي يديره الدكتور: محمد خليفة حسن، و(مركز التشريع والأخلاق) الذي يديره الدكتور: طارق سعيد رمضان، وفَّقهما الله إلى كل حق وخير.

ولا يفوتني أن أشكر المركزين ومديريهما والعاملين فيهما، على حرصهما على طباعة الكتاب باسم مركزيهما، وأحمد الله الذي أعانني على تقديمه لهما - مع كثرة المعوِّقات وعِظَم المسؤوليات - في هذه الصفحات، التي أسأل الله تعالى أن يتقبلها مني، وينفع بها قرائي، الذين يترقبون إنجاز أعمالي وتحقيق آمالي.

وبعدُ، فأسألُك يا رب أن تهدِيَني إلى صراطك المستقيم، صراطِ الذين أنعمت عليهم، من النبيِّين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا.

الفقير إلى عفو ربه

يوسف القرضاوي

الخميس ١٩ جمادى الآخرة ١٤٣٦هـ

الموافق ٩ نيسان/ أبريل ٢٠١٥م



الباب الأول

تعريف أخلاق الإسلام وفلسفتها ومنزلتها وأهدافها ووسائلها



الفصل الأول

تعريفات ومصطلحات حول أخلاق الإسلام

أخلاق الإسلام:

مضاف ومضاف إليه، كما نقول في العربية.

الأخلاق: جمع خُلُق. وهو ما جاء في القرآن في وصف النبي ﷺ حين خاطبه الله فقال له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤].

الخَلْقُ والخُلُقُ والعلاقة بينهما:

بيَّن الفيلسوف أبو حيَّان التَّوحيدي (ت٤١٤) أن: «الخُلُق الحسن مشتق من الخَلْقِ؛ فكما أنَّهُ لا سبيل إلى تبديل الخَلْقِ؛ كذلك لا قدرة على تحويل الخُلُقِ؛ لكن الحضَّ على إصلاح الخُلُقِ وتهذيب النَّفس لم يقع من الحكماء بالعبث والتجزيف، بل لمنفعة عظيمة موجودة ظاهرة، ومثاله: أن الحبشيَّ يتدلَّك بالماء والغَسول، لا ليستفيد بياضًا، ولكنْ ليستفيد نقاءً شبيهًا بالبياض»[1].

وقال العالم الحكيم الراغبُ الأصبهانيُّ (ت٥٠٢): «الخلْقُ والخُلُق في الأصل واحد؛ لكنْ خُصَّ الخَلْقُ بالهيآت والأشكال والصور المدركة بالبصر، وخُصَّ الخُلُقُ بالقُوَى والسجايا المُدْرَكة بالبصيرة»[2]. فوجْه الشَّبه بين الخَلْقِ والخُلُقِ قائم؛ لا سبيل إلى تبديل الخَلْق، لكنْ ثمَّةَ سبيلٌ إلى تزيينه وتجميلِه؛ وكذلك لا سبيل إلى تبديل الخُلُق، لكنْ ثمَّة سبيلٌ إلى تحسينه وتعديله.

والأخلاق: جمع مفردُه خُلُق ـ بضم الخاء واللام وقد تسكن اللام ـ: طباع موهوبة أو مكسوبة، تتأصَّل في النفس البشريَّة وتصبح جزءًا منها، أو

---

(١) الإمتاع والمؤانسة، للتوحيدي (١/١٤٨ ـ ١٤٩).

(٢) الذريعة إلى مكارم الشريعة، للراغب الأصبهاني ص٣٩.

صورةً طِبْقَ الأصل عنها. وعلى الرغم من قول الشاعر المتنبي الكوفي (ت٣٥٤):

وما الحسنُ في وجه الفتى شرفًا له إذا لم يكن في فعله والخلائقِ

فإن حسن الخَلْق في الغالب أمارة صادقة تدل على حسن الخُلُق؛ كما قال مهيار الديلمي (ت٤٢٨) مؤيِّدًا:

لم يَحُزْ غيرُهُ الكمالَ ولكِنْ ظهرتْ فيهِ قُدْرةُ الخلَّاقِ
باطن مثل ظاهر إن حُسْنَ الخَلْـ ـقِ بُشْرى محاسن الأخلاقِ

والخُلُق في اللغة:

كما في «المعجم الوسيط»: «حال للنفْس راسخة، تصدر عنها الأفعال من خير أو شرٍّ من غير حاجة إلى فكرٍ ورويَّة»[1].

وهو تعريف لكتاب المجمع اللغوي، مأخوذ من تعريف العلماء الذين اهتمُّوا بدراسة الأخلاق كابن مسكويه (ت٤٢١هـ) وغيره، ولكنهم لم يناقشوها ليبيِّنوا ما فيها من خلل.

وعرَّف اللغويُّ العلامة أبو البقاء الكَفَوي الخُلُق فقال: «الخُلُق: السجيَّة والطبع والمروءة والدين»[2].

ونقرأ في (القاموس المحيط) وشرحه (تاج العروس) للزبيدي: «(والخُلُق، بالضم، وبضمتين: السَّجيَّة و) هو ما خُلِق عليه من (الطبع). ومنه حديث عائشة رضي الله عنها حين سُئلت عن خلق النبي ﷺ: كان خلقه القرآن[3]. أي: كان متمسِّكًا به، وبآدابه، وأوامره ونواهيه، وما يشتمل عليه من المكارم والمحاسن والألطاف».

(و) قال ابن الأعرابي: الخُلُق: (المروءة، و) الخُلُق: (الدين). وفي التنزيل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤]. والجمع أخلاق، لا يُكسَّر على غير ذلك. وفي الحديث: «ليس شيء في الميزان أثقل من حسن

---

(١) المعجم الوسيط، مادة (خلق)، (١/ ٢٥٢).

(٢) الكليات للكفوي، ص٤٢٩.

(٣) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٤٦)، وأحمد (٢٤٦٠١)، عن عائشة.

الخلق»[١]. وحقيقته أنه لصورةِ الإنسان الباطنة ـ وهي نفسه وأوصافها، ومعانيها المختصة بها ـ بمنزلة الخَلْقِ لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها، ولهما أوصاف حسنة وقبيحة، والثواب والعقاب يتعلَّقان بأوصاف الصورة الباطنة، أكثر مما يتعلَّقان بأوصاف الصورة الظاهرة، ولهذا تكرَّرت الأحاديث في مدح حُسْن الخُلُق في غير موضع، كقوله: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خُلُقًا»[٢]. وقوله: «إن العبد ليُدرك بحسن خُلُقه درجة الصائم القائم»[٣]. وقوله: «بُعثتُ لأتمِّم مكارم الأخلاق»[٤]. وكذلك جاءت في ذمِّ سوء الخلق أيضًا أحاديث كثيرة»[٥].

تعريف الخلق عند الإمام الغزالي:

عرَّف الإمام أبو حامد الغزالي (ت٥٠٥) الخُلُقَ، فقال: «يُقال: فلان حَسَن الخَلْق والخُلُق. أي: حسن الظاهر والباطن. فالخُلُق: عبارة عن هيئة في النفس راسخة؛ عنها تصدر الأفعال بسهولة ويُسر، من غير حاجة إلى فكرٍ ورَوِيَّة؛ فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلًا وشرعًا سُمِّيت الهيئة: خُلُقًا حسنًا، وإن كان الصادرُ عنها الأفعالَ القبيحةَ سُمِّيت الهيئة: خُلقًا سيئًا.

وإنما قلنا: إنها هيئة راسخة؛ لأن من يصدر منه بذْل المال على النُّدور لحاجة عارضة لا يُقال: خُلُقه السخاء ما لم يثبت ذلك في نفسه ثبوتَ رسوخٍ، ومن تكلَّف بَذْلَ المال أو السكوتَ عند الغضب بجهد أو رَوِيَّة لا يقال: خُلُقه السخاء أو الحِلْم. وليس الخُلُق عبارة عن الفعل؛ فرُبَّ شخص خُلُقه السخاء ولا يبذل؛ إما لفقد المال أو لمانع. وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل؛ إما لباعث أو لرياء»[٦].

---

(١) رواه أحمد (٢٧٤٩٦)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح، وأبو داود في الأدب (٤٧٩٩)، والترمذي في البر والصلة (٢٠٠٣)، وقال: حديث غريب، عن أبي الدرداء.

(٢) رواه أحمد (٢٤٦٧٧)، وقال مخرِّجوه: حديث صحيح لغيره، والترمذي في الإيمان (٢٦١٢)، وقال: صحيح، عن عائشة.

(٣) رواه أحمد (٢٥٠١٣)، وقال مخرِّجوه: حديث صحيح لغيره، وأبو داود في الأدب (٤٧٩٨)، وابن حبان في البر والإحسان (٤٨٠)، عن عائشة.

(٤) رواه أحمد (٨٩٥٢)، وقال مخرِّجوه: صحيح، والبخاري في الأدب المفرد في حسن الخلق (٢٧٣)، والحاكم في تواريخ المتقدمين (٢/ ٦١٣)، وصحَّحه على شرطهما ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٤٥)، عن أبي هريرة.

(٥) تاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي، مادة (خلق)، بتصرف يسير.

(٦) إحياء علوم الدين للغزالي (١/ ٩١٤)، وبمعناه في ميزان العمل للغزالي ص٤٠.

وصدق الشاعر المتنبي (ت٣٥٤) حيثُ قال:

وللنفسِ أخلاقٌ تدلُّ على الفتى   أكانَ سخاءً ما أتى أم تساخيَا

وهذا يعني أن الخُلُق صفة ثابتة مستقرَّة في النفس، وهذه الصفة ذات آثار في السلوك؛ سواء أكانت محمودة أم مذمومة، ويعني أنَّ صفات النفس الطارئة لا تكون خُلُقًا إلا مع الدوام والاستمرار؛ فلا تعدُّ الشجاعة العارضة ممَّن اتصف بالجُبْن خُلُقًا له، ولا يعدُّ الكرم العارض من الشحيح البخيل خُلُقًا له؛ إذ لا بد من رسوخ الصفة في النفس حتى تُسمَّى خُلُقًا.

تعريف شيخنا العلامة دراز للخلق:

وعلَّق على ذلك شيخنا العلامة د. محمد عبد الله دراز فقال: «الخلق ـ إذًا ـ هيئة أو صفة للنفس.. غير أنَّ للنفس قوًى مختلفة، ووظائف متنوِّعة. فهناك مَلكات الإدراك، والتفكير، والحُكْم، والتَّخيُّل، والتَّذكُّر؛ فإذا كانت هذه القوى النفسيَّة كلُّها تصدر عنها آثارها في سهولة ويسر، هل يسوغ لنا أن نسمِّي شيئًا منها خُلُقًا؟ كلَّا!

نحن بحاجة ـ إذًا ـ إلى مزيد إيضاح وتحديد، تتميَّز به حقيقة المقصود من هذه التسمية. وينجلي به الإبهام الذي تنطوي عليه التعريفات السابقة.

ونبادر فنقول: إنَّ الخُلُق ليس صفة للنفس في جملتها، ولكن في جانب معيَّن من جوانبها. وليس هذا الجانب هو جانب العقل والمعرفة، ولا جانب الشعور والعاطفة؛ وإنما هو جانب القصد والإرادة.

ونضيف إلى هذا التقييد تقييدًا آخر، فنقول: إنَّ الخُلُق يتعلَّق بنوع خاص من الأهداف الإراديَّة، وهو تلك الأهداف التي ينشأ عن اختيارها وصف يعود على النفس بأنها خيِّرة أو شرِّيرة.

من هاتين الخاصَّتين نستطيع أن ننظِّم التعريف التالي: **الخُلُق هو قوَّة راسخة في الإرادة تنزع بها إلى اختيار ما هو خير وصلاح**، (إن كان الخلق حميدًا)، **أو إلى اختيار ما هو شرٌّ وجَوْر**، (إن كان الخلق ذميمًا).

هكذا تتميَّز الحقيقة الخُلُقية عما عداها من الصفات النفسيَّة:

ألا ترى أن جودة الذاكرة أو ضعفها، وسلامة الذوق أو سقمه، وبراعة

الخيال أو تبذله، وحِدَّة الذهن أو تبلُّده، لا مدخل لها في موازين الأخلاق، ولا يسري منها الحكم على صاحبها بأنه برٌّ أو فاجر، تقي أو آثم[1]؟

ثم ألا ترى أن من الأعمال الإراديَّة نفسها طائفة يستوى فعلُها وتركُها، فتدخل بذلك في نطاق المباحات، بحيث لا يترتَّب على فعلها مدح ولا ذمٌّ، ولا يقال لصاحبها: إنه أحسن أو أساء؟ فهي خارجة أيضًا عن موضوع البحث.

وكذلك الأعمال الإرادية التي يترتَّب عليها مدح أو ذم، بمعناهما الأدبي أو الفني، كإجادة البيان، وإتقان التصوير، أو إساءتِهما؛ فهنالك يكون المدح والقدح، والإحسان والإساءة؛ أحكامًا تشابه في صورتها الأحكام الأخلاقيَّة؛ ولكنها في المعنى ليست منها بسبيل؛ لأن الذي لا يحسن التعبير أو التصوير لا يقال: إنه آثم أو شرير.

السلوك يتفرَّع عن الخُلُق، ويعبِّر عنه بالانبعاث النفسي والتكرار. هذا، وينبغي ألا يشتبه علينا الفرق بين الخُلُق والسلوك.

فالخُلُق كما قلنا: أمر معنوي، وهو صفة النفس وسجيَّتها.

أما السلوك فهو أسلوب الأعمال ونهجها وعادتها. وما هو إلا مظهر الخُلُق ومرآته ودليله.

وإنه لكي تكون الأفعال علامة صحيحة على خُلق صاحبها، لا بدَّ أن يجتمع فيها عنصران:

أحدهما: أن تتكرَّر الأفعال على نسق معيَّن، حتى تكون عادة مستقرَّة، وحتى تدلَّ على قوَّة راسخة، ونزعة ثابتة إلى هذه الأفعال؛ فإن الذي يدلُّ على خلق المرء هو جملة تصرُّفاته في عامة الأوقات والأحوال المختلفة، لا في النادر منها.

الثاني: أن تقوم الأمارات على أن هذه الأفعال صادرة بطريق انبعاثيَّة عن النفس، وليست أثرًا لأسباب خارجيَّة، من الخوف أو الرجاء، أو الحياء أو الرياء، أو نحوها، ممَّا يجعل صدور الأعمال تكلُّفًا وتصنُّعًا على خلاف سجيَّة

---

(١) نعم إذا استعملت هذه الملكات قصدًا وعمدًا، بنيَّة إصلاح أو إفساد، كان هذا الاستعمال نفسه داخلًا تحت سلطان القانون الأخلاقي، من حيث هو عمل الإرادة، لا من وجه آخر.

صاحبها، ويجعلنا نحكم بأن خلقه الحقيقي على النقيض ممَّا يوحي به ظاهر هذه الأفعال.

وكما تتجلَّى العادات المستقرة في ثوب إيجابيٍّ، قد تبدو لنا في صورة سلبية. وهنا أيضًا ينبغي أن نكون في يقظة وحذر عند إصدار أحكامنا؛ إذ قد يخفي علينا الخُلُق الحقيقي، لعدم البواعث والأسباب التي تقتضي ظهوره؛ كالفقير الذي لا يجد ما ينفقه، مع أن في نفسه نزعة البذل والسخاء؛ فلا نحكم عليه بالبخل لمُجرَّد عدم إنفاقه؛ وكالشَّرِه الذي لا يجد ما يتناوله؛ فلا نحكم عليه بالعِفَّة، حتى تتهيَّأ الملابسات التي تُبدي لنا كامِن سجيَّته وشيمته»[1].

الأخلاق نوعان: طبْعيَّة جِبليَّة وهْبية، وتطبُّعيَّة متكلَّفة كسبيَّة:

من الأخلاق ما يكون جِبليًا خِلْقيًّا فِطريًا، يولد مع المولود بالطبع وأصل الخِلقة:

عن زارع بن عامر أو عمرو العبديِّ الأعرابيِّ ﷺ - وكان في وفد عبدِ القيس - قال: لما قدمنا المدينة، فجعلنا نتبادر من رواحلنا فنقبِّل يدَ النبيِّ ﷺ ورجلَه! وانتظر المنذر الأشجُّ ﷺ - واسمه: عائذ بن عمرو - حتى أتى عَيْبته[2] فلبس ثوبيه، ثم أتى النبيَّ ﷺ، فقال له النبي ﷺ: «إن فيك خَلَّتَيْن يحبهما الله: الحِلمُ والأناةُ». فقال: يا رسول الله، أنا أتخلَّق بهما أم الله جبلني عليهما؟ فقال ﷺ: «بل اللهُ جبلكَ عليهما». فقال: الحمد لله الذي جبلني على خلَّتَين يحبهما الله ورسوله![3].

كلام العز بن عبد السلام عن الأخلاق:

وأكَّد سلطان العلماء العز بن عبد السلام (ت٦٦٠هـ) ما كان من الأخلاق أو الأوصاف طبعًا جبليًّا خلقيًّا فطريًّا، مانعًا من المفاسد والرذائل، حاملًا على الكمالات والفضائل؛ يولد مع الإنسانِ بطبعه وأصلِ خلقته، فقال: «من عرف مصالحَ الدَّارَيْن وشرفَهما حثَّه طبعه على طلب أحسنها فأحسنها، وأفضلها

---

(١) كلمات في مبادئ علم الأخلاق، د. دراز، ص٤ - ٦، المطبعة العالمية، سنة ١٩٥٣م.

(٢) العيبة: وعاء من جلد يوضع فيه المتاع والثياب. انظر: لسان العرب (عيب).

(٣) رواه أبو داود في الأدب (٥٢٢٥) وقال الأرناؤوط: حسن لغيره وقصة الأشج صحيحة، والطبراني (٥/ ٢٧٥).

فأفضلها، كما يحثُّه على دفْع أقبحها فأقبحها، وأرذلِها فأرذلِها. وإن الله تعالى خلق في أكثر الناس من الأخلاق ما يحثُّهم على كل حَسَن، ويزجرهم عن كل قبيح؛ لينتفعوا بذلك في الفَتَرات بين الرُّسُل، ويعرفوا الحكمة فيما جاءت به الرسل، ليشكروا على ذلك، **والأوصاف أربعة أضرُب**:

الضربُ الأوَّل: أخلاق كريمة، تدعو إلى ما تدعو إليه الشرائع وتحثُّ عليه كرام الطبائع، فمن وافقها صلَح، ومن خالفها فسد. كالحياء الحاثِّ على كل حَسَن، الزاجر عن كل قبيح، وكالسخاء الداعي إلى بذل الأموال والمنافع، في جلب مصالح الدنيا والآخرة ودرء مفاسدهما، وكالغَيْرة الحاثَّة على صَوْنِ الحُرَم عن الفواحش وأسبابها، قريبِها وبعيدِها، وكالشجاعة الحاملة على نصرة الدين بقتال من يجب قتاله من البغاة والعصاة والصُّوَّال والمشركين، وكالرحمة والرِّقَّة الحاملتَيْن على الإحسان إلى الضعفاء والفقراء والمرضى والمحتاجين، وكالرفق الوازع عن الخطأ والعجلة، وكاللُّطْف الجابر، وكاللِّين الموجب للإجابة إلى الحق المبين.

الضرب الثاني: ما امتُحن بهِ قوم بأن خُلِقَت فيهم أوصاف لئيمة، تدعو إلى المفاسد، وتزَعُ عن المصالح؛ فمن وافقها شقي وخاب، ومن خالفها سعِد وأصاب.

الضرب الثالث: شهوات ما ينفع في الدارين أو في إحداهما، كشهوات المباحات والمندوبات والواجبات.

الضرب الرابع: شهوات ما يضرُّ في الدارين أو في إحداهما، كشهوات ملابسة المنهيات ومجانبة المأمورات.

وأما ما لا تستقل العقول بإدراكه من المصالح والمفاسد، فهو المعبَّر عنه بالتعبُّدِ، وهو قليل بالنسبة إلى ما عُرِفت مصالحه ومفاسده، فإذا ورد به الشرع حثَّتْ العقولُ على الإجابة إليه، والإكبابِ عليه، لما فيهِ من شرَفِ الطاعة، وما أعدَّهُ الله من الثواب عليه»[1].

وقال أيضًا: «وكلُّ مَن جُبِل على خُلُقٍ كريمٍ، وطبعٍ مستقيم، فهو مأجورٌ على العمل بمقتضى ذلك الخُلُقِ؛ ولا يثاب عليهِ في نفسِه، إذ ليس من كسبه، وذلك كالغَيرة والحياء والجود والسخاء والحلم والأناة.

---

(١) قواعد الأحكام في إصلاح الأنام، للعزِّ بن عبد السلام، (١/ ١٦٤ ـ ١٦٥) بتصرُّف.

وكلُّ مَن جُبل على خُلُق لئيم، وطبع غير مستقيم، فلا يُعاقَب عليه؛ إذ لا صنع له فيه، وإنما يُعاقَب على إجابته إلى ما يدعو إليه ويقتضيه، وذلك كالبخل والشحّ والكبر والقِحَة[1] ونحوها»[2].

وقال بعده الإمام ابن قيم الجوزية (ت٧٥١): «فدلَّ على أن من الخُلُق ما هو طبيعة وجِبلة وما هو مكتسب»[3].

وهذا يؤكد غلبةَ الطبع على التطبُّع، حتى يصير التطبع خُلُقًا وطبعًا، ينزل بالعادة منزلة الطبيعة؛ فكل شيء يرجع إلى أصله. والإنسان ابنُ عوائدِهِ ومألوفه.

ومن الأخلاق ما يكون مكتسَبًا بالمخالطة والمجالسة، فيكتسب الإنسان من جليسه ما يُعجَب به، فيحمل نفسه عليه المرة بعد المرة بعد المرة، ويتكلّفه، فإذا به قد تخلَّق به وتحقَّق؛ كاستعفاف من لم يكن عفيفًا حتى يكون، واستغناء من لم يكن غنيًّا حتى يكون، وتصبُّر من لم يكن صبورًا حتى يكونَ؛ بالغةً ما بلغت المصاعب.

وبهذا المعنى من تكوُّن الأخلاق بالتخلُّق، وحمل النفس عليها؛ جاء القرآن العظيم، وهدي النبيّ الكريم ﷺ؛ فبيَّن الله سبحانه إمكانية تعليم الجوارح من الطيور والبهائم، ككلاب الصيد، ما لم تكن تعلمُه أو تعهده طباعها، فقال ﷻ: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤]. ولئن كان الحيوان ممكّنًا من تعلُّم ما لم يعلمه والتطبُّع بما لم يُطبَعْ عليه؛ فمعلِّمُه الإنسانُ أولى بكلِّ ذلك التعلُّم والتخلُّقِ والتطبُّعِ وأجدر.

قال الأديب العالم الحكيم الراغب الأصبهاني (ت٥٠٢): «حقُّ الإنسان أن يتحرَّى بغاية جهده مصاحبة الأخيار؛ فهي قد تجعل الشرير خيِّرًا؛ كما أن مصاحبة الأشرار قد تجعل الخيِّرَ شريرًا. قال بعض الحكماء: من جالس خيِّرًا أصابته بركتُهُ؛ فجليس أولياء الله لا يشقى، ولو كان كلبًا ككلب أصحاب الكهف؛ فإن الله تعالى ذَكَره في كتابه العزيز، فقال: ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ

---

(١) مصدر وَقِحَ إذا صار قليل الحياء. انظر: اللسان (وقح).

(٢) قواعد الأحكام في إصلاح الأنام (١/ ٢٠٨).

(٣) مدارج السالكين لابن قيم الجوزية (٣/ ٣١٥).

بِٱلْوَصِيدِۚ﴾ [الكهف: ١٨]. وليس إعداءُ الجليس جليسَه في خلُقه بمقاله وفعاله فقط، بل بالنظر إليه؛ فالنظر في الصُّوَرِ يؤثِّر في النفوس أخلاقًا مناسبة إلى خُلُق المنظور إليه؛ فإن من دامت رؤيته لمسرور سُرَّ، أو لمحزونٍ حَزِنَ؛ وليس ذلك في الإنسانِ فقط، بل في الحيوانات والنباتِ، فإن الجمل الصعْب قد يصيرُ ذَلُولًا بمقارنة الذُّلُلِ، والذلول قد ينقلبُ صعْبًا بمقارنة الصِّعَابِ، والريحانة الغضَّة قد تذبل بمقارنة الذابلة؛ ولهذا يلتقط أصحابُ الفلاحة الرَّمَمَ عن الزرع لئلا تُفسِدها، ومعلومٌ أن الماءَ والهواءَ يَفسدان بمجاورة الجِيفة إذا قرُبت منهما؛ وذلك ممَّا لا ينكره ذو تجربة، فإذا كانت هذه الأشياء قد بلغتْ في قبول التأثير هذا المبلغ، فما الظنُّ بالنفوسِ البشريةِ التي موضوعها على قبول صُوَر الأشياء خيرها وشرِّها؟!»[١].

كلام الإمام الغزالي في إمكانية تغيير الخُلُق:

وقال الإمام الغزالي (ت٥٠٥): «**بيان إمكانية تغيُّر الخُلُقِ**:

لقد ظنَّ بعض المائلين إلى البَطالة: أن الخُلُقَ كالخَلْقِ، فلا يقبل التغيير.

وإنَّ ذلك لو لم يكن ممكنًا لما أُمِرَ به، ولو امتنع ذلك، لبطلت الوصايا والمواعظ، والتأديبات والترغيب والترهيب؛ فإن الأفعال نتائج الأخلاق، كما أن الهُوِيَّ إلى أسفل نتيجةُ الثِّقَلِ الطبيعيِّ؛ فلِمَ يُتَوجَّه الملام إلى أحدهما دون الآخر؟ بل كيف ينكر تهذيب الإنسان مع استيلاء عقله، وتغيير خُلُق البهائم ممكن؟! إذ ينتقل الصيد أو البازي من التوحُّشِ إلى التأنُّس، والكلب من شَرَهِ الأكل إلى التأدُّب والإمساك والتخلية، والفرس من الجِماح إلى السلاسة والانقياد، وكل ذلك تغييرٌ للخُلُقِ أو للأخلاق»[٢].

وقال ابن قيم الجوزية (ت٧٥١): «يمكن أن يقع الخُلُق كسبيًّا بالتخلُّق والتكلُّف، حتى يصير له سجيَّة ومَلَكة»[٣].

وعن أبي سعيد الخدري ﵁ أنَّ ناسًا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم؛ حتى نفِد ما عنده، فقال:

---

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة، للراغب الأصبهاني ص٢٥٨ ـ ٢٥٩، طبعة دار السلام، باختصار.

(٢) ميزان العمل، للغزالي ص٨١ باختصار.

(٣) مدارج السالكين، لابن قيم الجوزية (٣/ ٣١٥).

«ما يكون عندي من خير فلن أدَّخره عنكم، ومن يستعفف يعفّه الله، ومن يستغنِ يغنِه الله، ومن يتصبَّرْ يصبِّرْهُ الله، وما أُعْطِي أحد عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر»[1].

تأثير الوراثة والبيئة في خُلُق الإنسان:

لا شك أن هناك أمرَيْن معترفًا بهما من قِبَل علماء الأخلاق أو فلاسفتها، وهما: الوراثة والبيئة، ومدى تأثيرهما في الأخلاق. فماذا يأخذ الإنسان من كلٍّ منهما؟ وهل أحدهما أشدُّ تأثيرًا من الآخر؟

لا بدَّ لنا أن نعترف أنَّ قوانين الوراثة تعمل عملها في الإنسان، وفي الحيوان، وفي الكائنات الحيَّة الأخرى من النباتات وغيرها.

ومن أجل هذا نرى الإنسان يُشبه أباه، أو يشبه خاله، أو جدَّه، في طوله أو قصره، وفي لونه أو شعره، أو شكل رأسه أو أنفه أو عينيه.. أو غير ذلك. وهذا ما اعترف به الناس من قديم، خصوصًا عند إرادة الزواج، حتى جاء في الحديث: «تخيَّروا لنُطَفكم، فإن العرق دسَّاس»[2]. مما يدلُّ على أهمية الوراثة.

وبعض الآباء يقول لأبنائه مفاخرًا بمَن اختار لهم من الأمهات:

وأول إحساني إليكم تخيُّري ... لماجدة الأعراق بادٍ عفافها![3]

ولذا كان العرب يفخرون بما لهم من آباء أمجاد، ورثوا المكارم كابرًا عن كابر، فهم يورِّثونها لهم، وهؤلاء يورثونها لأبنائهم، وهكذا يستمرُّ التناسل، بأخذ الأبناء عن الآباء، والأحفاد عن الأجداد. كما قال القائل:

وَرِثْنا المجد عن آباء صِدْقٍ ... أسأُنا في ديارهم الصنيعا[4]

وكما أورث هؤلاء الآباء الصادقون والأكارم والأمجاد أبناءهم مكارمهم وأمجادهم، ورَّث آخرون لأبنائهم وذراريِّهم أخلاقًا سيئة، فليس فيها ما كان

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣)، وكلاهما في الزكاة، عن أبي سعيد الخدري.

(٢) رواه ابن ماجه (١٩٦٨)، والدارقطني (٣٧٨٨)، كلاهما في النكاح، وحسَّنه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٦٠٢)، عن عائشة.

(٣) من شعر أبي الفضل عباس بن الفرج الرياشي.

(٤) من شعر معن بن أوس.

عند الآخرين من سخاء وشجاعة ونجدة، وحميَّة وغَيرة وحماية للجار، وعطف على المساكين، ورحمة بالضعفاء.. وغير ذلك، فالإنسان ربما يرث الأخلاق الخيِّرة، كما يرث الأخلاق الشريرة.

ومن هنا يحترس الناس عند الزواج والمصاهرة من الاختلاط بالعائلات التي توارثت خصال الشرِّ، وأصبحت جزءًا من كيانها، يتوارثها أبناؤها وبناتها.

ومن ناحية أخرى: يجدُ الناس آثارًا لا تُنكر لعمل البيئة في الإنسان: صحيًا ونفسيًا واجتماعيًا، ولهذا يعمل العلماء والمربُّون، والآباء والأمهات، والمدارس والجامعات، والمساجد والمسارح، والشارع والحارة، والذي يلاعب القرد أو الدب، والحاوي الذي يستخدم ما يعرف من السحر وخفَّة اليد، ورجال الإدارة، ورجال السجون، ورجال القضاء، وغيرهم في سبيل التخفيف من آثار الوراثة، والاستفادة مما تعطينا البيئة من معانٍ وأفكار ومعالم، تساعد الإنسان على الرقي والتزكِّي والنماء.

ونحن نرى النصوص أيضًا تساعدنا في ذلك، ففي القرآن الكريم: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩٧]. مما يدلُّ على أن البيئة الجغرافية الخشنة التي يُولد فيها الأعراب، ويتربُّون فيها، ويأخذون ثقافتهم منها: أقرب إلى الاشتداد في الكفر والنفاق، والبعد عن معرفة ما أنزل الله على رسوله.

على أنَّ القرآن ذكر أن الأعراب أنواع، ومعنى هذا أن البيئة ليست حاكمة على كل الناس: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٩٩].

وكذلك نجد الحديث الصحيح المتَّفق عليه يقول: «كلُّ مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصِّرانه، أو يمجِّسانه». قال أبو هريرة راوي الحديث: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الروم: ٣٠][1].

وإذا كانت النصوص الإسلاميَّة تدلُّ على أن لكلٍّ من الوراثة والبيئة أثرهما، فلا بدَّ لنا أن نعترف بهما كلتيهما، ولا نَدَع لإحداهما أن تنفرد

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجنائز (١٣٥٨)، ومسلم في القدر (٢٦٥٨)، عن أبي هريرة.

بالإنسان، ونُلغي الأخرى، فلا بدَّ أن نستفيد من كلّ منهما لصالح الإنسان ورُقيِّه، ونستخدم كلَّ واحدة منهما للحدِّ من طغيان الأخرى، حتى يستفيد الإنسان المتوازن من كلٍّ منهما، فيما يصلح له الفرد، وتصلح له الجماعة والأمَّة والإنسانيَّة.

الإسلام:

والأخلاق التي نتحدَّث عنها إنما هي مضافة إلى (الإسلام).

فما الإسلام المقصود هنا؟

إن كلَّ امرئ عنده فكرة عن الإسلام، كوَّنها عن طريق البيئة التي نشأ فيها، أو المدرسة التي تعلَّم بها وتخرَّج فيها، أو المذهب الذي ينتمي إليه، أو الفِرْقة التي ينتسب إليها. وكلُّ تصوُّر للإسلام عند كلِّ واحد أو فئة من هؤلاء، تخالف تصوُّرات الآخرين، أو تتَّفق معها في جزئيات قليلة أو كثيرة، وتخالفها في أخرى.

ولكننا حين نتحدَّث عن الإسلام الذي ننادي به، وندعو أمتنا كلَّها إليه، فإنما ندعو إلى هذا (الدين الواحد) العظيم، الذي بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه، وعرَّفه الناس عن طريق الرسالات السماوية قبل أن تُحرَّف، عقيدة توحيدية خالصة، وعبادة شعائرية موحَّدة، وأخلاقًا ربَّانية وإنسانية مطهِّرة ومزكِّية، وتشريعات أمر الله بها، لتقيمَ القسطَ بين الناس، وتهديهم إلى الصراط المستقيم.

ولهذا أعلن رسل الله عامة: أن دينهم الذي آمنوا به، والذي يدعون إليه الناس إنما هو الإسلام.

قال ذلك نوح لقومه: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [يونس: ٧٢].

وقال ذلك خليل الله إبراهيم وابنه إسماعيل، وهما يرفعان القواعد من البيت الحرام: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨].

وقال سبحانه عن إبراهيم: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾

[البقرة: ١٣١]. وأوصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٢].

وقال يوسف عليه السلام: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف: ١٠١].

ثم ختم الله رسله بمحمد، الذي أتمَّ الله به النعمة، وأنزل الرحمة، وكشف الغمَّة، فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]. ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥].

الإسلام هو دين الله الواحد، الذي بعث به رسله مبشِّرين ومنذرين؛ وأتمَّه بمحمد، الذي كان الحلقة الأخيرة في سلسلة الرسل والأنبياء؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]. فجاء بالإسلام في آخر صورة له، وأكمل وجه له، كما قال ﷺ: «مَثَلي ومثل الأنبياء، كمثل رجل بنى دارًا، فأتمَّها وأكملها، إلا موضع لَبِنة، فجعل الناس يدخلونها ويتعجَّبون منها، ويقولون: لولا موضع اللبنة!». قال رسول الله ﷺ: «فأنا موضع اللبِنة، جئتُ فختمتُ الأنبياء»[1].

وقد قال خاتم الرسل ﷺ: «إنما بُعثتُ لأتمِّم مكارم الأخلاق»[2]. يعني: أنَّ الأنبياء قد جاؤوا برسالاتهم إلى أقوامهم في عصورهم المختلفة، بقدر ما يمكن للناس المحدودين في تلك الأزمان، ولكن هذا الرسول جاء بعد أن استكملت البشرية رُشدها، وبلغت أشُدَّها، وأصبحت قادرة على بلوغ أقصى ما يُطيقه الإنسان في هذا الكون بالفعل وبالقوَّة. ولذلك جعل الله معجزةَ هذا الرسولِ الخاتم معجزةً عقليَّة، وهي القرآن الكريم، الذي تحدَّى العرب أن يأتوا بمثله، فعجزوا، فطلب منهم عشر سُوَر مفتريات يدانون بها القرآن، فغُلِبوا، فطلب منهم أن يأتوا بسورة من مثله، فانقطعوا[3]. وحقَّت كلمة الله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ

---

(١) رواه مسلم في الفضائل (٢٢٨٧)، وأحمد (١٤٨٨٨)، عن جابر.

(٢) سبق تخريجه ص١٢.

(٣) أي: انقطعت حجتهم، ولم يستطيعوا الجواب.

﴿لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝﴾ [الإسراء: ٨٨]. وفي مقام آخر قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ۝﴾ [البقرة: ٢٣ ـ ٢٤].

كان القرآن هو المعجزة الكبرى، والآية الأولى للنبي محمد؛ فإذا كان الرسل من قبله تحدَّوا الناسَ بمثل العصا، وخروج اليد البيضاء من غير سوء، وبمثل إحياء الموتى وشفاء المرضى وإبراء الأكمه والأبرص.. ونحو ذلك؛ فإن آية محمد: إخراج الناس من الظلمات إلى النور، بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد، وإحياء العقول الميتة، وتحريك القلوب المتجمدة، وبناء منطق جديد للبشرية غير منطق الخوارق العجيبة، وإن أعطي محمد منها ما أعطي ـ وهو كثير جدًا ـ ولكنه لم يتحدَّ به.

وفي ذلك يقول الشوقي:

بُعثتَ والناس فوضى لا تمرُّ بهم إلا على صنمٍ قد هام في صنمِ

الإسلام الذي جاء به محمد كان رسالة أعلنتْ للناس حقيقتَيْن كُبريَيْن، لم يعلنهما رسول سابق:

الأولى: أنها رسالة عالمية، ليست لقوم من الأقوام، ولا لجنس من الأجناس، ولا فئة من الفئات، أو أهل جهة من الجهات، ولكنها رسالة لكل الناس، في شرق وفي غرب، ومن عجم وعرب، ومن بيض وسود، ولهذا قال القرآن: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]. وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ۝﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. فرسالته رسالة رحمة، بل ليست إلا رحمة، ولكنها رحمة للعالمين. وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]. وقال عن القرآن: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝﴾ [ص: ٨٧]. وتكرر هذا المعنى في عدد من سُوَر القرآن.

والمعلوم أن كل السور التي أعلنت عالمية الإسلام والقرآن كلها سُور مكية، من أوائل ما أنزل من السور.

والثانية: أنها الرسالة الأخيرة، وأن محمدًا هو خاتم من أرسله الله إلى

خلقه، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]. فلم يقل نبي ممن بُعِث قبل محمد: إنه آخر الأنبياء. بل بالعكس، كل واحد منهم أعلن أنه مبشِّر برسول يأتي من بعده، إلا أن محمدًا هو الذي جهر بهذا الأمر، وقد مرَّ أكثر من أربعة عشر قرنًا، لم يظهر فيها مَن يُسمَع له قول معقول بأنه نبيٌّ للعالم، وهذا يؤكِّد ما ادَّعاه محمد عليه الصلاة والسلام.

والإسلام الذي ندعو إليه له دستوره الذي تولَّى الله حفظه، وهو القرآن، وله سنَّة النبي محمد الذي كلَّفه الله ببيان القرآن، وهذا ضمان لحفظ السنَّة في جملتها، فلا يمكن أن تضيع، أو يختلط حقها بباطلها، أو صحيحها بسقيمها، بل حفظتها الأمَّة، وصنعت الأعاجيب لحفظها وشرحها، وتفسيرها وخدمتها وتيسيرها لأجيالها، وهو ما لم يتيسر عُشرُ مِعشاره لأيِّ أمة أخرى.

والإسلام الذي جاء به خاتم الرسل وسيد الرسل: **رسالة شاملة،** تتضمَّن العقائد التي لا بدَّ منها، من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتتضمَّن الشعائر والعبادات التوحيديَّة الخالصة التي تقرب الإنسان من ربه، وتتضمَّن التشريعات اللازمة لإقامة القسط بين الناس: في مجال الأسرة، ومجال المجتمع، ومجال الأمَّة، ومجال الدولة، ومجال الإنسانيَّة، إلى جوار التشريعات اللازمة لصلاح الفرد، ثم تتضمَّن مكارم الأخلاق، التي تمَّم بها محمد ما جاءت به الرسل، والتي نتحدَّث عنها وعن أصولها وخصائصها وكمالاتها في هذا الكتاب.

لقد جاء محمد بالرسالة التي تكاملت وترابطت، وامتدَّت طولًا حتى شملت آباد الزمن، وامتدت عرضًا حتى انتظمت آفاق الأمم، وامتدت عمقًا حتى استوعبت شؤون الدنيا والآخرة، والأفراد والمجتمعات والأمم.

تقسيم علم الأخلاق إلى نظري وعملي:

يقول شيخنا د. دراز في كتابه الذي درَّسه لنا في تخصص التدريس بكلية اللغة العربية، وفيه طلاب من الكليات الثلاث: أصول الدين والشريعة واللغة العربية: «قد يكون في وسع الإنسان أن يستغنيَ طول حياته عن بعض مسائل العلم والمعرفة، فلا تخطر له ببال؛ بل قد يستطيع أن يستغنيَ عنها جميعها فترة

طويلة أو قصيرة من عمره.. ولكنَّ أحدًا لن يستطيع أن يخلي همَّه من المسألة الأخلاقيَّة طرْفةَ عين.

إنها ضرورة الحياة العمليَّة: عند كلِّ حركة أو سكون، وعند كلِّ نطق أو سكوت، وعند كل همٍّ بفعل أو قول، تُلجئ كل واحد منا إلى أن يستفتيَ نفسه: هل يحسن به أن يُقدِم أو يُحْجِم. وإنها ضرورة الحياة العملية، تطالب كل واحد منا بالجواب السريع على هذا الاستفتاء، قبل أن يفوت وقت العمل، وتطالبه بأن يكون جوابه مسبَّبًا، معتمِدًا على مبدأ يرضاه قاعدةً لسلوكه، ومعيارًا لحكمه وتقديره، أخطأ في ذلك أم أصاب، أساء أم أحسن في اختيار القواعد والأسباب.

من هنا مَسَّت حاجةُ كلِّ عاقل إلى أن يكون عنده قانون حاضر يلقِّنُه الجواب الصحيح عند كل استفتاء، ويعصم إرادته عن الخطأ في التوجه والاختيار.

ذلك القانون هو علم الأخلاق.

فهو جملة القواعد التي ترسم لنا طريق السلوك الحميد، وتحدد لنا بواعثه وأهدافه.

هذا إجمال له تفصيله:

فكلمة **(علم الأخلاق)** لفظ مشترك بين نوعين من البحث:

أحدهما: بحث عن أنواع المَلكات الفاضلة التي يجب علينا التحلي بها، كالإخلاص والصدق، والعفة والشجاعة، والعدل والوفاء، وأمثالها. ويسمَّى (علم الأخلاق العملي)، وهذا النوع في الحقيقة هو أمسُّ الضربَيْن بالحياة، وأحقُّهما بأن يكون نبراسًا في كلِّ يد. فهو الغذاء اليومي، بل هو الواجب العيني. ولذلك لا تكاد تخلو أمة في القديم والحديث من معرفته، والحث على آدابه، التي تصل إليها بالفطرة، أو بالفكر، أو بالتجربة، أو بالوراثة والرواية.

والثاني: بحث عن المبادئ الكليَّة، والمعاني الجامعة، التي تُشتَقُّ منها تلك الواجبات الفرعيَّة؛ كالبحث عن حقيقة الخير المطلق، وفكرة الفضيلة من حيث هي، وعن مصدر الإيجاب ومنبعه، وعن مقاصد العمل البعيدة، أهدافه العليا، ونحو ذلك. ويُسمَّى (فلسفة الأخلاق، أو علم الأخلاق النظري). وهو

من علم الأخلاق العملي بمنزلة أصول الفقه من الفقه. فهو شأن الخواص والمجتهدين، ولا يُطلب من غيرهم، إلا كما تُطلب النافلة بعد تمام الفريضة، ولذلك لا نجد له من الأقدمية، ولا من الشمول، ما لعلم الأخلاق العملي.

فالوثائق التاريخيَّة التي وصلت إلينا لا تشير إلى أنَّ قدماء المصريين عرفوا هذا النوع من الفلسفة، إلى جانب الفلسفة النظرية المعروفة لهم في الإلهيَّات والكونيَّات. ولعل فلاسفة اليونان هم أول من قسم الفلسفة إلى قسمين: (فلسفة نظرية) تبحث عمَّا يجب علمه واعتقاده، و(فلسفة عمليَّة) تبحث عمَّا يجب عمله والتحلِّي به.

ومعنى كون فلسفة الأخلاق فلسفة عملية: أنها تتعلق بالعمل، لا أنها هي من نوع العمل؛ فإن الفلسفة كلها بحوث نظرية، وإن اختلفت مادتها وموضوعها. فإذا تعلقت بالحق الذي يُعتقد، كانت نظرية في أداتها وفي موضوعها معًا. وإذا تعلَّقت بالخير الذي يُفعل، كانت نظرية في أداتها، عملية في موضوعها. بل علم الأخلاق العملي نفسه، هو أيضًا من قبيل النظر لا العمل، وإن كان العمل مادته، كما هو مادة العلم النظري؛ مع هذا الفارق الوحيد بينهما: وهو أن العمل ـ الذي هو موضع العلم العملي ـ أنواع من الأفعال لها مثال في الخارج، كالصدق والعدل ونحوهما؛ بينما موضوع العلم النظري هو جنس العمل المطلق، وفكرته المجردة، التي لا يتحقق مسمَّاها خارجًا، إلا في ضمن الأنواع التي يبحث عنها العلم العملي، تلك الأنواع التي تعد من قبيل الوسائل لتحقيق الخير المطلق، أو الفضيلة الكُلية التي يبحث عنها العلم النظري.

وهكذا يمكن اعتبار القسم العملي (فنًا) أي: عِلْمًا تطبيقيًا، بالنسبة إلى القسم النظري، ويمكن اعتباره في الوقت نفسه (علمًا نظريًا)، بالقياس إلى ضروب التخلُّق وأساليب السلوك، التي هي التطبيق الفعلي الحقيقي لقواعد ذلك العلم.

ومن تأمَّل ضروب الواجبات الأخلاقيَّة وكثرتها وتزاحمها على الأوقات، وشدَّة الحاجة في تطبيقها إلى دقَّة في الفهم، وسلامة في الذوق، وحكمه في السياسة، للتوفيق بين مختلف المطالب الحيوية والاجتماعية والروحية وغيرها، على نِسب قد تختلف باختلاف الظروف والملابسات، أدرك أن السلوك الأخلاقي جدير بأن يُعَدَّ فنًا من أرقى الفنون الجميلة، لمن عرف كيف يؤلِّف

من حياته اليومية صفحة منسَّقة كاملة، على منهاج قول الرسول ذي الخلق العظيم: «إنَّ لربِّك عليك حقًّا، وإنَّ لنفسك عليك حقًّا، وإنَّ لأهلك عليك حقًّا، وإنَّ لزَوْرك عليك حقًّا، فأعطِ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه»[1]»[2] اهـ.

ونحن محتاجون إلى علم الأخلاق بقسميه: العمليِّ والنظريِّ؛ العملي لكل المسلمين، وإن شئتَ قلتَ: لكلِّ الناس، لمَّا رأينا أن حاجة الجميع إلى التَّحلي بخصال الأخلاق، والتَّخلي عن رذائلها، مطلب بشريّ لكل الشعوب والأمم، تبدَّت أو تحضَّرت، فلا تستغني عن الأخلاق في حياتها، كما قال أمير الشعراء شوقي:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت … فإن همُو، ذهبت أخلاقهمْ ذهبوا!

وقال أيضًا:

وإذا أصيبَ القوم في أخلاقهم … فأقمْ عليهم مأتمًا وعويلًا

وأما علم الأخلاق النظري ـ أو ما يطلق عليه (فلسفة الأخلاق) ـ فيحتاج إليه العلماء والباحثون في كلِّ أمة؛ ليعرفوا قدر ما عندهم من الأخلاق، ويحكُمون فيها مقاييس الحكم الخلقي، ويعرفون قيمة هذه الأخلاق من نواحي الأصالة والتكافل والاستيعاب والتوازن، وغيرها ممَّا اختصت به أخلاق الإسلام.

يقول الأستاذ محمد جاد المولى رحمه الله تعالى: «من البديهي أنه كلما انتشرت الأمراض اشتدت الحاجة إلى علم الطب لمقاومتها، وإنقاذ الناس من فتكها، وكذلك كلما انتشرت المفاسد، ازدادت الحاجة إلى علم الأخلاق، ومضاعفة العناية بتهذيب النفوس وصقلها، فهو طبُّها، وواصف دوائها.

ولئن كان الإنسان في حاجة إلى العلوم، فهو إلى الأخلاق أحوج؛ لأن ما يصيبه من الظُّلم، وما يفشو بين أفراده من الإجرام؛ منشؤه نقص الأخلاق أكثر من أن يكون منشؤه نقص العلم، فإن العلم يخدم الفضيلة والرذيلة على حد سواء، أما علم الأخلاق، فهو ظهير الفضيلة وخصيم الرذيلة»[3].

---

(١) رواه البخاري في الصوم (١٩٦٨)، والترمذي في الزهد (٢٤١٣)، عن أبي جحيفة.

(٢) كلمات في مبادئ علم الأخلاق، للدكتور دراز ص١٦ ـ ١٨، المطبعة العالمية، القاهرة، ١٣٧٢هـ ـ ١٩٥٣م.

(٣) الخلق الكامل، محمد جاد المولى، ص٣ ـ ٤.

مصادر الأخلاق الإسلاميَّة العلمية والعملية

الأخلاق الإسلامية مستمدَّة من كتاب الله تعالى وسنَّة رسوله ﷺ وسيرته النبويَّة العظيمة وشمائله الكريمة، وأقوال السلف الصالحين وأخبارهم رضي الله عنهم ورحمهم، والعمل بأركان الإسلام.

كما أنَّ للأعراف والقيم السائدة في المجتمعات الإسلامية ـ مما لا يتعارض مع الشريعة الإسلامية ـ إسهامًا لا يُنكَر في تكوينِ الأخلاقِ الإسلامية الفاضلة.

وسيأتي الحديث عن مصادر الأخلاق في بحث (الإلزام الخلقي) الذي كتبه شيخنا العلامة محمد عبد الله دراز بأسلوبه العلمي الرصين، وفهمه الناضج للقرآن العزيز الذي بهر الفرنسيين، كما بهر من قبلُ العرب. وقد بيَّن فيه أنَّ الإلزام الخلقي نابع من كتاب الله، وسنة رسوله، وإجماع علماء الأمة، والقياس.

قال رَحِمَهُ اللهُ: «وبهذا كانت هذه الأدلَّة الأربعة كلُّها: أدلَّة على الإلزام الفطري لأخلاق الإسلام، وأنها كلُّها ترجع إلى دليل واحد، هو من الله تبارك وتعالى، فمنه يُؤخذ كلُّ أمر، وكلُّ نهي، وكلُّ تحليل، وكلُّ تحريم، وكلُّ استحباب، وكلُّ كراهية. والأدلة الأخرى إنما هي فروع من أصل كبير، وهو القرآن، ولهذا ترى كلَّ هذه الأدلَّة تحتجُّ لنفسها وتستدلُّ على حجِّيَّتها بالقرآن الكريم».

بل أرى الأدلة الأخرى غير هذه الأربعة المتفق عليها تقريبًا، مثل العرف والمصلحة ونحوها، مما يدخل في مصدر القرآن؛ لأنه روحها جميعًا، ومنه تؤخذ شرعيتها ودليلها.

وأحببت أن أضع هذه الكلمات في أول أبواب الكتاب لتكون مدخلًا عامًّا في معرفة المصادر الأساسيَّة للأخلاق الإسلامية النظريَّة والعمليَّة.

وأول تلك المصادر: كتاب الله وسنة رسوله؛ فإن أساس الأخلاق في الإسلام هو القرآن الكريم، فهو مصدره الأول، وهو المنهل الذي تنهل منه شريعة الإسلام قوام أخلاقها الفاضلة في أتمِّ كمالاتها، وقد اتسعت المساحة التي شغلها الخطاب والتوجيه الأخلاقي من القرآن الكريم إلى أنفس وقلوب

وعقول وضمائر أتباعِه، سواء أكان ذلك في الأصول الكلية، أم في فروعها الجزئيَّة التي يمكن إدراجها ضمن هذه الأصول، فكان خطابه حديثًا مستوعبًا في إقناع العقل، وتنبيه القلب، وبعث الضمير إلى حال من اليقظة الدائمة.

وقد دفع هذا بعض الباحثين إلى القول بأن في القرآن إعجازًا أخلاقيًا، يضاف لبقية جوانب الإعجاز فيه، وذلك لما يجده الدارس للأخلاق في القرآن الكريم من العظمة والشمول والتوازن والكمال.

وتأتي السنة مبيِّنة لتلك الأخلاق مفصِّلة لها، والإسلام المتمثل في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة هو الكفيل برسم الصورة التي تكون المثل الأعلى للأخلاق العلمية والعملية، الفردية والاجتماعية، وهو القادر على بيان المعالم الأخلاقية المُثلى للإنسانية جمعاء. ولذلك أُمِرْنا بالتمسك بهذين الأصلين:

عن أَبي هُرَيرَةَ ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إني قد تركت فيكم شيئَيْن لن تضلُّوا بعدهما: كتاب الله، وسنتي. ولن يتفرقا حتى يردا عليَّ الحوضَ»[1].

وعن العرباض بن ساريةَ ﵁ قال: قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم بعد صلاة الغداة، فوعظنا موعظة بليغة، وجِلت منها القلوب، وذَرَفت منها العيون، فقال رجل: إنهذه موعظة مودِّع، فبماذا تَعْهَدُ إلينا يا رسول الله؟! قال: «عليكم - أو: أوصيكم - بتقوى الله، والسمع والطاعة وإنْ عبدٌ حبشيٌّ؛ فإنه مَن يعِشْ منكم يرَ اختلافًا كثيرًا؛ فعليكم بسنَّتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديِّين، عَضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومُحدثاتِ الأمور؛ فإن كل مُحدَثةٍ بدعةٌ، وكل بدعةٍ ضلالة»[2].

ثناء الله تعالى على خُلُق رسوله:

وقد أثنى الرَّبُّ سبحانهُ على رسوله ﷺ وعلى أخلاقه العظيمة وشمائله الكريمة خيرَ ثناء، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤].

---

(١) رواه الدارقطني في الأقضية (٤٦٠٦)، والحاكم في العلم (١/ ٩٣)، وسكت عنه هو والذهبي، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٩٣٧).

(٢) رواه أحمد (١٧١٤٢) وقال مخرِّجوه: حديث صحيح بطرقه وشواهده، وأبو داود في السنة (٤٦٠٧) والترمذي في العلم (٢٦٧٦) وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه في المقدمة (٤٢)، وصحَّحه الألباني في صحيح ابن ماجه (٤٠)، عن العرباض بن سارية.

(إنَّ) حرف توكيد ونصب. وكاف الخطاب تفيد تخصيص المخاطَبِ، وهو نبيُّنا الكريم بما لم يخصَّ به سواه قط! ﴿لَعَلَىٰ﴾ اللام لام التوكيد المزحلقة من اسم (إنّ) إلى خبرها. (على) الجارَّة تفيد الاستعلاء؛ مما يدلُّ على أنه ﷺ مستعلٍ على الأخلاق، مستولٍ عليها، متمكِّنٌ منها، وأنَّ مكانته منها مكانة المولى ممَّن هو تحت ولايته، ثم خُتِمَت الآية بوصف خُلُقه ﷺ بأنه خُلُق عظيم!

فبذلك خصَّ الله تعالى نبيَّه ورسوله ﷺ بما آتاه من كريم الطباع، وجميل الخصال، وعظيم الشمائل، ومحاسن السجايا، والأخلاق المتكافئة؛ كالحياء والشجاعة والسخاء، والوفاء والصبر وكظم الغيظ، والعفو والإحسان والحلم وحسن العهد، ومكارم الأخلاق التي لم يؤتِها أحدًا غيرَه من العالمين!

وكانت كلُّ أخلاقه ﷺ سجيَّة وطبعًا، وكانت متكافئة كمًّا وكيفًا، لا يقصُرُ منها خلق عن آخر؛ ولا غرْوَ فقد أدَّبه ربُّهُ تعالى فأحسنَ تأديبَه!

وما أحسن ما قاله الشاعر شرف الدين البوصيري (ت٦٩٦هـ) رَحِمَهُ اللهُ:

أكـرِمْ بـخَـلْـق نـبـيٍّ زانـه خُـلُـقٌ ... بالحُسْن مشتملٍ بالبِشْر مُتَّسِمِ

وعن أبي عبد الله الجدلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قلتُ لعائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: كيف كان خُلُق رسول الله ﷺ في أهله؟ قالت: كان ﷺ أحسنَ الناس خُلُقًا؛ لم يكن فاحشًا، ولا متفحِّشًا، ولا سخَّابًا في الأسواق، ولا يَجزي بالسيئة مثلَها، ولكنْ يعفو ويصفح[(١)].

وعن سَعْد بن هشام بن عامر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قلتُ: يا أم المؤمنين، أنبئيني عن خُلق رسول الله ﷺ، قالت: «ألستَ تقرأ القرآن؟». قلتُ: بلى. قالت: «فإن خُلُق نبيِّ الله ﷺ كان القرآن»[(٢)].

«فإن خلقَ نبي الله ﷺ كان القرآن»: يتأدَّب بآدابه، ويتخلَّق بمحاسنه، ويلتزم بمواعظه؛ وينتهي بنواهيه وزواجره، ويأتمر بفرائضه وأوامره؛ لأنه ما من رذيلة أو نقيصة، إلا بيَّنها القرآن الكريم ووضَّحها، وذمَّها ونَهى عنها، وحذَّر

---

(١) رواه أحمد (٢٥٩٩٠) وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح، والترمذي في البر والصلة (٢٠١٦) وقال: حسن صحيح.

(٢) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٤٦)، وأحمد (٢٤٢٦٩)، وأبو داود في الصلاة (١٣٤٢).

منها، وما من فضيلة أو مكرمة، إلا جمعها القرآن الكريم، واشتمل عليها، ونبَّه على فضلها ورغَّب فيها، وأمر بها، وحضَّ عليها.

قال سلطان العلماء العزُّ بن عبد السلام (ت٦٦٠هـ): «كان خُلُقه ﷺ الممدوح بالعظمة: اتِّباعَ القرآن. والقرآنُ مشتملٌ على الأمر باتباعِهِ ﷺ فيما جاءَ به من كتاب وسُنَّة»[١].

وقال الأصوليُّ الفقيه العلامة الشاطبيُّ (ت٧٩٠هـ): «ولما استنار قلبه وجوارحه ﷺ وباطنه وظاهره بنور الحق عِلمًا وعمَلًا؛ صار هو الهاديَ الأولَ لهذه الأمة، والمرشدَ الأعظمَ؛ حيث خصَّه الله دون الخلق بإنزال ذلك النور عليه، واصطفاه من جملة من كان مثله في الخلقة البشريَّة اصطفاء أوَّليًا؛ لا من جهة كونه بشرًا عاقلًا مثلًا؛ لاشتراكه مع غيره في هذه الأوصاف، ولا لكونه من قريش مثلا دون غيرهم؛ وإلا لزم ذلك في كل قرشيٍّ، ولا لكونه من بني عبد المطلب، ولا لكونِه عربيًا ولا لغيرِ ذلك؛ بل من جهة الاختصاص بالوحي، الذي استنار به قلبه وجوارحه؛ فصار خُلُقه القرآن، حتى نزل فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤].

وإنما كان خُلقه القرآن؛ لأنه حكَّمَ الوحيَ على نفسه، حتى صار في علمه وعمله على وَفْقه. فكان الوحيُ حاكمًا وافق قابِلًا، وكان ﷺ مُذعِنًا، ملبِّيًا نداءه، واقفًا عند حُكمه، وهذه الخاصيَّة كانت من أعظم الأدلة على صدقه فيما جاء به؛ إذ قد جاء بالأمر وهو مؤتمِر، وبالنهي وهو منتهٍ، وبالوعظ وهو متَّعِظ، وبالتخويف وهو أول الخائفين، وبالترجية وهو سائق دابَّة الراجين!»[٢].

الهدف الأسمى والغاية العظمى من بعثته:

لخَّص القرآن العظيم، كما لخَّص الرسول ﷺ الهدف من رسالته، فقال القرآن: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. وقال الرسول في إيجاز بليغ: «إنما بُعثت لأتمِّم صالح الأخلاق أو مكارم الأخلاق أو حُسْنَ الأخلاق»[٣].

---

(١) قواعد الأحكام في إصلاح الأنام (١/٢٠٩).

(٢) الاعتصام للشاطبي ص٤٣٣ ـ ٤٣٤

(٣) رواه أحمد (٨٩٥٢) وقال مخرِّجوه: صحيح، والبخاري في الأدب المفرد في حسن الخلق (٢٧٣)، والحاكم في تواريخ المتقدمين (٢/٦١٣) وقال: على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٤٥)، عن أبي هريرة.

وتَحدَّث النبيُّ ﷺ بنعمة ربه ﷻ عليه وعلى أمَّتِه، فقال: «إنما أنا رحمة مهداة»[1].

وقال الله تعالى أيضًا مادحًا رِقَّةَ القلبِ في نبيه ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ومن يتأمَّل ويتدبر آيات القرآن الكريم في سور كثيرة، يجد أن الله تعالى قد خصَّ هذا الرسول الكريم محمد بن عبد الله، بما لم يخص به أحدًا من خلقه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [آل عمران: ٧٣].

فهو أحد الخمسة الكبار من الرسل الذين سماهم الله في كتابه (أولي العزم)، وأمره ـ وهو خاتم رسله ـ أن يصبر على أذى قومه وأذى الناس، كما صبروا، قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وأولو العزم من الرسل هم الذين ذكرهم الله في سورة الشورى، حين قال: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ﴾ [الشورى: ١٣]. وهم الذين ذكرهم الله تعالى في سورة الأحزاب حين خاطب رسوله محمدًا، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب: ٧].

مهمات الرسول ﷺ الكبرى:

وهي التي ذكرها الله تعالى بقوله: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [البقرة: ١٥١][2]. فهو تعالى هنا يخاطب الناس بأنه أوحى إلى رسول منهم، بأمور مهمة يقوم بتقديمها للناس؛ ليهديهم إلى الصراط المستقيم، ويعلِّمهم الدين القويم، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، هذه الأمور هي:

---

(١) رواه الحاكم في الإيمان (١/ ٣٥)، وصحَّحه على شرطهما، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٤٩٠)، عن أبي هريرة.

(٢) ينظر الحديث عن هذه المهام العظمى للرسول مع أمته في الفصل الرابع من هذا الباب: وسائل الإسلام في تحقيق الأهداف التربوية: التربية المستمرة.

١ ـ تلاوة آيات الله المنزَّلة عليه؛ ليُعْلِمهم بما فيها، وينبِّئهم بما جاء من الله، ويقيم الحجَّة عليهم.

٢ ـ أن يزكِّيهم، والتزكية تتضمَّن معنيَيْن:

معنى التطهير من أرجاس الجاهلية ومعايبها وحقائقها.

والمعنى الثاني: أن ينمِّي شخصيتهم بالتوحيد بدل الشرك، والعقل بدل الخيال، والعلم بدل الجهل، والعز بدل الذِّل... إلخ.

٣ ـ وأن يعلِّمهم الكتاب والحكمة، والكتاب هو ما أنزله الله من السماء إلى الرسول ممَّا يدعو إلى الخير، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويحقِّق العدل والتوازن في الأرض.

وأن يعلمهم الحكمة. والحكمة حكمتان: علمية، وعملية.

فالعلميَّة: الاطلاع على بواطن الأشياء، ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبَّباتها خَلْقًا وأمرًا وقدرًا، أو شرعًا.

والعملية: وضع الشيء في موضعه.

فمن مهامِّ الرسول: أن يُعرِّف كيف تتنوَّر العقول بنور الحكمة، وتنشرح الصدور للحق، وتهتدي إلى الخير، وتتفتح للجمال.

٤ ـ وأن يُعلِّم الناس ما لم يكونوا يعلمون، بما يجيء به الدين من فوق سبع سماوات، من عقائد وشرائع، وأخلاق وآداب وفضائل. يعلِّم الناس مكارم الأخلاق، ويفتح لهم أبواب الفضائل والخيرات في كل مجال، علمي أو عملي، مادي أو معنوي، يحتاج إليه الناس في دنياهم أو آخرتهم.

وقد بيَّن القرآن في آيات أخرى مهمة النبي ﷺ مع الناس، منها في سورة البقرة، في قصة إبراهيم، ودعائه هو وابنه إسماعيل لذريتهما: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ١٢٩]. وهي تتضمن المعاني الأربعة التي ذكرناها في الآية السابقة.

ومثل ذلك ما جاء في سورة آل عمران: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وكذلك ما أنزله في سورة الجمعة، حيث يقول سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾ [الجمعة: ٢ ـ ٤].

فقد نطقت هذه الآيات كلها بمهمة الرسول الكريم مع الأمة التي بعثه الله لها، فهو ليس مجرَّد ناقل، بل جاء برسالة عليه أن يبلغ آياتها، ويزكّي أهلها بالتطهير والتنمية، ويقوم بتعليمهم كتاب الله، وتلقينهم الحكمة، بعد الضلال الذي سيطر على العقول والأنفس والأخلاق والحياة، فتنشأ نتيجة مهمته هذه أنفس وقلوب تخشى الله تعالى في سرّها وعلانيتها، وتخشى الدار الآخرة وحسابها.

هذا وقد ذكرت بعض جوانب من أخلاقه ﷺ عند حديثي عن وسائل الإسلام في تحقيق الأهداف الأخلاقية في فصل: أسوة حسنة للبشر. لكن أحب هنا أن أنقل ما قال آخر شيوخ الإسلام في الدولة العثمانيَّة مصطفى صبري التُّوقادي (ت١٣٧٣هـ) رحمه الله: «وكون نبيِّنا محمد خاتمَ النَّبيين، يقتضي أن يكون جامع الفضائل، ومتمِّم مكارم الأخلاق، وأن تكون تلك الفضائل الجامعة والمكارم الشاملة مأثورة عنه محفوظة؛ إذ لا يأتي بعده نبيٌّ آخر يتمُّها، ويصلح ما فسد منها؛ فيلزمُ أن يكون نبينا ﷺ ممتازًا على أسلافه الكرام؛ بجمع أسبابِ العظمة في نفسهِ، وانتقالِ أنبائه وأحاديثِهِ محفوظةً بحفظ الله تعالى إلى أمته التي بعث إليها، وهي كافَّةُ الناسِ الموجودين فيما بين بعثته وقيامِ الساعة»[1].

وقال شيخنا محمد الغزالي رحمه الله: «قيل لعالم مسلم: هل قرأتَ أدب النفس لأرسطو؟ فقال: بل قرأتُ أدب النفس لمحمد بن عبد الله ﷺ! لقد قرأنا أدب النفس لأرسطو وأمثاله من الفلاسفة، وقرأنا أدب النفس لمحمد بن عبد الله ﷺ، فوجدنا ما تخيَّله الأولون واصطنعوا له بعد العناء صُوَرًا بعضها كامل وبعضها منقوص؛ وجدناه قد تحوَّل إلى حقائق حيَّة تجسَّد فيها الكمال، وأضحى سيرةَ رجل، وأدبَ أمَّة، وشعائر دين ضخم! ذلكم هو أدب النفس لمحمد بن عبد الله ﷺ!»[2].

---

(١) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، لمصطفى صبري (٤/ ٥٨).

(٢) خلق المسلم، لمحمد الغزالي ص٥ ـ ٦.

دلائل أخلاقه على ثبوت نبوته:

المتأمل في أخلاقه وصفاته النفسيَّة وكمالاته وسيرته وتربيته لأصحابه وحب أصحابه له، ﷺ، يجد كلًا منها دليلًا على نبوته.

فصدق الرسول عليه الصلاة والسلام وأمانته وأخلاقه، هي التي دفعت الناس إلى الإيمان برسالته ﷺ.

يقول ابن حزم: «إن سيرة محمد ﷺ لِمَن تدبَّرها تقتضي تصديقَه ضرورةً، وتشهد له بأنه رسولُ الله ﷺ حقًّا، فلو لم تكن له معجزةٌ سوى سيرته ﷺ لكفى..»[1].

يقول العلامة سعد الدين التفتازاني: «وأما الاستدلال على نبوة محمد بما شاع من أخلاقه وأحواله فهو عائد إلى المعجزة»[2].

ويقول الإمام أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: «اعلم أنَّ من شاهد أحواله ﷺ، وأصغى إلى سماع أخباره المشتملة على أخلاقه وأفعاله وأحواله وعاداته وسجاياه، وسياسته لأصناف الخلق، وهدايته إلى ضبطهم، وتألفه أصناف الخلق، وقوده إياهم إلى طاعته، مع ما يُحكَى من عجائب أجوبته في مضايق الأسئلة، وبدائع تدبيراته في مصالح الخلق، ومحاسن إشاراته في تفصيل ظاهر الشرع، الذى يعجز الفقهاء والعقلاء عن إدراك أوائل دقائقها في طول أعمارهم؛ لم يبقَ له ريب ولا شك في أن ذلك لم يكن مكتسَبًا بحيلة تقوم بها القوة البشرية، بل لا يُتصوَّر ذلك إلا بالاستمداد من تأييد سماوي وقوة إلهية، وأن ذلك كله لا يتصور لكذَّاب ولا مُلَبِّس، بل كانت شمائله وأحواله شواهد قاطعة بصدقه، حتى إن العربي القُحَّ كان يراه فيقول: والله ما هذا وجه كذاب. فكان يشهد له بالصدق بمجرد شمائله، فكيف مَن شاهد أخلاقه ومارس أحواله في جميع مصادره؟!

فأَعْظِمْ بغباوة من ينظر في أحواله، ثم في أفعاله، ثم في أخلاقه، ثم في معجزاته، ثم في استمرار شرعه إلى الآن، ثم في انتشاره في أقطار العالم، ثم في إذعان ملوك الأرض له في عصره وبعد عصره، مع ضعفه ويتمه، ثم يتمارى

---

(١) الفِصَل في الملل والأهواء والنحل (٢/ ٣٧).

(٢) شرح المقاصد (٢/ ١٣٣).

بعد ذلك في صدقه!!»[1].

وهذا ما ذهب إليه الأديب المنفلوطي حين قال: «إن في أخلاق النبي ﷺ وسجاياه ـ التي لا تشتمل على مثلها نفس بشرية ـ ما يغنيه عن خارقة تأتيه من الأرض أو السماء، أو الماء أو الهواء، إن ما كان يبهر العرب من معجزات علمه وحلمه، وصبره واحتماله، وتواضعه وإيثاره، وصدقه وإخلاصه أكثر مما كان يبهرهم من معجزات تسبيح الحصى، وانشقاق القمر، ومشي الشجر، ولين الحجر؛ وذلك لأنه ما كان يريبهم في الأولى ما كان يريبهم في الأخرى، من الشبه بينها وبين عرافة العرافين، وكهانة الكهنة، وسحر السحرة، فلولا صفاته النفسية وغرائزه وكمالاته، ما نهضت له الخوارق بكل ما يريده، ولا تركت له المعجزات في نفوس العرب ذلك الأثر الذي تركته؛ ذلك هو معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾»[2].

وقال شيخ الأزهر محمد الخضر حسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الباحث في السيرة على بصيرة، ليجد في كل حلقة من سلسلة حياته معجزة، ولو استطعت ـ ولا إخالك تستطيع ـ أن تضعها في كِفَّة، ثم تعمد إلى سيرة أعظم رجل تحدث عنه التاريخ، فتضعها في الكِفة الأخرى، لعرفتَ الفرق بين من وَقَف في كماله عند حدٍّ هو أقصى ما يبلغه الناس بذكائهم وحزمهم، وبين من تجاوز ذلك الحد بمواهبه الفطرية، وبما خصه الله به من معارف غيبية وحكم قُدُسِيَّة»[3].

ويقول الأديب الفقيه الأستاذ علي الطنطاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كانت سيرة حياته ﷺ كلها معجزة، عجز عظماء العالم جميعًا عن أن يتركوا لهم سيرةً مثلها... في كل ناحية منه عزة وعظمة، في قوة جسده، وتكوينه الرياضي. في روحه الرياضية، لا يستخفه النصر حتى يبطره، ولا تزلزله الهزيمة حتى تثير غضبه، أو تذهب بعزمه، في ثباته في المعامع الحُمر، حتى كان أبطاله الصحابة يحتمون به، وفى شجاعته التي تَضعْضَعَ أمامها صناديد الرجال، وفى تواضعه للمسكين والفقير، ووقوفه للأرملة والعجوز، في إقراره الحق، في صدق التبليغ عن الله، حتى إنه بلغ الآيات التي نزلت في تخطئته وفى عتابه، في احترامه العهود وحفاظًا على كلمته، مهما كلَّفه الحفاظ عليها من مشقة ونَصَب، سواء عنده في

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٤٧٩ ـ ٤٨٤) بتصرف.

(٢) الأعمال الكاملة لمؤلفات المنفلوطي ص١٣١ ـ ١٣٣.

(٣) هدى ونور ص٤٥.

ذلك معاملاته الشخصية وشؤون الدولة، وفى ذوقه وحسّه المرهف، وأنه هو الذي سنَّ آداب الطعام، وقرَّر قواعد النظافة في وضعه مع أصحابه، إذ يعلِّمهم ويعمل معهم، ويعيش مثلما يعيشون، ويستشيرهم، ويسمع منهم، ويجلس حيث يجد المكان الفارغ في آخر المجلس، حتى كأنَّ القادم عليه ليراه، ينظر في وجوه القوم فيقول: أيكم محمد؟[1]»[2].

أحاديث في الدعوة إلى التَّحلي بحسن الخلق:

وأسوق هنا بعض الأحاديث المرغِّبة في حسن الخلق:

عن النوَّاس بن سمعانَ الأنصاري ﷺ، قال: سألتُ رسول الله ﷺ عن البرِّ والإثم، فقال: «**البرُّ حسنُ الخلق، والإثمُ ما حاكَ في صدرِكَ، وكرهْتَ أن يطّلِعَ عليهِ الناسُ**»[3].

وعن عبد الله بن عمرو ﷺ: أن رسول الله ﷺ لم يكن فاحشًا ولا متفحّشًا، وكان ﷺ يقول: «**إنَّ من خياركم أحسنكم أخلاقًا**»[4].

وعن أبي ثعلبة الخُشَني ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ أحبَّكم إليَّ، وأقربَكم مني في الآخرة: محاسنُكم أخلاقًا، وإنَّ أبغضَكم إليَّ، وأبعدكم مني في الآخرة: مساوئكم أخلاقًا، الثَّرثارون المُتَفَيْهِقون المتشدِّقون**»[5].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنُهم خُلُقًا، وخيارهم خيارهم لنسائهم وألطفُهم بأهلِهِ**»[6].

وعن سهل بن سعد الساعدي ﷺ: أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**إن الله**

---

(١) جزء من حديث رواه البخاري في العلم (٦٣) بلفظ: قال أنس بن مالك: بينما نحن جلوس مع النبي ﷺ في المسجد، دخل رجل على جمل، فأناخه في المسجد ثم عقله، ثم قال لهم: أيكم محمد؟.

(٢) تعريف عام بدين الإسلام، ص١٨٤.

(٣) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٥٣)، وأحمد (١٧٦٣١)، والترمذي في الزهد (٢٣٨٩).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في المناقب (٣٥٥٩)، ومسلم في الفضائل (٢٣٢١).

(٥) رواه أحمد (٦٧٣٥) وقال مخرِّجوه: إسناده حسن، والترمذي في البر والصلة (٢٠١٨) وقال: هذا حديث حسن غريب، وابن حبان في حسن الخلق (٤٨٢) وقال الأرناؤوط: رجاله ثقات على شرط مسلم، إلا أن مكحولًا لم يسمع من أبي ثعلبة، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٤٦): رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح، وكذا قال المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٢٧٧).

(٦) رواه أحمد (٧٤٠٢) وقال مخرِّجوه: حديث صحيح، والترمذي في الرضاع (١١٦٢) وقال: حسن صحيح.

كريم يحبُّ الكرم، ويحبُّ معاليَ الأخلاق، ويكرهُ سفسافَها»[1].

فالأخلاق الحسنة الفاضلة الكاملة إنما تُستقى من كتابِ الله الكريم، والسنةِ المطهّرة، والسيرةِ النبويَّة العاطرة. وما أحسن قول الشاعر:

ومكارمُ الأخلاقِ أنتَ مِلاكُها   وأتمُّها أخلاقُك الحسناءُ!

ومن مصادر الأخلاق الحسنة أيضًا سِيَر الخلفاء الراشدين، ومناقب الصحابة الكرام، ومن تبعهم بإحسان من السلف الصالح، ومن أقوال المربِّين الناصحين.

من كلام السلف في الحث على حسن الخلق والتحذير من سيئه:

قال الفضيل بنُ عياض (ت١٨٧هـ): إذا خالطتَ فخالطْ حَسَن الخُلُق؛ فإنه لا يدعو إلا إلى خير، وصاحبه منه في راحة، ولا تخالط سيِّئَ الخُلُق؛ فإنه لا يدعو إلا إلى شرٍّ، وصاحبه منه في عناء[2].

وقال الإمام الجنيد البغدادي (ت٢٩٨هـ): لأنْ يصحبَني رجل فاسق حسن الخلق أحبُّ إليَّ من أن يصحبني رجل عابد أو قارئ سيئ الخلق؛ إن الفاسقَ إذا حسُنَ خُلُقه خفَّ على الناس وأحبُّوه، والعابد أو القارئ إذا ساء خُلُقه ثقُلَ عليهم ومقتوه![3].

وحصر الواعظ الزاهد الحارث المحاسبي البصري (ت٢٣٤هـ) حسن الخلق في أربعة أمور فقال: «حُسن الخلق: احتمال الأذى، وقلة الغضب، وبسْط الوجه، وطيب الكلام»[4].

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٦/ ١٨١)، والأوسط (٢٩٤٠)، والحاكم في الإيمان (١/ ٤٨) وقال: صحيح الإسناد، وقال الذهبي: تفرد به أحمد بن يونس، وعِلّته أن ابن المبارك رواه عن الثوري عن أبي حازم عن طلحة ابن كريز مرسلًا، والبيهقي في الشهادات (١٠/ ١٩١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٦٨٧): رواه الطبراني في الكبير والأوسط بنحوه إلا أنه قال: «يحب معالي الأخلاق». ورجال الكبير ثقات، وصحّحه الألباني في الصحيحة (١٣٧٨).

(٢) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، لابن حبان ص٤٩.

(٣) روضة العقلاء، لابن حبان ص٤٩.

(٤) رسالة المسترشدين، مقدمة العلامة المحقّق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ص٦٣.

الفصل الثاني

منزلة الأخلاق في الإسلام

الإسلام رسالة أخلاقيَّة

جَرَتْ عادة الباحثين في رسالة الإسلام أن يقسِّموه إلى شُعَب أربع كبرى: عقائد، وعبادات، ومعاملات ـ وبعضهم يعبِّر عنها بـ (تشريعات) ـ وأخلاق. وربما أوهم تأخير شُعبة الأخلاق: أنها آخر ما يهتمُّ به الإسلام، وأنها لا ترقى إلى مستوى الشُّعَب الأخرى.

والحقيقة التي تتجلَّى لمن يتدبَّر الإسلام في آيات كتابه وسُنَّة نبيِّه، ويتأمَّل نصوصها وروحها، ويفهم ألفاظَها ومقاصدَها: أنَّ الإسلام كلَّه يكاد يكون في جوهره رسالة أخلاقيَّة، بل من الناس مَنْ يجترئ ويقول: هو رسالة أخلاقية. بكلِّ ما تحمله هذه الكلمة من عُمق وشمول، ولا غرْوَ أن تكون (الأخلاقيَّة) خِصِّيصة من خصائصه العامة. كما بيَّنَّا ذلك حين كتبنا كتابنا: **(مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية)**، فجعلنا من خصائص هذه الشريعة الأساسية: الأخلاقيَّة، مع الربَّانيَّة والإنسانيَّة والواقعية وغيرها من الخصائص.

وليس ذلك لمُجرَّد أنَّ الإسلام حثَّ بقوَّة على الفضائل، وحَذَّر بقوَّة من الرذائل، ووصل في هذا وذاك إلى أعلى درجات الإلزام، ورتَّب على ذلك أعظم مراتب الجزاء ثوابًا وعقابًا في الدنيا والآخرة.

وليس ذلك أيضًا لمُجرَّد أن الإسلام عُنِيَ بالأخلاق عناية بالغة، حتى إن القرآن حين أثنى على الرسول محمد ﷺ لم يجد أبلغ ولا أرفع من قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤].

وحتى إن الرسول ﷺ ـ كما تقدم ـ ليلخِّص الهدف من رسالته، فيقول في

إيجاز بليغ: «إنما بعثتُ لأتمّم مكارم الأخلاق»(١).

ليست (الأخلاقيَّة) من خصائص الإسلام لمجرَّد هذا وذاك، ولكن الأخلاقيَّة تسري في كيان الإسلام كلِّه، وفي تعاليمه كلِّها، حتى في العقائد والعبادات والمعاملات، وتدخل في السياسة والاقتصاد، والسلم والحرب.

الإيمان والأخلاق

العقائد الإسلامية أساسها التوحيد، وضده الشرك.

والإسلام يُضفي على التوحيد صِبغة خُلُقية، فيعتبره من باب العدل، وهو فضيلة خُلُقية، كما يعتبر الشرك من باب الظلم، وهو رذيلة خلقية، يقول تعالى على لسان لقمان الحكيم: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ١٣﴾ [لقمان: ١٣]. وذلك لأنه وضْعٌ للعبادة في غير موضعها، وتوجُّهٌ بها إلى مَن لا يستحقها.

بل اعتبر القرآن الكفر بكلِّ أنواعه ظُلْمًا، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٥٤﴾ [البقرة: ٢٥٤].

والإيمان الإسلامي حين يتكامل ويُؤتي أُكُلَه، يَتَجسَّد في فضائل أخلاقيَّة فاضت بها آيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ.

نقرأ في القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ٨﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٨].

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤].

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ١٥﴾ [الحجرات: ١٥].

---

(١) سبق تخريجه ص١٢.

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ۝٦٣ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ۝٦٤ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ۝٦٦ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ۝٦٧ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ۝٦٨﴾ [الفرقان: ٦٣ ـ ٦٨].

والأحاديث النبويَّة كذلك تربط الفضائل الأخلاقيَّة بالإيمان، وتجعلها من لوازمه وثمراته:

يقول رسول الله ﷺ: «مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصلْ رحمه، ومَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذِ جاره، مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقُلْ خيرًا أو ليصمت»[(١)].

«الإيمان بضع وستون شعبة، أعلاها: لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق. والحياء شعبة من الإيمان»[(٢)].

«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»[(٣)].

«الإيمان قيد الفتك، لا يفتك مؤمن»[(٤)].

الفتك: الغِيلة، وهي القتل مكرًا وخديعة. ويريد النبي ﷺ بذلك أنَّ الإيمان يمنع المؤمن عن الفتك ظلمًا، كما يمنع القَيْدُ الدابةَ عن الحركة، والمقيَّدَ عن التصرُّفِ.

وقال الشريفُ الرَّضِيُّ (ت٤٠٦هـ) في بيان معنى هذا الحديث: «هذه استعارة، والمراد بذلك: أنَّ الإنسانَ المؤمنَ يمتنع لأجل إيمانه أن يسفك الدَّمَ الحرام؛ طاعةً لأمرِ الحَمِيَّة، وركوبًا لسنن الجاهلية؛ فكأنَّ إيمانه قيَّدَ فتكَهُ

(١) رواه البخاري في الأدب (٦١٣٨)، عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥)، كلاهما في الإيمان، عن أبي هريرة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في المظالم والغصب (٢٤٧٥)، ومسلم في الإيمان (٥٧)، عن أبي هريرة.

(٤) رواه أبو داود في الجهاد (٢٧٦٩)، والحاكم في الحدود (٤/ ٣٥٢) وقال: على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، عن أبي هريرة، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٨٠٢).

وتَمَاسَكَهُ وضبط تهالُكه»[1].

مما قاله العلماء في الربط بين الإيمان والخلق:

قال سلطان العلماء العزُّ بن عبد السلام رحمه الله تعالى: «تُقى التقيّ يَزَعُهُ عن العصيان، وفجورُ الفاجرِ يوقعُهُ في الإثم والعدوان!»[2].

وقال الأستاذ الكبير أديب الفقهاء وفقيه الأدباء علي الطنطاوي رحمه الله تعالى: «ومهما أوردوا من نظريات في علم الأخلاق "la moral"، وفي الأساس الذي تبنى عليه؛ فإن الأخلاق إذا لم تُبْنَ على أساس من العقيدة، كان بناؤها على كثِيب من الرَّمْل؛ لأنَّ الإنسان مفطور على حبِّ نفسه، وجلب النفع لها، ودرء الأذى عنها؛ فلا يعمل عملًا لا يكون له فيه لذَّة أو كسب.

ولو أنَّ رجلًا لا يملك إلا دينارًا يدَّخره لعَشائه، ورأى صندوقًا لمساعدة الأيتام، هل يضع الدِّينار في الصندوق ـ إذا كان لا يؤمن بالله واليوم الآخر ـ ويبيت طاويًا، ولا يخبر بذلك أحدًا، ولا يدع أحدًا يراه؟!

أما المؤمن فإنه يضعه في الصندوق؛ لأنه يعلم أن الله يراه ويعطيه بدله سبعمئة دينار يوم القيامة. المؤمن وحده هو الذي يعمل الخير، رآه الناس أم لم يروه، شكروه أم لم يشكروه، أثابوه وعوَّضوه عنه أم لم يثيبوه ولم يعوِّضوه.

المؤمن وحده هو الذي يدع فعل الشر، سواء أكان وحده أم كان مع الناس. أما الذي يعمل الخير للثناء أو للعطاء، فلا يعمله إلا إذا وجد من يُثني عليه ويعطيه. والذي يدع الشرَّ خوفَ الفضيحة أو خشية العقاب، لا يدعه إن أمن أن يبصره الشرطي أو يراه النّاس»[3].

العبادات الإسلامية والأخلاق

والعبادات الإسلامية الكبرى ذات أهداف أخلاقية واضحة.

فالصلاة: وهي العبادة اليوميَّة الأولى في حياة المسلم، لها وظيفة مرموقة في تكوين الوازع الذاتي، وتربية الضمير الديني: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

---

(١) المجازات النبوية، للشريف الرضي ص٢٣٦.

(٢) قواعد الأحكام في إصلاح الأنام (١/ ١٠٣).

(٣) تعريف عام بدين الإسلام لعلي الطنطاوي ص١٤٥ ـ ١٤٦.

والصلاة كذلك مَدَدٌ أخلاقي للمسلم يستعين به في مواجهة متاعب الحياة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ١٥٣].

والزكاةُ: وهي العبادة التي قرنها القرآن بالصلاة، ليست مجرَّد ضريبة ماليَّة، تُؤخذ من الأغنياء، لتُردَّ على الفقراء، إنَّها وسيلةُ تطهير وتزكية في عالم الأخلاق، كما أنَّها وسيلةُ تحصيل وتنمية في عالم الأموال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

والصيامُ في الإسلام: إنَّما يُقصد به تدريبُ النفس على الكفِّ عن شهواتها، والثورة على مألوفاتها. وبعبارة أخرى: الصوم يهيِّئ النفس (للتقوى)، وهي جماع الأخلاق الإسلامية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة: ١٨٣].

والحجُّ في الإسلام: تدريبٌ للمسلم على التَّطهُّر والتَّجرُّد والترفُّع عن زخارف الحياة وترفها، وخصامها وصراعها، ولذا يُفرض في الإسلام (الإحرام)، ليدخل المسلم حياةً قوامها البساطة والتواضع، والسلام والجديَّة، والزهد في مظاهر الحياة الدنيا: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وحين تفقد هذه العبادات الإسلامية هذه المعاني، ولا تُحقِّق هذه الأهداف، تفقد بذلك معناها وجوهر ومهمتها، وتصبح جُثَّةً بلا روح، ولا غرو أن جاءت الأحاديث النبويَّة الشريفة تؤكد ذلك بأسلوب بليغ واضح.

فتقول عن الصلاة: «كم من قائم ـ أي الليل بالتهجد ـ ليس له من قيامه إلا السهر»[(١)].

وعن الصيام: «من لم يَدَعْ قولَ الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يَدَع طعامه وشرابه»[(٢)]. «كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوعُ والعطش»[(٣)].

---

(١) رواه أحمد (٨٨٥٦)، وقال مخرِّجوه: إسناده جيد، وابن ماجه (١٦٩٠) في الصوم، والحاكم (١/ ٤٣١) في الصوم وقال: على شرط البخاري، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٥٨٠١)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه البخاري في الصوم (١٩٠٣)، وأحمد (٩٨٣٩)، وأبو داود (٢٣٦٢)، والترمذي (٧٠٧)، وابن ماجه (١٦٨٩) ثلاثتهم في الصيام، عن أبي هريرة.

(٣) رواه أحمد (٨٨٥٦)، وقال مخرِّجوه: إسناده جيد، وابن ماجه في الصوم (١٦٩٠)، والحاكم =

الأخلاق والاقتصاد

للأخلاق الإسلاميَّة عملها وتأثيرها في شئون المال والاقتصاد، سواء في ميدان الإنتاج، أم التداول، أم التوزيع، أم الاستهلاك[1].

فليس الاقتصاد أن ينطلق الإنسان كما يشاء، بلا حدود أو قيود، دون ارتباط بقيم، ولا تقيُّدٍ بمُثُل عُليا، كما هي دعوة بعض الاقتصاديين للفصل بين الاقتصاد والأخلاق.

ليس للمسلم أن يُنتج ما يشاء، لو كان ضارًا بالناس، ماديًا أو معنويًا، وإن كان يستطيع هو أن يُحَصِّل من وراء هذا الإنتاج أعظمَ الأرباح، وأكبر المنافع.

إنَّ المسلم مُقيَّد بالإيمان والأخلاق في كل نشاط اقتصادي يقوم به: في كسبه إذا اكتسب المال، وفي تنميته إذا نمَّاه، وفي إنفاقه إذا أنفقه.

والمجتمع المسلم ليس حرًّا طليق العِنان في إنتاجه لأنواع الثروة أو توزيعها، أو تداولها أو استهلاكها، إنه مقيَّد بقيود العقيدة والمُثُل الأخلاقيَّة العليا، بجوار تقيده بقانون الإسلام وأحكامه التشريعيَّة.

ولنضرب لذلك بعض الأمثلة:

(أ) - إنَّ زراعة التبغ (الدخان) أو «الحشيش» ونحوه من المواد المخدرة أو الضارّة، قد يكون فيها مكسب ماديٌّ كبير، وقد يَجْني من ورائها الملايين أو البلايين، ولكن الإسلام ينهاه أن يكون كسبه ونفعه من وراء خسارة غيره وضرره. ما قيمة أن تكسب أنت وجماعتُك الملايين أو المليارات، في حين تدمِّر شعبًا كاملًا، شبابَه ونساءَه، وقاعدةَ بنائه؟

(ب) - وإنَّ تصنيع الأعناب ليصبح عصيرُها خمرًا، يجلب أرباحًا وفيرة، ويحقق منافع اقتصادية للمُنتجين من أصحاب الكُرُوم، ولكن الإسلام أهدرَ هذه المنافع المادية في مقابل المضارِّ المعنوية الضخمة، التي تترتَّب على الخمر في

= في الصوم (١/ ٤٣١)، وقال: على شرط البخاري، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٥٨٠١)، عن أبي هريرة.

(١) ينظر: «مبحث اقتصاد أخلاقي» فيما كتبته في كتابي: «دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي» ص٥٧ - ٦٢.

العقول والأبدان والأخلاق، وتتمثل فسادًا في الأفراد والأسر والجماعات، اشتكى منه عقلاء البشر في سائر الأطوار.

(ج) ـ ومثل الخمر: الميسر (القمار)، ففيه بعضُ المنافع العاجلة أيضًا، كالتسلية وشغل الفراغ، والشعور بنشوة المجازفة، وتوقُّع الكسب من غير تعب، ولكن القرآن لم يعبأ بهذه المنافع الشخصيَّة، مقابل أضراره على نفسيَّة المقامر وخُلُقه وسلوكه، وتعوُّده الكسب من غير جهد، وأكل أموال الناس بالباطل، وعيشه على أوهام الحظ والمصادفة العمياء، وهوان كلِّ قيمة، وكل عزيزٍ عليه، بعد إدمان هذا الأمر، حتى إنه ليبيع قوت أولاده فيه، ويُجيع أسرتَه، بل يخون دينه ووطنه من أجله، فضلًا عما يجلبه القمار من عداوة وبغضاء بين اللاعبين، وصده عن ذكر الله وعنِ الصلاة عماد الدين.

وفي هذين الأمرين يقول القرآن الكريم: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾ [البقرة: ٢١٩].

ولم يكتفِ الإسلام بتحريم تناول الخمر، بل حرَّم كل ما يعين على تناولها، فعاصرها وحاملها وبائعها وشاربها وآكل ثمنها، وكل من أسهم بجهد فيها ملعونون على لسان محمد ﷺ[1].

(د) ـ يمكن للمسلم أن يكسب من وراء السياحة الآثمة، التي تروج فيها الدعارة والاتِّجار بالشذوذ والمُخدِّرات، ونحوها الكثير الكثير، ويجمع الكنوز من وراء تسويق الفجور، ولكنَّ الإسلام يرفض هذا، كما رفض حجَّ المشركين إلى مكة مع ما فيه من مكاسب لأهلها.

لقد ظلَّ المشركون من العرب يحجُّون إلى البيت الحرام بمكة إلى السنة التاسعة من الهجرة، وكان لهم في حجهم تقاليد غريبة، كطوافهم بالبيت عرايا؛ لئلَّا يمسَّ أجسادَهم شيءٌ من الملابس التي دنسوها بالمعاصي ـ هكذا زعموا ـ ولكن النبي ﷺ طهَّر بيت الله من أرجاس الوثنية وتقاليدها، فبعث عليًّا إلى أبي

(١) إشارة إلي الحديث: «لعن الله الخمر، ولعن شاربها وساقيها، وعاصرها ومعتصرها، وبائعها ومبتاعها، وحاملها والمحمولة إليه، وآكل ثمنها». رواه أحمد (٥٧١٦) وقال مخرِّجوه: حديث صحيح بطرقه وشواهده، وأبو داود (٣٦٧٤)، وابن ماجه (٣٣٨٠) كلاهما في الأشربة، وصحَّحه الألباني في مشكاة المصابيح (٢٧٧٧)، عن ابن عمر.

بكر الصدِّيق في السنة التاسعة، كي يُعلن في الناس يوم الحج الأكبر أن لا يحجَّ بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عُريان[1].

ولا شك أن منع حج الألوف وعشرات الألوف إلى الكعبة خسارة اقتصادية كبيرة على المسلمين، ولكن عليهم أن يتحمَّلوا ذلك في سبيل إيمانهم.

وفي هذا يقول القرآن الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [التوبة: ٢٨].

ومن هذا المثل يتبيَّن لنا أنه لا يحلُّ للمسلمين في سبيل تنشيط السياحة وكسب العملات الصعبة، أن يبيحوا الخمور، ويقيموا دور الرقص والفجور، وإن خافوا عَيْلَة، فسوف يغنيهم الله من فضله إن شاء.

(هـ) ـ ولا شك أن استمرار الناس يبيعون ويشترون في كل وقت فيه كسب خاصٌّ لهم، وإنعاش للحركة الاقتصادية على العموم، ولكن القرآن يأمر المؤمنين في يوم الجمعة، إذا سمعوا النداء: أن يوقفوا دولاب العمل، ويعطِّلوا كل بيع أو شراء؛ ليسعوا إلى ذكر الله، وأداء فرضه الأسبوعي، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الجمعة: ٩]. ومثل البيع: الإجارة وغيرها من العقود.

كما ندَّد القرآن في الوقت نفسه بالذين يُشغلون عن فرض الصلاة بمقدم تجارة وما إليها، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾ [الجمعة: ١١].

(و) ـ وليس للمسلم **في ميدان التبادل** أن يتَّخذ بيع الخمر أو الخنزير أو الميتة أو الأصنام: تجارةً. أو يبيع شيئًا لمن يعلم أنه يستعمله في شرٍّ أو فساد أو ضرر بالآخرين، كالذي يبيع عصير العنب ـ أو العنب نفسه ـ لمن يعلم أنه يتَّخذه خمرًا، أو يبيع السلاح ممَّن يعلم أنه يقتل به بريئًا، أو يستخدمه في ظلم وعدوان.

---

(١) رواه البخاري في الصلاة (٣٦٩)، عن أبي هريرة.

وفي الحديث: «إنَّ الله إذا حرَّم شيئًا حرَّم ثمنه»[1].

وليس للمسلم أن يحتكر الطعام، ونحوه ممَّا يحتاج إليه الناس رغبةً في أن يقل عَرْضُه، ثم يبيعه بأضعاف ثمنه.

وفي الحديث الصحيح: «لا يحتكر إلا خاطئ»[2]. أي: آثم. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾ [القصص: ٨]. أي: آثمين.

وليس للتاجر المسلم أن يُخفيَ مساوئ سلعته وعيوبها، ويبرز محاسنها مُضخمَّة مُكبَّرة، على طريقة الدعاية الإعلاميَّة المعاصرة، التي استنَّها الغربيون، وقلَّدها المسلمون، ليبذل المشترون المَخدُوعون فيها الثمن أكثر مما تستحق، فهذا غشٌّ يبرأ منه الإسلام، ورسول الإسلام ﷺ قال: «مَن غشَّنا فليس منا»[3].

(ز) ـ وفي **مجال التوزيع والتملُّك**، لا يجوز للمسلم أن يتملك ثروة من طريق خبيث، ولا يحلُّ له تنمية ملكه بطريق خبيث كذلك، لهذا حرَّم الله الربا، والمَيْسر، وأكلَ أموال الناس بالباطل، والظلمَ بكلِّ صوره، والضَّررَ بكلِّ ألوانه.

(ح) ـ وفي **مجال الاستهلاك**، لم يَدَع الإسلام للإنسان حَبْله على غاربه، يُنفق كيف يشاء، ولو آذى نفسه أو أسرته أو أمَّته، بل قيَّده بالاعتدال والتوسط، فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء: ٢٩]. ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأعراف: ٣١].

وحَمَل على الترف والمُترفين، وحرَّم كل ما هو من مظاهر الترف، مثل أواني الذهب والفضة، فحرَّمها على الرجال والنساء جميعًا، كما حرم على الرجال لُبس الذهب والحرير[4].

---

(١) رواه أحمد (٢٦٧٨)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح، وأبو داود في الإجارة (٣٤٨٨)، وابن حبان في البيوع (٤٩٣٨)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح، وصحَّحه الألباني في غاية المرام (٣١٧)، عن ابن عباس.

(٢) رواه مسلم في المساقاة (١٥٩٨)، وأحمد (١٥٧٥٨)، وأبو داود في الإجارة (٣٤٤٧)، عن معمر بن عبد الله.

(٣) رواه مسلم في الإيمان (١٠١)، وأحمد (٧٢٩٢)، وأبو داود (٣٤٥٢)، والترمذي (١٣١٥)، وابن حبان (٤٩٠٥)، ثلاثتهم في البيوع، عن أبي هريرة.

(٤) إشارة إلى حديث: «إن نبي الله ﷺ أخذ حريرًا، فجعله في يمينه، وأخذ ذهبًا فجعله في شماله، =

تنويه بعض الأجانب بأخلاقيَّة الاقتصاد الإسلامي:

وبهذا تميَّز الاقتصاد الإسلامي بهذه الخصيصة العظيمة من خصائصه: أنه «**اقتصاد أخلاقي**»، وقد لمح بعض الدارسين الأجانب هذه المَيْزة في الاقتصاد الإسلامي، وكيف أنه مزج بين الاقتصاد والأخلاق، على حين فرَّق بينهما الاقتصاد الرأسمالي والشيوعي.

يقول الكاتب الفرنسي (جاك أوستروي) في كتابه عن (**الإسلام والتنمية الاقتصاديَّة**)[1]: «الإسلام هو نظام الحياة التطبيقية، والأخلاق المثالية الرفيعة معًا، وهاتان الوجهتان مترابطتان لا تنفصلان أبدًا، ومن هنا يمكن القول: إنَّ المسلمين لا يقبلون اقتصادًا (علمانيًّا)، والاقتصاد الذي يستمدُّ قوته من وحي القرآن يصبح ـ بالضرورة ـ اقتصادًا أخلاقيًّا.

وهذه الأخلاق تقدر أن تعطي معنى جديدًا لمفهوم (القيمة)، وتملأ الفراغ الفكري الذي يوشك أن يظهر من نتيجة (آلية التصنيع).

لقد استنكر (بركس) النتائج المؤذية لنمو حضارة (الجنس) في الغرب، ويقلق الاقتصاد اليوم من سيطرة (قِيَم الرغبات) على القيَم الحقيقية.

والآن بدأ الغرب يَعِي النتائج المؤذية من جرَّاء مفاوضات عالميَّة لعالَم غير مستقرٍّ... فلقد وجد الرجلُ نفسه مفصولًا عن عمله، فالآلة أصبحت السيِّد، وجاء التطرُّف في وسائل الراحة كالسيارات وغيرها... والاهتمام بالتوافه، ولم يهتم الغرب أبدًا بتخفيف عداء (الآلة) للإنسان، وهي تشكل أفُقًا لقِسْم هامٍّ من الإنسانيَّة.

ولم يغب عن الإسلام الواعي هذا الدرس في متناقضات الغرب، ولكي يقف في مواجهة الغرب ـ مُحققًا في الوقت نفسه وجهته الاقتصاديَّة ـ عمد الإسلام لإدخال قيمه الأخلاقيَّة في الاقتصاد...

وهكذا يُخضِع العناصرَ الماديَّة في الاقتصاد لمتطلبات العدل..

= ثم قال: «إن هذين حرام على ذكور أمتي». رواه أحمد (٩٣٥) وقال مخرِّجوه: صحيح لشواهده، وأبو داود في اللباس (٤٠٥٧)، والنسائي في الزينة (٥١٤٤)، وصحح إسناده النووي في رياض الصالحين (٨٠٦)، وصحَّحه الألباني في مشكاة المصابيح (٤٣٩٤)، عن علي بن أبي طالب.

(١) ترجمة د. نبيل الطويل.

وهذا اللقاء بين الأخلاق والاقتصاد الذي يُلِحُّ عليه (ج. برث) لم يوجد صدفة في الإسلام، الذي لا يعرف الانقسام بين الماديات والروحيات.

وإذا كان اقتران البروتستانتيَّة مع الوثبة الصناعيَّة مزوَّرًا، وإذا كانت الصلة بينهما موضع نقاش، فهذا غير كائن في الإسلام؛ لأنَّ غالبية تشريعه الإلهي تمنع كل تنمية اقتصادية لا تقوم عليها.

وعلى النقل التقليدي السريع لتجربة الغرب: (أعطِ ما لقيصر لقيصر، وما لله لله)[1] يجب ألَّا يخفى استحالة هذا التمييز في الإسلام، وفصل الدين عن الدولة الذي أدخل الفاعلية المادية في الغرب، لا معنى له في الإسلام، حيث لا تولد الفعالية في المجال الفكري وخارجه، بل باستلهام من قوة الإسلام ومن الوحي المُنزَّل[2].

وإذا استقرأنا الواقع التطبيقي، وجدنا أثر هذا الاقتران بين الاقتصاد والأخلاق، واضحًا وعميقًا في تاريخ المسلمين، وخاصة يوم كان الإسلام هو المؤثر الأول في حياتهم والموجِّه الأول لنشاطهم وسلوكهم.

وقد كتبت كتابًا كبيرًا في (**دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي**)[3]، مقتبسًا بعناصره وأدلته من نصوص الشرع، ومصادر الإسلام، فليُرجَع إليه.

الأخلاق والسياسة

وكما ربط الإسلام الاقتصاد بالأخلاق، ربط بها السياسة أيضًا، فليست السياسة الإسلامية سياسة «ميكافيلية»، ترى أن الغاية تبرِّر الوسيلة أيًا كانت صفتها، بل هي سياسة مبادئ وقيم، تلتزم بها، ولا تتخلَّى عنها، ولو في أحلك الظروف، وأحرج الساعات، سواء في علاقة الدولة المسلمة بمواطنيها داخليًا، أم بعلاقتها الخارجية بغيرها من الدول والجماعات.

إنَّ الإسلام يرفض كل الرفض (الوسيلة القذرة)، ولو كانت للوصول إلى

(١) إنجيل لوقا (٢٠/ ٢٥)، ومتى (٢٢/ ٢١).

(٢) عن كتاب (الإسلام والتنمية الاقتصاديَّة) للكاتب الفرنسي جاك أوستروي ترجمة د. نبيل الطويل.

(٣) نشرته مكتبة وهبة بالقاهرة ومؤسسة الرسالة في بيروت، عدة مرات.

(غاية شريفة): فالحديث الصحيح يقول: «إنَّ الله طَيِّبٌ، لا يقبل إلا طيِّبًا»[1]. فالخبيث من الوسائل كالخبيث من الغايات، كلاهما مرفوض، ولا بدَّ من الوسيلة النظيفة للغاية الشريفة.

في علاقة الدولة بمواطنيها يقول الله تعالى مخاطبًا أُولي الأمر من المسلمين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾﴾ [النساء: ٥٨].

فأداء الأمانات ـ بمختلف أنواعها الماديَّة والأدبيَّة ـ إلى مستحقيها، والحُكم بين الناس ـ كل الناس ـ بالعدل: هو واجب الدولة المسلمة مع رعاياها.

ولا يجوز للحاكم المسلم أن يُحابيَ أحدَ أقاربه أو حاشيته أو حزبه، فيولِّيه ما لا يستحق، ويحرم مَن يستحقُّ، والرسول ﷺ يجعل هذا إيذانًا باقتراب ساعة هلاك الأمَّة، فقد سأل رجلٌ الرسولَ يومًا عن الساعة، وهو يخطب، فقال: «إذا ضُيِّعت الأمانة فانتظر الساعة». قيل: وكيف إضاعتها؟ قال: «إذا وُسِّد الأمرُ إلى غير أهله فانتظر الساعة»[2].

كما لا يجوز إسقاط عقوبة مقرَّرة عمَّن يستحقها، لنَسَبه، أو جاهه، أو قُربه من ذوي السلطان، وفي هذا جاء الحديث: «إنما أهلك مَن كان قبلكم: أنهم كانوا إذا سَرَق فيهم الشريف تركوه، وإذا سَرَق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايْم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقتْ لقطعتُ يدها»[3].

إنَّ السياسة الإسلامية في الداخل: يجب أن تكون على أساس العدل والإنصاف، والمساواة بين الجميع في الحقوق والواجبات والعقوبات، وعلى الصدق مع الشعب، ومصارحته بالحقيقة دون تضليل أو تدجيل أو كذب عليه، فإنَّ أحد الثلاثة الذين لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكِّيهم ولهم عذاب أليم: «ملك كذاب» كما أخبر النبي ﷺ[4].

---

(١) رواه مسلم في الزكاة (١٠١٥)، وأحمد (٨٣٤٨)، والترمذي في تفسير القرآن (٢٩٨٩)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه البخاري في العلم (٥٩)، وأحمد (٨٧٢٩)، عن أبي هريرة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٧٥)، ومسلم في الحدود (١٦٨٨)، عن عائشة.

(٤) رواه مسلم في الإيمان (١٠٧)، وأحمد (١٠٢٢٧)، عن أبي هريرة.

وفي علاقة الدولة بغيرها من الدُّوَل: يجب عليها الوفاء بعهودها، وجميع التزاماتها، واحترام كلمتها.

يقول الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [النحل: ٩١ ـ ٩٣].

ففي هاتين الآيتين يأمر الله تعالى باحترام العهود والمواثيق، ويضيفها إليه سبحانه: (عهد الله)، ويُحَذِّر من نقض العهود بعد إبرامها، كفعل تلك المرأة الحمقاء التي تنقض غزلها من بعد إحكامه وقوَّة إبرامه، وينادي بأن تكون المعَاهَدات والاتِّفاقات بين الأمم مَبْنية على الإخلاص وحُسْن النوايا، دون الدَّخَل والغِشِّ، الذي يُقصَد به أن تكون أمة هي أربى وأزْيَد نفعًا من أمة، فتستفيد من المعاهدة على حساب أمة أخرى، وهو ما نشاهده في معاهدات هذا الزمان.

وقد كان النبي ﷺ مثالًا يُحْتَذى به في احترام الاتفاقات، ورعاية العهود، وإن رأى أصحابه فيها أحيانًا ما يعتقدونه إجْحافًا بالمسلمين، كما في صلح الحديبيَّة.

ولما جاء حذيفة بن اليمان وأبوه يريدان أن ينضمَّا إلى جيش المسلمين في غزوة بدر ضدَّ قريش، وكانا قد عاهداهم ألا يحاربا في صفوف المسلمين، رفض النبي ﷺ أن يحاربا معه، وأمرهما بالوفاء قائلًا: «انصرفا، نفي لهم بعهدهم، ونستعين الله عليهم»[1].

وإذا كان بعض الناس يعتقد أنَّ السياسة لا أخلاق لها، فهذا أبعد ما يكون عن سياسة الإسلام، التي تقوم ـ أوَّلَ ما تقوم ـ على العدل والوفاء والصدق والشرف ومكارم الأخلاق.

---

(١) رواه مسلم في الجهاد والسير (١٧٨٧)، وأحمد (٢٣٣٥٤)، عن حذيفة بن اليمان.

الأخلاق والحرب

وإذا كانت تلك هي سياسة الإسلام في السِّلم، فإنَّ سياسته في الحرب أيضًا لا تنفصل عن الأخلاق.

فالحرب لا تعني إلغاء الشرف في الخصومة، والعدل في المعاملة، والإنسانيَّة في القتال وما بعد القتال.

إنَّ الحرب ضرورة تفرضها طبيعة الاجتماع البشري، وطبيعة التدافع الواقع بين البشر، هذا التدافع الذي ذكره القرآن الكريم بقوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠]. ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة: ٢٥١].

ولكن ضرورة الحرب لا تعني الخضوع لغرائز الغضب، والحميَّة الجاهليَّة، وإشباع نوازع الحقد والقسوة والأنانية.

إذا كان لا بدَّ من الحرب، فلتكن حربًا تضْبطها الأخلاق، ولا تُسيِّرها الشهوات، لتكن ضدَّ الطغاة والمعتدين، لا ضدَّ البرآء والمسالمين: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البقرة: ١٩٠]. ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ [المائدة: ٢].

إذا كان لا بدَّ من الحرب، فلتكن في سبيل الله ـ وهو السبيل الذي تعلو به كلمة الحق والخير ـ لا في سبيل الطاغوت، الذي تعلو به كلمة الشر والباطل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء: ٧٦].

لتكن من أجل استنقاذ المستضعفين، لا من أجل حماية الأقوياء المُتسلِّطين: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [النساء: ٧٥].

ولتتقيَّد الحرب بأخلاق الرحمة والسماحة، ولو كانت مع أشدِّ الأعداء شنآنًا للمسلمين وعُتوًّا عليهم.

وإذا كان كثير من قادة الحروب، وفلاسفة القوة، لا يبالون أثناء الحرب بشيء إلا التنكيل بالعدو وتدميره، وإن أصاب هذا التنكيل مَن لا ناقة له في الحرب ولا جمل، فإنَّ الإسلام يوصي ألا يقتل إلا مَن يُقاتِل، ويُحذِّر من الغدر، والتمثيل بالجثث، وقطع الأشجار، وهدم المباني، وقتل النساء والأطفال والشيوخ، والرهبان المنقطعين للعبادة، والمزارعين المنقطعين لحراثة الأرض، ونحوهم من المدنيين العاديين، الذين لا شأن لهم بالحرب، ولا دَوْر لهم فيها.

وفي هذا جاءت آيات القرآن العظيم، ووصايا الرسول الكريم ﷺ وخلفائه الراشدين ﷺ.

ففي القرآن: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ١٩٠﴾ [البقرة: ١٩٠].

وفي السُّنَّة كان النبيُّ ﷺ يُوصي أصحابه إذا تَوجَّهوا للقتال بقوله: «اغزوا باسم الله، وفي سبيل الله، وقاتلوا مَن كفر بالله، اغزوا، ولا تغلُّوا، ولا تغدروا، ولا تمثِّلوا، ولا تقتلوا وليدًا»[(١)].

وكذلك كان الخلفاء الراشدون المهديُّون ﷺ من بعده يُوصون قوادهم: ألا يقتلوا شيخًا، ولا صبيًّا، ولا امرأةً، وألا يقطعوا شجرًا، ولا يهدموا بناء[(٢)].

بل نَهَوهم أن يتعرَّضوا للرهبان في صوامعهم، وأن يَدَعوهم وما فرَّغوا أنفسهم له من العبادة.

يذكر المؤرخون المسلمون: أنَّ الخليفة الأول أبا بكر الصِّدِّيق ﷺ في المعارك الكبرى التي دارت بين المسلمين والإمبراطوريتين المعتديتين: فارس والروم: أُرسِل إليه رأسُ أحد قادة الأعداء من قلب المعركة إلى (المدينة) عاصمة الدولة الإسلامية، وكان القائد يظنُّ أنه يُسرُّ الخليفة بذلك، ولكن الخليفة غضب بهذه الفعلة، لِمَا فيها من المُثلة، والمَسَاس بكرامة الإنسان،

(١) رواه مسلم في الجهاد والسير (١٧٣١)، وأحمد (٢٣٠٣٠)، عن بريدة.

(٢) انظر: الكامل لابن الأثير (١٩٦/٢)، من وصية أبي بكر الصديق لأسامة بن زيد - بتحقيق عمر عبد السلام تدمري، ط. دار الكتاب العربي، بيروت، ط. الأولى ١٩٩٧م.

فقالوا له: إنهم يفعلون ذلك برجالنا، فقال الخليفة في استنكار: آسْتِنانٌ بفارس والروم؟ لا يُحمَل إليَّ رأسٌ بعد اليوم[1].

وبعد أن تضع الحرب أوزارها، يجب ألا يُنسى الجانب الإنساني والأخلاقي في معاملة الأسرى وضحايا الحرب. يقول الله تعالى في وصف الأبرار من عباده: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ [الإنسان: ٨ ـ ٩]. ولا شك أن الأسير الذي يقع في يد المسلم يكون من غير المسلمين[2].

---

(١) رواه سعيد بن منصور في سننه (٢٦٤٩)، وابن أبي شيبة في السير (٣٤٣٠٣).

(٢) ينظر كتابي: فقه الجهاد وفلسفته (١/ ٧٤٣ ـ ٧٨١) الطبعة الثالثة، مكتبة وهبة.

الفصل الثالث

الأهداف والمقاصد الأخلاقيَّة العُليا

للأخلاق ـ أو الخُلُقيَّة الإسلاميَّة ـ أهداف كبيرة وكثيرة، تسعى إلى تحقيقها وتعميقها، وتوسيع نطاقها، والحصول على ثمار ومناهج عملية منها، هي أهداف تتعلق بالوجود كلِّه خالقًا ومخلوقين، وبالزمان كلِّه دنيا وآخرة، وبالمكان كلِّه، سماوات وأرَضِين، وبالحياة كلِّها مادية وروحية، وعقلية وعاطفية.

للخُلقية الإسلامية أهداف كبيرة نسعى إلى تحقيقها وتعميقها، وتوسيع نطاقها، ولا بدَّ لنا هنا أن نتحدَّث ولو عن بعضٍ منها.

١ ـ تحقيق العبوديَّة لله وحده:

أول أهداف الخلُقية أو الأخلاق الإسلامية التي تتميَّز بها عن الأخلاقيات الوضعية: تحقيق العبوديَّة لله وحده، أداءً لشكر نعمته، ووفاءً بحقِّ ربوبيَّته، فهو الذي خلق فسوَّى، والذي قدَّر فهدى، خلق الإنسان في أحسن تقويم، وكرَّمه أيَّما تكريم، وهبه العقلَ، وعلَّمه البيان، وصوَّره فأحسن صورتَه، ونفخ فيه من روحِه، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، وسَخَّر له ما في السماوات وما في الأرض جميعًا منه، وأسبغ عليه نعمه ظاهرةً وباطنة، وأتمَّ له ذلك كلَّه: فبعث له الرسول، وأنزل عليه الكتاب، رحمة مهداة، ونعمةً مسداةً.

فمن حقِّ هذا الربِّ الخالق المنعِم العظيم، أن يأمر وينهى، ويحلِّل ويحرِّم. ومن واجب هذا الإنسان المخلوق، أن يسمع ويطيع امتثالًا لأمر ربِّه، واجتنابًا لنهيه، ووقوفًا عند حدوده.

على أنه تبارك وتعالى لا يأمر إلا بخير، ولا ينهى إلَّا عن شر، ولا يحلُّ إلا طيِّبًا، ولا يُحرِّم إلا خبيثًا.

اقرأ معي قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا

﴿حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [النساء: ٥٨]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: ٩٠].

حقيقة الإيمان:

هو عَقد وميثاق بين المؤمن وربه، يلتزم بموجبه السَّيرَ على صراطه المستقيم، الذي رسمه له، والوقوفَ عند حدوده التي حدَّها أمرًا ونهيًا، فلا يتعدَّاها.

لهذا يذكِّر الله المؤمنين بهذا الموثِق فيقول: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾ [المائدة: ٧].

ولهذا يسأل المؤمن ربه كل يوم سبع عشرة مرة في صلواته الخمس المفروضة، فضلًا عن غيرها: أن يهديَه طريقه المستقيم، الذي لا عِوَج فيه ولا التواء، ليقوم بحقِّ ربوبيَّته سبحانه، مُخلصًا له العبادةَ والاستعانة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة: ٥ ـ ٧].

فإفراد الله بالعبادة والاستعانة غايةٌ وهدفٌ، والصِّراط المستقيم هو الوسيلة الفذَّة للوصول إلى هذه الغاية.

ومهمَّة الشيطان عدوِّ الإنسان: أن يقف بالمرصاد؛ ليصدَّه عن هذا الصراط بكلِّ وسيلة، مُزيِّنًا ومُمنِّيًا وخادعًا: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: ١٦ ـ ١٧].

وهكذا أفصح اللعين عن هدفه: أنه يريد أن يقطع جمهور الناس عن شكر الله ومعرفة حقِّه عليهم: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣].

مدلول العبادة التي خُلق لها الخلق:

إنَّ الله تعالى خلق الخلق؛ ليعرفوه ويعبدوه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨]. ولكن ما مدلول العبادة التي خُلق لها الخلق؟

إنَّ بعض الناس يحصر العبادة في أداء الشعائر التعبديَّة، من الصلاة والصيام والحج ونحوها، وهذا للأسف هو الفهم الشائع عند الأكثرين، وهو غير صحيح كما بيَّنتُ ذلك في كتابي: (**العبادة في الإسلام**).

إنَّ العبادة في الإسلام تَسَعُ الحياةَ كلَّها، وتشمل الدين كلَّه، وفي طليعة ما تشمله ـ بعد الشعائر والأركان المعروفة ـ الالتزام بالقواعد الأخلاقيَّة، والوصايا الأخلاقيَّة، أمرًا ونهيًا، تقرُّبًا بذلك إلى الله تعالى.

فالمسلم حين يصدق القول، ويُحسن العمل، ويفي بالعهد، وينجز الوعد، ويؤدِّي الأمانة، ويحكم بالعدل، ويُنصِف في الخصومة، ويُوفِي الكيل والميزان بالقسط، ويغضُّ البصر، ويحفظ الفرج، ويكفُّ يده ولسانه عن الدماء والأموال والأعراض... وحين يبرُّ والديه، ويصل رَحِمه، ويُحسن إلى جاره، ويُكرم ضيفه، ويرحم الضعيف، ويُطعم المسكين، ولا يدُعُّ اليتيم.

حين يدعو إلى الخير، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويقول كلمة الحق عند السلطان الجائر، صابرًا على ما أصابه... إلخ.

المسلم حين يقوم بذلك كلِّه، وما هو أكثر منه: إنما يعبد به الله ربه سبحانه، وينفِّذ ما جاء في كتابه وسُنَّة رسوله، يبتغي بذلك وجهه، ويطلب مرضاته.

والذي يقرأ القرآن الكريم يجد النواحي الأخلاقيَّة مع العقائد الإيمانيَّة والشعائر التعبديَّة جَنْبًا إلى جنب، بلا تفرقة، ولا انفصال، اقرأ معي قول الله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧].

فنجد في هذه الآية الجامعة الردَّ على اليهود المتمسِّكين بالمراسم والشكليَّات، وبيان البر الحقيقي سواء كان في العقيدة: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾، أو في الشعائر: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾، أو في الخُلُق والعمل الصَّالح: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ... وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧].

صفات أولي الألباب:

واقرأ معي في سورة الرعد: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾ [الرعد: ١٩ ـ ٢٢].

ففي هذه الآيات تلتقي أخلاق الوفاء والصِّلة والصبر، والإنفاق والحِلْم، مع خشية الله وخوف سُوْء الحساب، وإقامة الصلاة بلا تمييز، مع ملاحظة الجانب الربَّاني في الأخلاق الإنسانيَّة أيضًا، فالوفاء إنما هو بعهد الله، والصلة لما أمر الله به أن يوصل، والصبر ابتغاءَ وجه الله... فهي ليست مُجرَّد أخلاق (مدنية) فارغة من معاني الربَّانيَّة.

صفات عباد الرحمن:

واقرأ معي في سورة الفرقان: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾ [الفرقان: ٦٣ ـ ٧٦].

فانظر كيف تتعانق المعاني الربَّانيَّة والمعاني الإنسانيَّة في هذه اللوحة الأخلاقيَّة الرائعة، وكيف وُضِع التواضع: ﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾، والحلم: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾﴾، بجوار قيام الليل، والتضرع إلى الله: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾﴾.

وكيف وُضِعَ الشِّرك بالله، مع القتل والزنى في آية واحدة: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ﴿٦٨﴾﴾ [الفرقان: ٦٨].

وكل هذه الخصال والأوصاف: إنما هي أخلاق (عباد الرحمن)، فهم حين يتحلَّوْنَ بما فيها من فضائل، وحين ينتهون عمَّا فيها من رذائل، إنما يحقِّقون معنى عبوديتهم للرحمن جلَّ شأنه.

٢ ـ تزكية الأنفس:

ومن الأهداف الأخلاقيَّة الإسلاميَّة: تزكية النفس.

والتزكية في اللغة كالزكاة، تتضمَّن معنيين كبيرين، هما الطهارة والنماء.

والطهارة معناها مهم ومطلوب بجدارة في جانب الإزالة، أو ما يسمِّيه المُربُّون: التخلية. فأنت حين تريد أن تبني بناءً كبيرًا، لا بدَّ لك من قبل أن تضع أساسك، وتصمِّم جدرانك، وترفع بنيانك؛ من أن تزيل الأنقاض والحجارة المتراكمة، وتُخلِّي المكان من كلِّ ما يعوق تأسيس البناء على أصله. وهو ما يرعاه كلُّ المهندسين والعاملين في إقامة البناء.

ثم بعد هذا التنظيف الأساسي الضروري، الذي لا يُستغنَى عنه بحال، يبدأ العنصر الثاني: وهو عنصر النَّماء. وهو ما يُسمِّيه المُربُّون: التحلية.

فبعد التَّخلِّي لا بُدَّ من التَّحلِّي، وبعد التَّخلية لا بدَّ من التَّحلية. الجانب السلبي مقدِّمة لا بدَّ منها للجانب الإيجابي.

وهذا ما يجري في البناء المعنوي، كما يجري ظاهرًا في البناء المشهود.

ولهذا نجد القرآن الكريم اعتبر من الأقسام المهمة التي أقسم الله تعالى بها في كتابه؛ ما جاء في مطلع سورة (الشمس) من المفصَّل، فقد قال تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ١ ـ ١٠].

فهذه جملة أقسام أقسم الله تبارك وتعالى فيها بمخلوقاته، وهو يقسم بها كما شاء؛ لِيُنبِّهنا على ما لها من فائدة وأهمية يجب أن ننتبه إليها، وننظر فيها،

ونتتفع بها. ومن هذه الأمور المُقْسَم بها: النفس الإنسانيَّة وتسويتها، أي: إعدادها الإعداد المطلوب لتبلغ كمالها المقدَّر لها. كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه: ٥٠].

ومن ذلك أنَّ الله ألهمها فجورها وتقواها، أي: غرس سبحانه ذلك في كيانها وأعماقها، وقدَّم الفجور هنا على التقوى ليدلَّ على أنَّ النوازع الشريرة تحاول أن تتفوَّق على نوازع الخير، وعلى الإنسان ألا يتركها، وأن يكون لها راعيًا، ولها مراقبًا، وعليها قادرًا. ومن هنا قال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٩ ـ ١٠].

عرَّفنا ربنا هنا: أنَّ المفلح حقًّا: من استطاع أن ينجوَ بنفسه، ويقوم بتزكيتها؛ سلبًا وإيجابًا، أو تخلّيًا وتحلّيًا، أو طردًا للمعصية وجلبًا للطاعة، وفي هذا تكون السعادة الحقَّة، والفوز المطلوب كما قال الله تعالى: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. وإنما يفوز بذلك مَن استمرَّ في جهاد نفسه، ولم يغفل عنها، ولم يدعها فريسة لعدوِّه من شياطين الإنس والجن، فيغلبوه على أمره، ويَدعوه لنفسه الأمَّارة بالسوء، تسيطر عليه، وتُخبِّئ جوهره النقي، فيختفي هذا الجوهر النفيس، ولا يظهر إلا الحجر الخسيس، وهذه هي التدسية التي حذَّر منها القرآن حين قال: ﴿وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ١٠].

إنَّ الله تعالى إنما أنزل كتابه وبعث رسوله ليدلَّانا على ذلك، ويُنبِّهانا إلى أهمية هذه الفرصة الوحيدة لنا، إما أن نستفيد منها، ونحرص عليها، ولا نَدَعها تفلت من أيدينا، ومعنا الله ورسوله وملائكته والمؤمنون، وإما أن تضعف عزائمنا، وتغفل عقولنا، وننسى الله تعالى فينسينا أنفسنا، فنخسر المعركة، ويخسر معنا المؤمنون، ويولول علينا المولولون، ولا يُجدينا ذلك شيئًا.

فعلينا أن نحرص على هذه التزكية، فهي فرصتنا الكبرى، وفرصتنا الوحيدة، ولا ثانية لها، هذه الدنيا هي مزرعتنا الوحيدة للآخرة، لا يوجد لنا مزرعة غيرها، ولن نولد مرتين، ولن تكون لنا حياتان، فاليوم الزرع، وغدًا الحصاد، ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾ [الأعلى: ١٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ۝٧٤ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ۝٧٥ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن

تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى ﴿٧٦﴾﴾ [طه: ٧٤ ـ ٧٦]. فمن تزكّى هذا جزاء تزكّيه عند الله. وقال تعالى: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾ [التوبة: ١٠٣].

وفي كثير من الأعمال تجد القرآن الكريم يُعلّق على عمل الصالحات فيها فيقول: ﴿ذلك أزكى لهم﴾ [النور: ٣٠]. ﴿ذلكم أزكى لكم وأطهر﴾ [البقرة: ٢٣٢].

وهذا ما يجب أن يعمد له المؤمنون ويسعى إليه الساعون، ويتعاون عليه أهل الإسلام في كلّ مكان بتسديده وتتميمه ودعمه بالعلم والخبرة.

٣ ـ تحقيق الفضيلة لذاتها:

ومن أهداف الخُلقيَّة الإسلامية: تحقيق الفضيلة لذاتها، بمعنى أن يكون الإنسان فاضلًا خيّرًا، أو بتعبير القرآن: (زاكيًا طاهرًا)، بغضّ النظر عمّا وراء هذه الزكاة والطهارة مِن نفع دنيويٍّ، أو فلاح أخرويٍّ.

ومن أجل هذا: نجد في القرآن بعد الوصايا والأوامر والنواهي الإلهيَّة مثلَ هذه العبارات: ﴿ذلكم خير لكم﴾ [البقرة: ٥٤]. أو: ﴿ذلكم أزكى لكم وأطهر﴾ [البقرة: ٢٣٢]. أو ﴿ذلك أزكى لهم﴾ [النور: ٣٠]. لا يزيد على هذه العبارات الأخلاقيَّة، ممَّا يدلُّ على أن تحقيق هذه الزكاة والطهارة أمر مطلوب لذاته.

اقرأ قول الله تعالى في سورة النور في آداب الزيارة: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتًا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون ﴿٢٧﴾ فإن لم تجدوا فيها أحدًا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم ﴿٢٨﴾﴾ [النور: ٢٧ ـ ٢٨].

فالله سبحانه في هاتين الآيتين يأمر المؤمنين برعاية هذه الآداب؛ لأنها (خير لهم)، وأنها (أزكى لهم)، لا لأنهم يربحون من ورائها ذهبًا أو فضةً، وكفى بهذا الخير وتلك الزكاة كسْبًا لقوم يعلمون أنَّ الحياة لا تقاس بالمادة وحدها، ولا بالمنفعة فقط.

ولقد وجدنا في الصالحين من المسلمين مَن يحرص على تحقيق هذه الزكاة النفسيَّة، بأن يستأذن على قوم، فيردُّوه ويقولوا له: ارجعْ. فيرجع راضيَ النفس، قرير العين، بما حصَّل من زكاة لنفسه. ويقول بعضهم: ظللْتُ سنين

أطلب تحصيل فضل هذه الآية، فلم أحصّلها: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٨].

وفي السياق نفسه يقول الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [النور: ٣٠].

وفي سورة البقرة يقول جلَّ شأنه: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

وفي سورة الطلاق يقول تعالى في شأن المطلقات: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾﴾ [الطّلاق: ٢].

وفي سورة التوبة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

ففي هذه الآيات وما ماثلها يبدو عمل الخير، وأداء الواجب لذاته فقط، أو بتعبير آخر: لأنه خير وأزكى للإنسان وأطهر.

٤ ـ الفلاح الكامل للإنسان:

ومن الأهداف الأخلاقيَّة الإسلامية: تحقيق (الفلاح) للإنسان، وإن شئتَ فسمِّه (السعادة)، كما يُسمِّيه كثير من فلاسفة الأخلاق، وبخاصة المَشَّائيُّون منهم. ولكنِّي آثرتُ استعمال التعبير القرآني (الفلاح)؛ لأنه تعبير قرآني صرف.

ومعناه: أن يظفر الإنسان بما يُحب ويرجو، ويسلم ممَّا يكره ويخاف.

والفلاح الذي أعنيه هنا وأرتجيه هو الفلاح الكامل.

قال الراغب في مفرداته: «والفَلَاحُ: الظَّفَرُ وإدراك بُغْية، وذلك ضربان: دنيوي وأخروي.

فالدنيوي: الظَّفَر بالسعادات التي تطيب بها حياةُ الدنيا، وهو البقاء والغنى والعزُّ...

وفَلَاحٌ أخروي، وذلك أربعة أشياء: بقاء بلا فناء، وغنى بلا فقر، وعزٌّ

بلا ذلّ، وعلم بلا جهل. ولذلك قيل: «لا عيش إلَّا عيش الآخرة»[1][2].

وقد ربط القرآن الفلاح بالسُّموّ الأخلاقي حين قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ [الأعلى: ١٤].

كما جعل القرآن الكريم رجاء هذا الفلاح علَّةً لكثير من أوامره ونواهيه، كما يجعل هذا الفلاح جزاءً لمن التزم بما أمر، وانتهى عمَّا نهى.

من ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الحج: ٧٧].

ويقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المائدة: ٣٥].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المائدة: ٩٠].

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ [آل عمران: ١٣٠].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور: ٣١].

---

(١) جزء من حديث متفق عليه: رواه البخاري في مناقب الأنصار (٣٧٩٥)، ومسلم في الجهاد (١٨٠٥)، كما رواه أحمد (١٢٧٥٧)، والترمذي (٣٨٥٦)، والنسائي في الكبرى (٨٢٥٦)، كلاهما في المناقب.

(٢) المفردات للراغب الأصفهاني (١/ ٦٤٤).

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الجمعة: ١٠].

والفلاح الذي عُلِّقت به هذه الأوامر والوصايا، فلاح مطلق، يشمل فلاح الآخرة وفلاح الدنيا، فلاح الفرد، وفلاح المجتمع.

فإذا كان معظم المذاهب الأخلاقيَّة الفلسفيَّة، لا يجعل للفلاح في الآخرة والسعادة في عقبى الدار اعتبارًا ولا أهمية في نظرته إلى الأخلاق، ومَن اعتبر منهم السعادة غايةً في فلسفته الخلقية، فإنما قصرها على السعادة الدنيويَّة العاجلة، سواء أكانت سعادة روحيَّة عقليَّة أم حسيَّة ماديَّة؛ فإننا نجد فلسفة الإسلام في الأخلاق تضع الفلاح في الآخرة نُصْب عينيها، فالإنسان لم يُخلق لهذه الأيام المعدودة، وهذه الأنفاس المحدودة، في هذه الدار الفانية. وإنما خُلق للخلود، وهو إنما يُعَدُّ في هذه الدار ويُصْقَل بوساطة الابتلاء بالتكاليف الإلهيَّة، التي تشمل الحياة كلَّها، ليُعَدَّ ويهيَّأ في الحياة الدنيا، ليصلح للحياة الآخرة، ويكون أهلًا للفلاح بنعيمها الأبدي.

فمن زكَّى نفسه بالعلم النافع، والإيمان الصادق، والعمل الصالح، وطَهَّرها من خُبث الرذائل المهلكة، وغلَّب التقوى على الفجور، وأعلى نداء العقل على صوت الشهوة، وباعث الدين على باعث الهوى. وبعبارة أخرى: انتصر فيه الجانب الملائكي على الجانب الحيواني، أو الوسواس الشيطاني، وعَلَتْ فيه نفْحة الرُّوح على قبضة الطين: فقد أصبحت نفسه مُستعدَّة للفلاح الأبديِّ، والسعادة السرمديَّة، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٧ ـ ١٠].

فالفلاح منُوطٌ بتزكية النفس، والجنَّة دار الأزكياء، الذين يفارقون الحياة ويلقون ربَّهم وهم أطهار طيِّبون، بخلاف جهنَّم، فهي دار الأنجاس، الذين يموتون خبثاء مجرمين، فيُبعثون يوم القيامة على ما ماتوا عليه، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّٰلِحَٰتِ فَأُولَٰٓئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَٰتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ [طه: ٧٤ ـ ٧٦].

إن الجنة طيِّبةٌ لا يدخلها إلا الطيِّبون: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ الْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ

﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٣٢﴾ [النحل: ٣٢]. ويناديهم خزنة الجنة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣﴾ [الزُّمر: ٧٣].

فأما من خَبُثَت نفسُه بالرذائل، ودنَّسها بأوحال الموبقات، فلن يدخل الجنَّة ـ وإن كان أصله من المؤمنين ـ إلا بعد مرحلة من التَّطهير يمرُّ بها في جهنَّم، يخرج منها نظيفًا مغسولًا، صالحًا لدار الخلود، دار السلام.

يقول النبي ﷺ: «لا يدخل الجنة مَن كان في قلبه مثقال ذرة من كِبْر»[1].

ويقول: «خلق الله جنَّة عدن بيده، فشقَّ فيها أنهارها، وأدلى فيها ثمارها، ثم قال لها: تكلَّمي. فقالت: قد أفلح المؤمنون. فقال الله تعالى: وعزَّتي لا يجاورني فيك بخيل»[2].

وفي الصحيح: «من مات وهو غاشٌّ لرعيته: حرَّم الله عليه الجنة»[3].

وقال ﷺ: «ثلاثةٌ لا يدخلون الجنَّةَ أبدًا: الدَّيُّوثُ، والرَّجُلةُ من النِّساءِ، ومدمنُ الخمرِ». قالوا: يا رسولَ اللهِ، أمَّا مدمن الخمر، فقد عرفناه، فما الدَّيوثُ؟ قال: «الَّذي لا يُبالي مَن دخل على أهلِه». فقلنا: فما الرَّجُلة من النساء؟ قال: «التي تشبَّه بالرِّجال»[4].

وهكذا تحرم الجنَّة على أصحاب الأنفس الخبيثة، والرذائل المُهلكة، من الكِبْر، والبخل، والإدمان والدياثة، وغشِّ الرعية، وغيرها من المُوبقات المُهلكات حتى يطَّهَّروا منها.

والذي يهمُّنا ذكره وتأكيده هنا: أن الله تعالى جعل الفلاح في الآخرة مثوبةً لمن التزم قانونه الذي نزل به الوحي: في عقائده، وشعائره، وأخلاقه، وسائر أقواله وأعماله، فهناك ارتباطٌ بين الصلاح هنا والفلاح هناك، ارتباط اقْتَضَتْه كلمة الله الذي أبى أن يسكُنَ دارَه الطيبةَ إلا الطيِّبون.

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (٩١)، وأحمد (٣٧٨٩)، وأبو داود في اللباس (٤٠٩١)، عن ابن مسعود.

(٢) رواه الطبراني في الكبير (١١/ ١٨٤)، والأوسط (٥٥١٨)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٣٩٤٢): رواه الطبراني في الكبير والأوسط بإسنادين أحدهما جيد، وكذا قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٦٣٩)، عن ابن عباس.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الأحكام (٧١٥١)، ومسلم في الإيمان (١٤٢)، عن معقل بن يسار.

(٤) رواه البيهقي في شعب الإيمان (١٠٣١٠)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٠٧١): صحيح لغيره، عن عمار بن ياسر.

الفلاح في الدنيا:

ولكننا نذكر هنا شيئًا آخر، وهو الفلاح في هذه الحياة الدنيا نفسها، فإنَّ الالتزام بالقانون الأخلاقي الذي هَدَى الله إليه عباده، لا يؤدِّي إلى السعادة في الآخرة فقط، بل إلى سعادة الدنيا والفلاح فيها كذلك، والآيات القرآنيَّة التي ذكرناها من قبل مُطلقة تشمل فلاح الدارين، مثل: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾﴾. ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾. فليس في هذه الآيات وما شابهها دليلٌ على حَصْر هذا الفلاح في الآخرة وحدها.

على أنَّ هناك آيات أخرى صريحة، تجعل سعادةَ الدنيا ـ بالنصِّ الواضح ـ منوطةً باتِّباع هدى الله تعالى، وشقاءَها منوطًا بالإعراض عنه، من ذلك قوله تعالى في خطابه لآدم وزوجه: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٣ ـ ١٢٤].

فهذا يدلُّ على أن مناط السعادة يكون باتِّباع هدى الله، فهذه سُنَّةٌ قائمة منذ أن هبط آدم من الجنَّة إلى الأرض، وكذلك ارتباط الشقاء والمعيشة الضنك يكون بالإعراض والانحراف عنه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]. ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الجن: ١٦]. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧]. فالحياة الطيبة جزاء الإيمان والعمل الصالح، سنَّةُ الله في عباده.

بَيْد أن الناس كثيرًا ما يُخطئون في فهم (الحياة الطيِّبة)، كما يخطئون في فهم (المعيشة الضنك)، حين يجدون كثيرًا من المؤمنين الصالحين في قلَّة من المال، أو ضيق من العيش، أو اضطهاد من الآخرين، على حين يجدون كثيرًا من الكَفَرة الفَجَرة يغوصون في الذهب والحرير، ويسبحون في أنهار من النعيم، وبحبوحة من العيش، فأين المعيشة الضنك هنا؟ وأين الحياة الطيبة هناك؟

ولو نزل هؤلاء عن السطح، ونفذوا إلى الأعماق، لوجدوا الحياة الطيِّبة حقًّا إنما هي حالةٌ نفسيَّة أكثر منها مُتعة ماديَّة، حالة نفس مؤمنة ترى سعادتها

في إيمانها، الذي يثمر السكينة والرِّضا والحب، وإيمانها لا سلطان لأحد عليه غير الله، نفس ترضى بالقليل، فيبدو عندها كثيرًا، وتستعذب العذاب في سبيل الله، فيستحيل لديها إلى نعيم، إنها الحال التي عبَّر عنها أحد الصالحين قديمًا ـ وهو إبراهيم بن أدهم ـ حين قال: نحن نعيش في سعادة لو عَلِمَ بها الملوك وأبناء الملوك، لجالدونا عليها بالسيوف[1]! ولكن الملوك لا يعلمون قيمة هذه السعادة، فلا يزاحمونهم عليها، ويتركونها كلَّها لهم بلا مزاحمة.

وقد أطلنا في شرح السعادة النفسيَّة وبيان عناصرها ومقوِّماتها في كتابنا **(الإيمان والحياة)**، فليرجع إليه مَن أراد[2].

وكذلك المعيشة الضنك ليست قلَّة المال، ولا ضيق ذات اليد، إنما هي ضيق النفس والصدر، إنها القلق النفسي، الذي يجعل صاحبه يبيتُ على مثل الشوك، ويتقلَّب على مثل الجمْر، ذلك الذي يعيش مُهتزَّ العقيدة، مُضْطرب الفكر، خاوي الروح، مظلم القلب، لا يعرف له غاية بيِّنة، ولا سبيلًا مستقيمًا، فهو كعبدٍ يملكه شركاء متشاكسون، وأرباب متفرِّقون، كما قال الله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الزمر: ٢٩].

٥ ـ العناية بالإنسان فردًا:

من أول ما يهدف إليه الإسلام، وينشده القرآن العظيم، ويوجه إليه الرسول الكريم: أن يبني الإنسان الصالح فردًا.

هذه الكلمة الموجزة **(الإنسان الصالح)**: هي الهدف الأول لهذا الدين العالمي، والدين الخاتم، الذي بعث الله به محمدًا؛ ليختم به النبيين، ويغلق باب انبعاث الرسل من السماء، فقد بلغت البشريَّة رشدها، واستعدَّت لتلقِّي الرسالة الخاتمة، التي لم تعد مرتبطة ببقعة معيَّنة من الأرض، أو قوم من الأقوام، أو قارَّة من القارات، أو جهة من الجهات.

بل تطوَّرت البشريَّة كما أراد الله لها، وهيَّأها بأقداره وشرائعه، حتى

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٧/ ٣٧٠).

(٢) الإيمان والحياة ص٧١ ـ ٧٩، مكتبة وهبة، ط. الثامنة عشر، ١٤٣٤هـ، ٢٠١٣م.

نضجت وبلغت أشدَّها، وأصبحت قادرةً على هذه المرحلة الأخيرة التي يكمل الله فيها رسالته.

فلم تعد البشريَّة في حاجة إلى رُسُل جُدد، يأتون إليها كل مدة برسالة جديدة لقوم جدد، وغدا لدى البشر الاستعداد النوعي ليتلاقوا ويتفاهموا ويتعاونوا، ويتسالموا ويتحابُّوا.

فلا عجب أن يأتيهم رسول واحد للعالمين، أي لكلِّ البشر، أبيضهم وأسودهم، وأصفرهم وأحمرهم، مَنْ في الشرق، ومَنْ في الغرب، ومَنْ في الشمال، ومَنْ في الجنوب، ويجب على البشر أن يتهيَّؤوا لهذا الدور العالمي الذي لا بدَّ لهم منه، والذي ينتظرهم وينتظرونه، أو ينتظره العقلاء وأولو الألباب منهم.

وهذه الرسالة تُعنى أولَ ما تُعنى بالإنسان: الذي استخلفه في الأرض الله الخالق الأعلى، الرحمن الرحيم، الذي هيَّأ الإنسان ليَعمُر هذه الأرض ويُحييها ويجمِّلها، بما وهبه له من مواهب، وأن يعرف حقَّ خالِقه، ويقيم عدله ورسالته في أرضه، وأن يقيم ما يشرعه الله من هداياتٍ وقيم وموازينَ تعين بني الإنسان على أن يعيشوا إخوة متحابين متواصِّين بالحق والصبر، متعاونين على البر والتقوى.

العناية بكرامة الإنسان ورعاية حقوقه:

وأول ما يُعنى به الإسلام هنا بالنسبة إلى الفرد: العناية بكرامته كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠].

وكرامة الإنسان تعني أول ما تعني: رعاية حقوقه، وعدم التفريط فيها، ويتجلَّى في هذه العناصر:

أ ـ تقرير كرامة الإنسان.

ب ـ تقرير حقوق الإنسان.

جـ ـ تأكيد حقوق الضعفاء من الناس.

وسنخصُّ كلًّا منها بحديث:

أ ـ تقرير كرامة الإنسان:

أكد القرآن أن الإنسان مخلوق كريم على الله، فقد خلق آدم بيديه، ونفخ

فيه من رُوحه، وجعله في الأرض خليفة، واستخلف أبناءه من بعده. وهي منزلة تطلَّعت إليها أنظار الملائكة، فلم تُمنح لهم؛ لأنهم لم يُؤهَّلوا لها، إنما أُهِّلَ لها آدم وبنوه، الذين سخَّر لهم كل ما في الكون: أرضه وسماؤه. وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ٧٠]. ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]. ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]. ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: ٣٠].

ومن أجل ذلك أنكر القرآن على بعض المتطرفين من البشر تحريمهم الطيِّبات وزينة الحياة: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وأنكر على بعض البشر إهانتهم لأنفسهم باتِّخاذهم الطبيعة وقواها المسخَّرة للإنسان آلهةً يعبدونها من دون الله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت: ٣٧].

وأنكر على بعض آخر من البشر أن يفقدوا شخصيَّتهم، ويصبحوا أذنابًا لغيرهم: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ﴿٦٧﴾﴾ [الأحزاب: ٦٧].

وأنكر على آخرين أن يغلُوا في تقديس البشر، فيتخذوهم أربابًا يطيعونهم في كلِّ ما يشرعون؛ وإن حرَّموا الحلال، وأحلُّوا الحرام: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١].

ولا عجب أن كانت دعوة الإسلام إلى أهل الكتاب: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وردَّ القرآن على من نسب إلى بعض الأنبياء أنه دعا الناس إلى عبادة نفسه؛ فقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٩].

ب ـ تقرير حقوق الإنسان:

وتأكيدًا لهذه الكرامة الإنسانيَّة قرَّر القرآن منذ أربعة عشر قرنًا ما تتغنَّى به الإنسانيَّة اليوم، ويظنه بعضٌ من الجاهلين من ثمار العصر الحديث، وأعني به ما يطلق عليه (حقوق الإنسان):

حق الإنسان في حريَّة النظر والفكر قرَّره القرآن في مثل قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [يونس: ١٠١]. وقوله: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ﴾ [سبأ: ٤٦].

وحق الإنسان في حرية الاعتقاد قرَّره القرآن بقوله: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. وقوله: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٩٩﴾ [يونس: ٩٩].

وقرَّر حرية القول والأمر والنهي بقوله: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١].

وحقُّ الإنسان في المساواة بغيره من الأجناس والألوان والأنساب، قرَّره القرآن بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: ١٣]. وقوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ١٠١﴾ [المؤمنون: ١٠١].

وحقُّ الإنسان في الاستمتاع بالطيِّبات من الرزق، ومن زينة الله التي أخرج لعباده: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وحقُّ الإنسان في الزواج وتكوين الأسرة، رجلًا كان أو امرأة: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾ [الروم: ٢١].

وحقُّ الإنسان ـ بعد الزواج ـ في الإنجاب: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ﴾ [النحل: ٧٢].

وحقُّ الذُّرِّيَّة في الحياة، بنين كانوا أو بنات، ولهذا حمل القرآن على أهل الجاهليَّة الذين وأدوا بناتهم، وقتلوا أولادهم من إملاق واقع، أو خشية إملاق متوقَّع، واعتبر ذلك خطأ كبيرًا وإثمًا عظيمًا. قال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ﴾ [الأنعام: ١٥١]. ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا ٣١﴾ [الإسراء: ٣١]. ﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ

سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ [التكوير: ٨ ـ ٩]. ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل: ٥٨ ـ ٥٩].

وحقُّ كل إنسان في الحياة، ما لم يرتكب جرمًا موجبًا إباحة دمه شرعًا: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١، والإسراء: ٣٣]. كما قرَّر القرآن مؤكِّدًا ما جاء في الكتب السابقة: ﴿أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

وكحقِّ كلِّ إنسان في العمل والمشي في مناكب الأرض، سعيًا لكسب رزقه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥]. حتى في يوم الجمعة، فقبل الصلاة يقول: ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ [الجمعة: ٩]. وبعد صلاة الجمعة يقول: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]. وحتى في الحج: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨].

وحقُّ كل إنسان أن يتمتَّع بثمرة ما كسب من حلال، عن طريق التملك، رجلًا كان أو امرأة: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ [النساء: ٣٢]. ولا يجوز لأحد العدوان على شيء مملوكٍ للغير ملكيَّةً مشروعة: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء: ٢٩].

وحقُّ الإنسان في احترام مسكنه الخاص، وعدم دخوله إلا بإذنه، قرَّره القرآن بقوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٧ ـ ٢٨].

وحقُّ الإنسان في صيانة دمه وماله، وحماية ملكه الحلال، قرَّره بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [النساء: ٢٩].

وحقُّ الإنسان في صيانة عرضه وكرامته، قرَّره بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ [الحجرات: ١١].

وحقُّ الإنسان في الدفاع عن نفسه، قرَّره بقوله: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا

عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [البقرة: ١٩٤].

وحقُّ الإنسان في العدل والإنصاف ـ ولو كان كافرًا أو عدوًّا ـ بقوله: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]. وقوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]. وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَـٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾﴾ [النساء: ١٠٥ ـ ١٠٧]. قالوا: إن هذه الآيات نزلت في تبرئة يهودي اتهمه بعض المسلمين بغير حقٍّ.

وحقُّ الإنسان في كفاية العيش إن كان عاجزًا أو فقيرًا، في أموال الواجدين من الأفراد، قرَّره بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾ [المعارج: ٢٤ ـ ٢٥]. وقوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]. وفي أموال الدولة من الغنائم والفيء، ففي كلٍّ منها حق لليتامى والمساكين وابن السبيل.

وحقُّ الإنسان في مناقشة أولي الأمر ومخالفة رأيهم، والاحتكام إلى الله ورسوله، قرَّره بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

كيف لا وقد قيَّد الله الطاعةَ للرسولِ نفسِه بالمعروف؟ قال تعالى في بيعة النساء: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾ [الممتحنة: ١٢].

وحقُّ الإنسان في إنكار المنكر، ورفض الفساد، ومقاومة الظلم البيِّن، والكفر البواح، قرَّره القرآن بقوله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [هود: ١١٣]. وقوله: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: ٧٨ ـ ٧٩]. وقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]. وقال على لسان نبي الله صالح: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الشعراء: ١٥١ ـ ١٥٢].

بل إن الإسلام قد ارتقى بهذه الأمور من مرتبة الحقوق إلى مرتبة الفرائض والواجبات؛ لأن ما كان من الحقوق يمكن لصاحبه أن يتنازل عنه، أما الواجبات المفروضة، فلا يجوز التنازل عنها.

جـ ـ تأكيد حقوق الضعفاء:

قرَّر القرآن حقوقَ الإنسان عامَّة، ولكنه عُني عناية فائقة بحقوق الضعفاء من بني الإنسان خاصَّة، خشية أن يجور عليهم الأقوياء، أو يهمل أمرَهم الحُكَّام والمسؤولون.

نجد مظاهر هذه العناية في سور القرآن مكيِّه ومدنيِّه، كقوله تعالى في سورة الضحى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾ [الضحى: ٩]. وفي سورة المُدَّثر يتحدَّث عن المجرمين في سقَر، وأسباب دخولهم فيها: فيقول على لسان أصحاب اليمين حيث يسألونهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝٤٤﴾ [المدثر: ٤٢ ـ ٤٤].

وهاتان السورتان (الضحى والمدثر) من أوائل ما نزل.

وفي سورة الماعون: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣﴾ [الماعون: ١ ـ ٣]. فلم يكتفِ بإيجاب إطعام المسكين، بل أوجب الحضَّ على ذلك، والدعوة إليه.

وفي سورة الحاقَّة، علَّل القرآن دخول صاحب الشمال الجحيمَ، بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ۝٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣٤﴾ [الحاقة: ٣٣ ـ ٣٤]. فقرن الحضَّ بالإيمان، وقرن ترك الحض بالكفر بالله تعالى.

وفي سورة الفجر خاطب القرآن المجتمعَ الجاهليَّ المتظالم بقوله: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝١٨﴾ [الفجر: ١٧ ـ ١٨].

وأمر بالمحافظة على مال اليتيم ـ إن كان له مال ـ إذ جعل ذلك من وصاياه العشر في سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الأنعام: ١٥٢]. وكرَّر هذه الوصية في سورة الإسراء [الآية: ٣٤].

وفي سورة النساء وضع القواعد للمحافظة على مال اليتيم وحسن استغلاله، وتنميته بالمعروف في جملة من الآيات انتهت بوعيد شديد: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝١٠﴾ [النساء: ١٠].

وقد جعل القرآن للمساكين واليتامى إذا كانوا فقراء حظًا في أموال الدولة من الزكاة والفيء وخُمس الغنيمة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ

﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠]. ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١]. ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: ٧].

وإنما جَعَلْنا الزكاة من أموال الدولة؛ لأن الله أمر وليَّ الأمر بأخذها، فقال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]. فإذا لم تتولَّ الدولة أخذها، كان على أرباب الأموال أداءها إلى الفقراء، يبحثون هم عن الفقراء، ولا يبحث الفقراء عنهم.

كما جعل للفقراء والمساكين والمحتاجين حقًّا في أموال أقاربهم وسائر الأمَّة بعد ذلك: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ١٧٧]. ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الإسراء: ٢٦]. ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [النساء: ٣٦]. ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [البقرة: ٢١٥].

وأهم من ذلك كله: أن القرآن شرع القتال وسلَّ السيوف للدفاع عن المستضعفين في الأرض، بل حرَّض أبلغ التحريض على القتال ذودًا عن حرماتهم، ودرءًا للظلم عنهم، يقول تعالى: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [النساء: ٧٤ ـ ٧٥].

هذه بعض الحقوق التي قرَّرها القرآن للإنسان، ولا نقول: أعلنها، إذ كان الأمر أكبر من إعلان؛ إنه بلاغٌ من ربِّ الناس للناس، أُسِّست عليه عقيدة، ونهضت على أساسه ثقافة وتربية، وبني عليه فقه وتشريع، وقامت عليه دولة وأمة، وجسَّدته حضارة وتاريخ[1].

---

(١) من كتابنا (كيف نتعامل مع القرآن الكريم؟) ص٧٨ ـ ٨٥، طبعة دار الشروق، الثامنة ٢٠١١م.

٦ ـ الأسرة المتماسكة:

كما أن من أهداف الخُلقية الإسلامية: إنشاء الأسرة المتماسكة، وهذا لا يتمُّ إلا إذا بدأت بداية صحيحة، وسارت في طريق سليم، وحَمَت نفسها من الأوبئة والآفات التي تمزق كيانها، وتُخِلُّ ميزانها، وتهدم إيمانها.

ولهذا يرى الإسلام أن الفرد لا يستطيع أن يعيش وحده؛ لأنه مخلوق اجتماعي، ولا يُحقِّق الهدف من خلقه إلا أن ينضمَّ إلى غيره، وأول انضمام من الإنسان إلى غيره هو انضمام المرأة إلى الرجل، وانضمام الرجل إليها، عن طريق الزواج الشرعي، حين يلتقيان على التراضي والتوافق بعقد متين، مشهود عليه، مُوثَّق بالمهر الذي يدفعه الرجل نِحْلةً وهبةً منه، وحقًّا لها عليه، كما قال تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾﴾ [النساء: ٤].

ولا بدَّ للناس أن يعرفوا هذا الارتباط الزوجي، وكلما اتَّسع نطاق العلم به كان أوْفى وأوْلى، ولكن على الأقل الحد الأدنى، وهو وجود شاهِدَين، عند وجود ظروف صعبة تمنع من شيوع الأمر.

ولا يجيز الإسلام للجنسين أن يستمتع كلاهما بالآخر من الناحية الجنسيَّة بغير هذا العقد، فهذا هو سبب الفوضى واندلاع الشرور والفساد في العالم: أن ينتشر الزنى ويتفاقم، ويصبح أشبه بالوباء الكاسح.

ويعوق الناسُ الزواجَ بإرادتهم، ويعوقونه بما يضعون من عراقيلَ وشروطٍ ما أنزل الله بها من سلطان، ولا قام عليها من الدين برهان. وقد أوصى الإسلام هنا بتيسير المهور، والتَّسهيل على الناس، ليتزوَّجوا بغير صعوبة، ولذا قال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٢]. وقال رسول الله ﷺ: «إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوِّجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير»[١].

---

(١) رواه الترمذي (١٠٨٤) موصولًا ومرسلًا ـ وإنما يعني بقوله: مرسلًا، انقطاع ما بين ابن عجلان وأبي هريرة ـ وقد رجَّح البخاري المنقطع على المتصل، وابن ماجه (١٩٦٧)، كلاهما في النكاح، وحسَّنه الألباني في الصحيحة (١٠٢٢)، عن أبي هريرة.

وقال: «الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأةُ الصالحة»[1].

فعلى الشاب المسلم أن يبحث عن الصلاح قبل أن يبحث عن المال والنسب والجمال.

وقال الرسول الكريم: «تُنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، وجمالها، ولدينها. فاظفر بذات الدين تربت يداك»[2].

أوصى الإسلام الزوجين أن يصدق كلٌّ منهما في تعايشه وتعامله مع صاحبه، الذي سمَّاه القرآن: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ [النساء: ٣٦]. وأن يكونا في الصورة اثنين، وفي الروح واحدًا، ولذلك سُمِّي كلٌّ منهما (زوجًا)؛ لأن كلًّا منهما يعبِّر عن صاحبه، كما بيَّن تعالى: ﴿أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ﴾ [آل عمران: ١٩٥]. فالرجل من المرأة، والمرأة من الرجل، كلٌّ منهما مُكمِّل للآخر، ولا يستغني أحدهما عن الآخر.

وإذا قامت العلاقة بين الزوجين، فإنها تقوم على الدعائم الأصيلة التي ذكرها القرآن: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: ٢١].

وعلى كلٍّ من الزوجين أن يبنيا العلاقة على هذه الأصول والأركان: السكون النفسي، والمودَّة والرحمة، وهاتان المودة والرحمة تنتقلان من الزوجين إلى أسرتهما وأقاربهما، وبهذا تتَّسع المودة والرحمة في المجتمع كله. ولهذا عبَّر عنها بهذا اللفظ ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم﴾، أي: بين الزوجين والأصهار.

وعلى كلٍّ من الرجل والمرأة أن يرعى حقَّ الآخر، ويتشاورا في الأمور، ولا يحاول كلٌّ منهما أن يفرض رأيه على الآخر، فإن أفضل الحياة ما قام على الحب، لا على النُّفْرة أو القوة أو الاستعلاء.

القرآن يوصي الرجال بالرِّفق بالنساء:

ويوصي القرآن الرجال خاصَّة أن يصبروا على النساء ويرفقوا بهنَّ، وأن

---

(١) رواه مسلم في الرضاع (١٤٦٧)، وأحمد (٦٥٦٧)، والنسائي (٣٢٣٢)، وابن ماجه (١٨٥٥)، كلاهما في النكاح، عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في النكاح (٥٠٩٠)، ومسلم في الرضاع (١٤٦٦)، كما رواه أحمد (٩٥٢١)، عن أبي هريرة.

يعاملوهن بالرقة والطيبة والألفة، فهي التي تجعل للحياة معنًى وهدفًا، وتبعد الشقاقَ والنزاع من حياة الأسرة، ولذا قال الله تعالى في سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔاۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ [النساء: ١٩ ـ ٢١].

ويحرص الإسلام على أن ينال كلٌّ من الزوجين حظَّه الجنسيَّ من صاحبه، فهو حقٌّ لكلٍّ منهما على الآخر، ما عدا الأوقات المحظورة؛ مثل أن تكون المرأة حائضًا، ومثلها النفساء (أي التي في حالة الولادة). قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾ [البقرة: ٢٢٢ ـ ٢٢٣].

على الزوجين أن يصبر كلٌّ منهما على الآخر:

وعلى المرأة أيضًا أن تصبر على زوجها، وتعلم أن استمرار الحياة لا بدَّ له من تضحية وبذل، وصبر ومصابرة.

ويقول النبي ﷺ: «لا يَفْرَكْ مؤمنٌ مؤمنةً؛ إنْ كره منها خلقًا، رضيَ منها آخر»[1]. فعلى الرجل ألا يكون مغاليًا، يطلب الكمال في كلِّ شيء، فإن مَن طلب ذلك تعب وأتعب غيره، فالعاقل مَن يوازن بين الأمور، ويتسامح في بعضها، ويعلم أن الناس بشر ليسوا ملائكة ولا أنبياء، ولا بدَّ لكلِّ إنسان من هفوة، ولكلِّ ماشٍ من كبْوة، وليَعفُ وليَصفَحْ، فإنَّ الله غفور رحيم.

وخصوصًا إذا أصبح بين الزوجين أولاد، ولا بدَّ للأسرة من أن تسعى إلى ذلك، وأن يُعالَج ما يحتاج إلى علاج وطب، فما من داء إلا له دواء.

---

(١) رواه مسلم في الرضاع (١٤٦٩)، وأحمد (٨٣٦٣)، وأبو يعلي في مسنده (٦٤١٨)، عن أبي هريرة.

وقد أمر الرسول الزوج حين يعاشر امرأته أن يقول: «باسم الله، اللهم جنِّبْنا الشيطان، وجنِّب الشيطان ما رزقتنا»[1].

الفرح بالأولاد ذكورًا وإناثًا والتعاون في تربيتهم:

وإذا رزقهما الله بطفل فرحا به، وقرَّت به أعينهما، ذكرًا كان أو أنثى، كما قال الله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ [الشورى: ٤٩ ـ ٥٠].

بدأ الله تعالى بهبة الإناث قبل هبة الذكور، ولذا شاع بين المسلمين: خير النساء من بكَّرت بأنثى.

ولا يجوز أن يصنع الزوجين أو أحدهما ما كان يصنع أهل الجاهليَّة العربية، ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ [النحل: ٥٨].

وقد ذكر الله لنا في سورة آل عمران قصة أم مريم، حين قالت: ﴿رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ [آل عمران: ٣٥ ـ ٣٦]. وكانت مريم أنثى خيرًا من كثير من الذكور، وكانت أمًّا للمسيح عيسى بن مريم، وقد فضَّلها الله وطهَّرها واصْطفاها على نساء العالمين.

وعلى الوالدين ـ ومِن ورائهما المجتمع ـ أن يتعاونوا على حُسن تربية الأولاد، ذكورًا وإناثًا، وأن يُحسنوا تعليمهم وتهذيب أخلاقِهم، ويدخلوهم المدارس، ويفتحوا لهم الطريق إلى الجامعات، وإلى أعلى المراتب، وأن يغرسوا بذور الأخوة والمحبة والإيثار بين الأبناء بعضهم وبعض، وهذه البذور هي البداية للأخوة العامة بين المؤمنين التي قال الله عنها: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]. ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]. وفي الحديث: «وكونوا عباد الله إخوانا»[2]. فالأخوة تقتضى المساواة والمحبة، والتعاون والتكافل.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الوضوء (١٤١)، ومسلم في النكاح (١٤٣٤)، عن ابن عباس.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠٦٤)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٦٣) (٢٨)، عن أبي هريرة.

وكلُّ أخ هو عضوٌ في الأسرة، يؤْثرها على نفسه، ويفديها بروحه، ويتعب لتستريح، ويسهر لتنام، ويتلقى السهام لتأمن، وهي تبادله هذه الروح وهذه العواطف، وحين تنزل محنة بأحدهم يصيب الجميع الحزن والنصب، وإذا نزلت الفرحة عمَّ الجميع الفرح.

والأسرة في الإسلام هي الأسرة الموسَّعة الممتدة، التي تشمل الآباء والأجداد، والأولاد والأحفاد، والإخوة والأخوات، والأعمام والعمات، والأخوال والخالات، وأزواجهم وأولادهم، كما قال تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۗ﴾ [الأنفال: ٧٥].

٧ ـ المجتمع الصالح:

وتعتمد الأخلاقيَّة الإسلاميَّة بصفة أساسيَّة: على إقامة المجتمع الصالح، فلا يكتفي الإسلام بوجود الفرد الصالح المؤمن بربِّه، المقيم لصلاته، المُؤدِّي لفرائضه، المنتهي عن محارمه القريبة، لا بدَّ لهذا الفرد الصالح في نفسه أن يرتبط بالمجتمع الصالح من حوله، بل لا وجود ولا نفوذ له، إلا من خلال المجتمع.

ومن هنا كانت النداءات الإلهيَّة بإقامة المطالب للجماعة المؤمنة. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ التي تكرَّرت في القرآن نحو تسعين مرة، ولم يوجد فيه مرة واحدة: (يا أيها المؤمن). وقد بدأ القرآن ذلك من العهد المدني، بعد الهجرة النبويَّة إلى المدينة، وقبل ذلك لم يكن قد وجد المجتمع المسلم الذي يوجَّه إليه نداء الله بالأوامر والنواهي.

غرس الشعور بالجماعة:

والقرآن الكريم يغرس في نفس الفرد الشعور بالجماعة في آيات الكتاب، كما تجد في الفاتحة التي اعتبرها العلماء الراسخون (دستور القرآن)، فهي تُعلِّم المسلم أن يقول في صلاته ولو كان وحده، في جُنْح الليل، أو في وسط النهار: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]. وحين يتوجَّه بالسؤال إلى الله تعالى يقول: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦]. فهو يتمثَّل في ضميره الديني الجماعة، بل الأمَّة المسلمة كلَّها، ويتكلَّم باسمها، ويدعو الله نيابةً عنها.

يرى الإسلام أنَّ المسلم الحقيقي إنما هو جزءٌ من كلٍّ، عضوٌ في جسد

كبير، تُرسٌ دائر في (ماكينة) ضخمة، فلا يمكن أن يعمل وحده، ولا يَقبل ولا يُقبل أن يعمل وحده، ولذلك كانت هناك فرائض وآداب اجتماعيَّة يجب عليه أداؤها باعتباره مسلمًا، مثل: النصيحة في الدين، والدعوة إلى الخير، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر وبالمَرْحمة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومقاومة الطغيان والفساد، والتعاون على البرِّ والتقوى، لا على الإثم والعدوان، وعدم الركون إلى الظالمين، وعدم الموالاة لأعداء الإسلام، فهذه كلها واجبات دينيَّة، بعد فرائض يطلبها الله سبحانه من كل مسلم ومسلمة، وبدونها يكون إسلام كل واحد منهما ناقصًا نقصًا كبيرًا.

فكيف يكون مسلمًا ناجيًا مَن يقول: أنا أومن، وأعمل الصالحات، ولكن أعفوني من التواصي مع الآخرين بالحقِّ، والتواصي بالصبر؟ هل يقبل هذا منه؟ وهل ينجو من الخُسر أو الخسران، الذي جعله الله نصيبَ كلٍّ من لا يلتزم بهذه الشروط الأربعة المنجية من الخسر: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ٣]؟

وكيف يكون مسلمًا صحيح الإسلام من يقول: أنا أحافظ على أداء أركان الإسلام الخمسة من: الشهادتين، وإقامة الصَّلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحجِّ البيت. ولكني لا ألتزم بالدعوة إلى الله، والنصيحة في الدين، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؟ كيف وقد جعل الله هذه فرائض لازمة، فقال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٤﴾ [آل عمران: ١٠٤]؟

و(مِنْ) في قوله تعالى: ﴿مِنكُمْ﴾، في الآية للبيان، وليست للتبعيض، فهو يريد أن يكون مِنَّا، أي: نكون كلُّنا أمَّةً تدعو إلى الخير، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر. كما تقول: ليكن لي منك الصديقُ المخلص. أي: كن أنت الصديقَ المخلص. ولا عجب أن حصر الفلاحَ فيهم، ولا يمكن أن يحصر الفلاح في جماعة من أمة كبيرة دون غيرها.

وقال الرسول الكريم ﷺ: «الدين النصيحة». قلنا: لمن؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم»[١].

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (٥٥)، وأحمد (١٦٩٤٠)، وأبو داود في الأدب (٤٩٤٤)، والنسائي في البيعة (٤١٩٧)، عن تميم الداري.

ولا عجبَ أن اعتبر القرآن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الخصيصة المميِّزة للأمة المسلمة عن غيرها، وقدَّمه على الإيمان بالله، مع أصالته التي لا ريب فيها، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمرن: ١١٠].

وذمَّ القرآن الأمم التي تهمل هذه الفريضة الاجتماعيَّة العظيمة، وقال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٧٨ ـ ٧٩].

عمارة الأرض من مقاصد الشريعة:

من هنا ركَّز الإسلام على أصوله الاجتماعيَّة، ولم يقبل الرهبانيَّة التي ابتدعها النصارى في بعض مراحل حياتهم، واستنُّوها ابتغاء رضوان الله، فما رعَوها حقَّ رعايتها، وقد رفضها الإسلام؛ لأنه لا ينظر إلى الدنيا هذه النظرة، فعمارة الأرض مقصد من المقاصد الشرعيَّة الكبرى، وإحياء الموات، وتوسيع الزراعة والغرس، وإشاعة الحياة الطيِّبة بين الناس، ومحاربة الفقر والعوز في المجتمع، والأخذ من الأغنياء المال لتردَّه على الفقراء، والتقريب بين الطبقات المتفاوتة تفاوتًا فاحشًا، كل هذا من أعظم ما جاء به الإسلام.

فريضة الحضِّ على طعام المسكين:

حتى إنَّ من أعظم الفرائض التي نبَّه عليها القرآن، وحرَّض عليها بأساليبه القويَّة في الترغيب والترهيب: فريضة (**الحض على طعام المسكين**)، التي جعلها القرآن من الدلائل القويَّة على وجود الإيمان: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾﴾ [الماعون: ١ ـ ٣].

وعرض القرآن لنا بعض ما كشفه، مِمَّا ادَّخره الله في يوم القيامة لأصحاب الشمال، الذين حكم الله عليهم بدخول جهنم، وكلٌّ منهم يقول: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ [الحاقة: ٢٨ ـ ٢٩]. ثم يقول خزنة جهنم لهذا البائس الذي يستحق العذاب: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾ [الحاقة: ٣٠ ـ ٣٤].

لماذا استحق هذا الغنيُّ الظلوم كلَّ هذا العذاب في الآخرة؟

علَّل القرآن ذلك بأمرين:

الأول: أنَّه كان لا يؤمن بالله العظيم، مع أنَّ الإيمان هو ما تنادي به فطرته، وما دعا إليه رسل الله.

والثاني: أنه لا يَحضُّ ولا يُحرِّض على إطعام الفقراء والمساكين، ويَدَعهم يتضوَّرون جوعًا، ويتقلبون على الجمر أسفًا، ولا يجدون مَن يدفع عنهم مسكنتهم، ولذا قال أبو الدرداء لامرأته أم الدرداء: إنَّ لله سلسلة طولها سبعون ذراعًا، قد كسرنا نصفها بالإيمان بالله العظيم، وعلينا أن نكسر النصف الآخر بالحضِّ على طعام المسكين[1].

وقد وصف الله المجتمع الجاهليَّ بالحِرمان من هذه الصفة المميِّزة: الحض على طعام المسكين، فقال تعالى في مخاطبته ذلك المجتمع: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ [الفجر: ١٧ ـ ٢٠].

فهذه هي سِمة مجتمعات الجاهليَّة، التي تضيع فيها الفئات الضعيفة، ولا تكاد تجد قُوتها وأسس معيشتها، من الأيتام والمساكين وأبناء السبيل، وأمثالهم.

حقوق الضعفاء في المجتمع المسلم:

ولهذا فرض الإسلام لهؤلاء الضعفاء حقوقهم في كفالة العيش الملائم لهم، الكافي لإشباع حاجاتهم، وتحقيق رغباتهم المشروعة، ولا يقبل الإسلام أن يبيت فيه امرؤ جوعانَ وجاره شبعان: «ليس المؤمن الذي يبيت وجاره إلى جنبه جائع»[2].

فرض الإسلام هذه الحقوق في الزكاة المفروضة في كلِّ عام، وفي كلِّ موسم على كل الأموال النامية، التي تُدِرُّ على أصحابها دَخْلًا، فلا يجوز لهم

---

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٨/ ٢٧٤) لعبد بن حميد وابن المنذر.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (١١٢)، وأبو يعلى (٢٦٩٩)، والطبراني (١٢/ ١٥٤)، والحاكم في البر والصلة (٤/ ١٦٧)، وصحَّح إسناده، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٤٩)، عن ابن عباس.

أن يأكلوها وحدهم، ويَدَعوا الأمعاء الخالية تشكو جوعَها إلى ربِّها.

وفرض الإسلام ذلك في الأموال الأخرى من الغنائم والفيء، والأموال التي لا وارث لها، وكل ما يأتي إلى الدولة المسلمة، كما قال تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: ٧].

فلا بدَّ من تعميم النفع بالمال، بحيث يستفيد منه الضعفاء، ولا يصبح المال متداولًا بين الأغنياء وحدهم. فهذه هي خصيصة الرأسمالية المَحْضة، التي كرهها الناس وقاوموها.

أحكام اجتماعية مهمَّة:

وقد أحاط الإسلام فرائضه الدينيَّة الكبرى بسلسلة من التعاليم والأحكام الاجتماعيَّة المهمَّة، التي تعطيها صيغة مقبولة عند الناس، وينتفع بها الغني والفقير، ويرحِّب بها القوي والضعيف.

فلهذا فرض صلاة الجمعة في كلِّ أسبوع على الجماعة، وشرع صلاة الجماعة باستمرار، وجعل الصيام؛ ليشعر القادر بما يعانيه العاجز، والواجد ما يحسُّ به المحروم، وكذلك الزكاة هي حقٌّ معلومٌ للسائل والمحروم، وكذلك الحج، وهو سَفْرة اجتماعية يتعلم الناس فيها كيف يمارسون السلام معًا، مع الناس ومع الصيد والوحوش والحشائش: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ [المائدة: ٩٦]. ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَـٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة: ١٩٧].

٨ ـ الأمَّة الوسط:

ومن أهداف الخُلُقية الإسلامية، التي جاء بها الإسلام ودَعَا إليها: تكوين الأمَّة الوسط، كما قال الله تعالى مخاطبًا المسلمين: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

والأمَّة الوسط لها عدَّة معانٍ، أهمها أمران:

الأول: أنَّ الوسط هو الأمر المعتدل بين الغلو والجفاء، أو بين الإفراط

والتفريط، وهو الذي نفهمه من قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ٦ ـ ٧]. وهو المفهوم من قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝١٥٣﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقد وضَّح الرسول الكريم هذا المعنى القرآنيَّ برسم تبسيطي تعليمي، رسمه على الرَّمْل، وَفْق ما كان لديه في ذلك الزمن من إمكانات؛ كما روى ابن مسعود عنه في ذلك، قال: خطَّ لنا رسول الله ﷺ خطًّا، ثم قال: «هذا سبيلُ الله». ثم خطَّ خطوطًا عن يمينه وعن شماله، ثم قال: «هذه سُبُل ـ قال يزيد: متفرقة ـ على كلِّ سبيل منها شيطان يدعو إليه». ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝١٥٣﴾ [الأنعام: ١٥٣][1].

وهو ما تأمر به آيات القرآن في مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩﴾ [الرحمن: ٧ ـ ٩]. فلا طغيان في الميزان، ولا إخسار في الميزان، بل المراد هو التَّوسُّط والاعتدال، الذي يُعرِّف كل إنسان ما عليه من واجب، ويُعطيه ما له من حقٍّ، بلا طغيان عليه، ولا مُمَالأة له.

والإسلام وحده ينفرد بهذه المزيَّة (الوسطيَّة) الجامعة، دون غيره من المِلل الكتابية التي حُرِّفت وبُدِّلت عن أصلها المنزَّل، أو التي وضعها البشر أو مسخوها بتصورهم الذاتي.

وقد جاء ذلك في التفسير المأثور: التمثيل للمغضوب عليهم في سورة الفاتحة باليهود، وللضَّالِّين بالنصارى[2].

والمعنى في ذلك: أنَّ كلًّا من اليهود والنصارى يمثِّلون الإفراط والتفريط

---

(١) رواه أحمد (٤١٤٢)، وقال مخرِّجوه: إسناده حسن، والنسائي في الكبرى في التفسير (١١١٧٤)، وابن حبان في المقدمة (٦)، وقال الأرناؤوط: إسناده حسن. والحاكم في التفسير (٢/ ٢٣٩)، وصحَّحه ووافقه الذهبي، عن ابن مسعود.

(٢) إشارة إلى الحديث: يا رسول الله، من هؤلاء؟ قال: «هؤلاء المغضوب عليهم». فأشار إلى اليهود، فقال: من هؤلاء؟ قال: «هؤلاء الضالون». يعني: النصارى. والحديث: رواه أحمد (٢٠٧٣٦)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٣٢٦٣)، عمن سمع النبي ﷺ.

في كثير من القضايا، فاليهود قتلوا الأنبياء، والنصارى ألَّهُوهم.. اليهود أسرفوا في التحريم، والنصارى أسرفوا في التحليل، حتى قالوا: كل شيء طيب للطيبين.. اليهود غلَوْا في الجانب المادي، والنصارى قصَّروا فيه.. اليهود تطرَّفوا في اعتبار الرسوم في الشعائر والتعبُّدات، والنصارى تطرَّفوا في إلغائها.

وإنما اعتبر اليهود مغضوبًا عليهم لِمَا اقترفوا من مُوبقات، حتى إنهم تطاولوا على الله وقالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]. واعتدوا على الأنبياء، فكذَّبوا منهم مَن كذَّبوا، وقتلوا منهم مَن قتلوا. وأما النصارى فإنهم تاهوا عن الحق، وشردوا عنه فيما اقتبسوه من وثنية الرومان وغيرها، فلهذا اعتبرهم ضالِّين.

والإسلام يُعلِّم المسلم أن يحذر من تطرُّف كلا الفريقين، وأن يلتزم المنهج الوسط، أو الصراط المستقيم، الذي سار عليه كلُّ مَنْ رضي الله عنهم، وأنعم عليهم من النَّبيِّين والصِّدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين.

ولشيخ الإسلام ابن تيميَّة هنا كلام جيد متين في وسطيَّة الأمَّة المسلمة، بعيدًا عن غلوِّ مَنْ كان قبلها وتقصيرهم، قاله في كتابه **(الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح)**:

«وقد خصَّ الله تبارك وتعالى محمَّدًا ﷺ، بخصائص ميَّزه بها على جميع الأنبياء والمرسلين، وجَعَل له شِرْعةً ومنهاجًا، أفضل شرعة، وأكمل منهاج مبين.

كما جعل أمَّته خير أمَّة أُخرجت للناس، هداهم الله بكتابه ورسوله لِما اختلفوا فيه من الحقِّ قبلهم، وجعلهم وسطًا عدلًا خيارًا.

فهم وسط في توحيد الله وأسمائه وصفاته، وفي الإيمان برسله وكتبه وشرائع دينه، من الأمر والنهي، والحلال والحرام، فأمرهم بالمعروف، ونهاهم عن المنكر، وأحلَّ لهم الطيِّبات، وحرَّم عليهم الخبائث.

لم يُحرِّم عليهم شيئًا من الطيبات كما حرَّم على اليهود، ولم يحلَّ لهم شيئًا من الخبائث كما استحلَّها النصارى».

ويستمر ابن تيمية في ضرب الأمثلة التي تدل على وسطيَّة الإسلام بين

اليهود والنصارى، في مختلف الأحكام، في العبادات والمعاملات(1).

الثاني: أنَّ الوسط هو الخَيْر أو الأفضل. فمعنى جعل الأمَّة (وسطًا) أي: جعلها خير الأمم، فهي أمَّة فُضْلى، أمَّةٌ مُثلى، أمَّةٌ لا نظير لها. وهذا التفضيل للأمة ليس لشيء مادي تميزت به على الناس، ولكن لأن الله ميَّزها بحمل الرسالة الربَّانيَّة العالميَّة للبشر جميعًا، في المشارق والمغارب، أبيضهم وأسودهم، وهذا ما نطق به القرآن حين قال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. بهذه الدعوة إلى الناس كافَّة، لنشر الإسلام بينهم، ومقاومة الإلحاد والوثنية والشك والإباحية، تتميز هذه الأمَّة، وهذا ما ذكره الرسول الكريم حين قال: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨].

ولذلك اختار الله لهذه الأمَّة المُصْطفاة على العالمين: خير كتاب أنزل للبشر، وهو القرآن الكريم، الذي قال فيه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: ١]. واختار خير نبيٍّ أُرسِلَ للناس على صراط مستقيم، وهو محمَّد، الذي قال فيه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وبين هذين المعنيَيْن الكبيرين كانت هذه الأمَّة، التي هي أمَّة مُخْرَجة من الله، ومجْعولة من الله، ليست أمة سائبة، ولا ضائعة، لها طبيعتها الربَّانيَّة، ولها طبيعتها الواحدة، ليست أممًا كما يريد بعض الناس أن يُغيِّر مفهومها، ويغيِّر هدفها، ويُغيِّر طبيعتها، والله تعالى قد نصَّ على ذلك فقال: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء: ٩٢]. ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ [المؤمنون: ٥٢].

ولذا لا ينبغي أن يقول بعض الناس: الأمم الإسلاميَّة. فالحقيقة: أنها شعوب إسلاميَّة لأمة واحدة، ويجب أن يعمل العلماء والدعاة والمفكِّرون، وكلُّ مَن يهتمُّ بأمر هذه الأمَّة، على هذا الأساس.

---

(١) الجواب الصحيح (١/ ٦٩ ـ ٧٠)، دار العاصمة، السعودية، تحقيق: علي بن حسن وآخرون. وانظر: فقه الوسطيَّة الإسلامية والتجديد ص٥٠ ـ ٥٢، ببعض تصرف، طبعة دار الشروق، القاهرة، الثانية ٢٠١٢م.

واجب الأمَّة المسلمة نحو الإنسانيَّة:

الأمَّة الإسلامية مطالبة من الله تبارك وتعالى، ومطالبة بحكم إيمانها بالإسلام، وبحكم التزامها بمبادئه ودعوته بين الناس: أن تنادي الناس جميعًا إلى الإسلام؛ ليدخلوا في السِّلم كافَّة؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾ [البقرة: ٢٠٨].

الأمَّة الإسلامية أمَّة دعوة للناس كافَّة، لا تريد من هذه الدعوة مالًا، ولا جاهًا، ولا دنيا عريضة، ولا شيئًا في الحياة، بل تريد الخير للناس أنفسهم، فليس معقولًا أن يهتدي الإنسان للخير، ويحسُّ بنعمة الله عليه فيه، ويرى إخوانه من حوله محرومين منه، يعيشون في ظمأ داخليٍّ، وفي إحراق لا يجد ما يطفئه، وفي قلق قاسٍ، يجعل الحياة كأنما تتقلب على نار حامية؛ وعنده برد اليقين، الذي يملأ صدره، ويقوِّي وجدانه، ويسيِّر حياته، وينوِّر سلوكه.

ما أصعب على الإنسان الذي يعيش في النور أن يرى مَنْ حوله يتخبطون في الظلام، ويصرخون ويتصايحون من الرعب الذي يحيط بهم! ولو أنهم تنبَّهوا إلى هذا الزر القريب، وضغطوا عليه، لتغيَّر كل شيء فجأة، وانقلب الظلام نورًا، ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الملك: ٢٢].

القرآن أعظم مرجع يتعرف منه الإنسان الوسطيَّة الحقة:

لقد تبيَّن لنا أنَّ أعظم مرجع يتعرف منه الإنسان الوسطيَّة الحقة، هو القرآن الكريم، الكتاب الذي نعرف منه الإسلامَ الحقَّ بما فيه من عقائد وعبادات، وما فيه من أخلاق وآداب، وما فيه من تشريعات عادلة، للفرد وللأسرة، وللمجتمع وللدولة، وللعلاقات الإنسانيَّة والعالمية.

وفي القرآن نعلم أنَّ رسل الله جميعًا، دعَوْا إلى هذه الوسطيَّة، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

وجاءت السنة النَّبويَّة، فبينت وفسَّرت ما في القرآن، وضربت بعض الأمثلة، ووضعت بعض التفصيلات، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: ٤٤].

وممَّا وضحته السنة بجلاء: رفض الغلو والتَّشدُّد عند بعض الصحابة الذين تقالُّوا ما رأوه من سنَّة النبي ﷺ، فقال أحدهم: أمَّا أنا فإني أصلي الليل أبدًا. وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال آخر: أنا أعتزل النساء، فلا أتزوَّج أبدًا. فجاء رسول الله ﷺ إليهم، فقال: «أنتم الذين قُلتم كذا وكذا، أما والله إنِّي لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكنِّي أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوَّج النساء، فمَن رغِب عن سنَّتي فليس مني»[1]. وكان عليه الصلاة والسلام يقاوم نزعة التشديد على النفس في التعبُّد صيامًا وقيامًا وذكرًا وتلاوة، بحيث يجور على حقِّ نفسه، وحقِّ أهله، وحقِّ مجتمعه. ويرى أنَّ العدل أن يعطى كلُّ ذي حقٍّ حقَّه، بلا طغيان ولا إخسار في الميزان، كما فعل ذلك مع عبد الله بن عمرو حين بالغ في التعبُّد فقال له: «إنَّ لبدنك عليك حقًّا، وإنَّ لعينك عليك حقًّا، وإنَّ لأهلك عليك حقًّا، وإنَّ لزَوْركَ عليك حقًّا»[2]. وفي رواية: «فأعطِ كلَّ ذي حَقٍّ حقَّه»[3].

كما ينكر على من يرفض رخصة الله له إذا كان مسافرًا أو مريضًا، ومَنْ حقُّه أن يفطر، ويقضي عدَّة من أيام أُخَر.

دلالة كلمة (القصد) في السنة على الوسطيَّة:

ولا تكاد توجد كلمة (وسط) في السنَّة، إلا في تفسير الكلمة القرآنية: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، ولكن توجد كلمة بديلة عنها وهي كلمة (القصد)، ومعناها: الاعتدال والتوسط، كما في القرآن في وصايا لقمان لابنه: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ [لقمان: ١٩]. أي: امش مشيًا معتدلًا بين الهرولة والبطء.

قال رسول الله ﷺ حين رأى بعض الناس يطيل في العبادة: «عليكم هديًا قاصدًا - ثلاث مرات - فإنه مَنْ يشادَّ الدين يغلبْه»[4]. ومعنى «قاصدًا»، أي: وسطًا معتدلًا.

وعن جابر بن سَمُرة قال: كنتُ أصلي مع النبيِّ الصلوات، فكانت صلاته

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١)، كلاهما في النكاح، عن أنس.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٩٧٥)، ومسلم (١١٥٩)، كلاهما في الصيام، عن عبد الله بن عمرو.

(٣) رواه البخاري في الصوم (١٩٦٨)، والترمذي في الزهد (٢٤١٣)، عن أبي جحيفة السوائي.

(٤) رواه أحمد (١٩٧٨٦)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح، وابن أبي عاصم في السنة (٩٧)، عن أبي برزة الأسلمي.

قصدًا وخطبته قصدًا[1]. أي: ليست بالطويلة المُملَّة، ولا بالقصيرة المُخِلَّة.

وجاءت عدَّة أحاديث ما بين صحيح وحسن، تثني على القصد في الفقر والغنى، أي: التوسط والاعتدال فيه، كما في حديث عمار بن ياسر: «وأسألك القصد في الفقر والغنى»[2].

وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ مُهلِكات: شحٌّ مطاع، وهوًى مُتَّبع، وإعجاب المرء بنفسه. وثلاث منجيات: خشية الله في السرِّ والعلانية، والقصد في الغنى والفقر، وكلمة الحقِّ في الرضا والغضب»[3].

وفي الحديث الصحيح: «فسدِّدوا وقاربوا وأبشروا، واغدوا وروحوا، وشيء من الدُّلجة، والقَصْدَ القصدَ تبلغوا»[4].

كلام الحافظ ابن رجب في معنى القصد في هذا الحديث:

وقد شرح هذا الحديث شرحًا وافيًا الحافظ ابن رجب الحنبلي في رسالته **(المحجّة في سيْر الدُّلجة)**، ومما قاله فيها: «إنَّ أحبَّ الأعمال إلى الله ما كان على وجه السَّداد والاقتصاد والتيسير، دون ما كان على وجه التكلُّف والاجتهاد والتعسير.

كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦]. وقال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

وكان النبي ﷺ يقول: «**يسِّروا ولا تعسِّروا**»[5]. وقال: «**إنَّما بُعثتم ميسِّرين**

---

(١) رواه مسلم في الجمعة (٨٦٦)، وأحمد (٢٠٨٨٥)، والترمذي (٥٠٧)، والنسائي (١٤١٨)، كلاهما في الجمعة.

(٢) رواه أحمد (١٨٣٢٥)، وقال مخرّجوه: حديث صحيح، والنسائي في السهو (١٣٠٥).

(٣) رواه البزار (٦٤٩١)، والطبراني في الأوسط (٥٤٥٢)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٣٠٣٩).

(٤) رواه البخاري في الرقاق (٦٤٦٣)، وأحمد (١٠٦٧٧)، والنسائي في الإيمان (٥٠٣٤)، عن أبي هريرة.

(٥) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (٦٩)، ومسلم في الجهاد والسِّيَر (١٧٣٤)، عن أنس.

ولم تبعثوا مُعسِّرين»[1].

وفي (المسند) عن ابن عباس: قيل لرسول الله ﷺ: أيُّ الأديان أحبُّ إِلَى الله ﷻ؟ قَالَ: «الحنيفيَّة السَّمْحة»[2].

وفيه أيضًا عن مِحْجَن بن الأدرع: أنَّ النبيّ ﷺ دخل إلى المسجد، فرأى رجلًا قائمًا يصلي، فقال: «أتراه صادقًا؟». فقيل: يا نبيَّ الله، هذا فلان، هذا من أحسن أهلِ المدينة، ومن أكثر أهل المدينة صلاة. فَقَالَ: لا تُسْمِعه فتُهلِكَه - مرتين أو ثلاثًا - إنكم أمة أُريد بكم اليسر»[3].

وفي رواية أخرى له قَالَ: «إن خير دينكم أيسره»[4]. وفي رواية أخرى له قَالَ: «إنكم لن تنالوا هذا الأمر بالمغالبة»[5].

وخرجه حميد بن زنجويه وزاد فيه، فقال: «واكلفوا من العمل ما تطيقون؛ فإنَّ الله لا يملُّ حتى تملُّوا، وعليكم بالغدوة والرَّوْحة، وشيء من الدُّلْجة».

وقد أنكر النبي ﷺ على من عزم على التبتُّل والاختصاء وقيام الليل، وصيام النهار، وقراءة القرآن كل ليلة، كعبد الله بن عمرو بن العاص وعثمان ابن مظعون والمقداد وغيرهم، وقال: «ولكني أصوم وأُفطر، وأقوم وأنام، وأتزوج النِّساء، فمن رغب عن سُنَّتي فليس منِّي»[6].

وانتهى بعبد الله بن عمرو أن يقرأ القرآن في كل سبع، وفي رواية أنه انتهى به إلى قراءته في كل ثلاث، وقال: «لا يفقه من قرأه في أقل من ثلاث»[7]. وانتهى به في الصيام إِلَى صيام داود، وقال: «لا صيام أفضل من ذلك». وفي

---

(١) رواه البخاري في الوضوء (٢٢١)، وأحمد (٧٢٥٥)، وأبو داود (٣٨٠)، والترمذي (١٤٧)، والنسائي (٥٦)، كلاهما في الطهارة، عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد (٢١٠٧) وقال مخرِّجوه: صحيح لغيره، والبخاري في الأدب المفرد (٢٨٧).

(٣) رواه أحمد (٢٠٣٤٧) وقال مخرِّجوه: حسن لغيره.

(٤) رواه أحمد (٢٠٣٤٩) وقال مخرِّجوه: حسن لغيره.

(٥) رواه أحمد (١٨٩٧١) وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٥٩٨٢): رجاله رجال الصحيح، عن ابن الأدرع.

(٦) متفق عليه: رواه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١)، كلاهما في النكاح، عن أنس.

(٧) رواه أحمد (٦٥٣٥) وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وأبو داود في الصلاة (١٣٩٤)، والترمذي في القراءات (٢٩٤٩) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٤٧)، عن عبد الله بن عمرو.

القيام إلى قيام داود ﷺ[1]»[2] اهـ.

رفض السنة للغلو:

عن عبدالرحمن بن شبل قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرؤوا القرآن واعملوا به، ولا تغلوا فيه، ولا تجفوا عنه، ولا تأكلوا به، ولا تستكثروا به»[3].

وعن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ من إجلال الله: إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المُقسِط»[4].

٩ ـ التعارف العالمي والإنساني:

ومن أهداف الخُلُقيّة الإسلاميَّة أخيرًا: التعارف والتعاون العالمي الإنساني، وهو الذي أشار إليه القرآن، في سورة الحُجرات حين قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ [الحجرات: ١٣]. هذا خطابٌ للناس جميعًا، مسلمين وغير مسلمين، يناديهم ربهم بأنَّ خالقهم واحد، ولا شك أنَّ وحدة الخالق تعدُّ سببًا رئيسيًا من أسباب وحدة الخلق، فلو خلقهم خالقون متخالفون أو متشاكسون، يمكن أن يعارض بعضهم بعضًا، وينفر بعضهم من بعض.

وقد خلقهم الله جميعًا بطريقة واحدة: ﴿مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾، بمعنى أننا كلنا أبناء آدم وحواء، الأب الأول، والأم الأولى، أو بمعنى: أنَّ الناس كلهم خلقوا على هذه الطريقة من زوج وزوجة، أو رجل وامرأة، أو ذكر وأنثى.

عن هذا الأصل الواحد الذي خلق منه الناس تحوَّلوا إلى فروع كثيرة

---

(١) إشارة إلى الحديث المتفق عليه: «إن أحب الصيام إلى الله صيام داود، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود ﷺ، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، وكان يصوم يومًا، ويفطر يومًا». رواه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٥٢)، ومسلم في الصيام (١١٥٩)، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) المحجة في سير الدلجة، ضمن مجموعة رسائل ابن رجب (٤/ ٤١٠ ـ ٤١١)، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م، تحقيق: طلعت الحلواني.

(٣) رواه أحمد (١٥٥٢٩)، وقال مخرّجوه: حديث صحيح، وأبو يعلى (١٥١٨)، والطبراني في الأوسط (٢٥٧٤)، ووثق رجاله الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٤٤٥).

(٤) من فقه الوسطيَّة الإسلامية والتجديد ص٦٦، ٦٧. والحديث رواه أبو داود في الأدب (٤٨٤٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٥٧)، وحسَّنه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٢٧٤).

سمَّاها الله: شعوبًا وقبائل. فهذا الشعب العربي، وهذا الشعب التركي، وهذا الشعب الهندي، وهذا الشعب الفارسي، وهذا الشعب الأفغاني، وهذا، وهذا. . شعوب وقبائل، موزعة في أنحاء العالم.

ولكن هذه الشعوب والقبائل لا ينبغي أن تفرِّق الناس بعضهم عن بعض، أو تجعلهم أعداء بعضهم لبعض، بل ينبغي أن يكون هذا سببًا للتعارف والتفاهم بيننا، بدل أن يكونوا ركامًا مطروحًا، لا تربط بين جماعاتهم روابط نسب ولا جوار، ولا رابطة تصل بين بعضهم وبعض. ولهذا قال الله تعالى بعد أن ذكر جَعْل الناس شعوبًا وقبائل: ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾، أي: ليتواصل هذا الشعب مع ذلك الشعب، وهذه القبيلة مع تلك القبيلة.

وهذا التواصل لا بدَّ أن يكون فيه التعاون على خير البشر، وتقسيم الخيرات بينهم حسب العدد والقدرة والحاجة، وتحمل كل جماعة ما يجب عليها من التَّبِعات، فيخدم كلٌّ منهم نفسه، ويخدم صاحبه ورفيقه، وكما قال الشاعر:

الناس للناس من بدوٍ وحاضرةٍ　　　بعضٌ لبعضٍ وإنْ لم يشعروا خدمُ

فالإسلام يحرص كلَّ الحرص على أن يشيع التعارف والتفاهم بين الناس، فلا يخاف بعضهم من بعض، ولا يطمع بعضهم في بعض، ولا يسيء بعضهم الظنَّ ببعض.

وأول ما يجب أن يفهمه البشر فيما بينهم أنَّ الإنسانيَّة بعضها من بعض، ليس هناك جنس أعلى من جنس، ولا لون مُفضَّل على لون، ولا أرض يفضُل أبناؤها بطبيعتهم على أبناء أرض أخرى، بل قرَّر الإسلام أن الناس جميعًا يجمعهم أمران مهمان، بل في غاية الأهمية:

أولهما: أنهم جميعًا مخلوقون، وأنَّ الذي خلقهم ربٌّ واحد، هو الذي خلق الكون الكبير كله من حولهم، وهو الذي يرزقهم ويسخر لهم كل ما يحتاجون إليه.

والثاني: أن جميع أفراد البشريَّة ينتمون إلى أب واحد، هو الذي ينتسب إليه كلُّ الناس، وهو آدم، وزوجته حواء، وكل الأجناس من عرب وعجم، وبيض وسود وملونين، كانوا من هذا الرجل وزوجته.

وقد قرَّر هذه الحقيقة نبيُّ الإسلام محمد ﷺ، الذي أعلن ذلك في (حجَّة الوداع)، وهي الحجَّة الوحيدة التي حجَّها، وحضرها جمٌّ غفير من أصحابه، حوالي مائة ألف، بلغهم فيها الرسول ﷺ رسالاته، التي تعتبر الرسالات الأخيرة، لإرساء الدعوة وتمكين الأمَّة، وتوضيح المعالم، وبيان الثوابت. قال عليه الصلاة والسلام في حَجَّة الوداع: «أيُّها الناس، إنَّ ربَّكم واحد، وإنَّ أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، لا فضل لعربيٍّ على عجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى»[1].

وفي هذا البيان المحمدي العالمي الذي يشبه البيان الختامي، أوصى الناسَ وهم مجتمعون، من كافة القبائل والبلاد والمجتمعات، وذكر جملة من الأحكام والوصايا والتعليمات المهمة للأمة، ومما يبين أهميتها أنه أعلن لهم أنه لعله لا يلقاهم بعد عامه هذا، من هذه التعليمات والوصايا: تحريم الدماء والأموال والأعراض، والوصية بالنساء خيرًا، والوصية بما ملكت الأيْمان.

ونزل في يوم عرفة قول الله تعالى في سورة المائدة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المائدة: ٣].

وسمع أحد اليهود من المسلمين هذه الآية، فقال: لو نزلت هذه الآية فينا لاتَّخذنا ذلك اليوم عيدًا. فقال عمر رضي الله عنه: إني لأعلم أي مكان أنزلت؛ أنزلت ورسول الله ﷺ واقف بعرفة[2].

السلم قاعدة عامة للبشريَّة:

نريد أمة تنطلق من حجة الوداع، لتدعو الناس من أنحاء العالم، من كل القارات، ومن كل الأجناس، ومن كل الألوان، ومن كل الطبقات، إلى إنسانيَّة واحدة، نؤمن نحن المسلمين بربِّها الواحد الذي خلقها، وبأبيها الواحد الذي تنتمي إليه، ويؤمن معنا كل المؤمنين بكتب السماء من اليهود والمسيحيين.

ولا شك أن جميع شعوب العالم تؤمن بالمساواة بين البشر جميعًا، حتى لو كانت لا تؤمن بالله الواحد، أو لا تؤمن بالأب الواحد للبشريَّة.

---

(١) رواه أحمد (٢٣٤٨٩)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح، وقال الهيثمي في المجمع: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح (٣/ ٥٨٦)، عمَّن سمع خطبة النبي صلى الله عليه وسلم.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في المغازي (٤٤٠٧)، ومسلم في الإيمان (٣٠١٧)، عن طارق بن شهاب.

والإسلام يرتضي السلم قاعدة عامَّة للبشريَّة كلها، وهو ما دعا إليه القرآن كلَّ المؤمنين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨﴾ [البقرة: ٢٠٨]. وإذا كان المؤمنون كافة مأمورين بالدخول في هذا السِّلم، فالمطلوب من الجميع أن يشاركوهم في هذا السلم العام، ولا يجوز لهم أن يرفضوا هذه الدعوة الخيرة، ويسيروا في ركاب الشيطان الذي يغري بينهم، ويثير الشرور، ويخلق العداوات، وينفخ في النار، ولا يستريح حتى تتحول الشرارة إلى جحيم، يأكل الناس والحجارة، ويصبح الناس ويمسون على الحرب والضرب، ويُودِعون في كلِّ يوم أفواجًا إلى القبور، قُتِلوا بأيدي إخوانهم، ثم يمضون في النهاية، ولا يجدون أنفسهم قد قضوا كل ما كانوا يطلبون.

الإسلام يدعو الناس إلى أن يختاروا الحياة الأفضل: أن يؤمن من يؤمن بدينه الذي يرى فيه الحق والخير والجمال، ويترك للآخرين أن يختاروا دينهم بأنفسهم دون أن يفرض عليهم أحد دينه بالقوة أو بالحيلة، ويتعاون الناس بعضهم مع بعض، ويدعو بعضُهم بعضًا إلى دينه بالكلمة الطيِّبة، والحُجَّة البالغة، والقدوة الحسنة، وهذا ما يؤكده الإسلام، كما قال تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ٢٥﴾ [الأحزاب: ٢٥]. فانظر: كيف اعتبر القرآن كفاية الله المؤمنين القتال نعمة يمتن بها على عباده، وفي هذا دليل على أنه لا يحب سفك الدماء، إلا دماء الظالمين، الذين يقتلون الناس بغير حق، ويعيثون في الأرض فسادًا.

الفصل الرابع

وسائل الإسلام في تحقيق الأهداف الأخلاقيَّة

إذا كان الإسلام قد وضع لنا الأهداف والمقاصد الأخلاقيَّة العليا، التي نرنو إليها، ونتطلَّع إلى آفاقها بشوق وهمَّة، فإنه لم يحرمنا من وسائل، بل نستطيع أن نعرفها ونتخذها، لتكون وسيلتنا العملية إلى تحقيق هذه الأهداف. وإلا فما معنى وجود أهداف مُحبَّبة مطلوبة للإنسان، لا يستطيع الوصول إليها، بحيث يقول القائل:

هِيَ الشمسُ مَسكنُها في السماء   فعَزِّ الفؤادَ عزاءً جميلَا
فَلن تستطيعَ إليها الصعود   ولَن تستطيعَ إليكَ النزولَا

والحقُّ أن الإسلام لم يغفل ذلك في أيِّ هدف من الأهداف التي وضعها للإنسان في كلِّ جوانب حياته، الروحية والمادية، الفردية والاجتماعية، فإذا وضع الإسلام هدفًا للإنسان، أو للمجتمع، أو للأمة، أو للبشريَّة كلِّها، فسرعان ما يضع السبل التي يبصرها المرء وتتضح له، والتي تدعوه إلى أن يسلكها ليحصل على ما يريد من خيرات، ويجني ما يجني من ثمرات.

١ ـ أسوة حسنة للبشر

لقد تميَّزت الأخلاق الإسلاميّة بأنَّها وضعت أمام البشر «قدوة عمليَّة» لا نظير لها، مسيرة حيَّة معروفة متكاملة، تصلح لكل الناس، متَّصلة الحلقات، فيها حياة الطفولة، وحياة الشباب، وحياة العزوبة، وحياة الزواج، وحياة الزوجات المتعدِّدات، وحياة الجهاد، والسِّلم والحرب، والانتصار والانكسار، والصحة والمرض، والفرح والحزن، والسَّعَة والضيق، وما في الحياة من أحداث إلى الموت.

فلم تكن الأخلاق مُجرَّد مُثُلٍ أفلاطونيَّة تُلقى في بعض الدروس، أو أفكار

خيِّرة تدور ببعض الرؤوس، بل تجسَّدتْ هذه الأخلاق ـ في صورتها المُثلى ـ في إنسان يعيش على الأرض، ويأكل الطعام، ويجول في الأسواق، ليس إلهًا، ولا ابن الإله، ولا ثُلث إله، ولا واحدًا من نسل الآلهة، ولا هو ممَّن حلَّ فيهم روح الإله. بل هو رجل من الناس، يخصف نعله، ويرقع ثوبه، ويحلب شاته، ويمشي مع الجارية والغلام، ويعيش مع الناس في السفر والحضر كواحد منهم، في غزوة بدر يقترح عليه من شاركاه البعير الذي يركبه: أن يتنازلا عن نوبتهما في الركوب، ليركب ويمشيا، وكانا شابين، وهو قد جاوز الخمسين، فيقول لهما: «ما أنتما بأقوى مني، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما»[1].

إنه بشرٌ له كل طبائع البشر، لا يمتاز عنهم إلا بوحيٍ إلهيٍّ يتنزَّل عليه، فيرشده ويأخذ بيده، يُسدِّده إذا أخطأ، ويُنبهه إذا غفل، ويذكِّره إذا نسي، ويقوِّيه إذا ضعف، ويضع في يده المصباح الذي لا ينطفئ أبدًا: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: ٤٠]. هكذا أمره الله أن يبلغ الناس: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الكهف: ١١٠].

القدوة المختارُ والأسوة لكل المؤمنين:

هذا الإنسان القدوة المختار هو محمد بن عبد الله، الذي بعثه الله؛ ليتمِّم مكارم الأخلاق التي جاء بها الأنبياء، وخاطب الله المؤمنين في شأنه، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾ [الممتحنة: ٦]. ثم نبَّههم على أنه الأسوة المُثلى، فقد وضع الله فيه كل المثل البشرية العليا، التي لم تتح لبشر غيره، فقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقد جعل الله في حياة هذا الرسول، وفي سيرته أسوةً لكل الناس، أبيضِهم وأسودهم، شبابِهم وشيوخهم، فقرائِهم وأغنيائهم، حُكَّامِهم ومحكوميهم، مسالميهم ومحاربيهم، فكلُّ إنسان ـ على اختلاف موقعه ـ يستطيع أن يجد الأسوة في سيرة هذا النبي الكريم، وفي حياته الغنيَّة بالدروس والعبر، بخلاف الأنبياء الآخرين صلوات الله عليهم، الذين جعل الله كل واحد منهم

---

(١) رواه أحمد (٣٩٠١)، وقال مخرِّجوه: إسناده حسن، والنسائي في الكبرى (٨٧٥٦)، وابن حبان (٤٧٣٣)، كلاهما في السير، والحاكم في الجهاد (٢/ ٩١)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، وحسَّنه الألباني في الصحيحة (٢٢٥٧)، عن ابن مسعود.

أسوة في ناحية أو أكثر من نواحي الحياة البشرية الحافلة، وذلك بحسب ما تحتاج إليه رسالته المحدودة في زمنها، والمحدودة بحدود قومه وبيئتهم وطبيعتهم.

فهو الأسوة لكلِّ المؤمنين في كلِّ ظروفهم وأوضاعهم، على تباينها وتغيُّرها واختلافها، فهو أسوة للشاب الذي يتمتع بشبابهْ وقوته، ولكنه لم يتيسَّر له الزواج الذي يشبع شهوته الجنسيَّة المشروعة، ولكنه يغضُّ بصره، ويحصن فرجه، ولا يفكر في تعدِّي حدود الله، حتى يهيِّئ له الزواج من المرأة الصالحة.

وهو حين يتزوَّج مثال للزوج الصالح، الذي يحرص على حقوق زوجته، ويعاشرها بالمعروف، كما يكون خير أب للأبناء والبنات، وخير جدٍّ لمن ينجب من أبنائه وبناته.

وهو إذا أصابه الفقر والمَسْكَنة وضيق العيش، صبر وصابر، حتى يأتي الله بالفرج، ورضي بالقليل من العيش، ولم يطمع في الكثير ممَّا حرمه الله. وإذا جاء الغنى لم يطغه المال، ولم يضيِّع حقًّا لفقير، ولم ينسَ شكر الله تعالى على نعمه.

وهو إذا سالم سالم مَن يستحق السلم، وإذا حارب حارب مَن يستحق الحرب، ومع هذا إذا سنحت الفرصة آثر السِّلْم، وعقد الصلح، واعتبره فتحًا مبينًا، كما علَّمه الله في صلح الحديبية.

وهو إذا حكم عدل وأقام القسط بين الناس، ولم يظلم فردًا ولا أسرة ولا قبيلة ولا جماعة، بل يعيش الجميع في فضل من الله ورحمة، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

٢ ـ التربية المستمرة

ولا شك أنَّ التربية من أهم الوسائل التي آتاها الله لأمَّة محمد، لتتلقى أخلاق الإسلام العالية من دينها العظيم، ومن قرآنها الكريم، ومن رسولها الذي سمَّاه الله في كتابه رؤوف رحيم: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾ [التوبة: ١٢٨]. وجعل رسالته رحمة للعالمين، وعرفه في التوراة والإنجيل بأنه: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ولهذا جاء هذا الرسول معلِّمًا ومربيًا للأمة، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [آل عمران: ٢].

فهذه الآية التي تكرَّر معناها في القرآن أربع مرات، تبيِّن لنا مهمة الرسول مع الأمَّة، فتتضمن ثلاثَ مهامَّ كبيرةٍ:

الأولى: تلاوة آيات الله، وهذه الآيات يتلوها الله على رسله، ثم يتلوها الرسول على الأمَّة، وبها يبلِّغ إلى الأمَّة ما يريده الله منها، وما يأمر به، وما ينهى عنه، وما يحبه ويرضاه، وما يبغضه ويسخطه، فهذا تلقين وتعليم لآيات الله، بحيث لا تُنسى ولا يُغفَل عنها، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٨﴾ [آل عمران: ١٠٨]. ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ [الجاثية: ٦].

وقال تعالى لرسوله: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝٢٧﴾ [الكهف: ٢٤]. ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ﴾ [الأنعام: ١٥١].

فهذه هي الشعبة الأولى من مهمَّة الرسول مع الأمَّة.

والشعبة الثانية: هي التزكية، وهي تتضمَّن معنيين مهمين: المعنى الأول: الطهارة. والمعنى الثاني: النَّماء.

فالرسول يُطهِّر الأمَّة من الشِّرك والنفاق والرذائل، ثم بعد إزالة هذه النقائص والمعوقات، يبْنيها بالإيمان الصادق، والتوحيد الأصيل، والإخلاص النبيل، والفضائل المحمودة، وبهذا يتزكَّى المسلم، كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤﴾ [الأعلى: ١٤]. ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشمس: ٩]. ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

وحين يقول المسلم: «اللهمَّ آتِ نفسي تقواها، وزكِّها أنت خيرُ من زكَّاها، أنت وليُّها ومولاها»[1]. يعرف ماذا يطلب من ربه.

---

(١) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٢٢)، وأحمد (١٩٣٠٨)، عن زيد بن أرقم.

والشعبة الثالثة: هي تعليم الكتاب والحكمة، والكتاب هو ما أنزل الله على رسوله، أو على الرسل من قبله، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ١١٣﴾ [النساء: ١١٣]. فالكتاب هو النصوص التي أنزلها الله على رسوله، ممَّا يتضمن كل ما جاء به القرآن من المعتقدات التي يطمئن إليها القلب، والعبادات التي تتغذَّى بها الروح، والمعاملات التي يتحقَّق بها العدل، والأخلاق التي تسمو بها الفِطَر، وكل ما يحتاج الناس في دينهم ودنياهم أفرادًا وجماعات.

وكما يعلمهم الرسول الكتاب وما فيه من نصوص بيِّنة ومُعَلِّمة، يُعلِّمهم الحكمة، التي قال الله فيها: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ﴾ [البقرة: ٢٦٩]. وقد مدح الله لقمان فقال: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ﴾ [لقمان: ١٢].

والحكمة ـ كما تقدم ـ **نوعان**: نظريَّة وعمليَّة، والنظريَّة: أن تعرف سرَّ الشيء وما وراءه، وما له من فائدة أو مضرَّة، اللتين قد تعِزُّ معرفتهما إلا على الحكماء البُصَراء.

والحكمة العملية: أن تضع الشيء في موضعه الذي يستحقه، ولا يستخفَّنك حجمه إن كان صغيرًا، ولا تستهولنَّك ضخامته إن كان كبيرًا، فالحكيم يهتم بالكيف قبل الكم، وبالجوهر قبل المظهر.

ومن المهم جدًّا: أن تتعلَّم الأمَّة هذا، ويتوارثه أبناؤها عن آبائهم، وأحفادها عن أجدادهم، وخلفُهم عن سلفهم، وأن تضع الأمَّة لنفسها مناهج تربويَّة يتعلَّم فيها المسلم كلَّ ما يحتاج إليه من أصول العقائد، ومقوِّمات الأفكار، وأصول العبادة، وأصول المعاملات، وأصول الأخلاق، وأن يقوم على تدريس هذه المناهج رجال ونساء من أبناء الأمَّة، الصالحين والصالحات، الذين يحملون النور في عقولهم وضمائرهم وفِطَرهم، ينقلونه إلى طلابهم وطالباتهم، وهم أحرص شيء على ذلك، فهم يعتبرونهم أبناء وبنات لهم، وبهذه الروح يتعاملون معهم، ورحم الله شوقي الذي قال:

قُمْ للمعلم وَفِّه التَّبجيلا ... كاد المعلم أن يكون رسولَا

أرأيت أعظم أو أجلَّ من الذي ... يبني وينشئ أنفسًا وعقولَا

٣ ـ الدعوة والموعظة والترغيب والترهيب

ومن وسائل تحقيق أهداف الأخلاق الإسلاميَّة: دعوة الناس إلى الله، وإلقاء الموعظة إليهم، وترغيبهم في الخير، وترهيبهم من الشر، وهو ما يعبِّر عنه القرآن بالتبشير والإنذار، فكلُّ رسل الله كانوا مُبشِّرين ومُنذرين.

ومعنى التبشير: دعوة الناس إلى الإيمان بالحق، وفعل الخير، ونشر الجمال في الحياة، مقرونًا بترغيبهم فيما ينتظرهم من خيرَي الآخرة والأولى، وما كتب الله لهم في الدنيا من حسنة، وفي الآخرة من حسنة، ووقايتهم من عذاب النار.

ومعنى الإنذار: نهيُ الناس عن الإعراض عن الحق، والبعد عن الخير، والنأي عن العدل والإحسان وكل الفضائل، مقرونًا ذلك بترهيبهم من غضب الله تعالى وعذابه الذي أعده للكافرين، ومَن اتَّبعهم وسار في طريقهم، وأعرض عن طريق الرسل والنَّبيين والصِّدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين.

قال الله تعالى لخاتم رسلِه مُحمَّد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴿٤٧﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٧].

العلماء وَرثة الأنبياء في الدعوة:

والعلماء هم وَرثة الأنبياء، والسائرون على طريقهم، ودعاة الخلق إلى اتباعهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: ٣٣].

منهج الدعوة القرآني: الحكمة لأهل العقل، والموعظة لأهل العواطف:

قال تعالى يخاطب رسوله الكريم، وكلَّ مَن يصلح للخطاب من الأمَّة معه؛ ليرسم له منهج الدعوة: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥]. فهو يدعو أهل العقل بالحكمة، أي: بالقول المُعلَّل المُدلَّل. ويدعو أهل العواطف والناس العاديين بالموعظة الحسنة، التي تخاطب القلوب والعواطف. وهاتان الفئتان هم من (الموافقين).

وأما الفئة الثالثة فهي التي أمرتنا هذه الآية أن نجادلهم بالتي هي أحسن،

وهي فئة المخالفين، فهؤلاء يُجادَلون ـ أو يمارَوْن ـ بالطريقة التي هي أحسن. فإذا كانت هناك طريقان: إحداهما حسنة، والأخرى أحسن منها. أمرنا أن نسلك الطريقة التي هي أحسن وأمثل.

المواعظ القرآنيَّة:

والقرآن نفسه يستخدم أسلوب الموعظة للتأثير في نفوس المؤمنين وترقيق قلوبهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [النساء: ٥٨].

ويقول القرآن: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٥٧ ـ ٥٨].

وقال تعالى في التعليق على أحداث غزوة أُحُد، وما اتخذ الله فيها من شهداء: ﴿هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران: ١٣٨ ـ ١٣٩].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾ [سبأ: ٤٦]. فهو هنا يعظهم بخَصلة واحدة: أن يقوموا لله، يعني مخلصين في طلب الحق: إما أن يكون أحدهم مع رفيقه الذي يخلص له، أو يكون وحده، ثم يفكر في قضية النبوة، بعيدًا عن تأثير العقل الجمعي، وما يصحبه من غوغائيات.

ويقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: ٩٠].

وفي سورة النور يقول تعالى في سياق ذكر حديث الإفك عن أم المؤمنين، زوجة الرسول وحبيبته، الصديقة بنت الصديق: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النور: ١٧ ـ ١٨].

وفي شأن المنافقين في سورة النساء قال تعالى لرسوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ [النساء: ٦٣].

ويقول تعالى: ﴿. . . وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّـَٔاتَيْنَـٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَـٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ [النساء: ٦٦ ـ ٦٨].

وبيَّن القرآن أن الموعظة قد تنفع الإنسان، فينتهي عما كان مقْدِمًا عليه، يقول تعالى: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾ [البقرة: ٢٧٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [النور: ٣٤].

وأحيانًا يذكر موعظة كاملة، كموعظة لقمان لابنه التي حكاها القرآن: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣]. وفيها: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان: ١٧ ـ ١٩]. ويقول تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾ [البقرة: ٢٣٢].

من أساليب المواعظ القرآنية:

من أساليب المواعظ القرآنيَّة: الترغيب والتبشير بما يجزي الله به المؤمنين في الدنيا والآخرة، إذا استجابوا لدعوة الله، وقالوا: ربنا الله ثم استقاموا: أن يُبعِد عنهم الخوف والحزن، وهو يشمل الآخرة والأولى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الأحقاف: ١٣ ـ ١٤]. ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: ١٠].

ووعد الله المؤمنين أن يُوسِّع عليهم في دنياهم، ويُيسِّر لهم أمورهم، ويرزقهم الأموال والبنين، وهذا الوعد قديم من عهد شيخ المرسلين نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: ١٠ ـ ١٢]. وهذا ما تكرَّر كثيرًا في القرآن الكريم: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦]. ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الجن: ١٦].

فهذه كلها مواعظ قرآنيَّة مرغِّبة مرهِّبة، ترغِّب بكلِّ ما يحبُّه الناس ويشتهونه من نعيم الدنيا وطيباتها، وترهِّب بكلِّ ما يخافه الناس ويكرهونه من أمور الدنيا وسيئاتها، ومن أساليب المواعظ القرآنية: الترغيب والترهيب بما يُحَبُّ وما يُكْره من أمور الآخرة، كذكر الجنة وما فيها ممَّا لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وفيها رضوان من الله أكبر، ووجوه ناضرة إلى ربها ناظرة، وذكرِ النار وما فيها من عذاب عظيم، وما وراءه من خزي مهين، ومن حجاب أليم، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: ١٥]. ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾﴾ [آل عمران: ١٩٢].

من مواعظ السنة والقصص النبوي:

وفي السنة أيضًا مواعظ كثيرة وبليغة، كما قال العرباض بن سارية: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة، وجِلت منها القلوب، وذرفت منها العيون[١].

خصوصًا في أحاديث القَصص الصحيحة التي وردت بأسانيدها الموثقة إلى رسولنا المعلِّم؛ مثل حديث الثلاثة أصحاب الغار، الذين أطبقت عليهم الصخرة، وسدَّت عليهم باب الغار، فلم تُكشَف عنهم إلا لما دعَوْا ربَّهم بأعمالهم الرائعة التي قدموها لله خالصة، لم يريدوا بها غير وجهه، وحكى كلٌّ منهم حكايته لربه ـ وهو أعلم بها ـ ثم قال: «اللهم إن كنت تعلم أني فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك، ففرِّج عنا ما نحن فيه». وكلما تحدث أحد الثلاثة بحديثه، انفرج ثُلُثُ الصخرة، حتى انفرجت كلها، وخرجوا سالمين[٢].

وهناك حادثة الأعمى والأبرص والأقرع، وما ابتُلي به كل واحد منهم من مرض، ثم ما أنعم الله به عليهم من شفاء إلى حين، لينظر كيف يعملون، فمَن أحسن كما أحسن الله إليه بقيتْ نعمته، ومَن بخل، عاد إلى ما كان به من البلاء[٣].

---

(١) رواه أحمد (١٧١٤٢)، وقال مخرِّجوه: صحيح بطرقه وشواهده، وأبو داود في السنة (٤٦٠٧)، والترمذي في العلم (٢٦٧٦)، وقال: حسن صحيح، وابن ماجه في المقدمة (٤٣)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٩٣٧).

(٢) إشارة إلى الحديث المتفق عليه الذي رواه البخاري في البيوع (٢٢١٥)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٤٣)، عن ابن عمر رضي الله عنه.

(٣) إشارة إلى الحديث المتفق عليه الذي رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٦٤)، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٦٤)، عن أبي هريرة.

وقصة الرجل الذي قتل تسعة وتسعين (٩٩) نفسًا، ثم تحرَّك ضميره، وأراد أن يتوب، فقال لهم: دلوني على من يخبرني هل لي من توبة؟ فدلوه على راهب، فأغلق باب الله في وجهه، وقال له: ألمثلك توبة؟! فقال: إذًا أُكمل بك المائة، وقتله.

ولكن الرجل لم يزل معلق القلب برحمة الله تعالى وبمغفرته، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدلوه على عالم، ففتح له باب الرجاء في رحمة الله، والأمل في عفو الله، على أن يَدَع القرية التي فعل فيها هذه الموبقات، ويهاجر إلى قرية صالحة غيرها سمَّاها له العالم.. وفعلًا حمل الرجل متاعه، وسافر إلى تلك القرية، ثم أصابه الموت في الطريق، فإلى أيِّ القريتين ينتسب؟ القرية التي كانت حياته فيها، أو القرية التي لم يرها بعد، ولكنه عقد نيَّته على الرحيل إليها. وكان هناك تحكيم من الله بين ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، انتهى بجعل الرجل أقرب إلى القرية المنشودة، من القرية المهجورة بمسافة قليلة، ونجا الرجل[1].

وهناك كثير من هذه القصص في الصِّحاح والسنن والمسانيد والمعاجم والأجزاء، ينبغي أن تُجمع، ويحصر الصحيح والحسن منها، لما لها من تأثير على أخلاق الناس.

القرآن يستخدم القصة للدعوة:

وقد رأينا القرآن يستخدم القَصص، في التبشير والإنذار والتثبيت، كما في قصص الرسل والأنبياء والصالحين، كما قال تعالى في أواخر سورة هود، وما فيها من قصص الأنبياء: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود: ١٢٠]. وفي سورة الفرقان قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان: ٣٢ ـ ٣٣].

وهناك قصص المؤمنين من غير الأنبياء، مثل قصة مريم وولادتها

---

(١) إشارة إلى الحديث المتفق عليه الذي رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٧٠)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٦)، عن أبي سعيد الخدري.

وسيرتها، وقصة مؤمن سورة يس، وقصة امرأة فرعون، وقصة مؤمن آل فرعون، وقصة أصحاب البروج، وقصة ذي القرنين وغيرها.

وهناك القصص التي يضربها القرآن مثلًا للأغنياء والمتمردين على رسل الله، وعلى المؤمنين، مثل القصة التي ذكرها الله في سورة الكهف: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾﴾ [الكهف: ٣٢]. . إلى آخر القصة.

وكلٌّ يدخل في باب الدعوة والموعظة، والتبشير والإنذار، والترغيب والترهيب، وللقصص القرآنية آثار كبيرة في أنفس المستمعين والمتذكرين: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات: ٥٥].

وفي كتاب (**التصوير الفني في القرآن**) حديث بيانيٌّ رائع للشهيد سيد قطب حول قصص القرآن، لمن أراد الاستزادة.

ضرب الأمثال النبويَّة:

ومن أساليب الموعظة النبوية: ضرب الأمثال، كما في قوله عليه الصلاة والسلام: «مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو، تَدَاعى له سائر الجسد بالسهر والحمَّى». عن النعمان بن بشير[(١)].

«مثل البيت الذي يُذكَرُ الله فيه، والبيت الذي لا يذكر الله فيه، مَثَلُ الحيِّ والميت». عن أبي موسى[(٢)].

«مثل القلب مثل الريشة تقلبها الرياح بفلاة». عن أبي موسى[(٣)].

«العائد في هبته كالكلب يقيء ثم يعود في قيئه». عن ابن عباس[(٤)].

«مثل الجليس الصَّالح، والجليس السوء، كمثل صاحب المسك، وكِير الحدَّاد، لا يَعْدَمك من صاحب المسك؛ إما تشتريه، أو تجد ريحه، وكير

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠١١)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٦).
(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الدعوات (٦٤٠٧)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٧٩).
(٣) رواه ابن ماجه في المقدمة (٨٨)، وصحَّحه الألباني في صحيح ابن ماجه (٧١).
(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٢٥٨٩)، ومسلم (١٦٢٢)، كلاهما في الهبة.

الحداد يحرق بدنك أو ثوبك، أو تجد منه ريحًا خبيثة». عن أبي موسى[1].

«مثل أمتي مثل المطر، لا يُدرى أوله خير أم آخره». عن أنس[2] وعمار[3] وعليّ[4] وابن عمر[5] وابن عمرو[6].

وفي كتاب **صحيح الجامع الصغير** وزيادته للألباني تجد خمسة وثلاثين حديثًا متراصَّة صحيحة أو حسنة، كلها يحمل هذه الأمثال وما شابهها، من الحديث رقم (٥٨٢٥) إلى الحديث رقم (٥٨٦٠).

ضرب الأمثال في القرآن:

وهذه الأمثال النَّبويَّة إنَّما جاءت على مثل أمثال القرآن، التي ألَّف فيها العلماء بعض الكتب[7]، كمثل قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الجمعة: ٥].

ومثل قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: ١٧١].

وقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَـٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وفي نفس السياق قال تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [آل عمران: ١١٧].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في البيوع (٢١٠١)، ومسلم في البر والصلة (٢٦٢٨)، كما رواه أحمد (١٩٦٦٠)، وأبو داود في الفتن والملاحم (٤٢٥٩).

(٢) رواه أحمد (١٢٤٦١)، وقال مخرِّجوه: حديث قوي بطرقه وشواهده، والترمذي في الأمثال (٢٨٦٩)، وقال حسن غريب.

(٣) رواه أحمد (١٨٨٨١)، وقال مخرِّجوه: حديث قوي بطرقه وشواهده، والطيالسي (٦٨٢)، وابن حبان في مناقب الصحابة (٧٢٢٦).

(٤) رواه أبو يعلى كما في الجامع الكبير للسيوطي (١١٠٤٢).

(٥) رواه الطبراني (١٣/ ٢٧٤)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٢٣١).

(٦) رواه ابن بشران في أماليه (٩٨٢).

(٧) مثل كتاب (الأمثال من القرآن والسُّنَّة) للحكيم الترمذي، و(الأمثال في القرآن) لابن القيم.

آيات قرآنية فيها مواعظ وترغيب وترهيب:

وهناك آيات كثيرة في سور شتَّى، مكية ومدنية، فيها وعد ووعيد، وأمر ونهي، وتبشير وإنذار، ومدح وذم، وترغيب وترهيب، وثواب وعقاب، وجنة ونار، ومَراغب ومَخاوف، تشوّق المؤمنين، وتُطير قلوب المشتاقين إلى جنات النعيم، وتخوف الغافلين، والذين هم في غفلة لاهون، وفي غمرة ساهون، وتنزل لهب جهنم على المنافقين، الذين قالوا: آمنا وهم لا يؤمنون. يكفي أن تقرأ جزء (**عَمَّ يتساءلون**) بتأثر وتدبُّر، تجد فيه ما يملأ العقل والقلب رغبةً ورهبةً ممَّا عند الله. وكفى بكتاب ربك هداية لقوم يعلمون.

ولا ريب أنَّ هذه المواعظ إذا أُدِّيت على وجهها، بأسلوبها البليغ، وفي الموضع المؤثِّر، ومن القلب الخاشع، فإنها لا بدَّ أن يكون لها تأثيرها في القلوب، فترققها من غلظة، وتفتحها من إغلاق، فلا تلبث القلوب أن تستجيب، وتسير في ركاب المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦].

تحيُّن النبي الفرص المناسبة لمواعظه:

ولقد رأينا رسول الله ﷺ، ينتهز الفرص المناسبة، التي تفتقر فيها القلوب إلى النصيحة النافعة، والموعظة البليغة، فيقوم بها، فيكون لها مكانها، وتكون من القلوب الحركة والرقة والاستجابة الحسنة. وكل موعظة مرهونة بما يوجبها.

انظر إلى النبي ﷺ وقد مرَّ في السوق، مع أصحابه، والناس كَنَفَتَيْه ـ أي: عن جانبَيْه ـ قال جابر بن عبد الله: فمرَّ بجَدْيٍ أَسَكَّ ـ أي: صغير الأذن ـ ميِّت، فتناوله، فأخذ بأذنه، ثم قال: «أيُكم يحبُّ أن هذا له بدرهم؟». قالوا: ما نحب أنه لنا بشيء! وما نصنع به؟ قال: «أتحبونه أنه لكم؟». قالوا: والله لو كان حيًّا لكان عيبًا فيه؛ لأنه أَسَكُّ، فكيف وهو ميت؟! فقال: «والله، للدنيا أهون على الله عزَّ وجلَّ من هذا عليكم»[1].

فهذه موعظة في مكانها وفي أوانها، وبلفظ النَّبيِّ ﷺ، فدخلت القلوب في الحال.

---

(١) رواه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٥٧)، وأحمد (١٤٩٣٠)، وأبو داود في الطهارة (١٨٦).

ومن ذلك ما رواه الترمذي وابن ماجه وغيرهما عن سهل بن سعد أنه قال: «لو كانت الدنيا تزِن عند الله جناح بعوضة، ما سقى كافرًا منها شربة ماء»[1].

فانظر كيف يتنافس الناس ويتقاتلون على جناح البعوضة، أو ما هو دونه؟!

وعن المستورِد أخي بني فهر يقول: قال رسول الله ﷺ: «ما مثل الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعلُ أحدُكم إصبعه هذه ـ وأشار يحيى (أحد الرواة) بالسبابة ـ في اليمِّ، فلينظر بم يرجع؟»[2].

فهكذا يعلّم النبي ﷺ الإنسان المسلم أن ينظر ما بين الدنيا والآخرة، فالآخرة كالبحر أو المحيط الكبير، وما هي من الدنيا وما أخذ ابن آدم منها أشبه بإنسان وضع إصبعه في البحر الزخار، ماذا أخذ منه، وماذا رجع فيه؟

وحين قدم أبو عبيدة بمال من البحرين، فأقبل الأنصار فرحين بما قد يصيبهم من هذا المال، فوافوا صلاة الفجر وهم يرجون ويأملون، فقال ﷺ: «أبشروا وأمِّلوا ما يسرُّكم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تُبْسَط عليكم الدنيا كما بسطت على مَن كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم»[3].

وعن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «ما أخشى عليكم الفقر، ولكن أخشى عليكم التكاثر، وما أخشى عليكم الخطأ، ولكن أخشى عليكم التعمد»[4].

وعن أبي سعيد الخدري قال: جلس رسول الله على المنبر، وجلسنا حوله فقال: «إنَّ ممَّا أخاف عليكم بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها»[5].

---

(1) رواه الترمذي في الزهد (٢٣٢٠)، وقال: صحيح غريب، وابن ماجه في الزهد (٤١١٠)، والحاكم في الرقاق (٤/ ٣٠٦)، وصحَّحه، وقال الذهبي: زكريا بن منظور ضعَّفوه، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٩٤٣).

(2) رواه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٥٨)، والترمذي (٢٣٢٣)، وابن ماجه (٤١٠٨)، كلاهما في الزهد.

(3) متفق عليه: رواه البخاري في الجزية (٣١٥٨)، ومسلم في الزهد (٢٩٦١)، كما رواه أحمد (١٧٢٣٤)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٦٢)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٩٧).

(4) رواه أحمد (٨٠٧٤)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، والحاكم في التفسير (٢/ ٥٣٤)، وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

(5) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٦٥)، ومسلم (١٠٥٢)، كلاهما في الزكاة.

وعن عبد الله بن الشِّخِّير قال: قال رسول الله ﷺ: «أَقِلُّوا الدخول على الأغنياء؛ فإنه أحرى أَلَّا تزدروا نعم الله ﷻ»[1].

وقد سردنا في كتابنا (**المنتقى**) **من كتاب الترغيب والترهيب للمنذري** كثيرًا من هذه الأحاديث فليرجع إليها[2].

وقفة مع المعارضين لفكرة الترغيب والترهيب:

وهناك فئتان تعارضان فكرة الترغيب والترهيب، بناء على معارضتهما لفكرة أن العمل رغبةً ورهبة: رغبةً في ثواب الله، ورهبةً من عقابه عزّ وجل، ذكرناهما في مقدِّمة كتابنا (**المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للمنذري**)[3].

فئة الفلاسفة:

الفئة الأولى تتمثَّل في بعض فلاسفة الأخلاق بصفة عامة، الذين يفصلون الأخلاق عن الدين وعن الله، وخصوصًا المثاليِّين منهم، الذين ينادون بأداء (الواجب) لذاته، بغضِّ النظر عن نتائجه، نافعةً كانت أو ضارَّة، ودون الْتِفاتٍ إلى رَغَب أو رَهَب. وهم يدينون الأخلاق الدينيَّة بأنها تربط أداء الواجب بالمنفعة، وإن كانت منفعة أخرويَّة.

فئة المتصوفة المبالِغة:

والفئة الأخرى تتمثَّل في بعض الصوفيَّة، الذين بالغوا في الإنكار على مَن فعَلَ الخير وترَكَ الشرَّ وأطاع الله، رجاءً في رحمته، وخوفًا من عذابه، ورَغَبًا في جنته، ورَهَبًا من ناره، وقالوا: لا تكن كعبدِ السوء، إن خاف عمل، ولا كأجير السوء إن لم يُعطَ أجرًا لم يعمل! وبذلك شنَّعوا على العُبَّاد الصَّالحين الذين يُقيمون الصلاة، ويُؤْتون الزكاة، ويصومون رمضان، ويحجُّون البيتَ ويعتمرون، ويبَرُّون والدِيهم، ويصِلون أرحامَهم، ويُكرمون جيرانَهم، ويصِلُون ما أمرَ اللهُ به أن يُوصَل؛ طمعًا في دخول الجنة في الآخرة، وهربًا من أن يصلي نار جهنم.

---

(١) رواه الحاكم في الرقاق (٤/ ٣١٢)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٨٠٦)، عن عبد الله بن الشخير.

(٢) المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب (٢/ ٣٧٦ ـ ٤٠٤). الناشر المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

(٣) انظر: المقدمة (١/ ٣٤ ـ ٤٥).

الرد على الفلاسفة:

أما فئة الفلاسفة وخصوصًا (الواجبيِّين) من أمثال (كَانْت) ومَنْ وافقه، فالحقيقة أنهم غفلوا عن طبيعة البشر، وتطلُّعِهم إلى ما ينفعهم عاجلًا أو آجلًا، وهو جزء من تركيب فطرتهم التي فطرهم الله عليها، ولئن كان بعضُ الناس يستطيع التَّجرُّد عن الغايات المنوطة بالعمل، فإنَّ جمهور الناس لا يحركهم إلا الرَّغَب والرَّهَب، وما دام الأمر كذلك، فليكنْ الرَّغَب فيما عند الله، والرَّهَب مما عنده، ولتكن المنفعةُ المرجوَّة لمن يؤدِّي الواجب ويفعل الخير: فوقَ المنافع الماديَّة والذاتيَّة والآنيَّة، لتكُنْ منفعةً أكبر من المادة الفانية، وأوسعَ من اللَّذات المحدودة، وأبعدَ من الدنيا العاجلة، وبهذا يتحرَّر الإنسان من عبوديَّته لبريق المادة، أو لهوى النفس، أو لمتاع الدنيا، ويغدو تعلُّقه كله بالله وما عنده، وهو خيرٌ وأبقى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]. وكما قال مؤمنُ آل فرعون لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [غافر: ٣٩ ـ ٤٠].

إنَّ الذي خَشِيَه المثاليُّون من الفلاسفة هو: العمل رغبةً في منافع الدنيا الماديَّة، التي تُفرِّق الناس ولا تجمعهم، وتُضْعِفهم ولا تقوِّيهم؛ لأنَّ هذه المنافع ضررٌ على الآخرين. أمَّا العمل رغبةً في مثوبة الله، ورهبةً من عقوبته، فهو يسَعُ الناسَ جميعًا، وهو من أقوى الدوافع لفعل الخيرات، واجْتناب الشرور، عند جماهير الناس.

على أن هنا نقطةً جديرة بالالتفات والتأمُّل، نبَّه عليها شيخنا الدكتور دراز رَحِمَهُ اللَّهُ حين قال: «إنَّ الناس كثيرًا ما يلتبس عليهم الأمر بين أجْزِية العمل وثمراته من جهة، وبين أهداف العامِل وغاياته مِن جهة أخرى، وهكذا يخلطون بين الغاية الفعليَّة، بمعنى (طرف الطريق وآخره)، والغاية القصديَّة، بمعنى (نيَّة العامل وهدفه). ظانِّين أنَّ وضع إحداهما هو وضع للأخرى، حتى كأن الإسلام يلوِّح للمؤمنين أن يقصدوا بأعمالهم تلك النتائج كلها أو بعضها على التخيير، كلا، إن الأمر ليس كما زعموا، فأنواع الأجزية التي قرَّرها القرآن للفضيلة والرذيلة لا تُحصى كثرةً، ولكن الهدف الذي وضعه نُصْب عيْن العامل هدف واحد، لا تعدُّد فيه ولا تردد: هو وجه الله محضًا خالصًا.

وهذا ـ كما ترى ـ تعبير روحيٌّ عن معنى أداء الواجب لذاته. وهو معنًى نجده في القرآن الكريم في أكثر من ألف موضع، كلها تحثُّ على الفضيلة لِما لها من قيمة ذاتيَّة، بغض النظر عن كل آثارها.

على أن تلك الأجزية الكريمة التي وعد الله بها المتقين، إنما وعد بها مَن كانت غايته من عمله هو وجه الله وحده، فهو الذي: ﴿أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٩]. وهو الذي: ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ [ق: ٣٣]. وهو الذي كان عمله: (في سبيل الله).

وقد سُئل النبي ﷺ عن الجهاد بدافع الحميَّة، أو لطلب الغنيمة، أو بقصد حُسْن الذِّكْر، فأومأ إلى أن شيئًا من ذلك ليس في (سبيل الله)، قائلًا: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله»[(1)]»[(2)] اهـ.

الردُّ على مبالغات الصوفيَّة:

وبعد هذا البيان في الردِّ على مبالغات الفلاسفة، يكون من السهل الرد على الصوفية، الذين بالغوا في إنكار الطاعة والعبادة رغبًا ورهبًا؛ لأن منطلقهم في الأصل منطلق دينيٌّ، وليسوا كالفلاسفة.

وقد ردَدْنا عليهم مِن قديم في كتابنا (**العبادة في الإسلام**)[(3)]، وكان ممَّا قلناه هناك: «لقد شنَّع الصوفية على من عبَدَ الله بهذا القصد، وقالوا: لا ينبغي للعابد أن يعبد الله، ويقوم بأمره ونهيه، خوفًا من عقابه، أو طمعًا في ثوابه، فإنَّ مثل هذا العابد واقف مع غَرَضه وحظِّ نفسه، ومَحبَّةُ الله تأبى ذلك وتنافيه، فإن المُحبَّ لا حظَّ له مع محبوبه، فوقوفُه مع حظِّه علَّةٌ في محبَّته، كما أن طمَعَه في الثواب تطلُّع إلى أن يستحقَّ بعمله على الله تعالى أُجرة؛ وفي هذا آفتان: تطلُّعه إلى الأجرة، وإحسان ظنِّه بعمله، ولا يُخلِّصه مِن ذلك إلا تجريد العبادة، والقيام بالأمر والنهي مِن كل علَّة، بل يقوم به تعظيمًا للآمر والناهي، وأنه أهلٌ أن يُعبَد وتُعظَّم حرماتُه؛ فهو يستحقُّ العبادة والتعظيم والإجلال لذاته، كما في الأثر الإلهي: «لو لم أخلق جنَّة ولا نارًا،

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (١٢٣)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٤)، عن أبي موسى الأشعري.

(٢) انظر: كلمات في مبادئ علم الأخلاق ص٣٨.

(٣) هو ثاني كتاب أصدرناه بعد (**الحلال والحرام في الإسلام**).

أما كنت أهلًا أنْ أُعْبد؟»[1].

ومنه قول القائل:

هَبِ البعْثَ لم تأتِنا رُسْله وجاحِمةَ النارِ لم تُضْرمِ
أليس مِن الواجب المستحقِّ ثناءُ العباد على المُنعمِ؟

فالنفوس الزكيَّة العليَّة تعبُده؛ لأنه أهل أن يُعبد ويُجَلَّ، ويُحَبَّ ويعظَّم، فهو لذاته مستحقٌّ للعبادة. قالوا: ولا يكون العبد مع ربِّه كأجير السوء: إن أُعطي أجره عمِلَ، وإن لم يُعطَ لم يعمل، فهذا عبدُ الأُجرةِ، لا عبدُ المحبةِ والإرادة، ولهذا يرْوُون عن رابعة العدوية الأبيات المشهورة:

كلهم يعبدون مِن خوف نارٍ ويرون النجاة حظًّا جزيلا
أو بأنْ يدخلوا الجنان فيحظَوْا بنعيم ويشربوا سلسبيلا
ليس لي في الجنان والنار حظٌّ أنا لا أبتغي بحبِّي بديلا

ومن علماء المسلمين من ردَّ هذا الكلام، واعتبره من شطحات القوم ورعونتهم، ولم يرَ أي حرج أو نقص في عبادة الله خوفًا وطمعًا، ورغبًا ورَهبًا، واحتجَّ هؤلاء العلماء بأحوال الأنبياء والرسل والصِّدِّيقين والصَّالحين ودعائهم، والثناءِ عليهم في كتاب الله تعالى بخوفهم من النار ورجائهم للجنَّة، كما قال تعالى في خواصِّ عباده، الذين عبدهم المشركون ودعَوْهم من دون الله أو مع الله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء: ٥٧].

وذكر سبحانه عباده الذين شرَّفهم بالإضافة إلى اسمه (الرحمن)، فسمَّاهم: (عباد الرحمن)، وأثنى عليهم بأحسن أعمالهم، فجعل منها: استعاذتهم به من النار، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ [الفرقان: ٦٥ ـ ٦٦].

وأخبر عن المتَّقين من عباده أنهم توسَّلوا إليه بإيمانهم أن ينجيَهم من النار، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [آل عمران: ١٦]. فجعلوا أعظمَ وسائلهم إليه ـ وسيلةَ الإيمان ـ وسيلة لأن ينجيهم من النار.

---

(١) ذكر ابن القيم في مدارج السالكين (٢/ ٧٤) أنه أثر إسرائيلي.

وأخبر تعالى عن سادات العارفين أولي الألباب: أنهم كانوا يسألونه جنَّته، ويتعوَّذُون به من ناره، فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٩١ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝١٩٢ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ۝١٩٣ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝١٩٤ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ۝١٩٥﴾ [آل عمران: ٩٠ ـ ٩٥].

وفي الصحيح، في حديث الملائكة السيَّارة: أن الله تعالى يسألهم عن عباده، وهو أعلم بهم، فيقولون: «أتيناك من عند عبادك يُهلِّلونك ويُكبِّرونك ويَحْمَدُونك ويُمجِّدونك. فيقول عزَّ وجلَّ: وهل رأوني؟ فيقولون: لا يا رب، ما رأوك. فيقول عزَّ وجل: كيف لو رأوني؟! فيقولون: لو رأوك، لكانوا لك أشد تمجيدًا. قالوا: يا ربّ، يسألونك جنَّتك، فيقول: هل رأوها؟ فيقولون: لا، وعزتك ما رأوها. فيقول: كيف لو رأوها؟! فيقولون: لو رأوها، لكانوا لها أشد طلبًا. قالوا: ويستغيثون بك من النار، فيقول عزَّ وجلَّ: وهل رأوها؟! فيقولون: لا، وعزتك، ما رأوها. فيقول: فكيف لو رأوها؟ فيقولون: لو رأوها لكانوا أشد منها هربًا. فيقول: إني أشهدكم أني قد غفرتُ لهم، وأعطيتُهم ما سألوه، وأعَذْتُهم ممَّا استعاذوا»[١].

والقرآن والسنة مملوءان من الثناء على عباده تعالى وأوليائه بسؤال الجنة ودرجاتها، والاستعاذة من النار والخوف منها.

وقد قال النبي ﷺ لأصحابه: «استعيذوا بالله من النار»[٢]. وقال لمَن سأله مرافقته في الجنة: «أعِنِّي على نفسك بكثرة السجود»[٣].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الدعوات (٦٤٠٨)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٦٨٩)، كما رواه أحمد (٧٤٢٤)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه فضيل بن غزوان في فضائل الدعاء (١٥٨)، وأبو نعيم في صفة الجنة (٧٠)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه مسلم في الصلاة (٤٨٩)، وأبو داود في قيام الليل (١٣٢٠)، عن ربيعة بن كعب الأسلمي.

قالوا: والعمل على طلب الجنة، والنجاة من النار: مقصودُ الشارع من أمَّته، ليكونا دائمًا على ذكر منهم، فلا ينسونهما، ولأن الإيمان بهما شرط في النجاة، والعمل على حصول الجنة، والنجاة من النار، هو محض الإيمان.

ولو ذهبنا نذكر ما في السنة من قوله ﷺ: من عمل كذا وكذا أدخله الله الجنة؛ تحريضًا على عمله لها، وأن تكون هي الباعثة على العمل، لطال ذلك جدًّا، وذلك في جميع الأعمال.

فكيف يكون العملُ من أجل الثواب، وخوف العقاب معلولًا، والرسول ﷺ يُحرِّض عليه؟!

قالوا: وأيضًا، فالله سبحانه يُحبُّ من عباده أن يسألوه جنَّته، ويستعيذوا به من ناره، فإنه يُحبُّ أن يُسأل، و«مَن لم يسأل الله يغضبْ عليه»[1]. وأعظم ما سُئل: (الجنة)، وأعظم ما استُعيذ به: (النار).

قالوا: وإذا خلا القلبُ من ملاحظة الجنَّة والنَّار، ورجاء هذه والهروب من هذه، فترتْ عزائمه، وضعفتْ همَّته، ووَهَى باعثُه؛ وكلما كان أشدَّ طلبًا للجنة وعملًا لها، كان الباعث له أقوى، والهمَّة أشد، والسعي أتم، وهذا أمر معلوم بالذوق.

قالوا: ولو لم يكن هذا مطلوبًا للشارع، لَمَا وصف الجنة للعباد، وزيَّنها لهم، وعرضها عليهم، وأخبرهم عن تفاصيل ما تصل إليهم عقولهم منها، وما عداه أخبرهم به مُجملًا، تشويقًا لهم إليها، وحثًّا لهم على أن يسعوا لها سعْيها[2].

حقيقة الجنة والنار:

على أنَّ الإمام ابن القيم وقف موقفًا وسطًا بين الصوفيَّة وبين مَن ردَّ عليهم وخطَّأهم من علماء الأمَّة، فقال بعد أن حكى قولَ أولئك وردَّ على هؤلاء: «والتحقيق أن يقال: الجنة ليستْ اسمًا لمجرَّد الأشجار والفواكه، والطعام والشراب، والحور العين، والأنهار والقصور. وأكثرُ الناس يغلطون في مُسمَّى

---

(١) رواه أحمد (٩٧٠١) وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف، والترمذي في الدعوات (٣٣٧٣)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٢٧)، وحسَّنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٠٨٥)، عن أبي هريرة.

(٢) انظر: مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٧٥ ـ ٧٩)، مطبعة السُّنَّة المحمدية.

الجنة، فإن الجنة اسمٌ لدار النعيم المُطلق الكامل، ومِن أعظم نعيم الجنة: التمتُّع بالنظر إلى وجه الله الكريم، وسماع كلامه، وقرَّة العين بالقرب منه وبرضوانه. فلا نسبة للذةِ ما فيها من المأكول والمشروب والملبوس والصور إلى هذه اللَّذة أبدًا، فأيْسر يسير من رضوانه أكبر من الجنان وما فيها من ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]. وأتى به منكَّرًا في سياق الإثبات، أيْ: أيُّ شيء كان من رضاه عن عبده، فهو أكبر من الجنة.

قليلٌ منك يكفيني، ولكن   قليلُك لا يقال له قليل!

وفي الحديث الصحيح، حديث الرؤية: «فوالله ما أعطاهم الله شيئًا أحبَّ إليهم من النظر إلى وجهه»[١]. وفي حديث آخر: أنه سبحانه إذا تَجلَّى لهم، ورأوا وجهه عيانًا، نَسُوا ما هم فيه من النعيم، وذُهِلوا عنه، ولم يلتفتوا إليه[٢].

قال ابن القيم: ولا ريب أنَّ الأمر هكذا، وهو أجَلُّ ممَّا يخطر في البال، أو يدور في الخيال، ولا سيما عند فوز المحبين هناك بمعيَّة المحبَّة، فإنَّ المرء مع من أحبَّ، فأيُّ نعيم، وأيُّ لذة، وأيُّ قرَّة عين، وأيُّ فوز: يداني نعيم تلك المعيَّة ولذتها وقرَّة العين بها؟ وهذا والله هو العَلَمُ الذي شمَّر إليه المحبُّون، واللواءُ الذي أمَّه العارفون، وهو روحُ مسمَّى الجنة وحياتها، وبه طابتْ الجنة، وعليه قامتْ.

فكيف يقال: لا يعبد الله، طلبًا لجنَّته، ولا خوفًا من ناره؟!

وكذلك النار أعاذنا الله منها، فإنَّ لأربابها من عذاب الحجاب عن الله وإهانته، وغضبه وسخطه، والبُعد عنه أعظمَ من التهاب النار في أجسامهم.

فمطلوب الأنبياء والمرسلين والصِّدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين هو: الجنة، ومهربهم: من النار»[٣].

وبعد هذا البيان المُشرق الجامع، لم يَعُدْ هناك مجال لدعوى أولئك

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٨١)، وأحمد (٢٣٩٢٥)، عن صهيب الرومي.

(٢) جزء من حديث رواه عبد بن حميد في مسنده (٨٥١)، عن عبد الله بن عمر.

(٣) مدارج السالكين لابن القيم (٨٠ ـ ٨١). وانظر كتابنا: العبادة في الإسلام ص٩٣ ـ ٩٨. مكتبة وهبة، الطبعة التاسعة والعشرون، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

المتطاولين بغير علم، الذين يقارنون بين الجنَّة الموعودة في الإسلام، والجنَّة الموعودة في النصرانيَّة، والذين وصفوا الأولى بأنها دار طعام وشراب، ومُتَع بدنيَّة ماديَّة خالصة، ووصفوا الثانية بأنها دار حياة روحيَّة خالصة.

وقد أغنانا ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ ببيانه عن الردِّ على الشطر الأول، فاستبان لكلِّ ذي عينين: أن الجنَّة دار نعيم بدنيٍّ وروحيٍّ معًا؛ لأنها دار الثواب للإنسان المكوَّن من الجسم والروح معًا، ومن الحقِّ للكيان الإنساني كلِّه أن يُنَعَّم ويُثاب، فإنسان الآخرة امتداد لإنسان الدنيا.

الرد على ما قالوه في جنَّة النصرانيَّة:

أما الشطر الثاني، وهو أنَّ جنَّة النصرانيَّة روحيَّة محض، فيردُّ عليه شيخنا دراز رَحِمَهُ اللَّهُ بأن هذا مخالف لنصوص الأناجيل نفسها:

«اقرأ مثلًا، في إنجيل (لوقا)، قول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لأصحابه: (من أجل ذلك أعددتُ لكم مملكة السماء... لكي تأكلوا وتشربوا على مائدتي... ولكي تجلسوا على العروش، اقضوا في شأن الاثني عشر سبطًا من بني إسرائيل)[1].

وقوله في وصيَّته لأحد أتباعه: (إذا أعددتَ غداءً أو عشاءً... فادْعُ إليها بعض الفقراء والعَجَزة والعُمْي والمُقْعَدين، وكُنْ مغتبطًا بأنَّهم لا يقدرون على مكافأتك بمثلها؛ لأنها سيردُّ لك مثلَها يومَ البعث الصالحون)[2].

واقرأ في إنجيل (متَّى) وغيره، قول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لتلاميذه في مأدبة العشاء الأخير: (أقول لكم: إني لن أشرب بعد اليوم من عصير العنب هذا، حتى يجيء اليوم الذي أشربه معكم من جديد في مملكة ربِّي، أبي)[3].

واقرأ في إنجيل (يوحنا): (وسأعطي الفائزين طعامًا من شجرة الحياة التي في جنَّة الله، سأعطيهم من المَنِّ الغيبيِّ، وسيلبسون ثيابًا بيضاء، وسيشرب الظامئون من عين ماء الحياة مجانًا، ولن يجوعوا بعدها، ولن يظمؤوا بعدها أبدًا، ولن يصيبهم الشمس ولا الحرور)[4].

---

(١) الفقرتان: ٢٩، ٣٠ من الفصل: ٢٢.

(٢) الفقرات: ١٢ ـ ١٥ من الفصل: ١٤.

(٣) الفقرة: ٢٩ من الفصل: ٢٦.

(٤) الفقرات: ٧ ـ ١٧ من الفصل: ٢، والفقرات ٣ ـ ٦ من الفصل: ٥، والفقرات ٢١ ـ ٢٧ من الفصل: ٧ من الأمثلة الغيبية من إنجيل يوحنا.

واقرأ في إنجيل (يوحنا) أيضًا وصْفه للجنة التي يُسمِّيها بيتَ المقدس الجديد: (إنَّ المدينة مبنيَّة من الذهب الخالص، كأنها القوارير الصافية، وإنَّ أرضها مفروشة بالأحجار الكريمة من مختلف الأنواع، وإن شجرة الحياة فيها تخرج ثمارها اثنتي عشرة مرة في العام، في كلِّ شهر مرَّة)[1]... إلخ.

هذه النصوص كان يفهمها النصارى الأوَّلون على حقيقتها، ولكنهم أخذوا بعدُ في تأويلها وجعلها ضربًا من التمثيل، اتِّقاءً لاعتراضات الملاحدة، والعجيب أن علماءهم لا يزالون مع ذلك مُجْمعين على أن البعث في المعاد بدنيٌّ وروحيٌّ معًا، كما أنهم لا يزالون يُقرِّون بأنَّ عذاب النار يتناول الجسم والروح، وَفقًا لما دلَّتْ عليه نصوص الأناجيل، مثل قول عيسى لأصحابه: (لا تخشوا أولئك الذين يُهلكون الجسم، ولا يستطيعون أن يُهلكوا الروح، ولكن خافوا ذلك الذي يقدر أن يُهلك الروح والجسم في جهنم)[2]. وقوله: (إنَّ الذين يرتكبون الظلم سيُقذفون في النار الحامية، التي سيكون لهم فيها العويل، وصريف الأسنان)[3].

أي حُجَّة عقليَّة أو نقليَّة جعلتهم هكذا يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض؟!»[4] اهـ.

ويعقِّب شيخنا دراز على موضوع النعيم المادي والعقاب الحسِّيِّ، فيقول: «وفي الحق أنَّ هذه الجوائز الماديَّة، والمُتع البدنيَّة، مثلها كمثل الأوسمة التي يهديها الملوك، ليستْ قيمتها في صورتها ومادتها، ولكن في دلالتها ومغْزاها، ألا وهو هذا التكريم والرضوان الذي أشار إليه القرآن في قوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝١٥﴾ [آل عمران: ١٥]. وقد أشار إلى مثل ذلك في الطرف المقابل، إذ عرفنا أنَّ معظم ما يخشاه العاقل من عذاب النار ليس هو آلامها الحسِّيَّة، بل ما لها من دلالة معنوية على الخِزْي والإهانة: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٩٢][5].

---

(١) الفقرتان: ١ ـ ٢، من الفصل: ٢٢ من الأمثلة الغيبية المذكورة.

(٢) الفقرة: ٢٧، من الفصل: ١٠ من إنجيل متَّى.

(٣) الفقرة: ٤٣، من الفصل: ١٣ من إنجيل متى.

(٤) من حاشية: «كلمات في مبادئ علم الأخلاق» لشيخنا الدكتور عبد الله دراز ص٣٦ ـ ٣٧.

(٥) كلمات في مبادئ علم الأخلاق ص٣٧ ـ ٣٨.

كلمة قيمة للإمام الغزالي:

وأختم هذا الموضوع بكلمة للإمام أبي حامد الغزالي بيَّن فيها بوضوح أهمية الترغيب والترهيب ـ أو الترجية والتخويف ـ في الدين، وضرورته لسالك الطريق إلى الله تعالى، فقال في كتابه (**منهاج العابدين**) مخاطبًا كل مُريد لسلوك منهج العبادة والاستقامة: «ولا يحصل لك السير المستقيم إلا باستشعار الخوف والرجاء، والتزامهما حقَّهما على حدِّهما.

فائدتان لاستحضار الخوف:

أمَّا الخوف، فإنما يجب التزامه لأمرين:

أحدهما: للزجْر عن المعاصي، فإنَّ هذه النفس أمَّارة بالسُّوءِ، ميَّالة إلى الشرَّ، طمَّاحة إلى الفتنة، فلا تنتهي عن ذلك إلا بتخويف عظيم، وتهديد بالغ، وليست هي في طبعها حُرة يهمُّها الوفاء، ويمنعها الحياء عن الجفاء، إنما هي كما قال القائل:

والعبد يُقْرَعُ بالعصا والحُرُّ تكفيه المقالة[1]

والتدبير في أمرها أن تقرع أبدًا بسوط التخويف قولًا وفعلًا وفكرًا.

والثاني: لِئلَّا يُعجبَ بالطَّاعات، فيهلك، بل يقمعها بالذمِّ والعيْب والنقص بما فيها من الأسواء والأوزار، التي فيها ضروب الأخطار، ونحو ذلك.

فائدتان لاستحضار الرجاء:

وأما الرجاء فإنما يلزمك استشعاره لأمرين:

أحدهما: للبعْث على الطاعات، وذلك أنَّ الخير ثقيل، والشيطان عنه زاجر، والهوى إلى ضدِّه داعٍ، وحال أهل الغفلة من عامَّة الخلق في النفس مُنطبع مُشاهَد، والثواب الذي يُطلب بالطاعات عن العيْن غائب، وأمدُ الوصول إليه فيما يحسبه بعيد، وإذا كان الحال على هذه الحالة، فلا تنبعث النفسُ للخير، ولا ترغب فيه حقَّه، ولا تهتزُّ له إلا بأمرٍ يُقابِل كلَّ هذه الموانع ويُساويها، بل يزيد عليها، وذلك الأمر هو الرَّجاء القوي في رحمة الله، والترغيب البالغ في حُسْن ثوابه، وكريم أجره.

---

(١) من شعر ابن مفرِّغ الحميري.

ولقد قال شيخنا ـ أي شيخ الإمام الغزالي، وهو الإمام أبو المعالي الجويني ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الحُزن يَمْنَع عن الطعام، والخوفُ يمْنعُ من الذنوب، والرَّجاء يقوِّي على الطَّاعات، وذكْرُ الموت يزهِّد في الفضول.

والثاني: ليهون عليك احتمال الشَّدائد والمَشَقَّات. واعلمْ أن مَن عرَف ما يطلُبُ، هانَ عليه ما يبذُلُ، ومَن طابَ له شيء ورغِب فيه حقَّ رغبته، احتملَ شدَّتَه، ولم يبالِ بما يلْقَى من مُؤنته، ومَن أحبَّ أحدًا حقَّ محبَّته، أحب أيضًا احتمال مِحْنته، حتى إنه ليجد تلك المحنة ضروبًا من اللذة، ألا ترى مشتارَ العسلِ[1] لا يُبالي بلسْع النحل، لِما يتذكَّر مِن حلاوة العسل، والأجير لا يعْبأ بارتقاء السُّلَّم الطويل، مع الحِمْل الثقيل، طول النهار الصائف المديد، لِما يتذكر من أخذ الدرهَمَيْن بالعشيِّ؟ وأنَّ الفلاح لا يتفكَّر بمُقاساتِه الحرَّ والبرد، ومباشرة الشقاء والكدِّ طول السنة، لِما يتذكر من البيدر أوان الغلة؟ وكذلك ـ يا أخي ـ العُبَّاد الذين هم أهل الاجتهاد، إذا ذكروا الجنَّة في طيب مقيلها، وأنواع نعيمها: من حُورها وقصورها، وطعامها وشرابها، وحليِّها وحُللها، وسائر ما أعدَّه الله تعالى لأهلها، هان عليهم ما احتملوه من تعب في العبادة، أو ما فاتهم في الدنيا من لذَّة ونعمة، أو نالهم من ضرر وذِلَّة أو نِقْمة أو مشقّة لأجلها.

فإن كان مدار أمر العبوديَّة على الأمرين: القيام بالطاعة، والانتهاء عن المعصية، وذلك لا يتمُّ مع هذه النفس الأمَّارة بالسوء إلا بترغيب وترهيب، وتَرْجِية وتخويف، فإنَّ الدابَّة الحَرُون تحتاج إلى قائد يقودها، وإلى سائقٍ يسوقها، وإذا وقعتْ في مَهْواة، فرُبما تُضربُ بالسوط من جانب، ويُلوَّح لها بالشعير من جانب آخر، حتى تنهض، وتتخَلص مما وقعتْ فيه. وأن الصبيَّ العَرِم لا يمرُّ إلى الكُتَّاب إلا بتَرْجِية من الوالدين، وتخويف من المُعلِّم، فكذلك هذه النفس دابَّة حَرُون وقعت في مَهْواة الدنيا، فالخوف سوْطها وسائقها، والرجاء شعيرها وقائدها، وإنها الصبيُّ العَرِم يُحمل إلى كُتَّاب العبادة والتقوى، فذكْر النار والعقاب تخويفه، وذكر الجنة وثوابها ترجيته وترغيبه، فكذلك يلزم العبدَ الطالب للعبادة والرياضة أن يُشْعِر النفسَ بالأمرين، اللذين هما: الخوف والرجاء.

---

(١) الذي يجتني عسل النحل من محله.

فعليك أيها الرجل بقطع هذه العقبة، في تمام الاحتياط والتَّحرُّز وحدّ الرعاية، فإنها عقبة دقيقة المسلك، خطِرة الطريق، وذلك أنَّ طريقها بين طريقَين مَخُوفين مُهلِكين، أحدهما: طريق الأمن، والثاني: طريق اليأس.

وطريق الرجاء والخوف هو الطريق العَدْل بين الطريقين الجائرين، فإن غلب الرجاءُ عليك حتى فقدتَ الخوف البتة، وقعت في طريق الأمن: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩٩﴾ [الأعراف: ٩٩]. وإن غلب الخوفُ حتى فقدتَ الرجاء البتة، وقعتَ في طريق اليأس، و﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨٧﴾ [يوسف: ٨٧].

فإن كنتَ ركبتَ بين الخوف والرجاء، واعتصمتَ بهما جميعًا فهو الطريق العدل المستقيم، التي هي سبيل أولياء الله وأصفيائه، الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء: ٩٠]»[1].

طريق بين طريقَين:

قال الغزالي: «فإذن قد ظهرتْ لك في هذه العقبة طرقٌ ثلاث: طريق الأمن والجراءة، وطريق اليأس والقنوط، وطريق الخوف والرجاء ممتدًا بينها، فإن مِلتَ عنه بقدم إلى يمينك أو يسارك، وقعتَ في المُهْلِكين، وهلكتَ مع الهالكين.

ثم الشأن أن الطريقَيْن الجائرين المُهلكين أوسعُ مجالًا، وأكثر داعيًا، وأسهل سلوكًا من الطريق العَدْل؛ لأنك إذا نظرتَ من جانب الأمن، رأيتَ مِن سَعَة رحمة الله، وكثرة فضله، وغاية جُوده، ما لا يبقى لك معه خوف، فتتَّكِل على ذلك بمرَّةٍ وتأمَن، وإن نظرت من جانب الخوف، رأيت من عظيم قدرة الله تعالى وسياسته وكثرة هيبته، ودقَّة أمره، وغاية مناقشته مع أوليائه وأصفيائه، ما لا يكاد يبقى معه رجاء، فتيْئس بمرَّة وتقنط، فتحتاج إذن ألَّا تنظر إلى سَعَة رحمة الله فقط، حتى تتَّكِل وتأمن، ولا إلى عظيم الهيبة والمناقشة فقط، حتى تقنط وتيئس، بل تنظر إلى هذا، وإلى هذا جميعًا، وتأخذ من هذا بعضًا، ومن

(١) منهاج العابدين ص٢٤٧ ـ ٢٥٣ بتصرف، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م، تحقيق: محمود مصطفى حلاوي.

هذا بعضًا، فتركب بينهما طريقًا دقيقًا، وتسلك ذلك لتسْلَم، فإنَّ طريق الرجاء المَحض: سهلٌ واسع عريض، وعاقبته تؤديك إلى الأمن والخسران، وطريق الخوف المحض: واسع عريض، وعاقبته تؤديك إلى الضلال، وطريق العدْل بينهما، أعني: طريقَ الخوف والرجاء، وذلك وإن كان طريقًا دقيقًا عسيرًا، فإنه سبيلٌ سالِم، ومنهج بيِّن يُؤدِّي إلى الغفران والإحسان، ثم إلى الجِنان والرضوان، ولقاء الملك الرحمن، سبحانه، أمَا تسمع قوله تعالى في أبناء هذا السبيل: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦]. ثم قال: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧]. فتأمَّل هذه الجملة جيدًا، وتشمَّر وتنبَّه للأمر فإنه لا يُجنَى بالهوينى، والله ولي التوفيق»[1].

انتهى كلام الإمام الغزالي.

---

(١) منهاج العابدين ص٢٥٣ ـ ٢٥٤، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م، تحقيق: محمود مصطفى حلاوي.



الفصل الخامس

أثر التوجيه والتربية الإيمانية في الانتصار على سلطان الغريزة والعادة

كل الناس قابلون للصلاح والاستقامة والتوبة:

من الناس مَن ينظرون إلى البشر أنهم حُكِم عليهم بسيرتهم ومسيرتهم من يوم وُلدوا، فمنهم من ولدوا أخيارًا طيبين، يحبون الناس، ويعملون للخير، ويكرهون الشر، ويبغضون الظلم والفساد، ولا يحبون مَن يقوم به. وهؤلاء هم السعداء.

ومنهم آخرون أشقياء، بدَت عليهم شقاوتُهم منذ ولدوا، لا يحبون الناس، ولا يحبون الخير لهم، ولا ينشرون الفضيلة، ولا يساعدون الضعيف، بل يخذلونه لحساب الأقوياء، الذين يتخذونهم حرابًا لهم، وسيوفًا تقاتل عنهم.

ولو كانت دعوى هؤلاء صحيحة، ما كانت المدارس منذ الطفولة في العالم قديمه وحديثه، وما كان للمعاهد والجامعات قيمة في الحياة، ولا كان للمدرِّسين والمفتِّشين والمربِّين، والمساجد والدعاة والعلماء والأندية؛ فائدة أو معنى في حياة الناس.

وكم رأينا مِن فاسدين صَلَحوا، ومن منحرفين استقاموا، ومن عصاة وعتاة تابوا، ومن مجترئين على الله رجعوا إلى ربهم وقالوا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٣].

يقول شيخنا دراز: «يتبيَّن لنا أنَّ الذي يعتمد على ظواهر السلوك وعلى مجاري العادات في حكمه بعدم تطور الطباع، إنما يعتمد على جُرُفٍ هارٍ؛ وأن مَثَله كمثل من يحكم على الصَّحراء القاحلة الجرداء بأنها لا تقبل الإنبات، دون أن يجرب سقيها وحرثها ومعالجتها بسائر ضروب المعالجة.

فعلَّة ما يتوهَّمه الناس من جمود الطباع هو هذا اليأس، وهو فقد الثقة بالنفس. ومفتاح الخير كله في العمل والأمل، واليقظة والجِد، والحرص على الإصلاح والتقدُّم. وتلك هي الوصية الذهبيَّة التي أوصانا بها صاحب الرسالة حين يقول: «احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجِز»[1].

وتلك هي حقيقة (الجهاد الأعظم)، الذي قال فيه الرسول الكريم: «المجاهِد مَن جاهد نفسه»[2]. وقد وعَد الله الذين يحافظون على عمل الصَّالحات بأن يصير الصلاح مَلَكة لهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ۝٩﴾ [العنكبوت: ٩]. كما وعد المجاهدين لأنفسهم بإبلاغهم غايتهم من الهداية، فقال جلَّ شأنه: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]. وهي آية مكيَّة لا تعرف الكفاح بالسيف، ولكن بالصبر والقناعة، وقوَّة الإرادة، وتحدِّي المُغريات والمثيرات، والصمود أمامها كالصخرة الراسية أمام الرياح العاتية. وقد جاء في الحديث الصحيح: «إن الرجل ليصدُق، ويتحرَّى الصدق، حتى يكون صِدِّيقًا»[3].

ومن أوضح الأحاديث الصحيحة في الدلالة على فضل الجلد والمثابرة، وأثرهما في إزالة الرُّعُونات الجِبِلِّيَّة، وتكوين الخُلُق الحميد المضاد لها، قوله ﷺ: وإنه: «مَن يستعفف يعفَّه الله، ومَن يستغنِ يغنِه الله، ومَن يتصبَّر يصبِّره الله»[4]»[5] اهـ.

باب التوبة مفتوح:

والقرآن الكريم يفتح لنا باب التوبة على مصراعيه، ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ [التحريم: ٨]. بل يقول: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٣١﴾ [النور: ٣١].

---

(١) رواه مسلم في القدر (٢٦٦٤)، وأحمد (٨٧٩١)، وابن ماجه في المقدمة (٧٩)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد (٢٣٩٦٥)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح، والترمذي في الجهاد (١٦٢١)، وقال: حسن صحيح، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٥٤٩)، عن فضالة بن عبيد.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠٩٤)، ومسلم في البر والصلة (٢٦٠٧)، عن ابن مسعود.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣)، كلاهما في الزكاة، عن أبي سعيد الخدري.

(٥) كلمات في مبادئ علم الأخلاق ص١٥.

بل ينادي الذين كفروا أن يقلعوا عن كفرهم، ويتوبوا منه، وينضمُّوا إلى موكب المؤمنين المهتدين بنور الله، ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنفال: ٣٨].

ويقرِّر القرآن أنَّ باب التوبة والرجوع إلى الله مفتوح للناس في كلِّ وقت، وفي كلِّ مكان، ولكلِّ إنسان، مهما ثقلت ذنوبه، كما يقول تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣]. فهو سبحانه ينادي هؤلاء المسرفين على أنفسهم، المبارزين لله بالمعاصي والموبقات بأنهم عباده ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ﴾، ويعلمهم أنَّ رحمته لن تضيق بهم.

والله تعالى يحدِّثنا عن فئة من الناس تُقلق المجتمعات وتحاربها، وتعكر عليها أمنها وحياتها، ممَّن سمَّاهم القرآن: ﴿ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ [المائدة: ٣٣]. ممَّن يقطعون الطريق، ويقطعون الرقاب، ويقطعون الأرحام، ويقطعون كلَّ ما أمر الله به أن يوصل، وقرَّر القرآن أن جزاءهم: ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [المائدة: ٣٣]. ومع هذا لم يغلق باب التوبة عنهم، فقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [المائدة: ٣٤].

وكذلك يفتح الله الباب للسارقين، ليعودوا إلى رشدهم، ويتوبوا إلى ربهم، يقول تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ [المائدة: ٣٩].

والذين يقذفون المؤمنين والمؤمنات من المحصنين والمحصنات بجريمة الزنى، بعد أن ذكر الله في كتابه عقابهم بأن جمع عليهم العقوبة البدنية بالجلد، والنفسية بردِّ شهادتهم واعتبارهم في المجتمع، استثنى الله من تاب وأصلح. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [النور: ٤ ـ ٥].

أ ـ التوجيه والتربية يغلبان على سلطان الغريزة والعادة بسلطان الإيمان

لا شك أنَّ من أعظم المؤثِّرات على خُلق الإنسان وسلوكه: سلطان الغريزة، وسلطان العادة. ونعني بالغريزة: الدوافع النفسيَّة الفطريَّة الثابتة في الإنسان؛ مثل دافع الأكل أو الشرب أو الجنس. وهو ما يشترك فيه كلٌّ من الإنسان والحيوان، وبعضه يختصُّ بالإنسان، وقد حاول إبليس الشيطان الأكبر أن يُغْري آدمَ أبا البشر بالأكل من الشجرة التي نهاه الله عنها دون شجر الجنة جميعًا، وقاسمه هو وزوجته: ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢١ ـ ٢٣].

سلطان الغريزة وسلطان الإيمان:

ولا ريب أنَّ للغرائز ـ كما ذكرنا في كتاب **(الإيمان والحياة)** ـ في دفع الإنسان سلطانًا لا يُنكر، ولكن المُثُل العُليا التي يعيش لها المؤمن تعلو به على الغرائز وسلطانها[١].

والغريزة الجنسيَّة بخاصة لعلها أعتى الغرائز وأقواها، حتى إن في علماء النفس من فسَّر بها السلوك البشرى كله؛ مثل (فرويد)، وهو تفسير حيوانيٌّ يتجاهل غرائز الإنسان الأخرى، وسائر مَلكاته الروحيَّة ودوافعه النفسيَّة، وليس هنا موضع مناقشته[٢].

وفي الشباب تَتجلَّى هذه الغريزة على أشدِّها، فالشباب شعلة متوهِّجة؛ لعظم طاقته الحيويَّة، وقوة دوافعه النفسيَّة، وقلة علمه وتجاربه في الحياة، بجانب أحلامه وخيالاته الكثيرة، فماذا يمنع الشاب الناضر الفتوة، القوي الغريزة أن يقضي شهوة جنسيَّة مع امرأة لا تحل له، إذا تيسَّرت له أسبابها، وتهيَّأت وسائلها دون خشية من عقاب أو قانون أو أعين الناس؟ لا شيء يمنعه إلا الإيمان.

---

(١) أصبح علماء النفس اليوم لا يستحسنون كلمة (الغرائز)، ويستعملون بدلها (الدوافع النفسية)، ولكنا آثرنا كلمة الغرائز لشيوعها وظهور معناها لدى جمهور الناس، ولا مشاحَّة في الاصطلاح.

(٢) راجع كتاب: الإنسان بين المادية والإسلام لمحمد قطب ص٢٥ ـ ٢٦، ١٦٧ ـ ١٦٨، طبعة دار الشروق، القاهرة ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

هذا ما حدث ليوسف عليه السلام: شاب في ريعان الشباب، مكتمل الرجولة، رائع الفتوَّة، تدعوه إلى نفسها امرأةٌ ذاتُ منصب وجمال، ليست من عامَّة الناس، ولكنها امرأة العزيز الذي هو في بيتها وهو عبدها وخادمها، والأبواب مُغلقة، والسُّبل مُيسَّرة، كما حكى القرآن: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣].

فماذا كان موقفُه أمام هذا الإغراء، وتلك الفتنةِ التي تخطف الأبصار!

هل لانت قناتُه، فاستسلم وخان عِرضًا اؤتمن عليه؟ كلا. إنما قال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يوسف: ٢٣].

ولقد حاولت المرأة بكيدها ومكرها، وبكل ما لديها من ألوان الإغراء والتهديد: أن تذيب من صلابته، وتُضعضع من شموخه، فلم تستطع، وأعلنت ذلك لنسوتها في ضيق وغيظ: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [يوسف: ٣٢].

ولكن الشاب يوسف اتَّجه إلى الله يسأله المعونة والعصمة: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [يوسف: ٣٣].

كانت فتنة بين ضمير المؤمن، ومُغْريات الإثم، ففشلت المغريات وانتصر الإيمان.

والغريزة من شأنها أن تطلب متنفَّسًا، فإنْ طال حبسها خيف عليها الانفجار، ما لم يحجزها سدُّ الإيمان.

وهذه امرأة يغيب عنها زوجها فترة طويلة من الزمن، فتخيِّم عليها كآبة الوحشة، وتهجم عليها هواجس الوحدة، ويثور في عرقها دم الأنوثة، وينطق فيها صوت الغريزة، فلا يصدُّه إلا حاجز الإيمان، وفي جنح الليل باتت تنشد:

لقد طال هذا الليل واسْودَّ جانبه ... وأرَّقني أن لا حبيبَ ألاعبه

فوالله لولا الله تُخشى عواقبه ... لحُرِّك من هذا السرير جوانبه[1]

---

(١) روى هذه القصة سعيد بن منصور في سننه (٢٤٦٣) بلفظ مقارب لهذا، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، خرج ليلة يحرس الناس، فمر بامرأة وهي في بيتها وهي تقول.

الإيمان ينتصر على غريزة المقاتَلة:

وغريزة المقاتَلة التي عبَّر عنها الأقدمون، بالقوَّة الغضبيَّة، أو القوَّة السَّبُعيَّة، والتي تُثير الإنسان أن يردَّ الصاع صاعين، وتدفعه إلى التدمير والانتقام، وبها يبدو كالوحش الهائج، أو الإعصار المُدمِّر؛ جمرة من النار يُلقيها شيطان الغضب في جوفه، فتنتفخ أوداجه، وتحمرُّ عيناه، ويبدو كأنَّ له مخالب وأنيابًا؟

ما الذي يُقلِّم أظافر هذه الغريزة، ويُلقي على هذه الجمرة المتَّقدة ماء الهدوء والسلام؟

إنه الإيمان الذي يحمل المؤمن أن يكظم الغيظ، ويعفو عمَّن ظلمه، ويحلم على مَن جَهِل عليه، ويُحسن إلى من أساء إليه، ويجعله يحسُّ في مرارةِ جرعةِ الغيظ، حلاوةً يجدها في صدره.

وقد قصَّ علينا القرآن قصَّة ابني آدم بالحق: ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾، فما كان من ابن آدم الشرير إلا أن قال لأخيه: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾. قال المؤمن الصَّالح: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [المائدة: ٢٧ ـ ٢٨].

خوف الله إذًا هو الذي يكفُّ الأيدي أن تمتدَّ بالأذى، وإن التهبت الغريزة، ودفعت إلى العدوان. وقد قال عمر: مَن اتقى الله لم يشفِ غيظه، ومَن خاف الله لم يفعل ما يريد، ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون[١].

وكلَّم رجل يومًا عمر بن عبد العزيز، فأساء إليه حتى أغضبه ـ وهو أمير المؤمنين ـ فهمَّ به عمر، ثم أمسك نفسه وقال للرجل: أردتَ أن يستفزَّني الشيطان بعزَّة السلطان، فأنال منك ما تناله مني غدًا؟ أي: في الآخرة. قم عافاك الله، لا حاجة لنا في مقاولتك[٢].

الإيمان ينتصر على الأنانيَّة:

وغريزة الأنانيَّة أو حب الذات غريزةٌ عاتية جبَّارة، لا يكاد يخلو بشر من سلطانها عليه، وقوة دفعها له، وتوجيهها لسلوكه. وإنك لترى الناس تدفعهم

(١) رواه أبو داود في الزهد (٩٨)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٨/ ٥٧).

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٧٩٧١).

الأنانية إلى التنافس على الدنيا ومتاعها، ويدفعهم التنافس إلى التنازع والاختصام، ويدفعهم ذلك إلى ادِّعاء ما ليس لهم، وجحود ما عليهم من حقٍّ، وأكل أموال الناس بالباطل، وعندما يُطِلُّ شيطان الخصومة برأسه، لا يكون إلا حب الغَلبة بأيِّ ثمن، وأيَّة وسيلة.

ولكن عنصر الإيمان إذا دخل المعركة، أطفأ لهبَ الخصومة، فصارت نارها بَرْدًا وسلامًا، وحطَّم طغيان الأنانيَّة فاستحالت تسامحًا وإيثارًا، وحلَّق بالمؤمن من المتاع الأدنى إلى المَثَل الأعلى.

وفي القصة التي روتها أمُّ سَلَمة زوج الرسول ﷺ، مثل واضح على مبلَغ أثر الإيمان: رجلان يختصمان في مواريث، وليس لهما بَيِّنة إلا دعواهما، كلاهما يقول: هذا حقِّي. ويُنكر على صاحبه أن يكون له حق. ويحتكم الرجلان إلى رسول الله ﷺ، وفي صدر كلٍّ منهما فرديَّته وأنانيَّته، فيصدع الرسول آذانهما وقلبيهما بهذه الكلمات الحية: «إنما أنا بشرٌ، وإنكم تختصمون إليَّ، ولعلَّ بعضكم أن يكون ألحن بحُجَّته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع منه، فمَن قضيتُ له من حقِّ أخيه بشيء؛ فلا يأخذ منه شيئًا؛ فإنما أقطع له قطعة من النار»(*).

سمع الرجلان المختصمان هذه الكلمات الهادرة، فلمست أوتار الإيمان من صدريهما، وأيقظت فيهما خشية الله والدار الآخرة، فبكى الرجلان، وقال كلٌّ منهما لصاحبه: حقِّي لك!

فقال النبي ﷺ: «أما إذ فعلتما ما فعلتما، فاقتسما وتوخيا الحقَّ، ثم استهما، ثم تَحَالَّا»[1]. أي: ليُحِلّ كلٌّ منكما صاحبه وليسامحه فيما عسى أن يكون حقه.

هنا كانت كلمة الإيمان، وكلمة الضمير الذي أيقظه الإيمان: هي القول الفصل، والقضاء العدل في قضية يعجز القانون المجرَّد والقضاء الظاهر عن معرفة الحق فيها، ما دام الطرفان متنازعين، ولا بَيِّنة لأحدهما.

وقد قصَّ النبيُّ ﷺ على أصحابه قصة رجلين مؤمنَين، ضربهما مثلًا لما

(*) متفق عليه: رواه البخاري في الحيل (٦٩٦٧)، ومسلم في الأقضية (١٧٦٣) دون ذكر القصة.

(١) رواه أبو داود في الأقضية (٣٥٨٤)، والحاكم في الأحكام (٤/ ٩٥)، وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وحسن إسناده ابن عبد الهادي في تنقيح التحقيق (٣٢٥١).

يجب أن يكون عليه المؤمنون من العفاف والزهد والإيثار، قال: «اشترى رجل من رجل عقارًا له، فوجد الرجل الذي اشترى العقار في عقاره جرَّة فيها ذَهَب، فقال للذي اشترى العقار منه: خذ ذهبك عني، إنما اشتريتُ منك الأرض، ولم أبتع منك الذهب. فقال الآخر: إنما بعتك الأرض وما فيها! قال ﷺ: فتحاكما إلى رجل، فقال الذي تحاكما إليه: ألكما ولد؟ فقال أحدهما: لي غلام. وقال الآخر: لي جارية. فقال الحكم: أنكحوا الغلامَ الجاريةَ، وأنفقوا على أنفسكم منه وتصدَّقا»[1].

وهكذا يرى الناس لونًا ممتازًا من النفوس: رجلان وأمامهما جرَّة فيها ذهب، لا يتقاتلان عليها! ولكن يتدافعانها، يقول كلٌّ منهما لصاحبه: هي لك!! على حين نرى الإنسان دائمًا يقول: هذا لي!

سلطان العادة وسلطان الإيمان:

هكذا يقف الإيمان القويُّ أمام طغيان الغرائز الإنسانيَّة فيكفكف من غلوائها، ويحدُّ من شرِّها، ويقوِّم من انحرافها، ويوجِّهها وجهةَ الخير والسَّداد والصلاح، ولكن الإنسان لا يخضع لسلطان الغريزة وحدها، وإنما يؤثِّر فيه - وراء الغرائز - شيء آخر، وله سلطانه القاهر، وكلمته النافذة، ذلك الشيء هو العادة.

والعادة تتكوَّن من ميْل الإنسان إلى شيء ما، ثم استجابته لهذا الميْل، وفعله لهذا الشيء، ثم تَكراره لهذا الفعل مرة بعد مرة، ويومًا بعد يوم: حتى ترتبط بأعصابه، وتخطُّ فيها مجرى يختلف في سَعَته وعمقه تبعًا لقوة العادة وضعفها، ويؤدي هذا الفعل بعد ذلك بيسر وسهولة، أداءً يكاد يكون آليًا، ليس فيه إلا قليل من الانتباه والتفكير، ويصبح الامتناع عن هذا الأمر - بعد أن صار عادة - من الصعوبة بمكان.

سلطان العادة وقوتها:

ولقد قال بعض الباحثين: «إنَّ الإنسان يكاد يكون مجموع عادات تمشي على الأرض». وقال روسو: «يُولد الإنسان ويموت مُستَرقًّا مُستعبَدًا، ويُشَدُّ عليه

(١) متفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٧٢)، ومسلم في الأقضية (١٧٢١)، عن أبي هريرة.

القِماط يوم يُولد، والكفن يوم يموت». يريد أنه ـ فيما بين المهد واللحد ـ أسيرًا للعادات، مُستعبَدًا للتقاليد.

وقال القدماء: «العادة طبيعة ثانية». يعنون بذلك أنَّ لها من القوة ما يقرب من (الطبيعة الأولى). والطبيعة الأولى هي ما وُلد عليه الإنسان وفُطِر عليه. فكل إنسان خرج من هذا العالم كآلة مجهَّزة بكثير من العِدَد: عينٌ تبصر، وأُذُنٌ تسمع، ومَعدةٌ تهضم، وغرائز فطريَّة، وهكذا. فهذا الذي وُلِدْنا عليه وورثناه من آبائنا وأجدادنا هو: طبيعتنا الأولى، ولها سلطان كبير على الإنسان، فلو حاول أن يبصر بأذنه، ويسمع بعينه ما استطاع، فهو لا بدَّ خاضع لسلطانها.

وما يُدخِله الإنسان على الطبيعة الأولى من التَّحسين والتَّقبيح هو ما يُسمَّى (الطبيعة الثانية) أو (العادة)، ولها كذلك سلطان كبير. فالطريق الذي نختطُّه لأنفسنا في الحياة، ونعتاد السير فيه، له من السلطان علينا ما يقرب من سلطان الطبيعة، فنحن أحرار في السنين الأولى من حياتنا، لا سلطان للعادة علينا، حتى إذا نمونا كان نحو تسعين في المائة من أعمالنا ـ من لبس وخلع وطريقة أكل وشرب ونمط في الكلام والسلام والمشي والمعاملة ـ معتادًا، نعمله بقليل من الفكر والانتباه، ويصعب علينا العدول عنه، وتصبح حياتنا مجرد تكرير لأفكار وأعمال كسبناها في مقتبل الحياة.

ذلك هو مبلغ سلطان العادة على الإنسان ـ فردًا كان أو جماعة ـ فإذا كانت عاداته صالحة، فما أسعده بها! وإن كانت عاداته قبيحة ضارة فما أتعسه وما أشقاه بها! إنه يأكل الشيء الذي يضرُّ جسمه، ويشرب الشيء الذي يُغيِّب عقله، ويلبس الشيء الذي يضايقه ويخنقه، ويرتكب الشيء الذي يستقبحه ويستهجنه. وما ذلك إلا لسلطان العادة عليه، وغلبتها على عقله وإرادته. وحسبنا دليلًا على هذا ما نراه بأعيننا في المدمنين لشرب المُسكرات، وتناول الكيوف والمخدرات، ولعب الميسر والقمار.

سلطان الإيمان أقوى:

وللتخلص من عادة متمكنة لا بدَّ من إعلان حرب عليها: حرب ساخنة ملتهبة، لا ينتصر فيها إلا مَن تسلَّح بإرادة قويَّة، وعزم فولاذي، لا يتزعزع ولا يلين، وتصميم على الانتصار لا يشوبه يأس أو تردُّد أو تراخٍ.

هٰذا هو سبيل الانتصار على العادات الضارة المنتشرة في مجتمع من

المجتمعات، لا العقوبات القاسية، أو القوانين الرادعة وحدها، وكم رأينا في القديم والحديث من قوانين وعقوبات ارتدت مدحورة أمام جبروت العادات.

ومَن لنا بالعزم والتصميم الذي يقهر العادة ويدحرها؟ إنه الإيمان الذي يشحذ العزائم، ويسمو بالنفوس، ويمدُّها بقوى المقاومة والجِلاد الباسل، فتخرُّ أمامها أسوار العادات والتقاليد.

تحريم الخمر بين الولايات المتحدة وصحابة رسول الله ﷺ:

ولكي يتَّضح لنا أثر الإيمان في تغيير العادات المتمكنة، وتربية النفوس على عمل الخير وإن كان شاقًّا، وترك الشر وإن كان مألوفًا ومعتادًا، نقيم موازنة بين موقفين في مشكلة واحدة: موقف من التاريخ الحديث، وموقف من التاريخ القديم، يُصوِّران لنا كيف يصنع وازع الإيمان ما يعجز عنه وازع السلطان.

الموقف الأول في الولايات المتحدة الأمريكية، وقد انتشرت فيها عادة السكر وشرب الخمور انتشارًا أقنع الحكومة بضرر ذلك على الفرد والأسرة والمجتمع، فأصدرت الحكومة قانونًا يمنع الخمر، ثم تبيَّن لها بعد مدَّة يسيرة أنها عاجزة تمام العجز عن تنفيذ قانونها، وأنَّ أفرادًا وجماعات أخذوا يعيثون في الأرض فسادًا بتعاطي الخمور والاتِّجار بها، والتفنُّن في صناعتها على استخفاء، واستحضار أخبث أنواعها أكثر من ذي قبل.

وممَّا ينبغي أن نلتفت إليه أن هذا الحظر لم يكن (أمرًا ملكيًا) أو منشورًا من إمبراطور مستبدٍّ أراد أن يُرغِم شعبه بسلطان القوَّة وقوَّة السلطان.

كلا، إنه تشريعٌ جاء عن طريق برلمان في بلد ديمقراطي دستوري حر، من شأنه أن يُشرِّع لنفسه ما يجلب له النفع، ويدرأ عنه الفساد والضرر، وقد شرَّع هذا القانون بعد أن اقتنع به الرأي العام وتحقق له من الوجهة العلمية والعملية أن الخمر ضارَّة بالصحة، مُفسدة للعقل، مُحطِّمة للحضارة.

ففي حوالي عام ١٩١٨م ثارت المشكلة في الرأي العام الأمريكي، وفي عام ١٩١٩م أُدخل في الدستور الأمريكي تحت عنوان (التعديل الثامن عشر)، وفي نفس السنة أُيِّد هذا التعديل بأمر حظر، أطلق عليه التاريخ قانون (فولستد).

وقد أُعدَّت لتنفيذ هذا التحريم داخل الأراضي الأمريكية كافة وسائل الدولة وإمكاناتها الضخمة:

١ ـ جُنِّد الأسطول كله لمراقبة الشواطئ منعًا للتهريب.

٢ ـ جُنِّد الطيران لمراقبة الجو.

٣ ـ شُغِلت أجهزة الحكومة واستُخدمت كل وسائل الدعاية والإعلام لمحاربة الخمر، وبيان مضارِّها، وجُنِّدت كذلك المجلات والصحف والكتب والنشرات والصور والسينما والأحاديث والمحاضرات وغيرها.

ويقدَّر ما أنفقته الدولة في الدعاية ضد الخمر بما يزيد على ستين مليونًا (٦٠,٠٠٠,٠٠٠) من الدولارات، وأن ما أصدرته من كتب ونشرات يبلغ عشرة بلايين (١٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) صفحة، وما تحملته في سبيل تنفيذ قانون التحريم ـ في مدة أربعة عشر عامًا ـ لا يقل عن مائتين وخمسين مليون (٢٥٠,٠٠٠,٠٠٠) دولار، وقد أُعدم في هذه المدة ثلاثمائة (٣٠٠) نفس، وسُجِن (٥٣٢,٣٣٥) نفس، وبلغت الغرامات ستة عشر مليون دولار (١٦,٠٠٠,٠٠٠)، وصادرت من الأملاك ما بلغ أربعمائة مليون وأربعة ملايين دولار (٤٠٤,٠٠٠,٠٠٠)، ولكن كل ذلك لم يزد الأمَّة الأمريكية إلا غرامًا بالخمر، وعنادًا في تعاطيها، حتى اضطرت الحكومة سنة ١٩٣٣م إلى إلغاء هذا القانون، وإباحة الخمر إباحة مطلقة[١].

هذه هي نهاية المطاف، وهذا هو ختام القصة:

فشل كامل لأمر الحظر، وسقوط ما قرره التعديل الدستوري الحادي والعشرون الذي صدَّق عليه الكونجرس عام ١٩٣٢م.

وذلك هو الموجز التاريخي للمأساة التشريعيَّة بأكملها، تلك التي سُمِّيت في تاريخ الأمَّة الأمريكية (عهد التحريم).

لقد فشل القانون، وعجزت السلطات، وأفلست أجهزة الدولة، في منع الخمر ومحاربة السِّكِّيرين، برغم الاقتناع العقلي الذي كان سائدًا في الأمَّة بضرر الخمر، ولكن الاقتناع العقلي شيء، وعمل الإرادة شيء آخر.

ولقد قال أحد الكتاب الغربيين: «إنَّ طلب شيء في تصميم وقوة يتطلب

---

(١) ذكر هذه الإحصاءات الأستاذ أبو الأعلى المودودي في كتابه (تنقيحات)، وعنه نقلها الأستاذ أبو الحسن الندوي في كتابه (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) ص١٧٧ هامش.

روحًا من التعبد والتقشف، أي تكريس الحياة لبلوغ مَثَل أعلى واحد، اختاره الإنسان بعناية وتفطُّن. إن الإرادة تغلب دائمًا الثقافة، حينما تكون الثقافة - لا المبادئ الدينية - هي التي يرتكز عليها تصميم المرء ونشاطه ومدده الروحاني».

فشلت الأساطيل ونجح الإيمان:

هذا موقف، والموقف الآخر من تاريخنا العربي الإسلامي القديم: فقد بعث محمد رسول الله وللخمر في المجتمع العربي سريان وانتشار، تجري من نفوس أبنائه مجرى الدم، يتمدحون بشربها، ويفْتَنُّون[1] فيَ وصفها ووصف مجالسها وندمائها وأقداحها، ويصوِّر شاعرهم مدى تعلقه بها فيقول:

إذا مِتُّ فادفنِّي إلى جنب كَرْمَةٍ تروي عظامي بعد موتي عروقُها[2]

ولم يستطع امرؤ القيس الشاعر المعروف - وقد بلغه قتل أبيه - أن يَدَع الكأس من يده، ويفارق مجلس ندمائه، بل قال كلمته المشهورة: اليومَ خمرٌ وغدًا أمر.

ولم يعرف المجتمع الجاهلي إلا أفرادًا معدودين على الأصابع عافوا شرب الخمر مروءة، وسجل لهم ذلك التاريخ، وعدَّه مأثرة نادرة، كزيد بن عمرو بن نفيل.

وممَّا يدل على اهتمامهم بالخمر: أنهم وضعوا للتعبير عنها أسماء كثيرة، وكنايات مختلفة، وألقابًا متعددة: المُدامة، السُلافة، الراح، الصهباء، ابنة العنقود، ابنة الكَرْم، بنت الحان، بنت الدِّنان.. إلى آخر الأسماء التي بلغت أكثر من مائة[3].

كما أنَّ تجارتها عندهم كانت في نماء وازدهار.

ومن أدلة شغفهم بها، وتمكنها من نفوسهم: أن كثيرًا من الصحابة بعد أن نزلت الآيتان الأوليان في شأن الخمر: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢١٩]. و﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء: ٤٣]. ولم يكن التحريم فيهما صريحًا حاسمًا، لم يزالوا يشربون الخمر ما دام في النصِّ متسع لهم.

---

(١) افْتَنَّ الرجل في حديثه وخطبته إذا جاء بالأفانين. انظر لسان العرب (فنن).

(٢) من شعر أبي محجن الثقفي.

(٣) انظر: حلبة الكميت للنواجي ص٦ وما بعدها.

ذلك أن الإسلام تدرَّج معهم في تحريم الخمر - رفقًا بهم وتيسيرًا عليهم - حتى نزلت آية المائدة الصريحة القاطعة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩٠ - ٩١].

وهنا رأينا العجب، رأينا الرجل يحطِّم كأسه، ويسفك ما عنده من خمر في الطريق، حتى تفيض طرقات المدينة بما كان عند الناس منها.

عن أبي سعيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس، إن الله يُعَرِّض بالخمر، ولعل الله سينزل فيها أمرًا، فمَن كان عنده شيء فليبعه ولينتفع به». وذلك قبل التحريم النهائي. قال أبو سعيد: فما لبثنا إلا يسيرًا، حتى قال: «إن الله حرَّم الخمر، فمن أدركته هذه الآية - يعني آية المائدة السابقة - وعنده منها شيء فلا يشربْ ولا يبعْ». قال أبو سعيد: فاستقبل الناس بما كان عندهم منها طُرق المدينة، فسفكوها[1]. أي: صبُّوها وأسالوها.

وعن أنس قال: كنت أسقي أبا عبيدة وأبي بن كعب، فجاءهم آتٍ، فقال: إن الخمر حُرِّمت.. فقال أبو طلحة: قم يا أنس فأهرقها. فأهرقتها[2].

وعن بُريدة بن الحَصِيب الأسلمي قال: بينما نحن قعود على شراب لنا، ونحن نشرب الخمر حِلًا، إذ قمتُ حتى آتي رسول الله ﷺ فأُسلِّم عليه، وقد نزل تحريم الخمر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩٠ - ٩١]. فجئت إلى أصحابي، فقرأتُها عليهم. قال: وبعض القوم شَربته في يده، شرب بعضًا وبقي بعضٌ في الإناء، فقال بالإناء تحت شفته العليا، كما يفعل الحَجَّام، ثم صبُّوا ما في باطنهم فقالوا: انتهينا ربَّنا، انتهينا ربَّنا[3].

فهل رأت البشريَّة مثل هذا انتصارًا على النفس، وسرعةً في الاستجابة، وقوةً في الانقياد للأمر، مهما يكن مخالفًا للعادات، مصادمًا للشهوات؟[4].

---

(١) رواه مسلم في المساقاة (١٥٧٨).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٥٨٢)، ومسلم (١٩٨٠)، كلاهما في الأشربة، عن أنس.

(٣) رواه الطبري في تفسير آية المائدة (١٠/ ٥٧٢).

(٤) انظر: كتابنا الإيمان والحياة ص١٩٥ - ٢٠٥، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثامنة عشر ١٤٣٤هـ، ٢٠١٣م.

ب ـ تأثير التوجيه والتربية عن طريق العادة:

يقول الداعية الكبير الأستاذ محمد قطب في كتابه (**منهج التربية الإسلامية**): «العادة تؤدِّي مهمة خطيرة في حياة البشريَّة، فهي توفِّر قسطًا كبيرًا من الجهد البشري بتحويله إلى عادة سهلة ميسرة، لينطلق هذا الجهد في ميادين جديدة من العمل والإنتاج والإبداع. ولولا هذه الموهبة التي أودعها الله في فطرة البشر، لقضَوا حياتهم يتعلمون المشي أو الكلام أو الحساب!

ولكنها ـ على عظم مهمتها في حياة الإنسان ـ تنقلب إلى عنصر معوِّق معطِّل، إذا فقدت كل ما فيها من (وعي) وأصبحت أداء آليًّا لا تلتفت إليه النفس، ولا ينفعل به القلب.

والإسلام يستخدم العادة وسيلة من وسائل التربية، فيحوِّل الخيرَ كلَّه إلى عادة، تقوم بها النفس بغير جهد، وبغير كدٍّ، وبغير مقاومة.

وفي الوقت ذاته يَحُولُ دون الآلية الجامدة في الأداء، بالتذكير الدائم بالهدف المقصود من العادة، والربط الحيِّ بين القلب البشري وبين الله، ربطًا تسري فيه الإشعاعة المنيرة إلى القلب، فلا تَرين عليه الظُّلمات.

وقد بدأ الإسلام ـ وهو ينشأ في الجاهليَّة ـ بإزالة العادات السيِّئة التي وجدها سائدة في البيئة العربية، واتَّخذ لذلك إحدى وسيلتين: إما القطع الحاسم الفاصل، وإما التدرُّج البطيء، حسب نوع العادة التي يعالجها، وطريقة تمكُّنها من النفس.

فكل عادة تتَّصل بأصل التصور والعقيدة والارتباط المباشر بالله، فقد قطعها قطعًا حاسمًا من أول لحظة. فهي كالأورام الخبيثة في الجسم، ينبغي أن تُستأصل من جذورها، وإلا فلا حياة.

والشرك بكلِّ عاداته وتصوراته، من عبادة للأوثان، واجتماع حولها، وأداء لمراسم معينة من أجلها، كل ذلك قطعه من أول لحظة، وبضربة حاسمة؛ لأنه لا يمكن أن يستقيم إيمانٌ وشرك، وعبادة لله وعبادة لغيره من الكائنات. ومن ثَمَّ كان ينقل المسلم نقلًا كاملًا حاسمًا صريحًا من (البيئة الفكرية) التي كان يعيش فيها إلى البيئة الجديدة الإيمانيَّة، التي تقيم كل شيء فيها على أساس وحدانية الله الخالصة، ووحدانية القوة المسيطرة على الكون، والمُصَرِّفة لجميع أموره.

وعادة مثل: (وأد البنات) لم يكن يمكن مهادنتها، وهي تقوم على أساس غير إيماني، ولا إنساني. والخوف من الفقر ـ وهو الدافع الأول لوأد البنات ـ لا يجوز أن يخالط النفس المؤمنة المطمئنة إلى الله. ثم إنه ظُلم لا يستقيم مع (الحق) الذي خُلِقت به السماوات والأرض: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾ [التكوير: ٨ ـ ٩].

وكذلك العادات النفسيَّة من كذب وغيبة ونميمة وغمز ولمز وكِبْر وعنجهية.. إلخ، كان لا بدَّ من مواجهتها مواجهة حاسمة، وإن كانت الوسيلة إلى ذلك هي التوجيه المحيي للقلب، والاتصال بالله في السر والعلن، وفي الأخذ والعطاء.

وكلها عادات يمكن أن تنتقل فيها النفس باللمسة الموحية في لحظة واحدة من أقصى الشمال لأقصى اليمين دون تدرُّج ولا إبطاء!

أما العادات (الاجتماعيَّة) التي لا تقوم على مشاعر (الفرد) وحدها، وإنما ترتبط بأحوال اجتماعية واقتصادية متشابكة، فقد لجأ فيها إلى التدرج البطيء، مع استمرار الوعظ والتوجيه واستحياء القلوب.

الخمر، والزنى، والربا، والرِّق، لم تكن عادات (فرديَّة) وجدانيَّة، بقدر ما كانت عملة سارية في المجتمع، وهي كذلك ليست من العادات التي تستطيع كل نفس أن تحسم موقفها منها في لحظة، فلا يعاودها الحنين إليها ولا تعود!

لذلك لجأ في علاج كلٍّ منها إلى التدرُّج على مراحل ودرجات، أو أخَّر تحريمها حتى اكتمل نمو المجتمع المسلم.

كانت أول إشارة لتحريم الخمر: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧]. ففصل بين السَّكَر وبين الرزق الحَسَن، وكان توجيهًا لطيفًا أحسَّ منه أذكياء القلب من المسلمين أن الله لا بدَّ محرِّمها ذات يوم قريب أو بعيد.

ثم كانت الإشارة الثانية: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]. إنها مرحلة الإقناع الوجداني والعقلي، لتتزحزح النفس عن إلفها، وتتحوَّل عن عادتها.

ثم كانت الإشارة الثالثة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء: ٤٣]. فنهى المسلمين عن السُّكْر في أوقات الصلاة، وهو نهيٌ

عن التعاطي في الواقع؛ لأن الإنسان لا يستطيع عمليًا أن يشرب ثم يفيق قبل حلول موعد الصلاة.

ثم كانت الخطوة الحاسمة الأخيرة هي التحريم القاطع: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠﴾ [المائدة: ٩٠].

أما الزنى فقد تدرج به الأمر كذلك، من النصيحة، إلى التهديد بالعقوبة، إلى تقرير عقوبة مُجْمَلة، إلى تقرير عقوبة مفصَّلة محددة، كما تدرج من عدم إكراه الفتيات على البغاء ﴿إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا﴾ [النور: ٣٣] مع إباحة زواج المتعة، إلى تحريم البغاء وتحريم زواج المتعة كليهما، والخلوص إلى إغلاق كل الطرق فيما عدا الزواج المؤبد الدائم المعقود باسم الله وبنيَّة الدوام.

أما الربا فقد أُخِّر تحريمه إلى العام العاشر من الهجرة؛ حتى اكتمل نمو المجتمع المسلم والنفس المسلمة.

وأما الرِّق فقد اتخذ في معالجته وسائل بطيئة جدًّا تنتهي في النهاية بتحرير الرقيق، إذ كان إلغاؤه في حاجة إلى التدرج البطيء، وإلى تحرير الرقيق من داخل نفوسهم قبل تحريرهم من الخارج بقانون. وقد كانت وسيلته هي ردَّهم رويدًا رويدًا إلى الإحساس بإنسانيتهم، بالمعاملة الحسنة، وبربطهم بالله، وتعويدهم على (تذوُّق) الحرية، حتى لا ينفروا من مذاقها حين يصبحون أحرارًا يتولَّوْن تبعة أنفسهم في مواجهة مشكلات الحياة[1].

أما بذر العادات الصالحة، فله كذلك عدة طرق وعدة مراحل.

فأما الإيمان بعد الكفر، فقد كان يستخدم له الهزة الوجدانيَّة المحيية المُوحية، التي تنقل النفس فجأة من تصوُّر إلى تصور، ومن شعور إلى شعور، ثم لا يدعها تبرد! ففي الحال يحوِّلها إلى عادة! عادة مشتبكة بزمان ومكان وأشخاص. فهو ينقل المسلم من بيئته الكافرة التي كان فيها، ليربط بينه وبين مؤمنين آخرين، يتعاطف معهم، وتنشأ بينه وبينهم صلات من المودة و(القربى) التي تعدل قرابة الدم بل تزيد! ويتعود أن يلقى هؤلاء المؤمنين على حديث

---

(١) اقرأ بالتفاصيل فصل (الإسلام والرق) من كتاب (شبهات حول الإسلام) لمحمد قطب ص٣٣ ـ ٦٥. بدون ذكر طبعة وتاريخ نشر.

الإيمان وأفعال الإيمان، فيصلي معهم، وتصبح الصلاة عادة، ويستمع معهم إلى القرآن، ويصبح استماع القرآن عادة، ويتوادُّ معهم، وتصبح المودّة عادة، ويحتمل معهم الكروب، ويصبح احتمال الكروب في سبيل العقيدة عادة! ثم يجاهد معهم الكفار ويصبح الجهاد عادة!

وينشئ مجتمعًا تعيش فيه التصورات والفضائل الإسلامية، وبذلك تصبح العادة عملًا فرديًا وارتباطًا جماعيًا في آن واحد، فيضمن لها ذلك الدوام والاستمرار. كما يضمن لها الحيوية ـ التي تتضاعف بلقاء الآخرين ـ فلا تتبلّد ولا تتحجَّر، كما ينشئ منها نظامًا اجتماعيًا قويَّ الأسس متين البنيان.

وكذلك كل العادات النفسيَّة من صدق، ووفاء، ومحبة، وعطف، وبذل، وإيثار.

والإسلام يلجأ في ذلك أولًا إلى إثارة الوجدان، وإنشاء الرغبة في العمل، ثم يحول الرغبة إلى عمل واقعي ذي صورة محدَّدة واضحة السِّمات، فيلتقي الظاهر والباطن ويتطابقان ويتكافآن: رغبة وسلوكًا، ثم يحول الرغبة والعمل من مسألة فرديَّة إلى رباط اجتماعي.

الصلاة رغبة في الاتصال بالله، والدعاء إليه، وطلب المعونة منه، فيحول هذه الرغبة إلى عمل محدَّد ذي مراسم وحدود، ثم ينظِّمها في أوقات محددة، ثم يدعو إلى الجماعة، ويحبِّب إليها.

والزكاة رغبة في التحرر من الشحِّ، والعطف على المحتاج، والتعاون مع الجماعة، فتتحول الرغبة إلى عمل ظاهر محدد، ذي نسبة معيَّنة في المال، وأوقات معينة في الأداء، ثم يحوِّل العمل الفردي إلى نظام تقوم عليه الدولة والمجتمع.

وكذلك كل عادة من عادات الإسلام، تبدأ باستحياء الرغبة، ثم تتحول إلى عمل حي، لا يكلِّف أداؤه شيئًا من الجهد، وهو مع ذلك رغبة واعية لا أداء آليٌّ مجرد من الشعور»[1].

---

(١) منهج التربية الإسلامية لمحمد قطب ص٢٤٤ ـ ٢٤٩، بدون ذكر دار نشر، الطبعة الثالثة ١٣٨٦هـ ١٩٦٧م.

جـ ـ التوجيه والتربية بالأحداث:

التوجيه والتربية عن طريق أحداث الحياة وما فيها مما يَسُرُّ وما يُحزِن، وما يُضحِك وما يُبكي، له أثره في أخلاق الإنسان، يقول محمد قطب: «الحياة الدنيا كدٌّ وكدح ونَصَب، وتفاعل دائم مع الأحداث. وما دام الناس أحياء فهم عُرضة على الدوام للأحداث، تقع بسبب تصرفاتهم الخاصة، أو لأسباب خارجة عن تقديرهم وخارجة عن إرادتهم، والمربِّي البارع لا يترك الأحداث تذهب سُدًى بغير عِبرة وبغير توجيه، وإنما يستغلُّها لتربية النفوس وصقلها وتهذيبها، فلا يكون أثرها موقوتًا لا يلبث أن يضيع.

ومزيَّة الأحداث على غيرها من وسائل التربية: أنها تُحدِث في النفس حالة خاصة، هي أقرب للانصهار. إنَّ الحادثة تثير النفس بكاملها، وترسل فيها قدرًا من حرارة التفاعل والانفعال يكفي لصهرها أحيانًا، أو الوصول بها إلى قرب الانصهار. وتلك حالة لا تحدث كل يوم في النفس. وليس من اليسير الوصول إليها، والنفس في راحتها وأمنها وطمأنينتها مسترخية، أو منطلقة في تأمل رخيّ.

وصحيح أن بعض حالات الوجد والانفعال الروحي في العبادة لها من الحرارة ما يحدث هذا الانصهار في النفس، ولكنها حالات نادرة لا يقدر عليها إلا الأقلُّون، أما الحادثة بقوتها المفروضة على النفس من الخارج، فهي تُحدِث هذا الانصهار بلا إرادة ولا وعي، ولا رغبة ذاتية في الوصول إلى هذه الدرجة العالية من الإحساس. ومِن ثَمَّ، فهي أقرب تأثيرًا في جموع الناس، الذين لا يصلون بذاتهم إلى درجة الانصهار!

والمثل يقول: اضربْ والحديد ساخن! لأن الضرب حينئذ يسهِّل التشكيل. أما إذا تركته يبرد، فهيهات أن تشكِّل منه شيئًا ولو بذلت أكبر الجهود.

لذلك كان استغلال الحادثة و(الحديد ساخن) مهمة كبيرة من مهام التربية، لينطبع على النفس في حالة انصهارها ما يريد المربِّي أن يطبعه من التوجيهات والتهذيبات، فلا يزول أثرها أبدًا، أو لا يزول من قريب.

ولقد قام القرآن وهو يربِّي الأمَّة الإسلامية في منشئها باستغلال الأحداث في تربية النفوس استغلالًا عجيبًا عميق الأثر، كان من نتيجته تلك الأمَّة العجيبة الفريدة في التاريخ كله، الأمَّة التي شهد لها خالقها فقال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ

لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ويبدو لأول وهلة فارقٌ رئيسي بين التربية بالأحداث في مكة، والتربية بالأحداث في المدينة.

في العهد المكي كان التوجيه إلى الصبر على الأذى، واحتمال المكروه، ومغالبة النفس على هذا الاحتمال.

وفي العهد المدني كان التوجيه إلى رد العدوان، ومجابهة المعتدين بالقوة، ورفض الخضوع والمذلّة، وإباء الضيم.

وجهان متقابلان، ولكني أرى أنهما يهدفان إلى هدف واحد؛ التجرُّد الخالص لله، والتوازن الذي يُحدثه هذا التجرد في داخل النفس، ولكي تُحدِثَ التوازن فإنك (تضغط) مرة من ناحية اليمين، ومرة من ناحية الشمال، حتى يستوي لك التوازن المطلوب!

التربية بالأحداث في العهد المكي:

كان في العرب عُنْجُهِيَّة بالغة، واعتزاز عنيف بالذات، في الحق أو الباطل سِيَّان. لم يكن الاعتزاز (لمعنًى) أو (لقيمة) من القيم العليا، وإنما كان لِلذَّات، لا يحتمل أحدهم أن يصيبه أذى ـ ولو بالحق ـ فينتضي سيفه، ويُخرجه للقتال، لا يبالي أُصيب أم أصاب، ولا يبالي أين وجه الحق: معه أم عليه؟ لذلك كانت الثارات لا تنقطع في أنحاء الجزيرة، والمظالم كذلك لا تنقطع، والقبائل لا تعرف السلام، ولا تقوم بينها العلاقات بالحق، وفي الوقت ذاته لا يرتفع العرب إلى معنى من المعاني الكبيرة التي تقوم عليها الإنسانيَّة الرفيعة الجديرة بمعنى (الإنسان). وحتى (فضائلهم) التي يمارسونها من كرم وقِرًى للضيف، ووفاء بالعهد أحيانًا، وإباء للضيم، فلِلْمفاخرة التي (يجري بذكرها الرُّكْبان)، ودفعًا للعار الذي يعيِّرهم به الخصوم، وليس إيمانًا حقيقيًّا بهذه القيم، يمارسونه في جميع الأحوال! وأبلغ دليل على ذلك أنهم في الوقت الذي كانوا ينحرون الذبائح للأضياف، ليتحدث الناس بكرمهم، كانوا يأبون إباء شديدًا أن يطعموا الضعيف والمحروم والمسكين الذي لا يُحِسُّ به أحد، ولا يصل حديثه إلى الأسماع! ممَّا جعل القرآن يلحُّ في هذه الدعوة إلحاحًا شديدًا، ويثير وجدان القوم بكلِّ ألوان الإثارة ليُحِسُّوا بالوازع الإنساني الحقيقي، الذي يدفع إلى الخير، ولو لم تعلم به الناس!

وفيما عدا حلف الفضول ـ وهو صحوة نادرة من صحوات الضمير البشري ـ لم يكن للعرب (عهد) بالمعنى الإنساني المفهوم، إنما كانت عهودهم أن يحالف بعضهم بعضًا في العدوان وفي ردِّ العدوان سواء، لا فرق بين حقٍّ وباطل، ولا معيار يمكن الرجوع إليه إلا الأهواء!

وأعجب مَثَل لذلك ما كانوا يصنعونه في الأشهر الحرم من تقديم وتأخير ونسيء، ليوافق أمزجتهم في العدوان أو رد العدوان! فإذا أدركتهم الأشهر الحُرُم وهم في المعركة ولم يشاؤوا الانصياع لحرمتها؛ أجَّلوها لحين الانتهاء من المعركة التي بين أيديهم، أو أجَّلوها للعام المقبل، وجعلوا السنة التي هم فيها بغير أشهر حرام! وقد يجيء العام المقبل فتَعِنُّ لهم شهوة أخرى، فينسؤون الشهر الحرام مرة ثانية: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾ [التوبة: ٣٧].

لذلك كانت تربية القرآن لهؤلاء العرب بالأحداث في العهد المكي هي (تجريدهم) من ذواتهم، تجريدهم من الاعتزاز بكلٍّ ما يعتزون به من أهواء ذاتيَّة وقيم أرضيَّة؛ ليعتزّوا بالحق وحده، الحق مجردًا عن أشخاصهم، الحق ملتبسًا بذواتهم، ولكنه متميز فيها تميُّزًا واضحًا، بحيث تتبع ذواتهم الحق، ولا تتبع أهواءهم أو مشاعرهم الشخصيَّة، وذلك بأن يتَجرَّدوا لله، يتجرَّدوا له تجرُّدًا خالصًا ينتزعون به أنفسهم من كل ما يجيش فيها من مشاعر، وما ترتبط به من وشائج، وما تعتز به من قيم وأشياء.

ولذلك كان الامتحان الأكبر لهم في العهد المكي هو تحمُّل الأذى في سبيل الله، في سبيل الدعوة الناشئة المضطهدة المطاردة، دون ردٍّ على العدوان، ودون أخذ بالثأر من المعتدين.

لقد كان في وُسْع المسلمين الأوائل أن يثيروها حربًا قبلية، أو حربًا شخصية، كل إنسان يأخذ بثأره وينتهي الأمر، ولو بمقتل المؤمنين جميعًا وفنائهم، فما كانوا يبالون في جاهليتهم أن يبقى منهم أحد بعد أخذ الثأر! ولكن ذلك لم يكن ليصبح انتصارًا للدعوة، ولا انتصارًا للدين الجديد! إنه يكون استمرارًا للجاهلية! استمرارًا للاعتزاز بالقيم الشخصية، والقيم الأرضية المبتوتة الصلة بالله والحق والعدل و(الإنسانيَّة)، استمرارًا في الهبوط، لا أخذًا في وسائل الارتفاع.

ولكن التربية التي منعتهم من أخذ الثأر، التربية التي وجَّهتهم إلى الصبر واحتمال الأذى والعدوان دون رد، التربية التي وجَّهتهم إلى ما يشبه في ظاهره أن يكون رضًا بالهوان والظلم.

هذه التربية هي التي أنشأت النفوس الجديدة المعتزَّة بالله، المعتزَّة بالقيم التي ينشئها الله؛ والتي أنشأت أعزَّ نفوس عرفتها البشرية، وأكرم نفوس، نفوس مستعلية بالإيمان: على ذواتها، وعلى شهواتها، وعلى أهوائها، وعلى كل قيمة مادية أو أرضية لا تسير في طريق الله.

في تلك الفترة كانت التربية تقول، في سورة المزمل: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾﴾ [المزمل: ١٠]. وكانت تقول في نفس السورة: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾﴾ [المزمل: ٢ ـ ٥].

كانت التربية هي الصبر على الأذى، وقيام الليل للتجرُّد لله، لعبادته وحده في ناشئة الليل: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾﴾ [المزمل: ٦].

وقد ظلَّ النبيُّ ﷺ والمؤمنون معه يقومون الليل، يتعبدون ويتهجدون، ويتعلَّمون التجرُّد الكامل لله حولًا كاملًا، حتى تورَّمت أقدامهم وتشقَّقت، فأنزل الله عليهم: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾﴾ [المزمل: ٢٠].

فلما علم المربِّي الرحيم أن هذه النفوس المؤمنة الصابرة قد تجرَّدت له، واهتدت بهداه، وتربَّت على طاعته، ولم يعد لها وجود، إلا الوجود الذي يريده لها الله، مطمئنةً في ذات الوقت أنه الوجود الأرفع والأسمى، الذي يحقق أرفع ما في كيان الإنسان؛ عندئذ أذِن للمؤمنين في الهجرة، ثم أذِن لهم بإنشاء دولة لهم في المدينة تقوم على أساس تقوى الله، وتستمدُّ من شريعة الله، وتدافع عن كيانها بكلِّ القوة المتاحة لهم حينذاك.

لم يكن الأمر كما يبدو من ظاهره أمر ضعف المسلمين في مكة، وقوتهم

في المدينة، فقد كان المسلمون ـ على ضعفهم في مكة ـ يملكون كما أسلفنا أن يتصرفوا تصرُّف العرب في الجاهليَّة. كما أن المربِّي ـ في المدينة ـ كان يمكن أن يكلهم إلى قوَّتهم، ويتركهم يتصرَّفون بوحي هذه القوة دون توجيه!

التربية بالأحداث في العهد المدني:

ولكن الذي حدث لم يكن كذلك! لقد كانت التربية بالأحداث في عهد القوة في المدينة قوية صارمة، كما كانت في مكة؛ تهدف إلى الهدف ذاته: تخليص النفوس من أدرانها وتعلُّقاتها، وتجريدها خالصة لله: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [التوبة: ٢٥].

لقد كان الدرس هنا قاسيًا عنيفًا، يوم اعتزَّ المسلمون بكثرتهم، وأعجبتهم قوَّتهم فقالوا: لن نغلب اليوم من قِلَّة! كان الدرس ـ كما كان في مكة ـ هو ردُّهم إلى الله، ليعتزُّوا به وحده، ويستمدُّوا منه القوة وحده، ولا ينظروا لأية قوة أرضية معهم أو عليهم على أنها العامل الحاسم في المعركة، أو أنها هي التي تقرِّر شيئًا على الإطلاق من مصاير الأمور!

لقد كانت القوة الأرضة في مكة ضدَّهم، فربَّاهم هناك على أنها لا تعني شيئًا في حقيقة الأمر، وأنها ليست هي التي تقرِّر مصير الدعوة، وإنما الذي يقرِّرها هو الله، وهم مدعوُّون أن يلجؤوا إلى الله وحده، ويعتزوا به وبقوته. ثم كانت القوة الأرضية في المدينة معهم، فربَّاهم كذلك على أنها لا تغني شيئًا في حقيقة الأمر، وأنها ليست هي التي تقرِّر مصير الدعوة، وإنما الذي يقررها هو الله.

ودعاهم ـ كما دعاهم هناك ـ أن يلجؤوا إلى الله ويعتزوا به وبقوته: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [التوبة: ٢٦ ـ ٢٧].

وكذلك في سبيل هذا التجرد ذاته كانت التربية بالأحداث في سورة آل عمران، للذين فتنتهم أسلاب المعركة في أُحد فنسُوا هدفَها الأصيل.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ

ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [آل عمران: ١٥٢].

وكذلك في سورة الأنفال إذ يتحدث عن وقعة بدر: ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٍ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الأنفال: ٧ ـ ١٠].

وفي سورة التوبة كانت التربية بالأحداث للذين تخلَّفوا عن القتال في وقعة تبوك: ﴿فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [التوبة: ٨١ ـ ٨٣]. ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [التوبة: ٩١ ـ ٩٣]. ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ . . .﴾ ﴿وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿١٠٦﴾﴾ [التوبة: ١٠٢ ـ ١٠٦]. ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [التوبة: ١١١ ـ ١١٢]. ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ

مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [التوبة: ١١٧ - ١٢١].

هذه الطَرَقَات العنيفة كلُّها و(الحديد ساخن) لينطبع في النفوس الأثر المطلوب، ولا يتخلَّف الناس عن الجهاد في سبيل الله، وقد كان. لم يتخلف بعد ذلك أحد من المؤمنين ولا من الأعراب!

هدف التربية القرآنية بالحدث في العهدين المكي والمدني هو التجرد لله:

وهكذا كانت التربية بالأحداث في مكة وفي المدينة، ذات هدف واحد في الواقع، وإن تعددت الصور والتوجيهات: إنها كلها دعوة للتجرد من القيم الأرضية كلها، والوشائج الذاتية كلها، ومن كل حرص على مصلحة أو مغنم شخصي، ليكون كل شيء في سبيل الله: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤].

وحين يحدث ذلك في داخل النفس تكون النفس قد توطَّدَت وثبتت، وركَّزت على الركيزة التي لا تهتزُّ ولا تختلُّ، ولا تضعف ولا تميد، وتكون قد توازنت فلا يفسدها الضعف، ولا تفسدها القوة، لا تنحسر حيث ينبغي التقدم، ولا تندفع حيث ينبغي الانتظار، وتكون قد تربت على طاعة الله، وشفَّت وراقت، حتى لهِيَ نور متألِّق يُشِعُّ في الآفاق؛ وعندئذ يصدق عليها وصف الله لها في كتابه الكريم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقد لا نملك ـ ونحن نطبِّق منهج التربية الإسلامية ـ أن نعيد شريط الأحداث كما حدث أول مرة، لنتتبَّع توجيهات القرآن في التربية بالأحداث واحدًا إثر واحد بحسب ترتيب النزول!

ليس هذا بطبيعة الحال هو المقصود، إنَّما المقصود هو حكمة التربية بالأحداث.

المقصود هو الطرق والحديد ساخن، حتى لا تفلت الحادثة بلا عبرة مستفادة، ولا أثر ينطبع في النفس ويبقى.

والهدف هو ربط القلوب دائمًا بالله، في كلِّ حادثة، وفي كلِّ شعور، والمجال دائمًا مفتوح أمام كل مربٍّ له عين مفتوحة، وقلب واعٍ، وإدراك بصير. إنه يستطيع أن يدرك اللحظة المناسبة للتوجيه، اللحظة التي تبلغ فيها حرارة الانفعال درجة الانصهار، وعندئذ يعقد العقدة الوثيقة التي لا تنحلُّ، ويطبع الطابع العميق الذي لا يزول»[1].

(١) منهج التربية ص٢٥٣ ـ ٢٦٢.



الفصل السادس

لا بدَّ من مجتمع الإسلام ونظام الإسلام

وأخيرًا لا بدَّ أن يستند الفكر الذي ندعُو إليه، ونريد لأمتنا أن تستقرَّ عليه، وتبني كيانها وأخلاقياتها ودعائمها عليه: أن يقوم بناؤه الأصلي والأساس على الإسلام كله، بما فيه من عقائد وعبادات، ومفاهيم وعواطف، وتشريعات وآداب وأخلاق، وأن يكون هذا الأساس العميق هو السند الأصلي لهذا البناء، وأن يؤخذ هذا البناء كله مأخذ الجِد، فلا يُفرَّط في لَبِنة واحدة منه، فإنه يشدُّ بعضه بعضًا، ويسند بعضه بعضًا، ولا يتصوَّر واحد من الناس أن يهدم جزءًا منه في أصل أو فرع، ثم يظل الجزء الباقي سليمًا مرعيَّ الأوساط والأطراف، بل لا بدَّ أن يؤخذ كله، ولا يتهاون ببعضه، كما قال تعالى: ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

ولقد أنَّبَ الله تعالى بني إسرائيل حين رأوْا الاكتفاء بالبعض عن البعض تأنيبًا شديدًا، فقال: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٨٥].

علاج الفقر:

ولقد أكَّدْنا في كثير من كتبنا، وفي خاتمة كتاب (**مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام**): أن الترقيع لا يجدي، وأنه لا بدَّ من نظام الإسلام، ومجتمع الإسلام.

ولقد قلنا في علاج الفقر: إن العمل هو السلاح الأول لمحاربة الفقر، وأن على الإنسان أن يعمل ليغني نفسه بنفسه، ولكن هل يحقِّق العمل الفائدة المرجوة إذا كان المرء يعمل في غير ما يحسنه؟ أو يعمل فيما يحسنه، ولكنه لا يُعطى أجره العادل؟ أو يعطى أجره، ولكن لا تتاح له فرصة للترقِّي بإظهاره مواهبه وإبداعه؟

وقد يجتهد ويُبدع ويُحسن، ولكنه لا يلقى جزاء إحسانه من الأجر والتشجيع، بل يؤخَّر عن مكانه انتقامًا أو حسدًا، ويُقدَّم مَن لا يستحقُّ، محاباةً أو اتباعًا للهوى، وإرضاء لبعض الرؤوس الكبيرة والنفوس الصغيرة.

وقد يأخذ الأجر المناسب لجهده، ولكن طريقة الحياة التي يفرضها عليه المجتمع من حوله تجعله ينفق الكثير من دخله فيما لا خير فيه، ولا نفع فيه له ولا للمجتمع، أعني في الكماليات والمُتَع الرخيصة أو الشهوات العفنة: في الأزياء و(المودات) والسجاير، والسينمات والملاهي والمراقص، وغيرها من المكروهات أو المحرمات، التي لا تُبقي للحاجات الحقيقية للفرد وأسرته إلا القليل.

وقد لا يكون من هذا الصنف المنحرف، ولكنه يعيش في مجتمع سيطر فيه الاحتكار والربا والاستغلال، أو تحكَّم فيه الاستبداد، وسرى فيه الفساد، فلا يشتري شيئًا إلا من السوق السوداء بضعف ثمنه، ولا يقضي عملًا إلا بدفع رشوة، ولا يُعطَى قرضًا يحتاج إليه إلا بالفوائد الربوية.

وإذا حلَّت به كارثة في نفسه، أو جائحةٌ في ماله، فعجز عن العمل بعد القدرة، أو ذهب رأس ماله الذي كان يكسب من ورائه دخلًا حلالًا، فاضطر إلى الاستدانة وأصبح من (الغارمين)، فماذا يكون موقفه وموقف المجتمع منه؟ هل يأخذ بيده أم يَدَعه يغرق ويهلك وحده كما هو الحاصل؟

كلُّ هذا يؤكِّد لنا أن العمل والسعي في مجتمع غير إسلامي، وفي دولة غير إسلامية لا يكفي لضمان المعيشة الطيبة لصاحبه.

أما حين يكون هناك مجتمع إسلامي تنظِّمه، وتشرف عليه دولة إسلامية، فإن وضع العمل والعامل يكون على نحو آخر:

أ ـ إن الدولة الإسلامية ستقوم بالإعداد الوظيفي والتدريب المهني اللازم لكل عامل حتى ينتج أكبر قدر مستطاع.

ب ـ تجتهد في أن تضع كلَّ عامل في مجال اختصاصه، وفيما يحسنه ويتفوق فيه من الأعمال، سعيًا إلى أفضل النتائج.

ج ـ توفِّر له من الآلات ما يساعده على زيادة الإنتاج، واقتصاد الجهد والزمن.

د ـ تكفُل له من الأجر ما يعادل جهده وكفايته، مهما يبلغ هذا الأجر، كما تتيح له أن يملك ثمراته، ويورثها لذريته من بعده.

هـ إذا كان أجر العامل أو ربحه أو ناتجه من العمل لا يقوم بتمام كفايته له ولأسرته، فإنَّ له في خزانة الدولة حقًّا حتى يكتفي، بل حتى تتمَّ كفايته.

و ـ إذا حلَّت به كارثة أو جائحة ألْجأته إلى الاستدانة، فإنَّ له حقًّا في مال الزكاة من سهم (الغارمين)، وغيرها من موارد الدولة.

ز ـ هذا إلى أن طريقة الحياة الإسلامية الصحيحة ليس فيها خمر ولا نساء، ولا سهرات حمراء، ولا تُقِرُّ عبثَ الأزياء، وانتشار الفساد والتحلُّل، الذي يُهلك الحرث والنسل، والذي يُكلِّف الناس ضعفَ ما تحتاج إليه الحياة المستقيمة الصالحة، أو أضعافها.

ومثال آخر:

هبْ أن أحد المجتمعات التي يعيش الإسلام فيها غريبًا اليوم، أراد أن يأخذ نظامًا كنظام الزكاة وحده ويطبِّقه، فماذا تكون النتيجة؟

في رأيي كما يلي:

أ ـ جمع حصيلة ضئيلة لا تكفي لمواجهة الفقر المنتشر والمشكلات الاجتماعية العديدة الناشئة من ورائه، وضآلة الحصيلة نرجعها لعدة أسباب، أهمها:

أولًا: ضعف الوازع الديني والوعي الإسلامي لدى كثير من الناس، نتيجة للغزو الفكري الأجنبي الكافر، أضف إلى ذلك تهرُّب الناس من أداء الزكاة للحكومة، لكثرة ما يرهقهم من ضرائب أخرى، ولعدم ثقتهم بالحكومات التي تَجبِي الزكاة وهي لا تحكم بما أنزل الله، ولاعتقادهم أنها لن تصرف في الوجوه المشروعة كأكثر الضرائب، التي تعبث السياسة بمصارفها.

ثانيًا: إن جمهور الشعب لا يملك ثروة ولا دخلًا ذا قيمة، بحيث يكون موردًا للزكاة، وذلك أثر لطريقة الحياة التي يحياها المسلمون في هذا العصر، وهي طريقة الكفَّار الأجانب الذين يتَّبعهم المسلمون ـ للأسف ـ شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضبٍّ لدخلوه[1]. وهي طريقة تقوم على

(١) إشارة إلى حديث أبي سعيد الخدري: أن رسول الله ﷺ قال: «لتتبعنَّ سنن من كان قبلكم شبرًا =

لأبناء الإسلام من الذوبان في المجتمعات الجاهليَّة، والانفلات إلى شبهاتها وشهواتها.

لا بدَّ من العمل الجادّ لإيجاد هذا المجتمع الذي يأخذ الإسلام كله، ونعني به: أن تكون تعاليم الإسلام هي المُوجِّهة لكلٍّ نواحي الحياة، والقائدة لكلّ مؤسَّسات المجتمع، فلا يكفي أن تأخذ المحاكم ببعض القوانين التَّشريعيَّة الإسلاميَّة، وتهمل البعض الآخر، كما لا يجوز أن تحكم المحاكم وحدها بالقوانين الإسلامية، على حين نجد أجهزة التربية والثقافة والإعلام توجهها أفكارٌ غير إسلامية، وقيمٌ غير إسلامية.

ذلك أنَّ تعاليم الإسلام كلٌّ لا يتجزأ، يسند بعضها بعضًا، ويُكمل أحدها الآخر، وأخْذ بعضها دون بعض يعوق البعض المأخوذ نفسَه عن إيتاء ثمراته كاملة، وربما أرهق الناس من أمرهم عسرًا.

فإقامة حد الزنى مثلًا: يفترض وجود مجتمع مسلم ييسِّر طريق الزواج الحلال لمن أراده، ويسدُّ طرق الحرام في وجه من تحدِّثه به نفسه.

فالزواج المبكر، وإرخاص المهور، وتهيئة المسكن، وبساطة التأثيث، وتقليل نفقات العرس من جانب، وتطهير المجتمع من المثيرات ودواعي الإغراء، من التهتك والتبرج، والتمثيليَّات الفاجرة، والقصص الداعرة، والأغاني الخليعة، والأدب المكشوف، وما إلى ذلك، يجعل عقوبة الزاني والزانية في محلها الذي أراده الشرع تمامًا.

أما حينما ينعكس الوضع، ويُسَدُّ طريق الحلال، ويفتح للحرام ألف بابٍ وباب، وينشأ الفرد في مجتمع يجرِّئه على الفاحشة، ويغريه بالمعصية، فقد لا يشعر الفرد بعدالة العقوبة التي أصابته على جريمته، كما أنها لا تكفي لردعه عن اقتراف الفواحش.

ومثل ذلك **السرقة**، فلا يجوز في منطق العدل الإسلامي أن نُنفِّذ أمرَ الله بقطع يد السارق أو السارقة جزاءً بما كسبا، ونهمل أمر الله بإيتاء الزكاة، وإقامة التكافل الاجتماعي، ومقاومة البطالة والتظَالم بين الناس.

لقد جاءت آية واحدة في القرآن الكريم، تأمر بإقامة الحدِّ على السارق، ولكن عشرات الآيات جاءت تأمر بإيتاء الزكاة والإنفاق في سبيل الله، وتحض على إطعام المساكين، وتحذِّر من الكنز والشحِّ، والتطفيف والربا والميْسر،

والظلم بكلِّ أنواعه، وتأمر بإقامة العدل والتكافل بحيث لا يسرق ـ في المجتمع المسلم الحق ـ محتاج أو محروم.

وحين يسود الإسلام المجتمع حقًّا، فيتعلم فيه كلُّ جاهل، ويعمل فيه كل عاطل، ويُطعَم فيه كل جائع، ويأمن فيه كل خائف، ويُنصَف فيه كل مظلوم: لا يبقى مجال للسرقة، إلا من مجرم يريد أن يُثْري من كدِّ غيره.

وبهذا يتَّضح لنا أن تطبيق الشريعة بحذافيرها، وأخذها كلًّا لا يتجزأ؛ ضرورةٌ لازمة، لا يحِلُّ التفريط أو التساهل فيها.

وأعني بالشريعة هنا: الإسلام كله، عقائده وتصوراته، وشعائره وعباداته، وأفكاره ومشاعره، وأخلاقه وقيمه، وآدابه وتقاليده، وقوانينه وتشريعاته.

فهذه كلها مقوِّمات المجتمع المسلم، والتشريع ـ رغم أهميته ـ ليس إلا واحدًا منها[1]. فلا يظن أحد أننا بمجرد إصدار تشريعات إسلامية، قد أقمنا المجتمعَ المسلم المنشود.

فالتشريعات وحدها لا تصنع أمة، ما لم يسندها تغيير فكري ونفسي يجعل أبناء الأمَّة في مستوى تشريعاته الرفيعة، وفي هذا يقول القرآن الكريم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

إنَّ علينا ـ لكي ينجح التشريع الإسلامي في حياتنا الجديدة ـ أن نُهيِّئ له الفرد المسلم الذي يؤمن بعدالة هذا التشريع، ويحتكم إليه راضيًا مسلمًا، والقاضي المسلم الذي يؤمن بقدسيَّة هذا التشريع، ولا يتلاعب بنصوصه، طمعًا في دنيا أو اتباعًا لهوًى، والسلطة التنفيذية المسلمة التي تقوم على حراسة هذا التشريع، وتطبيقه بلا محاباة، ولا مداهنة، ولا وَهَن.

وبعبارة موجزة: لا بدَّ من إيجاد (الروح الإسلاميَّة)، وبناء (الشخصيَّة الإسلاميَّة) التي يقوم عليها عبء تطبيق الإسلام، وهذه الشخصية تعني (العقليَّة الإسلاميَّة) التي تفكِّر بمنطق الإسلام في الحكم على الأشياء والأحداث والأشخاص والمواقف، وكما تعني (النفسيَّة الإسلاميَّة) التي تكيِّف تعاملها مع من حولها وما حولها وَفقًا لمنهج الإسلام، لا بدَّ إذًا أن نعمل على تربية الجيل

---

(١) انظر في ذلك: كتابنا (ملامح المسلم الذي ننشده)، فصل: التشريع والقانون (ص١٥٧ ـ ١٨٨)، نشر مكتبة وهبة، القاهرة.

المسلم الذي يحمل رسالة الإسلام: فكرة واضحة في رأسه، وعقيدة راسخة في قلبه، وعبادة خالصة لربه، وعملًا صالحًا يزكّي به نفسه، وينفع به غيره، ودعوة للناس إلى الخير، تواصيًا بالحق، وتواصيًا بالصبر.

وبهذا الجيل الصالح يعود الإسلام حقيقة إلى قيادة الحياة من جديد. ولا يُوجِد هذا الجيلَ إلا التصميمُ على العودة إلى الإسلام (كل الإسلام)، والتخلّي عن فكرة (الترقيع الجزئي)، الذي لا يجدي كثيرًا في الوصول إلى الهدف المنشود.

إن جُلَّ القيم والأفكار والأنظمة والتقاليد التي تسود مجتمعاتنا اليوم، إنما هي وليدة الاستعمار الدخيل، الذي طارد بالقوة والحيلة القيمَ والأفكار والأنظمة والتقاليد الإسلامية الأصيلة.

ولا يتحرَّر مجتمعنا إلا بإحداث انقلاب فكري ونفسي شامل، إحداث تغييرٍ جذري في أخلاقيات المجتمع ومعنوياته كلها، تغيير يرد المجتمع إلى أصوله، وإلى حقيقة ذاته التي نسيها حين نسي الله وشرعه: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩].

لا بد أن نأخذ الإسلام كله كما أنزله الله، وكما دعا إليه رسوله، وكما فهمه الصحابة ومن تبعهم بإحسان، وبذلك ننتفع حقًّا بثمراته المباركة في حياتنا كلها: الروحية والمادية، والفردية والاجتماعية.

إن العقيدة الإسلامية لها أثرها في إحسان العبادة، والعقيدة والعبادة لها أثرهما في تكوين الأخلاق، والأخلاق لها أثرها في حراسة التشريع، والتشريع له أثره في حماية الدولة ورُقِيِّها، والدولة لها دورها في الحفاظ على العقائد والعبادات والأخلاق والتشريعات، فكلُّ هذه الأمور يؤثِّر بعضها في بعض، ولا يستغني ببعضها عن بعض، فلا بدَّ من العناية بها جميعًا إذا أردنا أن نقيم حياة متكاملة متوازنة كما أمر الله.

من أجل ذلك حذَّر القرآن من التهاون في بعض ما أنزل الله من أحكام، فقال: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩]. كما شدَّد النكير على بني إسرائيل الذين آمنوا ببعض أحكام كتابهم وكفروا ببعض، فقال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ

ﭐلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [البقرة: ٨٥].

وحين أراد جماعة من يهود أن يدخلوا في الإسلام، مشترطين أن يبقوا على بعض مبادئهم وتقاليدهم الدينية المنسوخة، مثل تعظيم يوم السبت وتحريم العمل فيه؛ أبى عليهم القرآن إلا أن يدخلوا في شرائع الإسلام جملة، ويأخذوا أحكامه كافة، وفي ذلك نزل قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾﴾ [البقرة: ٢٠٨][1].

(١) انظر: كتابنا (شريعة الإسلام صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان) ص١٣٣ ـ ١٣٦. مكتبة وهبة، الطبعة الخامسة، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.

الباب الثاني

البحث الأخلاقي



الفصل الأول

تاريخ البحث الأخلاقي عند الغرب

البحث الأخلاقي عند الغرب:

من أوائل الكتب التي عنيت بالبحث الأخلاقي في بلاد الغرب بعد النهضة: كتاب الأستاذ أحمد أمين عن (**الأخلاق**)، وقد كتب فيه نظرة إجمالية في البحث الأخلاقي عند الغرب قبل عصرنا الحديث، قال فيها:

ظهور السفسطائيين:

«لعل أول باحث في الأخلاق بحثًا علميًّا اليونان، ولم يُعِر فلاسفة اليونان الأولون الأخلاق التفاتًا كبيرًا، بل كانت جُلُّ أبحاثهم تدور حول الطبيعيات، حتى جاء السفسطائيون (٤٠٠ ـ ٤٥٠ ق.م) ـ ومعنى السفسطائي في اللغة اليونانية: الحكيم ـ وهم طائفة من الفلاسفة، كانوا معلِّمين متفرقين في البلاد، مختلفين فيما بينهم في الآراء، ولكن يجمعهم غرض واحد، وهو إعداد شبان اليونان ليكونوا وطنيِّين صالحين أحرارًا، يعلمون ما يجب عليهم لوطنهم. وقد أداهم النظر في هذه الواجبات إلى النظر في أصول الأخلاق، واستتبع ذلك نقد بعض التقاليد القديمة، والتعاليم التي جرى عليها سلفهم، فأثار ذلك غضب (المحافظين)، وجاء أفلاطون بعدُ، فعارضهم، وانتقد متأخِّريهم.

وكانوا يُتَّهمون بلعبهم بالألفاظ لقلب الحقائق، حتى اشتقُّوا من اسمهم (سفسطة)، وعَنُوا بها المغالطة في البحث والجدل. من أجل ذلك شُوِّه اسمهم، مع أنهم ربما كانوا أبعد معاصريهم نظرًا، وأشدهم اجتهادًا في إيقاظ العقول وتحريرها من الأوهام.

ظهور سقراط:

وجاء (سقراط) (٣٩٩ ـ ٤٦٩ ق.م) فوجَّه همَّه إلى البحث في الأخلاق، وفي علاقة الناس بعضهم ببعض، ولم يهتمَّ بما اهتم به الفلاسفة قبله من البحث في منشأ العالم وفي الأجرام السماوية، وكان يعُدُّ هذا قليل الفائدة، ويرى أن الواجب أن يُوجَّه النظرُ إلى ما يُبنى عليه في الحياة عمل، ولذلك قيل: إنه استنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض.

ويُعدُّ سقراط مؤسِّس علم الأخلاق؛ لأنه أول من حاول ـ بجد ـ أن يبني معاملات الناس على أساس علمي، وكان يرى أن الأخلاق والمعاملات لا تكون صحيحة إلا إذا أُسِّست على العلم، حتى كان يذهب إلى أن (الفضيلة هي العلم).

ولم يُعرف عن سقراط رأيه في الغاية الأخلاقيَّة، وبعبارة أخرى في المقياس الذي تُقاس به الأعمال، فيحكم عليها بأنها خير أو شر، حتى لقد قامت فِرَق متباينة مختلفة الرأي في الغاية، وكلها تنتسب إلى سقراط وتتَّخذه زعيمها.

الكلبيون والقورينائيون:

وعلى إثر سقراط ظهرت المذاهب الأخلاقيَّة وتنوعت، وظلت متنوعة إلى يومنا هذا، وأهم الفرق التي ظهرت بعده الكلبيون (Cynic والقورينائيون (Cyrenics)، وكلهم من أتباع سقراط.

أما الكلبيون فمؤسس مذهبهم أنتستنيس ـ عاش من (٤٤٤ ـ ٣٧٠ ق.م) ـ ومن تعاليمهم: أن الآلهة منزَّهة عن الاحتياج، وخير الناس من تخلَّق بأخلاق الآلهة، فقلَّل من حاجاته جهد الطاقة، وقنع بالقليل، وتحمَّل الآلام واستهان بها، واحتقر الغنى، وزهد في اللذائذ. ولم يعبؤوا بالفقر، وسوء رأي الناس فيهم، متى كانوا مستمسكين بالفضيلة.

ومن أشهر رجال هذا المذهب: ديو جنيس الكلبي (مات سنة ٣٢٣ ق.م)، وقد كان يعلِّم أصحابه أن يطرحوا التكلُّف الذي اقتضاه اصطلاح الناس وأوضاعهم، وكان يلبس الخشن من الثياب، ويأكل رديء الطعام، وينام على الأرض.

أما القُورِينَائيون فزعيمهم أرِسطبُس، ولد في قورينا ـ مدينة من مدن برقة في شمال إفريقيَّة ـ وكانوا على عكس الكلبيين، يرون أن طلب اللذة والفرار من الألم هما الغاية الصحيحة الوحيدة للحياة، وأنَّ العمل يسمَّى فضيلة، إذا كان ينشأ عنه لذةٌ أكبر مما ينشأ عنه من الألم.

فبينا يرى الكلبيون السعادة في الفرار من اللذة وتقليلها جهد الطاقة، يرى القورينائيون السعادة في نيلها والإكثار منها.

أفلاطون:

ثم جاء أفلاطون (٤٢٧ ـ ٣٤٧ ق.م)، وهو فيلسوف أثيني تتلمذ أيضًا لسقراط، وقد ألَّف كتبًا كثيرة حُفظت لعهدنا هذا، كتبها على شكل محاورات، وأكثرها شيوعًا (**كتاب الجمهورية**)، وآراؤه في الأخلاق منثورة في تلك المحاورات ممزوجة بأبحاثه الفلسفية، وكلامه في الأخلاق مبنيٌّ على (نظرية المثل).

وتوضيح ذلك: أنه كان يرى أن وراء هذا العالم المحسوس عالمًا آخر روحانيًا، وأن لكل موجود مُشَخَّص مثالًا غير مشخص في العالم العقلي أو الروحاني. طبَّق ذلك على الأخلاق فقال: إن بين هذه المُثُل مثالًا للخير، وهو معنى مطلق أزلي أبدي بالغ الكمال، وفهْم هذا المثال يحتاج إلى رياضة النفس وتهذيب العقل، ومن ثَمَّ لا يدرك الفضيلة في خير أشكالها إلا مَن كان فيلسوفًا.

وكان يرى أن في النفس قُوًى مختلفة، والفضيلة تنشأ من تعادل تلك القوى وخضوعها لحكم العقل.

وذهب إلى أن أصول الفضائل أربعة: الحكمة، والشجاعة، والعفة، والعدل. وهي قِوام الأمم، كما أنها قوام الأفراد، ففي الأمم نرى الحكمة فضيلة الحُكَّام، والشجاعة فضيلة الجنود، والعِفَّة فضيلة الرعية، والعدل فضيلة الجميع، تحدِّد لكل إنسان عملَه، وتطلب منه أن يعمل على أحسن وجه.

وكذلك الشأن في الفرد: الحكمة هي الفضيلة الحاكمة للشخص المدبِّرة له، والشجاعة: فضيلة بها يدفع الشرور، والعفة: بها يقاوم الميل إلى التغالي في اللذائذ، والعدل: الفضيلة الدافعة للعمل بما يتفق مع مصلحة الناس.

أرسطو ومدرسته المَشَّائية:

ثم جاء أرسطو أو أرسطوطاليس (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق.م)، وهو تلميذ أفلاطون، أسَّس مذهبًا خاصًا يُسمى أتباعه بالمشَّائين (Peripatetics)؛ لأنه كان يعلِّم وهو يمشي، أو لأنه كان يعلِّم في مَمَاشٍ مُظلَّلة، وقد بحث في الأخلاق وألَّف فيها. وقد رأى أن الغاية الأخيرة التي يطلبها الإنسان من أعماله هي (السعادة)، ولكن نظره إلى السعادة أوسع وأعلى مما يذهب إليه المنفعيون في العصور الحديثة، وطريق نيل السعادة عنده استعمال القوى العاقلة أحسن استعمال.

وأرسطو هو واضع نظرية الأوساط، أي أن كل فضيلة وسط بين رذيلتين؛ كالكرم وسط بين السَّرَف والبخل، والشجاعة وسط بين التهوُّر والجبن. وسنوضح ذلك عند الكلام على الفضيلة.

الرِّوَاقيون والأبيقوريون:

الرواقيون والأبيقوريون: جاء هؤلاء فرقُّوا البحث في الأخلاق، وبنى الرواقيون (Stoics) مذهبهم على مذهب الكلبيين، وقد شرحنا مذهبهم قبل، غير أنا نقول هنا: إن المذهب الرواقي اعتنقه كثير من فلاسفة اليونان والرومان، واشتهر من أتباعه في صدر الدولة الرومانية سنيكا (٦ ق.م ـ ٦٥ ب.م) وأبيكتيتس (٦٠ ـ ١٤٠ ب.م) والإمبراطور مرقس أورليوس (١٢١ ـ ١٨٠ ب.م):

أما الأبيقوريون، فبنوا تعاليمهم على تعاليم القورينائيين، ومؤسِّسُ مذهبهم أبيقور (Epicurus) الذي ذكرنا قبل مذهبه، وقد تبعه في العصور الحديثة الفيلسوف الفرنسي (جَسِّندي) (١٥٩٢ ـ ١٦٥٥م)، وفتح مدرسة في فرنسا أحيا فيها تعاليم أبيقور، وتخرَّج فيها موليير وكثير من مشهوري الفرنسيين.

انتشار النصرانية في أوروبا:

وفي أواخر القرن الثالث للميلاد، انتشرت النصرانية في أوروبا، فغيَّرت الأفكار، ونشرت أصول الأخلاق التي وردت في التوراة، وعلمت الناس أنَّ الله مصدر الأخلاق، فهو الذي يضع لنا القواعد، نراعيها في معاملاتنا، وتُبَيِّن لنا الخيرَ من الشرِّ، والخير كلُّ الخير في إرضاء الله، وتنفيذ أوامره، وقد أقامت الأولياء والقديسين مقام الفلاسفة عند اليونان الوثنيين.

وافقت النصرانية في بعض تعاليمها فلاسفة اليونان، ولا سيما الرواقيين، ولم تخالفهم كثيرًا في تقويم الأشياء خيرها وشرِّها، وإنما أهم ما خالفتهم فيه النظر إلى الباعث النفسي على المعاملة، فعند فلاسفة اليونان كان الباعث على عمل الخير: المعرفة أو الحكمة مثلًا، وعند النصرانية إنما ينبعث عمل الخير عن حبِّ الله والإيمان به.

كانت النصرانية تطلب من الإنسان أن يجتهد في تطهير نفسه فكرًا وعملًا، وتجعل للروح سلطانًا تامًّا على البدن وعلى الشهوات، ولذلك غلب على أتباعها الأولين احتقار البدن، واعتزال العالم، والميْل إلى الزهد والتنسك والرهبانيَّة.

الأخلاق في القرون الوسطى:

كانت الفلسفة ـ ومنها علم الأخلاق ـ مضطهدة في القرون الوسطى في أوروبا، فقد كانت الكنيسة تحارب فلسفة اليونان والرومان، وتعارض في نشر العلم والمدنية القدِيمَيْن؛ لأنها اعتقدت أنَّ الحقيقة قد وصلت إليها من الوحي المعصوم، فما أَمَر به فخير، وما قال به فحق، فلا معنى بعدُ للبحث عن الحقيقة، وكان يُسمح بقدر محدود من الفلسفة لتأييد العقائد الدينيَّة وتحديدها وتنظيمها، فكان بعض رجال الدين يبحث في فلسفة أفلاطون وأرسطو والرواقيين، لتأييد التعاليم المسيحية وتطبيقها على العقل، وما يعارض النصرانيَّة منها كان يُنْبذ نبْذًا، وكان كثير من آباء الكنيسة فلاسفة بهذا المعنى.

وفلاسفة الأخلاق الذين ظهروا في هذا العصر كانت فلسفتهم مزيجًا من تعاليم اليونان وتعاليم المسيحية، ومن أشهرهم: أبِيلَرْد (فيلسوف فرنسي ١٠٧٩ ـ ١١٤٢م)، وتوماس أكويناس (فيلسوف لاهوتي إيطالي ١٢٢٦ ـ ١٣٧٤م).

علم الأخلاق في العصور الحديثة:

في النصف الأخير من القرن الخامس عشر، ابتدأت النهضة في أوروبا، وأخذ العلماء يُحيون فلسفة اليونان القديمة، وابتدأ ذلك في إيطاليا، ثم عمَّ أوروبا جميعها.

استيقظ العقل من سباته، فأخذ يعرض كلَّ شيء للنقد والبحث، ويرفع لواء حرية الفكر، وابتدأ ينظر إلى الأشياء نظرًا جديدًا، ويقوِّمها تقويمًا جديدًا.

وممَّا عَرَضه للنقد والبحث: قضايا الأخلاق التي وضعها اليونان ومَن بعدهم، فنقدها العلماء الحديثون، وتوسعوا في بحثها، مستعينين بما استُكشف من قضايا علوم أخرى، كعلوم النفس والاجتماع، ومالوا في بحثهم إلى الواقع والحقيقة لا الخيال، وراموا إظهار كل ما في الإنسان من قوى وملكات بالحياة العملية في هذا العالم.

وقد أنتج هذا النظر الجديد تغييرًا في قيمة الفضائل، فلم يعد لفضيلة الإحسان مثلًا تلك القيمة الكبرى التي كانت لها في القرون الوسطى، وصار لـ (العدل الاجتماعي) قيمة لم تكن له من قبل. واتَّجه النظر إلى ضرورة إصلاح ما يحيط بالشباب والمرأة والطفل من النظم الاجتماعيَّة حتى يصلح الفرد. وكان للأبحاث الجديدة فضل في تقرير الحقوق والواجبات، وإشعار الفرد بعظم مسئوليته أمام المجتمع وأمام نفسه.

ويُعَد **ديكارت** الفيلسوف الفرنسي (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠م) مؤسس الفلسفة الحديثة، فقد وضع للعلم والفلسفة مبادئ جديدة للسير عليها، أهمها:

(١) ـ عدم التسليم بشيء ما لم يفحصه العقل ويتحقق من وجوده، فما كان مبنيًّا على الحدس والتخمين، وما كان منشؤه العرف فقط: يجب أن يرفض.

(٢) ـ يجب أن نبتدئ عند البحث بأبسط الأشياء وأسهلها، ثم نتوصل منها إلى ما هو أكثر تركُّبًا وأغمض فهمًا، حتى نصل إلى المقصود.

(٣) ـ يجب ألا نحكم بصحة قضية حتى نتحقق منها بالامتحان.

وقد مال هو وأتباعه إلى مذهب الرواقيين واستحسنوا تعاليمهم، كما أن جسندي وهوبز وأتباعهما مالوا إلى مذهب أبيقور ونشروا مذهبه، ثم جاء شفتسبري وهتشسون فقالا بوجود حاسة غريزية عند الإنسان يدرك بها الخير من الشرِّ، كالحاسة التي يدرك بها الجميل والقبيح، واختلف العلماء الحديثون اختلافًا كبيرًا في شرح هذه الحاسَّة.

وفي القرن الماضي جاء بنتام (١٧٤٨ ـ ١٨٣٢م) وجون سْتوَرْت مِيل (١٨٠٦ ـ ١٨٧٣م) فحوَّلا مذهب أبيقور إلى مذهب المنفعة، أعني أنهما نقلا مذهب أبيقور من القول بالسعادة الشخصية، إلى القول بالسعادة العامة. وانتشر مذهبهما في أوروبا وكان له أثر كبير في التشريع والسياسة.

وجاء جرين (١٨٣٦ ـ ١٨٨٢م) وهِربَرت سْبِنْسر (١٨٢٠ ـ ١٩٠٣م) فطبَّقا مذهب النشوء والارتقاء على الأخلاق كما رأيت.

ومن علماء الجرمان الذين كان لهم أثر كبير في الأخلاق في العصور الحديثة سْبِينوزا (١٦٣٢ ـ ١٦٧٧م)، وهيجِل (١٧٧٠ ـ ١٨٣١م)، وكانْت (١٧٢٤ ـ ١٨٣١م).

ومن الفرنسيين كوزَن (١٧٩٢ ـ ١٨٦٧م)، وأوجسْت كونت (١٧٩٨ ـ ١٨٥٧م)، وليس يسع مختصرٌ كهذا ذكرَ آرائهم وبيان مذاهبهم.

وعلى الجملة فمن عهد جون ستورت ميل (١٨٧٣م)، وسبنسر (١٩٠٣م) إلى الآن يكاد البحث الأخلاقي يكون مقصورًا على إيضاح النظريات السابقة وبسطها، وبعبارة أخرى: لم تستكشف من ذلك العهد نظريات جديدة، ولكن العلماء اجتهدوا في توسيعها وتطبيق الحياة العملية عليها[١]»[٢].

---

(١) انظر كتاب (J. M. Robertson's a short History of morals)، وكتاب (Sidgwick's History of Ethics).

(٢) انظر: الأخلاق لأحمد أمين ص١٣١ ـ ١٣٩، دار الكتاب العربي بيروت ـ لبنان، سنة ١٩٦٩م

الفصل الثاني

البحث الأخلاقي والفلسفات الغربية في العصر الحديث

تمهيد:

سنركز في بحثنا هذا عن الفلسفات الأخلاقيَّة عند غير المسلمين على ما كتبه أستاذ الفلسفة الكبير: الدكتور توفيق الطويل، في فصله الختامي من كتابه (**فلسفة الأخلاق: نشأتها وتطورها**)، وقد لخَّص فيه تلخيصًا جيِّدًا الفلسفة الخُلقية عند الغربيين بأبعادها واتِّجاهاتها، ما تقارب منها وما تباعد، وكان موضوعيًّا ومحايدًا إلى حدٍّ كبير، وقد قال في بداية ذلك الفصل: «انصبتْ أبواب هذا الكتاب وفصولُه على موضوع القيم العليا عبر تاريخ الفكر الفلسفي الطويل، وذلك إيضاحًا لأهم أبعاده، وكشفًا عن المجهول من زواياه، وقبل أن نعرض - موجزين - لمناقشة مكان القيم من قيادة البشرية - في الفلسفات المعاصرة بوجهٍ أخص - نقول: إن فلسفة الأخلاق لا تتناول بالدراسة سلوك الإنسان، إلا متى كان صادرًا عن عقل يفكِّر ويتدبَّر، وإرادة حرَّة تختار. وهما - مجتمعين - ركنَا المسؤولية الأخلاقيَّة.

وليس من الطبيعي أن يُنكر باحث قُدرة الإنسان العاقل على التفكير، ولكن كثيرًا من الباحثين قد أنكروا حرِّية الإرادة عند الإنسان، والجَبْر الكامل يتضمن إنكار القيم التي يمكن أن يدين بها الإنسان، والسلوك الذي يصدر عن قهر أو إكراه: يخرج من نطاق فلسفة الأخلاق، هذا إلى أن الفعل الإنساني بمعناه الأخلاقي، لا يكون كذلك إلا متى استهدف غايةً، وصدر عن إرادةٍ، وأمكن إخضاعه لحُكْم أخلاقي.

والباحثون من الطبيعيين يرون أن القيم جزئية نسبية متغيرة؛ لأنها لا تعني مجرد الاهتمام بفعل واستحسانه والميل إليه، ونحو هذا من معانٍ توحي بأن

القيم ذات طابع شخصي ذاتي خِلْو من الموضوعيَّة، وهي بهذا المعنى ـ من حقٍّ أو خير أو جمال ـ تطلب وسيلةً إلى تحقيق غاية أبعد.

أما المثاليون من فلاسفة الأخلاق، فهم ـ مع تسليمهم بهذه القيم الجزئيَّة النسبيَّة التي تدخل في دراسات العلوم الاجتماعيَّة ـ يروْن أن وراء هذه القيم المتغيِّرة قِيَمًا إنسانيَّة عُليا، تكون صفاتٍ عينيَّة كامنة في طبائع الأفعال، لا يتوقف وجودها على ذات صاحبها، وبالتالي تكون ثابتةً عامَّة مطلقة، تَتَخطَّى الزمان والمكان، وتطلب غاية في ذاتها، ويلتقي على طريقها الناس في كلِّ زمان ومكان، كما هو الشأن في طلب الحريَّة والكرامة، والأمن والسلم والمحبَّة، وتوكيد العدالة، وتوفير المعرفة، وأسباب العيش الهنيء، ومنع الخوف والجوع والقلق والمرض.

ونقول الآن، ونحن في مستهل مناقشاتنا لمكان القيم من قيادة البشرية: إن استقراء التاريخ يشهد بأن القيم ـ إنسانية عليا أو جزئية نسبية ـ كان لها خطرها الملحوظ في توجيه حياة البشر، والتحكُّم في مسيرة التاريخ.

وقد قَلَّ من الباحثين المعاصرين مَن يستخفُّ بالرأي الذي يعزو إلى الإيمان بالمُثل العليا أيَّ تأثير في حياة البشر.

فلنعرض الآن لموقف الفلسفات المعاصرة، إبَّان القرنين التاسع عشر والعشرين، من ذلك الرأي:

في الماركسية:

كان دعاة الماركسية يرون أن التاريخ تتحكَّم في مسيرته قوانينُ موضوعيَّة، لا تخضع لإرادة الأفراد ـ وهذه هي حتميَّة التاريخ عندهم ـ والعامل الحاسم في سير التاريخ هو العامل الاقتصادي.

وأما العوامل الروحيَّة مِن فِكْرٍ وفلسفةٍ، وفنٍّ وأدبٍ (نقول: ودينٍ أيضًا)، فلا تعدو أن تكون نتيجةً سلبيَّة لهذا العامل، وطريقة الإنتاج فيما يقول ماركس (١٨٨٣م)، هي التي تُحدِّد أوضاعَ المجتمع السياسية والفكرية والاجتماعية، وليس العكس. وهذه هي الماديَّة التاريخيَّة، وطبقًا لها جاهَرَ أتباعُ الماركسية بأنَّ الذي يُوجِّه تاريخ العالم، ويتحكَّم في تطوره؛ ليس الفكر، وإنما هو الأحوال الاقتصاديَّة، التي تسود المجتمع ـ أي مجتمع ـ في أيَّة مرحلة من

مراحل حياته، فتُكيِّف تفكيرَ أهلِه، وتُحدِّد أساليبَ تطوُّرِهم، وسائرَ أساليب حياتهم، وعنها ينشأ ما يسمِّيه المثاليون وهمًا بـ (القيم العليا)، فإن هذه القيم لا تُرَدُّ إلى الله، ولا ترجع إلى العقل الإنسانيّ، إن عالم العقل كله ينشأ عن النظام الاقتصادي على النحو الذي أشرنا إليه، ومن هنا بدأت القيم انعكاسًا للعلاقات الإنتاجية المتغيرة مكانًا وزمانًا، وسقط الرأي الذي يقول بأنها تشكل سلوك الفرد، وتحدد اتجاه المجتمع، وتهذِّب أوضاع الواقع، فإرادة الأفراد لا تقوى على تغيير مجرى التاريخ، على غير ما يظن هؤلاء الواهمون، فيما يرى الماركسيون.

وإذا كان علم النفس ـ وخاصة في أخريات القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين ـ قد رأى أن الإرادة هي العامل النفساني الأوَّل والوحيد، الذي تعتمد عليه الدوافع والرغبات والأفعال بما يقترن بها من انفعالات، فإن (ماركس) قد رفض هذه النظريَّة، وأكَّد أن الإرادة البشريَّة ليست شيئًا آخر، سوى ما تُمليه قوانين الطبيعة والمجتمع. فالإرادة ليستْ مستقلَّة عن المؤثِّرات والظروف الخارجية كما رأى المثاليون، ولكنها عند الماركسيين ثمرة المعرفة والتجربة والتربية.

وإذا كان (ماركس) قد هاجم واقع عصره، فقد جاء ذلك نتيجة قوانين يجري بمقتضاها التطور التاريخي، وليس من المعقول أن توجد قيم إنسانية مطلقة في مجتمع يقوم فيه صراع بين الطبقات، وإنما يمكن تصوُّر وجودها حين تمتنع المِلْكية، ويزول استغلال الإنسان للإنسان، وهو الأمل الذي تبشر به الشيوعية»[1].

ويعقِّب مُفكِّرنا الدكتور الطويل على هذا، فيقول: «ما مِن شكٍّ في أن أحدًا لا ينكر أثر الأحوال الاقتصاديَّة في سير التاريخ، ولكن هناك عوامل أخرى لعلها تبدو أكبر أهمية وأعظم تأثيرًا، وكلُّها تتمثَّل في الإنسان صانِع التاريخ، بما نجم عن عقله مِن علم وفلسفة، وفن وأدب... وهو بفاعليته وإرادته قادرٌ على أن يغيِّر كل شيء، حتى الأحوال الاقتصاديَّة نفسها، على نحو ما يقول أصحاب التفسير الروحيّ للتاريخ، والأدنى إلى الصواب ـ على أي

---

(١) انظر: فلسفة الأخلاق نشأتها وتطورها، للدكتور توفيق الطويل ص٤٧٨ ـ ٤٨٠. الطبعة الثالثة، نشر دار النهضة العربية، القاهرة.

حال ـ أن يفسِّر سير التاريخ بتفاعل عوامله الروحية والمادية على السواء.

وهذا بالإضافة إلى أن (ماركس) يستبعد تأثيرَ القيم في سير التاريخ، ومع ذاك يُخطِّط للمستقبل، ويعيب مذاهبَ الفلسفة؛ لأنها عبر ماضيها الطويل، كانت معنيَّة بتفسير العالَم، مع أنَّ مهمتها ينبغي أن تكون قائمة في العمل على تغييره، وبتغيير العالَم يتغيَّر الناسُ أنفسُهم، ويستحدثون قوانين جديدة، تُهيمن على مجرَى التاريخ ـ فيما يقول ـ لكننا نلاحظ أن الإنسان هو الذي يصنع الفلسفة، وهو الذي يعيشها!

ومع أن (ماركس) أنكر إرادة الأفراد على النحو الذي أشرنا إليه، إلا أنه كان يطالب المؤمنين بفلسفته بالتمرد على أوضاع واقعهم الاجتماعي والديني، بل كان لا ينتظر النتيجة الحتميَّة للصراع بين الطبقات، فيناشد أتباعه في أيِّ مجتمع بالثورة؛ للتعجيل بنقل مجتمعهم من مرحلة الرأسمالية إلى مرحلة الشيوعية، وكل هذا مع استبعاده إرادةَ الأفراد!

فإن قيل: إنَّ هذه الثورة تتمُّ بإرادة الجماعات، قُلنا: إنَّ الجماعات لا تتحرك بغير قادة، وللقادة إرادتهم في السيطرة على الجماهير، وتوجيههم إلى حيث يريد هؤلاء القادة. على أن ماركسيَّة القرْن العشرين قد تلافَت الكثير من أخطاء (ماركس)، ومِن ذلك أنها وجدت في (ماوتسي تونج)، الذي يحكم رُبع سكان الكرة الأرضية (أي: في الصين وما حولها) ما يشهد بدور الإرادة الفرديَّة في مسيرة التاريخ»[1].

ونقول: إننا نحن المسلمين، لا نُنكر دور الاقتصاد في التاريخ، ونرى القرآن الكريم يقرِّر ذلك حينما يحرِّم قتل الأولاد الصغار من أجل إملاقٍ (فقر) واقِع، أو إملاقٍ متوقَّع، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ﴾ [الأنعام: ١٥١]. ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء: ٣١].

ولكنَّه لا يعتبر الاقتصاد هو الموجِّه الوحيد، أو الموجِّه الأول للحياة، فهَوَى الإنسانِ أسيرُ فكرِه وعقيدته، قبل أن يكون أسيرَ المادة والاقتصاد، وإذا كان الماركسيون يقولون: غيِّرِ الاقتصادَ، أو علاقاتِ الإنتاج: يتغيَّرِ التاريخُ.

---

(١) المصدر السابق: ٤٨٠ ـ ٤٨١.

فإن الإسلام يقول: غيِّرْ نفسَك، أو غيِّرْ ما بنفسك ـ حسب التعبير القرآني ـ يتغيَّرِ التاريخُ. وفي هذا نقرأ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

في فلسفة الوضْعيِّينَ في فرنسا:

«ولم يعدم عصرُ (ماركس) مَن يشبهُه في إنكار إرادة الأفراد، والتنكُّر للقيم الإنسانيَّة العليا، فأتباعُ الوضعيَّة الفرنسية ضخَّموا شخصيَّة المجتمع على حساب شخصيَّات أفراده، الذين سُلبوا في هذه الفلسفة حريتَهم وإرادتَهم، فكانوا بتعبير إميل بربيه (١٩٥٢م)، كالدُّمَى التي يُحرِّك المجتمعُ خيوطَها بأصابعِه! واستُبْعدت الوضعيَّةُ (الميتافيزيقا) من مجال البحث، فاختفتِ القيم العليا، وفقدتْ كل أهميتها، ولكن إمام هذه الفلسفة أوجست كونت (١٨٥٧م)، كان برغم ذلك يُخطِّط للمستقبل، ويجاهر بأن فلسفته ستتكفَّل بإنقاذ فرنسا من الدمار، الذي أصابها من جراء ثورتها الكبرى! وكان هذا هو الحال مع أكبر أتباعه إميل دور كايم (١٩١٧م)، زعيم المدرسة الاجتماعية الفرنسية، فقد أنشأ علمَ الاجتماع الوضعي المعاصر، وجعل الظاهرة الاجتماعية موضوعَه، وقرَّر أن مِن أخصِّ صفاتها أنها تنشأ خارج شعور الفرد كحقيقة موضوعيَّة، وتتميَّز بصفة القهْر والإلزام، بمعنى أنها تفرض نفسَها على الأفراد، فلا يملكون إلا طاعتها راضين أو كارهين! والقيمُ الأخلاقيَّة من نوع الظواهر الاجتماعية، فهي من صُنْع العقل الجمْعيِّ، تنشأ آليًا باجتماع الناس بعضهم مع بعض، ولا تكون إلا تعبيرًا عن رغبات الأفراد في إرضاء المجتمعات التي ينتمون إليها! ومع كل هذا كان (دور كايم) يُجاهر بدوره بأنَّ علم الاجتماع الذي أنشأه، سيساعد فرنسا على التخلُّص من التدهور الذي أصابها بعد (حرب السبعين)! وهكذا كان الوضعيون يُخطِّطون للمستقبل، بهداية مِن قِيم دانوا لها بالولاء»[1].

ونحن نؤمن أنَّ المجتمع له تأثير في سلوك الأفراد، ولهذا يعتبر القرآنُ الأموالَ ملكَ المجتمع كلِّه في النهاية، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ﴾ [النساء: ٢٩]. ولكنه مع هذا يضيف هذه الأموال إلى مالكيها، ويوجب عليهم فيها الزكاة، ويحرِّم عليهم أنواعًا من

(١) المصدر السابق ٤٨١ ـ ٤٨٢.

التجارة، يأكلون فيها الأموال بالباطل، ويقول للأغنياء: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

ويرى القرآنُ أن نفس الإنسان هي المسؤولُ الأول عن جرائم الإنسان وأعماله، كما في قتل ابن آدم الأولِ أخاه، حيث لم يكن هناك مجتمع في ذلك الوقت، حتى إنَّ الرجل قتل أخاه، ولم يعرف كيف يدفنه، حتى بعث الله غرابًا يبحث في الأرض؛ ليريه كيف يدفن أخاه، قال تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ۝٣٠﴾ [المائدة: ٣٠].

ولنا مناقشات مع (كونت)، و(دوركايم)، لا يتَّسع لها المقام هنا.

في فلسفة النفْعِيِّين في إنكلترا:

«ومن فلسفات ذلك العصر فلسفةُ النفعيين في إنكلترا، وكان أتباعها من الحسِّيِّين الذين قالوا بالجبر، فسلبوا الفردَ الكثير من حريته وإرادته، وكان مبدؤهم الوحيد الذي دانوا به، هو مطالبة الفرد بأن يأتي من الأفعال ما يحقق أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس، واستبعدوا ما عدا هذا من قيم إنسانية عُليا، ولكن فلسفتهم كانت شعبيَّةً، سيطرتْ على السياسة والأخلاقَ والتشريع والآداب، والتربية وغيرها من مجالات الإصلاح، وكان أكبر دُعاة هذا الإصلاح ـ اجتماعيًّا وسياسيًّا ـ بنتام (١٨٣٢م)، ومل (١٨٧٣م)، وتلامذتُهما من النفعيين، وبهذا قُدِّر لفلسفة النفعيين أن تُوجِّه مسيرةَ الحياة في إنكلترا إبَّان ذلك العصر.

في الفلسفة العملية الأمريكية:

بل كان من فلسفات ذلك العصر ما أكَّد إرادةَ الفرد، واستبعد ما سمَّاه المثاليون بالقيم الإنسانيَّة العُليا، فكان أصحاب الفلسفة العملية (البرجماتية) من الأمريكان، يكرهون تبديد الفكر في نبْش الماضي، أو إضاعته في متاهات النظر العقلي المُجرَّد، ومِن ثَمَّ يُطالِبون بالتسليم بقيمٍ تحقق منافعَ عمليَّة، وإن كان العقل يرفض التسليم بصوابها!

كان إمامُهم وليم جيمس (١٩١٠م) يقول: إنَّ الحق أو الخير كورقة النقد الزائفة، تظل صالحةً للاستعمال حتى ينكشف زَيْفها! وإمعانًا في ربط الفكر بالعمل، قال جون ديوي (١٩٥٢م): إن الأفكار لا قيمة لها، إلا إذا تحولت

إلى أفعال تؤدي إلى إعادة تنظيم العالم الذي نعيش فيه، وتُسلِم إلى إعادة بنائه... وشابه في هذا (ماركس)!

وشاعت هذه الروح العملية في كلِّ مجالات الحياة الأمريكية، وقُدِّر للقيمة بمفهومها عند هؤلاء البرجماتيين: أن تسيطر على الفكر الأمريكي، وتتحكم في مسيرته»[1].

في فلسفة التطوريِّين:

بعد ذلك عرض د. الطويل لفلسفة التطوريين في أوروبا، وقال: «حسبُنا منهم هربرت سبنسر (١٩٠٣م) في إنكلترا، ونِيتْشه (١٩٠٠م) في ألمانيا، وكلاهما قد اعتنق نظرية التطور، وطبَّق ـ مع تفاوت بينهما ـ قانونَ التنازع من أجل البقاء، على الجانب الأخلاقي في حياة الإنسان، وكان معنى هذا أن يبقى من مبادئ الأخلاق ما يصمُد للتجربة، وينقرض منها ما لا يقوى على النضال، وكان أولهما يرى أن كمال الحياة إنما يكون في تكيُّف الإنسان مع بيئته، وهذا التكيُّف ـ طبقًا لقانون التطور ـ في تقدُّم متَّصل، فالتطور بطبيعته يتحرَّك بِنا نحو غاية قصوى، تقوم في تحقيق الانسجام بين مطالب الفرد ومطالب المجموع، ولكن (سبنسر) يصرِّح برغم هذا بأن غاية الأخلاق القصوى تقوم في الإسهام (بتعجيل) التطور الذي يحقق هذه الغاية! ولا شك أنَّ هذا يتطلَّب تدبيرًا، وإرادةً تُنفِّذ هذا التدبيرَ، وإذا كان للانتخاب الطبيعي أهمية، فإنَّ الانتخاب الاصطناعي الذي يتوخَّى تحقيق غايةٍ مشعورٍ بها: هو أجلُّ خطرًا، وأعظم شأنًا.

أما (نيتشه) الجريء الثائر، فقد غلا في تجسيم الإرادة الفردية، حتى قلَبَ جدولَ القيم التي تواضع عليها الدينُ، وارتضاها الناسُ من قديم الزمان، وقد جعل (إرادةَ القوَّة) مدارَ فلسفته، وانتهى به تطبيق قانون التطور على حياة الإنسان المُتَمَدِّين إلى احتقار الرحمة والصبر والدَّعَة، وتمجيد القسوة والظلم والقوة وتوكيد الذات، وبذلك هدَمَ التصور المألوف للقيم، ولكنه مع ذلك كان يُخطِّط للمستقبل، ويستهدف إيجاد الإنسان الأعلى، أو (السوبرمان)، لكنه لا يقنع بالانتخاب الطبيعي وسيلةً إلى التَّسامي بالصفوة، تحقيقًا للإنسان الأعلى؛ لأن الطبيعة تقاوم الشذوذ، وتحابي المتوسطين من الناس، فتهبط بالممتازين، ولا ترتفع بالمتوسطين إلى مراتب الممتازين.

---

(١) المصدر السابق: ٤٨٢ ـ ٤٨٣.

ومن هنا أوجب في تخطيطه للمستقبل الاهتمام بالإشراف على تربية الأجيال، وجعل الزواج أداة لترقية النسل، وليس مجرد وسيلة للتناسل»[1].

ونقول هنا: إن التطوريين بالغوا في تقدير قوة المجتمع وأهميته، ولم يعتبروا لقوة الأفراد - وخصوصا المتميِّزين منهم - أيَّ أهمية، على عكس ما يرى الناس في واقع حياتهم، حتى إن واحدًا منهم يُعدُّ بمائة، كما جاء في الحديث الصحيح: «الناس كإبلٍ مائة لا تجد فيها راحلة»[2]. وقد نجِدُ واحدًا بألف، كما قال الشاعر:

والنَّاس ألفٌ منهمو كواحد ... وواحد كالألف إنْ أمر عَنَا[3]

وقال الحكيم: فردٌ ذو همَّةٍ يُحيي أمةً.

وقال الشاعر[4]:

ليس على اللَّه بمستنْكرٍ ... أن يجمع العالَمَ في واحد!

في فلسفة أصحاب النزعة الفردية:

بل كان من معاصري (ماركس) من غلا في إقرار دور الإرادة الفردية للأفراد في توجيه حياتهم، والتحكُّم في مسيرة مجتمعاتهم، فعكس توماس كارلايل (١٨٨١م) آيةَ الوضع الذي أقرَّه الوضعيون وعلماء الاجتماع من معاصريه، فإذا كانوا قد سلَّموا بالقيم الجزئية المتغيرة وحدها، وردُّوها إلى المجتمع دون الأفراد الذين سلبوهم الإرادة والحرية، فقد جاهر (كارلايل) بأن الفرد (البطل) هو الذي يسيِّر تاريخَ أمَّته، ويتحكم في توجيهه، ومَن أراد أن يعرف تاريخ أمَّة، فحسبُه أن يعرف تاريخ أبطالها! وأبان عن رأيه في ستِّ محاضراتٍ، ضمَّنها نماذجَ لأبطال قادَ كلٌّ منهم أمَّته، وطوَّر تاريخها[5].

---

(١) المصدر السابق ٤٨٤ - ٤٨٥.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٤٩٨)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٤٧)، عن ابن عمر.

(٣) من شعر أبي بكر بن دريد الأزدي.

(٤) هو أبو نواس.

(٥) نُشرتْ محاضراته في كتاب تحت عنوان: (**الأبطال وعبادة البطولة**)، أبان في أولاها عن دور الآلهة في توجيه حياة الوثنيين، وفي ثانيتها عن دور النبي (نبينا محمد ﷺ) في مسيرة الأمة الإسلامية، وكان البطل في ثالثتها شاعرًا (دانتي وشكسبير)، وفي رابعتها كان كاهنًا (مارتن لوثر، ونوكس)، وفي خامستها =

وجرى في هذا التيار نفسِه أصحابُ المذهب التاريخي في القرن العشرين، فأكَّدوا أنَّ الفردَ هو الذي يُحدِّد معنى التاريخ، وبالتالي قاوموا مع أتباعهم طغيان المجتمع على حرية الأفراد»[١].

ونقول هنا: إن (توماس كارلايل) هو الذي قدَّم في كتابه النبيَّ محمدًا رسول الإسلام باعتباره (البطل في صورة نبيٍّ)، وتكلَّم بكلام جيِّد عن محمد وصدقه، وقال: إنَّ الكاذب لا يستطيع أن يقدِّم شيئًا للناس، فمَن زعم أنه بنَّاء - وليس ببنَّاء - فإنه إذا بنى شيئًا، فمآله أن يتهدَّم على رؤوس أصحابه، ولكن محمدًا زعم أنه نبيٌّ، وبنى دينًا وأمةً، لم يستطع أحدٌ هدمهما.

وهكذا نرى أن فلسفات ذلك العصر - حتى ما استبعد منها إرادة الفرد، وأنكر بالتالي دور القيم العليا في حياة الناس - كانت كلُّها تخطِّط لمستقبل، ولا يكون التخطيط قطُّ بغير هدفٍ، ولا تكون مسيرة الإنسان إلى تحقيق الهدف إلا محكومةً بقيم تُتخذ للهداية والإرشاد، بهذا تبدو إرادة التغيير والتطوير عند الإنسان مهتدية بمبدأ إنساني يدين له بالولاء.

بل نقول مع د. الطويل: «إن جمهرة الباحثين عبر تاريخ الفكر قد أكَّدوا أثر الإنسان في تهذيب حياته، وتطوير مجتمعه، ولولا هذا لانتفَى ما يسوِّغ التربية والإصلاح في كلِّ صوره؛ إذ إن هذا يفترِض مقدَّمًا أن للإرادة دورها في التحكم في حياة الأفراد، وتوجيه سَيْر التاريخ.

في فلسفات الوجوديين:

فأما الفلسفات الوجودية في عصرنا، فإن في موقفها طرافةً وغرابة، فهم - فيما قلنا من قبل - يرفضون إخضاع الفرد للحتمية الاجتماعية، أو الموضوعية العلمية، ويهتمون بحرية الفرد إلى حد التوحيد بينها وبين وجوده! وفي ضوء هذا استبعدوا القيم التي تفرضها على الإنسان سلطةٌ ما؛ لأن اختياره لموقف في حياته دون موقف آخر لا يكون مسبوقًا بتدبير عقليٍّ، ولا تحديدٍ لغاية، ولا معرفةٍ ببواعث، وهذه هي الحرية الإنسانيَّة.

= أديبًا (جونسن، وجان جاك روسو، وبارنز)، وفي سادستها ملكًا (أوليفر كروميل، ونابليون)، هذه نماذج لقادة، رأى المؤلفُ أنهم وجَّهوا أممهم، وسيطروا على مسيرة تاريخها.

(١) انظر: فلسفة الأخلاق نشأتها وتطورها ص٤٨٥.

وفي ضوء هذا أسقط الوجوديون القيمَ المتعارفَ عليها من حسابهم، سيَّان منهما ما فرضه العُرف الاجتماعي، أو أملاه المعتقدُ الديني، أو أوجبته سلطة سياسيَّة... ومثل هؤلاء الوجوديين ينكرون القيم الإنسانيَّة العُليا، فينتفي بالتالي دورُها في توجيه الحياة.

والرأي عندنا: أنَّ حياة البشر لا تستقيم بغير مبدأ أسمى يدين له الإنسان بالولاء»(١).

وأقول: إن قول الوجوديِّين إنما يمثل نوعًا من غلوِّ البشر بعضهم على بعض، فكلٌّ واحد يُمسك بناحية من نواحي الأفراد أو المجتمعات، فيها قدر من الانحراف أو التنطُّع أو الشذوذ ويركز عليها، وينسى ما يقابلها، وما هو أشد منها، ولا يحاول أن يجمع بين المتقابِلَيْن، ويقابل بين المتعارضين، ويأخذ من هذه لتلك، ومن تلك لهذه، وهذا يحتاج إلى عِلم إلهٍ، وإلى حِكمة إله، وإلى تدبير إله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤].

بين ماركس ونيتشه:

«وتنوُّعُ القيم عبر تاريخ الفكر الفلسفي قد حيَّر فلاسفةَ الأخلاق، فأيُّ هذه القيم تكون له الصدارة في توجيه الحياة؟ أيُّها يصلح لقيادة البشرية في عصرنا الراهن؟ فمِن ذلك أن (جون ماكمري)، أستاذ فلسفة الأخلاق بجامعة (إدنبره) قد ألقى في الإذاعة سلسلة أحاديث عن (بُناة الروح الجديد)، واختتمها بعقد مقارنة طريفة بين (ماركس) و(نيتشه) قائلًا: إن على العالم في عصرنا هذا أن يختار السَّيْر وراء (نيتشه)، أو وراء (ماركس)، كان أولهما يصدر في فلسفته عن مبدأ ارستقراطي يتطلع فيه إلى قَصْرِ الحياةِ الكريمة على الصفوة من بني الإنسان ـ وهم (السوبرمانات) ـ دون جمهرة الناس، ويصدر ثانيهما في فلسفته عن مبدأ شعبي يتطلع فيه إلى توفير الحياة الكريمة للشعب، لجميع الناس من غير استثناء، ولكن (هـ. ج. وود) قد أشار إلى هذه المقارنة في ختام كتابه عن الصواب والخطأ في الشيوعية، وقال معلقًا: إن كليهما (ماركس ونيتشه) قد رفض المسيحية، وأنكر تعاليمها عن وعي وعمد، وبالتالي لا يصلح أحدهما لقيادة البشرية، إن قيادة البشرية ـ في رأي المؤلف ـ ينبغي أن توكل إلى المسيحية».

(١) المصدر السابق ص٤٨٦.

يعقِّب الدكتور الطويل على هذا الكلام قائلًا: «ويبدو لنا أن المؤلف لو كان مسلمًا مخلصًا لدينه، لأوجبَ أن توكل قيادة البشر إلى الإسلام، ولو كان من أتباع أفلاطون لرد القيادة إلى الفلاسفة، ولو كان ممَّن يؤمن بالعلم لرد القيادة إلى التكنولوجيا! هي وجهات نظر مختلفة متباينة على أي حال»[1].

ونقول: نحن إنما نردُّ البشرَ إلى الإسلام، وإلى أخلاقيته الإسلامية، الأخلاقيَّة الشاملة، التي لا تدع جانبًا في الحياة، صغُر أو كبُر، إلا دخلتْ فيه، وفرضتْ فيه وصيةً تناسبه، وهي الأخلاقيَّة المتوازنة، التي ربطتْ بين الروح والمادة، وبين الدين والدنيا، وبين الفرد والمجتمع، وبين الحق والواجب، وهي الأخلاقيَّة الواقعية والمثالية، التي ترتبط فيها المثالية بالواقعية، والمصلحة بالحق والخير، والعمل لخير الفرد بخير المجتمع، وكذلك لخير المجتمع بخير الفرد.

بين أرسطو ونيتشه والرواقية:

«ومن أطرف دلالات الخلاف في تصور القيم التي ينبغي أن تحتلَّ مكان الصدارة من حياة البشر: ما كان بين (أحسن الناس) عند (أرسطو)، و(الإنسان الأعلى) عند (نيتشه) من وشائج رحم وقُربى! وكيف كان كلاهما في كثير من أبعاده على تعارض مع الحكيم الرواقي، الذي كان إرهاصًا بالقديس المسيحي! فأحسن الناس عند أرسطو يتَّصف بالكبرياء والاعتزاز بالنفس، حتى ليرفض الهرب من مواجهة الخطر الجسيم، بل يُقدِم عند الضرورة على التضحية بنفسه، اعتقادًا منه بأن الحياة في بعض الظروف تهون، وهو ـ لفرط كبريائه ـ يُقدِّم للناس المنافع، ويستحيي أن يتلقاها منهم، يمدُّ العونَ إلى غيره، ولا يلتمس من غيره عَوْنًا، يتعالى على أهل المكانة المرموقة... ويتوخَّى الصراحة في إعلان كراهيته أو محبته للناس؛ لأن إخفاء المشاعر الحقيقية من شِيَم الجبناء.. ولا يبلغ هذه المكانة إلا الملوك وأبناء الطبقة الارستقراطية!

أما (نيتشه) فيرى أن أخصَّ ما يميِّز الإنسان الأعلى (السوبر مان): هو إرادة القوة، وإرادة القتال، وحبُّ السيطرة، ومِن أخلاق العبيد كانت الرحمة والدَّعة، والصبر والحِلم، والسلام والطاعة، وغيرها ممَّا دعت إليه المسيحية،

---

(١) المصدر السابق ص٤٨٧.

وتبنَّاه القساوسة؛ حفاظًا على نفوذهم عند الجماهير، وتسلَّح به اليهود الذين عانوا الظلم الفادح، دون أن يتصدَّوْا لمقاومة سادتهم من الرومان... وكان (نيتشه) يشارك أرسطو في الاستخفاف بالضعف والعجز، والاستهانة بالكثْرة الغالبة، وإكبار القِلَّة من أصحاب السيطرة والنفوذ، وتمجيد القوة والكبرياء، والسخرية من المساواة بين الناس... وإن كان (نيتشه) قد سار في الطريق حتى نهايته، فبدا الإنسانُ الأعلى عنده طاغيةً جبارًا، تحكُم حياتَه شريعةُ الغابة.

وعلى غير هذا كان الحكيم الرواقي، والقديس المسيحي، كان من أخصِّ صفاتهما المَسْكَنَة، والدَّعة والتواضع... وتمجيد المساواة بين الرقيق والسادة، وجعل الفضيلة ميسورة لكليهما؛ لأنهما جميعًا أبناء الله! وكانت الرواقية أسبق من المسيحية في التنديد بالاسترقاق، وتحريم عقوبة الإعدام.

ومع الاعتراف بإمكان تأثر أرسطو بحياته في بلاط الإسكندر الأكبر، وإعجاب (نيتشه) بالروح العسكرية الألمانية في وطنه، وتأثُّر الرواقية بالروح (الهيلنيستية) روح العصر الذي عاشوا فيه ـ مع الاعتراف بهذا ـ ما من شك في أن كلًّا مِن هؤلاء كان عظيم التأثير في خلفائه، كان أرسطو في العالم المسيحي ـ بعد أن وفَّق القديس (توما الإكويني ١٢٧٤م) بين مذهبه وبين العقيدة المسيحية ـ شبهَ معصومٍ من الخطأ! وكان أرسطو في العالم الإسلامي: المعلِّمَ الأول، وقد كان كتابُ (ابن مسكويه ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م) ـ وهو أكمل دراسة علمية في الأخلاق ـ منقولًا في أكثره عن أرسطو! وكان تأثير الرواقية في مفكري المسيحية والإسلام بالغًا، فمفكرو المسيحية اعتبروا الفلسفة الرواقية مدخلًا للمسيحية!

وبدأ تأثيرهم الأخلاقي في العالم الإسلامي عند (إخوان الصفا)، وبعض المتكلمين، وصوفية الإسلام بوجه خاص!

وأما (نيتشه) فقد قيل: إن دعوته إلى القوة والقتال والبطش بالضعفاء... كانت من مسوِّغات الحرب العالمية الأولى! وهكذا كان للقيم التي رسمها هؤلاء أثرها الغلَّاب على مجرى الأحداث العالمية.

وكان هذا هو حال القيم على الصعيد الدولي في عصرنا الحاضر، فشاركت الأمم وأفراد الناس في طلب الأمن والسلم والمحبة، وإقرار الحرية والكرامة، وتوكيد العدالة، وتوفير أسباب المعرفة ووسائل العيش الرخيِّ..

ومنع الخوف والقلق، والجوع والجهل والمرض، وغير ذلك مما حرصت على توكيده، أو دعت إلى محاربته قيمٌ عُليا يلتقي على طريقها الناس، أفرادًا وجماعاتٍ وأممًا، في كلِّ زمان ومكان. تشهد بذلك عصبة الأمم (في أبريل عام ١٩١٩م)، وميثاق الأمم المتحدة (منذ يونيو من عام ١٩٤٥م)، وإذا كانت الأولى قد فشلتْ، فإن هيئة الأمم قد بدأت تكون أكثر جدية في العمل على تحقيق حاضر أفضل، ومستقبل أكثر وضاءة وإشراقًا»[١].

تعقيب عام:

ونعلق هنا على هذه الفلسفات البشرية المتقلِّبة والمتنازعة، التي لا تتفق على شيء في بلد أو في عصر، إلا جاء مَن يعارضه في البلد نفسه، أو في بلد آخر، أو في العصر نفسه، أو في عصر آخر، معارضةَ الضدِّ للضد، أو النقيضِ للنقيض، ونحن نقرأ اليوم ردَّ بعضهم على بعض، وكيف يغفل أحدُهم عن أشياء يراها خصمُه في غاية الوضوح! وكيف يقيِّم نظريته أو مذهبه على هذه الحيثيات! وهو ما جعل شيخنا الدكتور عبد الحليم محمود أستاذ الفلسفة وشيخ الأزهر يقول: الفلسفة لا رأي لها[٢]. لأنك تجد فيها الرأي وضده، والشيء ونقيضه، وكل رأى يحاول هدم الرأي الآخر. ولا يسعُنا ونحن ندرس ونبحث، ونكتشف ونقارن ونعلق، إلا أن نقول: هذا هو شأن الإنسان، مهما يُؤْتَ من علم وفكر وفلسفة، فسيظل بشرًا، تحكمه البشريَّة بما فيها من قصور في الفكر والإدراك، وضعف في الإرادة والقدرة، ومحدوديَّة في العلم والمعرفة، فقد ولد بغير إرادته، ومات بغير إرادته، وكثير من أمور حياته ـ حتى الخطير فيها ـ يتم بغير إرادته. وصدق الله العظيم حين قال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥].

خاتمة:

«وفي ختام هذا الفصل نريد أن نؤكِّد أن الخلاف بين الفلاسفة في شأن القيم الأخلاقيَّة، إنما كان في تفسيرها وتحليلها، ومنهج بحثها لدراسة

---

(١) المصدر السابق ص٤٨٧ ـ ٤٩٠.

(٢) مقال: (الفلسفة) للشيخ عبد الحليم محمود، مجلة البحوث، العدد الخامس، من المحرم إلى جمادى الآخرة لسنة ١٤٠٠هـ، (٥/١٤١).

مضمونها، وبعد هذا الخلاف يلتقي جميع فلاسفة الأخلاق فوق أرض واحدة، وتحت راية واحدة، تقديرًا للقيم الأخلاقيَّة، واستغراقًا في إكبارها، حتى الذين ظنَّ البعضُ خطأً أنهم يمثلون النزعة (اللاأخلاقية) في فلسفة الأخلاق، كانوا في الحقيقة يهدمون قِيَمًا بدتْ لهم هزيلةً بالية، عسى أن تأخذ مكانَها قيمٌ أصحُّ وأسلم.

هذه هي أهم الفلسفات المعاصرة إبَّان القرنين التاسع عشر والعشرين، في موقفها من دور القيم الأخلاقيَّة في توجيه الحياة، مع استثناء فلسفات شغلت نفسها بتحليل الألفاظ لمعرفة معانيها بالدقة، كفلسفة (التحليل)، و(الوضعية المنطقية)، التي جاهرت بأن القيم ليست إلا مجرد تعبير عن الانفعالات! وأما عن المثالية الألمانية ـ وقد تحولت بعد غزوها للفكر البريطاني ـ إلى مثالية مُحدثة، فإن ما أسلفناه عنها يؤكِّد دورها في بناء الحياة ومسيرة التاريخ معًا.

وبعدُ فما أصدق أن يقال: إن الإنسان هو الكائن الأخلاقي الوحيد؛ لأنه ـ من بين سائر الكائنات ـ هو وحده الذي يمكن أن يضِيقَ بواقعه، ويتطلَّع جادًّا واعيًا إلى ما ينبغي أن تكون عليه حياته، وهو وحده الذي يخطط لمستقبله، وبذلك كان من الحق أن يقال: إن الإنسان لا يكون إنسانًا ـ مميَّزًا عن سائر الكائنات ـ بغير مَثَلٍ أعلى يدين له بالولاء»[1] اهـ.

ونحن نقول باسم الإسلام الذي أكرمنا الله به، وأتمَّ به النعمة علينا، فقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

باسم هذا الإسلام، ومن مصادره الأولى: القرآن الكريم، والسنة النبويَّة الصحيحة، نقول: إن الإنسان هو الكائن الحيّ الذي وهبه الله العقل والإرادة، ومنحه البصيرة والمعرفة، ورزقه الفطرة السليمة، وبعث إليه الرسولَ، وأنزل معه الكتاب والميزان، ليقوم الناس بالقسط، ويعرف الناس الحق والخير، وكان على الإنسان أن يتدبَّر ما جاء به الكتاب، وما بُعث به الرسول، من آيات بيِّنات، فيها هدى ونور، وفيها من قواطع العقائد، وحقائق العبادات، وأنواع المعاملات، وروائع الشرائع، ومكارم الأخلاق، ما تطمئنُّ به الأنفس، وتقتنع به العقول، وتنشرح به الصدور، وتسكن إليه القلوب، وما يجمع الناس على الحقِّ الخالص، والخير النافع، والبرِّ بالناس، والمنفعة الغالبة لهم، وما اختلط

---

(١) انظر: فلسفة الأخلاق نشأتها وتطورها ص٤٩٠ ـ ٤٩١.

فيه نافع وضارٌّ، كانت العبرة للأغلب، كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ﴾ [البقرة: ٢١٩]. وجاء عن الرسول ﷺ حديثه الذي يقول: «لا ضرر ولا ضرار»[1]. وقد صحَّحه عدد من العلماء، ولكن المهم أن معناه مقطوع به؛ لأنه مأخوذ من الآيات الصريحة في القرآن، كما قال تعالى: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ﴾ [البقرة: ٢٣٣]. ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ﴾ [الطلاق: ٦].

مع ما في هذا الكتاب من التيسير والتخفيف على الناس، رحمة من الله بهم، وإرادة كل خير لهم، كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٦﴾ [المائدة: ٦]. ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ۝٢٨﴾ [النساء: ٢٨].

---

(١) رواه أحمد (٢٨٦٥)، وقال مخرِّجوه: حسن، وابن ماجه في الأحكام (٢٣٨١)، عن ابن عباس، والدارقطني في البيوع (٣/ ٧٧)، عن أبي سعيد الخدري، وقال النووي في الأربعين (الحديث الثاني والثلاثون): حديث حسن، رواه ابن ماجه والدارقطني وغيرهما مسندًا، ورواه مالك في الموطأ مرسلًا عن عمرو بن يحيى عن أبيه عن النبي ﷺ فأسقط أبا سعيد، وله طرق يقوي بعضها بعضًا. قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم في شرحه للحديث: وقال أبو عمرو بن الصلاح: هذا الحديث أسنده الدارقطني من وجوه، ومجموعها يقوي الحديث ويحسنه، وقد تقبله جماهير أهل العلم، واحتجوا به، وقول أبي داود: إنه من الأحاديث التي يدور الفقه عليها يشعر بكونه غير ضعيف، والله أعلم. وقال ابن الملقِّن في خلاصة البدر المنير (٢/ ٤٣٨): وصحَّحه إمامنا (أي الشافعي) في حرملة. وقال ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٢/ ٢١٠): وقد استدل الإمام أحمد بهذا الحديث فقال: قال النبي ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار».



الفصل الثالث

البحث الأخلاقي عند العرب قبل الإسلام

أخلاق العرب في الجاهليَّة

لم يكن للعرب في عصر الجاهليَّة مباحث في علم الأخلاق أو فلسفتها، شأنها في ذلك شأن العلوم وألوان الثقافة الأخرى، وهو شأن كل الأمم في حال بداوتها.

فضائل عملية لا فلسفة خلقية

وإنما كان لهم جملة أخلاق عمليَّة، ومجموعة فضائل أصيلة، يوصي بها حكماؤهم، ويتغنَّى بها شعراؤهم، ويتمدَّح بها سادتهم، كما تقرأ ذلك في مِثْل حِكَمِ أكثم بن صيفي، ووصية زهير بن جناب الكلبي لبنيه، وأشعار زهير بن أبي سلمى، وعنترة العبسي، وحاتم الطائي، والنابغة الذبياني، وأصحاب المعلقات والسموءل، وغيرهم.

من هذه الحكم: مَن سلك الجَدَد[1] أمِنَ العثار. آفة الرأي الهوى. سوء الظن عصمة. اترك الشرَّ يتركك.

ومن شعر الحكمة قول امرئ القيس:

إذا ما لم يكن إبل فمِعْزى كأنَّ قرون جِلَّتها العصيُّ

فتملأ بيتنا أقِطًا وسمنًا وحسْبُك من غنًى شِبَع ورِيُّ

وقول عامر بن الطفيل العامري في الفخر:

وإنِّي وإنْ كنتُ ابنَ سيِّدِ عامرٍ وفارسها المشهور في كلِّ موكبِ

---

(١) الجدد هو الأرض الغليظة وقيل المستوية. انظر التاج: جدد.

فما سوَّدتني عامرٌ عن وراثةٍ أبى اللَّهُ أن أسمو بجَدٍّ ولا أبِ
ولكنَّني أحمي حماها وأتقي أذاها وأرمي منْ رماها بمنكبِ

وقول زهير في معلقته:

وكائنْ ترى من صامتٍ لكَ معجِب زيادته أو نقصه في التَّكلُّمِ
لسانُ الفتى نصفٌ، ونصفٌ فؤادُه فلمْ يبْقَ إلّا صورةُ اللحم والدَّمِ

وقوله:

ومَن يَكُ ذا فضلٍ فيبخلْ بفضله على قومه يُستَغنَ عنه ويُذْمَمِ
ومن لم يذُدْ عن حوضه بسلاحه يهدَّمْ، ومن لا يظلمِ الناسَ يُظلَمِ

وهنا نجد تطرُّف الجاهليَّة وغلوَّها، فكأنها تحضُّ الناس على أن يَظلموا حتى لا يُظلموا، والظلم قبيح على كل حال.

ومن ذلك أيضًا قول السموءل:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عِرْضه فكلُّ رداء يرتديه جميلُ

ولكن هذه الحِكَم والوصايا والأشعار لا تبلغ أن تكون ثمرة تفكير فلسفي أخلاقي، وإنما هي ـ كما يقول العلامة الشهرستاني ـ: فلتات الطبع، وخطرات الفكر[1].

توارث العرب هذه الفضائل خلفًا عن سلف، واعتُبروا بها من أفضل الأمم في عصر الجاهليَّة، وأنقاها معدنًا، وأقربها إلى سلامة الفطرة، وأبعدها عن كثير من الدنايا والرذائل التي غرقت فيها أمم الحضارة إلى الأذقان حينذاك.

ولعل هذه الفضائل والخصائص النفسيَّة من الأسباب التي اقتضت أن تجعل الحكمة الإلهيَّة منهم خاتم الرسل، المبعوث إلى البشر كافة، بالرسالة العامة الخالدة، وأن تجعلهم أصحاب هذا الرسول وخلفاءه، وحماة هذه الرسالة، وحامليها إلى العالمين، ومُبلِّغيها إلى كافة الأمم والشعوب كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

---

(١) الملل والنحل (٢/ ١١٨)، طبعة مؤسسة الحلبي.

نماذج من فضائل العرب

١ ـ الجود والكرم:

أشهر فضائل العرب: الجود والكرم، الذي بلغوا فيه حدًّا لم يُعرف لدى أمَّة من الأمم، وقد تمدَّحوا به، وعدُّوه من دلائل الشرف وأصالة المعدن، ومن لوازم السيادة على القبيلة، والزعامة في القوم.

يقول حاتم الطائي الذي ضُرب به المثل في الكرم والجود والسخاء:

يقولون لي: أهلكتَ مالكَ، فاقتصدْ وما كنتُ ـ لولا ما تقولونَ ـ سيّدَا

وتزداد قيمة الكرم، وترتفع منزلة الكريم، إذا أجدبت الأرض، وقلَّ الماء والطعام، وتَبَارى الكرماء في تقديم ما يملكونه، ولو كانوا في حاجة إليه، كما حكي عن حاتم: أنه حين أجدب قومه، ذَبَح فرسه، ودعاهم فأكلوا وشبعوا، وما ذاق لحمًا.

ويتجلَّى خلق الكرم لدى العرب في قِرَى مَن ينزل بهم من الضيوف، من أي قبيلة كانوا، ومن أي موضع جاءوا. وكان لهذه الفضيلة خطرها وأهميتها؛ لشدة حاجة المجتمع البدوي البسيط إليها، لكثرة التَّرحال من مكان إلى مكان، من صحارَى ليس فيها قُرى ولا منازل للراحة. وكان لكرماء العرب في ذلك القِدْح المُعَلَّى، فكانوا يوقدون النيران في الليل ـ فوق الهضاب والتلال ـ ليهتدي بضوئها الغرباء، ويأووا إلى مبيت وطعام. يقول أحدهم[1] لغلام له:

أوقِدْ فإنَّ الليلَ ليلٌ قُرّ والريحُ يا غلامُ ريحٌ صرّ

لعلَّ أنْ يُبصرَها المعترّ إنْ جلبتْ ضيفًا فأنتَ حرّ!

٢ ـ الشجاعة:

ومن فضائل العرب: الشجاعة، فهي قرينة الكرم وصِنوه، هو جود بالمال، وهي جود بالنفس في الدفاع عن القبيلة ومقاتلة أعدائها، وكلتاهما من أخلاق السيادة، التي يفخرون بها، ويعيِّرون من اتَّصف بضدها.

يقول السموءل:

---

(١) هو حاتم الطائي.

وما مات منّا سيّدٌ حتفَ أنفِه ولا طُلَّ[1] منّا - حيث كان - قتيلُ
تسيل على حدّ الظُّبات[2] نفوسُنا وليستْ على غير الظُّبَات تسيل

٣ - العزَّة والأَنَفة وغيرها:

ومن فضائل العرب: العزَّة والأَنَفة وإباء الضيم، يتمثل ذلك في قول شاعرهم:

لا تَسقني ماء الحياة بذِلَّةٍ بل فاسقني بالعزِّ كأسَ الحنظلِ[3]

٤ - المروءة:

ومن هذه الفضائل: **النجدة وحماية المستجير، والوفَاء بالعهد**، ونحوها من الخصال التي تدخل في معنى (المروءة)، أي الأخلاق التي بها يكون الإنسان امرأ حقًّا، وهي مفهوم جامع لكل أخلاق الرجولة والإنسانيَّة.

وكانوا يسمون المستجير جارًا، لأنه ينزل بجوار بيوتهم، ويعاملونه كواحدٍ منهم، ويؤمِّنون خوفه بالمُهَج والأرواح.

يقول شاعرهم:

ومِنْ تكرُّمِهم في المحْل أنهمو لا يعلم الجارُ فيهمْ أنّه الجارُ[4]

٥ - العفة:

ومن الفضائل التي تُمدَح بها العرب: العفَّة، سواء كانت عفَّة عن الأموال أم عن الأعراض.

يقول عنترة في العفَّة عن العرض:

أغشى فتاةَ الحي عند حليلها فإذا غزا في الجيشِ لا أغشاها
وأغضّ طرفي إن بدتْ لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها

---

(١) أي أهدر دمه، فلم يُثأر له. انظر اللسان طلل.
(٢) جمع ظُبَة، وظبة السيف وظبة السهم: طرفه. انظر الصحاح ظبو.
(٣) البيت لعنترة بن شداد.
(٤) البيت ليزيد بن حمان السكوني، والمحل: الجدب وهو انقطاع المطر ويبس الأرض من الكلأ.

ويقول في العفة عن المال:

هلَّا سألتِ الخيل يا ابنة مالكٍ ... إنْ كنتِ جاهلةً بما لم تَعْلَمِي!

يُخبرْكِ من شهد الوقيعةَ أنني ... أغشى الوغى وأعفُّ عند المغنمِ!

آفات خُلقية نشرتها الجاهليَّة

وبجوار هذه الفضائل الطيِّبة، نجد بعض الرذائل التي كان لها رواج وانتشار في المجتمع الجاهلي، مثل شرب الخمر التي أُولعوا بها، ووضعوا لها نحو مائة اسم أو أكثر في لغتهم، مثل: الراح، والصهباء، والسُّلافة، بنت العنب، بنت الكرْم، وغيرها. وكان لها باعة وحانات عندهم.

ومثلها: الميسر (القمار)، الذي قال فيه المفسِّرون: كان الرجل في الجاهليَّة يقامر على أهله وماله، فيقعد حزينًا ينظر إلى ماله في يد غيره، فكانت تورث بينهم عداوة وبغضاء.

وكذلك أكل الربا، الذي استفحل بينهم، ووصل إلى الأضعاف المضاعفة، ويبدو أنَّ اليهود هم الذين روَّجوه في أول الأمر، ثم امتدَّ لهيبُه في كلِّ مكان.

على أنَّ أشدَّ الآفات الخلقية وأعمقها في حياتهم كانت **العصبيَّة للقبيلة** بالحق أو بالباطل، والغضب لها ولأفرادها ظالمين أو مظلومين، واتِّباع ما تنهجه القبيلة من غيٍّ ورشاد. حينما قالوا: انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا! أي: انصره على كل حال ولو كان ظالمًا.

نرى ذلك واضحًا في قول المهلهل بن ربيعة:

يا لبكر انشروا لي كليبًا ... يا لبكر أين أين الفرار

ويقول شاعر آخر:

وأحيانًا على بكرٍ أخينا ... إذا ما لم نجدْ إلّا أخانا[1]

ويقول ثالث:

وهل أنا إلّا من غَزيَّة إنْ غَوَتْ ... غَوَيْتُ وإن تَرْشُدْ غَزيَّة أرشدِ[2]

(١) من شعر القطامي.

(٢) من شعر دريد بن الصمة.

وقول عمرو بن كلثوم في معلقته الشهيرة:

ملأنا البرَّ حتّى ضاق عنّا ... ونحن البحر نملؤه سفينا
ونشرب إن وردنا الماء صفوًا ... ويشرب غيرنا كدرًا وطينا
بغاةٌ ظالمين وما ظُلمنا ... ولكنّا سنبدأ ظالمينا!
إذا بلغ الرضيعُ لنا فطامًا ... تخرُّ له الجبابرُ ساجدينا!

موقف الإسلام من الأخلاق العربية:

أكرم الله العرب بالإسلام، وبعث فيهم رسولًا منهم، يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة، فحمل على رذائل الجاهليَّة، وآفاتها، وعمل جاهدًا ـ بالتوجيه والتربية والتشريع ـ على تطهير المجتمع من أوحالها، وغرس فضائل جديدة مكانها.

أما فضائلهم القديمة، فقد أقرَّهم الإسلام عليها، بعد أن هذَّبها وأصلحها، ووسَّع أُفقها، وربطها بأهدافٍ كبرى، وبواعث أخرى، غير بواعثهم الجاهليَّة، كما أدخل في حياتهم فضائل جديدة كانوا لا يلقون لها بالًا، وربما كانوا يعدُّونها رذائل.

وهذا الإجمال يحتاج إلى تفصيل لا يتَّسع له المقام هنا، وحسبنا أن نُلقي قليلًا من الضوء على النقاط الأساسية التي يتبيَّن منها قيمة الإصلاح الخلقي الذي جاء به الإسلام.

١ ـ كان الباعث على الفضائل ـ في العصر الجاهلي في غالب الأمر، إن لم نقل في كلِّ الأحوال ـ هو اتقاء الذم، وابتغاء الثناء، وحُسْن الأحدوثة والذكر، والحفاظ على الحسَب والمجد، وهذا واضح في أقوالهم وأشعارهم، يقول حاتم الطائي:

لقد كنتُ أختار القِرَى طاويَ الحَشا ... محافظةً من أنْ يُقال: لئيمُ

فلما جاء الإسلام استحدث باعثًا آخر لكل الأعمال والفضائل هو ابتغاء رضوان الله تعالى، وحُسْن مثوبته في دار الخلود.

لهذا لم يعتد بالإنفاق والجود، ولا بالشجاعة والقتال، إلّا إذا كانا في سبيل الله، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى

﴿يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

ولما سئل الرسول المُعلِّم عن الرجل يقاتل للذِّكر، والرجل يقاتل ليُرى مكانه، والرجل يقاتل للمغنم: أيُّهم في سبيل الله؟ قال: «مَن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»[١].

٢ ـ لم يكن للعربيِّ في الجاهليَّة أهداف كبرى للحياة، كان هدفه يدور حول اللذة الشخصيَّة، والسُّمْعة في القبيلة، وبعد الإسلام أصبح للعربي مثلٌ أعلى، وأهداف كبرى، القيام بخلافة الله في الأرض، وهداية الخلق إلى الحق، ودعوة البشرية إلى الخير، يتجلَّى هذا في قول ربعيٍّ بن عامر ﷺ لرستم قائد الفرس: نحن قوم ابتعثنا الله لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سَعَتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام[٢].

٣ ـ كان من نتائج الدعوة الجديدة التي آمن بها العربي: أن وسَّعت أُفُق حياته، ودائرة وجوده، فلم يَعُدْ محور حياته القبيلة، بل الأمَّة حاملة الرسالة الجديدة، ولم يعد ولاؤه لقبيلته بل لأمَّته، ولا فخره بالقبيلة بل بالدعوة، أصبح نشيده:

أبـي الإسـلام لا أبَ لـي سـواه ... إذا افـتخـروا بـقيـس أو تـميـمِ[٣]

كان التنادي قبل الإسلام بـ (يا بني فلان)، وبعد الإسلام بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾.

أصبح العربيُّ بالإسلام إنسانًا عالميًا، يؤمن برابطة العقيدة، وأُخوة الإيمان، ومساواة البشر، ووجوب العدل بين الناس جميعًا، لا يمنعه من ذلك حبٌّ لقريب، ولا بغض لعدو: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢]. ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]. ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٩].

(١) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (١٢٣)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٤)، عن أبي موسى الأشعري.
(٢) رواه الطبري في تاريخه (٢/ ٤٠١).
(٣) قول نهار بن توسعة اليشكري.

وسئل رسول الله ﷺ: ما العصبيَّة؟ فقال: «أن تعين قومك على الظلم»[1]. وقال عليه الصلاة والسلام: «مَن قاتل تحت رايةٍ عِمِّيَّة، يغضب لعَصَبة، أو يدعو إلى عصبة، أو ينصر عصبة، فقُتِل، فقِتْلة جاهلية»[2].

٤ ـ أدخل الإسلام في حياة العربي فضائل جديدة كان يجهلها أو يحتقرها، من ذلك: **العمل والاحتراف لكسب العيش**، ولو كان عن طريق الاحتطاب.

قال عليه الصلاة والسلام: «ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبيَّ الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده»[3]. كان حدادًا يصنع الدروع للمحاربين، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

ومنها: **العناية بالنظافة والتجمُّل**، فإنَّ الله نظيفٌ يُحبُّ النظافة، وجميل يحب الجمال. ولهذا جعل الطهارة من الشروط الأساسية للصلاة. والطهارة تعني: نظافة الثوب والبدن والمكان. وتعني الطهارة من الأحداث بالوضوء والغسل، والطهارة من الأخباث وهي النجاسات، وجاء في الحديث الصحيح: «الطهور شطر الإيمان»[4]. أي: نصفه.

ومن ذلك: **وجوب النظر والتفكر، وترك التقليد والتبعيَّة، واتِّباع البرهان والعلم**، لا الظنُّ والخرصُ، فإنَّ الظنَّ لا يُغْنِي من الحقِّ شيئًا، ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾ [سبأ: ٤٦]. ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام: ١٤٨].

ومن ذلك: **التعاون والنظام والطاعة في المعروف، واحترام الجماعة** ما

---

(١) رواه أحمد (١٦٩٨٩)، وقال مخرِّجوه: حديث حسن، وأبو داود في الأدب (٥١١٩)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٤٩)، عن واثلة بن الأسقع.

(٢) رواه مسلم في الإمارة (١٨٤٨)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه البخاري في البيوع (٢٠٧٢)، وابن ماجه في التجارات (٢١٣٨)، عن المقدام بن معد يكرب.

(٤) رواه مسلم في الطهارة (٢٢٣)، وأحمد (٢٢٩٠٢)، والترمذي في الدعوات (٣٥١٧)، عن أبي مالك الأشعري.

دامت على الحق، يقول القرآن: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة: ٢].

في معارك الفتح الإسلامي في عهد عمر رضي الله عنه، رأى قائد الفرس المسلمين العرب يصلون في صفوف متراصَّة منتظمة، خلف إمام واحد، يكبر فيكبرون، ويركع فيركعون، ويسجد فيسجدون. فقال في غيظ: أَكَل عمر كبدي، إذ علَّم هؤلاء مكارم الأخلاق[١]!!

وجهل هذا الفارسي أنَّ الذي علَّمهم وعلَّم عمر رضي الله عنه معهم، إنما هو الإسلام ورسول الإسلام.

٥ ـ وضع الإسلام أمام العربي نموذجًا نظريًا كاملًا لمكارم الأخلاق، يتمثل في القرآن الكريم، ونموذجًا عمليًا بشريًا لهذه المكارم، يتمثل في الرسول الكريم، الذي تجسَّدت فيه أخلاق القرآن، كما قالت زوجته عائشة رضي الله عنها: كان خلقه القرآن[٢]. وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الممتحنة: ٦].

وبهذه الأخلاق الرفيعة، التي أخذها الرسول من القرآن، واقتبسها الصحابة من الرسول، واقتبسها المسلمون الأوائل من الصحابة، إلى جوار العقيدة الصادقة المؤثرة المحولة: فتح العرب المسلمون الممالك، وسادوا الدنيا بالدين، وقادوا الخلق بالحق، وأقاموا الموازين القسط بين الناس، وكانوا ـ كما قال المنصفون من الأجانب ـ أعدَل وأرحم فاتح في التاريخ. وقامت في الأرض أعظم دولة تجمع بين الروح والمادة، وبين العلم والإيمان، وبين الرُّقي الحضاري والسمو الأخلاقي.

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٥٣٣).

(٢) سبق تخريجه ص٢٠.



الفصل الرابع

البحث الأخلاقي عند العرب بعد الإسلام

استقرَّت الأمَّة الإسلامية، ومعها الدولة الإسلامية، وأصبحت حاملة النورِ الإلهي، والمُمثِّلة لعدل السماء في الأرض، وللوسطيَّة الإسلاميَّة الإيجابيَّة بين إفراط البشر وتفريطهم، بما عندها من كلمات الله، وميراث النبوات جميعًا، يهيمنُ عليها كتابٌ لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، هو القرآن، وسُنَّة نبيٍّ ترك أمَّته على المحجَّة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، هي سنة محمد عليه الصلاة والسلام، التي جمعت سنن الرسل السابقين، واقتبست أفضل ما فيها من هديٍ وأسوة يصلح للناس كافة، بعد أن فقدت البشريَّة قبل الإسلام بقرون (كلمات الله) التي نزَّلها على رسله المُصْطفَيْن من قبل، ولكن لم يضمن الله حفظها؛ لأنها كانت لأزمنة محدودة، فحُرِّف كلمها عن مواضعه، جزئيًا وكليًّا، ولفظيًّا ومعنويًا، وهذا ما أثبتته الدراسات العلمية، التي قام بها علماء مستقلُّون من أهل الديانات الثلاث: اليهودية والنصرانية والإسلام.

وحول هذين المصدرين المعصومين: الكتاب والسنة، قامت دراسات شتَّى، تناولت العقائد والعبادات والتشريع، أو الإيمان والعمل، كما تناولت الخلق والسلوك، وغيرهما من الدراسات في المصادر والأصول، وما تجدَّد من المعارف المتنوعة، من اللغة والأدب والتاريخ والعلوم.

فالجانبُ الأخلاقيُّ يبدو متَغَلْغلًا في كلِّ فروع المعرفة الإسلامية، يؤكده القرآن الكريم، والحديث النبوي، وتمكَّن له الشروح الموجزة والموسعة، والوصايا والمواعظ والآداب العامة، وتتغنَّى به الأشعارُ، وتمتدحه القصص والأمثال والآداب، ولا يخلو من الحديث عن هذا الجانب مفسِّرٌ ولا محدِّث، ولا فقيهٌ ولا أصولي، ولا متكلِّم ولا صوفي، ولا مؤرِّخ ولا مربٍّ، ولا واعظ ولا أديب، وتحدثت بذلك الكتب والرسائل والوصايا والأشعار، من الموجزات والمطوَّلات.

وقد بدأ أئمة الإسلام منذ القرن الثاني للهجرة يؤلِّفون كتبًا مستقلة، تُعنى

بالخلق والسلوك، وذلك مثل كتاب (**الزهد**) لوكيع بن الجراح شيخ الإمام أحمد (ت١٩٧هـ)، و(**الزهد والرقائق**) للإمام عبد الله بن المبارك (ت١٨١هـ)، و(**الزهد**) للإمام أحمد بن حنبل (٢٤١هـ)، وكتاب (**الأدب المفرد**) للإمام البخاري (٢٥٦هـ) وغيرها من كتب أئمة الحديث، وإنما كان (الزهد) هو العنوان الأشهر لهذه المؤلفات؛ لأن هذا النوع من السلوك أول ما ظهر: تجلّى فيه عنصر (الزهد) في الدنيا والرغبة في الآخرة أكثر من غيره، وإن اشتملت الكتب على جوانب أخرى.

وكانت هذه الكتب تشتمل على ما ورد في الكتاب والسنَّة، وما جاء عن علماء الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ومَن بعدهم، من أقوال أخلاقيَّة، ومواقف سلوكيَّة مُثْلى، لها وزنها واعتبارها.

تأخّر البحث العلمي في دراسة الأخلاق وسببه:

أما البحث العلمي أو الفكري في مجال الأخلاق، فلم يظهر إلا في عصر متأخر نسبيًّا عن تلك البحوث، وإن بدت منه شرارات ونُتَف في هذه الكتب الأولى.

وسرُّ ذلك: أنَّ الإسلام قد وضع أمامهم الغاية، وأنار لهم الطريق، ووضع في أيديهم المقياس الذي لا يجور ولا يخطئ، وهو أوامر الشرع ونواهيه، ووصاياه وتوجيهاته، مع استعمال النظر والاجتهاد بشروطه فيما لا نصَّ فيه، واستفتاء الضمير أو القلب فيما يشتبه على الإنسان.

لهذا لم يشعروا بالحاجة إلى البحث في مصدر الإلزام، أو مقياس الحُكْم الخلقي، أو أساس الخير والشر، أو الحسن والسيئ، أو غير ذلك مما تُعنى به الفلسفة الخُلُقية. فقد حلَّ هذه العُقَد إيمانهم بالله ورسوله، واستنادهم إلى القرآن والسنة.

وعندما اختلطت الثقافة الإسلامية بغيرها من الثقافات الأجنبية، نتيجة للترجمة من اليونانية والفارسية والهندية وغيرها، ونتيجة لاحتكاك المسلمين بغيرهم من الطوائف الدينية الأخرى المقيمة معهم في كَنَف (دار الإسلام)، ظهرت اتجاهات ونزعات فكرية شتى، تختلف هذه الاتجاهات باختلاف المصدر الأجنبي الذي اقتبست منه، وبمقدار فهمها للإسلام، واستمدادها منه، وإن كان الجميع ـ بلا ريب ـ قد تأثروا تأثرًا واضحًا بالثقافة الإسلامية.

يمثّل هذه الاتجاهات الجديدة: أربعة اتجاهات أخلاقية: الاتجاه الفلسفي، والاتجاه السنِّي الصوفي، والاتجاه القرآني السنِّي السلفي، وبعض الاتجاهات الإسلامية الأخرى.

١ ـ الاتجاه الفلسفي في الأخلاق

يتجلى هذا الاتجاه عند المفكرين الكبار الذين اشتغلوا بالفلسفة، وخصوصًا فلسفة المشَّائيين أتباع أرسطو، بشعبها المختلفة من رياضية وكونيَّة وميتافيزيقيَّة وغيرها، وعرفوا بـ (فلاسفة الإسلام). أو بتعبير آخر: (المدرسة المشَّائيَّة الإسلامية)، وإن اختلطت بالفلسفة الأفلاطونية الحديثة، التي ضمتها إلى فلسفة أرسطو.

وقد غلبت على بحوثهم ـ بصفة عامة ـ نزعة التوفيق بين ما أعجبوا به من فلسفة لكبار رجال اليونان، أمثال: سقراط وأفلاطون، وخصوصًا: أرسطو وأفلوطين، وما آمنوا به من صدق دين الإسلام.

ولكن كانت مشكلتهم الأولى: أنهم يعتبرون الفلسفة وما جاءت به هي الأصل، وأن الإسلام بمنزلة الفرع، فإذا وافق الفرع الأصل، فبها ونعمت، وإذا خالف الفرع الأصل، حاولوا أن يؤولوا الفرع (الإسلام)، وإن كان في حقيقته لا يقبل التأويل.

وكان فيما درسه هؤلاء في محيط الفلسفة، آراء فلاسفة اليونان في الأخلاق، مما حفزهم على أن يبحثوا هم فيها أيضًا، وَفْقًا لتفكيرهم ومنهجهم الخاص، ومعظمهم جاء بحثهم في الأخلاق تبعًا، في أثناء عرضهم لمذهبهم الفلسفي العام.

وأشهر أعلام المدرسة المشائية الإسلامية، هم:

١ ـ **أبو نصر الفارابي** (ت٣٣٩هـ): الملقَّب بـ (المعلِّم الثاني) ـ إذ اعتبروا (أرسطو) هو (المعلِّم الأول) ـ ومؤلف كتاب (**المدينة الفاضلة**) وغيره من الكتب والرسائل الفلسفية. تأثَّر بأرسطو كما تأثر بسقراط، وهو من أنصار

مذهب السعادة، باعتبارها غاية للفلسفة الأخلاقيَّة، وليست المنفعة ولا اللذة ولا القوة، ولا غيرها مما يتطلَّع إليه الناس من متع الدنيا وزينتها.

فالسعادة هي الخير الذي يُطلب لذاته، وليست وسيلة لشيء آخر، وليس وراءها شيء يمكن أن يناله الإنسان أعظم منها، والسعادة عنده: أن تتحرَّر النفس من قيود المادة وأغلالها، فتصير (عقلًا كاملًا). وسبيلها إلى ذلك: المعرفة الفلسفية، والتخلُّق بالأخلاق الحسنة.

٢ - **أبو علي بن سينا** (ت٤٢٨هـ): المعروف بـ (الشيخ الرئيس)، وأشهر الفلاسفة والأطباء الإسلاميين، مؤلف **(الإشارات والتنبيهات)**، و**(النجاة)**، و**(القانون)** وغيرها من الكتب والوسائل الفلسفية والطبية، وهي التي اشتهرت بين رجال الفلسفة وطلابها في العالم الإسلامي، وهي التي دار حولها الجدل بين الموافقين والمعارضين، وهو أشهر من كل مَن جاؤوا بعده.

وآراؤه في (الأخلاق) لا تخرج عن آراء أستاذه الفارابي في السعادة والفضيلة.

٣ - **ابن مسكويه**: أبو علي أحمد بن محمد، المولود في (٣٢٠هـ)، والمتوفى سنة (٤٢١هـ)، وهو أشهر الفلاسفة الإسلاميين، الذين عُنوا بدراسة الأخلاق عناية خاصَّة، وكتب فيها كتبًا مستقلة، وعلى رأسها كتابه المشهور: **(تهذيب الأخلاق)**، وهو دراسة علمية عميقة للأخلاق، حاول أن يوفِّق فيها بين تعاليم أفلاطون وأرسطو وجالينوس من ناحية، وبينها وبين الشريعة الإسلامية من ناحية أخرى، وإن أخفق في هذه المحاولة في أكثر الأحيان، ولكنه بعث في كلِّ ما اقتبسه روحًا إسلامية لا تخفى.

ومذهبه في السعادة والفضيلة لا يخرج كثيرًا عن مذهب الفارابي وابن سينا، و(العقليين) من اليونانيين عمومًا، فهو يحتقر اللذات الجسمية، ويحمل على العامَّة وجهَّال الناس، الذين لا يؤدُّون الواجب إلا طلبًا للنعيم الحسِّيِّ في الجنة! مع أن هؤلاء لا شك أفضل بكثير من الذين لا يؤدون الواجب، إلا طلبا للَّذة العاجلة في الدنيا من شهوة البطن أو الفرج، أو ما يغذيهما من حب المال والجاه.

ويرى (مسكويه) أنَّ السعادة التامَّة لا تنالها النفس كاملة إلا متى فارقت البدن، وصار لها وجودٌ أشرف من الوجود الإنساني في هذه الحياة، وحينئذ

تعلم يقينًا أن ما كان يعدُّ سعادة في الدنيا أمور تافهة لا قيمة لها، ولم يكن يصح الالتفات إليها، ولا الوقوف عندها.

ومع أن (ابن مسكويه) يرى السعادة في الحكمة والتَّأمُّل، واحتقار اللذائذ الحسيَّة، فهو يرفض (الرهبانيَّة) والعزلة، وحياة التَّزهُّد التام؛ لأن الإنسان عنده اجتماعي بالفطرة.

وهذا بلا ريب من تأثره بتعاليم الإسلام الوسطيَّة المتوازنة، فالقرآن يعلمنا الدعاء الصالح: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البقرة: ٢٠١].

ولهذا كانت المحبة بين الناس هي قِوَام الفضائل الاجتماعية، وأساس الواجبات.

ومن هنا أوجبت الشريعة على الناس أن يجتمعوا في مساجدهم كل يوم خمسَ مرات، وفضَّلت صلاة الجماعة على صلاة الآحاد، ليحصل لهم التقاربُ والأنس الطبيعي الذي هو مبدأ المحبة، وشرعتْ العيد لأهل البلد مرتين في السنة: عيد الفطر، وعيد الأضحى، ثم أوجبتْ بعد ذلك أن يجتمعوا من البلدان في العمر كله مرة واحدة في الموضع المقدس بمكة من أجل الحج.

ويؤكد في كتابه: **(النور الأصغر)** أنَّ من ينزع إلى التَّزهُّد التام يجور على غيره من أعضاء المجتمع، وينتفع به في ضرورات حياته، من غير أن يؤدي شيئًا من العوض له، ويقول: «من العدل ـ إذن ـ أن نعين الناس بأنفسنا، كما أعانونا بأنفسهم، ونبذل لهم عِوَض ما بذلوا لنا».

ولهذا كان التضامن والتعاون بين الناس ضرورة لتحصيل السعادة الإنسانيَّة، وكان كل امرئ محتاجًا إلى مساندة الآخرين؛ لأنهم يكملون ذاته، ويُتمِّمون إنسانيته.

نظرة تقويميَّة في المباحث الأخلاقيَّة الفلسفية:

والناظر في البحوث الأخلاقيَّة لمفكِّري العرب ـ من ذكرناهم ومن لم نذكرهم ـ من الفلاسفة وأمثالهم ممن لم يتخذ الإسلام أساسًا لفكرته. يجد بينهم ملامح عامة تسود تفكيرهم جميعًا.

أ ـ فهم يعتبرون السعادة الغاية القصوى، ويشيدون بالحكمة والتأمل

العقلي كأعظم وسيلة للسعادة، محقِّرين الجوانب المادية والبدنية.

ب ـ وهم متَّفقون على اعتبار الرذائل أمراضًا نفسيَّة تتطلَّب العلاج، ولذا كان من وظيفة علم الأخلاق علاج هذه الأمراض، وحفظ الصحة النفسية، وغايته تحقيق السعادة، فهو فرع من الحكمة العملية.

ج ـ وكذلك لا يختلفون في عدم ضرورة إقامة المبادئ الخُلُقية على أساسٍ من الإيمان بالله، على نحو يغاير ما وَرَدَ في الأخلاق قديمًا، فليس لله مكان فيها. أما مفكرو العرب المسلمين، فقد بيَّنوا أن الأخلاق لا تستقيم قط بغير الإيمان بالله وصفاته الحسنى، والاعتقاد في خلود الروح، وعقبى الدار. وهي مسلَّمات (العقل العملي) في فلسفة (كانت) كما قرَّرها العارفون بها.

بل ذهبوا إلى أنَّ كمال الأخلاق إنما يكون بالتخلُّق بأخلاق الله؛ لأنَّ الذات الإلهيَّة تجتمع فيها كل الكمالات العليا، والله تعالى يجمع بين الرحمة والمحبة من ناحية، والقوة والجبروت من ناحية أخرى، في تعادل وتوازن.

ومن هنا كان من أسمائه الحسنى، جلَّ شأنه: القوي العزيز الجبَّار، وكذلك الرحمن الرحيم الودود الغفار. والقرآن يؤكد هذه المعاني، فيقول: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾ [المائدة: ٩٨]. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾ [الرعد: ٦]. ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾ [غافر: ٣]. ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ [الحديد: ٢٠].

ولما كان الله تبارك وتعالى يُعطي ويُنعم، ولا ينتظر مقابلًا، والمعطي أكرم من الآخِذ والمحتاج، بدا المَثَل الأعلى عند مفكري الأخلاق من المسلمين قائمًا في البذل والعطاء، والإحسان والصلة، التي لا يطلب صاحبُها من ورائها جزاءً ولا شكورًا، وهذا موافق للحديث النبوي: «اليد العليا خير من اليد السفلى»[١].

د ـ وهم مُجمعون على احترام أحكام الشريعة، ووجوب التأدُّب بآدابها، لما اجتمع فيها من محاسن الفضائل ومكارم الأخلاق.

يقول الفارابي: «إنه ينبغي لمن أراد الشروع في الحكمة، أن يكون شابًّا

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٢٧)، ومسلم (١٠٣٥)، كلاهما في الزكاة، عن حكيم بن حزام.

صحيح المزاج، قد تعلم القرآن واللغة وعلوم الشرع، ويكون غير مُخِلٍّ بأدب من آداب السُّنة والشريعة، وألا يتَّخذ علمه آلةً لكسب الأموال، ومَن كان بخلاف ذلك فهو حكيم زُور»!

و(ابن مسكويه) يذكر الشريعة بالثناء والتوقير، في عشرات المواضع من كتابه، مثل الذي ذكرناه عنه في حكمة تشريع صلاة الجماعة والجمعة والعيدين والحج، ومثل قوله: «فالمتمسِّك بالشريعة يعمل بطبيعة المساواة، فيكتسب الخير والسعادة من وجه العدالة؛ لأنَّ الشريعة تأمر بالأشياء المحمودة، لأنها من عند الله عزَّ وجل، ولا تأمر إلا بالخير[1]....

❁ ❁ ❁

(١) تهذيب الأخلاق، ص١٢٨.

٢ ـ الاتِّجاه الصوفي في الأخلاق

كان المسلمون في عصر الصحابة ومن تَتَلمذ على أيديهم، يتعلمون ويعلِّمون الإسلام كله، في شموله وتكامله وتوازنه وإيجابيته وعمقه، ولم يكونوا يبرزون جانبًا على حساب جانب آخر، ولم يغفلوا ظاهرًا لباطن، ولا باطنًا لظاهر، بل اهتموا بالعقل والروح والجسم جميعًا، وعُنوا بالفرد والأسرة والمجتمع معًا، ورَعَوا مصالح الدنيا والآخرة جنبًا إلى جنب.

فلما تعقَّدت الحياة وتطورت، لعوامل كثيرة داخلية وخارجية، وُجِد في المجتمع الإسلامي من قصر همَّه على الجانب العقلي في الإسلام كالمتكلمين، ومن جعل أكبر همِّه الجانب العملي الظاهري كالمشتغلين بالفقه، وبجوار هؤلاء وأولئك من شغله متاع الحياة، وغرق في ترف المعيشة المادي، كالأمراء والأغنياء ومَن سار في ركابهم من طلاب الدنيا، ومَن عاش في رغدهم وترفهم من الأدباء والشعراء وأمثالهم.

في هذا الوقت ظهر المتصوفة؛ ليعنوا بجانب هام أيضًا هو الجانب الروحي والنفسي في الحياة الإسلامية، ويملؤوا الفراغ الذي لم يسده أهل الفقه ولا أهل الكلام، وإن كان أكثرهم من أئمة التقوى، وليستنقذوا جمهور الناس من الغرق في متاع الدنيا وزخرفها.

كان علماء السلف يأخذون دين الله كله ـ كما قلنا ـ بمراتبه كلها من الإسلام والإيمان والإحسان، التي جاءت في حديث جبريل المشهور، ثم صار أهل الفقه أخص بمعرفة الإسلام وأحكامه الظاهرة، وأهل الكلام أخص بالإيمان وما حوله من بحوث عقلية، وجاء أهل التصوف ليقولوا عمليًا: نحن أخص بمرتبة الإحسان، وما حولها من بحوث روحية وصوفية.

كان التصوف من أول أمره، ينزع إلى تحقيق غاية عملية، هي النجاة

بالنفس من سخط الله تعالى وعذاب الآخرة، عن طريق الزهد، والتقشف ومجاهدة النفس، وأخذها بأدب الشرع، وتقوى الله.

ثم ظهر إلى جانب الزهد في الدنيا، الذي تجلى بوضوح في سير كثير من صحابة رسول الله، مثل عمر وعلي وأبي الدرداء وأبي ذر وسلمان وغيرهم، ظهر من العلماء والمربين من جسد شدة الخشية من الله تعالى، والخوف من عذاب الآخرة، ظهر ذلك في سيرة الحسن البصري (ت١١٠هـ) وأمثاله في المدن الإسلامية، مثل: الفُضَيل بن عياض (ت١٨٧هـ)، ومالك بن دينار (ت١٣١هـ)، وإبراهيم بن أدهم (ت١٦١هـ)، وغيرهم من الرجال الكبار.

ثم برز ـ إلى جانب الخوف والخشية ـ عنصر جديد، هو (الحب الإلهي)، ظهر ذلك في شعر رابعة العدوية (ت١٨٥هـ)، وفي أقوال أبي سليمان الداراني (ت٢١٥هـ)، وذي النون المصري (ت٢٤٥هـ)، وأبي يزيد البسطامي (ت٢٦١هـ) وغيرهم ممن صرَّح بعضهم بأنهم لا يطيعون الله ولا يؤدُّون الواجبات خوفًا من عذاب النار، ولا رغبة في نعيم الجنة، ولكن حبًّا لله، وطلبًا لقربه.

واشتهر في هذا قول رابعة:

كلهم يعبدون من خوفِ نارٍ ... ويرون النجاة حظًّا جزيلَا
أو بأن يدخلوا الجنان، فيحظَوْا ... بنعيم، ويشربوا سلسبيلَا
ليس لي في الجنان والنار حظٌّ ... أنا لا أبتغي بحبي بديلَا

وفي هذه المرحلة المهمة ظهر الصوفي المربِّي الكبير أبو القاسم الجنيد بن محمد الخزَّاز (ت٢٩٧هـ)، ليعلن تمسُّكه بالأصول الإسلامية من القرآن والسنة، ويقول في صراحة: طريقنا مضبوط بالكتاب والسنة، من لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث، ولم يتفقه: لا يُقتدَى به[1].

وظلَّ التصوف قرونًا يسير وراء الجنيد وجماعته من متصوفي أهل السنة، البعيدين عن البدع الكبرى، ثم بدأ يفقد رونقه وصفاءه شيئًا فشيئًا، حتى دخلت عليه الفلسفة، وغلبت عليه، وغرق في بحرها اللجيِّ.

---

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى (٢/ ٢٧٣) بتحقيق الطناحي، وعبد الفتاح الحلو، ط. هجر، ط. الثانية ١٤١٣هـ.

فقد تحول التصوف بعد ذلك من طريقة تُعنى بالتربية الخُلقية والروحية إلى فلسفة تتعلق بالمعرفة والوجود، وتشتمل على مفاهيم غريبة عن الإسلام، وانحرافات عن تعاليمه الأصيلة، لعل أبرزها هو القول بالحلول الذي اشتهر به الحلاج (ت٣٠٩هـ)، الذي يقول: ما في الجبة غير الله! و(وحدة الوجود) التي ظهرت في مؤلفات محيي الدين بن عربي (ت٦٣٨هـ) وغيره ممن زعموا أن لا موجود إلا الله، ولا ثنائية في الوجود، فليس ثمَّة خالق ومخلوق، ورب ومربوب!

الإمام الغزالي

على أن أشهر من عُني بالأخلاق من الصوفيَّة هو الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي (ت٥٠٥هـ)، والملقب بحجَّة الإسلام، ومجدد القرن الخامس عشر الهجري، الذي قال فيه السيوطي في رجزيته:

والخامس الحبر هو الغزالِي   وعدُّه ما فيه من جدالِ

كان رَحِمَهُ اللَّهُ يمثِّل دائرة معارف عصره، ألَّف في فقه الشافعية: (**البسيط**)، و(**الوسيط**)، و(**الوجيز**)، و(**الخلاصة**)، كما ألَّف في (أصول الفقه)، وفي (علم الكلام) على مذهب الأشاعرة، ودرس الفلسفة، فاستوعبها وهضمها، كما يظهر ذلك في كتابه: (**مقاصد الفلاسفة**) ثم كرَّ عليها ناقدًا مفنّدًا، فأتى عليها من القواعد، كما تجلَّى ذلك في كتابه: (**تهافت الفلاسفة**)، الذي أظهر فيه تناقضَهم ومعارضةَ أفكارهم للعقل والدين معًا، وخطَّأ الفلاسفة في سبعة عشر أصلًا جلَّاها في كتابه، وكفَّرهم في ثلاثة أصول: إنكارهم خلق الله للعالم، وقولهم: إن الله لا يعلم الجزئيات، وجحودهم للبعث الجسماني الذي يتمثل في الجنة والنار.

واطَّلع على مذهب (الباطنية) ـ الذين هم أصلًا من غلاة الشيعة ـ وناقش دعاويهم، فنقضها وأظهر فضائحهم، وقال: ظاهرهم الرفض، وباطنهم الكفر المحض!

غلبة الاتِّجاه الصوفي على الإمام الغزالي:

وانتهى به المطاف إلى (الصوفية)، فلم يرَ طريقة أفضل من طريقهم، ولا هديًا أكمل من هديهم، ولا أخلاقًا أزكى من أخلاقهم، فسلك سبيلهم، وقضى

بقية عمره في نُصرتهم بالكتابة والتأليف، وكتب في ذلك جملة من الكتب، أهمها وأشهرها: موسوعته الإسلامية، وهي كتاب **(إحياء علوم الدين)** الذي اشتمل على أربعين كتابًا، مقسمة إلى أرباع أربعة: في العبادات والعادات والمهلكات والمنجيات.

وللأخلاق في **(الإحياء)** مكان فسيح، فقد خصَّص الربع الثالث منه للأخلاق الرديئة، وهي التي سمَّاها (المهلكات)، اقتباسًا من حديث: «ثلاث مهلكات: شحٌّ مُطاع، وهوًى متبع، وإعجاب المرء بنفسه»[1]. لأنها سبب هلاك الإنسان في الدارين عامة، وفي الآخرة خاصة؛ مثل حب الدنيا، وحب المال والجاه، والغضب والحسد، والكِبْر والغرور، والرياء والعُجب، وآفات اللسان، من الكذب والنميمة، والخوض في الباطل وغيرها.

أما الربع الأخير من **(الإحياء)**، فقد خصَّصه للأخلاق الطيبة، وهي التي سمَّاها (المنجيات)؛ لأنها سبب النجاة في الآخرة خاصَّة، وفي الدارين عامة. مثل: التوبة، والصبر، والشكر، والفقر، والزهد، والخوف، والرجاء، والتوحيد، والتوكل، والمحبة والشوق إلى الله، والتفكر والتذكر، والنية والإخلاص.

هذا إلى جانب بحوث متفرقة في سائر أجزاء الكتاب، وفي كتبه الأخرى، تتصل بالناحية الخلقية.

المؤثرات الإسلاميَّة في أخلاقية الغزالي:

وفي كتابات الغزالي الأخلاقيَّة يتضح أنه تأثَّر بمؤثِّرات ثلاثة:

١ ـ الرسالة الإسلامية بعقائدها وعباداتها وأخلاقها ومعاملاتها، ممثلة في التفسير والحديث والفقه، وخصوصًا على مذهب الشافعي، والكلام، وخصوصًا على مذهب الأشعرية، ولكنه ـ كما قال عن نفسه ـ كانت بضاعته مزجاة في علم الحديث[2]، ولهذا أدخل في كتبه كثيرًا من الأحاديث المنكرة والواهية والموضوعة، وما لا أصل له، كما بيَّن ذلك أحد أئمة الحديث في القرن

---

(١) رواه البزار (٧٢٩٣)، والطبراني في الأوسط (٥٤٥٢)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٣٠٣٩)، عن أنس بن مالك.

(٢) قانون التأويل للغزالي ص٣٠، تحقيق محمود بيجو.

الثامن، وهو الحافظ العراقي (ت٨٠٤هـ)، الذي ألف كتابًا خرَّج فيه أحاديث الإحياء، وبيَّن فيه ما يصحُّ، وما لا يصحّ، وما له أصل، وما ليس له أصل.

٢ ـ التَّصوف وما أُلِّف فيه من كتب، وبخاصة كتب الحارث المحاسبي، وكتاب **(قوت القلوب)** لأبي طالب المكي، ورسالة القشيري، وغيرها.

٣ ـ الفلسفة اليونانية التي قرأها بواسطة الفارابي وابن سينا وابن مسكويه وغيرهم.

ملامح المذهب الأخلاقي للغزالي:

ونستطيع أن نتبيَّن ملامح مذهبه الأخلاقي في هذه النقاط:

١ ـ قال بأهمية العقل بجوار ضرورة الشرع، فهو لا يؤمن بمقولة النصارى: (اعتقد وأنت أعمى)، بل العقل عنده أساس النقل.

٢ ـ نادى بوجوب العلم والتفقُّه، ووجوب العمل والمجاهدة معًا.

ولهذا بدأ **(الإحياء)** بكتاب العلم، ولم يقل بأن العلم حجاب عن الله، كما قال غلاة الصوفية. ولكنه جعل للمجاهدة والرياضة المقام الأول، فهي تصفِّي مرآة النفس، وترفع عنها حجاب الحسِّ، فيكون الفيض.

٣ ـ لم يقل باستئصال الشهوات، كما قال الرواقيون وأمثالهم، بل دعا إلى الزهد فيها، والتقليل منها إلى حدٍّ لا يخلو من الغلو أيضًا. كما وجَّه همَّه إلى عمارة الآخرة، والتحذير من الاشتغال بالدنيا.

٤ ـ الغاية هي السعادة، والسعادة الحقيقية هي سعادة الآخرة، التي لا انقضاء لها، ولا شيء يقاربها، ففيها النظر إلى وجه الله تعالى، والفوز برضوانه، فهي الخير الذي يُطلب لذاته، لا لغاية وراءه.

وبهذا يتبيَّن أنَّ الغزالي يُعَدُّ من أوسط الصوفيَّة منهجًا، وأقربهم إلى الاعتدال: إذا قورن بغيره من الغلاة.

ومع هذا لم يخلُ مذهبه من غلو أو تقصير بَعُدَ به عن الأخلاق الإسلامية الخالصة، التي وضَّحنا خصائصها من قبل، ولهذا حمل عليه بعض الفقهاء المحافظين، مثل العلامة الحنبلي أبي الفرج بن الجوزي، كما في كتابه **(تلبيس إبليس)**، ولعلَّ السرَّ في هذا الغلو يرجع إلى أمرين:

١ ـ تبنِّيه المطلق لطريقة الصوفيَّة، مع ما فيها من غلو أحيانًا، وقد رفض كثيرًا من الانحرافات، وصحَّح كثيرًا من الأوهام، ولكنه لم يسلم من الغلو الكامن في طبيعة التصوُّف، باعتباره اتجاهًا ينزع إلى الروحانيَّة لا إلى الشمول والتوازن.

٢ ـ قلة بضاعته في علم الحديث والآثار، مما أدى إلى بنائه أحكامًا على أحاديث لا قيمة لها في ميزان النقد العلمي؛ ولهذا امتلأت كتبه بأحاديث مردودة عند العارفين بها، مهما حاول مَن حاول أن يجد لها أصلًا.

ومهما يكن السبب، فقد أثَّرت كتب الغزالي ـ وبخاصة (إحياؤه) ـ في تفكير الكثير من المسلمين وسلوكهم، خاصَّتهم وعامَّتهم، لما فيها من روح دينيَّة مخلصة، ومنطق عقلي قوي، وأسلوب أدبي مؤثر.

ولم يعرف كتاب أثَّر في الفكر الإسلامي بعده، مثل كتاب **(الإحياء)**، ولا يزال تأثير الغزالي رحمه الله تعالى إلى عصرنا هذا.

نقد الإمام ابن الجوزي لأبي حامد الغزالي:

وممَّن انتقد الطريق الصوفيَّ ورجالَه بوضوح، وانتقد أشهرَ وأعظم مَن يُمثِّله في تلك المرحلة، وهو الإمام الغزاليّ، على منهجه الأخلاقيِّ الصوفيِّ: الحافظُ الموسوعيُّ النقَّاد المؤرِّخ الفقيه أبو الفرج ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ)، وذلك في مواضع عدَّة من كتابه النقديّ القيّم **(تلبيس إبليس)**[(١)]، كما عَرَض لشيء من ذلك في ترجمته للغزاليِّ في كتابه **(المنتظم)**[(٢)]. وقد ذكرتُ ذلك في عدد من كُتبي، خصوصًا: كتابي عن **(الغزالي بين مادحيه وناقديه)**، وكتابي عن **(الورع والزهد)**، وقد ذكرت كلامه في أولهما خاصة.

وقد ذكر ابنُ الجوزي أنه ألف كتابًا خاصًّا جمع فيه مآخذه على **(الإحياء)** سمَّاه: **(إعلام الأحياء، بأغلاط الإحياء)**، لم يتحْ لي الاطِّلاع عليه، وأحسبه لم يُطْبع.

---

(١) انظر على سبيل المثال الصفحات: ١٤٩، ١٥٨، ١٩٠، ٣٠٠، ٣١١، ٣١٢، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة: الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

(٢) (١٧/ ١٢٤ ـ ١٢٧)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م، تحقيق: عبد القادر عطا.

ما أخذه ابن الجوزي على الإمام الغزالي:

وقد وجدنا أن ما أخذه على الغزالي أمران:

الأول: أنه وضعه على مذهب الصوفية، وترك فيه قانون الفقه[1]، وعلَّل ذلك بأنه صحب الصوفية، فرأى حالتَهم الغايةَ، ونظر في كتبهم، وكلام القدماء منهم، فاجتذبه ذلك بمرة عمَّا يوجبه الفقه[2].

ومن قرأ (**التلبيس**) وجد فيه شيئًا كثيرًا من ذلك، وهو يَعْجَب: كيف يصدُر ذلك من فقيه مثله؟! أو كما يقول: عزيز عليَّ أن يصدر ذلك من فقيه[3]!!

وأحيانًا يذكر ما ينقله الغزالي عن الحارث المحاسبيِّ، ويعجب منهما على علمهما: كيف يقولان ذلك؟!

ثم يقول: والحارثُ أعْذرُ عندي من أبي حامد؛ لأنه كان أفقه[4].

وذكر مرة ما حكاه أبو حامد من أحوال الصوفية، ومبالغاتهم في الزهد والسلوك، وهضْم النفسِ، وتربية المريدين، إلى حدِّ معاقبة النفس بالوقوف على الرأس طوال الليل، أو رمي المال في البحر، بدَلَ التصدُّقِ به خشيةَ الرياء، ثم قال: «وإني لأتعجّب من أبي حامد: كيف يأمر بهذه الأشياء التي تخالف الشريعة؟! وكيف يُحِلُّ القيام على الرأس طوال الليل؟! وكيف يحل رمْيَ المال في البحر وقد نهى رسول الله ﷺ عن إضاعة المال؟!». إلى أن قال: «فما أرخص ما باع أبو حامد الغزالي الفقهَ بالتصوفِ!!»[5].

والمأخذ الثاني: أنه ذكر في (**الإحياء**) من الأحاديث ما هو موضوع وما لا يصح غيرَ قليل، قال: وسبب ذلك: قلة معرفته بالنقل، فليته عرض تلك

---

(١) قال في (تلبيس إبليس) ص١٤٩: وجاء أبُو حامد الغزالي فصنف لهم كتاب الإحياء عَلَى طريقة القوم، وملأه بالأحاديث الباطلة وَهُوَ لا يعلم بطلانها، وتكلم فِي علم المكاشفة وخرج عَنْ قانون الفقه.

(٢) المصدر السابق (١٧/ ١٢٥).

(٣) قال في (تلبيس إبليس) ص١٩٠: ولقد عجبت لأبي حامد الغزالي الفقيه كيف نزل مَعَ القوم من رتبة الفقه إِلَى مذاهبهم. وقال أيضًا ص١٩٥: واعجبا كيف يصدر هَذَا الكلام من فقيه!! وقال أيضًا ص٢٥٦: والعجب كيف تصدر من فقيه عالم!! وقال أيضًا ص٣١١: أعجب من جميع هؤلاء عندي أبُو حامد كيف حكى هذه الأشياء ولم ينكرها؟ وكيف ينكرها وقد أتى بها في معرض التعليم؟!!

(٤) انظر: تلبيس إبليس ص١٥٨.

(٥) المصدر السابق ص٣١٢.

الأحاديث على مَن يعرف، وإنما نَقَل نقْل حاطب ليل[1].

والعجيب أنَّ ابن الجوزي نفسه لم يسلم ممَّا عاب به الغزالي، فحشا كُتبه الوعظية بما لا يصحُّ ولا يثبت، مثل كتاب **(ذم الهوى)**، وغلبتْ فيه طبيعة الواعظ، على طبيعة الناقد الحافظ، صاحب كتب **(الموضوعات)**، و**(العلل المتناهية)**، وغيرها!

ومن قبلُ لاحظ ذلك العلامة المؤرخ (ابن الأثير)، وسجَّله على ابن الجوزي، والمعصوم من عصمه الله.

شيخ الإسلام ابن تيمية ومآخذه على الغزالي:

ومن الذين انتقدوا الغزالي بشدَّة من المتقدمين: شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (ت٧٢٨هـ)، الذي تميَّز عن الغزالي بتبحُّره في علم الحديث وفقهه روايةً ودراية، وبرع في علم المعقولات والعقائد ومقارنة الأديان، حتى أصبح فيها إمام أهل زمانه، فجمع بين المنقول والمعقول، وبين آثار السلف وعلوم الخلف. وصل في الفقه وأصوله إلى درجة الاجتهاد المطلق، مع يقين لا يتزعزع بوجوب (الاتباع) الصارم لما كان عليه الصحابة ومَن تبعهم من خير القرون. وله في مجموع رسائله وفتاويه التي بلغت ٣٥ مجلدًا: مجلدان، أحدهما: حول (التصوف). والآخر: حول (السلوك). وكان له من التذوق الروحي، والتعبُّد العملي، ما فاق به الكثيرين من المُغْرقين في التصوُّف، وكان يقول لخصومه: إن سَجَنْتُمُونِي فسجني خَلْوة، وإن نفَيْتُمُونِي فنفْيِي هجرة، وإن قتلتموني فقتلي شهادة!

تعقَّب ابنُ تيمية أبا حامد الغزالي مُعلِّقًا على بعض ما ذكره في بعض كتبه، مثل: **(معيار العلم)** و**(فيصل التفرقة)** و**(جواهر القرآن)**، من أقوال وتأويلات رآها مخالفةً لمنهج السلف، وأنها من جنس كلام الفلاسفة والقرامطة، الذين طالما أنكر عليهم، وممَّا قاله: «وصاحب (الجواهر)، لكثرة نظره في كلامهم، واستمداده منهم؛ مزَجَ في كلامه كثيرًا مما قد يوافقهم عليه في موضع آخر!»[2].

---

(١) المنتظم لابن الجوزي (١٧/ ١٢٦).

(٢) بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية ص٢٧٩، مكتبة العلوم والحكم، السعودية، الطبعة: الثالثة، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، تحقيق: موسى الدويش.

وهو يحذر من الاغترار بكلام الغزالي هنا خاصة، لِمَا له من الحُرمة والمنزلة عند المسلمين.

وفي (**الفتاوى الكبرى**) يتحدَّث عن (**الإحياء**)، وأنَّ «فيه فوائدَ كثيرة، ولكنَّ فيه موادَّ فاسدة من كلام الفلاسفة تتعلَّق بالتوحيد والنبوة والمعاد، والخطر في خلطها بمعارف الصوفية، فتكون بمنزلة من أخذ عدوًّا للمسلمين فألبسه ثيابَ المسلمين!

وقد أنكر أئمة المسلمين على أبي حامد هذا في كُتبه، وقالوا: أمْرَضَه (الشفاء)! يعْنُون كتابَ (**الشفاء**) لابن سينا في الفلسفة.

وفيه أحاديث وآثار ضعيفة، بل موضوعة كثيرة، وفيه أشياء من أغاليط الصوفية وترَّهاتهم».

فهو ينكر على أبي حامد ما أخذه من المدرسة المشائية الفلسفية (ابن سينا ومن معه) من نظريات وأفكار فلسفية، كما ينكر عليه ما أخذه من أحاديث مكذوبة، ومن أغاليط صوفية، لعدم درايته بالحديث وأسانيده وكتبه.

ويعترف ابن تيمية مُنصفًا بأن في (**الإحياء**) مع ذلك «من كلام المشايخ الصوفية العارفين المستقيمين في أعمال القلوب، الموافقَ للكتاب والسنة، ومن غير ذلك من العبادات والآداب ـ مما هو موافق للكتاب والسنة ـ ما هو أكثر مما يُردُّ منه؛ فلهذا اختلف فيه اجتهاد الناس، وتنازعوا فيه»[(١)].

كما ردَّ عليه في (**الفتاوى**) في قوله: إنَّ تعلُّم المنطق فرضُ كفاية. واعتبر هذا غلطًا عظيمًا عقلًا وشرعًا، وذكر أن بعض المنطق حق، وبعضه باطل، وأن أكثر ما فيه من حق لا يُحتاج إليه، والقدر الذي يُحتاج إليه منه تستقلُّ به الفِطر السليمة، وأكد أنه علم لا ينتفع به البليد، ولا يحتاج إليه الذكيُّ[(٢)]. وفصَّل ذلك في (ردِّه على المنطقيِّين). وهذا نقد من ابن تيمية للغزالي في منهجه العقلي.

وفي كتابه (**نقد المنطق**) نراه يحاسب الغزالي على أساس توثيق الكتب المشكوك في نسبتها إليه مثل: (**المضنون**) و(**المشكاة**) و(**المعارج**).. ونحوها،

---

(١) الفتاوى الكبرى (٢/ ١٩٤).

(٢) المصدر السابق (٢/ ١٩٥).

لتشابه كلامه فيها مع الكتب الأخرى الثابتة النسبة إليه. وهذا وحده لا يكفي لإثبات نسبة هذه الكتب إلى الغزالي عند الإنصاف، وقد أثبت عدد من العلماء الكبار[1] أن هذه الكتب ـ كلها أو بعضها ـ لا تصحُّ نسبتها إلى الغزالي.

تعقيب وتقويم:

لا نزاع في أن هؤلاء الذين نقدوا الإمام الغزالي أئمة كبار أيضًا، ولا ريب أنهم فيما أخذوه على الغزالي لم يكونوا أصحاب هوًى ولا غرضٍ دنيويٍّ، ولكن كثيرًا من مآخذهم على أبي حامد، راجع إلى اختلاف المشارب والأمزجة والثقافات، كما أشار إلى ذلك الإمام تقي الدين السبكي، وابنه تاج الدين السبكي.

وممَّا ينبغي أن نسجِّله هنا: أن الذين انتقدوا الغزالي لم يغمطوا حقَّه فيما أحسن فيه، بل كلهم أشاد بعلمه ونبوغه وفضله.

فالطرطوشي يقول عنه: رأيتُ الرجل وكلَّمتُه، فرأيت رجلًا من أهل العلم، قد نهضتْ به فضائله، واجتمع فيه العقل والفهم، وممارسة العلوم طول زمانه[2].

وابن الجوزي يقول: صنَّف الكُتب الحِسان، في الأصول والفروع، التي انفرد بحسن وضعها وترتيبها، وتحقيق الكلام فيها[3].

ومع انتقاده لكتاب **(الإحياء)** نراه عَمِل على اختصاره وتلخيصه في مهذَّب منه سمَّاه **(منهاج القاصدين)**.

وابن تيمية رغم نقده للإحياء يقول: إنَّ فيه من المواد النافعة أكثر مما يُرَدُّ منه.

ومع هذا لم يسَعْهم أن يسكتوا عما يرونه خطأً أو باطلًا من كلام الغزالي، نُصحًا لله ولرسوله وللمؤمنين، فلم يكن بينهم وبين الغزالي محاسدة أو منافسة، ولكن ليس في العلم كبير، وكل أحد دون رسول الله ﷺ، يؤخذ منه ويُرَدُّ عليه.

---

(١) مثل الدكتور عبد الرحمن بدوي.
(٢) طبقات الشافعية (٦/ ٢٤٣).
(٣) المنتظم (٩/ ١٦٨).

الإمام الغزالي والتصوف:

وممَّا لا ريب فيه أن أبرز ما أُخِذ على الغزالي: اندماجه في طريق الصوفيَّة اندماجًا يكاد يكون كاملًا، وإذعانه لما عند القوم من معارف وأحوال وأعمال، دون أن يحاكمها إلى منطق الفقه وأصوله.

فقد ذكر في (**المنقذ**) أنه بعد أن سَبَرَ ما عند الفلاسفة والمتكلمين والباطنية، ولم يجد فيه ما يَهَبُه اليقين، ويهديه إلى الحقيقة التي ينشدها؛ انتهى به المطاف إلى طريق الصوفيَّة، فعلم يقينًا ـ كما يقول هو ـ أنهم: «هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السِّيَر، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جمع عقل العقلاء، وحِكم الحكماء الواقفين على أسرار الشرع من العلماء؛ ليغيروا شيئًا من سيرهم وأخلاقهم، ويبدِّلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إلى ذلك سبيلًا.. وأن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من نور النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به»[1].

«وبالجملة: فماذا يقول القائلون في طريقةٍ، طهارتُها ـ وهي أول شروطها ـ تطهيرُ القلب بالكليَّة عمَّا سوى الله تعالى، ومفتاحها ـ الجاري منها مجرى (التحريم) من الصلاة ـ استغراق القلب بالكلية بذكر الله. وآخرها: الفناء بالكلية في الله؟!.

وهذا آخرها بالإضافة إلى ما يدخل تحت الاختيار والكسب، ولكن الترقِّي مستمرٌّ حتى ينتهي إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق، ولا يحاول مُعبِّر أن يُعبِّر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح، لا يمكن الاحتراز عنه.

وعلى الجملة: ينتهي الأمر إلى قُربٍ يكاد يتخيَّل منه طائفةٌ (الحلولَ). وطائفةٌ (الاتحادَ). وطائفةٌ (الوصولَ). وكل ذلك خطأ، بل التي لابسته تلك الحالة، لا ينبغي أن يزيد على أن يقول:

وكان ما كان مِمَّا لستُ أذكره فظُنَّ خيرًا، ولا تسأل عن الخبر!»[2]

هكذا كان دخول الغزالي إلى التصوُّف، دخولَ المحبِّ العاشق، لا دخول

---

(١) المنقذ من الضلال، ص١٧٧.

(٢) المصدر السابق، ص١٧٨ ـ ١٧٩.

الفاحص الناقد، فلم ينظر إلى علوم الصوفية وتراثهم بعين النقد التي نظر بها إلى علوم الفلاسفة والمتكلمين والباطنية، بل بعين الرضا والحب، والحبُّ يُعمي ويُصمُّ.

وعينُ الرِّضا عن كل عيب كليلةٌ ولكنَّ عين السُّخْط تُبْدي المَساوِيَا

وإذا الحبيبُ أتى بذنبٍ واحدٍ جاءت محاسنُه بألفِ شفيعِ

وسرُّ هذا أنه تعامل مع المتصوِّفة بقلبه قبل عقله، وبذوقه قبل فقهه، وهذا ما جعله يقبل أشياء ممَّا أُخذ على القوم في الفكر وفي السلوك، دون أن يعرضها على قانون الفقه أو منطق العقل.

ومن أجل هذا أنكر عليه العلامة ابن الجوزي وغيرُه من الناقدين قَبولَه لكثير من أفكار الصوفية وأعمالهم وأحوالهم، وهي مخالفة لقانون الشرع، منحرفة عن الكتاب والسنة الصحيحة.

وربما اعتذر أبو حامد في بعض الأحيان عن تجاوزات بعض القوم باعتبارات لا يقبلها منه الفقهاء، كقوله بعد حكاية الصوفي الذي عرَفَه الناسُ بالصلاح في محلَّةٍ، فخاف على نفسه الفتنة، فدخل الحمَّام، وسرق بعض الثياب الفاخرة، ولبسها وخرج، فلحقه الناسُ، وأخذوا منه الثياب وصفعوه، وصار يُعرف بعد ذلك بـ (لص الحمام)! فسُرَّ بذلك وسكنتْ نفسه!

قال أبو حامد: «فهكذا كانوا يرُوضُون أنفسَهم، حتى يخلِّصهم الله من النظر إلى الخلق، ثم من النظر إلى النفس.. وأرباب الأحوال ربما يعالجون أنفسهم بما لا يفتي به الفقيه، مهما رأوْا إصلاح قلوبهم فيه، ثم يتداركون ما فرط منهم فيه من صورة التقصير»[1].

وابنُ الجوزي شديدُ النكير على أبي حامد في حكاية هذا وأمثاله، واستحسانه وتبريره[2]. ومع هذا لا ينكر مُنصفٌ دارِسٌ للغزالي ولكتبه، ولـ

---

(١) تلبيس إبليس ص٤٥٤، ٣٥٥، وانظر: الإحياء (٣/٢٨٨)، ط. بيروت.

(٢) يقول ابن الجوزي هنا: كيف يجوز أن يطلب صلاح القلوب بفعل المعاصي؟ أوَقدْ عدِمَ في الشريعة ما يُصلح من قلبه حتى يستعمل ما لا يحل فيها؟ وهذا من جنس ما تفعله الأمراء الجهلة من قطع من لا يجب قطعه، وقتل من لا يجوز قتله، ويسمونه (سياسة)، ومضمون ذلك أن الشريعة ما تفي بالسياسة! وكيف يجوز للمسلم أن يُعرِّض نفسه لأن يُقال عنه: سارق؟! وهل يجوز أن يقصد وهن دينه عند شهداء الله في الأرض... إلخ. انظر: تلبيس إبليس ص٣٥٥.

(إحيائه) خاصَّة أنه لم يقبل التصوف بعُجَره وبُجَره، بل رفض في حزم تصوَّفَ أهل الحلول والاتحاد كالحلَّاج وأشباهه، ولم يقبل إلا (التصوُّف السُّنِّيَّ) القائم على الكتاب والسنة، واجتهد أن يرُدَّ كلَّ فكرة أو خُلق، أو سلوك أو حال، مما يقول به المتصوِّفة إلى أصول إسلامية، وأن يستدل عليها بالقرآن والحديث والأثر.

كما حاول أن يخفِّف من غلواءِ القوم في فهمهم للتوكل والزهد ونحوهما، وإن أصابه شيء من رَذَاذهم.

وممَّا يُذكر له أنه نبَّه على ضرورة (العلم) الشرعيِّ لسالك طريق الآخرة، خلافًا لما كان شائعًا بين كثير من المتصوفة: (أن العلم حجاب)! وقد جعل أول كتاب من كُتب **(الإحياء)** الأربعين (كتاب العلم)، وأول عقبة يجب أن يجتازها (العابد) هي (العلم)، كما في **(منهاج العابدين)**، وأكد في مواضع لا تُحصر: أن السعادة لا تُنال إلا بالعلم والعمل.

وقال في رسالة **(أيُّها الولد)**: «إن العلم بدون عمل جنون، والعملُ بغير علم لا يكون»[1]!

يضاف إلى ذلك رفضه للتأويلات الباطنيَّة، التي تخرج بالنصوص الشرعية عن مقتضى ظواهرها «بغير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع، ومن غير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل»[2]. فإن هذا يقتضي بطلان الثقة بالألفاظ، وتسقط به منفعة كلام الله تعالى، وكلام رسوله ﷺ، فإن ما يسبق منه إلى الفهم لا يُوثق به، والباطن لا ضبط له!

ومثَّل لذلك بقول بعضهم في قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٢٤﴾ [طه: ٢٤]. أي: إشارة إلى قلبه!

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ [القصص: ٣١]. أي: ما يتوكَّأ عليه ويعتمده مما سوى الله، فينبغي أن يُلقيَه!

ومثْلُه حديث: «تسحَّروا فإن في السحور بركة»[3]. وتأويله عندهم بأنه

---

(١) رسالة (أيها الولد) للغزالي ص٢٥، طبعة جميل بن إبراهيم حبيب.

(٢) إحياء علوم الدين (١/ ٣٧).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (١٩٢٣)، ومسلم (١٠٩٥)، كلاهما في الصوم، عن أنس.

الاستغفار في الأسحار!! وبهذا الطريق توصَّل الباطنيَّة إلى هدم جميع الشريعة بتأويل ظواهرها[1].

وممَّا يدلُّ على إنصافه وتدقيقه: ما ذكره في كتاب (ذم الغرور) من (ربع المهلكات) من (**الإحياء**)، حيث لم يغفل عن التنبيه على (المغترين) من المتصوفة برغم دعواهم أنهم أهل الله وأصحاب البصائر، قال ـ وهو يعُدُّ أصنافَ المغترين من الخلق ـ: الصنف الثالث: المتصوِّفة، وما أغلب الغرور عليهم! وهم فرق كثيرة، ثم ذكرهم، وكشف الستار عن غرورهم فرقةً فرقةً[2].
ومن أهم ما أبرزه الغزالي في التصوُّف: أنه نقله من مجرَّد الذوق والتحليق والشطح والتهويل، إلى (علم أخلاقيٍّ عمليٍّ)، يعالج أمراض القلوب، وآفات النفوس، ويزكيها بمكارم الأخلاق.

ومن نظر إلى (**الإحياء**) عرف أنَّ لُبابه وغايته في نصفه الأخير، وهو يتكون من رُبعَين: ربع (المُهلكات)، وربع (المُنجيات)، وكل من هذه وتلك عشرة كتب كاملة، كلها تدور حول (الأخلاق).

فهو ـ كما ذكر في مقدمة الكتاب ـ يذكر في (المهلكات) كلَّ خُلق مذموم وَرَدَ القرآنُ بإماطته وتزكية النفس عنه، وتطهير القلب منه.

ويذكر في (المنجيات) كلَّ خُلق محمود، وخصلة مرغوب فيها، من خصال المقرَّبين والصِّدِّيقين، التي بها يتقرَّب العبد من ربِّ العالمين[3].

كما أخذ عليهم من الناحية العلميَّة عدم دقَّتهم في تعريفاتهم لأعمال القلوب، لغلبة أحوالهم الذاتيَّة والآنيَّة عليهم، ولهذا نجِدُه يعلِّق على قولَين متناقضين ظاهرًا في حقيقة التوبة بقوله: «وكلام المتصوفة أبدًا يكون قاصرًا، فإن عادة كل واحد منهم أن يخبر عن حال نفسه فقط، ولا يهمه حال غيره، فتختلف الأجوبة لاختلاف الأحوال، وهذا نقصان. بالإضافة إلى الهِمَّة والإرادة

---

(١) الإحياء (١/ ٢٧) كتاب (العلم)، وأكَّده في كتاب (آداب تلاوة القرآن) ص٢٩، ومما يؤسَف له: أن الغزالي الذي أنكر هذا النوع من التأويل المُسرف، مالَ إلى شيء مثله في تأويل (الكوكب)، و(القمر)، و(الشمس) في قصة إبراهيم بأنها حُجُب من نور، بعضها أكبر من بعض! وليس المعنيَّ بها هذه الأجسام المضيئة... إلى آخر ما قال في كتاب (ذم الغرور) من (الإحياء) (٣/ ٤٠٦ ـ ٤٠٧)، وهو ما أنكره عليه ناقدوه كابن الجوزي وابن تيمية، وهم مُحِقُّون، ويؤيدهم منطق الغزالي نفسه.
(٢) الإحياء (٣/ ٤٠٤ ـ ٤٠٦).
(٣) من مقدمة الإحياء (١/ ٣).

والجد، حيث يكون صاحبه مقصورَ النظرِ على حال نفسه، لا يهمه أمر غيره»[1].

ومن تَتَبَّع (**الإحياء**) وغيرَه من كتب الغزالي بإنصاف، وَجَدَ أنه حاول كبْحَ جماح القوم، والوقوف بهم عند الحدود والحواجز الشرعيَّة، وضبط أقوالهم وأعمالهم، بتقييد مطلقها، وتحديد مُبْهمها، وإعطائها معنى مقبولًا، ونجح في ذلك إلى حدٍّ بعيد.

ومن عرف كيف كان التصوف قبل الغزالي، ثم كيف صار بعده، عرف فضل الغزالي على التصوف وأهله، وما ترك فيه من أثر واضح، يشهد به المتخصصون في علم هذا الجانب من جوانب الثقافة والحياة الإسلامية.

وهذا ما اعترف به وقرَّره الذين عُنوا بدراسة التصوُّف ورجاله وتاريخه، من المسلمين، ومن المستشرقين أيضًا، وحسبُنا أن نذكر هنا ما قاله واحد من أشهر هؤلاء المستشرقين وهو الأستاذ (نيكلسون) في دراسته عن (**التصوف الإسلامي وتاريخه**)، التي ترجمها الدكتور أبو العلا عفيفي، يقول: «كَتَبَ صوفيٌّ فارسيٌّ من رجال القرن الخامس الهجري ينعي على معاصريه تسميتهم شهواتِهم: (شرعًا)، وأوهامَهم الكاذبة: (علمًا إلهيًّا)، ونزواتِ قلوبهم ورغباتِ نفوسهم: (حُبًّا إلهيًّا)، وتسميتهم الزندقةَ: (فقرًا)، والشكَّ: (صفاءً)، وإنكارَ الدين: (فناءَ النفس)، وإهمالَ شرع النبي: (طريقًا في التصوُّف)»[2].

وفي سنة ١٤٠٥م ميلادية ألَّف القُشَيْريُّ رسالته المشهورة في علم التصوف، يُذكِّر أهلَ عصره من الصوفية بما كان عليه قدماؤهم من الورع والتقوى في القول والعمل، وما آل إليه التصوف من بعدهم من زوال الورع، واشتداد الطمع، وضياع حرمة الشريعة في القلوب، ورفض التمييز بين الحلال والحرام، وطرح الاحتشام، والاستخفاف بالعبادات إلى غير ذلك.

أما إن هذه الصيحة التي صاحها القشيري لم تذهب سُدًى، فيرجع السرُّ فيه إلى الغزالي، فإنه مزَجَ التصوف بالقرآن والحديث مزجًا تامًّا، واستخرج من المجموع مادة واحدة، وقد بقيتْ كتبُه على الأيام، لا لأنها من إملاء عقله

---

(١) الإحياء (٤/ ٤٢).

(٢) انظر: كشف المحجوب للهجويري ص١٩٩، دراسة وترجمة وتعليق: دكتورة إسعاد عبد الهادي قنديل، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر، جمادى الأولى ١٣٩٤هـ/ يونيه ١٩٧٤م.

وحده، بل لأنها كانت نتيجة لرغبة صادقة مُلِحَّة في تحصيل حياة روحية مطمئنة، أيْ أنَّ الغزالي حل مشكلته في نفسه قبل أن يضع نتائجها في كتبه.

وبعد كلام عن عزلة الغزالي، ورحلته من الشك إلى اليقين، واهتدائه إلى طريق الصوفية، يقول مبيِّنًا موقف الغزالي: أما الغزالي نفسه فقد تشبث دائمًا بنقطتين جوهريتين لم تُجرَح من أجلهما عقيدتُه في الإسلام: **الأولى**: تقديسه للشرع. **والثانية**: وجهة نظره في الألوهية. فإنه أوصد الباب في وجه مذهب وَحْدة الوجود بقوله، مع أهل السنة: «إن الله تعالى ذات واحدة مخالفة للحوادث، وإنه بمقدار ما يتحقق بالنفس الإنسانيَّة من صفات الكمال الإلهيَّة، يكون استعدادها لمعرفة الله، وأنَّ العبدَ عبدٌ، والربَّ ربٌّ، ولن يصير أحدهما الآخر البتة، أمَّا علمُنا بالله فموقوف على إرادة الله تعالى، وهو يُعرِّفنا بنفسه عن طريق ما يوحي به على الأنبياء والأولياء[1] الذين هم من خلقه، وبهذا المعنى الروحي العميق فهم الغزالي الألوهية، فقرَّب اللهَ من قلوب الخلق، ولكنه قرب (الله) لا (الكل في واحد)»[2].

الكشف والمكاشفة عند الإمام الغزالي:

على أن من أخطر ما يؤخذ على الغزالي ـ بالنسبة إلى التصوف: هو قضية (الكشف) أو (المكاشفة)، التي يحصل الصوفي على علومها وأنوارها بعد الرياضة والتصفية الروحية، وبعد الترقِّي في مدارج السالكين، ومنازل السائرين، وقد صرح الغزالي أن (علم المكاشفة) ممَّا لا يجوز أن يودع في الكتب.

وإذا جَمَحَ به الفكر أو القلم يومًا، فذكر شيئًا من الإشارات أو اللمحات ممَّا يحوم حول هذا (الحمى المحرم)، فسرعان ما يتذكر ويقبض عِنان القلم، حتى لا يبوح بما لا يجوز البوح به من أسرار ومكنونات، «لا يحاول مُعبِّر أن يُعبِّرَ عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح»[3] كما قال.

وهذه المكاشفات وأحاديثُ الغزالي عنها: قد جلبتْ عليه طعنَ الطاعنين، كما في كلامِ المازري وغيره، ويبدو أن ذلك بدأ في حياته ﷺ.

---

(١) الأولياء لا يُوحَى إليهم، وإنما قد يُلهمون، وإلهامهم لم تُضمن له العصمة.

(٢) في التصوف الإسلامي وتاريخه ص٨٣ ـ ٨٤.

(٣) المنقذ من الضلال، ص١٧٧.

ففي مطلع كتابه **(منهاج العابدين)** ـ وهو آخر كتابٍ صنَّفه، ولم يستمْلِه إلا خواصُّ أصحابه، كما في مقدمة الكتاب المطبوع ـ يذكرُ أنه ألَّف في علم طريق الآخرة كتبًا، **كإحياء علوم الدين** و**(القربة إلى الله)** وغيرهما، واشتملتْ على دقائق من العلوم، اعتاصتْ على أفهام العامة، فقدحوا فيها، وخاضوا فيما لا يحسنونه منها، وتمثَّل الغزالي هنا بما يُعزَى إلى الإمام علي زين العابدين بن الحسين رضي الله عنهما من شعر يقول فيه:

إنِّي لأكتُمُ مِن عِلْمي جواهرَه	كَيْلا يرى ذاك ذو جهل فيفْتَتِنَا
وقد تقدَّم في هذا أبو حسنٍ	إلى الحسين، ووصَّى قبله الحَسَنا
يا رُبَّ جوهرِ عِلمٍ لو أبوح به	لقيل لي: أنتَ ممَّنْ يعبد الوثنا
وَلَاسْتحلّ رجالٌ مسلمون دمِي	يرَوْن أقبحَ ما يأتونه حسنا[1]

وقد أورد التاج السبكي اعتراضَ الإمام المازري على الإمام الغزالي في قوله: إن في علومه ما لا يسوغ أن يودع في كتاب. وقال: فليت شعري! أحق هو أم باطل؟ فإن كان باطلًا، فصدق، وإن كان حقًّا ـ وهو مراده بلا شك ـ فلِمَ لا يودع في الكتب؟ ألغموضه ودقَّته؟ قال ـ أي المازري ـ: فإن كان هو، فما المانع أن يفهمه عليه؟

وقد ردَّ السبكي على المازري بأنَّ للعلوم دقائق، نهى العلماء عن الإفصاح بها خشيةً على ضعفاء الخلق، وأمور أخر لا تحيط بها العبارات، ولا يعرفها إلا أهل الذوق، وأمور لم يأذن الله في إظهارها لحكم تكثر عن الإحصاء.

قال: وماذا يقول المازري فيما خرَّجه البخاري في صحيحه، من حديث أبي الطُّفَيل: سمعت عليًا رضي الله عنه يقول: حدِّثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يُكذَّبَ الله ورسوله[2]؟!

وكم من مسألة نصَّ العلماءُ على عدم الإفصاح بها، خشية على إفضاح من لا يفهمها.

وهذا إمامنا الشافعي رضي الله عنه، يقول: إن الأجير المشترَك لا يُضَمَّن. قال

---

(١) منهاج العابدين للغزالي ص٣. ط. مصطفى الحلبي بمصر ١٣٣٧هـ.

(٢) رواه البخاري في العلم (١٢٧).

الربيع: وكان لا يبوح به خوفًا من أجير السوء. قال الربيع أيضًا: وكان الشافعي ﷺ يذهب إلى أن القاضي يقضي بعلمه، وكان لا يبوح به مخافة قُضاة السوء.

فقد لاح لك بهذا أنه ربما وقع السكوت عن بعض العلم، خشية من الوقوع في محذور، ومثل ذلك كثير[1] انتهى كلام التاج السبكي.

والحق أن هذا الرد أو الاعتذار من صاحب (**الطبقات**) لا يشفي الغليل، وكل ما ذكره من أمثلة لا تدل على أكثر من حجز بعض المسائل عن بعض العوام وأمثالهم إذا خيف عليهم أن يُسيئوا فَهمها، أو يستغلوها استغلالًا سيئًا، وأن يخاطب كل قوم بلسانهم، على قدر عقولهم.

وليس فيما ذكره ما يدل على إخفاء حقائق العلم عن العلماء أنفسهم، فلا يُباح به إلا لمَن كان من أهل المشرب والمذهب، ممَّن يؤتَمن على السرِّ ولا يفشيه!

والذي يبدو لي من كلام الغزالي، ومما ذكره من الشعر المنسوب إلى زين العابدين ـ وما أظنه صحيحًا عنه ـ يُنبئ بأن ثمَّتْ أسرارًا تُناقض مقرَّراتِ الشرع المعروفة، بحيث لو أفصح بها مُفصح، لحُكم عليه بالرِّدَّة، واستُبيحَ دمه، وهذا لا يكون إلا فيما يخالف المقطوع به في الإسلام، أو ما يسمِّيه العلماء ـ ومنهم الغزالي نفسه في بعض كتبه ـ المعلوم من الدين بالضرورة.

والله تعالى قد أنزل كتابه للناس جميعًا؛ ليعقلوه ولينذروا به، وليعملوا بموجبه، كما قال تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان: ١]. ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٥٢﴾ [إبراهيم: ٥٢]. ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾ [يوسف: ٢]. ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾ [القمر: ١٧].

وقد يتفاوت الناس في فهم القرآن والاستنباط منه، ولكنه ميسَّر للذكر بالنسبة إليهم جميعًا، ومن آتاه الله فهمًا أو تأويلًا ـ مثل عليٍّ وابن عباس ﷺ ـ فمن واجبه أن يبين للناس ما فهمه، كلٌّ حسْبَ طاقته[2].

---

(١) طبقات الشافعية (٦/ ٢٥١ ـ ٢٥٢).

(٢) ميزان العمل ص١٨٢ وما بعدها، دار المعارف بالقاهرة، تحقيق د. سليمان دنيا.

نظرة تقويمية للاتجاه الصوفي

لا شك أنَّ الناس قد اختلفوا في الصوفيَّة، بين متعصِّب لهم، يبرز محاسنهم، ويتبنَّى وجهة نظرهم في كلِّ شيء، ويُحامي عنهم ولو خطأ، بل هو لا يتصوَّر الحكم عليهم بالخطأ أبدًا.

وبين متعصِّب عليهم يذمُّهم جميعًا، ويذمُّ ما انفردوا به، ولو كان حقًّا في نفسه، ويعلن أنَّ التصوف مذهب دخيل على الإسلام، مأخوذ من المسيحية والبوذية والبرهمية وغيرها.

ولكن الإنصاف يقتضينا أن نقول: إنَّ التصوف له جذور إسلاميَّة أصيلة لا تُجْحَد، وفيه عناصر إسلاميَّة أساسيَّة لا تخفى، نرى ذلك في القرآن والسنة وسيرة الرسول الكريم ﷺ، وأصحابه الزاهدين، مثل عمر وعلي وأبي الدرداء وسلمان وأبي ذر، وغيرهم رضي الله عنهم.

ومن يقرأ القرآن والحديث، يجد فيهما تحذيرًا متكررًا من فتنة الحياة الدنيا ومتاعها، وتوجيه الهمم إلى الله والدار الآخرة، وتحريك القلوب بالتشويق إلى الجنة وما فيها من رضوان الله تعالى، والنظر إلى وجهه الكريم، والتخويف من النار وما فيها من عذاب ماديٍّ ومعنويٍّ، كما يجد الحديث عن حُبِّ الله تعالى لعباده، وحبِّهم له سبحانه، في مثل قوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

كما جاء في القرآن الكريم والأحاديث نصوص غزيرة في الزهد والتوكل، والتوبة والشكر، والصبر واليقين، والتقوى والمراقبة، والمحاسبة والورع، والزهد وغيرها من مقامات الدين.

هم ـ أي الصوفيَّة ـ الذين تحدَّثوا عن علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين، ولم يعطها العنايةَ اللائقة بها من التفسير والتَّعْليل والتَّقْسيم والتَّفْصيل غيرُهم.

ولهذا كانوا أعلم طوائف الأمَّة بعيوب النفس، وأمراض القلوب، ومداخل الشيطان، وأكثرهم عنايةً بأحوال السلوك، وتربية السالكين، وكم تاب على أيديهم من عاصٍ، وكم أسلم من كافر.

ولكن التصوف لم يقف عند الدور الأول الذي كان يُراد به الأخلاق

الدينيَّة، ومعاني العبادة الخالصة لله، وكان قِوامه الإرادة ـ كما قال ابن القيم وغيره[1] ـ ولكنه انتقل من وصفه علم الأخلاق الإسلامي إلى نظرية في المعرفة والوجود، تسعى إلى الكشف والفيض الإلهي عن طريق تصفية النفس. ثم كان من الانحرافات ما كان.

وهو ما نراه ماثلًا بوضوح في التصوف الفلسفي، الذي يتبنَّى نظريات الحلول والاتحاد، ويقول بوحدة الوجود، فليس يوجد مع الله شيء، وما يظنُّه بعض الناس شيئًا، فهو عند التحقيق ليس بشيء، وبعض هذه النظريات مأخوذ من النصرانية وما تقول به من حلول (الله) سبحانه في المسيح عيسى بن مريم، وبعضها مأخوذة من الوثنيَّات التي سادت العالم عند اليونان والرومان والفرس والهنود والصينيين وغيرهم.

وقام بهذا متصوفة معروفون بما كتبوه في شعرهم ونثرهم، وصحوهم وسكرهم، وما أُخِذ به بعضهم وحُوكم من أجله، وحُكم عليه بالقتل، باعتباره داعية إلى الردة عن الإسلام، مثل السهروردي المقتول (ت٥٦٣هـ)، والحلاج (ت٣٠٩هـ)، وما اشتهر بعد ذلك عند الشيخ الأكبر كما سماه أصحابه، وهو محيي الدين بن العربي (ت٦٣٨هـ). وبعضهم قال: نكفِّر من قال هذه الأقوال، وربما دسَّت عليه.

ولهذا فإنَّ من المكابرة إنكار المؤثرات الأجنبيَّة في التصوف، ممَّا خرج به في كثير من الأحيان عن (وسطيَّة) الإسلام واعتداله، إلى تشدُّد كتشدد الرهبانيَّة، أو غلوٍّ كغلو البوذية.

من مظاهر الانحراف عند بعض الصوفية:

ولا ريب أن هناك أفكارًا أساسية تشيع عند الصوفيَّة ـ إذا لم تقاوم بالكتاب والسنة ـ تبعد بالإنسان بعدًا كثيرًا عن الإسلام، سنذكر هنا أبرزها:

١ ـ اعتبار الذوق، أو الوجدان الشخصي، أو الإلهام ـ مقياسًا ـ في معرفة الحُسْن والقبح، وتمييز الصواب من الخطأ، حتى غالى بعضهم في ذلك، فقال: حدثني قلبي عن ربي. في مقابلة ما يقوله علماء السنة: حدثنا فلان عن فلان... إلى الصحابي عن رسول الله ﷺ.

---

(١) مدارج السالكين: (٢/ ٣٥٢).

٢ ـ تفرقتهم بين الشريعة والحقيقة. فعندهم مَن ينظر إلى الفجرة والظالمين بعين الشريعة يمقتهم، ومن نظر إليهم بعين الحقيقة يعذرهم. هذا هو منطقهم.

٣ ـ تحقيرهم أمرَ هذه الحياة تحقيرًا غلَوْا فيه، على خلاف منهج القرآن والسنة. وحسبنا قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البقرة: ٢٠١]. وهو منهج الصحابة ومَن اتبعهم بإحسان، ممَّن قالوا: اعملْ لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعملْ لآخرتك كأنك تموت غدًا[١].

٤ ـ غَلَبة النزعة الجبريَّة والسلبيَّة على أكثرهم، ممَّا أثَّر في تفكير عامَّة المسلمين، وجعلهم يعتقدون أنَّ الإنسان مُسيَّر لا مخيَّر، وأنْ لا فائدة من مقاومة الفساد، ومحاربة الظلم والباطل، فإنَّ الله أقام العباد فيما أراد!!

٥ ـ إلغاء شخصية المريد في تربيتهم السلوكية والفكرية، بحيث يفنى في شيخه، ولا يناقش، فضلًا عن أن يعترض، أو يقول: (لِمَ؟) فضلًا عن (لا). ومن كلماتهم: **المريد بين يدي الشيخ كالميت بين يدي الغاسل**. ومن قال لشيخه: لِمَ؟ لا يفلح!!

وقد انتشرت هذه الأفكار في العصور المتأخرة، وتقبَّلها الكثير على أنها من صميم الإسلام، فلما بزغ فجر النهضة الحديثة في بلاد المسلمين، ظنَّ كثير من المثقفين أنَّ هذه الأفكار السلبيَّة السائدة هي الإسلام، فأعرضوا عنه، وربما عادَوْه جهلًا منهم بحقيقة القيم الإسلامية الأصيلة.

على أنَّ الحق يقتضينا أن نضيف هنا: أنَّ الصوفية الأوَّلين المعتدلين حذَّروا من الشَّطط والانحراف، وأوجبوا التقيُّد بنصوص الشريعة وقواعدها التي لا تخطئ ولا تحيف.

ينقل ابن القيم[٢] عن شيوخ القوم أقوالًا عديدة لهم في ذلك، مثل قول الجنيد: الطرق كلُّها مسدودة على الخلق، إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ[٣].

وقال أبو يزيد: لو نظرتم إلى رجل أُعطيَ من الكرامات إلى أن يرتفع في

---

(١) رواه الحارث في مسنده (١٠٩٣) البغية، موقوفًا على عبد الله بن عمرو.
(٢) انظر: مدارج السالكين (٢/ ٤٣٤) وما بعدها.
(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٠/ ٢٥٧).

الهواء فلا تغتَّروا به، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود، وأداء الشريعة[1].

على أن هناك خطأ آخر في التصوف، أشد خطرًا، وأبعد أثرًا، من هذا الخطأ العملي الذي تحدثنا عنه. إنه التصوف الفلسفي الذي دعا إليه جماعة معروفون باتِّجاهاتهم المنحرفة عن عقائد الإسلام الحقة، مثل ابن سبعين، وابن عربي، وغيرهم ممَّن صدرت عنهم أقوال ظاهرها الكفر المحض، لما فيها من خروج سافر عن المعتقدات الصريحة، التي دعا إليها القرآن الكريم، ودعت إليها السنة النبويَّة، وأجمع عليها الصحابة من المهاجرين والأنصار، ومَن اتبعهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه.

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (١٧١٩).

٣ ـ الاتجاه القرآني السنِّي السلفي في الأخلاق

وفي مقابل هذا الاتجاه الصوفي: اتِّجاه آخر، وهو الاتجاه القرآني السنِّي السلفي المتكامل المتوازن، الموصول بالقرآن والسنَّة، وهدي الصحابة. وهو اتِّجاه قويٌّ ومستقيم، له قيمته وأصالته ومنزلته، ينبغي أن نشير إليه، ونُنوِّه به؛ لأنه يمثل ـ في رأينا ـ وجهة الإسلام الصحيحة المعتدلة، التي تستمد موازينها من نصوص الإسلام القرآنية والنبويَّة، ومن هدي الصحابة ومن اتبعهم بإحسان، ومن مقاصد الإسلام وقواعده، دون أن تطغى عليها نزعة فلسفية دخيلة، أو تبعية صوفية جانحة، أو نزعة رهبانية عاتية، مع الاستفادة من دراسة هذه النزعات والمدارس، والانتفاع بما فيها من بقايا الحق والخير.

أبرز مَن يمثل هذا الاتجاه الإيجابي المتوازن هم (رجال المدرسة السلفية) المعتدلة من أهل السنة، وفقهاء الحديث، وأكثرهم من الحنابلة، ومعهم غيرهم. وهذه المدرسة هي التي جعلت أساس تفكيرها وطريقتها: أنَّ أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وأنَّ خير الهدى هدي محمد ﷺ، وأنَّ خير القرون: القرن الذي بُعث فيهم، ثم القرنان اللذان بعده، وأن أفضل الطرق إلى الله تعالى: ما كان عليه هو وأصحابه عليه الصلاة والسلام، وﷇ، ومن اتبعهم بإحسان، ممن أثنى الله عليهم في كتابه فقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١٠٠﴾ [التوبة: ١٠٠].

وهؤلاء في واقعهم كانوا سلفيين متبعين، كما كانوا ربانيين مهتدين، أي: يمثلون السلوك السويَّ، والتصوف المرضيَّ عنه، ممن قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ۝١٢٨﴾ [النحل: ١٢٨]. فهم مع الله تعالى بالتقوى، ومع الناس بالإحسان.

من هذا الخط القرآني السني: الإمام مالك بن أنس، وكثير من أصحابه وأتباعه كالقرافي والشاطبي، ومنه أيضًا الإمام الشافعي وكثير من أصحابه وأتباعه، كالعز ابن عبد السلام والنووي والرافعي وغيرهم، ثم رجال المدرسة الحنبلية من أمثال ابن قدامة وابن عقيل وابن الجوزي ـ وقد تحدثنا عن نقده للإمام الغزالي في الفصل السابق ـ والذهبي وابن تيمية وابن القيم وابن كثير وابن رجب، وغيرهم. وكثير ممن يعدونهم من فقهاء الحديث مثل ابن الوزير والصنعاني والشوكاني، وبعض علماء الحنفية مثل ولي الله الدهلوي ومدرسته، ومنهم الندويون، وأمثالهم.

المعالم التي يقوم عليها الاتجاه السلفي في الأخلاق:

١ ـ رفض الاتجاه السني السلفي القرآني التوازني الذي قامت عليه مدرسة ابن تيمية، ومن قبله العز بن عبد السلام، والنووي وأمثالهم: ما جاءت به المدرسة اليونانية من المسلمين من أمثال الكندي والفارابي وابن سينا مما ليس له أصل إسلامي من قرآن أو سنة، وبعض من قارب هؤلاء من فلاسفة الأخلاق كابن مسكويه (ت ٤٢١هـ) في كتابه **(تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق)**، ولا مانع من أن نأخذ في الشرح والتأصيل والتدليل بعض ما استند إليه القوم، كما نجد ذلك أحيانًا في تحليلات ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله تعالى، كما نجد عند غيرهم من الرجال المعتدلين.

٢ ـ لم ترفض المدرسة السلفية السنية المتوازنة كل ما جاء به المتصوفة، بل أخذوا منها كل ما قامت عليه الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة، وآثار الصحابة ومن تبعهم بإحسان، ورحبوا بكلماتهم النيرة في بيان المنازل والمقامات، ما لم تتخذ طريقًا يخالف طرائق المسلمين، التي عُرفوا بها، والتي تمثل التكامل والتوازن والاستقامة، كما قال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [هود: ١١٢ ـ ١١٣].

٣ ـ أنكرت المدرسة السلفية ما أنكره الغزالي وموافقوه على اتباع التصوف الفلسفي الذي غلا وتطرف في الخروج على خط العقيدة الإسلامية الأول: خط

التوحيد الصحيح، فدعا إلى ما سُمِّي عندهم بـ (الحلول) كما قال الحلاج ومن على شاكلته: ما في الجبة غير الله! أي: أن الله تبارك وتعالى حل فيه. ومثله من نفى الثنائية في الوجود، فليس هناك خالق ومخلوق، ورب ومربوب، بل هناك شيء واحد هو الله تعالى، وكل ما نظنه شيئًا غير الله سبحانه إنما هو خيال ووهم. وهو ما يسمى بـ (الاتحاد)، وهو ما نادى به الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربي وغيره، وما نادى به يخالف كل ما جاءت به الديانات السماوية والأرضية، وما رسخ في عقول الخلق وفطرهم.

٤ ـ اعتمدت المدرسة السلفية بكل مواريثها وعلمائها في تكوين فكرتها الأخلاقية والسلوكية على مصدرين أساسيين:

أولهما: المصدر الشرعي، المتمثل في القرآن والسنة والإجماع والقياس وكل الأدلة التي يعتمد عليها علم الفقه السني الملتزم، بما فيه من وفاق وخلاف.

وثانيهما: ما عدا الشرعي، من المصادر الخارجية التي يعتمد عليها فيما لا نص فيه ولا إجماع، من عُرف متّبع أخذ به المجتمع، أو مصلحة راجحة أيدتها الأدلة، أو معروف قام به الناس أو دلُّوا عليه، أو نحو ذلك مما يشهد له العقل أو السمع أو المجتمع.. أو غير ذلك.

٥ ـ وقبل ذلك كله بنت المدرسة السلفية أسسها النظرية والعملية على ما جاء به الإسلام في منهجه الوسطي التكاملي الشمولي الميسر، الذي يجمع بين المادية والروحية، وبين الفردية والاجتماعية، وبين المثالية والواقعية، وبين الدنيوية والأخروية، وبين الربانية والإنسانية، ويشيد على أساس ذلك بناءه الأخلاقي، وهو بناء يقوم على المنهج الوسط لأمة وسط، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وسنحاول أن نتبين هذه المعالم من خلال أعلام هذه المدرسة شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم اللذين لهما الفضل في وضع الأسس والأصول لهذه المدرسة.

شيخ الإسلام ابن تيمية[1]:

يرى شيخ الإسلام ابن تيمية أن البناء الخلقي إنما يقوم على أمرين: الدين المنزل والفطرة السليمة، وأن التصور الإسلامي، الذي أنزله الله على رسله وآخرهم محمد، هو التصور الوحيد الذي يحقق الغايات الخلقية والسعادة للإنسان، فالله «خلق عباده على الفطرة التي فطرهم عليها، وبعث إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، فصلاح العباد وقوامهم بالفطرة المكمَّلة بالشِّرْعة المنزَّلة»[2].

ويؤكد على صلاحية منهج الأنبياء وحده في تحقيق سعادة الإنسان وتعريفه بالرب وتوحيده، موازنًا بينه وبين منهج الفلاسفة، فيقول: «وأما ما جاءت به الأنبياء فلا يعرفه هؤلاء (أي: الفلاسفة) البتة، وليسوا قريبين منه، بل كفار اليهود والنصارى أعلم بالأمور الإلهية.

ولست أعني بذلك ما اختص الأنبياء بعلمه من الوحي الذي لا يناله غيرهم، فإن هذا ليس من علمهم، ولا من علم غيرهم، وإنما أعني العلوم العقلية التي بيَّنها الرسل للناس بالبراهين العقلية في أمر معرفة الرب وتوحيده ومعرفة أسمائه وصفاته وفي النبوات والمعاد، وما جاؤوا به من مصالح الأعمال التي تورث السعادة في الآخرة، فإن كثيرًا من ذلك قد بيَّنه الرسل بالأدلة العقلية، فهذه العقليات الدينية الشرعية الإلهية هي التي لم يشموا رائحتها، ولا في علومهم ما يدل عليها، وأما ما اختصت الرسل بمعرفته، وأخبرت به من الغيب، فذاك أمر أعظم من أن يذكر في ترجيحه على الفلسفة، وإنما المقصود الكلام في العلوم العقلية التي تعلم بالأدلة العقلية، دع ما جاءت به الأنبياء، فإنه مرتبة عالية»[3].

ويبين ابن تيمية فساد فلسفتهم الأخلاقية في زعمهم أن النفس تكمل بمجرد العلم، ويرد عليهم بأن الكمال الحق هو في عبادة الله التي تجمع معرفته ومحبته والعبودية له، فيقول: «لو قُدِّر أن النفس تكمل بمجرد العلم ـ كما زعموه. مع أنه قول باطل ـ فإن النفس لها قوتان: قوة علمية نظرية، وقوة إرادية عملية. فلا

---

(١) يرجع إلى: النظرية الخلقية عند ابن تيمية، دكتور محمد عبد الله عفيفي، نشر مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية. طبعة أولى ١٤٠٨ ـ ١٩٨٨هـ.

(٢) بيان تلبيس الجهمية، لابن تيمية (٢/ ٤٧١)، مجموعة محققين، نشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ.

(٣) الرد على المنطقيين، لابن تيمية، نشر: دار المعرفة ـ لبنان، ص٣٩٤.

بد لها من كمال القوتين بمعرفة الله وعبادته، وعبادته تجمع محبته والذل له، فلا تكمل نفس قط إلا بعبادة الله وحده لا شريك له. والعبادة تجمع معرفته ومحبته والعبودية له؛ وبهذا بعث الله الرسل، وأنزل الكتب الإلهية كلها، تدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

وهؤلاء يجعلون العبادات التي أمرت بها الرسل؛ مقصودها إصلاح أخلاق النفس لتستعد للعلم، الذي زعموا أنه كمال النفس، أو مقصودها إصلاح المنزل والمدينة، وهو الحكمة العملية؛ فيجعلون العبادات وسائل محضة إلى ما يدَّعونه من العلم.

ولذلك يرون هذا ساقطًا عمن حصَّل المقصود، كما تفعل الملاحدة الإسماعيلية ومن دخل في الإلحاد أو بعضه وانتسب إلى الصوفية أو المتكلمين أو الشيعة أو غيرهم»[1].

وعلى الأساس الذي بنى عليه رفضه للكمال عند الفلاسفة، وهو أنهم جعلوا النفس تكمل بمجرد العلم، رفض أيضًا فكرة الجهمية الذين جعلوا الإيمان (مجرد معرفة الله)، يقول: «والجهمية قالوا: الإيمان مجرد معرفة الله. وهذا القول وإن كان خيرًا من قولهم (أي: قول الفلاسفة)، فإنه جعله معرفة الله بما يلزم ذلك من معرفة ملائكته وكتبه ورسله، وهؤلاء جعلوا الكمال معرفة الوجود المطلق، ولو أحقه، وهذا أمر لو كان له حقيقة في الخارج لم يكن كمالًا للنفس إلا بمعرفة خالقها ﷻ»[2].

ويبين في الوقت نفسه فساد الجانب العملي عند الفلاسفة، أو ما سموه بلسانهم: الحكمة العملية، والتي اعتبروا الأخلاق فرعًا من فروعها، فهي في رأيه لا تحقق الكمال من ناحية، ولا توازي ما جاء به الأنبياء من ناحية أخرى، يقول: «وأما العمليات التي أمر بها (أي: النبي ﷺ) فهم (أي: الفلاسفة) وإن ادَّعوا أن ما عندهم من الحكمة الخلقية والمنزَّلة والمدنية تشبه ما جاء به من الشريعة العملية؛ فهذا من أعظم البهتان، وذاك أن حكمتهم العملية إنما مبناها على أنهم عرفوا أن النفس لها قوة الشهوة والغضب، الشهوة لجلب الملائم، والغضب لدفع المنافي. فجعلوا الحكمة الخلقية مبناها على ذلك،

(١) المصدر السابق ص١٤٤ ـ ١٤٥.

(٢) المصدر السابق نفسه.

فقالوا: ينبغي تهذيب الشهوة والغضب، لكون كل منهما بين الإفراط والتفريط، وهذا يسمى عفة، وهذا يسمى شجاعة، والتعديل بينهما عدلًا.

وهذه الثلاث تُطلب لتكميل النفس بالحكمة النظرية العلمية، فصار الكمال عندهم هذه الأمور العفة والشجاعة والعدل والعلم.

وقد تكلَّم في هذا طوائف من الداخلين في الإسلام، واستشهدوا على ذلك بما وجدوه في القرآن والحديث وكلام السلف في مدح هذه الأمور، والذين صنفوا في الأخلاق والأعمال على طريق هؤلاء، مثل كتاب **(موازين الأعمال)** لأبي حامد، ومثل أصحاب **(رسائل إخوان الصفا)**، ومثل كتب محمد بن يوسف العامري وغيره، يبنون كلامهم على هذا الأصل.

لكن غلطوا، فإن مراد الله ورسوله بالعلم الذي يمدحه ليس هو العلم النظري الذي هو عند فلاسفة اليونان، بل الحكمة: اسم يجمع العلم والعمل به في كل أمة.

قال ابن قتيبة وغيره: الحكمة عند العرب العلم والعمل به.

وسُئل مالك عن الحكمة، فقال: هو معرفة الدين والعمل به.

وكل أمة لها حكمة بحسب علمها ودينها، فالهند لهم حكمة مع أنهم مشركون كفار، والعرب قبل الإسلام كانت لهم حكمة، وكان فيهم حكماء العرب مع كونهم مشركين يعبدون الأوثان، فكذلك اليونان لهم حكمة كحكمتهم.

وحكماء كل طائفة هم أفضل تلك الطائفة علمًا وعملًا، لكن لا يلزم من ذلك أن يكونوا ممدوحين عند الله وعند رسوله، فإن الممدوح عند الله وعند رسوله، لا يكون قط إلا من المؤمنين المسلمين، الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت، وعبدوا الله وحده، ولم يشركوا به شيئًا، ولم يكذِّبوا نبيًّا من أنبيائه، ولا كتابًا من كتبه، ولا يثني الله قط إلا على هؤلاء كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة: ٦٢]. وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة:

١١١ ـ ١١٢]. وقــال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: ١٢٥].

وقد ذكر الله عن الأنبياء وأتباعهم أنهم كانوا مسلمين مؤمنين من نوح إلى الحواريين وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥]. وهذا عام في الأولين والآخرين، وقال: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]. وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل: ٣٦]. وقوله تعالى: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [البقرة: ١١٢، النساء: ١٢٥]. أي: أخلص قصده وعمله لله، وهو محسن، يفعل الصالحات، وهذا هو الإسلام، وهو أن يكون عمله عملًا صالحًا ويعمله لله تعالى، وهذا هو عبادة الله وحده لا شريك له، وبهذا بعث الله الرسل جميعهم»[١].

ويوازن إبن تيمية بين الكمال الذي يتصوره الفلاسفة والطريق الذي رسمه الدين للإنسان ليصل إلى هذا الكمال فيقول: «وهؤلاء غاية ما عندهم في العبادات والأخلاق والحكمة العملية: أنهم رأوا النفس فيها شهوة وغضب من حيث القوة العملية، ولها نظر من جهة القوة العلمية. فقالوا: كمال الشهوة في العفة، وكمال الغضب في الحلم والشجاعة، وكمال القوة النظرية في العلم، والتوسط في جميع ذلك بين الإفراط والتفريط هو العدل.

وما ذكروه من العمل متعلق بالندب لم يثبتوا خاصية النفس التي هي محبة الله، وتوحيده، بل ولا عرفوا ذلك، كما لم يكن عندهم من العلم بالله إلا قليل مع كثير من الباطل، كما بسط الكلام عنهم في موضعه.

ومحبة الله وتوحيده هو الغاية التي فيها صلاح للنفس، وهو عبادة الله وحده لا شريك له. فلا صلاح للنفس، ولا كمال لها، إلا في ذلك، وبدون ذلك تكون فاسدة، لا صلاح لها، كما قد بسط الكلام على ذلك في موضع آخر.

ولهذا كان هذا هو دين الإسلام الذي اتفقت عليه الرسل، قال الله تعالى:

---

(١) المصدر السابق ص٤٤٦ ـ ٤٤٨.

﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦]. وقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥]. وقال: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]. وقال تعالى: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ٤٥﴾ [الزخرف: ٤٥]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١﴾ [المؤمنون: ٥١]. وقال لما ذكر قصص الأنبياء: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ٩٢ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ٩٣﴾ [الأنبياء: ٩٢ ـ ٩٣]. وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشورى: ١٣]. وقال تعالى: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٠ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٣٢﴾ [الروم: ٣٠ ـ ٣٢]. وقد قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]. فالغاية الحميدة التي بها يحصل كمال بني آدم وسعادتهم ونجاتهم عبادة الله وحده، وهي حقيقة قول القائل: لا إله إلا الله، ولهذا بعث الله جميع الرسل، وأنزل جميع الكتب، ولا تصلح النفس وتزكو وتكمل إلا بهذا، كما قال تعالى: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت: ٦ ـ ٧]. أي لا يؤتون ما تزكو به نفوسهم من التوحيد والإيمان.

وكل من لم يحصل له هذا الإخلاص لم يكن من أهل النجاة والسعادة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦] في موضعين من كتابه، وهذا أول الكلمات العشر التي أنزلها الله على موسى حيث قال: أنا الله لا إله إلا أنا، إلهك الذي أخرجتك من أرض مصر، من التعبد، لا يكون لك إله غيري؛ لا تتخذ صورًا، ولا تمثالًا، ما في السماوات من فوق، ومن في الأرض من أسفل، وما في الماء من تحت الأرض؛ لا تسجد لهن؛ ولا تعبدهن، إني أنا ربك العزيز.

وقد شهد المسيح عليه السلام أن هذا هو أعظم وصية في الناموس، فعبادة الله وحده لا شريك له، وأن يكون الله أحب إلى العبد من كل ما سواه، هو أعظم

وصية وكلمة جاء بها المرسلون، كموسى والمسيح ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين، وضد هذا هو الشرك الذي لا يغفره الله تعالى: قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]. وقد بُسِط الكلام على هذا في غير هذا الموضع، وبُيِّن أن النفس ليس لها نجاة ولا سعادة ولا كمال إلا بأن يكون الله معبودها ومحبوبها، الذي لا أحب إليها منه[1].

المحقق ابن القيم:

ثم حمَلَ اللواءَ مِن بعد ابن تيمية تلميذُه الإمام المحقِّق شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكرٍ ابن القيِّم (ت٧٥١هـ)، وكان من العارفين الواصلين كشيخه، جمع بين الظاهر والباطن، وبين التَّحقيق العلميِّ والذوق الروحيِّ والنظر الفلسفيِّ، وهو صاحب الكُتب التي شرَّقتْ في العالم الإسلامي وغرَّبتْ من مثل: **(زاد المعاد)**، و**(إعلام الموقِّعين)**، و**(مفتاح دار السعادة)**، وتعليقاته العلميَّة على سُنَن أبي داود التي نُشرتْ مع **(مختصر المنذري)** و**(معالم السُنن)** للخطابي.

وقد أفاض ابن القيم في بيان (الخُلقيَّة الإسلامية) في كتابه الكبير: **(مدارج السالكين شرح منازل السائرين إلى مقامات: إياك نعبد وإياك نستعين)**، للعلامة الحنبليِّ الصوفيِّ أبي إسماعيل عبد الله بن محمد الهروي (ت٤٨١هـ)، الذي ألَّف كتابًا في **(ذمِّ التأويل في الأسماء والصفات)**، وهو ما جعل ابنَ القيم يحبُّه ويطمئنُّ إليه، وقد وزن ابن القيم فيه قِيمَ الصوفية ومعارفهم بميزان الكتاب والسنة، كما وزنها في كثير من كتبه، مثل: **(طريق الهجرتين)**، و**(عدة الصابرين)**، و**(الداء والدواء)**، و**(روضة المحبين)**، و**(إغاثة اللهفان)** وغيرها.

وهو ممَّن يُحسِن العمل بهذين الميزانين، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩﴾ [الرحمن: ٧ ـ ٩].

وقد أحْسَنَ الفَهْم عن ربِّه في القرآن، وأحْسَنَ الفَهم عن رسوله في سُنَّته، وكان نِعْمَ المفسِّر للقرآن، ونِعْمَ الشارح للسُّنن، ومَن يُرِدِ الله به خيرًا يفقهه في الدين.

---

(١) المصدر السابق (٦/ ٣٢).

وابن القيم رجلٌ موسوعيُّ المعرفة، رشيق القلم، فيَّاض البيان، يتحدَّث عن كل موضوع يدخل فيه بسعة لا يزحمها ضيق، وسهولة لا تشوبها صعوبة، وتيسير لا تعسير فيه، ولا حرج.

وقد دخل في شرح هذه الرسالة الصغيرة، فجعل من شرحها موسوعةً قيِّمة، في بيان العقائد الإسلاميَّة، والعبادات الإسلاميَّة، والأخلاق الإسلاميَّة، والمعاملات الإسلاميَّة، فأصبح هذا الشرح (**المدارج**) في ثلاثة مجلدات كبار. وقد خالف شارحُنا كثيرًا الشيخَ الهروي، وخطَّأه صراحةً، مع محاولته كثيرًا أن يوجِّه كلامه توجيهًا يبعده عن الوجهة المرفوضة، وكثيرًا ما نراه يقول ذلك في عبارة واضحة لا لبْس فيها ولا غموض.

ابن القيم رجلٌ واضح، لا يعتري بيانَه خلْطٌ ولا خبْط، ولا تحريفٌ ولا إغماض، ولا لَقْلقة ولا إشكال، ولكنه أدخل نفسه في شرح رسالة صغيرة، مركَّزة كلَّ التركيز، لا تعتمد الصراحةَ ولا الإيضاح، بل تكنِّي وتعرِّض، وتخبِّئ وتحوِّر، وهي مليئة بالمصطلحات وألفاظ المجاز والكنايات.

وكم كُنَّا نودُّ لعلامتنا ابن القيم ألا يسلُك هذا المسلك الوعر، ولا يدخل في مداخل الصوفية، وكثيرًا ما تكون ضيِّقة، ومليئة بالاحتمالات، وفيها الباطل وفيها الحق، وكثيرًا ما يكون الحق هو الغالب في بعض المقولات، ولكن ابن القيم آثر أن يدخل المعركة، ويتحمَّل كلَّ الأعباء الكثيرة من أجلها، ويلقَى الصِّعاب بين محبَّته للهرويّ، ومحبَّته للحقّ، ولكنه في النهاية آثر الحقَ على الهروي، فكثيرًا ما نراه يقول: شيخ الإسلام حبيبٌ إلينا، ولكنَّ الحقَّ أحبُّ إلينا منه[1].

ولقد اضْطُرَّ ابن القيم أن يعارضه في أمور كثيرة في كتابه، مع محاولته أن يجري مع القوم في مُجرياتهم، ما دام فيها مُتَّسَع للقَبول بوجه، وقد اجتهد أن يجعل من التصوُّف السليم طريقًا لأهل الحق، لا عاديًا عليهم، ولا مصادرًا لهم.

وقد نقل ما قاله الصوفية: التصوُّفُ هو الخُلُقُ، فمَن زاد عليك في الخُلُق، فقد زاد عليك في التصوُّف[2]. فقال ابن القيم معلِّقًا: الدين كله خُلُق، فمَن زاد

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣٧).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٢٩٤).

عليك في الخُلُق، زاد عليك في الدين[1].

وأحيانًا ينكر على الهروي قولَه بصريح العبارة، فيما لا يرى فيه وجهًا للتأويل، وصرفًا للكلام عن ظاهره، ففي مثل ذلك يقول: «وقد خبط صاحب (المنازل) في هذا الموضع، وجاء بما يرْغَبُ عنه الكُمَّلُ من سادات السالكين والواصلين إلى الله، فقال: الفكرة في عَيْنِ التوحيد اقتحامُ بحرِ الجُحُود»[2].

وهذا بناءً على أصْلِه الذي أصَّله، وانتهى إليه كتابه في أمر الفناء، فإنَّه لمَّا رأى أن الفكرة في عين التوحيد، تُبْعِد العبدَ مِن التوحيد الصحيح عنده؛ لأن التوحيد الصحيح عنده لا يكون إلا بعد فناء الفكرة والتفكُّر، والفكرة تدل على بقاء رسم لاستلزامها: مفكرًا، وفعلًا قائمًا به. والتوحيد التام عنده لا يكون مع بقاء رسم أصلًا، كانتِ الفكرةُ عنده علامةَ الجحود، واقتحامًا لبحره، وقد صرَّح بهذا في أبياتِه في آخر الكتاب:

ما وحَّد الوَاحد مِن واحدٍ ... إذ كلُّ مَن وحَّده جاحدُ

توحيدُ مَن ينطق عن نَعْتِه ... عاريَّةٌ أبطلها الواحِد

توحيده إيَّاه توحيده ... ونعتُ مَن ينعته لَاحدُ

ومعنى أبياته: ما وحَّد الله ﷻ أحدٌ حقَّ توحيدِه الخاصِّ، الذي تُنْفَى فيه الرسومُ، ويضمحلُّ فيه كل حادِث، ويتلاشى فيه كل مكوَّن، فإنه لا يُتصوَّر منه التوحيدُ إلا ببقاء الرسْم، وهو الموحِّد وتوحيدُه القائم به، فإذا وحَّده شهد فعلَه الحادثَ ورسمَه الحادثَ، وذلك جُحودٌ لحقيقة التوحيد، الذي تُنفَى فيه الرسوم، وتتلاشى فيه الأكوان، فلذلك قال: إذْ كلُّ مَن وحَّدَه جاحِدُ. هذا أحْسَنُ ما يُحْمَل عليه كلامه.

وقد فسَّره أهلُ (الوَحدة) بصريح كلامِهم في مذهبهم، قالوا: معنى: (كل مَن وحَّده جاحِدُ). أي: كلُّ مَن وحَّده فَقَدْ وصفَ الموحَّدَ بصفة تتضمَّن جَحْدَ حقِّه، الذي هو عدَمُ انحصارِه تحتَ الأوصاف، فمَن وصَفَه فقدْ جَحَدَ إطلاقَه عن قيود الصفات.

وقوله: (توحيد من ينطق عن نعته). أي: توحيدُ المُحْدَثِ له، الناطقِ عن

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٢٩٤).

(٢) منازل السائرين، ص١٨، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

نعته، عاريَّة مُسْتَردَّة، فإنه المُوحَّد قَبْلَ تَوْحِيد هذا الناطق، وبعدَ فنائه، فتوحيدُه له عاريَّة أبطلها الواحد الحق بإفنائه كل ما سواه.

والاتحادي يقول: معناه أن الموحَّد واحدٌ من جميع الوجوه، فأبطل ببساطة ذاته تركيبَ نُطق واصِفه، وأبطل بإطلاقه تقييدَ نعتِ موحِّده.

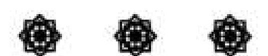
وقوله: (توحيدُه إيَّاه توحيدُه). يعني: أن توحيدَه الحقيقي هو توحيدُه لنفسِه، حيث لا هناك رسْم ولا مكوِّن، فما وحَّد اللهَ حقيقةً إلا اللهُ.

والاتحادي يقول: ما ثمَّ غيْرٌ يُوحِّدُه، بل هو المَوَحِّدُ لنفسِه بنفسِه؛ إذ ليس ثَمَّ سوًى في الحقيقة.

قوله: (ونعْتُ مَن ينعته لَاحِدُ). أيْ: نعتُ الناعِت له مَيْلٌ وخروجٌ عن التوحيد الحقيقيِّ، والإلحاد أصله المَيل، لأنه بنعته له قائمٌ بالرسوم، وبقاءُ الرسومِ ينافي توحيدَه الحقيقيَّ.

والاتحادي يقول: نعتُ الناعتِ له شرك؛ لأنه أسند إلى المطلَق ما لا يليق به إسنادُه من التقْييد، وذلك شرك وإلحاد.

فرحمة الله على أبي إسماعيل، فتح للزنادقة باب الكفر والإلحاد، فدخلوا منه وأقسموا بالله جَهد أيْمانهم: إنه لَمِنْهُم. وما هو مِنْهُم، وغرَّه سرابُ الفناء، فظن أنَّه لُجَّةُ بحْر المعرفة، وغايةُ العارفين، وبَالَغَ في تحقيقه وإثباته، فقادَه قسْرًا إلى ما ترى»[1] اهـ.



---

(١) انظر: مدارج السالكين (١/ ١٦٧ ـ ١٦٨)، ط. دار الكتاب العربي ـ بيروت، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي.

٤ ـ الاتِّجاه العقلي المعتدل في الأخلاق (الراغب الأصفهاني ت ٥٠٢)

وفي هذه المرحلة ظهر اتِّجاه أخلاقي إسلامي، لا نستطيع أن نُلحقه بالتيار الصوفي؛ لأنه لا يعتمد مقولاتِهم، ولا يرتبط بشيوخهم، ولا يأخذ مواقفه عنهم، فهو شيء، والقشيري وأبو حامد الغزالي شيء آخر.

ولا نستطيع أن نلحقه بالاتجاه الأخلاقي الفلسفي، مثل ابن مسكويه (ت٤٢١)، كما في كتابه (**تهذيب الأخلاق**)، فإن الفلسفة اليونانية كانت أمامه، وكان يستقرئها ويستنطقها، ويستنبط منها، ويذكر تعليقاته عليها، قليل منها إسلامي، ولذلك لم يبعد كثيرًا عن هذه الفلسفة وإيحاءاتها وتقسيماتها.

ولا نستطيع أن نلحقه أيضًا بالتيار السلفي؛ لأنه ليس منهم، ولا يتبنَّى كلَّ اتجاههم، ولا يعرف السنة والحديث كما يعرفونها، بل يروي الواهي والموضوع وما لا أصل له.

ولكنا وجدنا مفكرًا له طرازه الخاص، فهو مسلم أولًا، يجعل إسلامه فوق كل شيء، ثم يُعمِل عقلَه في الجانب الأخلاقي، أو ما سمَّاه: (مكارم الشريعة)، فرأيتُه خيرَ من يمثل الاتجاه العقلي الإسلامي، لِمَا له من نظرة فلسفية، عِمادها العقلُ، العقلُ المسلم السني، الذي لم يبع نفسه لليونان، كما باعته (المشائية الإسلامية). ولما له من نظرة إسلامية تعتمد على القرآن الكريم، فالرجل له دراساته القرآنية، التي عرفها المسلمون جميعا في كتابه الفريد: (**مفردات القرآن**)، وهو تصنيف فريد لا ثاني له، أقرَّ جميع العلماء بفضله، وضرورة الرجوع إليه، على اختلاف ألوانهم ومذاهبهم.

وله تفسير لم يكتمل، ولكنه وصل به إلى سورة المائدة، عرَّف به أستاذ

الدراسات القرآنية الدكتور أحمد حسن فرحات، ولعله يشتغل به، وهو تفسير كبير وعميق، وهو الذي سمَّاه (**تحقيق البيان في تأويل القرآن**).

هذا الاتجاه يمثله عالم معروف بدقَّته واعتداله، هو العلامة أبو القاسم الراغب الأصفهاني (ت٥٠٢هـ)، وهو من أقران الإمام الغزالي، وإن كان قد وُلِد قبله بمدة، ومات قبله بثلاث سنوات، وقالوا: إن الغزالي كان معجبًا بكتابه (**الذريعة**).

هذا العالم له في الأخلاق خاصة كتابه المعروف، الذي سماه: (**الذريعة في مكارم الشريعة**)، فهو لا يقصد في هذا الكتاب: (أحكام الشريعة)، التي لها حكمها من الفرض والمستحبّ والحرام والمكروه والمباح، فهذه لها رجالها، ولها كُتُبها ومراجعها وموضوعاتها، ولكنه يقصد: (مكارم الشريعة)، وهو ما يعني الجانب الأخلاقي، بما فيه من فضائل مطلوبة، ورذائل ممنوعة، وهو ما يقصده بكلمة (المكارم)، التي جاء عن الرسول ﷺ فيها: «إنما بُعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق»[(١)]. أو «صالح الأخلاق»[(٢)].

لقد أُتيح لي أن أقرأ هذا الكتاب في طبعاته القديمة، وأنا في المرحلة الثانوية، حيث كان من مقتنيات صديق لي، وكنت معجبًا به، وإن لم أُحِط به وبمراميه تمامًا، وكنت أتمنَّى أن يجد هذا الكتاب مَن يحقِّقه تحقيقًا جيدًا، ويُخرّج أحاديثه، ويوقف القارئ المسلم على أسراره، فهيّأ القدَرُ لذلك أخانا العزيز الأستاذ الدكتور أبو اليزيد العجمي، أستاذ العقيدة والفلسفة بكلية دار العلوم، الذي وضع وقته وجهده وفكره لخدمة الكتاب، وتحقيقه وشرحه، وتقديمه للناس تقديمًا يليق به، وينوِّه بقيمته العلمية والفلسفية في مجال (الأخلاق)، فشكر الله له، وجزاه الله خيرًا، وقد سعدنا به في قطر عدة من السنين، وانتفعنا بما عنده من علم.

ولم أجد في علماء المسلمين من اهتم بهذا الكتاب وبمؤلفه، واعتبره تأليفًا مهما في علم الأخلاق، أو فلسفة الأخلاق الإسلامية، بعد الدكتور

---

(١) سبق تخريجه ص١٢.

(٢) رواه أحمد (٨٩٥٢)، وقال مخرِّجوه: صحيح، والبخاري في الأدب المفرد في حسن الخلق (٢٧٣)، والحاكم في تواريخ المتقدمين (٢/ ٦١٣)، وقال: على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٤٥)، عن أبي هريرة.

العجمي - محقق الكتاب - إلا الأستاذ الدكتور مصطفى حلمي أستاذ العقيدة والفلسفة أيضًا، بكلية دار العلوم، والذي له الكتب القيمة والكثيرة في هذا الجانب. الذي سرَّني أنه التفَتَ إلى الرجل، واستفاد من علمه ونظرته، واقتبس منه، واعتبره من الروَّاد في هذا الاتجاه، وذلك في كتابه عن: (**الأخلاق بين الفلاسفة وعلماء الإسلام**).

الراغب سنِّي أصيل:

مَن قرأ كتاب (**الذريعة**)، ورأى فيه عنايةَ الراغب بالعقل والفكر، والتحليل والمقارنة، والتقسم والتنويع، ربما يَحْسَبه من المعتزلة المهتمِّين بالعقل والنظر أكثر من أهل السنة، وهذا ما ظنَّه الحافظ السيوطي، كما ذكر في كتابه (**بُغية الوعاة**)، الذي ترجم فيه للنحويين واللغويين، قال: «وقد كان في ظني أن الراغب معتزلي، حتى رأيت بخط الشيخ بدر الدين الزركشي على ظهر نسخة من (**القواعد الصغرى**) لابن عبد السلام ما نصه: ذكر الإمام فخر الدين الرازي في (**تأسيس التقديس**) في الأصول: أنَّ أبا القاسم الراغب من أئمة السنة، وقرنه بالغزالي.

قال: وهي فائدة حسنة، فإن كثيرًا من الناس يظنون أنه معتزلي»[1].

وأنا استغربتُ نسبته إلى المعتزلة، فلا شك أنهم لا ينفردون بالاهتمام بالعقل وحدهم، بل يشاركهم آخرون من الأشاعرة والماتريديَّة وغيرهم، كما ترى ذلك واضحًا في كتبهم ومصادرهم المعلومة. على أن لوازم المعتزلة العقلية: لا توجد في كتب الراغب، ممَّا يُسمَّى: (العدل والتوحيد، والمنزلة بين المنزلتين، والصلاح والأصلح، . . . وما شابهها)، فهذه اللوازم لا توجد في كُتب الراغب، وكتابه (**مفردات القرآن**) أكبر شاهد على ذلك. وهذا الكتاب (**الذريعة**)، وكتاب (**تفصيل النشأتين**): دليل واضح على نزعته السنيَّة الأصيلة.

على كلِّ حال ظُنون الناس كثيرة، وكثيرًا ما تكون في غير موردها، وقد أفاد كلام السيوطي كثيرًا في هذه القضية، ولا سيما أنه ذكر ثلاثة أسماء كبيرة من أئمة أهل السنة: الرازي، وابن عبد السلام، والزركشي.

---

(١) بغية الوعاة (٢/ ٢٩٧)، ط. المكتبة العصرية، بيروت، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

اتِّهام الراغب بالتشيُّع:

ولقد ذكر الأخ الدكتور أبو اليزيد العجمي محققُ الكتاب، ما حاوله بعض الشيعة من اتِّهام الرجل بالتشيُّع، وإن لم يجدوا ما يؤيِّد مقولتهم هذه، إلا روايته عن أهل البيت، أو روايته عن سيدنا علي أكثرَ من غيره، وهذه يشترك فيها المسلمون جميعًا، وخصوصًا أنَّ لعلي ﷺ كلامًا مجموعًا، كما في (**نهج البلاغة**)، ويسهل الرجوع إليه، ولا يوجد ذلك لغيره، ومع ذلك فلا يوجد في كتبه دليل يوحي بتشيعه، ولا نقَلَ أحدٌ ممَّن ترجموا له أنه كان شيعيًا، أو اتُّهم بذلك.

ولكن هذا شأن الشيعة دائمًا، يريدون أن يخطفوا الناس خطفًا من مذاهبهم، ومن ديارهم، ومن كل ما ينتسبون أو يطمئنون إليه.

الراغب يُقدِّم (الذريعة):

وسأدَعُ الإمامَ الراغب الأصفهاني يقدِّم لك بنفسه كتابه الأخلاقي الفريد: (**الذريعة في مكارم الشريعة**)، فيقول في مقدمته: «كنت قد أشرت فيما أمليتُه من كتاب (**تحقيق البيان في تأويل القرآن**)[1]، إلى الفرق بين أحكام الشريعة ومكارمها، فإن المكارم المطلقة هي اسم لما لا يتحاشى من وصف الباري جلَّ ثناؤه بها أو بأكثرها، نحو: الحكمة، والجود، والحلم، والعلم، والعفو، وإن كان وصفه تعالى بذلك على حدٍّ أشرفَ ممَّا يوصف به البشر، وإن الأحكام تتناول ذلك وتتناول العبادات.

وإنه باكتساب المكرمة يستحق الإنسان أن يوصف بكونه خليفة الله المعني بقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. وبقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ۝١٢٩﴾ [الأعراف: ١٢٩]. وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥]. وأشرتُ أن خلافة الله ﷻ لا تصحُّ إلا بطهارة النفس، كما أن أشرف العبادات لا تصح إلا بطهارة الجسم.

وقد استخرتُ الله الآن، وعملت في ذلك كتابًا؛ ليكون ذريعة إلى مكارم

---

(١) هو الذي عثر عليه د. فرحات، وهو إلى المائدة فقط.

الشريعة، وبيَّنتُ كيف يصل الإنسان إلى (منزلة العبودية)، التي جعلها الله تعالى شرفًا للأتقياء، وكيف يترقَّى عنها إذا وصلها إلى منزلة الخلافة، التي جعلها الله تعالى شرفًا للصِّدِّيقين والشهداء. فبالجمع بين أحكام الشرع ومكارمه علمًا، وإبرازهما عملًا، يكتسب العُلا، ويتمُّ التقوى، ويبلغ إلى جنة المأوى.

ورغَّبني أيها الأخ الفاضل ـ وفقك الله وأرشدك، وأعاذك من شرِّ نفسك ـ في تصنيفه: ما رأيتُ من تشوُّقك أن تزيِّن ما وَلِيَه الله من حُسْن خَلْقك وخُلُقك بما تتولاه من تحسين أدبك، وإكمال مروءتك، فما أجدر رِواك الصَّبيح، أن تُحصِّل وراءه الرأي الصحيح.

حتى تصادف أُترجًا يطيب معًا حِمْلًا ونَوْرًا، فطاب العود والورق

فما أقبحَ المرءَ أن يكون حُسْنُ جسمه، باعتبار قُبْح نفسه، جنَّة يغْمُرها بُومٌ، وصِرْمَة[1] يحرسها ذئب. كما قال حكيمٌ لجاهلٍ صبيحِ الوجه: أما البيت فحسنٌ، وأما ساكنه فرديءٌ. وأن يكون باعتباره بكثرة ماله، وحسن أثاثه، ثورًا عليه حُليٌّ، فقد سمَّى بعضُ الحكماء الأغنياءَ الأغبياءَ: تيوسًا صوفُها دُرَر، وحُمُرًا جِلالُها حِبَر[2].

توصيات الراغب لتلاميذه:

ثم قال الراغب: فكن أيها الأخ عالمًا، وبعلمك عاملًا، تكن من أولياء الله الذين: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢﴾ [يونس: ٦٢]. واحذر الشيطان أن يسْبِيك، ويُغريَك بأعراض الدنيا وزخارفها، فيجعلك من أوليائه، ويُخوِّفك بوساوسه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

واعلمْ أنه قبيح بذي العقل أن يكون بهيمة، وقد أمكنه أن يكون إنسانًا، أو إنسانًا وقد أمكنه أن يكون مَلَكًا، وأن يرضى بقِنْية[3] معارة، وحياة مستردَّة، وله أن يتَّخذ قِنْية مخلَّدة، وحياةً مؤبَّدة:

---

(١) القطعَة من النّخل أو الإبل.

(٢) الجلال: جمع جُلٍّ وجَلٍّ وهو ما تُلبَسه الدابة لتصان به. انظر القاموس جلل. والحبر جمع حبَرة بكسرة الحاء وفتحها: وهي برود يمينة، والبرد ثوب مخطط. انظر القاموس حبر وبرد.

(٣) القُنْيَةُ، بالكسر والضم: ما اكتُسِبَ ج: قِنًى. وقَنَى المالَ، كَرَمَى، قَنْيًا وقُنْيانًا، بالكسر والضم: اكْتَسَبَهُ.

فلم يُرَ في عيوب الناس عيبٌ   كنقص القادرين على التمام

وإن أردت أن تعرف بقاء العلماء الأتقياء، فاعتبر ما قال أمير المؤمنين (عليٌّ) ﷺ: مات خُزَّان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانُهم مفقودة، وآثارُهم في القلوب موجودة[1].

ولا يخدعنَّك عن طلب ذلك وإدراكه: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [هود: ١٩]. فقد وصفهم الله تعالى بالصمم والعمى، إذ قال: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [هود: ٢٠]. ثم ذمهم بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [هود: ٢١]. ثم فرَّق بينهم وبين من ضادَّهم فقال: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [هود: ٢٤]. فأخبر الله تعالى أنهم لا يسمعون ولا يبصرون، لفقدان سمع القلب وبصره، اللذَيْن بهما تنال حقائق المسموعات والمبصرات.

وهذا الكتاب يشتمل على سبعة فصول وأبواب»[2] اهـ.

وظلَّ الراغب يذكر تفصيلَ هذه الفصولِ والأبواب وأنواعها وأجزائها، وما اشتملتْ عليه في أربع صفحات من صحائف الكتاب.

- **الفصل الأول**: في أحوال الإنسان وقواه وفضيلته وأخلاقه، وتحته مباحث.
- **الفصل الثاني**: في العقل والعلم والنطق وما يتعلق بها وما يضادها.
- **الفصل الثالث**: فيما يتعلق بالقوة الشهوية وما وراءها.
- **الفصل الرابع**: فيما يتعلق بالقوى الغضبيَّة، وما يتعلق بها.
- **الفصل الخامس**: في العدل والظلم والمحبة والبغض، وما يتبعها.
- **الفصل السادس**: فيما يتعلق بالصناعات والمكاسب والإنفاق والجود والبخل، وما وراءه.

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٧٩).

(٢) الذريعة في مكارم الشريعة، ص٥٩ ـ ٦٢، بتحقيق د. أبو اليزيد العجمي، ط. دار السلام القاهرة ٢٠٠٧م.

• **الفصل السابع**: وهو الأخير في ذكر الأفعال، وأنواعها، والفروق بينها.

ثم بدأ الشيخ الإمام في شرح هذه الفصول بطريقته، ومنطقه القائم على العقل، والاستمداد من القرآن ـ وله معه كتابان: **(المفردات)**، و**(تحقيق البيان)** الذي لم نره والذي وصل فيه إلى سورة (المائدة) ـ والسنة، وإن كانت حصيلته من السنة أشبه بحصائل العلماء غير المتخصصين، فكثيرًا ما يقع في أحاديث غير صحيحة ولا حسنة، وربما لم يكن لها أصل في السنَّة، وَفْق موازين العلماء المرجوع إليهم في ذلك. ولكن هذه أهم مَرَاجِعُه، كما يرجع أيضًا إلى أقوال الأئمة والعلماء من الصحابة ومن بعدهم، وبخاصة سيدنا علي رضي الله عنه.

ولا أستطيع أن ألخِّص الكتاب القيّم في فصوله السبعة، وأضع فصوله أمام القارئ النابه، وأرى أنَّ الأوْلى والأوجب: أن يقرأه القارئ ويستمْتع به، ويسأل الله تعالى، كما سأله الراغب في بداية مقدمته: نورًا يهديه إلى الإقبال عليه، ويميل بنا إلى الإصغاء إليه، ويدل على حسن معاملته، والقوة على النفاذ في طاعته، وأن يجعلنا من جملة مَن ضمن أن يحرسهم من غائلة الشيطان، حيث قال: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]. وجعلهم الشيطان مثنوية اليمين[1]، حيث قال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٢ ـ ٨٣].

وسأكتفي هنا بوضع بعض الصفحات بين يدي القارئ النابه، ليقرأها ويستفيد منها.

بيان ما به يفْضُل الإنسانُ:

قال الراغب: «الإنسان وإن كان هو بكونه إنسانًا أفضلَ موجود، فذلك بشرط أن يُراعي ما به صار إنسانًا، وهو العِلْم الحق، والعمل المُحْكم، فبقدر وجود ذلك المعنى فيه يفضل؛ ولهذا قيل: الناس أبناء ما يحسنون، أي: ما يعرفون ويعملون من العلوم والأعمال الحسنة، يقال: أحسن فلان إذا علم، وإذا عمل حسنًا.

أما الإنسان من حيث ما يتغذَّى وينسل: فنبات، ومن حيث ما يحس

---

(١) أي: استثناء. انظر اللسان ثني.

ويتحرَّك: فحيوان، ومن حيث الصورة التخطيطية فكصورة في جدار، وإنما فضيلته بالنطق وقواه ومقتضاه؛ ولهذا قيل: ما الإنسان لولا اللسان إلا بهيمة مهملة، أو صورة ممثلة. فالإنسان يضارع المَلَك: بقوة العلم والنطق والفهم، ويضارع البهيمة: بقوة الغذاء والنكاح، فمن صرف هِمَّته كلَّها إلى تربية الفكر بالعلم والعمل، فخليقٌ أن يلحق بأفق الملَك، فيُسمَّى ملَكًا وربانيًا، كما قال تعالى أي على لسان نسوة امرأة العزيز عن يوسف: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [يوسف: ٣١].

ومن صرف همَّته كلَّها إلى تربية القوّة الشهويَّة باتباع اللذات البدنيَّة، يأكل كما تأكل الأنعام: فخليق أن يلحق بأفق البهائم، فيصير إمّا غمرًا كثَوْر، أو شرِهًا كخِنزير، أو ضَرِيًا ككلب، أو حقودًا كجمل، أو متكبّرًا كنَمِر، أو ذا روغان كثعلب، أو يجمع ذلك كله، فيصير كشيطان مريد، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠].

ولكون كثير ممَّن صورته صورة إنسان، وليس هو في الحقيقة إلا كبعض الحيوان، قال الله تعالى في الذين لا يعقلون عن الله: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٤]. وقال: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنفال: ٢٢]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنفال: ٥٥]. فبيَّنَ أنَّ الذين كفروا، ولم يستعملوا القوة التي جعلها الله لهم: هم شرُّ الدواب. وقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: ١٧١]. أي: مَثَلُ واعظ الكافرين: كمثل ناعق الأغنام، تنبيهًا على أنهم فيما يقال لهم: كالبهائم، وبهذا النظر عبَّر الشاعر عن بعض من ذمَّه فقال:

اللؤمُ أكرمُ مِنْ وبْرٍ ووالدِه والـلؤمُ أكرمُ مِن وبْرٍ وما وَلَدا

ولم يقل «ومن ولدا». تنبيهًا أنه لا يستحق أن يقال له: (مَنْ)، لكونه بهيمة، وعلى هذا قال المتنبي:

حوْلِي بكلِّ مكانٍ منهمُ خِلَقٌ تُخطي إذا جئتَ في استفهامها بِـ(مَنِ)!

ولِمَا ذكرْنا، لم يكن بين بعض هذه الأنواع وبعضها من التفاوت ما بين إنسان وإنسان، فإنك قد ترى واحدًا كعشرة، بل واحدًا كمائة، وعشرة أخرى

هَدَرة دون واحد، كما قيل لامرأة في منامها: أعشرة هَدَرة أحب إليك أم واحد كعشرة؟ فقالت: بل واحد كعشرة.

لا بل ترى واحدًا كألف، وألفًا مثل واحد، كما قال القائل:

ولـم أرَ أمثـالَ الـرجـالِ تـفـاوتـتْ   لدى المجد حتى عُدَّ ألفٌ بواحدِ

بل قد ترى واحدًا كعشرة آلاف، وترى عشرة آلاف دون واحد، كما قال ﷺ، وهو أصدق الناس قيلًا: «الناس كإبلٍ مائة لا تكاد تجد فيها راحلة»[1]. والإبل في تعارفهم: اسمٌ لمائة بعير، فمائة إبل: هي عشرة آلاف.

بل لو قيل: قد نرى واحدًا كعالَم، وعالَمًا مثلَ واحدٍ، لَجَازَ، كما قال ﷺ: «وزنت بأمتي فرجحتهم»[2]. وعلى هذا قال أبو نواس:

ولـيـس عـلـى الـلّـه بِـمُـسـتـنـكَـرٍ   أنْ يـجـمـعَ الـعـالَـم فـي واحـد

كوْنُ الإنسان بيْن البهيمة والمَلَك:

الإنسان لَمَّا رُكِّبَ تركيبًا بين بهيمة وملَك ـ فشَبَهٌ بالبهيمة بما فيه من الشهوات البدنيَّة، مِن المآكل والمشارب والمناكح، وشَبَهُه بالملَك بما فيه من القوى الروحانية، مِن الحكمة والعدالة والجُود ـ صار واسطة بين جوهرين: وضيع ورفيع؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد: ١٠].

فالنجدان مِن وجهٍ: العقل والهوى. ومن وجهٍ: الآخرة والدنيا. ومن وجهٍ: الإيمان والكفر. ومن وجهٍ: الهدى والضلال. ومن وجهٍ: موالاة الله تعالى وموالاة الشيطان المذكورتان في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. ومن وجهٍ: النور والظلمة المذكورتان في هذه الآية، أي: الفضيلة والنقيصة. أو من وجهٍ: الحياة والموت المذكوران في قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

---

(١) رواه مسلم في فضائل الصحابة (٢٥٤٧)، وأحمد (٥٦١٩)، عن ابن عمر.

(٢) سبق تخريجه. لم نقف عليه بهذا اللفظ، لكن رواه البزار (٤٠٤٨) في حديث شق الصدر من كلام الملكين بلفظ: لو وزنته بأمته رجحها. قال الهيثمي في المجمع (١٣٩٣١): رواه البزار وفيه جعفر بن عبد الله بن عثمان بن كبير، وثقه أبو حاتم الرازي وابن حبان، وتكلم فيه العقيلي، وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح. عن أبي ذر.

فمَن وفقه الله للهدى، وأعطاه قوّى لبلوغ المدى، فراعى نفسه وزكّاها، فقد أفلح، ومَن حُرم التوفيق، فأهمل نفسه ودسَّاها، فقد خاب وخسر، كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّنهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّنهَا ۝﴾ [الشمس: ٩ ـ ١٠].

ما لأجله أوجد الإنسان:

الإنسان من حيث هو إنسان كل واحد كالآخر، كما قيل:

شرِّقْ وغرِّبْ تجدْ من صاحب بدلًا   فالأرضُ من تربةٍ، والناس مِن رَجُل[1]

وإنما شرَفُه بأنه يوجد كاملًا في المعنى الذي أوجد لأجله، وبيان ذلك: أن كل نوع أوجده الله تعالى في هذا العالم، أو هدى بعض الخلق إلى إيجاده وصُنْعِه، فإنه أُوجِد لفعل يختصُّ به، ولولاه لَما وُجِد، وله غرض لأجله خُصَّ بما خُصَّ به، فالبعير إنما خُصَّ بذلك ليحملنا وأثقالَنا إلى بلد لم نكن بالغيه إلا بشق الأنفس، والفرس ليكون لنا جناحًا نطير به، والمنشار والمنحت لنصلح بهما الباب والسرير ونحوهما، والباب لنُحْرِز به البيت. والفعل المختص بالإنسان ثلاثة أشياء:

١ ـ عمارة الأرض المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]. وذلك تحصيل ما به تَزْجِية المعاش لنفسه ولغيره.

٢ ـ وعبادته المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝﴾ [الذاريات: ٥٦]. وذلك هو الامتثال للباري عزَّ وجلَّ في أوامره ونواهيه.

٣ ـ وخلافته المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ۝﴾ [الأعراف: ١٢٩]. وغيرها من الآيات، وذلك هو الاقتداء بالباري سبحانه على قدر طاقة البشر في السياسة باستعمال مكارم الشريعة.

ومكارم الشريعة هي الحكمة، والقيام بالعدالة بين الناس، والحِلم، والإحسان، والفضل، والقصد منها: أن تبلغ إلى جنَّة المأوى، وجوار ربِّ العزَّة تعالى.

وكل ما أوجد لفعل ما، فشرفُه بتمامِ وجود ذلك الفعلِ منه، ودناءتُه

---

(١) من شعر البحتري.

بفقدان ذلك الفعل منه؛ كالفرَس للعَدْو، والسيف للقَطْع والعمل المختصُّ به في القتال، ومتى لم يوجد فيه المعنى الذي أوجد لأجله كان ناقصًا، فإمَّا أن يُطْرَح طرحًا، وإمَّا يُرَدُّ إلى منزلة النوع الذي هو دونه، كالفرس إذا لم يصلح للعدو في الكرِّ والفرِّ اتُّخذ حَمُولة، أو أُعِدَّ أكُولَةً، والسيف إذا لم يصلح للقطْع اتُّخِذ منشارًا.

فمن لم يصلح لخلافة الله تعالى، ولا لعبادته، ولا لعمارة أرضه، فالبهيمة خيرٌ منه؛ ولذلك قال تعالى في ذمِّ الذين فقدوا هذه الفضيلة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]»[1] اهـ.

السياسة التي يستحق بها خلافة الله تعالى:

وتحدَّث العلامة الراغب عن السياسة التي بها يستحق بها الإنسان خلافة الله تعالى، فقال: «قد تقدم أنَّ الخلافة تُستَحق بالسياسة، وذلك بتحرِّي مكارم الشريعة. والسياسة ضربان:

أحدهما: سياسة الإنسان نفسَه وبدنَه وما يختصُّ به.

والثاني: سياسة غيره من ذويه وأهل بلده.

ولا يصلح لسياسة غيره مَن لا يصلح لسياسة نفسه؛ ولهذا ذمَّ الله تعالى مَن ترشَّح لسياسة غيره، فأمر بالمعروف، ونهى عن المنكر، وهو غير مُهذَّب في نفسه، فقال: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة: ٤٤]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف: ٢ ـ ٣]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ [المائدة: ١٠٥]. أي هذِّبوها قبل الترشُّح لتهذيب غيركم.

وبهذا النظر قيل: «تفقَّهوا قبل أن تُسوَّدوا»[2]. تنبيهًا أنكم لا تصلحون

---

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة، ص٧٩ ـ ٨٣.

(٢) روى البخاري في صحيحه في باب الاغتباط في العلم والحكمة (١/ ٢٥): وقال عمر: «تفقهوا قبل أن تسودوا». قال أبو عبد الله: «وبعد أن تسودوا وقد تعلم أصحاب النبي ﷺ في كبر سنهم». قال القسطلاني في إرشاد الساري (١/ ١٧٢): «تُسَوَّدُوا» بضم المثناة الفوقية وفتح المهملة وتشديد الواو أي: تصيروا سادة، من ساد قومه يسودهم سيادة. قال أبو عبيدة: أي تفقهوا وأنتم صغار قبل أن تصيروا سادة فتمنعكم الأنفة عن الأخذ عمن هو دونكم فتبقوا جهالًا.

للسيادة قبل معرفة الفقه، والسياسة العامة، ولأن السائس يجري من المسوس مجرى ذي الظل من الظل، ومن المُحال أن يستوي الظلُّ وذو الظل أعْوَج، ولاستحالة أن يهتدي المسوسُ مع كون السائس ضالًا، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ﴾ [النور: ٢١]. فحَكَم أنه مُحال أن يكون مع أتباع الشيطان لا يأمر إلا بالفحشاء والمنكر»[١].

الفرق بين مكارم الشريعة وبين العبادة وعمارة الأرض:

وتحدَّث عن (الفرق بين مكارم الشريعة وبين العبادة وعمارة الأرض)، فقال: «أما مكارم الشريعة: فمبدؤها طهارة النفس باستعمال التعلُّم، واستعمال العِفَّة والصبر والعدالة. ونهايتها: التَّخصُّص بالحكمة، والجُود، والحلم، والإحسان.

فبالتعلُّم يُتوصَّل إلى الحكمة، وباستعمال العفَّة يُتوصَّل إلى الجود، وباستعمال الصبر تُدرك الشجاعة والحلم، وباستعمال العدالة تُصحَّح الأفعال.

ومن حصل له ذلك، فقد تذرَّع المكرُمة المعنيَّة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾ [الحجرات: ١٣]. وصلح لخلافة الله تعالى، وصار من الربَّانيِّين والشهداء والصِّدِّيقين.

واعلم أن العبادة أعمُّ من المكرُمة، فإن كلَّ مكرمة عبادة، وليس كل عبادة مكرمة، ومن الفرق بينهما: أنَّ للعبادات فرائضَ معلومة، وحدودًا مرسومة، وتاركها يصير ظالمًا متعديًا، والمكارم بخلافها، ولن يستكمل الإنسان مكارم الشرع، ما لم يقم بوظائف العبادات، فتحري العبادات من باب العدل، وتحري المكارم من باب الفضل والنفل، ولا يُقبل تنفُّلُ مَن أهملَ الفرض، ولا تفضُّل من ترَكَ العدل، بل لا يصح تعاطي الفضل إلا بعد العدل، فإن العدل: فعْل ما يجب، والتفضُّل: الزيادة على ما يجب. وكيف يصحُّ تصوُّر الزيادة على شيء هو غيرُ حاصلٍ في ذاته؛ ولهذا قيل: لا يستطع الوصول من ضيَّع الأصول[٢].

فمن شغله الفرض عن الفضل فمعذور، ومَن شغله الفضل عن الفرض

---

(١) المصدر السابق ص٨٤.

(٢) سيأتي تعليقنا على هذه الفقرة.

بفقدان ذلك الفعل منه؛ كالفرَس للعَدْو، والسيف للقَطْع والعمل المختصُّ به في القتال، ومتى لم يوجد فيه المعنى الذي أوجد لأجله كان ناقصًا، فإمَّا أن يُطْرَح طرحًا، وإمَّا يُرَدُّ إلى منزلة النوعِ الذي هو دونه، كالفرس إذا لم يصلح للعدو في الكرِّ والفرِّ اتُّخذ حَمُولة، أو أُعِدَّ أُكُولَةً، والسيف إذا لم يصلح للقطْع اتُّخِذ منشارًا.

فمن لم يصلح لخلافة الله تعالى، ولا لعبادته، ولا لعمارة أرضه، فالبهيمة خيرٌ منه؛ ولذلك قال تعالى في ذمِّ الذين فقدوا هذه الفضيلة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]»[1] اهـ.

السياسة التي يستحق بها خلافة الله تعالى:

وتحدَّث العلامة الراغب عن السياسة التي بها يستحق بها الإنسان خلافة الله تعالى، فقال: «قد تقدم أنَّ الخلافة تُستَحق بالسياسة، وذلك بتحرِّي مكارم الشريعة. والسياسة ضربان:

أحدهما: سياسة الإنسان نفسَه وبدنَه وما يختصُّ به.

والثاني: سياسة غيره من ذويه وأهل بلده.

ولا يصلح لسياسة غيره مَن لا يصلح لسياسة نفسه؛ ولهذا ذمَّ الله تعالى مَن ترشَّح لسياسة غيره، فأمر بالمعروف، ونهى عن المنكر، وهو غير مُهذَّب في نفسه، فقال: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة: ٤٤]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف: ٢ ـ ٣]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ [المائدة: ١٠٥]. أي هذِّبوها قبل الترشُّح لتهذيب غيركم.

وبهذا النظر قيل: «تفقَّهوا قبل أن تُسوَّدوا»[2]. تنبيهًا أنكم لا تصلحون

---

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة، ص٧٩ ـ ٨٣.

(٢) روى البخاري في صحيحه في باب الاغتباط في العلم والحكمة (١/ ٢٥): وقال عمر: «تفقهوا قبل أن تسودوا». قال أبو عبد الله: «وبعد أن تسودوا وقد تعلم أصحاب النبي ﷺ في كبر سنهم». قال القسطلاني في إرشاد الساري (١/ ١٧٢): «تُسَوَّدُوا» بضم المثناة الفوقية وفتح المهملة وتشديد الواو أي: تصيروا سادة، من ساد قومه يسودهم سيادة. قال أبو عبيدة: أي تفقهوا وأنتم صغار قبل أن تصيروا سادة فتمنعكم الأنفة عن الأخذ عمن هو دونكم فتبقوا جهالًا.

للسيادة قبل معرفة الفقه، والسياسة العامة، ولأن السائس يجري من المسوس مجرى ذي الظل من الظل، ومن المُحال أن يستوي الظلُ وذو الظل أعْوَج، ولاستحالة أن يهتدي المسوسُ مع كون السائس ضالًا، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾ [النور: ٢١]. فحَكَم أنه مُحال أن يكون مع أتباع الشيطان لا يأمر إلا بالفحشاء والمنكر»[١].

الفرق بين مكارم الشريعة وبين العبادة وعمارة الأرض:

وتحدَّث عن (الفرق بين مكارم الشريعة وبين العبادة وعمارة الأرض)، فقال: «أما مكارم الشريعة: فمبدؤها طهارة النفس باستعمال التعلُّم، واستعمال العِفَّة والصبر والعدالة. ونهايتها: التَّخصُّص بالحكمة، والجُود، والحلم، والإحسان.

فبالتعلُّم يُتوصَّل إلى الحكمة، وباستعمال العفَّة يُتوصَّل إلى الجود، وباستعمال الصبر تُدرك الشجاعة والحلم، وباستعمال العدالة تُصحَّح الأفعال.

ومن حصل له ذلك، فقد تذرَّع المكرُمة المعنيَّة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: ١٣]. وصلح لخلافة الله تعالى، وصار من الربَّانيِّين والشهداء والصِّدِّيقين.

واعلم أن العبادة أعمُّ من المكرُمة، فإن كلَّ مكرمة عبادة، وليس كل عبادة مكرمة، ومن الفرق بينهما: أنَّ للعبادات فرائضَ معلومة، وحدودًا مرسومة، وتاركها يصير ظالمًا متعديًا، والمكارم بخلافها، ولن يستكمل الإنسان مكارم الشرع، ما لم يقم بوظائف العبادات، فتحري العبادات من باب العدل، وتحري المكارم من باب الفضل والنفل، ولا يُقبل تنفُّلُ مَن أهملَ الفرض، ولا تفضُّل من ترَكَ العدل، بل لا يصح تعاطي الفضل إلا بعد العدل، فإن العدل: فعْل ما يجب، والتفضُّل: الزيادة على ما يجب. وكيف يصحُّ تصوُّر الزيادة على شيء هو غيرُ حاصلٍ في ذاته؟ ولهذا قيل: لا يستطع الوصول من ضيَّع الأصول[٢].

فمن شغله الفرض عن الفضل فمعذور، ومَن شغله الفضل عن الفرض

---

(١) المصدر السابق ص٨٤.

(٢) سيأتي تعليقنا على هذه الفقرة.

فمغرور، وقد أشار تعالى بالعدل إلى الأحكام، وبالإحسان إلى المكارم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠]. وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الحج: ٧٧]. ففعل الخير هو الزيادة على العبادة.

وأما عمارة الأرض، فالقيام بما فيه تزْجيةٌ لحياة الناس، وصلاح معاشهم، والإنسان الواحد مِن حيث إنه لم يُكْفَ أمرَ معاشه بانفراده في مأكله وملبسه ومسكنه، ولم يكن له سبيل إلى ثباته في الدنيا، إلا بما يسدُّ جَوْعته، ويستر عَوْرته، ويقيه من الحر والبرد، لم يكن له بد من تحصيل ذلك من الوجه المباح له. ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [طه: ١١٨ ـ ١١٩]. ومتى كان سعيُ العبد في ذلك على الوجه الذي يجب، وكما يجب، يكون سعْيه عبادةً وجهادًا في سبيل الله، كما قال ﷺ: «من طلب الرزق على ما يُسَنُّ، فهو في جهاد، ومن لم يكن على ذلك، فسعيه هباء منثور، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٤]»[١].

وكان فيما يتولَّاه خادمًا للناس، مسخَّرًا بلا إرادة منه لخدمتهم، حتى كأنه من جملة البهائم التي سخرها الله تعالى لعباده، وامتنَّ عليهم بها في قوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٨]»[٢] اهـ.

طهارة النفس شرط صحَّة خلافة الله تعالى وكمال عبادته:

كما تعرض إمامنا لأمر آخر، وهو (كون طهارة النفس شرطًا في صحَّة خلافة الله تعالى، وكمال عبادته)، ففي ذلك يقول: «لا يصلح لخلافة الله تعالى ولا يكمل لعبادته وعمارة أرضه: إلا مَن كان طاهرَ النفس، قد أُزيل رِجْسه ونَجَسه، فللنفس نجاسة، كما أنَّ للبدن نجاسة، لكن نجاسة البدن تدرك بالبصر،

---

(١) هكذا أورده المؤلف، ولم أجده في كتب الحديث، وهو ليس من أهل الحديث حتى يعتمد قوله. ولعله ﷺ يقصد بذلك حديث كعب بن عجرة: «... إن كان خرج يسعى على ولده صغارًا فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان». رواه الطبراني في الكبير (١٩/ ١٢٩)، والأوسط (٦٨٣٥)، قال المنذري في الترغيب والترهيب (٢٦١٠): رجاله رجال الصحيح، وكذا قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٧٠٩)، وقال الألباني في الترغيب والترهيب (١٦٩٢): صحيح لغيره.

(٢) المصدر السابق ص٨٤ ـ ٨٦.

ونجاسة النفس لا تدرك إلا بالبصيرة، وإيَّاها قصد عزَّ وجل بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨]. وبقوله: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ [المدثر: ٥]. وبقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٢٥﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وإنَّما لم يصلح لخلافة الله تعالى إلا مَن كان طاهرَ النفس؛ لأنَّ الخلافة هي الاقتداء به على قدر طاقة البشر في تحرِّي الأفعال الإلهيَّة، ومن لم يكن طاهر النفس: لم يكن طاهر القول والفعل؛ فكل إناء بالذي فيه ينضح، ولن يخلو مَسْك سوء عن عَرْف سوء؛ ولهذا قيل: مَن طابت نفسه، طاب عمله، ومَن خبُثتْ نفسه خبث عمله، وقال ﷺ: «المؤمن أطيب من عمله، والكافر أخبث من عمله»(١). بل قد أشار تعالى إلى ذلك بقوله: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ﴾ [النور: ٢٦]. وبقوله: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ﴾ [الأعراف: ٥٨]. ولأجل أنه لا يطيب عمل من خبُثتْ نفسه، قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ﴾ [الحجرات: ٣]. وقال بعضهم في قوله ﷺ: «لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب»(٢): إنه أشار بالبيت إلى القلب، وأشار بالكلب إلى الحرص والحسد ونحوهما، ونبَّه أن نور الله تعالى لا يدخله إذا كان فيه ذلك. واستدل لذلك بأن الحرْص يقال له: الكَلَبُ. فإنه يقال: فلان أحْرَصُ مِن الكَلْب. ويقوي ذلك ما رُوي: أن التقوى لا تسكن إلا قلبًا نظيفًا.

وإلى الطهارتين أشار بقوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ [المدثر: ٤ ـ ٥]. وكنى بالثياب عن البدن، قال الشاعر(٣):

ثيابُ بني عوف طَهارى نقيَّةٌ ... وأوجههم عند المشاهد غُرَّان

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۝٣٣﴾ [الأحزاب: ٣٣]. وقال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ [المائدة: ٦]. وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ۝٢٢٢﴾ [البقرة: ٢٢٢].

---

(١) لم أجده حديثًا، وروي نحوه عن عليّ بن أبي طالب قال: فاعل الخير خير منه، وفاعل الشر شرّ منه. نهج البلاغة ص٦٦٥. ولعله يقصد بـ (ﷺ) سيدنا على بن أبي طالب.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٢٥)، ومسلم في اللباس والزينة (٢١٠٦)، عن أبي طلحة.

(٣) هو امرؤ القيس.

وقد قال بعض العلماء: إنما سُمِّي الحَوَاريون بذلك؛ لأنهم كانوا يطهِّرون نفوس الناس بإفادتهم الدين والعلم. من قولهم: حوَّرته، أي بيَّضته، وما رُوِي أنهم كانوا قصَّارين، فإشارة إلى هذا المعنى[1]، وإن كان مَن لم يتخصص بمعرفة الحقائق تصوَّر من هذا التفسير المهنةَ المعروفةَ بين الناس!»[2]اهـ.

ما يفزع إليه في طهارة النفس:

وبيَّن شيخنا هنا بحثًا خاصًا (فيما يُفزع إليه في طهارة النفس) فقال فيه: «الذي تطهُر به النفسُ حتى تترشَّح لخلافة الله تعالى، وتستحق به ثوابه، هو: العلمُ والعبادات الموظَّفة[3]، التي هي سبب الحياة الأخرويَّة، كما أن الذي به يطهر البدن هو الماء، الذي هو سبب الحياة الدنيويَّة، ولذلك أسماها الله تعالى: الحياة، وسمَّى ما أنزل من كتابه الماء، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]. فسمَّى العلم والعبادة: حياةً، من حيث إنَّ النفس متى فقدتهما هلكت هلاك الأبد، كما قال في صفة الماء: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء: ٣٠]. وقال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧].

قال ابن عباس رضي الله عنه: عنى بالماء القرآنَ، إذ كان به طهارة النفس، وبالأودية القلوب احتملته بحسب ما وسعته.

قال بعض العلماء في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾ [الفرقان: ٤٨]. وفي قوله: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنفال: ١١]: إنه عنى به القرآن، لقوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]. . . فإنَّ الماء المنزل من السماء المختص بالطهارة الذي لا يسد غيره من المياه مسدَّه: هو هذا الماء، أعني كلام رب العزة، فأمَّا المختص بطهارة البدن فقد يسد غيره مسدَّه في الطهارة؛ لأن الذي ينبع من الأرض يعمل عمله.

(١) يقصد أنه على الكناية والمجاز فالقصار يحوِّر الثياب أي يبيضها. قال الراغب في تفسيره (٢/ ٥٨٤): «وقيل: كانوا قصّارين يبيعون الثياب. وقال بعضهم: عنى أنهم كانوا يُطهرون نفوس الناس». نشر دار الوطن الرياض.

(٢) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص٨٦ ـ ٨٧.

(٣) الوظيفة: ما يُقَدَّر كل يوم، وهو أيضًا العهد والشرط. المحيط في اللغة للصاحب بن عباد (١٠/ ٤٣)، عالم الكتب، بيروت، طبعة أولى ١٤١٤هـ ١٩٩٤م، تحقيق الشيخ محمد حسن آل يس.

والذي يلزم تطهيره من النفس هو القوى الثلاث: **قوة الفكر** بتهذيبها حتى تحصل الحكمة والعلم، وقوة الشهوة بقمعها حتى تحصل العفَّة والجُود، وقوة الحَمِيَّة بإسلاسها حتى تنقاد للعقل، فتحصل الشجاعة والحلم، ويتولَّد من اجتماع ذلك العدالة.

فجميع الرذائل تنبعث من فساد هذه القوى الثلاث: أما فساد الفكرة فيتولد منه الجربزة[1] والبله، وأما فساد القوة الشهوية، فيتولد منه الشَّرَه أو خمود الشهوة، وأما فساد الحميَّة، فيتولَّد منه التَّهوُّر أو الجبن. ومن محصول هذه الأشياء أو حصول بعضها يحصل: إما الظلم وإما الانظلام، فجميع أصول الفضائل الخلقية أربعة، وجميع الرذائل الخلقية ثمانية»[2]. انتهى.

تعقيب وتقويم:

وأكتفي بهذا القدر في نقل شيء من إضاءات الإمام الراغب، وكنت أودُّ أن أعرض للكتاب بأناة وتفصيل، لأبيِّن ما يهدف إليه، ومهمَّته المتميزة، وأسلوبه الرائع، وحكمته العالية، التي جمعت بين العقل والنقل، وبين العلم والإيمان، ولا بدَّ لنا من ذلك إذا هيَّأ الله تعالى لنا الوقت والجهد والتوفيق لبحث هذا الأمر، أو يقوم به بعض إخواننا أو تلامذتنا الموفَّقين.

فالحق أن الكتاب نسيجُ وحدِه، فيما قدَّمه وعرضه وشرحه، وقد اقترح أخونا الدكتور العجمي أن يسمِّيه: (الأخلاق الاجتماعيَّة)، أو (الأخلاق الدينيَّة)، ولكن أرى أن الكتاب فيه أخلاق اجتماعيَّة، وأخلاق فرديَّة، كما أرى أن كلمة (أخلاق دينيَّة)، لا تكفي للدلالة على ما فيه، فإنما هو (أخلاق إسلاميَّة) لا (أخلاق دينيَّة). ومن المعلوم أن الدين عندنا جزء من الضروريات الخمس أو الست، على ما يرى الغزالي والقرافي والشاطبي وغيرهم، وإنما قلنا: إنها أخلاق إسلاميَّة؛ لأن الرجل كان حريصًا على ربطها بالإسلام حين سمَّاها: (مكارم الشريعة)، فهي ليست شيئًا بعيدًا عن صُلب هذا الدين.

---

(١) الجُربز بالضم الخب الخبيث معرب كُرْبز والمصدر الجَربزة. القاموس جربز.

(٢) الذريعة في مكارم الشريعة، ص٧٨ ـ ٨٩.

ما نأخذه من الراغب وما نؤاخذه عليه:

ونحن هنا نأخذ عن إمامنا الراغب أمرًا مهمًّا، وهو: أنه يفرِّق بين أحكام الشريعة ومكارم الشريعة، ويرى أن العبادة أعمُّ من المكرُمة، فكل مكرُمة عبادة، وذكر في الفرق بينهما: «إن للعبادة فرائضَ معلومة، وحدودًا مرسومة، وتاركها يصير ظالمًا متعديًا، والمكارم بخلافها، ولن يستكمل الإنسان مكارم الشرع ما لم يقم بوظائف العبادات، فتحرِّي العبادات من باب العدل، وتحري المكارم من باب الفضل والنفل، ولا يُقبل تنفُّل من أهمل الفرض، ولا تفضُّل من ترك العدل، فإن العدل فِعْل ما يجب، والتفضل الزيادة على ما يجب، وكيف يصحُّ تصور الزيادة على شيء هو غير حاصل في ذاته؛ ولهذا قيل: لا يستطع الوصول مَن ضيَّع الأصول».

قال الشيخ: «فمن شغله الفرض عن الفضل فمعذور، ومن شغله الفضل عن الفرض فمغرور، وقد أشار تعالى بالعدل إلى الأحكام، وبالإحسان إلى المكارم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠]. وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٧٧﴾ [الحج: ٧٧]. ففعل الخير هو الزيادة على العبادة»[(١)].

هذا ما قرره الإمام الراغب بصريح عبارته في كتابه، ونحن نُرحِّب بهذه القواعد التي أشار إليها في التفرقة بين الفضل والفرض، أو بين النفل والفرض، ولكننا لا نستطيع أن نوافق الشيخ على أن المكارم كلها تدخل في باب الفضل والنفل، فإن أُسُسها مفروضة في الكتاب والسنة، فهي من أعمال القلوب التي اعتبر القرآن سلامتَها أساسَ النجاةِ يومَ القيامة: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشعراء: ٨٨ - ٨٩]. وهي أساسُ دخول الجنة: ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝٣٣﴾ [ق: ٣٣].

وقد جاءت آيات القرآن وأحاديث الرسول، بأهمية هذه الأخلاق التي يجب توافرها، لاستجلاب رضا الله تعالى على عباده، كما في قوله ﷺ: «لا يدخل الجنة مَن كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»[(٢)].

---

(١) الذريعة ص٨٥.

(٢) رواه مسلم في الإيمان (٩١)، وأحمد (٣٧٨٩)، وأبو داود في اللباس (٤٠٩١)، عن ابن مسعود.

ويقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝١٩﴾ [النور: ١٩]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝١١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ۝١٢﴾ [الحجرات: ١١ ـ ١٢]. وغير ذلك ما جاء في حب الدنيا، وحب المال والجاه والرئاسة ونحوها، مما سمَّاه الإمام الغزالي في (**الإحياء**): (المهلكات)، واستدلَّ على ذلك بالآيات والأحاديث التي حرَّمتْ إفساد ذات البين، والنميمة، والتطاول على الناس.

فلا شك أن كثيرًا من مكارم الشريعة هو من الأساسيات في الدين، وليس مجرد (فضل) أو (نافلة)، وقول الله الذي استشهد به: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠]. حجة عليه، فقد اعتبر الراغب (العدل) فريضة، و(الإحسان) نافلة! كيف هذا وقد أمر بهما في كتابه، والأصل أن المأمور به في القرآن فرضٌ؟!

والحقيقة أن (الإحسان) فرض مأمور به، بأي تفسير فسَّرته، وقد روى مسلم في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبْح، وليحدَّ أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته»[1].

ومعنى كتابة الإحسان من الله: أنه تعالى فرضه، وأكَّد فرضيته، كما كتب على الأمَّة الصيام والقصاص في القتلى.

وقال الراغب في التعقيب على آية الحج: ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٧٧﴾ [الحج: ٧٧]: «وفعل الخير هو الزيادة على العبادة»[2]. ولكنَّا نقول: إن هذه الزيادة ليست نافلة، بل هي فريضة أمر الله بها، كما أمر بعبادته وبالصلاة والركوع والسجود، كل ذلك مقرون بفعل الخير في الآية نفسها،

---

(١) رواه مسلم في الصيد والذبائح (١٩٥٥)، وأحمد (١٧١١٣)، وأبو داود في الضحايا (٢٨١٥)، عن شداد بن أوس.

(٢) الذريعة ص٨٥.

ورتَّب عليها جميعًا الفلاح: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٧٧﴾ [الحج: ٧٧].

بين الراغب وابن مسكويه:

ومن الواضح أن بين الراغب وابن مسكويه قدرًا مشتركًا في العناية بالإنسان والسموِّ به، وبحقيقته لا بصورته، وبروحه لا بجسمه، وبعقله لا بشكله، وبأخراه قبل دنياه، وبجماعته قبل أفراده، وهنا تعمل كل القوى والمهارات والمؤسَّسات للرقيِّ بالإنسان الحقيقي، حتى يدرك السعادة الحقيقيَّة، ويصل إلى الغاية العليا، كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٦﴾ [يونس: ٢٦]. ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٢ ـ ٦٤].

ولكنْ هناك فرق بين الأفقين: أفق ابن مسكويه، وأفق الراغب، فابن مسكويه مربوط ربطًا محكمًا بالأفق اليوناني، وإن كان لديه قدر من الثقافة الإسلامية، كشأن كل مسلم يعيش في دار الإسلام، ويحتكُّ بعلماء المسلمين، ولكنه لم يتوسع ولم يتعمق في فهم الإسلام ودائرته الرحبة، التي تشمل العقائد والعبادات والمعاملات والروحانيات والأخلاقيات، والدعوة والدولة، والدنيا والآخرة، فهو كما قال تعالى عن القرآن في ختام سورة يوسف: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝١١١﴾ [يوسف: ١١١].

أما الراغب، فهو رجل ذو ثقافة عربية وإسلامية واسعة، بدت ثقافته العربية في كتابه المعروف: (**محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء**) نشر في أربعة مجلدات، وهو دليل على تضلُّعه من الأدب العربي.

وأما ثقافته الإسلامية، فتبدو في كتابه الذي لم يكتمل، وهو (**تحقيق البيان في تفسير القرآن**).

وللرجل نظرته الفلسفية المستقلة التي لم يحرِّفها الاستغراق في الإعجاب بفلاسفة اليونان الكبار، واعتبارهم (المعلِّمين الأوائل)، واعتبار أفكارهم وكتبهم هي المراجع الأولى التي يؤخذ منها الدين، ويؤخذ منها الفكر، وما خالف القرآن منها، يؤول القرآن لأجل موافقتها.

هذا ما انتهت إليه الفلسفة التي سمَّاها المسلمون وغيرهم: الفلسفة الإسلامية. والحقيقة أنها بهذا التقليد الانبطاحي أمام الفلسفة الأجنبية ليست جديرة بأن تحمل اسم الفلسفة الإسلامية، فهي لا تعبر عن وجهة القرآن، ولا وجهة السنة النبويَّة الصحيحة، ولا عن وجهة الصحابة ومَن اتَّبعهم بإحسان، ولا عن وجهة أعلام الأمَّة وعلمائها الذين حملوا علوم الإسلام المختلفة طوال القرون، وعلموها للناس، وألفوا فيها وشرحوها.

وقد كفَّرهم الإمام الغزالي في مسائل ثلاثة معروفة: القول بقدم العالم وأن الله لم يخلقه، وعدم علم الله تعالى بالجزئيَّات، وعدم بعث الأجساد. الذي يترتب عليه ألا تكون هناك جنة ولا نار بالمعنى الذي يبينه القرآن، المشتمل على الماديات والروحانيات في النعيم وفي العذاب.

قد عافى الله تعالى شيخنا الراغب الأصفهاني من هذا الداء الذي استولى على الفلاسفة الذين ظهروا واشتهروا في تاريخ الإسلام، واستطاع أن يأخذ من هذه الفلسفة أفضل ما يؤخذ منها، وتجرد عن التأثر بسلبياتها، ووثنياتها، ونظراتها المادية والقاصرة.

وقد ظهرت فلسفة الراغب في كتابه **(الذريعة)**، وكتابه الآخر **(تفصيل النشأتين)**، الذي حققه ونشره وعلق على حواشيه وقدم له أخونا وصديقنا العالم والكاتب الإسلامي التونسي الدكتور عبد المجيد النجار، حفظه الله وجزاه خيرًا عما قدم.

الفصل الخامس

الأخلاق الدينيَّة أو نظريَّة الوحي الإلهي

مضمون هذه النظريَّة ومستندها

كل النظريات التي سبق ذكرها[1]، من أهل الشرق أو الغرب، تتفق على أن مصدر الإلزام الخلقي فيها إنساني محض، وأن مستنده في التشريع والإلزام اعتبارات إنسانية تبرر حكمه لدى العقل أو الوجدان.

أما هذه النظريَّة التي نتحدث عنها هذه المرة، فتخالف المذاهب السابقة واللاحقة، حيث تذهب إلى أنَّ مصدر الإلزام، ومقياس الحكم الخلقي فيها ليس بشريًا ولا أرضيًا، ولكنه إلهيٌّ سماويٌّ، على معنى: أن الله تعالى اصطفى أناسًا من خلقه، فأنزل عليهم وحيًا معصومًا، أعلمهم به ما يجب على الإنسان أن يفعله، وما يجب أن يتركه، وأمرهم أن يُبلِّغوا هذا الوحي إلى مَن أرسلوا إليه من الأمم، مبشِّرين ومنذرين؛ لئلا يكون للناس على الله حجة.

وبهذا لم يُوكَل الناس إلى عقولهم وحدها، ولا إلى ضمائرهم وفطرهم فقط، فإن العقول البشريَّة محدودة، وحكمها يختلف من بيئة إلى بيئة، ومن عصر إلى عصر، بل من شخص إلى شخص، حسب الظروف والأحوال. على أن العقل لا دخل له في معرفة ما يُطلب في عالم الغيب، وهو ما يحبُّه الله وما يكرهه من الأقوال والأعمال، فمَن أراد أن يتحرَّى الأمور التي يحبُّها الله ويرضاها، ويتجنَّب الأمور التي يبغضها ويسخطها، لا يستطيع العقل البشري أن يعطيه جوابًا شافيًا فيها.

والضمائر وحدها لا تكفي أيضًا، فهي غير معصومة. وكم رأينا من أقوام رضيت ضمائرهم وفطرهم أعمالًا منكرة، كما سجَّل تاريخ اليونان والرومان والفرس والعرب والهنود والترك وغيرهم.

---

(١) في تاريخ البحث الأخلاقي عند الغرب، مثل: نظرية المثل والأوساط والتطور...

لهذا كان البشر في حاجة إلى هادٍ معصوم، يسدِّدهم إذا أخطؤوا، ويحكم بينهم إذا اختلفوا، ويُقوِّم سلوكهم إذا انحرفوا، فأمدَّتهم العناية السماويَّة بهادٍ لا يضل ولا ينسى، وبميزان لا يختل ولا يجور، وهو الوحي المنزل، الذي تقوم على أساسه الأخلاق، التي يحتاج إليها البشر في حياتهم، وهي ما يجيء لهم به الدين.

وهذه هي نظرية أتباع الديانات السماوية الثلاث: اليهودية، والمسيحية، والإسلام. وسنفرد الأخلاق في كلٍّ منها بحديث أو مبحث يناسبها، وَفْق الحاجة والمصلحة.

❁ ❁ ❁

المبحث الأول

الأخلاق في اليهوديَّة

يرى اليهود أنَّ الوحي الإلهي حدث مرة واحدة في التاريخ، كان ذلك على طور سيناء، حينما ألقى الله إلى موسى ﷺ، بالألواح، وأنزل عليه التوراة، فيها هدى ونور، وشريعة شاملة.

والتوراة عند اليهود هي الأسفار الخمسة المعروفة التي تشتمل على شريعة موسى، والشريعة الموسوية منثورة ـ بصفة خاصة ـ في ثلاثة منها، وهي:

١ ـ سفر الخروج. ٢ ـ سفر اللاويين (الأحبار). ٣ ـ سفر التثنية.

غير أن نصيب (الأخلاق) من هذه الأسفار قدر قليل، فمعظمها يتعلق بأخبار بني إسرائيل، أو بالتَّشريعات المفصَّلة في جوانب مختلفة من الحياة.

وبعضها يتحدَّث عن الطقوس الدينيَّة، ويبيِّن كيفية أدائها، مثل: كيف يجب بناء تابوت العهد؟ وكيف ينبغي أن تُصنع المسرجة (الشمعدان) ذات الفروع السبعة؟ وكيف يكون لباس الأحبار؟ وكيف تُحرَق القرابين؟ إلى كثير من هذه الأنواع.

الوصايا العشر:

ولعل أشهر نصٍّ في التوراة يتعلق بالأخلاق، هو النص الذي عُرف باسم: الوصايا العشر التي أعطاها الرب لموسى، وهي: «ثم تكلم الله بجميع هذه الكلمات: أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر، من بيت العبودية:

١ ـ لا يكن لك آلهة أخرى أمامي.

٢ ـ لا تصنع لك تمثالًا منحوتًا ولا صورةً ما ممَّا في السماء من فوق وما في الأرض من تحت، وما في الماء من تحت الأرض. لا تسجد لهنَّ ولا

تعبدهنَّ؛ لأنني أنا الرب إلهك إله غيور، أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع[1] من مُبغضيَّ، وأصنع إحسانًا إلى ألوف من مُحبيَّ وحافظِي وصاياي.

٣ ـ لا تنطق باسم الرب إلهك باطلًا؛ لأن الرب لا يبرئ من نطق باسمه باطلًا.

٤ ـ أذكر يوم السبت لتقدِّسه. ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك، وأما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك. لا تصنع عملًا ما أنت وابنك وابنتك وأمَتك وبهيمتك ونزيلك الذي داخل أبوابك؛ لأن في ستة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل ما فيها. واستراح في اليوم السابع[2]؛ لذلك بارك الرب يوم السبت وقدَّسه.

٥ ـ أكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك على الأرض التي يعطيك الرب إلهك.

٦ ـ لا تقتل.

٧ ـ لا تزنِ.

٨ ـ لا تسرق.

٩ ـ لا تشهد على قريبك شهادة زور.

١٠ ـ لا تشْتَهِ بيت قريبك. لا تشتهِ امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوْرَه ولا حماره ولا شيئًا ممَّا لقريبك»[3].

والمتأمِّل في هذه الوصايا العشر يجد فيها خُلُقًا إيجابيًّا واحدًا، هو احترام الوالدين، وهو ما يسمَّى في الإسلام: بر الوالدين، وكلمة (بر) أقوى وأوسع من كلمة (إكرام). ويجد فيها ستة أخلاق سلبية: لا تقتل، لا تزنِ، ولا

---

(١) الإسلام يقرر أن الجريمة أو الجناية أو المخالفة أيًا كانت لا يعاقب عليها إلا من جناها أو شارك فيها بأي جهد فيعاقب على قدر مشاركته. وفي هذا يقول القرآن: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]. ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النجم: ٣٦ ـ ٣٩]. فهذه عقيدة المسلمين.

(٢) رد القرآن الكريم على هذا الاعتقاد اليهودي بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق: ٣٨].

(٣) سفر الخروج الإصحاح ٢٠: ١ ـ ١٠، وسفر التثنية ٥: ٦ ـ ٢١.

تسرق... إلخ. وبعضها يدخل في بعض، وهي ما يتعلق بالجار[١].

فالوصايا الخُلُقية العشر كلها خمس في الحقيقة.

ومن النصوص المتصلة بالأخلاق هذا النص الذي يحوي **قانون القصاص الصارم**: «مَن قتل فعقابه القتل، ومَن قتل حيوانًا فإنه يُلزم بحيوان مثله، ومَن أهان أحد مواطنيه أُهين بمثل إهانته: العين بالعين، والسنُّ بالسنِّ، والجروح قصاص...».

وهناك نصوص رائعة توصي بالأرامل واليتامى والرقيق، واحترام الشيوخ، وواجبات القضاة، ونحو ذلك.

وجاء في النهي عن الربا: «لا تُقرض أخاك بربا، ربا فضةٍ، أو ربا طعام، أو ربا شيء ما مما يقرض بربا»[٢].

فمن المراد بالأخ هنا؟ أهو الأخ في الإنسانيَّة أو في اليهوديَّة؟

لقد جاء سفر التثنية، فبيَّن أن المراد به المعنى الثاني، حيث قال: «للأجنبي تقرض بربا، ولكن لأخيك لا تقرض بربا»[٣].

وفيه أيضا: «يُبْرئ كل صاحبِ دَيْن يدَه مما أقرض صاحبه. لا يطالبُ صاحبَه ولا أخاه، لأنه قد نُودِي بإبراء للرب. الأجنبيَّ تطالب، وأما ما كان لك عند أخيك فتُبرئه يدُك منه إلّا إن لم يكن فيك فقير»[٤].

وفي سفر الخروج: «إن أقرضت فضَّة لشعبي الفقير الذي عندك فلا تكن كالمرابي. لا تضعوا عليه ربًا»[٥].

ومن الأخلاقيات الجميلة التي وردت في التوراة المعاصرة:

«أنا الرب إلهكم، لا تتحدَّثوا عن الأصم بما يكره، ولا تضعوا أمام الأعمى ما يرتطم به، بل خافوا الرب إلهكم، لأني أنا الرب»[٦].

---

(١) كان اليهود ـ وما زالوا ـ يتجاورون في مساكنهم، ولهذا يعتبر تأكيد الوصية بالجار عبارة عن وصية اليهود بعضهم ببعض.

(٢) سفر التثنية ٢٣: ١٩ ـ ٢٠.

(٣) سفر التثنية ٢٣: ١٩ ـ ٢٠.

(٤) سفر التثنية ١٥: ٢ ـ ٤

(٥) سفر الخروج ٢٢: ٢٥ ـ ٢٦.

(٦) سفر اللاوين ١٩: ١٤.

سر خضوع اليهود لهذه الوصايا:

ولكن لماذا يخضع الإنسان لهذه الوصايا والأوامر والنواهي؟

لا تذكر التوراة ـ التي بأيدي اليهود ـ إلا سببًا واحدًا، هو صدورها من (يَهْوَهْ) إله بني إسرائيل (الذي أخرجهم من الذل والاستعباد) وهو يريد أن يطاع، فمن أطاع وعده الإله بحُسْن الثواب، ومن عصى أوعده بسوء العقاب، والوعد والوعيد يتعلقان بأمور كلها عاجلة في هذه الدنيا، وتكاد تستأثر بها النزعة المادية الخالصة: الصحة والرخاء، وكثرة الأولاد، وهزيمة المطيعين للأعداء، وأضدادها للعصاة. لا تكاد تذكر في الأجزية اليهودية ما أعدَّه الله للمؤمنين في الدار الآخرة من جنان ونعيم روحي ومادي، ولا يكاد يذكر في أجزيتها ما أعدَّ الله للكفار من نار جهنم، وما فيها من ألوان العذاب الذي لم يروا مثله في الدنيا.

نظرة في تقويم الأخلاق اليهودية

لا شك أن التعاليم اليهودية قد دعت قبل كل الفلاسفة والفلسفات البشرية إلى مجموعة من الأخلاق والفضائل الإنسانيَّة، لها قيمتها وروعتها، وقد أرست قواعد هذه الأخلاق باسم الدين، واسم الله الذي يعاجل بالمكافأة من رعاها ونفَّذها، وبالعقوبة مَن أعرض عنها، ونأى بجانبه.

ولكن يلاحظ على هذه التعاليم ما يلي:

١ ـ **الطابع العسكري التحكُّمي الصارم**، فالإله يأمر كقائد حربيٍّ، وكمَلِك، يجب أن يُطاع؛ لأنَّه الإله القويُّ الغيور، الذي يأخذ بجَريرة الآباء أبناءهم وأحفادهم إلى الجيل الرابع. والطريقة الوحيدة لاجتناب غضبه، ليست إلا الخضوع له، رضيت النفس أم كرهت، اقتنع العقل أو أبى، ولهذا كان من أوصاف الإله وألقابه عندهم: أنه «رب الجنود»[1].

٢ ـ **الوعد والوعيد** إنما جاء بأمور دنيوية مادية، من غنى المال، وصحة الجسم، ونضارة الشباب، وجمال المرأة، وإعطاء الأولاد، ونحوها من كل ما يُعنى به الماديون. ولم يرد في شأن المعنويات، ولا في جزاء الآخرة شيء

(١) سفر الخروج ١٥: ٣.

يُذكر، فضلًا عن أن نجد في التوراة شيئًا يحثُّ على عمل الخير، ابتغاء وَجْهِ الله تعالى.

٣ ـ **الغلو في الوعد والوعيد**، بما لا يتفق مع سنن الله العادلة في الخلق، فهو يمنح الغفران لمن أطاعوه ولذرياتهم إلى ألف جيل منهم، ويعاقب بجريمة العصاة أبناءهم وأحفادهم إلى الجيل الثالث والرابع، مع أن العدل الذي تؤمن به الفطرة السليمة والعقل الرشيد، هو ما جاء به القرآن، وقرَّر أنه في صحف إبراهيم وموسى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النجم: ٣٨ ـ ٣٩].

٤ ـ **عُنيت التعاليم اليهودية بالطقوس الدينيَّة، والمراسيم الشكلية**، ولم تُظهر عناية بإخلاص القلوب الذي هو روح الأعمال وسرُّها. وهو ما اهتم به الدين النصراني، وازداد اهتمامًا به الدين الإسلامي، ﴿أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿١١﴾﴾ [الزمر: ١١].

٥ ـ **مبدأ (العدل الثأري) أو المعاملة بالمثل**، هو المبدأ الذي نادت به التوراة، أما مقابلة الإساءة بالإحسان والتسامح، وهي درجة الفضل بعد العدل فلم تُذكَر، أو لم تتضح تمامًا.

٦ـ **في هذه الوصايا طابع قومي عنصري**، يتمثل في معاملة اليهودي بغير ما يعامل به الآخرون، فالإقراض بالربا إذا كان ليهودي فهو حرام، وإذا كان لغيره فهو حلال مشروع، حتى الرب الإله في التوراة، ليس هو رب الناس، ولا إله الناس، ولا رب العالمين، بل هو إله إسرائيل، ورب الجنود، أي: جنود إسرائيل. وهذه الناحية مبنية على عقيدة اليهود: أنهم وحدهم شعب الله المختار، أو أبناء الله وأحباؤه! ومَن عداهم من الأمم، فحلال لهم أموالهم ومقدساتهم.

وقد جاءت تعاليم (التلمود) فعمَّقت هذا المعنى ووسَّعته، ولا عَجَب أن حكى القرآن عنهم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [آل عمران: ٧٥].

ويقصدون بالأميين: مَن ليس لهم كتاب سماوي من العرب وأمثالهم.

٧ ـ **شَوَّهَتْ أسفار العهد القديم كثيرًا من سير الأنبياء**، ونسبت إليهم من سيئات الأعمال ما يشمئز منه ضمير الأوساط من الناس، فضلًا عن أهل الفضل والامتياز منهم، وبهذا اهتزت صورة (المصطفَيْن الأخيار) الذين يجب أن يتَّخِذ الناس من سلوكهم الأسوة الحسنة.

المبحث الثاني

الأخلاق في المسيحيَّة

تؤمن المسيحية بالعهد القديم (**التوراة**) إيمانها بالعهد الجديد (**الإنجيل**)، فكلاهما وحي، ومنهما يتكوَّن (**الكتاب المقدَّس**) عند النصارى، أعلن المسيح قوله: «لا تظنوا أني جئتُ لأنقض الناموس والأنبياء، ما جئت لأنقض، بل لأكمل».

من هنا أكَّد العهد الجديد الوصايا الخلقية التي اشتملت عليها الوصايا العشر، وزاد عليها وصية أخرى هي: الحث على محبة الغير.

ونستطيع أن نوضح وجهة الأخلاق المسيحية وطابعها في النقاط التالية:

١ ـ أوصى المسيح بغرس الفضائل التي تحتقرها كبرياء الإنسان، مثل: المسكنة والوداعة والرحمة والسماحة، وطهارة القلب، والعفو عن المسيء، ومن أشهر نصوص الإنجيل في ذلك: «طوبى للمساكين بالروح؛ لأن لهم ملكوت السماوات، طوبى للرحماء لأنهم يرحمون»[1].

«سمعتم أن قيل: تحب قريبك، وتبغض عدوك، وأما أنا فأقول لكم: أحبُّوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم، لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات، فإنه يُطلِع شمسَه على الأشرار والصالحين، ويُمطِر على الأبرار والظالمين، سمعتم أنه قيل: عين بعين، وسن بسن، ولكني أقول لكم: لا تقاوموا الشر بالشر، بل من لطمك على خدك الأيمن فحوِّل له الآخر، ومن أخذ رداءك فلا تمنعه ثوبك أيضًا، وكل من سألك فأعطه، ومن أخذ الذي لك فلا تطالبه... كل من رفع نفسه يتَّضع، ومن وضع نفسه يرتفع»[2].

---

(١) إنجيل متى ٥: ٣، ٧.

(٢) إنجيل متى ٥: ٤٣ ـ ٤٥، ٥: ٣٨ ـ ٤٢، ٤٥.

٢ ـ حثَّ العهد الجديد على ترك الدنيا، ونفَّر من تملُّك المال واقتنائه، وقال المسيح في ذلك لسائلٍ حديثِ العهد بالإيمان به: «إن أردتَ أن تكون كاملًا، فاذهب وبع أملاكك، واعطِ الفقراء، فيكون لك كنز في السماء، وتعال اتبعني»[١]. وقال: «لا يدخل غنيٌّ ملكوت السماوات، حتى يدخل الجمل في سمِّ الخياط»[٢]. وقال: «لا تستطيعون أن تخدموا الله والمال»[٣].

٣ ـ اهتمت المسيحية بنجاة الفرد من عذاب الآخرة، وسعادته في ملكوت السماء: «لأنه ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله، وخسر نفسه؟!»[٤]. ولم تعطِ مثل هذا الاهتمام للمجتمع، ولهذا جاء في الإنجيل: «فقال لهم: أعطوا إذًا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله»[٥].

٤ ـ حمل المسيح على (الطقوسيين) المتزمِّتين المتمسِّكين بشكليات الشعائر والمراسيم دون رُوحها، فحرَّموا فعل الخير في يوم السبت، ولو كان شفاء مريض، فلم يبالِ بهم المسيح، وقدم إليه مريض في يوم السبت، فشفاه بإذن الله، وقال لهم: «السبت إنما جعل لأجل الإنسان، لا الإنسان لأجل السبت»[٦].

وندَّد بالمرائين الذين يعنون بطهارة الظاهر، ويهملون طهارة الباطن: «أنتم الآن أيها الفريسيون تُنَقُّون خارجَ الكأس والقصعة، وأما باطنكم فمملوء اختطافًا وخبثًا يا أغبياء! أليس الذي صنع الخارج صنع الداخل أيضًا؟!»[٧].

وكذلك الذين قالوا: إن الأكل بأيد غير مغسولةٍ ينجِّس الإنسان، قال لهم: «ليس ما يدخل الفم ينجس الإنسان، بل ما يخرج من الفم هذا ينجس الإنسان»[٨]. أي: من الكذب وشهادة الزور.. ونحوهما.

---

(١) إنجيل متَّى ١٩ : ٢١.
(٢) إنجيل متَّى ١٩ : ٢٣ ـ ٢٤.
(٣) إنجيل متَّى ٦ : ٢٥.
(٤) إنجيل متَّى ١٦ : ٢٦.
(٥) إنجيل متَّى ٢١ : ٢٢
(٦) إنجيل مرقس ٢ : ٢٧.
(٧) إنجيل لوقا ١١ : ٣٩.
(٨) إنجيل متَّى ١٥ : ١١.

الفرق بين الأخلاق في اليهودية والنصرانية:

إذا وازنَّا بين الأخلاق في اليهودية والأخلاق في المسيحية، نجد فرقًا كبيرًا بحيث نرى هذه مقابلة لتلك، ومعارضة لها.

أ ـ كان اهتمام اليهودية بهذا العالم المادي الأرضي، حتى فيما تعد به من ثواب، أو تُوعِد به من عقاب، أما المسيحية فالفكرة التي تسودها: أنَّ السعادة ليست في هذا العالم، فليست الأرض إلا منفًى، أما مملكة الله، فليست في عالمنا الأرضي، بل هي في عالم آخر.

جاء في الإنجيل: «لذلك أقول لكم: لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون، ولا لأجسادكم بما تلبسون. أليست الحياة أفضل من الطعام؟ والجسد أفضل من اللباس؟!!»[1]. وفيه: أن المسيح قال لشاب حديث العهد بالإيمان به: «إن أردتَ أن تكون كاملًا، فاذهب وبع أملاكك، وأعطِ الفقراء، فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني»[2].

وقد تطور العمل بهذه الأقوال لدى المسيحيين إلى إنشاء نظام الرهبانيَّة الذي اتَّسم بالغلو في احتقار الحياة وعمارتها، وكان له انتشار وذيوع في القرون الوسطى في أوروبا.

ب ـ قرَّرت اليهودية مبدأ القصاص، ورد الاعتداء بمثله، دون زيادة ولا مسامحة، أما المسيحية فتوجب العفو والمسامحة، وقد مرَّ بنا قول الإنجيل: «سمعتم أنه قيل: العين بالعين، السن بالسن، ولكني أقول لكم: لا تقاوموا الشرَّ بالشر، مَنْ ضَرَبك على خدِّك الأيمن فأدر له خدَّك الأيسر»[3].

جـ ـ عُنيت اليهوديَّة بالطقوس وشكليَّة المراسيم، وجعلت لها كثيرًا من القيمة، أما الإنجيل، فأعلن أن لا قيمة لهذه الشكليات على الإطلاق، ما لم تصدر عن قلب خالص وروح طاهرة.

في الإنجيل: «فإن قدَّمتَ قربانك إلى المذبح، وهناك تذكَّرت أن لأخيك شيئًا عليك، فاترك هناك قربانك قدَّام المذبح، واذهب أولًا اصطلح مع أخيك،

---

(١) إنجيل متى ٦: ٢٥.

(٢) إنجيل متى ١٩: ٢١.

(٣) إنجيل متى ٥: ٤٣ ـ ٤٥، ٥: ٣٨ ـ ٤٢.

وحينئذ تعال وقدِّم قربانك»[1].

د ـ والحقيقة أنَّ المسيحية كانت حقبة روحية مضادة لمادية اليهودية، ونزعتها الدنيوية الشكلية والمراسيمية، ودائمًا حينما يراد إبطال شيء مغالٍ في جهة من الجهات، فلا بدَّ من المغالاة المؤقتة في إبطاله.

ولكن لا يجوز أن تكون هذه المبالغة سمة دائمة، ولا برنامجًا مستمرًّا إلى الأبد: فالمسيحية في وقتها مطلوبة لإبطال مغالاة اليهود، ومَن واقعهم مع الرومان وغيرهم، ولكن لا بد من منهج متوازن لإصلاح المجتمع وإصلاح العالم.

لهذا جاء الإسلام ليحمل المنهج الوسط للأمة الوسط، التي جعلها الله أمة وسطًا، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

فلم يعد مطلوبًا من كلِّ الناس إذا ضربهم عدوهم على خدِّهم الأيمن أن يديروا له الخد الأيسر، بل هذا مشروع لبعض الناس في معاملة بعض الناس، إذا رأى في ذلك الخير. ولكن إذا كان هذا يعتبر في ذلك الحين (الفضل)، فهناك نهج يمثل (العدل)، كما قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ١٩٤]. على حين قال في آية أخرى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل: ١٢٦]. وقال: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الشورى: ٤٠].

وكذلك قول المسيح: «لا يدخل الغني ملكوت السماوات حتى يدخل الجمل في سم الخياط»[2]. يعتبر لونًا من الغلو في التنفير من الغنى، ولكنْ محمد الرسول الخاتم ﷺ قال: «نِعْم المال الصالح للمرء الصالح»[3]. وقال:

---

(١) إنجيل متى ٥: ٢٣ ـ ٢٤.

(٢) إنجيل متى ١٩: ٢٣ ـ ٢٤.

(٣) رواه أحمد (١٧٧٦٣)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، وابن حبان في الزكاة (٣٢١٠)، وقال الأرناؤوط: إسناده قوي على شرط مسلم، والبخاري في الأدب المفرد كتاب حسن الخلق (٢٩٩)، والبيهقي في الشعب باب التوكل بالله (١٢٤٨)، وصحَّحه الألباني في مشكاة المصابيح (٣٧٥٦)، عن عمرو بن العاص.

«ما نفعني مال قط، ما نفعني مال أبي بكر»[1]. وقال الله تعالى لرسوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ [الضحى: ٨]. وكان من أصحابه الأغنياء الشاكرين مثل: عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف. كما ذكر القرآن من الأنبياء داود وسليمان اللذين آتاهما الله ملكًا عظيمًا.

---

(١) رواه أحمد (٧٤٤٦)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، والترمذي في المناقب (٣٦٦١)، وقال: حسن غريب، وابن ماجه في المقدمة (٩٤)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٧١٨)، عن أبي هريرة.

بين أخلاق الإسلام وأخلاق اليهودية والمسيحية

كانت اليهودية ديانةَ شعب خاصٍّ، في مرحلة معيَّنة من تاريخه، ولم يُقصد بها أن تكون رسالةً عامَّة، ولا شريعةً خالدة، كما تدلُّ التوراة نفسُها، ولهذا استحفظ الله علماء إسرائيل وأحبارهم: هذا الكتاب الإلهي، ولم يتولَّ هو سبحانه حفظه، كما تولَّى حفظ القرآن بنفسه، فَعَدَتْ على كتابهم العوادي، وأصابه التحريف والتبديل، حتى رأينا العهد القديم يحتوي كثيرًا من قصص الأنبياء، التي تنسب إليهم ارتكاب أشنع الرذائل الخلقية، كما رأينا في أخلاقها الطابع الدنيوي الماديّ الحسيّ، والطابع العنصريّ البشِع، المتَّسِم بكثير من العنف والقسوة، مع اهتمام زائد بالرسوم والشكليات.

والمسيحيَّة جاءت علاجًا لهذا العتوّ الماديّ الذي غرق فيه اليهود ـ ومثلهم الرومان الوثنيُّون ـ فكانت أشبه بحقنة روحيَّة قويَّة مضادَّة، وكثيرًا ما تكون الحكمة في علاج الغلوّ بغلوٍّ مثله، بشرط أن يكون ذلك لمرحلة معيَّنة وفترة مؤقتة، حتى يحدث التوازن، ويتحقَّق الانسجام والاعتدال.

وهكذا كانت المسيحيَّة، روحانيَّة عالية، ومثاليَّة مُحلِّقة، لم يُقْصَد بها أن تكون شريعة العالم، ولا رسالة الخلود، ولهذا كان أتباعها ـ وخصوصًا الغربيين ـ هم أبعد الناس عن تنفيذ ما تأمر به من الزهد والعفو والسماحة، وحب الأعداء! كما أنَّ التصورات والقيم والتقاليد، التي أضافتها الكنيسة على توالي العصور كالرهبانيَّة، صبغتِ المسيحيةَ ـ وخصوصًا في الغرب ـ بالتزمُّتِ والغلو والجمود، وإماتة الحياة.

أما الإسلام فقد تضمَّن كلمة الله الأخيرة للبشريَّة بعد أن بلغتْ أشُدَّها، وأصبحت مستعدَّةً لأن تُخاطَب برسالة عامة خالدة، لهذا تكفَّل الله بحفظ كتاب الإسلام بنفسه، فلم تتغيَّر فيه كلمة، ولم ينقص منه حرف، على توالي القرون: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩].

خصائص الأخلاق الإسلامية

لهذا شاء الله أن تتميَّز الأخلاق في الإسلام بخصائص انفردتْ بها عن اليهوديَّة أو المسيحيَّة أو كليهما، وهي الخصائص التي جعلتها صالحةً لكلِّ الأفراد، وكل الطبقات، وكل الأمم، وكل الأجناس، وكل البيئات، وكل الأزمان، وكل الأحوال.

١ ـ أخلاق معلَّلة مفهومة:

أولى هذه الخصائص: أنها بَرِئتْ من الطابع التعبُّدي التَّحكُّمي الذي عُرفتْ به اليهودية، والذي ظنه بعض الباحثين في الأخلاق لازمًا ذاتيًا لأسلوب الدعوة الأخلاقيَّة في الأديان جميعًا، وجهل هؤلاء أن الإسلام على عكس ذلك تمامًا، فهو إنما يعتمد دائمًا على الحِكَم المعقولة، والعِلَل المقبولة، مخاطبًا العقل القويم، والوجدان السليم، مبيِّنًا المصالح من وراء ما يأمر به، والمفاسد من جرَّاء ما ينهى عنه، مفصَّلًا تارة، ومُجْملًا أخرى.

اقرأ في التعليل التفصيلي: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت: ٤٥]. ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]. ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة: ١٨٣]. وقال في تعليل الأمر للناس بالحج: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ [الحج: ٢٨]. وقال: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت: ٣٤]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾ [الحجرات: ٦]. ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩١].

وفي التعليل الإجمالي يقول سبحانه: ﴿فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الجمعة: ٩]. ﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

٢ ـ أخلاق إنسانيَّة عالميَّة:

والأخلاق في الإسلام إنسانيَّة عالميَّة، لا تُبيح لجنس ما تحرِّمه على آخر،

العرب والعجم فيها سواء، بل المسلمون وغيرهم أمام أخلاقها سواسية. الربا حرام مع المسلم والكافر، والسرقة حرام لمال المسلم والكافر، والزنى حرام بالمسلمة وغير المسلمة، والعدل واجب مع المسلم وغير المسلم، والعدوان حرام على المسلم وغيره.

وفي هذا يقول القرآن الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة: ٨]. وبهذا تنزهت الأخلاق الإسلامية عن النزعة العنصريَّة القوميَّة، التي اتَّسَمَتْ بها الأخلاق اليهودية، والأخلاق القبليَّة والبدائيَّة على وجه العموم.

إنَّ أخلاق الإسلام الإنسانيَّة العالميَّة تخاطب الإنسان من حيث هو إنسان، إنها تريد (الإنسان الصالح) حيث كان، لا مجرَّد (المواطن الصالح) داخل حدود وطن معين، وتريد لهذا الإنسان أن يكون فاضلًا مع كل إنسان، لا مع قومه وحدهم، أو مع مواطنيه فحسب، أو مع أهل دينه فقط، أو مع أتباع مذهبه لا غير.

المسلم مطالب بأن يعدل مع الناس جميعًا، وأن يحب الخير للناس كافة، وأن يكون بالجميع بارًّا رحيمًا، فالإنسان ـ أيُّ إنسان ـ مهما يكن لون بشرته، أو شكل أنفه ورأسه، أو لغة لسانه، أو موطن ميلاده، أو طبقة أسرته، بل مهما يكن دينه ومذهبه، فهؤلاء جميعًا ينتمون إلى أبٍ واحد هو آدم، كما ينتسبون إلى ربٍّ واحد هو: الله الذي جعلهم شعوبًا وقبائل ليتعارفوا، لا ليتعادوا ويتناكروا.

ولهذا لا نجد في كتاب مقدس ما نجده في القرآن من مثل هذه النداءات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾، ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾.

وحسبي هنا أن أذكر نداءَيْن اثنين من نداءات القرآن للإنسانية بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾:

الأول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١].

وما أحقَّ كلمة (الأرحام) في هذا المقام أن يُراد بها: أرحامُ الإنسانيَّة العامة، بجوار الأرحام الخاصَّة بكلِّ فرد! إذ لا مانع أن يراد بها ما يشمل النوعين.

والثاني: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)﴾ [الحجرات: ١٣].

٣ ـ ملاءمة الأخلاق للفطرة:

جاء الإسلام في مجال الأخلاق بما يلائم الفطرة والطبيعة البشريَّة ويكمّلها، لا بما يصادرها ويصادمها، فما كان الله ليخلق الإنسان على طبيعة، ثم يُكلِّفه أن يقهرها ويقتلها، أو يُبطِل أثرها ويجحدها.

وهي الفطرة التي إذا نشأ عليها الإنسان دون تأثيرات من الخارج، فإنه يتَّجه إلى عقيدة التوحيد: أن له ربًّا يشعر بالحاجة إليه، ويدعوه إذا نزلت به المصائب، وهذا هو الشأن في الفطرة، كما قال القرآن: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]. وقال الرسول الكريم: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه أو ينصرانه أو يمجِّسانه»[١].

ومن هنا اعترف الإسلام بالكائن الإنساني، كما خلقه الله تعالى، بدوافعه النفسيَّة، وميوله الفطريَّة، كل ما صنعه أنه هذَّبها وصفَّاها، ووضع لها الحدود التي تُصان بها مصلحة المجتمع، ومصلحة الفرد ذاته، ولهذا أباحت الشريعة التمتُّع بالطيِّبات والزينة، وشرّعت الملكيّة الخاصة، ولم تنظر للغرائز على أنها رجس من الشيطان.

رغَّب الإسلام في النظافة والزينة، وجعلهما من مُقدِّمات الصلاة وشروطها: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١)﴾ [الأعراف: ٣١].

ولما قال رجل للنبي ﷺ: إنِّي أحبُّ أن يكون ثوبي حسنًا، ونعلي حسنًا، فهل ذلك من الكبْر؟ قال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ الله جميلٌ يحب الجمال»[٢].

وقال لرجل من أصحابه ـ اسمه حنظلة ـ ظنَّ في نفسه أنه قد نافق بعد

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجنائز (١٣٥٨)، ومسلم في القدر (٢٦٥٨)، عن أبي هريرة.
(٢) رواه مسلم في الإيمان (٩١)، وأحمد (٣٧٨٩)، وأبو داود في اللباس (٤٠٩١)، عن ابن مسعود.

إيمانه، لأنه يكون مع الرسول في حالة سموٍّ روحي شفَّاف، ثم يذهب إلى أهله وأولاده فتشغله شئون الحياة، وعواطف الزوجية والأبوة، فقال له: «يا حنظلة، ساعة وساعة»[1].

أنكر القرآن بشدة على الذين يُحرِّمون زينة الله التي أخرج لعباده: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]. وكان عنوان رسالة محمد عند أهل الكتاب ـ كما حكى القرآن ـ أنه: ﴿النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فإذا كانت المسيحية ترى أن: «الغنيَّ لا يدخل ملكوت السماوات[2]، فالإسلام يقول: «نِعْمَ المالُ الصالح للمرء الصالح»[3].

وإذا كان الإنجيل يقول: «لا تبحثوا عمَّا تأكلون وما تشربون، ولا تهتموا لذلك؛ لأن هذه الأشياء إنما يبحث عنها غير المؤمنين». فإنَّ القرآن يقول في طلب الرزق، حتى في أيام الحج نفسها، وهي أيام عبادة: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝٢٧ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ۝٢٨﴾ [الحج: ٢٧ ـ ٢٨]. ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٩٨]. والسعي في الأرض، والأكل من رزق الله مطلب قرآني: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ۝١٥﴾ [الملك: ١٥].

وإذا كانت المسيحيَّة قد أنشأت نظام الرهبانيَّة العاتي، بما فيه من قسوة على الجسد، ومصادرة للنوازع الفطريَّة، فالإسلام ينهي عن التبتُّل، ويحضُّ على الزواج، ويرى أن الدنيا متاع، وخيرُ متاعِها المرأةُ الصالحة، بل يعتبر

---

(١) رواه مسلم في التوبة (٢٧٥٠)، عن حنظلة.

(٢) إنجيل متى (١٩ : ٢٤).

(٣) رواه أحمد (١٧٧٦٣)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، وابن حبان في الزكاة (٣٢١٠)، والبخاري في الأدب المفرد كتاب حسن الخلق (٢٩٩)، والبيهقي في الشعب باب التوكل بالله (١٢٤٨)، وصحَّحه الألباني في مشكاة المصابيح (٣٧٥٦)، عن عمرو بن العاص.

السعي على العيال، والقيام على شؤونهم ضربًا من الجهاد في سبيل الله.

ولكن الإسلام في كلِّ ما أباحه مراعيًا الطبيعة البشريَّة، قد وضع له الضوابط والحدود، التي تقف به عند حدِّ الاعتدال، ولا يستحيل بالإفراط والغلوِّ أو بالتفريط والانحراف إلى انطلاقٍ حيواني ذميم.

٤ ـ مراعاة الأخلاق للواقع:

ومن خصائص الأخلاق الإسلامية: أنها أخلاق واقعيَّة، لا تُصدر أوامرها ونواهيها لأُناس يعيشون في أبراج عاجيَّة، أو يحلِّقون في أجواء المثاليَّة، إنما تخاطب بشرًا يمشون على الأرض، لهم دوافع وشهوات، ولهم مطامع وآمال، ولهم مصالح وحاجات، ولهم من دوافع الجسد ما ينزع بهم إلى الأرض، كما لهم من أشواق الروح ما يرتفع بهم إلى السماء.

لم يكلِّف القرآن الإنسان أن يحب أعداءه، وأن يبارك لاعنيه، كما أمر العهد الجديد، فهذا شيء لا تطيقه النفس البشريَّة، إلا شذوذًا، وإنما أمر القرآن المؤمنين أن يعدلوا مع أعدائهم، ولا تحْمِلهم عداوتُهم وبغضُهم على ظلمهم أو الاعتداء عليهم: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]. وهذا هو المقدور للبشر، وإنه مع ذلك لَقِمَّةٌ لا يرتقي إليها إلا المؤمنون.

ولم يقل القرآن ما قال العهد الجديد: «مَنْ ضربك على خدِّك الأيمن، فأَدِرْ له خدَّك الأيسر، ومن أخذ رداءك فلا تمنعه ثوبك. . . . ومن أخذ الذي لك فلا تطالبه به»[1] فهذا لا يستطيعه ـ كما يشهد الواقع ـ كلُّ الناس، ولا في كلِّ الأحوال، بل قال القرآن: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]. ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل: ١٢٦]. فأقرّ مبدأ العدل، ثم فتح الباب للمتطلِّعين إلى السموِّ والكمال، ليعفوا ويصفحوا. إنما الشيء الذي يُحرِّمه الإسلام قطعًا

---

(١) لوقا (٦/٢٨ ـ ٢٩). ونتساءل هنا: لو كان هذا النص من كلام المسيح، فلم خالفه عندما ضربه خادم رؤساء الكهنة فلم يعرض له الخد الآخر، بل قال له: «إن كنت قد تكلمت رديًا فاشهد على الرديِّ، وإن حسنًا فلماذا تضربني؟». (يوحنا: ١٨/٢٣).

وهل طبقت الكنيسة هذا الخلق في جولة من جولاتها أم أن واقع الحال يؤذن بأن هذا القول من المحال؟ وإذا عجزت الكنيسة والمسيح عن ذلك، فغيرهما أعجز.

هو العدوان: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البقرة: ١٩٠]. وبذلك وفَّق الإسلام بين عدل التوراة وسماحة العهد الجديد، وهذه هي الواقعية المثالية المتوازنة.

لم يقل القرآن ما قال العهد الجديد: «إن أعثرتكَ عينُك فاقلعها وألقِها عنك. خيرٌ لك أن تدخل الحياة أعور من أن تُلْقَى في جهنمِ النارِ ولك عينان[1].

بل أمر المؤمنين والمؤمنات أن يغضوا من أبصارهم، كما أمرهم بالتوبة ممَّا قد يبدر منهم، فقال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [النور: ٣٠]. وقال بعد ذلك: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور: ٣١].

وعفا الرسول عن نظرة الفجأة، وقال: «لا تُتبع النظرةَ النظرةَ، فإنما لك الأولى، وليست لك الآخِرة»[2].

ومن واقعيَّة الأخلاق الإسلاميَّة: أنها لم تفترض في المؤمنين المتقين أن يكونوا ملائكة أُولي أجنحة، لا تُسوِّل لهم أنفسهم السوءَ يومًا، ولا يتورَّطون في أوحال الرذيلة أبدًا، كلا إنَّ الإنسان خُلق على طبيعة مزدوجة، جمعتْ بين طينٍ وحمَأٍ مسنون، وبين نفحة من روح الله، فليس بمستنكر أن يُذنب الإنسان ثم يتوب، إنَّما المنكر أن يتمادى في الذنوب، ويستمرئ الرذيلة والعصيان.

لقد أذنب آدم عليه السلام وتاب، فتاب الله عليه، فلا غرابة أن يكون بنوه مثله؛ لهذا ذكر القرآن من أوصاف المُتَّقين: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران: ١٣٥].

كما فرَّق القرآن بين كبائر الإثم وفواحشه، وبين صغائر السيئات ولمم الذنوب، التي قلَّما يسلم منها أحد، فهي في دائرة المسامحة والغفران، ما اجْتُنبتِ المُوبقات: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء: ٣١].

---

(١) إنجيل متى ١٨ : ٩.

(٢) رواه أحمد في مسنده (٢٢٩٩١)، وقال مخرِّجوه: حسن لغيره، وأبو داود في النكاح (٢١٤٩)، والترمذي في الأدب (٢٧٧٧) وحسَّنه، عن بريدة.

تقدير الضرورات البشريَّة ومراعاة الأعذار:

ومن واقعية الأخلاق الإسلاميَّة: أنها قدَّرت للضرورات قدرها، وراعت الأعذار والظروف المُخفِّفة، ولم تتزمَّت تزمُّت المِثاليِّين المُتطرِّفين، الذين لا يقبلون أي استثناء[1]، ولهذا بعد أن ذكر القرآن مُحرمات الأطعمة، عقَّب عليها بقوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [البقرة: ١٧٣].

وكما عفا الإسلام عن استعمال المحرَّم عند الضرورات، شرع الرخص المخفَّفة ـ عند الأعذار ـ في الفرائض والواجبات، فالمرض والسفر ونحوها: أعذارٌ يُخفَّف بها الواجب أو يؤجَّل، رحمةً من الله، وتيسيرًا على عباده: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

٥ ـ الإيجابيَّة:

ومن خصائص الأخلاق في الإسلام: أنها أخلاق إيجابيَّة، فهي لا ترضى من المُتَحلِّي بها مسايرة الركب، أو المشي مع التيار، أو العجز والاستسلام للأحداث تُوجِّه قِيادَه كالريشة في مهَبِّ الريح، إنما تحثُّ على القوة والكفاح، ومواصلة السعي في ثقة وأمل، وتقاوم العجز واليأس، والتماوت والكسل، وكل أسباب الضعف: ﴿خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢]. ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف: ١٧١]. ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ [القصص: ٢٦]. ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف: ٨٧].

وفي الحديث: «واحرص على ما ينفعك، واستَعِن بالله ولا تعجَز، ولا تقل: لو أني فعلتُ كذا لكان كذا، ولكن قل: قدَّر الله وما شاء فعل، فإنَّ (لو) تفتح عمل الشيطان»[2].

ويستعيذ الرسول ﷺ من أسباب الضعف ومظاهره، فيقول: «اللهمَّ إني أعوذ بك من الهمِّ والحَزَن، والعَجز والكسل، والبخل والجُبن، وضِلَع الدين، وغلبة الرجال»[3].

---

(١) كما رأينا في واجبية (كانت).

(٢) رواه مسلم في القدر (٢٦٦٤)، أحمد (٨٧٩١)، وابن ماجه في المقدمة (٧٩)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه البخاري في الدعوات (٢٨٩٣)، وأبو داود في الصلاة (١٥٤١)، والترمذي في الدعوات (٣٤٨٤)، والنسائي في الاستعاذة (٥٤٥٠)، عن أنس.

يرفض الإسلام الاتّكاليّة المنهزمة، التي نراها في قول أصحاب موسى له: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة: ٢٤]. ولكنه يريد الإيجابية الفعَّالة التي تتمثَّل في قول أصحاب محمد: اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكما مقاتلون[١].

التواصي بالحق والدعوة إلى الخير:

لم يكتفِ الإسلام من المسلم أن يكون مستقيمًا في نفسه، حتى يعمل على استقامة غيره، ولم يَقبل المرءَ في عداد الفضلاء الصالحين: إذا صلح هو، ولم يأبه بفساد المجتمع من حوله، بل فرض على كل مسلم بقدر كفايته واستطاعته الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر والمرحمة، والنصيحة في الدين، والاهتمام بأمر المسلمين: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ١ - ٣]. ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [التوبة: ١١٢]. ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: ٧٨ - ٧٩].

وقال ﷺ: «الدين النصيحة»[٢]. وقد جاء في الحديث: «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم»[٣].

تغيير المنكر بكلِّ وسيلة ممكنة:

ومن إيجابيَّة المسلم: أنه لا يقف أمام الفساد في المجتمع وشيوع المنكر

---

(١) رواه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٠٩)، عن ابن مسعود.

(٢) رواه مسلم في الإيمان (٥٥)، وأحمد (١٦٩٤٠)، وأبو داود في الأدب (٤٩٤٤)، والنسائي في البيعة (٤١٩٧)، عن تميم الداري.

(٣) رواه الطبراني في الأوسط (٧٤٧٣)، والصغير (٩٠٧)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٩٤): رواه الطبراني في الأوسط والصغير، وفيه عبد الله بن أبي جعفر الرازي، ضعفه محمد بن حميد، ووثقه أبو حاتم وأبو زرعة وابن حبان، عن حذيفة.

فيه موقفَ المتفرج، الذي يرى النار يتطاير شررها، ولا يحاول أن يُطفئها، مكتفيًا بالحوقلة والاسترجاع، أو قائلًا: نفسي نفسي!

لقد رفض الإسلام السلبيَّة أمام الفساد الاجتماعي والسياسي، والتَّحلُّل الخلقي والديني، وطلب من المسلم أن يُغيِّر المنكر بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان.

يقول الرسول ﷺ: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»[1]. ويقول عليه الصلاة والسلام: «إنَّ الناس إذا رأوُا الظالم فلم يأخذوا على يديه: أوشك الله أن يعمَّهم بعذاب من عنده»[2].

لم يقبل الإسلام أن تشطر الحياة شطرين: شطر لقيصر، يُصرِّفه كيف يشاء، وشطر لله، ولكنه أعلن أنَّ الحياة كلَّها وَحْدةٌ متشابكة، ومن حقِّ المسلم ـ بل من واجبه ـ أن يُوجِّهها إلى أمر الله. فقيْصر وما لقيْصر: إنما هو كله لله الواحد القهار.

إنَّ الإسلام يفرض على المسلم أن يتقدَّم لتغيير المنكر بكلِّ وسيلة ميْسورة له، وإلى أيِّ مدًى يقدر عليه، فإن كان له سلطان وقُدرة، بحيث يستطيع تغييره باليد، أي: بالقوة، فليفعل ولا يدَّخرْ وسعًا، وإن عجز عن هذه المرتبة، فلينزل إلى المرتبة الثانية وهي: التغيير باللسان، مبينًا معرِّفًا، أو واعظًا مخوِّفًا، أو زاجرًا مُعنِّفًا، فإن عجز عن هذه الدرجة، فليس أمامه إلا المرتبة الدنيا، التي ليس وراءها من الإيمان حبة خردل وهي مرتبة: التغيير بالقلب.

مرتبة التغيير بالقلب تمثل الإيجابية:

صحيح أنَّ هذه المرتبة هي أضعف الإيمان، ولكنها لا تمثل السلبيَّة، كما يتوهم بعض الناس. إنها ليست رضًا بالباطل، أو سكوتًا عن الحق كالذي قيل فيه: الساكت عن الحق شيطان أخرس. لا، إنما هو سكوت ربما كان أبلغ من الإنكار، إن اللسان قد صمت، ولكن الذي يرى هذا المسلم الصامت أمام

---

(١) رواه أحمد (١٨٨٢٨)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح، والنسائي في البيعة (٤٢٠٩)، عن طارق بن شهاب.

(٢) رواه أحمد (١)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وأبو داود في الملاحم (٤٣٣٨)، والترمذي في الفتن (٣٠٥٧)، وقال: حسن صحيح، وابن ماجه في الفتن (٤٠٠٥)، وصحَّحه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٥٦٤)، عن أبي بكر الصديق.

المُنكر: يرى ويُحسُّ بأن وجهه وقلبه وكيانه كله يتكلم مُنكِرًا على الباطل، فهو يَغلِي من الداخل، ويحمل بين جنْبيه شحنة شعوريَّة وانفعاليَّة هائلة، يوشك أن تنفجر يومًا، فتأتي على بنيان المنكر من القواعد، ولو كانت هذه المرتبة مجرَّد سكوت مطلق، ما سماها الرسول عليه الصلاة والسلام: (تغييرًا بالقلب)، فإن محض الترك والصمت: لا يُسمَّى تغييرًا.

فالتغيير بالقلب تعبئة نفسيَّة وشعوريَّة ضد الفساد، لا بدَّ أن تتجسَّد يومًا في عمل واقعي ملموس.

مقاطعة مرتكبي المنكر:

وأدنى مظهرٍ عمليٍّ للتغيير القلبي: مقاطعة مرتكبي المنكر، وقطع الصلة بهم، ولا يصنع المسلم هنا ما يصنع بنو إسرائيل مع فسَّاقهم وظلمتهم، حيث كانوا يؤاكلونهم ويشاربونهم ويجالسونهم، وإن لم يشاركونهم في فسقهم وظلمهم، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ [المائدة: ٧٨ ـ ٨١].

﴿وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓۚ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء: ١٤٠].

مظاهر إيجابية المسلم في أخلاقه وسلوكه:

وتتمثل إيجابية المسلم في مظاهر شتَّى من أخلاق المسلم وسلوكه.

فوصايا الإسلام للمسلم أن يتَّجه للبناء بدل الهدم، ويقول لهم: أميطوا الأذى عن الطريق، بدل أن تسبوا الذين وضعوه فيه، وأضيئوا شمعة للسائرين بدل أن تلعنوا الظلام ألف مرة.

النَّهي عن السبِّ واللعن:

ومن إيجابيَّة الخلق الإسلامي أنه نهى المسلم أن يكون سبّابًا أو لعَّانًا، فالسبُّ واللعن توجيهٌ لطاقة الإنسان توجيهًا غيرَ منتِج، بل هو توجيه سلبيٌّ لا تستفيد منه الحياة.

كان رجل من المسلمين مصابًا بإدمان الخمر، وكان كثيرًا ما يُؤْتَى به سكران فيجلد، فقال أحد الصحابة ـ وقد جيء به مرة ـ: ما لَه لعنه الله؟ ما أكثر ما يُؤتَى به! فقال المربِّي الأخلاقي الأول محمد ﷺ: «لا تلعنه؛ فإنه يحب الله ورسوله»[1]. وفي رواية: «لا تكن عونًا للشيطان على أخيك»[2].

وأكثر من ذلك أنه لم يقْصر النهي على سبِّ الإنسان فقط، بل نهى عن كل سبٍّ، حتى سبِّ الحيوان، وسبِّ الجماد، وسبِّ المظاهر الطبيعية، وسبِّ الزمان وأحداثه.

ويكفي أن نقرأ الأحاديث التالية لنرى منها مبلغ حرص الإسلام على إيجابية المسلم في الحياة وتصريف طاقته إلى النافع، لا إلى الرمي في الهواء.

يقول الرسول ﷺ: «لا تسبُّوا الأموات؛ فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا»[3].

«لا تسبُّوا الدهر؛ فإن الله هو الدهر»[4].

«لا تَسبُّوا الريح؛ فإنها من روح الله تعالى، تأتي بالرحمة والعذاب، ولكن سلوا الله من خيرها، وتعوَّذوا بالله من شرها»[5].

«لا تَسُبِّي الحُمَّى؛ فإنها تُذهب خطايا بني آدم، كما يُذهب الكيرُ خبثَ الحديد»[6].

---

(١) رواه البخاري في الحدود (٦٧٨٠)، عن عمر بن الخطاب.

(٢) رواه أحمد (٤١٦٨). وقال مخرِّجوه: حسن بشواهده. والحاكم في الحدود (٤/ ٣٨٢) وصحَّحه، وسكت عنه الذهبي، عن ابن مسعود.

(٣) رواه البخاري في الجنائز (١٣٩٣)، وأحمد (٢٥٤٧٠)، والنسائي في الجنائز (١٩٣٦)، عن عائشة.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٨٢٦)، ومسلم في الألفاظ من الأدب (٢٢٤٦)، عن أبي هريرة.

(٥) رواه مسلم في الألفاظ من الأدب وغيره (٢٢٤٦)، عن أبي هريرة.

(٦) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٧٥)، عن جابر بن عبد الله، بلفظ: أن رسول الله ﷺ، دخل على أم السائب أو أم المسيب.

«لا تَسبُّوا الديك؛ فإنه يوقظ للصلاة»[1].

على أنَّ الأروع من ذلك كله: نهْيُ المسلم أن يشتغل بسبِّ الشيطان نفسه، الشيطان الرجيم الملعون! فإن الأنفع من سبِّه ولعنه: الإعراض عنه، ورفض وساوسه، وإبطال مكايده، والإقبال على ما يسوؤه من ذكر الله، وعمل الصالحات. وهذه هي الإيجابية المُثلى.

عن أبي المليح، عن أبيه: كنت رديف النبي عليه الصلاة والسلام، فعثر بعيرنا، فقلتُ: تَعِس الشيطان! فقال لي النبي ﷺ: «لا تقل: تَعِس الشيطان، فإنه يعظُم، حتى يصير مثل البيت! ويقول: بقوتي (أي: صرعته بقوتي). ولكن قُلْ: باسم الله، فإنه يصغُر، حتى يصير مثل الذباب»[2].

إنَّ سب الشيطان عمل سلبيٌّ فارغ لا وزن له؛ ولهذا يُقِرُّ عينَ الشيطان.

أما ذكر اسم الله: فهو عمل إيجابي، يغيظ الشيطان، ويخنس منه ويتصاغر، حتى يكون أصغر من ذباب.

العيش في الماضي من السلبية:

ومن صور الإيجابيَّة في أخلاقيات الإسلام: ألا يعيش المسلم في ماضيهِ، يجترُّ آلامه وذكرياته السود، إن كان ماضيًا أليمًا، فهو يتذكره متحسِّرًا متندِّمًا، يقول: ليتني فعلت! ولو أنني تركت! مع أن ما فات مات، وما مضى لا يعود، كما قال الشاعر:

ولستُ براجعٍ ما فات مني ... بـ(لهف)، ولا بـ(ليت)، ولا (لو اني)

وهنا يكون الطب النبوي أنجع الدواء لمن هذه حاله: «وإذا أصابك شيء، فلا تقل: لو أني فعلت كذا، لكان كذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان»[3].

---

(١) رواه أحمد (٢١٦٧٩)، وقال مخرِّجوه: رجاله ثقات رجال الشيخين، وأبو داود في الأدب (٥١٠١)، وابن حبان في الحظر والإباحة (٥٧٣١)، وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٧٩٧)، عن زيد بن خالد الجهني.

(٢) رواه أحمد (٢٠٥٩١)، وقال مخرِّجوه: حديث صحيح، وأبو داود في الأدب (٤٩٨٢)، والحاكم في الأدب (٤/ ٢٩٢)، وصحَّحه ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٤٨١٩).

(٣) سبق تخريجه، ص٢٨٤.

ويقول القرآن في مثل ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾﴾ [آل عمران: ١٥٦].

ومثل ذلك في السلبيَّة، إذا كان الماضي حافلًا بالأمجاد والمآثر، وعاش المرء فيه، لا ليأخذ منه زادًا لليوم، وأملًا للغد، ولا ليصل مجدًا بمجد، بل ليتغنى بمجْد الأجداد، ويغطي إخفاق الأبناء بنجاح الآباء، ناسيًا هذه القاعدة الإلهيَّة: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النَّجم: ٣٩]. وهذه الحكمة الإنسانيَّة:

كن ابن من شئتَ واكتسبْ أدبًا   يغنيكَ محمودُه عن النسبِ
إنَّ الفتى من يقول: هاأنذا   ليس الفتى من يقول: كان أبي![١]

العمل المنتج ما دام في الحياة متَّسَع للعمل:

ومن مظاهر الإيجابية في الخُلُق الإسلامي: أن يظل المسلم عاملًا في الحياة منتجًا ما دام فيه قدرة على العمل، بل ما دام في الحياة متَّسَع للعمل، ولو لم ينتفع أحد من عمله بعد ذلك.

تأمَّل معي هذا الحديث النبوي الرائع: «إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة يريد أن يغرسها، فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها، فليغرسها»[٢].

لماذا أمر الرسولُ أحدَنا أن يغرس فسيلته في هذا الوقت، وهو لا يستطيع أن ينتفع بها ولا أحد من بعده، فقد قامت الساعة، وانفضَّ موكب الحياة؟

هنا تتجلى حكمة الإسلام واضحة للعيان، إنَّ المسلم خُلِقَ ليعمل، ليعمر الأرض، ويبني الحياة، ويشيع فيها الخضرة والنضرة، ويجب أن يظل عاملًا فيها، حتى تلفظ الحياةُ نفَسَها الأخير، إنه تكريم العمل لذات العمل، لا لما وراءه من منفعة، وما أحسب دينًا ولا فلسفة ولا نظامًا: ارتفع بتكريم العمل إلى هذا المقام.

---

(١) ينسب لسيدنا على بن أبي طالب.

(٢) رواه أحمد (١٢٩٨١)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، والبخاري في الأدب المفرد (٤٧٩)، والضياء في المختارة (٢٧١٥)، وصحح إسناده، وصحَّحه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩)، عن أنس بن مالك.

الإيمان بالقدر خيره وشره:

ومن إيجابيَّة المسلم: أنه يؤمن بالقدر خيره وشره، حلوه ومرِّه، ولكنه لا يستسلم له استسلام من لا إرادة له، ولا قدرة، ولا عقل. بل يجعل من إيمانه بالقدر قوة تشدُّ أزره، لا قيدًا يعوق سيره.

وقديمًا قال علماؤنا: من دلائل العجز كثرة الإحالة على المقادير.

وحديثًا قال فيلسوف الإسلام في الهند، وشاعره محمد إقبال: المسلم الضعيف يحتج بقضاء الله وقدره، والمؤمن القوي يعتقد أنه هو قضاء الله الذي لا يُرد، وقدره الذي لا يُغلب!

وفي هذا المعنى ورد أنَّ أحد الصحابة سأله أحدُ قوَّاد الفرس: من أنتم؟ فقال له: نحن قدر الله، ابتلاكم الله بنا، كما ابتلانا بكم، فلو كنتم في سحابة لصعدنا إليكم، أو لهبطتم إلينا!

وما أبلغ وأجمل ما رواه أبو داود في سننه: أن رجلين تخاصما عند النبي ﷺ، فحكم لأحدهما، فقال المغلوب: حسبي الله. فأنكر عليه النبي ﷺ قائلًا: «إن الله يلوم على العجز، ولكن عليك بالكيْس، فإذا غلبك أمرٌ فقل: حسبي الله»[1].

دلَّه على أن مثل هذه الكلمة (حسبي الله) إذا قيلت في غير موضعها كانت برهانًا على العجز والسلبيَّة، والهرب من المواجهة وتحمُّل المسؤولية، إنما الواجب أن يتصرّف الإنسان بعقل وحكمة على قدر استطاعته، فإذا غلبته أمور فوقَ طاقته كان من حقه أن يلجأ إلى الله قائلًا: حسبي الله ونعم الوكيل.

البعد عن المِراء والجدل:

ومن إيجابيَّة المسلم: أنه لا يشغل نفسه بالمراء والجدل، بل بالبناء والعمل، فالمراء قلما ينتج خيرًا، والجدل إذا فشا في قوم شغلهم عن العمل المُثمر، وفي الحديث: «ما ضلَّ قوم بعد هدًى كانوا عليه، إلا أوتوا الجدل»[2].

---

(١) رواه أحمد (٢٣٩٨٣)، وقال مخرجوه: إسناده ضعيف، لضعف بقية بن الوليد وجهالة سيف، وأبو داود في الأقضية (٣٦٢٧)، عن عوف بن مالك الأشجعي.

(٢) رواه أحمد (٢٢١٦٤)، وقال مخرِّجوه: حسن بطرقه وشواهده، والترمذي في التفسير (٣٢٥٣)، وابن ماجه في المقدمة (٤٨)، والحاكم في التفسير (٢/ ٤٤٧)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، عن أبي أمامة.

وقال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ أبغض الرجال إلى الله الألدُّ الخصِم»[1].

والمسلمون في عصورهم الأولى كانوا أكثر الناس عملًا، وأقلهم جدلًا، ولم تظهر كثرة المراء، والتعمُّق في الجدليات، إلا بعد اختلاطهم بالأمم الأخرى، فتأثّر بهم من تأثر، ودخل التنطُّع والتقعُّر على المسلمين، فكدَّر عليهم صفاءَ فطرتهم، ويُسرَ دينهم.

غلوُّ بعض المتصوفة في بعض تعاليم الشرع:

لقد غلا بعض المتصوِّفة في كثير من التعاليم التي جاء بها الإسلام، فخرجوا بها عن معانيها ومفاهيمها المقصودة بها شرعًا، ومالوا بها إلى الإفراط أو التفريط.

فمنهم من غلا في معنى (الزهد) حتى انتهى بهم إلى رفض الدنيا التي هي مزرعة للآخرة.

ومنهم من غلا في معنى (التوكل) حتى انتهى بهم إلى طرح الأسباب، واتباع السنن، التي أقام الله عليها هذا الكون، ونظم عليها هذا العالم.

ومنهم من غلا في معنى (الخوف من فتنة النساء) حتى انتهى إلى رهبانيَّة كرهبانيَّة النصارى، التي ابتدعوها بعد المسيح، كما قال القرآن: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧].

ومنهم من غلا في معنى (الحذر من شر الناس) حتى انتهى إلى العزلة عن الناس والحياة.

والرسول ﷺ يُوصي بالعمل لعمارة الحياة حتى آخر لحظة في عمر الدنيا، ولو لم ينتفع بثمرة العمل أحد، ولكن احترامًا لقيمة العمل في ذاته، كما مرَّ بنا الحديث القائل: «إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة ـ الفسيلة: النخلة الصغيرة ـ يريد أن يغرسها، فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها»[2].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في المظالم والغصب (٢٤٥٧)، ومسلم في العلم (٢٦٦٨)، كما رواه أحمد (٢٤٣٤٣)، عن عائشة.

(٢) سبق تخريجه، ص٢٩٠.

٦ ـ الشمول:

ومن خصائص الأخلاق الإسلامية: أنها أخلاق شاملة مستوعبة، فإذا ظنَّ بعض الناس أن الأخلاق في الأديان تنحصر في أداء الشعائر التعبُّديَّة ونحو ذلك، فهذا إن صحَّ في أخلاق دينٍ ما، فإنه لا يصح أن يُوصَف به قانون الأخلاق في الإسلام، فإن هذا القانون لم يَدَعْ للنشاط الإنساني في ناحيتيه: الفرديَّة والاجتماعيَّة مجالًا حيويًا أو فكريًّا، أدبيًا أو روحيًا، إلا رسم له منهجًا للسلوك وَفق قاعدة معيَّنة، بل تخطى علاقة الإنسان بنفسه، وعلاقته ببني جنسه، فشمل علاقته بالكون في جملته وتفصيله، ووضع لذلك كلِّه ما شاء الله من الآداب الراقية، والتعاليم السامية، وهكذا جمع الإسلامُ ما فرّقه الناسُ باسم الدين، وباسم الفلسفة، وباسم العُرف والعادة، ثم كان له عليهم المزيد.

فمن أخلاق الإسلام ما يتعلق بذات الفرد:

١ ـ **جسمًا** له حاجاته وضروراته: «إنَّ لبدنك عليك حقًّا»(١). ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف: ٣١].

٢ ـ **وعقلًا** له مواهبه وآفاقه: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]. ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾ [سبأ: ٤٦].

٣ ـ **ونفسًا** لها مشاعرها ودوافعها: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٩ ـ ١٠]. ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢١].

٤ ـ **ورُوحًا** لها أشواقها وتطلعاتها غير الماديَّة، كمعرفة الله تعالى وعبادته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

ومن أخلاق الإسلام ما يتعلق بالمجتمع:

أ ـ **في آدابه ومجاملاته:** ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النور: ٢٧]. ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [لقمان: ١٩].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٩٧٥)، ومسلم (١١٥٩)، كلاهما في الصيام، عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

ب ـ وفي اقتصاده ومعاملاته: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ [المطففين: ٣]. ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٢٧٨﴾ [البقرة: ٢٧٨]. «مَن غشَّ فليس منا»[1].

جـ ـ وفي سياسته وحكمه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]. «الدين النصيحة». قلنا: لمن؟ قال: «لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم»[2]. ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٩٥].

فلا انفصال في شِرْعة الإسلام بين السياسة والأخلاق، ولا بين الاقتصاد والأخلاق، كما تنادي بذلك بعضُ الاتِّجاهات الحديثة في العالم الغربي، فالأخلاق لا تنفصل عن عمل ما في الإسلام.

ومن أخلاق الإسلام: ما يتعلَّق بغير العقلاء: من الحيوانات والطير ونحوها كما قال الرسول المعلِّم: «اتقوا الله في البهائم المعجمة»[3]. وقال: «في كلِّ كبدٍ رطبة أجر»[4]. وقال: «إذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبْحة، وليَحُدَّ أحدكم شَفرته، وليُرِح ذبيحته»[5]. و«دخلت امرأةٌ النارَ في هرة حبستها، فلا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»[6].

ومن أخلاق الإسلام: ما يتعلق بالكون الكبير: من حيث إنه مجالُ التأمُّل والاعتبار، والنظر والتفكُّر، والاستدلال بما فيه من إبداع وإتقان على وجود مبدعه وقدرته، وعظمته وعلمه وحكمته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٠٢)، وأحمد (٧٢٩٢)، وأبو داود في الإجارة (٣٤٥٢)، عن أبي هريرة.

(٢) سبق تخريجه، ص٩٠.

(٣) رواه أبو داود في الجهاد (٢٥٤٨)، وابن خزيمة في المناسك (٢٥٤٥)، وصحح إسناده النووي في رياض الصالحين (٩٦٦)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٣)، عن سهل بن الحنظلية.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في المساقاة (٢٣٦٣)، ومسلم في السلام (٢٢٤٤)، عن أبي هريرة.

(٥) رواه مسلم في الصيد والذبائح (١٩٥٥)، عن شداد بن أوس.

(٦) متفق عليه: رواه البخاري في المساقاة (٢٣٦٥)، ومسلم في السلام (٢٢٤٢)، عن ابن عمر.

﴿سُبْحَانَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١]. ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصّلت: ٥٣].

ومن حيث هو مجالٌ للانتفاع والاستمتاع بما أودع الله فيه من خيرات، وما هيَّأ فيه من أسباب، وما بثَّ فيه من قوى مُسخَّرة لخدمة الإنسان: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]. ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة: ١٧٢].

وقبل ذلك كله ما يتعلق بحقِّ الخالق العظيم: الذي منه كلُّ النعم، وله كلُّ الحمد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة: ٢ ـ ٦]. فهو وحده الحقيق بأن يُحمَدَ الحمدَ كلَّه، وأن تُرجى رحمتُه، ويُخاف عقابُه العادل يوم الجزاء، وهو وحده الذي يستحقُّ أن يُعبد ويُستعان، وأن يُطلب منه الهداية إلى الصراط المستقيم.

٧ ـ التوازن في صلب الأخلاقيَّة الإسلامية:

ومن خصائص الأخلاق الإسلامية: التوازن الذي يجمع بين الشيء ومقابله في اتّساق وتناسق، بلا غُلوٍّ ولا تفريط.

أخلاق الإسلام اجتمعت فيها الفضائل المتقابلة:

إنَّ الناظر في توازن الأخلاق الإسلامية، وتناسقها المعجز، يأخذه العجب كيف اجتمعت فيها الفضائل المتقابلة التي يحسب الكثيرون أنَّ التقاءها ضرب من المحال! ولهذا يَتعذَّر على الباحث أن ينسبها إلى لون من الألوان، أو مذهب من المذاهب الأخلاقيَّة التي عرفها الناس قديمًا وحديثًا:

أهي أخلاق قوَّة أم أخلاق محبَّة؟

أهي أخلاق زهد أم أخلاق لذَّة؟

أهي أخلاق رُوحيَّة أم أخلاق ماديَّة؟

أهي أخلاق فرديَّة أم أخلاق اجتماعيَّة؟

أهي أخلاق عقليَّة أم أخلاق وجدانيَّة؟

والحقُّ أنها ليست واحدة من هؤلاء، ولكنها كلُّ أولئك جميعًا؛ لأن فيها قدرًا من كلِّ نوع من هذه الأنواع، هو خير ما فيها، مع تنزُّهها عن مساوئه وتطرُّفاته.

فمَن شاء، وجد فيها (**القوَّة**)، ولكنها ليست القوة الوحشيَّة التي دعا إليها (**نيتشه**).

ومَن شاء، وجد فيها (**المحبَّة**)، ولكنها ليست المحبَّة الخياليَّة التي دعا إليها الإنجيل.

ومَن شاء وجد فيها (**الزهد**)، ولكنه ليس الزهد المتطرِّف الذي دعا إليه الرواقيون.

ومَن شاء وجد فيها (**اللذة**)، ولكنها ليست اللذة الحسِّية التي عُرف بها القورينيون.

ومَن شاء وجد فيها (**الرُّوحيَّة**)، ولكنها ليست الروحيَّة المسرفة التي دعا إليها البراهميون.

ومَن شاء وجد فيها (**الماديَّة**)، ولكنها ليست المادية المؤلَّهة التي صوَّرها الماركسيون.

ومَن شاء وجد فيها (**العقل**)، ولكنه ليس العقل المتعالي الذي آمن بعصمته المثاليُّون.

ومَن شاء وجد فيها (**المصلحة الاجتماعيَّة**)، ولكنها ليست المصلحة العرفيَّة التي نادى بها الوضْعيُّون.

الواقع أنَّ هذه الأخلاق ليس لها وصف ولا عنوان، يصوِّر حقيقتها، ويعبِّر عن مقوِّماتها وخصائصها، غير أنها (أخلاق إسلامية) وكفى.

ولتقرأ هذا النموذج من كتاب الله تجد فيه مصداق ما نقول: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ۝٤١ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٤٢ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ۝٤٣﴾ [الشُّورى: ٣٦ ـ ٤٣].

ففي هذه الآيات الكريمة نجد مسحة الزهد في متاع الدنيا، والتطلُّع إلى ما عند الله تعالى، مما هو خير وأبقى، وهو زهد مع الجِدَة والقدرة لقوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم﴾، فليس زهدًا من الفراغ، إنه زهد قلب، لا زهد يد.

ونجد الروحيَّة أو الربَّانيَّة في الإيمان والتوكل على الله والاستجابة لأمره، وإقام الصلاة له.

ونجد السمة الاجتماعيَّة في وجوب الإنفاق مما رزق الله، وتقرير مبدأ الشورى بوصفه عنصرًا من العناصر المكوِّنة لشخصيَّة الجماعة المؤمنة مقرونًا بالصلاة والزكاة.

ونجد القوة والعدل في الانتصار ضدَّ البغي والانتصاف بعد الظلم، ومجازاة السيئة بمثلها.

ونجد السماحة والإحسان فيمن عفا وأصلح، ودرأ السيئة بالحسنة، وصبر وغفر، وذلك من عزم الأمور، التي تحتاج إلى قوَّة الإرادة وضبط النفس، وليست من مظاهر الضعف، كما يظنُّ الظانون.

التوازن بين حقِّ الجسم وحقِّ الرُّوح:

من ذلك: التوازن بين حقِّ الجسم وحقِّ الروح، فلا حرمان للجسم يصل إلى حدِّ التعذيب، كما في البرهميَّة الهنديَّة، والرواقية اليونانيَّة، والرهبانيَّة المسيحيَّة ونحوها، ولا إغفالَ لأمر الرُّوح، كما في اليهوديَّة إلى حدٍّ كبير، ثم في المذاهب المادية التي لم تعترف للروح بوجود، فضلًا عن أن يكون لها حقٌّ، ولهذا قال الرسول ﷺ لبعض أصحابه الذين عزم أحدهم: أن يقوم الليل فلا ينام أبدًا. وعزم الثاني: أن يصوم النهار فلا يفطر أبدًا. وعزم الثالث: أن يعتزل النساء فلا يتزوَّج أبدًا، قال: «إنما أنا أعلمكم بالله، وأخشاكم له، ولكني أقوم وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوَّج النساء، فمن رغب عن سنَّتي فليس مني»[1].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١)، كلاهما في النكاح، عن أنس بن مالك.

التوازن بين الدنيا والآخرة:

ومن ذلك: التوازن بين الدنيا والآخرة، فإذا كانت اليهودية تجعل أكبر همِّها هذا العالم الأرضي الحاضر، والمسيحية تحصر كلَّ توجُّهها في مَلَكوت السماء، حيث العالم الآخر، فالإسلام يزاوج بين النظرتين، ويمزج بين الحياتين، فهذه مزرعة لتلك، والله سبحانه قد استخلف الناس، واستعمرهم فيها، فلا ينبغي أن يخرِّبوها أو يُعطِّلوها، والسعيد مَن فاز بحسَنَة الدنيا وحَسَنة الآخرة: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝٢٠١﴾ [البقرة: ٢٠١]. ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [القصص: ٧٧].

ومن دعاء الرسول ﷺ الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه: «اللهمَّ أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي»[(١)]. ومن أقوال بعض الصحابة: اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا»[(٢)].

التوازن بين إخلاص النية وإقامة التكاليف:

ومن ذلك: التوازن بين إخلاص النيَّة الذي اهتمَّت به المسيحية، وبين إقامة الشعائر والتكاليف الدينيَّة التي عُنيت به اليهودية.

فالإسلامُ يجعل للنيَّة والباعث القيمة الأولى في العمل: «إنما الأعمال بالنيات»[(٣)]. ولكنه لا يجيز للمرء أن يهمل شعائر الله في العبادات، أو يتعدَّى حدوده في الحلال والحرام والأحكام باسم حُسْن النية، ونبالة القصد، كالذي يأكل الربا ليبنيَ مسجدًا أو مستشفى، تقرُّبًا إلى الله، فالإسلام يرفض ذلك ويردُّ عليه بما قاله الرسول الكريم: «إنَّ الله طيِّب لا يقبل إلا طيِّبًا»[(٤)]. وبقوله: «مَن عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ»[(٥)].

---

(١) رواه مسلم في الذكر (٢٧٢٠)، عن أبي هريرة.

(٢) سبق تخريجه، ص٢٣٠.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (١)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٧)، عن عمر بن الخطاب.

(٤) رواه مسلم في الزكاة (١٠١٥)، وأحمد (٨٣٤٧)، عن أبي هريرة.

(٥) متفق عليه: رواه البخاري في الصلح (٢٦٩٧)، ومسلم في الأقضية (١٧١٨)، كما رواه وأحمد (٢٦٠٣٣)، وأبو داود في السنة (٤٦٠٦)، عن عائشة.

التوازن بين الحقوق والواجبات:

ومن ذلك: التوازن بين الحقوق والواجبات، فلا تدليلَ للفرد بكثرة الحقوق، وإطلاق العِنان له باسم الحرية، فيسترخي ويطْغَى، وينحرف ويُفسد، ويقول أبدًا: لِي، لِي. ولا يقول يومًا: عليَّ. ولا إرهاق للفرد بكثرة الواجبات والأعباء عليه، وإنْ ناءَ بها ظهره، وخارَتْ قواه، لا باسم المجتمع، ولا باسم غيره، حتى إنَّ النبي ﷺ ليجعل للعباد على الله ﷻ حقًّا في مقابل حقِّه تعالى عليهم، فقد قال ﷺ: «أتدري ما حقُّ الله على العباد؟ وما حقُّ العباد على الله؟ حقُّ الله على العباد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا. وحق العباد على الله: ألا يعذِّبهم إذا هم فعلوا ذلك»[1].

التوازن بين الواقعية والمثالية:

ومن ذلك: التوازن بين الواقعية والمثاليَّة، فمع الاعتراف بالواقع الذي يعيشه أكثرية الناس، يَدَع المجال مفتوحًا - مع الترغيب والتشويق - لأصحاب السبق والهمم للسموِّ والارتفاع، والمسارعة في الخيرات، فإنَّ درجات الناس تختلف كما قال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢]. ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١﴾ [الواقعة: ١٠ - ١١].

تعقيب وتقويم:

لقد شاء الله للإسلام أن يكون الرسالة العامة الخالدة، فهو هداية الله للناس كافَّة، من كلِّ الأمم، وكلِّ الطبقات، وكلِّ الأفراد، وكلِّ الأجيال، والناس تختلف مواهبهم وطاقاتهم: الروحيَّة والعقليَّة والوجدانيَّة، وتتفاوت مطامحهم وآمالهم، ودرجات اهتمامهم، ولهذا جمعت الفكرة الأخلاقيَّة في الإسلام ما فرَّقته الطوائف الدينية، والمذاهب الفلسفية - مثالية وواقعية - في نظرتها إلى الأخلاق، وتفسيرها لمصدر الإلزام الخلقي، فلم يكن كلُّ ما قالته هذه المذاهب والنظريات باطلًا، كما لم يكن كلُّه حقًّا، إنما كان عيب كلِّ نظرية: أنها نظرت من زاوية، وأغفلت أخرى، واهتمت بجانب، على حساب

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التوحيد (٧٣٧٣)، ومسلم في الإيمان (٣٠)، كما رواه أحمد (٢١٩٩١)، عن معاذ.

جانب آخر، وهو أمر ملازم لتفكير البشر، الذي يستحيل عليه أن ينظر في قضيةٍ ما: نظرًا يستوعب كلَّ الأزمنة والأمكنة، وكلِّ الأجناس والأشخاص، وكلِّ الأحوال والجوانب، فهذا يحتاج إلى إحاطة إلهٍ خالق عليم حكيم، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤].

فلا غرو إذ كانت نظرة الإسلام جامعةً محيطة مستوعبة؛ لأنها ليست نظرية بشر، بل هي وحيُ مَن أحاط بكلِّ شيء علمًا، وأحصى كلَّ شيء عددًا، وقدَّر كلَّ شيء تقديرًا.

لهذا أودع الله تعالى في هذا الدين ما يُشبع كلَّ نُهمة معتدلة، وما يُقنع كلَّ ذي وجهة سليمة، ويلائم كلَّ تطوَّر محمود.

فمَنْ كان **مثاليًا** ينزع إلى الخير لذات الخير، وجد في أخلاقيَّة الإسلام ما يُرضي مثاليَّته.

ومَنْ كان يؤمن بمقياس **السعادة**، وجد في الفكرة الإسلاميَّة ما يُحقَّق سعادته، وسعادة المجموع معه.

ومَنْ كان يؤمن بمقياس **المنفعة** ـ فرديَّة أو اجتماعيَّة ـ وجد في الإسلام ما يُرضي نفعيَّته.

ومَن كان يؤمن بالتَّرقِّي إلى **الجمال**، وجد فيه ما يُحقِّق طِلبته.

ومَن كان همُّه **التكيُّف مع المجتمع**، وجد فيه ما يلائم اجتماعيَّته.

حتى الذي يؤمن بأهمية **اللذة الحسيَّة**، يستطيع أن يجدها فيما أعدَّ الله تعالى للمؤمنين في الجنة من نعيم مادي، ومتاع حسِّي: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١].

كما يجد الذي يحدوه الشوق إلى النعيم الروحي في الجنة ما لا يمكن أن يوجد في غيرها، كما قال تعالى في الحديث القدسي: «أعددتُ لعبادي الصَّالحين في الجنة: ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر. اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧]»[1]. وقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾

(١) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٤٤)، ومسلم في الجنة (٢٨٢٤)، عن أبي هريرة.

[يونس: ٢٦]. ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة: ٧٢].

وبهذا تسمع كلُّ أُذن: الأنشودة التي تُحبها، وتجد كلُّ نفس: الأمنية التي تهفو إليها، دون جَوْر عن القصد، ولا انحراف عن سواء السبيل.

أصناف ثلاثة لا مكان لهم في الخُلُقية الإسلامية:

ستجد في الخلقية الإسلامية ثلاثة أصناف من الناس، لا تجد لهم مكانًا، ولا تتسع لهم بحال:

الأول: مَن لا يؤمن إلا باللذة الحسيَّة الحاضرة، أو بالمنفعة الدنيويَّة الشخصيَّة العاجلة، ولا يقيم وزنًا لما هو مُدَّخر له من لذائذ أكبر، ومنافع أعظم في حياة هي خير وأبقى، شعاره قول الشاعر:

ما مضى فات، والمؤمَّلُ غيبٌ   ولك الساعةُ التي أنت فيها[1]

والثاني: الفرد الذي يرفض جميع القيم، حبًّا لذاته، واتِّباعًا لهواه، أو يزعم أن القيم الأخلاقيَّة من وضع طبقة لاستغلال طبقة أخرى، وما شابه ذلك من لغو القول.

والثالث: المغرور المتعصِّب، الذي يصرُّ على ألا ينظر إلى الحياة والأحياء إلا من زاوية واحدة، وأفق ضيِّق، فهو سجين مذهب معيَّن، أو أسير نظرة خاصة، لا يستطيع أن يخلص منها إلى الأفق الفسيح الذي جاءت به رسالة الإسلام.

❁ ❁ ❁

(١) من شعر إبراهيم بن عثمان الغزي.

بين الأخلاق الفلسفية والأخلاق الإسلامية

يذكر الباحثون في الأخلاق من الغربيين أن قوانين الأخلاق الفلسفية تختلف اختلافًا بيِّنًا عن قوانين الأخلاق الدينية، وذلك من عدَّة نواح:

١ ـ **من حيث الموضوع**: فالأخلاق الدينيَّة في نظرهم: لا تهتم إلا بتحديد الصلة بالخالق سبحانه، ولا شأن لها بجوانب النشاط الإنساني، التي تُعنى بها الأخلاق الفلسفية.

وهذا إن صدق في بعض الأديان، فلا يصدق في الإسلام خاصة، فإن الأخلاق الإسلاميَّة تهتمُّ بالصلة بالله تعالى، كما تهتمُّ بصلة الإنسان بالإنسان، فردًا وأسرة ومجتمعًا وأمة ودولة، حقوقًا وواجبات، وتهتمُّ كذلك بالصلة بما هو دونه من الكائنات الحيوانيَّة والنباتيَّة والجمادات، وكلِّ شيء في الوجود للأخلاق فيه مجال، وسنفصِّل ذلك قريبًا في الأخلاق العملية.

٢ ـ **من حيث مصدر الإلزام**: فالمذاهب الفلسفية وإن اختلفت في تعيين مصدر الإلزام: أهو العقل، أم الضمير، أم الحاسة الخلقية، أم ضرورة الحياة في المجتمع أم اللذة أم المنفعة أم الواجب أم غير ذلك؟ فكلُّها متَّفقة على أنَّه مصدر إنساني محض، وأن مستنده في التشريع اعتبارات إنسانية، تبرِّر حُكمه لدى العقل أو العاطفة، لدى الفرد أو المجتمع، وهذا بخلاف الإلزام في الدين، فمصدره إلهي صرف، ومستنده ـ كما يقولون ـ مجرَّد الأمر الأعلى، الذي لا يعنيه رضا النفس، ولا تفتح العقل.

٣ ـ **من حيث بواعث العمل وأهدافه وجزاؤه**: فالدِّين يعِد بجزاء أخرويّ: يتمثَّل في ثواب وعقاب، أو جنَّة ونار، لمَن يمتثل أوامره أو يعصيها، ويجعل الهدف الأول للسلوك الأخلاقي هو: الفوز بالثواب، أو النجاة من العقاب، كما يجعل الباعث الأول على هذا السلوك هو: الخوف أو الرجاء. كما يعِد

بحياة طيبة في الدنيا لِمَن استقام على الخير، ويوعِد بعيش نكِد لمَن خرج عن طاعة الله.

أما الأخلاق الفلسفية: فلا تفترض شيئًا من ذلك، ولا تلوِّح بجزاء للفضيلة سوى نتيجتها الطبيعية: من رضا العامل وطمأنينته، وارتياح ضميره بأداء الواجب، ونحو ذلك من الأجزية العاجلة في هذه الحياة.

بل قد يكون الفيلسوف الأخلاقي غير مؤمن أصلًا بوجود إله خالق لهذا الكون، بارئ لهذا الإنسان، واهب لهذه الحياة، ومن ثَمَّ لا يؤمن بأن وراء هذه الحياة حياة أخرى، تُوفَّى فيها كلُّ نفس ما كسبت، وتُجزى بما عملت، وما يقوله أهل الدين في هذه القضية من ثواب وعقاب أخرويَيْن، فلا مكان له عنده.

وقد كتب العلامة محمد رشيد رضا في الفرق بين الحِكَم الفلسفيَّة والأخلاق الإسلاميَّة، من حيث **(مصدر الإلزام)**، و**(بواعث العمل وأهدافه وجزاؤه)**، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «فحكمة الحكماء وعلومهم آراء بشرية ناقصة، وظنون لا تبلغ من عالم الغيب إلا أنه موجود مجهول، وهي عرضة للتخْطِئة والخلاف، ولا يفهمها إلا فئة مخصوصة من الناس، وما كلُّ مَن يفهمها يقبلها، ولا كلُّ مَن يقبلها ويعتقد صحَّتها يرجِّحها على هواه وشهواته، إذ لا سلطان لها على وجدان العالم بها، فلا يكون لها تأثير الإيمان وإسلام الإذعان والتعبُّد؛ لأن النوع البشريَّ يأبَى طبعُه وغريزته أن يدين ويخضع خضوع التعبُّد لمَن هو مثله في بشريته، وإن فاقه في علمه وحكمته، وإنما يدين لمَن يعتقد أن له سلطانًا غيبيًّا عليه بما يملكه من القدرة على النفع والضرِّ بذاته، دون الأسباب الطبيعية المبذولة لجميع الناس بحسب سنن الكون ونظامه.

وأضربُ لهذا مثلًا: إنه كان للفيلسوف الرئيس ابن سينا خادمٌ متعلِّم، مُعجَب بعلومِه وفلسفته، وكان يَعْجَب منه: كيف يدين بملَّة محمد صلّى الله عليه وسلم، ويتبعه، وهو ـ في رأيه ـ أعلم منه وأرقى، وكان يُكاشفه بذلك، فيُعْرِض عنه ابن سينا ويُوبِّخه، فاتَّفق أن كانا في مدينة أصفهان في ليلة شديدة البرد، كثيرة الثلج، فأيقظ الرئيسُ خادمَه في وقت السَّحر، وطلب منه ماءً ليتوضأ به، فاعتذر بشدَّة البرد، وبقاء الليل، ثم أيقظه الرئيس في وقت أذان الصبح، وطلب منه الماء، فاعتذر بشدَّة البرد، حتى قال المؤذن: أشهد أنَّ محمدًا رسول الله. قال الرئيس لخادمه: اسمع ماذا يقول المؤذن؟ قال: إنه يقول أشهد أن محمدًا

رسول الله. قال الرئيس: الآن قد آنَ لِي أن أبيِّن لك ضلالك القديم، إنك خادمِي، لا عمل لك غير خدمتي، وإنك أشدُّ الناس إعجابًا بي وإجلالًا وتعظيمًا لي، حتى إنك تفضلني على رسول الله صلّى الله عليه وسلم، وتُنكر عليَّ أن أومِنَ به وأتَّبعه، وإنك على هذا تخالف أمري في أهون خدمة أطلبها منك في داخل الدار، معتذرًا بشدَّة البرد، وإن هذا المؤذِّن الفارسي يخرج من بيته قبل الفجر، ويصعد هذه المنارة، وهي أشدُّ مكان في البلد بردًا، حتى إذا لاح له الفجرُ أشادَ في أذانه بذكر محمد العربي بعد مرور أربعة قرون ونيِّف على بعثه، إيمانًا وإذعانًا وتعبُّدًا واحتسابًا. فتأمَّلْ هذا وتدبَّره في نفسك، يظْهَرْ لك الفرق بين سلطان النبوَّة على الناس، وسلطان العلم والفلسفة.

فمن أعظم مزايا هداية الوحي الدينية على العلمية الكسبيَّة: أنَّ جميع طبقات المؤمنين بها يذعنون لها بالوازع النفسي التعبُّدي، فبذلك تكون عامةً ثابتة، لا مجال للخلاف والتفرق فيها، ما دام الفَهم لها صحيحًا، والإيمان بها راسخًا، ولذلك نرى الشعوب التي ساء فَهمُها للدين، وتزلزل إيمانها به أو زال، لا ينفعها من دونه: علوم العلماء، ولا حكمة الحكماء. وقد ارتقت العلوم والحكمة في هذا العصر، وعمَّ انتشارهما بما لم يُعرف مثلُه في عصر آخر، وهم لا يذعنون في أنفسهم لإرادة ملك أو أمير، ولا لرأي عالم نحرير، ولا فيلسوف شهير، ولا مخترع خبير، بل صاروا إلى فوضى في الأخلاق والآداب والاجتماع، واستباحة الأموال والأعراض وكذا الدماء بما لم يُعْهد لها في البشر نظير، صارت بها الأمم والدول عُرضةً لفتنة في الأرض وفساد كبير»[1] اهـ.

الفوارق الأساسية بين الأخلاق الدينية الإسلامية والأخلاق الفلسفية:

نستطيع مما ذكرناه أن نتبيَّن الفوارق الأساسية بين الأخلاق الدينيَّة الإسلامية والأخلاق الفلسفية، وذلك أن الأخلاق الدينية تنفرد بجملة خصائص هامة، نستطيع أن نجملها في هذه النقاط:

١ ـ أنها أوسع مجالًا، وأبعد حدودًا من الأخلاق الفلسفيَّة؛ لأنها تشمل العلاقة بين الإنسان وخالقه، شمولها لعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان، وتشمل

---

(١) الوحي المحمدي ص٣٤، ٣٥، ط. دار الكتب العلمية، ط. الأولى ٢٠٠٥م.

العمل للحياة الآخرة بجوار العمل للحياة الحاضرة، على حين لا تقيم الأخلاق الفلسفية ـ عادة وغالبًا ـ وزنًا للصلة بالله، والاستعداد للآخرة.

٢ ـ أنها غالت بقيمة الإنسان، حين أعلنت أنه مخلوقٌ ذو شأن، سُخِّرت له المخلوقات الأخرى، فليس ذرةً تافهة في محيط الكون الغامض، ظهرت بطريق الصدفة ـ كما يقول الماديون ـ ولكنه كائن يتميَّز بعقله وروحه، وأن له رسالة ودورًا في هذا الوجود، وأنه مكلَّف من قِبل خالق الكون، وهو مسؤول عن نفسه، ومَجزيٌّ على عمله، إن خيرًا أو شرًّا، في حياة خالدة باقية بعد هذه الحياة القصيرة الفانية.

٣ ـ أنها باعتمادها على الإيمان بالله، والجزاء في اليوم الآخر؛ تمنح أصحابها حوافز تدفع إلى الخير، وحواجز تزَعُ عن الشرِّ، أقوى بكثير مما تمنحه الأخلاق الفلسفية، وذلك بفضل الشحنة الروحية القويَّة، التي يبعثها ويغذيها الإيمان الديني، وقد حُلَّتْ بفكرة الجزاء الأخروي: مشكلةُ الإنسان الخيِّر المصلح، الذي لا يلقى في حياته غير التنكُّر والاضطهاد، والشهيد الذي يُقتَل في سبيل حقٍّ أو خير، ولم يلقَ في حياته خيرًا من أحد.

٤ ـ أنها تستطيع أن تؤثِّر في جمهور أكبر، وقاعدة أوسع، من جمهور الأخلاق الفلسفية، وذلك لبساطتها وسهولة هضمها، وبُعدها عن الغموض والتكلُّف والتعقيد في الفكرة وفي العرض، فليس كلُّ الناس يفهم قول (أرسطو) في نظرية الوسط، ولكن كلَّ الناس يستطيع أن يفهم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء: ٢٩].

وليس كلُّ الناس قادرًا على فهم نظرية (كانت) في الواجب، ولكن كلُّهم يفهم قول الله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ [الإنسان: ٨ ـ ٩].

٥ ـ أنها قدَّمت للسلوك الفاضل ما يشبه أن يكون (برنامجًا أخلاقيًّا)، يتضمَّن مواقف جزئيَّة، وحوادث يوميَّة، وتفصيلات للواجبات المختلفة، بجوار المبادئ العامة. وهذا بخلاف الفلسفة التي تكتفي بوضع المبدأ الكُليِّ، والمقياس النَّظريِّ.

ومن هنا كانت عناية الأديان عامَّة، والإسلام خاصَّة، بالأخلاق العملية من العدل والإحسان، والصدق والأمانة، والوفاء والصبر، والمحبة والإيثار، وغيرها؛ لأنها أمسُّ بالحياة من الأخلاق النظرية.

٦ ـ أنها قدَّمت نماذج بشريَّة عملية عُليا، لأخلاقها النظرية، تتمثَّل هذه النماذج الرفيعة في الأنبياء والرسل الكرام، وتلاميذهم وصحابتهم الذين ساروا على دربهم، فهؤلاء هم الأسوة الحسنة، التي بها يُقتدى فيُهتدى.

والناس عادةً لا تؤثِّر فيهم النظريات، وإن بلغت من السَّداد والعمق ما بلغت، وإنما يتأثَّرون إذا رأوا الفضائل والأخلاق تتجسَّد في شخوص واقعية، تتحرَّك وتمشي على الأرض.

٧ ـ أنها وَسِعَت كلَّ الناس، فبابها مفتوح للجميع، للغني والفقير، والقوي والضعيف، والمستقيم والمنحرف، فهي لا تغلق الباب أمام أحد يريد أن يلجه، وإن بلغ في المعاصي والموبقات ما بلغ، فإن عفو الله أعظم من كلِّ ذنب، ومغفرته أوسع من كلِّ خطيئة، وقد قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣]. وقال تعالى في وصف عباد الرحمن: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٧٠]. فالعصاة هم جزء من الأمَّة المسلمة، لا يعزلون عنها، ولا يخرجون منها، كما قال تعالى في بيان الأمَّة المصطفاة: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر: ٣٢]. فانظر كيف جعل الظالم لنفسه ـ وهو مقصِّر في أداء الواجبات، ومرتكب لبعض المحرَّمات ـ جزءًا من أمة الإسلام، مع المقتصد، السابق بالخيرات بإذن الله.

الفصل السادس

مقياس الحكم الخلقي في الإسلام

ربما يظنُّ كثيرون أنَّ مقياس الحكم الخُلُقي الوحيد في نظر الإسلام هو الوحي، أي: الشرع، ولا مجال فيه لعقل أو ضمير أو عرف، أو مصلحة فرديَّة أو اجتماعيَّة، أو أيِّ معيار آخر تعارف عليه الناس.

وربما أيَّد هذا الظنَّ ما شاع على الألسنة من قول أهل السنَّة: الحَسَن ما حسَّنه الشرع، والقبيح ما قبَّحه الشرع. وإنَّ الذين قالوا بأن للعقل مدخلًا في الحكم على الأعمال في الحسن أو القبح، إنما هم أهل الاعتزال. ونظريتهم عليها كثير من الاعتراضات الأساسية من أهل السنة، الذين يمثِّلون في الواقع حقيقة أهل الإسلام.

والواقع أن في هذا الظنِّ بعض الغلو والخطأ، ينبغي أن نُصحِّحه، ونبيِّن نظرة الإسلام إلى هذه المقاييس كلِّها، ومدى شرعية الاستفادة منها.

المقياس الأول هو الوحي:

لا ريب أننا عرفنا هنا بالدراسة المقترنة بالدليل: أن المقياس الأول لمعرفة الخير من الشرِّ، وتمييز الحسن من القبيح، والمعروف من المنكر، في العقائد والأعمال والأخلاق، والعبادات والمعاملات: إنما هو كلمات الله للبشر، التي يتميَّز بها الوحي السماوي على ألسنة رسل اصْطفاهم الله من عباده؛ ليبلِّغوا للناس رسالته، ويخبروهم بما يجب أن يفعلوا، وما يجب أن يتركوا، ويميِّزوا بين ما يحبُّه الله، وما يكرهه من الأقوال والأعمال.

إنَّ الخير هو ما يراه الله خيرًا لنا؛ لأنه عليم بخصائص الأعمال ونتائجها وخفاياها، فلا يخطئ في تحديدها، ثم هو بَرٌّ بنا رحيم ودود، يريد بنا اليسر والهداية والرحمة، ولا يريد بنا العسر والضلال والنقمة، فلا يبخل علينا بما

يعلم أن فيه خيرنا وكمالنا وسمونا، كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء: ٢٦ ـ ٢٨]. وكما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. وقال: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾ [المائدة: ٦].

وبهذا بيَّن وحي الله سبحانه: أن كلَّ خير وبرٍّ ويسر وبركة يريده الله لعباده، وأن كلَّ حرج وضرٍّ وعسر ومشقَّة شديدة، لا يريده الله لعباده، وهو بهم البر الرحيم.

والعقل لا يستطيع أن يُحدِّد كلَّ الخير في كلِّ الأمور، وبخاصة التي تتعارض فيها مصلحتان، أو تتقابل فيها مصلحة ومفسدة، أو جهتا خير وشرٍّ. وذلك مثل الصدق إذا أضر بإنسان بريء يبحث عنه ظالم يريد أن يقتله، فإذا اختبأ عند رجل وسُئل عنه: هل يصدُق ويدلُّ عليه، أو يكذب وينجِّيه؟ وكذلك الكذب في الحرب، هل يدلُّ العدو على كلِّ ما يريد معرفته من مواقع، وعدد المقاتلين، وغير ذلك من الأسرار الحربية، إذا سُئل عنها، يجيبه بصدق ويعطيه كلَّ ما يريد؟! والكذب لإصلاح ذات البين، ونحو ذلك.

فالذي يفصل في هذه الأمور الدقيقة هو الشرع، وفي هذا جاء الحديث النبوي الصحيح عن أم كلثوم بنت عقبة: «ليس الكذَّاب الذي يُصلح بين الناس، ويقول خيرًا ويَنْمي خيرًا». قال ابن شهاب: ولم أسمع يرخص في شيء مما يقول الناس كذب إلا في ثلاث: الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها[1].

وكذلك مهمة الشرع أن يضع للأعمال خيرِها وشرِّها درجات ومراتب في الخيريَّة والشَّرِّيَّة، وفي الأمر بها والمنع منها، مما لا يستطيع العقل وحده، ولا الضمير وحده أن يستقلَّ به.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الصلح (٢٦٩٢)، ومسلم في البر والصلة (٢٦٠٥)، ولم يذكر البخاري قول ابن شهاب.

فالشرع فيه من الأعمال الخيِّرة ما يطلب طلبًا دون الوجوب، وهو بلغة الشرع: ندب واستحباب.

ومنها ما يطلب طلب الوجوب والإلزام بحيث يُثاب مَن يفعله، ويرضى الله عنه، ومن يتركه يستحقُّ سخط الله وعقوبته.

والوجوب والإلزام نفسه ليس درجةً واحدة، فهناك وجوب عادي، وهناك وجوب مؤكَّد، وهناك واجبات عادية في الدين، وواجبات رُكنية، أي كلٌّ منها يعدُّ رُكنًا من أركان الإسلام، مثل الصلاة والزكاة وصيام رمضان والحج.

الرجوع أحيانًا إلى فتوى القلب أو الضمير:

على أنَّ الإسلام جعل المسلم في كثير من جزئيَّات الحياة وتفريعاتها مفتي نفسه، فهو يستطيع أن يسأل (قلبه) أو (ضميره) الحرَّ غير الملوَّث، فيأمره أو ينهاه، ويجيز له أو يمنعه. وهذا يُشرع في الأمور التي لا يوجد فيها نصٌّ ملزم من كتاب الله تعالى، أو من سنة رسول الله ﷺ، على أن يكون النصُّ صريحًا في دلالته، وأن تكون السنة صحيحة في ثبوتها لا خلاف عليها.

فلا يُستفتى القلب، ولا يُرجع إلى الضمير فيما بيَّن الله تعالى أو رسوله الحُكْم فيه، فأحلَّ الحلال، وحرَّم الحرام، وقطع فيه، فهذا لا مجال له إلا الاتباع: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾ [الكهف: ٢٧]. ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام: ١١٥]. والمراد: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام.

وفتوى الضمير أو القلب في هذه الحال أصدق وأرجح من فتاوى بعض المفتين المُتخصِّصين، الذين قد يرخِّصون فيما يعرف المرء من نفسه أنه لا ينبغي له، وقد يشدِّدون فيما لا ينبغي التشدُّد فيه.

روى الإمام أحمد، عن أبي ثعلبة الخُشَني قال: قلتُ: يا رسول الله، أخبرني بما يحلُّ ويحرم. فصعَّد النبي ﷺ وصوَّب فيَّ النظر، ثم قال: «البر ما سكنت إليه النفس، واطمأنَّ إليه القلب، والإثم ما لم تسكن إليه النفس، ولم يطمئن إليه القلب، وإن أفتاك المفتون»[1].

---

(١) رواه أحمد (١٧٧٤٢)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح، والطبراني (٢٢/ ٣١٩)، وجوَّد إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٢٦٨٤).

وهذا إنما يكون لذوي الفطر السليمة، والقلوب المستقيمة، التي لم تفسدها الشكوك والشبهات، ولم تمرضها المطامع والشهوات، ولهذا لم يُجب النبي ﷺ أبا ثعلبة بهذا القول إلا بعد أن صَعَّد النظر فيه وصوَّبه، واستشف فيه أنه رجل أقرب إلى السلامة.

وقد كان عليه الصلاة والسلام من (المتوسِّمين)، الذين يرون بنور الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحجر: ٧٥].

فعرف في هذا السائل سلامة الفطرة، فقال له ما قال.

أما القلوب السقيمة أو المنحرفة، فحكمها غير مقبول؛ لأنها تتَّبع الهوى، وتتأثَّر بالأعراف الفاسدة، والشهوات المُضِلَّة، والأفكار الباطلة.

قال العلامة المُناوي في شرح الحديث، مُعلِّلًا تفسيره ﷺ للبرِّ بما ذكر من سكون النفس، واطمئنان القلب إليه: «لأنه سبحانه فطر عباده على المَيْل إلى الحق، والسكون إليه، وركز في طبعهم حبه».

فالقلب السليم من مرض الشِّرك، ومرض النفاق، ومرض الشكِّ، ومرض الحسد والكبر، ومرض البدعة، ومرض الشهوة والهوى، هو المرجع هنا في تمييز البرِّ من الإثم، والحقِّ من الباطل، والحلال من الحرام.

قال المُناوي: «وذلك لأن على قلب المؤمن نورًا يتَّقد، فإذا وَرَد عليه الحقُّ التقى هو ونور القلب، فامتزجا وائتلفا، فاطمأنَّ القلب وهشَّ، وإذا وَرَدَ عليه الباطل نفر نوُر القلب، ولم يمازجه، فاضطرب القلب».

قال: «وإنما ذكر طمأنينة النفس مع القلب، إيذانًا بأنَّ الكلام في نفوس ماتت فيها الشهوات، وزالت عنها حُجب الظلمات، فالنفس المرتكسة المحفوفة بحُجب اللذات، تطمئنُّ إلى الإثم والجهل، وتسكن إليه، ويستغرقها الشرُّ والباطل، فأعَلَمَ بالجمع بينهما: أن الكلام في نفسٍ رضيتْ وتمرَّنت، حتى تحلت بأنوار اليقين»[1].

الإثم ما حاك في الصدر:

وفي حديث آخر صحيح قال عليه الصلاة والسلام: «البُر: حسن الخلق.

---

(١) فيض القدير (٣/ ٢١٨).

والإثم: ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطَّلع عليه الناس»[1] «ومعنى: «حاك في صدرك»، أي: اختلج في النفس، وتردَّد في القلب، ولم يمازجه نوره، ولم يطمئن إليه.

قال العلماء: المراد بالكراهة في قوله: «كرهت أن يطلع عليه الناس»: الكراهة الدينيَّة لا الكراهة العاديَّة، كمَن يكره أن يراه الناس آكلًا في الطريق لحياء أو نحوه. والمراد بـ«الناس»: وجوههم وأماثلهم الذين يُستحيا منهم. وحمله على العموم بعيد.

قالوا: وإنما كان التأثير في النفس علامة للإثم؛ لأنه لا يصدر إلا لشعورها بسوء عاقبته»[2].

أخلاق الإسلام تراعي مصالح البشر:

وفي مقياس الحكم الخُلُقي في فِطَر الإسلام: لا بدَّ أنه يراعي بقدر ما مصالح الخلق، فيجلِّيها لهم كليًّا أو جزئيًّا، كما يعرض للمفاسد فيدرؤها عنهم كليًّا أو جزئيًّا، فلا عجب أن رعى الإسلام في أوامره ونواهيه مصلحة البشر، ودفع الضرر عنهم، فما كانت منفعته خالصة أو راجحة، فالإسلام يطلبه، وما كانت مضرَّته خالصة أو راجحة فالإسلام يمنعه.

والقرآن يشير إلى ذلك، فيقول: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ﴾ [البقرة: ٢١٩].

والفقهاء يوجبون رعاية المصلحة ورفع الضرر فيما لا نصَّ فيه من الأمور، وفقًا لمبدأ: (لا ضرر ولا ضرار)، وهو نصُّ حديث نبويٍّ صحَّحه العلماء بمجموع طرقه[3]، ولكنه في الواقع مبدأ كلِّي قطعيٌّ مأخوذ من نصوص كثيرة من القرآن والسنة، وقد بنَوا عليه عدَّة قواعد شرعيَّة، منها: أن الضرر يزال، وأن الضرر لا يزال بالضرر، وخصوصًا إذا كان أكبر منه. وأن الضرر الخاص يُتحمَّل لرفع الضرر العام، والضرر الأخف يُرتكب لدفع ضرر أكبر، وأن دَرْء

---

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٥٣)، وأحمد (١٧٦٣١)، والترمذي في الزهد (٢٣٨٩)، عن النواس بن سمعان.

(٢) فيض القدير (٣/ ٢١٨).

(٣) سبق تخريجه، ص١٩١.

المفسدة مقدَّم على جلب المصلحة، وأن المصلحة الدنيا تفوَّت لأجل المصلحة العليا، وأن المصلحة الشكلية تفوت لأجل المصلحة الجوهرية.

وهذا كما يطبَّق في الناحية التشريعيَّة، يطبَّق في الناحية الأخلاقيَّة، فالموازنة بين المصالح والمفاسد، أو بين المنافع والمضار، واجب الفقيه والمشرِّع الأخلاقي أو القانوني، ولكن مجال ذلك ـ كما قلنا ـ هو ما لا نصَّ فيه. وهو الذي قال فيه من قال: حيثما وجدت المصلحة فثمَّ شرع الله.

فليس (بنتام) إذن هو أول مَن قال بالموازنة بين المنافع والمضار، ولكنها الشريعة وفقهاؤها، بحثوا في هذا وأجادوا وأطالوا فيه.

مراعاة الأخلاق الإسلامية العرفَ الصالح:

وإذا كان لرعاية المنفعة أو المصلحة مكانها في الإسلام، فإنَّ لعرف المجتمع مكانة أيضًا، فإن الأمَّة المسلمة لا يمكنها أن تجتمع على استحسان أمر قبَّحه الشرع، ولا على استقباح أمر حسَّنه الشرع. فما حسَّنه الشرع فلا شك ولا نزاع في حُسنه، وما قبَّحه الشرع بكتاب أو سنة، فلا ريْب ولا خلاف في قبحه. وهذا متَّفق عليه بين المسلمين.

فإذا اجتمعت الأمَّة المؤمنة على استحسان أمر، دلَّ ذلك على حُسْنِهِ في نفس الأمر، أو على استقباحه، دلَّ إجماعها على قبحه، فإن الأمَّة المسلمة لا تجتمع على ضلالة.

وفي هذا يقول الصحابي الفقيه الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ما رآه المسلمون حَسنًا فهو عند الله حسن، وما رآه المسلمون قبيحًا فهو عند الله قبيح[1]. وهو معنى حديث: «لا تجتمع أمَّتي على ضلالة»[2].

ومن هنا تقرَّر (الإجماع) مصدرًا ثالثًا في التَّشريع الإسلامي، بعد الكتاب والسنة، ولكنه ليس إجماع الغوغاء ولا الأدعياء، ولا فئة من الفئات، بل هو

---

(١) رواه أحمد (٣٦٠٠)، وقال مخرِّجوه: إسناده حسن، والطبراني في الكبير (٩/ ١١٢)، والأوسط (٣٦٠٢)، والحاكم في معرفة الصحابة (٣/ ٧٨ ـ ٧٩) وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٤٢٨): رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير ورجاله موثقون.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في الفتن (٣٨٣٤٧)، وقال الحافظ ابن حجر في تلخيص الحبير (٣/ ٣٠١): إسناده صحيح ومثله لا يقال من قبل الرأي، عن ابن مسعود.

إجماع المجتهدين من علماء الأمَّة، ممَّن جمع بينهم العلمُ الواسع، والعمل الصالح، والخلقُ الفاضل، بجوار تقوى الله، وحبِّ الخير للمسلمين، أولئك الذين يستفرغون وسعهم في معرفة الحقِّ والخير، مهتدين بأصول الشرع، جامعين بين الكتاب والميزان، وبين النصوص والمقاصد.

وموضع هذا الإجماع إنَّما هو فيما لم ينطق الوحي فيه بحُكم صريح قاطع، أما ما قطع فيه الوحي المعصوم أمرًا أو نهيًا، فليس للناس ـ كل الناس ـ إلا أن يقولوا: سمعنا وأطعنا.

ولو فُرض انحراف المجتمع عن فضائله ومُثُله التي جاء بها الوحي، وبقيت فئة قليلة مستمسكة بعُرى الحقِّ وأسباب الخير، لكان على هذه الفئة أن تُقوِّم المجتمع، وتردَّه إلى رشده، لا أن تستسلم له، وتدور في فلكه، ولهذا قال ابن مسعود نفسه: الجماعة ما وافق الحقَّ، وإن كنتَ وحدك[1].

على أنَّ للعرف مدخلًا ـ من ناحية أخرى ـ حيث يُرجع إليه في تطبيق أو تحديد كثير من أحكام الشرع التي قيَّدها (بالمعروف)، مثل النفقة والكسوة للزوجة والمعاشرة بالمعروف ونحوها، كما قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [النساء: ١٩]. ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [البقرة: ٢٣١].

ولهذا قال الفقهاء: العادة مُحكَّمة. وقال أحد الناظمين في الفقه:

والعرف في الشرع له اعتبار   لذا عليه الحكم قد يدار[2]

أثر العلم والمعرفة في السلوك الخُلُقي:

ولقد أشار الرسول ﷺ، إلى أثر العلم والمعرفة في التَّحلِّي بالفضيلة، والتخلِّي عن الرذيلة، فقال في حديث له رواه أبو كبشة الأنماري رضي الله عنه: «إنما هذه الدنيا لأربعة: رجل آتاه الله علمًا ومالًا، فهو يتَّقي في ذلك المال ربَّه، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقًّا. فهذا أفضل المنازل. وعبد يرزقه الله علمًا ولم يرزقه مالًا، فهو صادق النية، يقول: لو أنَّ لي مالًا لعملت بعمل فلان.

---

(١) رواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١٦٠).

(٢) منظومة: نشر العرف في بناء بعض الأحكام على العرف لابن عابدين، انظر: مجموعة رسائل ابن عابدين: (٢/ ١١٢).

فهو بنيَّته، فأجرهما سواء. وعبد رزقه الله مالًا ولم يرزقه علمًا، يخبط في ماله بغير علم، لا يتَّقي فيه ربَّه، ولا يصل فيه رَحِمه، ولا يعلم لله فيه حقًّا. فهذا أخبث المنازل. وعبد لم يرزقه الله مالًا ولا علمًا، فهو يقول: لو أنَّ لي مالًا لعملت بعمل فلان. فهو بنيَّته. فَوِزرهما سواء»(1).

والقرآن الكريم أيضًا يشير إلى الصلة بين العلم والأخلاق في مثل قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٤]. فهو علم يتبعه إيمان، ويتبع الإيمان إخبات القلوب.

ويذكر أن أهل النار اعترفوا حين دخلوا جهنَّم بأن غباءهم وجهلهم هو الذي انتهى بهم إلى النار: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك: ١٠].

ويصف أصحاب الخلق السيئ بالجهل في آيات عديدة، فيقول على لسان موسى عليه السلام حين قال له قومه: ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [البقرة: ٦٧]. لأن موسى عليه السلام كان يقول لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾، قالوا ردًّا عليه: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ [البقرة: ٦٧]. والسخرية والهزء في مثل هذا المقام دليل الجهل؛ لأنه يهزل في موضع الجد، أيفعل هذا عاقل؟

ويقول على لسان يوسف بعد أن كادت له امرأة العزيز ونساؤها، وعرضن عليه الفتنة: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [يوسف: ٣٣].

ويخاطب الله رسوله بقوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ(2) وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩٩].

ويصف عباد الرحمن فيقول: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان: ٦٣]. فهم يسالمون الجاهلين، ويقدِّرون جهلهم، ولا يبادلونهم خشونة بخشونة.

---

(١) رواه الترمذي في الزهد (٢٣٢٥)، وقال: حسن صحيح، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٥٣٣٥)، عن أبي كبشة الأنماري.

(٢) قال الجصاص في أحكام القرآن (٣/ ١٩٤): والعفو هو التسهيل والتيسير، فالمعنى استعمال العفو وقبول ما سهل من أخلاق الناس وترك الاستقصاء عليهم في المعاملات وقبول العذر ونحوه.

ويمدح قومًا بقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص: ٥٥].

ويجعل معصية الله مقترنة بالجهالة فيقول: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾﴾ [النساء: ١٧]. ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنعام: ٥٤].

وقد جاء عن غير واحد من مفسِّري السلف في تفسير هذه الآية أنهم قالوا: كل من عصى الله فهو جاهل[١].

وقال يوسف عليه السلام حين أدخلته امرأة العزيز على النسوة في قصرها، فقطَّعن أيديهن ﴿وَقُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [يوسف: ٣١]. وهنا اعترفت المرأة بحبه، وعزمت على أن تكرهه على تغيير موقفه، ولكنه قال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [يوسف: ٣٣].

منزلة العمل الخلقي بباطنه لا بظاهره، وبكيفه لا بكمِّه:

ثم إنَّ منزلة العمل الخلقي في الإسلام لا ترتبط بمظهره وصورته، بل بلبِّه ورُوحه، ولا تقوم على مبلغ حجمه وكمِّه، بل على كيفه ونوعه، فالمهم ما وراء العمل من بواعث ونيَّات، وما يرمي إليه من مقاصد وأهداف، وما يعبِّر عنه من عقائد ومُثُل.

ولهذا قد يبدو العمل الصالح تافهًا، ولكنه في نظر الإسلام قد يأخذ بيد صاحبه إلى الجنة، وقد يبدو العمل السيئ ضئيلًا، ولكنه يهوي بصاحبه إلى جهنم وبئس القرار.

روى الإمام أحمد، عن طارق بن شهاب، عن سلمان قال: «دخل رجل الجنة في ذباب، ودخل رجل النار في ذباب»! قالوا: وكيف ذلك، يا رسول الله؟ قال: مرَّ رجلان على قوم لهم صنم، لا يجوزه أحد حتى يقرِّب له

---

(١) رواه الطبري في تفسيره (٦/٥٠٨)، عن السدي، ومجاهد، وابن زيد.

شيئًا، فقالوا لأحدهما: قرِّب. قال: ليس عندي شيء. قالوا: قرِّب ولو ذبابًا. فقرَّب ذبابًا، فخلَّوا سبيله، فدخل النار، وقالوا للآخر: قرِّب. فقال: ما كنت لأقرِّب لأحدٍ شيئًا دون الله عزَّ وجل. فضربوا عنقه، فدخل الجنة»[1].

إنَّ القاصر الذي ينظر إلى الظاهر: قد يظنُّ المسألة مسألة ذباب! والواقع أن حكاية الذبابة ترمز إلى صنفين من الناس:

أ - صنف مستعدٌّ أن يُضحِّي بعقيدته لإرضاء الطغاة باسم المرونة أو الدهاء أو المنفعة أو نحو ذلك، فهو الذي قدَّم القربان، وتقرَّب للصنم، واستحقَّ النار! ومن سمحت نفسه أن تُقرِّب لغير الله ذبابًا، فهو مُستعدٌّ لأن يقرِّب بقرة أو بَدَنة!

ب - وصنف آخر يرفض المُساوَمة أو التهاون في عقيدته، مهما يكلِّفه ذلك من تضحية، فهذا الذي رفض التقرُّب إلى الأصنام ولو بذبابة، فاستحقَّ الجنة!

وفي الحديث الصحيح أيضًا: أنَّ امرأة دخلت النار من أجل هرَّة حبستها[2]، وأن امرأة بَغِيًّا سقت كلبًا، فشكر الله لها، فغفر لها[3].

لِمَ استحقَّت المرأة الأولى النار؟ ولِمَ استحقت المرأة الأخرى المغفرة، مع أنها بَغِيٌّ تتكسَّب بفرجها؟! لأنَّ وراء عمل المرأة الأولى قلبًا قاسيًا متحجِّرًا، لا يرحم خلق الله، ومثل هذا القلب لا تُطَهِّره إلا النار؛ ولأنَّ وراء عمل الأخرى قلبًا حيًّا رحيمًا، يُحسُّ بآلام المخلوقات، ويعطف على كلِّ ذي كبد رطبة، وربما أوقعه في المعصية الفقر والحاجة وعدم وجود المعين، ومَنْ رحم مَنْ في الأرض رحمه مَنْ في السماء.

بل إن العمل قد يكون واحدًا في صورته، ولكن يختلف من شخص لآخر، ومن حال لأخرى، فواحد قد يسافر من بلد إلى بلد، فيعدُّ سفره هجرة إلى الله ورسوله، ويُخلَّد في سجلِّ المهاجرين في سبيل الله. بل قد يحصل على ثواب العمل كاملًا، وهو لم يكمله، بحسب نيَّته، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ [النساء: ١٠٠].

---

(١) رواه أحمد في الزهد (٨٤)، وابن أبي شيبة في السير (٣٣٧٠٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في المساقاة (٢٣٦٥)، ومسلم في السلام (٢٢٤٢)، عن ابن عمر.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٦٧)، ومسلم في السلام (٢٢٤٥)، عن أبي هريرة.

وآخر يقطع نفس المسافة، ومع نفس الراكب المهاجر، ولكن لباعث آخر، ومقصد آخر، فهجرته إلى ما هاجر إليه.

وهذا ما نبَّه عليه الحديث المشهور الذي بدأ به الإمام البخاري جامعه الصحيح، وهو الحديث الذي رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إنما الأعمال بالنيات، وإنَّما لكلِّ امرئ ما نوى، فمَن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومَن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوَّجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»[1].

قال شُرَّاح الحديث: إنَّ قوله: «أو امرأة يتزوجها». إشارة إلى قصد الصحابي الذي هاجر من أجل امرأة يحبُّها، ويريد أن يتزوَّجها تعرف بـ (أم قيس) ورغم أن هذا أمر مشروع، ولكنه شابَ خلوصَ النيَّة للهجرة في سبيل الله، فأفسدها. ولا غرو أن أطلق عليه الصحابة اسم: مهاجر أم قيس[2].

إنَّ العمل الصغير في حجمه، قد تكون قيمته الخُلقية أعظم من عمل ضخم يزيد في حجمه وصورته مئات المرات، بل ألوفها على العمل الأول، لأنَّ العمل الصغير قد يكون وراءه قلب كبير، ونيَّة صادقة، والله لا ينظر إلى الصور والأشكال، ولكنه ينظر إلى القلوب والأعمال.

وفي هذا جاء حديث النبي ﷺ: «سبق درهم مائة ألف درهم!». فقال رجل: وكيف ذاك يا رسول الله؟ قال: «رجل له مال كثير أخذ من عُرْضِه مائة ألف درهم تصدَّق بها، ورجل ليس له إلا درهمان، فأخذ أحدهما، فتصدق به»[3].

إن الدرهم عند مَن لا يملك إلا درهمين أعز وأغلى من مائة ألف عند صاحب الملايين أو الملايير، التي لا ينقصها مائة ألف أو أكثر، إنه ـ بالنسبة إلى الفقير صاحب الدرهمين ـ نصف ثروته، فلا عجب أن سبق درهمُ الفقير ألوفَ (المليونير)!

---

(١) انظر كتابنا (النية والإخلاص) من سلسلة: (تيسير فقه السلوك: الطريق إلى الله). والحديث متفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (١)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٧).

(٢) رواه الطبراني (٩/ ١٠٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٥٨٠): رجاله رجال الصحيح، وقال ابن حجر في فتح الباري (١/ ١٠): إسناده صحيح على شرط الشيخين، عن ابن مسعود.

(٣) رواه النسائي (٢٥٢٧)، وابن خزيمة (٢٤٤٣)، وابن حبان (٣٣٤٧)، وقال الأرناؤوط: إسناده حسن، والحاكم (١/ ٤١٦)، وصحَّحه على شرط مسلم ووافقه الذهبي، جميعهم في الزكاة، وحسَّنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٨٨٣)، عن أبي هريرة.

الفصل السابع

مناقشة الأستاذ خالد محمد خالد
في (أن الأخلاق المدنيَّة أهدى من الأخلاق الدينيَّة)
في كتابه (هذا أو الطوفان)

ولا بدَّ لنا من وقفة مع الكاتب الكبير الشيخ خالد محمد خالد في كتابه **(هذا أو الطوفان)** الذي أعلن فيه في فصل طويل: أنَّ الأخلاق المدنيَّة أهدى من الأخلاق الدينيَّة، سواء كانت أخلاقًا مسيحيَّة أم إسلاميَّة.

وقد قدَّم لفصله هذا في كتابه بتمهيد يهيئنا ويحبذنا لقَبول هذه الفكرة، التي كان يسوقها باعتباره متحدثًا (من العلماء)، كما كان حريصًا أول الأمر أن يذيِّل بها كتبه.

كما أن كتبه كانت تقاوم فكر الإخوان المسلمين، الذي كان يمليه حسن البنا، وبعده الشيخ الغزالي، وعبد العزيز كامل، وسيِّد سابق، والبهي الخولي، وعبد القادر عودة، وفتحي عثمان، ومن وافقهم، وسار على دربهم، وهو ما يسمونه (فكر الإسلام السياسي).

وفكرُ خالد يخطُّه قلمٌ رشيق، ويحمل أفكارًا تقدميَّة، تهاجم أفكار الإسلاميين، الذين يؤمنون بأن الإسلام دعوة ودولة، ودين ودنيا، ونظام وتشريع، وثورة وحضارة، وأدب وأخلاق.

ولذلك رد عليه في كتابه الأول، الذي رحبت به كل القوى اللادينيَّة والصليبيَّة والصهيونيَّة **(من هنا نبدأ)**: الشيخُ محمد الغزالي، بمنطق العالم الداعية المستنير، الذي يرفض الدكتاتورية، ويدعو إلى الحرية والعدالة الاجتماعيَّة، فهو رحمه الله صاحب كتب: **(الإسلام والأوضاع الاقتصاديَّة)** و**(الإسلام والمناهج الاشتراكية)** و**(الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين)**.

قبل أن نبدأ:

ولنقرأ معًا الفقرات الأولى التي سطرها الشيخ خالد في كتابه: (**هذا أو الطوفان**) في الفصل الذي يتحدث عن الأخلاق الدينية ـ وقد أخبرني بعض الإخوة أنه حذفها من طبعات تالية للكتاب، ولكننا نناقش الفكرة لا الشخص ـ قال:

«في كتابنا الأول (**من هنا نبدأ**) تحدثنا في فصل (قومية الحكم) عن الحكومة الدينية، ونفينا إمكان قيامها.

وفي كتاب (**الديمقراطية أبدًا**) تحدثنا في فصل (ديمقراطية التشريع) عن القوانين الدينية، مؤكدين أنه لا يمكن أن تكون هناك قوانين دينية، إلا بالقدر الذي يسمح بأن تكون هناك (كهرباء دينية) و(مواصلات دينية)!!

واليوم، وفي هذا الفصل نناقش فكرة (الأخلاق الدينيَّة)، متوسلين بالفهم المُسْتأني غير المتحيِّز لمعرفة حقيقتها، وهل استنفدت غرضها، أم لا يزال لها هدف تريده، وواجب تبذله؟

ودعوني أصارحكم أنني أسمع غمغمة استنكار وتذمُّر، وأسمع أيضًا همهمة سؤال يتحرك نحونا.

هذا السؤال يقول: إذا كنت قد نفيتَ عن الدين: الحكومة الدينية، والقوانين الدينية، وتوشك اليوم أن تنفي الأخلاق الدينيَّة، فماذا أبقيت للدين إذن؟ وما هو؟ وما رسالته؟ ولماذا يبقى؟

وأعترف في صدق، أنه سؤال عادل، بلغ من العدالة والجدارة حدًّا يجعل تقبُّله والإجابة عنه من حتميات الموقف الذي اؤْتمِنَّا على تَبعاته، موقف الذين يبحثون عن الحق دون أن يهربوا مما يجيء مع الحق من مشقة وخطر[1]».

وقبل أن تسمع جواب الشيخ خالد عن السؤال الذي طرحه على نفسه، أود أن أقول: إن الشيخ خالدًا قد أصدر كتابًا من كتبه، اعتذر فيه عما كتبه من قبل في كتابه (**من هنا نبدأ**) في فصل (قوميَّة الحكم) وردَّ عليه الشيخ الغزالي في كتابه: (**من هنا نعلم**)، وردَّ عليه الأستاذ فريد وجدي في مجلة **الأزهر في** عدة

(١) هذا أو الطوفان، لخالد محمد خالد، ص١٦٨ الطبعة الأولى، وقد حذف في طبعات تالية.

أعداد: (ليس من هنا نبدأ). وردَّ عليه آخرون. وأنكر فيه خالد ما للإسلام من عناية بالدولة، وما يجب أن تقوم عليه، وما مقوِّماتها، ومَنْ رجالها والمسؤولون عنها، وما خصائصهم وما وظائفهم؟. وبيَّن لماذا وقع في هذا المنزلق التاريخي، وينبغي مراجعة الكلام الجيد الذي أنصف فيه الإسلام وحقائقه، وخصوصًا في مجال السياسة والعدالة وأداء الأمانات إلى أهلها.

ولكني لم أجد له كلامًا واضحًا مثل هذا الكلام، تراجع فيه عما قاله في (القوانين الدينيَّة) وما قاله عن (الأخلاق الدينيَّة)، وقد ظلَّت كتبه التي قال فيها كلامه الشديد الخطورة على الإسلاميين، وعلى مفاهيمهم الإسلامية، دون أي كلام مصحِّح أو معتذِر أو مُعدِّل من مقولاته القديمة، ولا تزال كتبه تصدر إلى اليوم دون أي تعديل، فلهذا نحاسبه على كل ما فيها.

لم ألقَ الشيخ خالدًا في حياتي وجهًا لوجه ـ مع أني كنت أود ذلك ـ إلا مرة واحدة، كان في بيت الشيخ الباقوري رحمه الله، حين غُضِب عليه[1]، وقد زرته أنا وأخي أحمد العسَّال، وكان عنده بعض الرجال الذين لا أعرفهم، ولا يعرفونني، فقد خرجت من السجن الحربي، واشتغلت وبعض إخواني بالأوقاف، بالمكاتب بعيدًا عن التعامل مع الناس بالخطابة والدعوة والتعليم، ثم نُقِلْت إلى الأزهر، ثم أُعِرْت إلى دولة قطر، فلم يكن يعرفني إلا الشباب الذين خالطوني في أيام الدراسة، وإلا الإخوان الذين خالطتهم أيام الدعوة، وقليل من الناس الذين تعرفوا بي لأمر أو لآخر، وخصوصًا الذين استمعوا لخطبي أو محاضراتي في أنحاء مصر.

حين حضرنا مجلسَ الشيخ الباقوري، كان أحد الحاضرين يتحدث بلسان طلق في بعض القضايا، ويبدو أنه شخص مهم، وحين خرجنا من بيت الشيخ تركناه، وسألنا عنه: من هذا؟ فقالوا: إنه الشيخ خالد. ولم يُتَح لي أن ألقاه بعد ذلك، مع شوقي إلى هذا اللقاء.

ولكن كتب إليَّ مكتب الشيخ خالد بعد ذلك بسنوات، يخبرني عن التحول الذي عدَّل به الشيخ فكره في كتابه **(من هنا نبدأ)**، وعودته إلى الفكرة العامَّة، التي ترى ضرورة النظرة الشمولية للإسلام، وأنهم أنشؤوا مكتبًا علميًا، ويريدون أن يتعاونوا معي، وأعتقد أني رددت عليهم برسالة قصيرة، قلت فيها: إني أنتظر

---

(١) من الرئيس المصري جمال عبد الناصر.

ماذا سيقدم مكتبهم في الحاضر الجديد، وإننا متعاونون أبدًا على الخير، في كل ما يتعلق بالإسلام ودعوته وثقافته وأمته.

كان شيخنا الشيخ الغزالي صديق الشيخ خالد، ولكن الصداقة لا تلزم الإنسان بمجاملة صديقه في الباطل، ولذلك سارع بالرد عليه في كتابه: **(من هنا نعلم)** على كتاب **(من هنا نبدأ)**، وقال الغزالي: إن الجماعات الإسلامية ظلموا الشيخ خالدًا، حين كان في أشدِّ الحاجة إليهم، ولكنهم لم يسعفوه، مما اضْطَره أن يهجرهم، وأن يلجأ إلى غيرهم، وإنه لم يعرف عن خالد أنه باع دينه وضميره لمخلوق أبدًا، رئيسًا كان أو مرؤوسًا.

ووالله كم كنتُ أود أن يكون قلم الشيخ خالد مع قلم الشيخ الغزالي في إطار واحد، في خدمة الدعوة الإسلاميَّة، والشريعة الإسلاميَّة، والأمَّة الإسلاميَّة، ولو تعاون العالمان الشرعيَّان المتميِّزان في اتِّجاه واحد، لكوَّنَا جبهة قوية في مواجهة الصليبيين والصهاينة والوثنيين وكل خصوم الإسلام ظاهرين وباطنين، ولكن جرى قدر الله بما جرى، وكلٌّ ميسَّر لما خلق له، وكلٌّ يعمل على شاكلته، وربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلًا.

وجدت الشيخ خالدًا يحب الخير والتقدم والرفاهية للمسلمين، ولكنه لم يتخذ الطريق الإسلامي الصحيح، لينهض بالمسلمين، ويجمع كلمتهم على الهدى، وقلوبهم على التقى، وأنفسهم على المحبة، وعزائمهم على عمل الخير، وخير العمل، وحسن تربيتهم على عقائد الإسلام، ومفاهيم الإسلام، وأخلاق الإسلام، ليستطيعوا الرقي بأمتهم، وجَمْعها على الحق والخير الذي جاء به الإسلام، ودعاهم إليه محمد عليه الصلاة والسلام.

حول الأخلاق الإسلامية:

لقد جرَّد الشيخ خالدٌ الإسلامَ من كل أسلحته التي يقاتل بها، وقصَّ كل أجنحته التي يطير بها، وتركه من غير شيء يملكه أو يعتز به.

جرَّد خالد الإسلام من الحكومة التي يقدِّمها لتحكم الناس بما أنزل الله، والله تعالى لم ينزل إلى الناس إلا الحق والعدل، الحق الذي جاء به النص، والعدل الذي جاء به العقل، وقد قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الشورى: ١٧]. وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]. هكذا أنزل الله الكتاب

والميزان، والكتاب يمثل النص القرآني، والميزان يمثل العقل الإنساني. وفضَّل خالد أن تكون هذه الحكومة قوميَّة لا إسلاميَّة، ورد عليه الشيخ الغزالي وآخرون في ذلك.

ولكن اعتذر عن هذه القضية، وأعلن عن خطئه في ذلك، وبيَّن السبب الذي دعاه إلى هذا الموقف، وهذه شجاعة أدبيَّة نحمدها له، وإن كنا نتمنى أن تمتد إلى غيرها مما نعتبره تجاوزات تقصر أو تطول.

وجرَّد خالدٌ الإسلامَ من التَّشريعات الفردية والأسرية والاجتماعية والجنائية والمالية والدستورية والدولية، التي جاء بها الإسلام، وقام عليها الفقه الإسلامي، وكوَّنت أحكام الشريعة الإسلامية، فسماها خالد: (القوانين الدينيَّة)، وهي مرفوضة عنده، كما رفض (الأخلاق الدينيَّة).

هذا مع أن خالدًا يستشهد بآيات قرآنيَّة، وبأحاديث نبويَّة، وبحكايات وأقوال صحابية وغير صحابية، لعلماء كبار من أئمة الإسلام وفقهائه، ولكنه لا يعتبر شيئًا من ذلك مما سماه (الأخلاق الدينيَّة).

خصائص الأخلاق الدينية عند خالد:

ولا بد لنا أن نلقي نظرة عجلى على ما قاله الشيخ خالد عن خصائص الأخلاق الدينية، وهو يريد بهذه الخصائص أن يظهر الأخلاق الدينيَّة في أسوأ صورة.

فالأخلاق الدينية عنده أمر لا يناقش، فهي أمر مطلق كالفاشية، وهي لا تعبأ بالإنسان، ولا بالطبيعة الإنسانيَّة، ومن الذي يلزم الناس بهذه الأخلاق؟

هل يلزم بها آيات قرآن فسرها وقال بها المحققون من العلماء واتفقوا عليها؟

هل صحَّ بها حديث عن رسول الله قبله المسلمون وشرحوه، ودلوا الأمَّة على اتباعه؟

وما دامت هذه الأخلاق لا تستند على نص صحيح الثبوت، صريح الدلالة، من القرآن الكريم أو السنة النبويَّة، فليس من حق أحد كائنًا مَن كان أن يلزمنا بها، إنما يلزمنا ما جاء عن الله تعالى ورسوله، ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور: ٥١].

ويقول الشيخ خالد: «تعتمد الأخلاق الدينيَّة على التجريم والتحريم اعتمادًا غير صالح، فهي تحرم ما تشاء من ألوان السلوك، ثم تجرِّم في غلظة من يرتكبون محظوراتها، وتسلكهم في عداد المجرمين»[1].

ونحن نقول: إن الذي أجمع عليه كل علماء المسلمين في المشارق والمغارب، من جميع المذاهب والمدارس: أنَّ الذي يملك حقَّ التَّحليل والتَّحريم هو الله وحده، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يونس: ٥٩].

وقد شنَّ القرآن والسنَّة حملات قويَّة على الذين يحرِّمون ما أحلَّ الله، أو يحلون ما حرَّم الله، فليس هذا من شأن أحد إلا رب الناس، ملك الناس، إله الناس.

وقد بيَّن عليه الصلاة والسلام ذلك للناس فقال: «الحلال بيِّن والحرام بيِّن، وبينهما أمور مشتَبهات لا يعلمهنَّ كثير من الناس، فمن اتَّقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالذي يرعى حول الحِمَى يوشك أن يرتع فيه. ألا إنَّ لكلِّ ملك حِمى، ألا وإنَّ حمى الله في أرضه محارمه. ألا وإنَّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، وهي القلب»[2].

وجاء في حديث أبي الدرداء، قال رسول الله ﷺ: «ما أحل الله في كتابه فهو حلال، وما حرَّمه فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو، فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئًا». ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾ [مريم: ٦٤][3].

وليس لمسلم أن يحرم على الناس ما لم يحرم الله عليهم، ومن حق الناس أن يردوا عليه، ولا يلتزموا بشيء مما جاءهم به، مهما يكن عنده من السلطان

---

(١) المصدر السابق.

(٢) متفق عليه: البخاري في الإيمان (٥٢)، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩)، عن النعمان بن بشير.

(٣) رواه البزار (٤٠٨٧) وقال: إسناده صالح، والبيهقي في الكبرى في الضحايا (١٠/ ١٢)، وذكره الهيثمي في المجمع (١/ ٤١٦) وقال: رواه البزار والطبراني في الكبير وإسناده حسن ورجاله موثقون، والحاكم في التفسير (٢/ ٣٧٥) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

الديني أو السياسي، حتى لا يقع فيما وقع فيه أهل الكتاب من قبلنا، كما قال الله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١].

والإسلام لا يبالغ في التحريم، حتى يضيِّق على الناس معيشتهم، ويكدِّر عليهم حياتهم، وبيَّن الله تعالى أنه لا يغلق بابه في وجوه عباده، وأن من ارتكب محرمات وتاب تاب الله عليه، وقد قال ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو لم تذنبوا، لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله، فيغفر لهم»[1].

ما هي الأخلاق الدينية التي صمَّم خالد على رفضها، وإبعادها عن مسلك التربية والتوجيه والدعوة، وأين نجدها؟

تستطيع أن تجدها بوضوح وبيان في كل ما يريده الإسلام، وفي كل ما يهدي إليه أنبياؤه، فالقرآن كتاب بيان وهداية، يشرح للناس كل ما يدعوهم إليه، ويزيل عنه كل غموض أو إلغاز، أو ما يسيء الفهم أو التفاهم، ولهذا قال القرآن: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [آل عمران: ١٣٨]. والقرآن أنزله الله ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]. ويقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [البقرة: ١٥٩]. وهذا اللون من مِثْل هذه الآيات كثير ومعروف في كتاب الله.

والنبيُّ ﷺ مكلَّف من الله تعالى أن يبيِّن للناس ما نزل عليهم من ربهم، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: ٤٤].

ولذلك كان القرآن بلاغًا ربَّانيًا للناس، والسنة بيانًا نبويًا للقرآن، ولهذا اعتبر الإمام الشاطبي حفظ السنة من تمام حفظ القرآن الذي وعد الله به، حتى لا يبقى القرآن بلا بيان له.

نحن ندعو البشريَّة كافة إلى الالتزام بكلِّ الفضائل والقيم والأخلاق التي جاء بها الإسلام، ودعا إليها القرآن والسنة، وأجمع عليها علماء الأمَّة، من

---

(١) رواه مسلم في التوبة (٢٧٤٩)، وأحمد (٨٠٨٢)، عن أبي هريرة.

الصدق والأمانة والعدل والعفة والحياء والشجاعة والسخاء والوفاء والإخلاص وغيرها، فيقول خالد: هذه كلها فضائل إنسانيَّة، وليست مجرد فضائل دينيَّة.

ونقول لخالد: إنَّ كل ما جاء به الإسلام من فضائل إنما هي فضائل إنسانيَّة، يحتاج إليها كل إنسان، في أيِّ مكان، وأيِّ زمان، وأيِّ حال.

نحن ندعو البشريَّة كلها إلى أخلاق الإسلام، ونرى أنه لا صلاح لها أفرادًا وأسرًا وجماعات ودولًا إلا بهذه الأخلاق، التي تضبط من حريتها، وتقيِّد من شهواتها، وتطلق قوى الخير فيها، وتطارد قوى الشر عندها، والعمل مع الجميع في نطاق التعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان.

مناقشة الشيخ خالد حول الأخلاق الدينيَّة:

لقد فكرت كثيرًا في العلة التي جعلت الشيخ خالد محمد خالد يقف من الأخلاق الإسلاميَّة هذا الموقف، وينكرها، ويجعلها سببًا لتخلف الأمَّة ونكوصها، وتمسكها بتقاليد السوء وأعمال السوء.

لم يسمِّها الشيخ خالد باسمها الحقيقي (الأخلاق الإسلاميَّة)، بل سمَّاها (أخلاقًا دينيَّة)، ونزع عنها كل شيء يجعلها صالحة، ويربطها بالمجتمع، ويجعلها قادرة على وصله بالحقِّ والخير والجمال، واستوصى بكلِّ ما هو فاسد، وما هو ممنوع، وما هو مخالف، من أخلاق المسلمين وأعمالهم، ونسبه إلى ما سمَّاه (الأخلاق الدينيَّة).

ولكنها في الحقيقة التي يقرُّها كل علماء المسلمين الواعين لكتاب الله وسنَّة رسوله، وفقه صحابته ومن اتَّبعهم بإحسان، لا تمثِّل الإسلام في شيء، بل هي تحريفٌ لهذا الدين، وافْتئات عليه، وهجر له، ومن قال بأنها تمثل الإسلام، فهو مفترٍ عليه، مكذَّبٌ من كل المسلمين الصادقين.

ويريد الشيخ خالد أن يقرِّر في المسلمين قاعدة تتيح له أن يبدِّل أحكام الإسلام ومقرَّرات الإسلام، وما جاء به كتاب الله، وسنَّة رسوله، فاعتمد على قضية لا أظنه يؤمن بها، ولا يوافق عليها، وهي: أنَّ القرآن قد ألغى أحكامًا كثيرة في حياة الرسول القصيرة، وأبطل مفعولها، وأسكت صوتها، فأصبحت موجودة في القرآن شكلًا، ولكنها مفقودة موضوعًا، وهي الأحكام المنسوخة.

مغالطته في دعوى النسخ:

وهو هنا يعتمد على ما قاله المغالطون الذين يبالغون في هذه الحكايات، ويدَّعون أنَّ آية السيف نسخت مائة وأربعين آية، أو مائتي آية. وحين تسأل عن آية السيف هذه: ما هي؟ وأين هي؟ يتحيرون، ويعطونك عدة آيات، كلها يقال: إنها آية السيف. وقد ناقشناهم في كتابنا (**فقه الجهاد**)[1]، ولم نجد لهم حجَّة.

ولا أظنُّ الشيخ خالدًا، يؤمن بهذا، ولو آمن به، فقد رددنا عليه ردًّا قاطعًا مليئًا بالدلائل والبينات، ونحن نقول ما قال ابن حزم وابن القيم والشاطبي، وكل عالم متمكِّن من أن حكم القرآن الثابت في المصاحف لا يُعطل يومًا بشيء، إلا أن يقوم دليل قاطع على ذلك، وهيهات أن يكون إلا القليل، وما هو أقل من القليل.

لقد حاولت أن أجد آية في كتاب الله منسوخة بيقين، فلم أجد إلا آية الصيام في مراحله الأولى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٤﴾ [البقرة: ١٨٣ ـ ١٨٤]. فقد ثبت في الصحيحين أن الصحابة اعتبروا الآية الثانية نسخت الآية الأولى، وهذا معقول في فقه المراحل، قبل ثبوت التشريع، ومع هذا لم يُتَّفق عليها تمامًا، وفيها خلاف.

بين الأخلاق الدينية والأخلاق المدنية:

يقول الشيخ خالد: إن الأخلاق المدنيَّة أهدى من الأخلاق الدينيَّة!

ما معنى هذا؟ يعني الشيخُ: لا تقل: إنَّ الصدق فضيلة دينيَّة أو إسلاميَّة، جاء بها القرآن الكريم، وجاءت بها السنة النبويَّة، ودعا إليها الصحابة والتابعون، وتخلَّقت بها الأمَّة في عصورها الأولى، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾ [التوبة: ١١٩]. وقال: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ

(١) فقه الجهاد (١/ ٢٨٥ ـ ٣٣٣)، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثالثة.

﴿صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب: ٢٣].

واعتبر القرآن المؤمنين المجاهدين بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله هم الصادقين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: ١٥]. وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزمر: ٣٣].

وذم القرآن الكذب والكاذبين، وقذفهم بلعناته: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [النحل: ١٠٥].

والرسول ﷺ حثَّ على الصدق، وحذر من الكذب فقال: «إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدُق حتى يكون صِدِّيقًا، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذَّابًا»[1].

منطق الشيخ خالد يقول: «إنَّ حديثنا عن الصدق بهذه الجهة، وهذه الصورة، يدخلنا فيمن يريدون أن يسوقوا الناس إلى الأخلاق الدينيَّة باسم الله، وهذه ليس وراءها إلا الشر والخراب والتخلف العمراني والكساد الاقتصادي، والتدهور العلمي، والانتحار الأخلاقي!

لا بد أن نحذرَ كلمات: الله ورسوله والصحابة والتابعين والأئمة الأعلام من الشرَّاح والمفسِّرين والفقهاء والربَّانيِّين والناطقين بالحكمة، والناصحين في الدين.

لا بد أن نقول: الصدق فضيلة إنسانيَّة، دعا إليها كل الفلاسفة من أيام سقراط وأفلاطون، وأرسطو المعلِّم الأول، وجاء بها مِنْ بعدِهم في العصور الحديثة كانْت وسبنسر وديكارت ودُور كايم.

وهي فضيلة لا تعلو المجتمعات إلا إذ تمسَّكت بعراها وعاشت بقيمها، وحاول الناس أن يغروا بعضهم بعضًا بها، ويجرِّدوها من الدين تمامًا!

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠٩٤)، ومسلم في البر والصلة (٢٦٠٧)، عن ابن مسعود.

لقد نظرنا إلى إنكلترا، ونظرنا إلى فرنسا، ونظرنا إلى ألمانيا، ونظرنا إلى إيطاليا، وإلى كثير من أقطار أوروبا وأمريكا، بل إلى الروس والصين وغيرهم في العالم، فرأيناهم جميعًا يتمسَّكون بفضيلة الصدق، ولن نصبح مثل هؤلاء أو قريبًا منهم إلا إذا تمسكنا بالفضائل التي يتمسكون بها، على طريقتهم، بعيدًا عن الارتباط بالدين وروادعه وزواجره، وجنته وناره، ووعده ووعيده»[1].

أهذا ما يريده الشيخ خالد؟ أي الطرفين أقوم قيلًا، وأصحُ دليلًا، وأهدى سبيلًا؟!

لقد نوَّه الشيخ خالد فيما كتبه كثيرًا بعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب، وخالد وأبي عبيدة وغيرهم من أفذاذ الصحابة والتابعين. وقد ذكر لنا فيما سيأتي عمر بن عبد العزيز، فهل كان ابن عبد العزيز واحدًا ممَّن يريدهم منسلخين من الدين، يبتعد عن الأخلاق الإسلاميَّة، ولا يذكر الله ولا الآخرة عندما يذكرها؟!

إننا لو قلنا ذلك لخلعنا على الرجل صفات غير صفاته، وألبسناه غير لباسه، وسلبنا الحياة الإسلاميَّة التي كانت في عهده ومن قبله ومن بعده خصائصها ومقوِّماتها، التي لا يحيا إلا بها.

بين خَلق القيم ووراثتها:

اعتبر الشيخ خالد الإنسان المعاصر (خالق قِيَم)، والإنسان عندنا هو في الحقيقة وارث قِيَم، جاء بها الرسل والأنبياء من قبله، وأورثوها الناس، وأصبحت ملك البشريَّة كلها، وغدَت هي المواريث الكبرى للناس، يفتخرون بها ويعتزون بإحيائها ونشرها، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥]. وبماذا يكون الصلاح؟ أن تُتوارث القيم الإيمانيَّة والأخلاقيَّة والثقافيَّة التي نشرها الرسل ودعَوْا إليها.

لقد عرفتُ وقرأت ما كتبه الشيخ خالد معتذرًا عما قاله قديمًا في كتابه **(من هنا نبدأ)** عن الإسلام ودولته، ولكني لم أعرف أنه كتب عن آرائه الأخرى

---

(١) هذا أو الطوفان، الطبعة الأولى.

المماثلة في شأن الدين، وخصوصًا دين الإسلام، كل ما أعلمه أن كتبه ظلت تباع كما هي، ولا يعترض عليها، ولا يعلق على ما فيها، فمن هنا وجب علينا نحن دعاة الإسلام، ورجال القرآن والسنة، وشيوخ الفقه والدعوة: أن نرد عليه، ونحن مطمئنون.

سبب انتشار كتب خالد محمد خالد:

ما ساقه خالد في كتبه التي اشتهرت في أول أمره، وروَّجها المروِّجون، الذين يكرهون الإسلام، ويفرحون غاية الفرح بكلٍّ من يمسك بفأسه ليحطم صرحه، ولا سيما إذا كان من أبنائه من المشايخ أو من العلماء.

ولم يتهيأ لكتبه رجال ينذرون أنفسهم لنقضها والرد عليها، كما فعل الشيخ الغزالي في الردِّ على كتابه الأول: **(من هنا نبدأ)**، والأستاذ محمد فريد وجدي وآخرون غيرهما.

ومضت هذه الكتب تنشر طلاسمها وقواصمها وطوامِّها في المجتمع المصري، أو قل: المجتمع العربي، في وقت لم يكن فيه مجال لنقد هذه الآراء الخطيرة التي حرمت الإسلام من الحكومة في الكتاب الأول، وحرمته من التشريع في كتاب آخر، ومن الأخلاق في كتاب ثالث.

وقد ظهر الكتاب الأول في الوقت الذي حُرِمَ فيه الإخوان من دَوْر ظاهر لهم، وقد أُخذوا إلى المعتقلات والسجون، وكان الوقت مهيَّأً وصالحًا لنشر كل ما يُشوِّه الإسلام، ويثير العقبات في طريقه.

خرج الإخوان في أوائل سنة (١٩٥٠) من معتقلاتهم، يعملون في المجتمع المصري الكبير، بلا شُعَب ولا مراكز، ولا أدوات ولا صحف، فقد عُطِّل كل ما كان لديهم من ذلك، عندما حَلَّت الحكومة الجماعة في ٨ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٨م، ولم يجدوا مسجدًا في القاهرة غير مسجد الشيخ أحمد الشرباصي في المنيرة، يجتمعون فيه، ومن حوله في كل جمعة، ولم يجدوا جريدة غير جريدة **(منبر الشرق)** للمصري المجاهد الكبير الشيخ على الغاياتي، ثم بعد ذلك مجلة **(المباحث)** التي استأجرها الأستاذ صالح عشماوي وكيل الإخوان وقتها، وأخرجها مجلة في السوق على ضَعَف الإمكانات.

ثم سرعان ما استردَّ الإخوان حقوقهم بعدما اختاروا القاضي الكبير من

قضاة محكمة النقض الأولى المصريَّة: الأستاذ حسن الهضيبي، مرشدًا عامًّا لهم، بعد مؤسِّس الجماعة حسن البنا، واستعادوا حقَّهم في أن يكون لهم دار، إلى أن استعادوا دارهم التاريخيَّة.

ثم قامت ثورة الضباط الأحرار في ٢٣ تموز/يوليو ١٩٥٢م بمؤازرة الإخوان، ومشاركة ضباطهم، ومساندة شُعَبِهم وأفرادهم في مصر كلها، وأخرجوا الملك من مصر، وبقي ابنه ملكًا لمصر، ونصب له مجلس للوصاية، حتى أُلْغِيَت الملكيَّة من مصر.

كانت الثورة وساحاتها مجالًا لكتب الشيخ خالد، وذيوعها في مصر وفي العالم العربي، ولا سيما أنَّ الإخوان سرعان ما اختلفوا مع عبد الناصر، واتَّصل به بعضهم، وانفصل سائرهم، وظلت الأوضاع تتوتر وتتكدر حتى وقعت الواقعة، وبدأت المصادمات ما بين الثورة والإخوان، ودخل الإخوان في محن وراء محن، فقدوا فيها من فقدوا من شيوخهم وإخوانهم وأتباعهم وشُعَبِهم وممتلكاتهم.

كل ذلك كان في مصلحة الشيخ خالد وكتبه وآرائه الجريئة، التي لا تخلو من حدَّة ومغامرة ضد القرآن والسنة وتراث الأمَّة، وضد الدعوة الإسلاميَّة الجديدة التي قام بها حسن البنا في بلاد العرب، والمودودي في الهند، وما تفرع عن الدعوتين الكبيرتين.

رغم أن الشيخ خالدًا يشهد له من عرفوه أنه لم يبع رأيه لأحد، لا لفرد ولا لمؤسسة، ولا لوزارة ولا لرئيس، وهذه مأثرة تكتب للرجل، وإن خالفناه في لون التفكير، الذي فارق في كثير منه أمته.

كنتُ أود من كل قلبي أن يتجرَّد الشيخ خالد بما عرفه وفهمه من قراءاته الكثيرة والعميقة، التي عرَّفته وأوقفته على ملامح النَّكَد والظلام والتراجع في الفكر الإسلامي، وأن يرجع إلى المدارس التي اكتشفت هذا الخلل والتناقص والنكوص في تراثنا الإسلامي من قبل، ويأخذ بالفكر الحر الذي لم يلوَّث بهذه الأفكار الرجعيَّة العائقة للدين وللتراث: كأن يقرأ لابن الجوزي وإمام الحرمين والغزالي وابن عبد السلام والقرافي وابن دقيق العيد وابن تيمية وابن القيم وابن كثير والذهبي والراغب الأصفهاني والشاطبي وابن خلدون وابن الوزير والمناوي والصنعاني والشوكاني وأمثالهم، وأن يجد في أفكار هؤلاء وغيرهم ما ينوِّر

بصيرته، ويضيء بصره، ويشد قوته، ويقوي شكيمته، ويجدد أمته.

ولكنَّ الشيخ خالدًا بقي في أفكار المثبِّطين والمعوِّقين، والذين يعشقون الظلام، والإقامة في القبور، ويقاومون حملة المشاعل، ومضيئي المصابيح.

ولا أعرف: هل أدرك الشيخ زمن ترجمة كتاب شيخنا العلامة: محمد عبد الله دراز (**دستور الأخلاق في القرآن**)؟ الذي ترجمه إلى العربية الدكتور عبد الصبور شاهين، وبذل ما بذل فيه من جهود مضنية، حتى قدَّمه إلى الأمَّة العربية، نورًا يهدي، وبركة تسري، وغذاء يقوِّي، ودواء يشفي، ورحمة تُنجي.

ونعود إلى ما أثاره خالد من سؤال، حيث قال:

«والجواب عن هذا السؤال بسيط بساطة الحقيقة. فنحن حين نفينا الحكومة الدينية، لم نقل: إن الدين ليس له رأي - أيّ رأي - في شكل الحكومة.

ومثل ذلك في القوانين الدينيَّة، لم ننفِ أن يكون للدين توجيه في إنشائها وتنظيمها. وإنما قلنا: إن الدين لم يرسم شكلًا محددًا ومعيَّنًا للحكومة، بحيث إذا لم تقم الحكومات بهذا التصميم الخاص تصير حكومات لا دينية.

كما لم يبسط في تفصيل كامل، قوانين معينة اشترط الحكم بها والاحتكام إليها، بحيث يصير العدول عنها إلحادًا وهرطقة.

إذن ماذا فعل الدين؟

لقد اكتفى بأن رسم الإطار الصالح للحكومة الصالحة، فاختار نظام الشورى، وهدى إليه قائلًا: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]. تاركًا للناس ممارسة التفاصيل وابتكارها، كل أمة حسب ظروفها، وكل جيل حسب العصر الذي يعيش فيه.

ولو فعل غير هذا، لكان حجْرًا على المستقبل، ولما استحقَّ أن يكون دينًا.

وسلك مع القوانين مسلكًا مشابهًا؛ فاشترط أن تكون أداة لإرساء الحق والعدل، وهي لا تكون كذلك أبدًا إذا تحجرت في نصوص معينة. ولا بدَّ لها إذا أرادت أن تصون الحق، وترفع لواء العدل أن يكون أمرها متروكًا للناس، يكيفونها حسب أزمانهم وعصورهم، وليس هناك إذن ما يمكن أن يسمَّى

(أخلاقًا دينية)، تحدِّد نوع الوسيلة، وتختار للسلوك نهجًا واحدًا، لا تبديل له ولا تطوير فيه!!

ولو فرضنا ـ جدلًا ـ أن هذا النوع من الأخلاق وَجَد لنفسه مكانًا في الماضي؛ فهيهات أن يجد له مكانًا اليوم، حيث يقود العقل قافلة التقدم، في فطنة باهرة، وعرفان للجميل، جميل القوى الخيِّرة التي سبقته، والدين على رأسها. والتي لا تزال تزجي للموكب نفحات تشد عزمه وتنعش قواه»[1].

ويقول خالد: «أجل، إن إنسان هذا العصر إنسان جديد، خالقُ قِيَم، ورائد حضارة، وهو إذ يرفض أن يكون امتدادًا أفقيًا لسلفه، يريد أن يكون امتدادًا رأسيًا صاعدًا، ولم يعد هدفه في الحياة أن يفلسفها، بل أن يحياها.

وليس هناك عبث أكبر من عبث الذين يحاولون أن يسلكوه في شكيمة، ويفرضوا عليه قيمًا موروثة، لم يمنحها عقله الحرُّ جوازَ المرور.

كان عمر بن عبد العزيز من خير الذين حملتهم الأرض فوق ظهرها، فهمًا، وعدلًا، وزهدًا، ولقد كان له دعاء جدير بكلِّ متدين صالح ورع أن يفقهه ويرتله،

كان الخليفة الصالح يدعو ربه ويقول: يا رب انفعني بعقلي، واجعل ما أنا صائر إليه، أهم إلى ممَّا أنا مدبر عنه[2]!!»[3].

مشكلة الأستاذ خالد محمد خالد مع الأخلاق الدينية:

وأحب أن أعلِّق فأقول: لا أدري ما مشكلة الشيخ خالد مع أخلاق الدين؟ وكل دين له عقائد، وله عبادات، وله معاملات، وله تشريعات وقوانين، وله أخلاق وآداب. فهل هو يقبل الدين بكلِّ مقوماته وأركانه، وبكل خصائصه ومميزاته أم يأخذ الدين بغير ما يشخصه ويميِّزه ويجعله شيئًا معروفًا ملموسًا يُرى ويُحَس ويُجَس، ويُستَمع ويُنتفع به، ويُتأثر به؟

ولا شك أنَّ لكل دين أخلاقًا ومكارم وفضائل يهدي إليها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

(١) هذا أو الطوفان، الطبعة الأولى ص١٦٩ ـ ١٧١.
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص٩٨.
(٣) هذا أو الطوفان، الطبعة الأولى ص١٧١.

هناك أخلاق تهدي العقل، وأخلاق تهدي الإرادة، وأخلاق تهدي الشعور والوجدان، وأخلاق تهدي الأسرة، وأخرى تهدي المجتمع، وغيرها تهدي الأمَّة. وهي ليست أوامر تهدي الأمَّة جُزافًا، ولكن لها شروطها، ولها قيودها، ولها موازينها.

ولو قرأ الشيخ خالد كتاب شيخنا الدكتور دراز (**دستور الأخلاق القرآنية**)، وما فيه من تفاصيل حول القواعد الأساسيَّة الفطريَّة الأخلاقيَّة التي جاء بها القرآن من وجود الإلزام والجزاء والمسؤوليَّة والنيَّة والجهد، لوجد الردَّ العمليَّ المفصَّل على كل ما يدَّعيه من نقص في الأخلاق الإسلاميَّة، التي يدَّعي الشيخ عليها: أنها أخلاق دينيَّة، وهي أبعد ما يكون عن الأخلاق الإسلامية الحقة.

الأخلاق الدينية التي يعتمد عليها الشيخ ليهاجم أخلاق الإسلام، ليست أخلاق الإسلام الحقيقية، بل هي أخلاق الذين لا يحسنون فهم الإسلام، ويتخذون أخلاقًا من خارج نصوص القرآن والسنة الصحيحة ومقاصدهما، وهذه لا تلزمنا، ولا تلزم الإسلام والمسلمين.

كلام الأستاذ خالد محمد خالد: أخلاق المدنيَّة أهدى!!:

نقل من كتاب (**هذا أو الطوفان**)، من فصل (أخلاق المدنية أهدى)[1] هذه الفقرات. يقول الشيخ خالد: «وهنا يتقدَّم إلينا سؤال آخر يقول:

- إذا أخذنا بوجهة نظرك التي سلفت، فماذا يكون موقفنا من الوحي الذي حدَّد الوسائل، واختار البواعث؟

وبعبارة أخرى: إنَّ الدين هو الذي اختار الانفصال بين الجنسين كوسيلة للعفة، والبعد عن مواطن الزلل والرذيلة. فإذا آثرنا اليوم وسيلة مغايرة، ومضادَّة لتلك التي اختارها الدين، ونزل بها الوحي، ألا نكون مُهْرَطقين وضُلَّالًا؟

والدين أيضًا اعتبر الختان من فضائل العادة الممهدة لفضيلة العفة بالذات، فإذا رأت أخلاق المدنية العكس، وآثرناها، ألا نكون عصاة مذنبين؟»[2].

لم يجب الشيخ خالد عن هذين الأمرين، مع أنَّ الأمر فيهما واضح،

---

(١) حذف الشيخ خالد هذا الفصل في طبعات تالية، وإن بقيت بعض هذه الأفكار موجودة.
(٢) هذا أو الطوفان، الطبعة الأولى ص١٨٧.

وكان يجب التفريق بين ما فصَّل فيه الإسلام بوضوح، وما لم يكن كذلك، فكثير مما كان من الثوابت لدى كثير من المتديِّنين، لم يعد منها لديهم اليوم بعد الجهد العلمي الكبير الذي قام به أخونا الأستاذ أبو شقة في كتابه **(تحرير المرأة في عصر الرسالة)**.

وكان لا ينبغي للشيخ خالد في مسألة الختان ـ التي وضحنا فيها رأينا بيسر[1] ـ أن يَدَع كلامه مبهمًا غير واضح، يفهم منه أنه يمنع ختان الذكور وختان الإناث. وهو ما لا يجوز بحال.

مصادر الأخلاق الدينية عند الأستاذ خالد محمد خالد:

ثم قال خالد: «ونجيب، بأن الأخلاق الدينيَّة تستمد غذاءها من مصادر ثلاثة:

أولها: الدين الصحيح. أي: التعاليم الصادقة التي نادى بها الرسول، ولم تنلها يد التحريف والتزييف.

ثانيها: التعاليم المدخولة المدسوسة على الدين وليست منه. وكلنا نعرف أن هناك عشرات الآلاف من الأحاديث المكذوبة والموضوعة نُسبت إلى رسول الله ﷺ زورًا وبهتانًا[2].

ونقول للشيخ خالد: إنَّ عوام المسلمين لا يعرفون عشرات الآلاف من الأحاديث المكذوبة التي ذكرها خالد، وإنما قد يعرفون المئات منها، وقد وضحها العلماء.

ثم قال معدِّدًا بقية مصادر الأخلاق الدينيَّة: «**ثالثها**: التقاليد التي اختلطت بالحركة الدينيَّة خلال تطورها وفتوحاتها، ودخول الأمم والجماعات فيها، سواء في المسيحية أو في الإسلام.

فأما مصدرها الأول؛ فهو وحده الجدير باحترامنا. وموقفنا منه ينبغي أن ينطوي على ما يستحقه من إصغاء وتوقير.

---

(١) انظر رسالتنا: الحكم الشرعي في ختان الإناث، مكتبة وهبة القاهرة، وانظر لنا أيضا فتاوى معاصرة: (٤/ ٥٠٧ ـ ٥٢٣).

(٢) هذا أو الطوفان، الطبعة الأولى ص١٨٨.

كيف؟ وما السبيل؟

قلنا من قبل: إنَّ ما يريده الدين بإصرار وحسم، هو مزاملة الخير، ومقاطعة الشر. وقلنا: إنَّ في الدين جانبًا لا يتغيَّر، وكل تبديل فيه يعتبر تسريحًا للدين وإنهاءً له. ذلك هو جانب العقيدة، وما يلتحم بها من فرائض العبادات.

وفي الدين جانب آخر يخضع للتعديل والتطوير، هو جانب الفقه الذي ينظم للناس معيشتهم وسلوكهم.

أليس ذلك إذنًا منه سبحانه إلى الناس كي يحسنوا تكييف الشريعة وَفق ظروفهم، ومصالحهم، واستعدادهم؟ أجل، الأمر كذلك حقًّا»[1] اهـ.

خطأ الأستاذ خالد في توسعه في القول بالنسخ:

ونقول هنا: لقد بيَّنا أن الشيخ خالدًا مخطئ تمامًا في هذه القضية، وهي اعتماد ما شاع عن النسخ، فالمحقِّقون من العلماء لا يتوسَّعون فيه، بل هم ما بين مانعين له تمامًا، وما بين مقلِّلين جدًّا في إثباته، وأنا مع هؤلاء.

دعوى الشيخ خالد محمد خالد في تقديم المصلحة على النص:

ويقول: «ولقد رأينا من كبار علماء الإسلام وأكثرهم ورعًا وتقوى من يقول: إذا تعارض النص من قرآن وسنة، مع المصلحة، قدِّمت المصلحة على النص؛ لأن النصوص إنما جاءت لرعاية المصالح لا لتعطيلها»[2].

أقول هنا: يعتمد الشيخ خالد ما شاع عن العلامة الحنبلي نجم الدين الطوفي: أنه قدَّم المصلحة على النص، وإن كان نصًّا قطعيًّا. وهذا ما بيَّنا غلط الناس فيه عليه، وأنه لم يقل ذلك أبدًا، بل بيَّن أن النص القطعي من القرآن أو متواتر الحديث، لا يبطله شيء، وقطعيَّته تمنع ذلك. فليُرجع إليه في نص كتابه في **شرح الأربعين النووية** في حديث: «لا ضرر ولا ضرار»[3]. أو في كتبنا

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) هذا أو الطوفان، الطبعة الأولى ص١٨٩.

(٣) التعيين في شرح الأربعين للطوفي ص٢٣٤ ـ ٢٨٠، نشر مؤسسة الريان، بيروت. ومما قاله في هذا السياق عن النص: «وأما النص، فهو إما متواتر أو آحاد، وعلى التقديرين فهو إما صريح في الحكم، أو محتمل، فهي أربعة أقسام، فإن كان متواترًا صريحًا فهو قاطع من جهة متنه ودلالته، لكن قد يكون محتملًا من جهة عموم أو إطلاق، وذلك يقدح في كونه قاطعًا مطلقًا. فإن فرض عدم احتماله من جهة العموم =

التي كتبناها في هذا الموضوع، مثل كتاب (**الدين والسياسة**) و(**السياسة الشرعية**) و(**دراسة في فقه مقاصد الشريعة**)[1].

زيادة بيان في موقف الشيخ خالد من الأخلاق الدينيَّة:

يقول خالد: «إذن، فموقفنا من الأخلاق الدينيَّة التي ترتكز على نص ديني صحيح هو تفسير النص وتكييف وجهته، بحيث يتواءم مع ضروراتنا التي يكشف العلم والتطور عن حقيقتها.

أما الأخلاق الدينيَّة التي تستمد وجودها من المصدرين الآخرين: الخرافة والتقاليد، فمن البداهة أن ندرك مدى ما نسديه للدين وللفضيلة من صنيع حين نحطمها، ونسحقها، ثم نذروها في الهواء.

مرة أخرى أقول لكم: إن الدين يهتم بالموضوع لا بالشكل، وبالمبدأ لا بالتفاصيل، خاصة حين يكون الأمر متصلًا بشؤون المجتمع والحياة.

هذا هو المسيح يسأله رجل وهو يلقي موعظته: يا سيد، قل لأخي يقاسمني الميراث. فيجيبه يسوع: يا إنسان، مَن أقامني عليكما قاضيًا وقاسمًا؟

وهذا هو رسول الله محمد، يقول لأمته: «إنما أنا بشر، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي، فإنما أنا بشر»[2]، وفي رواية: «أنتم أعلم بأمر دنياكم»[3]»[4].

وأقول: أخشى من عناية الشيخ خالد بما ينقله عن اليهوديَّة والمسيحية، وعن التوراة والإنجيل: أن يوهم الناس أنَّ الديانتين لم تُنسخا، وأن من حقِّ الإنسان أن يؤمن بأيٍّ واحد منهما، ويكفر بالإسلام، فكلها ديانات سماوية

= أو الإطلاق، ونحوه، وحصلت فيه القطيعة من كل جهة، بحيث لا يتطرق إليه احتمال بوجه. منعنا أن مثل هذا يخالف المصلحة، فيعود إلى الوفاق. وإن كان آحادًا محتملًا فلا قطع، وكذا إن كان متواترًا محتملًا، أو آحادًا صريحًا لا احتمالًا في دلالته بوجه، لفوات قطعيته من أحد طرفيه إما متنه أو سنده». اهـ. فهو هنا يمنع صراحة أن يخالف النص القطعي في سنده وفي دلالته: المصلحة.

(١) انظر: الدين والسياسة ص٩٦، والسياسة الشرعية ص١٦٠ ـ ١٦٥، ودراسة في فقه مقاصد الشريعة ص١٢٨ ـ ١٣٤.

(٢) رواه مسلم في الفضائل (٢٣٦٣) (١٤٠)، عن عائشة.

(٣) رواه مسلم في الفضائل (٢٣٦٣) (١٤١).

(٤) هذا أو الطوفان، الطبعة الأولى ص١٨٩.

كتابية. فالحق أن الديانتين حُرِّفتا وتغيَّرتا عما كانتا عليه أولًا، وقد بعث الله رسولًا جديدًا، بالرسالة العامة الخالدة، حين أرسل محمدًا ـ ومعه القرآن ـ بدين الإسلام.

وأما الحديث الذي ذكره فهو مهم، ولكن لا بدَّ أن نعلم ما المراد بشئون الدنيا في الحديث؟ فالحديث لم يجئ ليُلغي القرآن، أو ليُلغي آلاف الأحاديث الأخرى التي ثبتت صحتها أو حسنها.

استهانة خالد بشرب الخمر ولعب الميسر وهما من الكبائر:

ومن الأخطاء الكبيرة التي سقط فيها الشيخ خالد، موقفه من المصريين الذين انتقدوا بحدَّة ومرارة أحمد ماهر باشا رئيس الحزب السعدي الذي انشقَّ عن الوفد، وتولَّى رئاسة الوزارة بعد ذلك؛ لأنهم رأوه يشرب الخمر، ويلعب الميسر، بينما ينظر خالد للأمر باستهانة لا تليق بمسلم يعتبر دينُه هاتين الخصلتين من الموبقات ومن كبار المحرمات.

قال خالد: «كان أحمد ماهر سياسيًّا نظيفًا، وأخلاقيًّا ممتازًا. ومع هذا؛ فقد استطاع خصومه السياسيون إقناع العامَّة والجماهير، بأنه فاسد ومرذول. أتدرون لماذا؟

لأنه كان يشرب خمرًا، ويراهن على الخيل في حلبَة السباق!!

وفي هذه المثلبة التافهة أُغرِقت فضائله الجليلة التي ينوء بحملها أولو العزم من الرجال.

وفي كأس خمره الصغيرة، تلاشت شجاعته الأدبيَّة، وإخلاصه الوطني ونزاهته، وحُسن بلائه، وذكاؤه المتَّقد، وإيمانه العميق.

أجل، نسي العامة كل هذا، لرجل لا يمر طرازه بالحياة إلا قليلًا، ولم يذكروا له، وعنه، إلا أنه يشرب خمرًا ويغشى حلبة السباق(!!!).

إن الأخلاق الدينيَّة لا تعطي مفاهيم صحيحة متطورة للفضيلة، وللسلوك القويم. وهذا يجعلها خطرًا عليهما»[1].

---

(١) المصدر السابق ص١٩٥.

أقول بحق: إن الشيخ خالدًا لم ينصف عامة المصريين ـ ومعظمهم مسلمون ـ حين انتصر للسكّيرين والمقامرين الذين احتقرهم الناس، وقد قرؤوا جميعًا قول الله تعالى في سورة المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩٠ ـ ٩١].

فهل يلام مسلم يذمُّ مسلمًا على أنه لم يحترم هذه الآية الكريمة، وارتكب شرب الخمر ولعب الميسر، وصدَّ عن ذكر الله وعن الصلاة؟ أليس الذي يقترف هذه الكبائر الموبِقة معيبًا عند الله وعند المسلمين؟ ولا يمكن أن تقرِّب هذه الكبائر التي اعتبرها القرآن رِجْسًا من عمل الشيطان، مسلمًا من أن يتولى أرفع المناصب في الدولة، مثل رئاسة الأحزاب الكبرى، ومن ثم: رئاسة الوزراء؟! من المصيب ومن المخطئ في هذه القضية؟! الحق أن المصيب هو جمهور المصريين، والمخطئ الحقيقي هو الشيخ خالد. وا أسفاه!!

إرهابية الباعث ورجعية الوسيلة:

ويَصُبُّ الشيخ خالد جامَ نقمته، ويرمي دعاة الأخلاق الدينيَّة والإسلاميَّة بكلِّ ما هو سيئ، لماذا؟ لأنهم يعتمدون على إرهابيَّة الباعث، وعلى رجعيَّة الوسيلة، فباعثهم هو الرجاء في رحمة الله، والخوف من عذاب الله.

وهذا في نظر الشيخ تحريف للتوجيه وللتربية، وتركيز في النهاية على التخويف من الله. وهو ما يؤدي في نهاية المطاف إلى تحطيم الثقافة، وتدمير الأمَّة في النهاية.

لم يُعجب الشيخ الأسلوب القرآني الرائع الذي يجمع فيه بين الرجاء والخوف، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾ [الرعد: ٦]. ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾ [المائدة: ٩٨]. ﴿وَفِى ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾ [الحديد: ٢٠].

وقد ساق الشيخ خالد جملة آيات من القرآن، وردت في عذاب الكافرين والفجار والكذَبة والمنافقين، وهي آياتٌ كثيرة جدًا، وناصعةٌ جدًا، وظاهرةُ الدلالة جدًا، ولكن الشيخ اعتبر دلالتها مجازية، وكأنه لا يوجد نار ولا سعير

ولا جنهم ولا لظى، ولا شيء من ذلك. وهو ما كَفَّر بمثله وبما هو أقل منه الإمام الغزالي وعلماء المسلمين الفلاسفة المشَّائين الذين انتسبوا إلى الإسلام.

دعواه في دلالة آيات العذاب في القرآن بأنها مجازية!!

وقد قال الشيخ خالد هنا: «وإذا سألني سائل: أتريد أن تحذف آيات العذاب من القرآن، وتستبعدها؟

أجيبه: عفا الله عنك، ما لهذا قصدنا. وإنما نقول: إن دلالة هذه الآيات مجازية تصويرية. تريد أن تحمل الناس الذين يخافون ولا يخجلون على طاعة الله وترك السوء.

وإنا لنعلم أن في القرآن آيات نُسِخَ حكمُها، ونفد غرضُها.

(أقول: قرَّر الشيخ هذه الدعوى، ولم يثبت ذلك).

ومع هذا فهي باقية لمجرَّد التلاوة، دون أن يكون لها حكم نافذ، أيّ حكم.

فآيات العذاب باقية للتلاوة، وللتاريخ. تُصوِّر لنا حال مرحلةٍ من تطوُّرنا الإنسانيّ كان الخوف فيها هو المعراج الذي يصعد بالناس إلى الكمال.

أما أن نعتمد على التَّقريع الشديد والتَّخويف المدمدم في محاولاتنا الأخلاقيَّة اليومر ـ كما تفعل الأخلاق الدينيَّة فعلًا ـ فعمل غير صالح، بقدر ما هو غير ديني»[1] اهـ.

وأقول: الشيخ خالد لا يحب آيات التخويف التي تصوِّر عذاب الكفار المستكبرين في جهنم، والتي يتوسل بها دعاة الأخلاقيَّة الدينية اليوم، والتي اعتمد عليها الدين في ذلك الزمن البعيد، يوم لم يكن منها بد!! وهل منها بد اليوم؟ هل تُحذف هذه الآيات من القرآن الكريم؟

هذا ما يريده الشيخ خالد! ونحذف أحاديث الخلود في النار، وما أعدَّ الله للمعذبين في جهنم!!

لا يريد أن تتلى هذه النصوص التي تبعث الخوف من الله، ويريد أن تبقى

---

(١) المصدر السابق ص١٩٩.

الآيات والأحاديث التي تملأ القلوب بالرحمة والمغفرة، كحديث النبيِّ ﷺ حينما رأى امرأة تضم طفلها إلى صدرها، فقال لأصحابه: «أترون هذه طارحة ولدها في النار؟». قلنا: لا، وهي تقدر على أن لا تطرحه. فقال ﷺ: «لله أرحم بعباده من هذه بولدها»[1]!!.

وهنا يقول الشيخ خالد: «أي: إنه لن يطرح إنسانًا واحدًا في النار. أي اطمئنوا، ليس أمامكم نار، ولا غِسْلِين، ولا مقامع حديد!!»[2].

ومعنى هذا أن ما أعدَّه الله من نار وعذاب لمن تمرَّدوا عليه وعصوا رسله، وكذبوا بآياته، وعذبوا المؤمنين، لا تمثل الحقيقة، إنما هي تعبير مجازي!!

خالد يحارب وسائل الأخلاق الدينيَّة:

وفي سلسلة الحرب الضروس التي شنَّها الشيخ خالد على الأخلاق الإسلاميَّة، أو الأخلاق الدينيَّة كلها، إسلاميَّة كانت أو مسيحيَّة، نجد خالدًا يوجِّه حلقة خاصة في سلسلته، ليحارب بها وسائل هذه الأخلاق، بعد أن ينتقصها ويحقرها، ويتهمها بكلِّ ما هو نقص، فانظر ماذا يقول.

يقول خالد: «بم تتوسل الأخلاق الدينيَّة للفضيلة؟

إنها تتوسل بذات الوسائل التي كانت منذ ألفين من الأعوام!!

إن الله لم يكتفِ بموسى، فبعث المسيح يُكمل الناموس، ثم لم يكتفِ بالمسيح، فبعث محمدًا في أثره مجدِّدًا وهاديًا إلى طريق جديد.

أنريد نحن اليوم أن نسير على المنهج الذي أكلته القرون والدهور؟

أجل، هذا ما تريده الأخلاق الدينيَّة. وهي هنا أيضًا تستغل الآيات المقدَّسة استغلالًا رجعيًّا جاهلًا.

فالكتاب المقدَّس مثلًا يرى من آداب السلوك أن تغطي المرأة شعرها فيقول: إن كانت المرأة لا تتغطى؛ فليُقَص شعرها. ويقول: حسنٌ للرجل ألا يمس امرأة.

---

(1) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٥٩٩٩)، ومسلم في التوبة (٢٧٥٤)، عن عمر بن الخطاب.

(2) المصدر السابق ص٢٠٠.

ويرى القرآن مثل ذلك فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

ويقول الرسول: «إن المرأة إذا بلغت المحيض، لم يحل أن يظهر منها إلا هذا وهذا». مشيرا إلى الوجه والكفين[١].

وتتجاهل الأخلاق الدينيَّة، أن هذا تشريع خاص بمسائل اجتماعيَّة، وليس ملتحمًا بالعقيدة»[٢].

يريد الشيخ: أن ما يلتحم بالعقيدة يظل ثابتًا ولا حرج، أما ما يتعلق بالمسائل الاجتماعيَّة، فلا يجوز له أن يثبت، وإن كان فيه نصوص قرآنيَّة ونبويَّة!!

ثم يقول: «وتتجاهل أيضًا، أن الرسول قال: «أنتم أعلم بشئون دنياكم»[٣]»[٤].

ولقد استغلَّ خالد هذا الحديث الآحادي الواحد، ليبطل به مئات وربما آلاف الأحاديث الصحيحة الأخرى، بل ليبطل به آيات القرآن العظيم. وما هكذا يفعل العلماء، فالعلماء لهم أصول وقواعد، يرجعون إليها ويحتكمون لها، وينزلون عند ما تقرره.

حصره المشكلة الأخلاقية بالجنس:

ويتابع الأستاذ خالد محمد خالد حديثه عن الأخلاق الدينيَّة قائلًا: «إنها توغل في التشبُّث بنفس التفصيلات والوسائل التي كانت تصلح لزمان غير زماننا. ولقد أوقعها في مأزق وبيل، وأوقع معها ضحاياها. وذلك المأزق هو: حصرها المشكلة الأخلاقيَّة في الجنس.

أجل، إن الأخلاق الدينيَّة لتنفعل بالجنس انفعالًا مريبًا، وتبالغ في تصوره مبالغة تدفع حتمًا إلى الولوغ في رذائله.

---

(١) رواه أبو داود في اللباس (٤١٠٤)، وقال: مرسل خالد بن دريك لم يدرك عائشة، والبيهقي في النكاح (١٣٢٧٤) وقال بعد أن ذكر كلام أبو أبي داود: مع هذا المرسل قول من مضى من الصحابة رضي الله تعالى عنهم في بيان ما أباح الله من الزينة الظاهرة، فصار القول بذلك قويًا، وحسَّنه الألباني في غاية المرام (١٨٧)، عن عائشة.

(٢) المصدر السابق ص٢٠١.

(٣) سبق تخريجه، ص٣٣٧.

(٤) المصدر السابق نفسه.

وإنك لترى المرأة في بلادنا ـ بلاد الشرق العربي كله ـ مخلوقًا عجيبًا، لا ينبغي لمسه، ولا النظر إليه، ولا إفساح المجلس له، ولا الاقتراب منه!!

مع أن العقل الإنساني قد انتهى نهاية سعيدة، إلى أن خير الفضائل وأزكاها هي التي تترعرع في مجتمع زالت فواصل الجنس منه، وتفوق على مركبات النقص التي ملأته بها الأخلاق الدينية.

لا تستطيع الأخلاق الدينيَّة ـ إذن ـ أن تهدي للفضيلة، ما دامت تعتمد على الإرهاب، وتتوسل بالرجعيَّة، فهي استبداد، والأخلاق حريَّة. وهي جمود، والفضيلة متطورة»[1].

يخلط الشيخ خالد دائمًا الإسلام بالأشياء التي ننكرها جميعًا، ولا يقرُّها أي عالم أو داعية أو أديب يعرف الإسلام حق المعرفة، فنحن ـ وكل الإسلاميين الواقعيين ـ ننكر المبالغة في تصوير وقائع المجتمع، والغلو في قضايا الجنس، وتصويرها كأنها هي وحدها التي تحرك المجتمع، ونعيب الذين يقللون من الموبقات الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة والسياسيَّة، وقد حفلت بها الآيات والأحاديث، فهذا غلوٌّ مرذول لا يقبله عقل مسلم، تربَّى على الاعتدال، كما لا يقبل ما يقدِّمه خالد علاجًا لذلك، وهو إزالة فواصل الجنس بين الطرفين، وإلغاء التوازن بينهما، وإقامة المجتمع على ذلك.

يقول: «العقل الإنساني قد انتهى نهاية سعيدة، إلى أن خير الفضائل وأزكاها هي التي تترعرع في مجتمع زالت فواصل الجنس منه، وتفوق على مركبات النقص التي ملأته بها الأخلاق الدينية!». يريد الشيخ خالد أن يمرَّ على آيات القرآن، وأحاديث الرسول، ولا يلقي لها سمعًا؛ لأنها ليست في مسائل العقيدة والعبادة، وإنما هي في مسائل المجتمع الذي هو من مشاغل الدين وأهمياته!!

غفر الله لك يا شيخ خالدًا. من قال: أنَّ الدين ـ وأنا أعني هنا: الإسلام ـ لا ينشغل بالمجتمع، ولا يهتمَّ بأموره، ولا يبحث عن مشكلاته، ولا عن حلولها. والرسول المعلِّم يعتبر الصلاة في جماعة أفضل من الصلاة وحدك

---

(١) المصدر السابق ص٢٠١ ـ ٢٠٢.

سبعًا وعشرين درجة[1]، ويدلنا على أنَّ إصلاح الفساد في المجتمع أفضل من الاشتغال بالقيام والصيام، ويقول الرسول ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة، والصيام، والصدقة؟». قالوا: بلى قال: «إصلاح ذات البين». قال: «وفساد ذات البين هي الحالقة»[2].

ولقد بينا في عدد كبير من كتبنا: أن الإسلام يعنى عناية فائقة بالمجتمع كما يعنى بالأمَّة والدولة والإنسانيَّة. وكذلك يعنى بالفرد والأسرة. ولقد كتبنا في ذلك كتابنا المعروف: (**ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده**).

---

(١) إشارة إلى الحديث المتفق عليه: «صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة»، رواه البخاري في الأذان (٦٤٥)، ومسلم في المساجد (٦٥٠)، عن ابن عمر.

(٢) رواه أحمد (٢٧٥٠٨)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين، وأبو داود في الأدب (٤٩١٩)، والترمذي في صفة القيامة (٢٥٠٩)، وقال: حديث صحيح، وصحَّحه الألباني في غاية المرام (٤١٤)، وابن حبان في الصلح (٥٠٩٢)، عن أبي الدرداء.

الباب الثالث

أركان النظرية الأخلاقية في الإسلام

تمهيد

من يبحث أو يدرس أو يكتب عن عالم كبير موسوعي علَّامة في المعقول والمنقول، أو في الدين والفلسفة، أو في التشريع والحكمة، مثل شيخنا الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز، رَحِمَهُ اللهُ، فإنه يعيش في عالم واسع الآفاق، لعالم قلَّ أن يوجد نظيره، تهيَّأ له من وسائل المعرفة في الشرق والغرب، وفي القديم والحديث، وفي لغات متعدِّدة، وثقافات متباينة، اتَّسعت بها مصادر معرفته، وموارد إلهامه، مع ما وهبه الله من حضور الذهن، ويقظة العقل، ونور البصيرة، وقوة الذاكرة، وإشراق الروح، وصفاء الضمير، وسَعَة المعرفة، وتنوُّع العلوم: ما يجعله يميِّز بجلاء بين الكلي والجزئي، والقطعيْ والظني، والشرعي والعقلي، والديني والدنيوي، والشكلي والموضوعي، والشخصي والعام، وغيرها من الموافقات والمفارقات، التي قد يلتبس فيها الحقُّ، ويختلف فيها الظنُّ، ويخالِف فيها الوهم، وينحرف تفكير الإنسان.

وأحبُّ أن أقول بصراحة: لا أستطيع أن أنقل أو أقرِّب للناس كلَّ ما كتبه شيخنا دراز من معارف وأفكار قرآنيّة وحديثيّة وفقهيّة وصوفيّة وفلسفيّة، في كتابه: (**دستور الأخلاق في القرآن**). فهذه موسوعة كُتبت لرجال الفلسفة الكبار، الذين يتمتَّعون بحُسن الفَهم، والتعمُّق في المعرفة، والتمييز بين الفوارق، ومناقشة الآراء الكبيرة، والمفاهيم العميقة، والاعتراضات الخطيرة، لفلاسفة الغرب القدامى والمحدثين. ومناقشتهم في جزئيات أفكارهم، وفي شطحات خواطرهم، مناقشة الندِّ للندِّ، بل أحيانًا مناقشة الأستاذ للتلميذ، ثم هو يقدِّم ما عنده من مخزون علمي وفكري اكتنزه وهضمه ونظَّمه وقدَّمه للغربيين في صورة مُثلى، من التراث العربي الأصيل، من علوم ومعارف وآداب وفنون، أحاط بها الشيخ، واستوعبها في تفاصيلها أو مجملها.

أنا لا أستطيع أن أقدِّم ما كتبه الشيخ في كتابه الكبير والدقيق (**دستور الأخلاق في القرآن**)، ليُقرأ في كتابي (**أخلاق الإسلام**)، فالأولى أن يترك كتاب الشيخ ليقرأه رجال الفكر وروَّاد المعرفة، كما هو.

إنما حسبنا نحن أن نستخرج منه بعض الأفكار والمفاهيم التي يمكننا أن نستخلصها ونستوعبها ونقدِّمها إلى إخواننا وأبنائنا من قرَّاء العربية، ليأخذوا خلاصة من كتاب الشيخ رَحِمَهُ اللهُ.

الفصل الأول

الإلزام الأخلاقي

قال شيخنا العلامة محمد عبد الله دراز في شرحه لفكرة (الإلزام): «يستند أيُّ مذهب أخلاقي جدير بهذا الاسم في نهاية الأمر على فكرة الإلزام l'obligation، فهو القاعدة الأساسية، والمدار، والعنصر النووي الذي يدور حوله كلّ النظام الأخلاقي، والذي يؤدِّي فقده إلى سحق جوهر الحكمة العملية ذاته؛ وفناء ماهيتها؛ ذلك أنه إذا لم يعد هناك إلزام، فلن تكون هناك مسؤولية، وإذا عدمت المسؤولية، فلا يمكن أن تعود العدالة؛ وحينئذ تتفشَّى الفوضى، ويفسد النظام، وتعمُّ الهمجية، لا في مجال الواقع فحسب، بل في مجال القانون أيضًا، وطبقًا لما يسمَّى بالمبدأ الأخلاقي.

ومن هنا نرى إلى أيِّ اتجاه يريد أن يقودنا بعض أصحاب النظريات المحدَثِين. (ومن أمثلتهم: جييو Guyau في كتابه: (**نحو أخلاقية بلا إلزام ولا جزاء**)، وقد ترجمه إلى العربية د. سامي الدروبي).

ومن ناحية أخرى، كيف نتصوَّر قاعدة أخلاقية بدون إلزام؟ أليس هذا تناقضًا في الحدود؟ أم أننا نجعل من الضمير مُجرَّد أداة للتقدير الفني؟ ولكن، أليس بَدَهيًّا أن علم الأخلاق وعلم الجمال أمران مختلفان؟

وبمعنى أكثر عمقًا، إذا كان حقًّا أن كلَّ ما هو خير فهو جميل، فهل العكس أيضًا صحيح؟

إن مما لا ريب فيه أن لفكرة الفضيلة جمالها الذاتي، الذي تتذوَّقه الأنفس، حتى عندما لا تستبين الأعين، لكن هنالك أيضًا أشياء أكثر من هذا، فالفضيلة بطبيعتها عاملة ومحرِّكة، فهي تستحثُّنا أن نعمل كيما نجعل منها واقعًا ملموسًا، على حين لا نرى للإحساس بالجمال إذًا ما رددناه إلى أبسط صوره؛ أية علاقة بالعمل، وبخاصة عندما لا يكون موضوعه متصلًا بإرادتنا.

ومن ذلك، أن إعجابنا بالقدرة الإلهية، أو بعظمة القبة السماوية؛ لا يحملنا على أن نخلق أمثالهما. وشبيه بهذا ما يحدث للفنان عندما يتخيَّل فكرة عمل يمكن تحقيقه، فإن هذه الفكرة لا تقهره مطلقًا على أن ينفذها، ولكنها تدعوه برفق أن يحقِّقها حين يريد، ومتى أُتيح له وقت فراغ. ولو أنها فرضت نفسها على بعضهم، فإنها لا تفرض نفسها على الآخرين بنفس القدر من الضرورة، وهي في كلِّ حال تعبِّر عن الإحساسات، دون أن تصادمها.

أضف إلى ذلك أن أيَّ نقص يُرتكب في عمل فني، قد يصدم الحواس، ولكنه لا يثير الضمائر، ولا يقال: إن مرتكبه قد أحدث عملًا غير أخلاقي.

أما الخير الأخلاقي فبعكس ذلك، يتميَّز بتلك السلطة الآمرة تجاه الجميع، بتلك الضرورة التي يستشعرها كلُّ فرد، أن ينفِّذ نفس الأمر، أية كانت الحال الراهنة لشعوره، وهي ضرورة تجعل من العصيان أمرًا مقيتًا ومستهجنًا.

ولسوف نرى في أيِّ صورة ساق القرآن هذه الضرورة التي يسميها: أمرًا = imperatif، وكتابة = prescription، وفريضة = devoir.

فإذا ما عرّفنا مبدأ الإلزام، وطرحناه على هذا الوجه: وجب علينا الآن أن نتغلغل أكثر، في معرفة طبيعته، دارسين مصادره، وخصائصه، ومناقضاته»[1].

الإلزام نابع من الفطرة:

الإلزام الأخلاقي عند المسلم هو: إلزام نابع من فطرته التي فطره الله عليها، ويحسُّ به المسلم في أعماقه، يحبُّ الخير، ويتعلَّق به، ويندفع إليه، ويكره الشرَّ، ويكره أصحابه، ومَن ينشرونه ويدعون إليه.

ويقرأ المسلم في كتاب الله تعالى، القرآن العظيم، وفي سنة رسوله الكريم الصحيحة عنه، المتمثِّلة في أقواله وأعماله وتقريراته وأوصافه وسيرته، كما يجد في إجماع علماء الأمَّة على أمر من الأمور التي لا نصَّ فيها دليلًا على حقيقة هذا الإلزام، فإن الأمَّة لا تجتمع على ضلالة، واتفاقها على أمر دليل على خيريَّته، وقد قال تعالى: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنعام: ٨٩]. وقال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾ [الأعراف: ١٨١].

---

(١) دستور الأخلاق في القرآن، للعلامة محمد عبد الله دراز، تعريب د. عبد الصبور شاهين، ص٢١-٢٣.

وليس من الضروري أن يكون كلُّ أمر منصوصًا عليه بذاته، فيكفي أن يكون منصوصًا على نظيره أو ما يشبهه، فيُقاس هذا عليه؛ حكمًا له بحكم نظيره، وهو ما عرفه الصحابة ومَن بعدهم باسم (القياس): وهو إعطاء الشيء حكم ما يُشبِهه. وهو أمر معروف في مقاييس الناس والحياة.

وبهذا كانت هذه الأدلَّة الأربعة كلُّها: أدلَّة على الإلزام الفطري لأخلاق الإسلام، وهل هي أدلَّة متغايرة، أو ترجع كلُّها إلى دليل واحد؟

الحقيقة أنها كلُّها ترجع إلى دليل واحد، هو من الله تبارك وتعالى، فمنه يُؤخذ كلُّ أمر، وكلُّ نهي، وكلُّ تحليل، وكلُّ تحريم، وكلُّ استحباب، وكلُّ كراهية. والأدلة الأخرى إنما هي فروع من أصل كبير، وهو القرآن، ولهذا ترى كلَّ هذه الأدلَّة تحتجُّ لنفسها، وتستدلُّ على حجِّيَّتها بالقرآن الكريم.

فالقرآن هو الذي يدلُّ على حجيَّة السنَّة، وعلى حجيَّة الإجماع، وعلى حجيَّة القياس، ويعطي كلًّا منها الأدلَّة على اعتبار كلٍّ منها حجَّة في الشرع.

المسلم بحكم إيمانه راضٍ بما حكم الله به مُنفِّذ لأمره:

المسلم من حيث إنه رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينا، وبالقرآن إمامًا، وبمحمد نبيًّا ورسولًا، لا بدَّ له بحكم إيمانه بالله ورسوله، والتزامه بطاعته، والنزول على حكمه، لا يُتصوَّر منه أن يتوقَّف أو يتلكَّأ أو يتعثَّر في أيِّ أمرٍ أو نهيٍ يأتيه من الله عزَّ وجلَّ.

وفي قصة آدم عليه السلام أبي البشريَّة، توقَّف أبو الجنِّ إبليس عن تنفيذ أمر الله، حين أمر الملائكة بالسجود لآدم، ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٣٠ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٣١﴾ [الحجر: ٣٠ ـ ٣١]. كما قال القرآن: ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٣٤﴾ [البقرة: ٣٤]. ولما سأله الله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۝١٢﴾ [الأعراف: ١٢].

وقوله تعالى لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾: دليل على أن أمر الله تعالى لا بدَّ أن يطاع، لا يجوز أن يصدر أمر من الخالق لمخلوق، فيقول المخلوق: لا. فالأمر يقتضي فوريَّة التنفيذ؛ ولهذا سرعان ما أخرج الله إبليس من نطاق عبوديته لربِّه، وكتب عليه اللعنة إلى يوم الدين.

ومن هنا كان المفروض على كلِّ مؤمن أن يطيع أمر الله، ولا يجوز له أن

يتمرَّد على ربِّه، فهذا موقف لا يليق بالعبد مع الربِّ، ولا بالمخلوق الضعيف الفقير، مع خالقه القوي الغني، الذي يملك ما في السماوات وما في الأرض، ومَن في السماوات ومَن في الأرض.

ولهذا قال الله تعالى في شأن المؤمنين: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وقال تعالى في وصف بعض المنافقين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء: ٦١]. وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

ويُشنِّع على المنافقين الذين لا يقبلون من النصوص إلا ما فيه مصلحتهم، ويُنوِّه بالمؤمنين الذين يُحكِّمون النصوص المُقدَّسة فيما لهم وما عليهم، وينقادون لها طائعين مسلمين، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [النور: ٤٧].

وقد أنكر الرسول المعلِّم على حِبِّه وابن حِبِّه أسامة بن زيد، حين لم ينفِّذ ما أمر الله في شأن المشركين، حيث قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [النساء: ٩٤]. ولم يتقيَّد أسامة بن زيد بهذه الآية حينما قاتل المشركين، فقتل بعضَهم بعدما قال: لا إله إلا الله. ظنًّا منه أنه لم يقلها إلا تعوُّذًا من السيف، وأنه لم ينطق بها مختارًا من أعماقه، وقال له الرسول ﷺ: «أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله؟». قال أسامة: قلتُ: كان مُتعوِّذًا. قال: «هلَّا شققت عن قلبه؟». فما زال يكرِّرها، حتى تمنَّيت أني لم أكن أسلمتُ قبل ذلك اليوم[1].

وإنما قال أسامة ذلك، لِمَا رأى من شدَّة الرسول في معاتبته، وتشديده وتكريره وعدم تفريطه في الدماء، رغم حبِّه له ولأبيه، حتى قال أسامة: وددتُ لو أني لم أسلم إلا في ذلك اليوم.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في المغازي (٤٢٦٩)، ومسلم في الإيمان (٩٦)، كما رواه أبو داود في الجهاد (٢٦٤٣)، والنسائي في الكبرى كتاب السير (٨٥٤٠)، عن أسامة بن زيد.

هناك مسلمون قتلوا آباءهم وإخوانهم وأقاربهم حين كانوا مشركين محاربين لرسول الله وللإسلام وأهل الإسلام، منهم أبو عبيدة بين الجراح الذي قالوا: إنه قتل أباه في بدر[1]. وغيره من رجال الإسلام، ولكن هذا شيء، وقتل مَن صرَّح بالإسلام بالنطق بـ (لا إله إلا الله) شيء آخر.

قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان: ٦٣].

وقد أمر الله بطاعة رسوله، كما أمر بطاعته، كما قال تعالى: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ [النور: ٥٤]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [محمد: ٣٣]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]. ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]. ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾ [المائدة: ٩٢]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنفال: ٢٠ ـ ٢٢].

وهذا الإلزام الذي تراه، مصدره واحدًا، وهو الله تعالى وأمرُه وحُكمه، الذي لا يجوز لأحد أن يتأخَّر عنه، قد يعبَّر عنه بصورة مفصَّلة، قسَّمها الفقهاء إلى أربعة مصادر، كلُّها راجعة إلى المصدر الأول.

هذه المصادر هي التي اتَّفق عليها معظم فقهاء الإسلام، هي: القرآن، والسنة، والإجماع، والقياس. وسنبحث عنها هنا في ضوء البحث الكبير والعميق الذي بحثه شيخنا د. دراز رحمه الله تعالى.

مصادر الإلزام الخلقي:

أولًا: القرآن:

قال شيخنا العلامة عبد الله دراز: «لما كان القرآن ـ في نظر المسلمين ـ كلمة الله ذاته، فقد أصبح مستوفيًا لشرائطه تلقائيًّا؛ لكي يعبِّر عن الإرادة الإلهيَّة.

---

(١) رواه البيهقي في السير (٩/ ٢٧) وقال: منقطع.

ولكن، ألا ينبغي أن يُعَدَّ منذئذ المصدر الوحيد للشريعة الإسلامية؟ ثم ألا يكون إقرار مصدر آخر للتكليف الأخلاقي المباشر والواقعي، بجانب القرآن: معناه: اشتراك بصائر أخرى مع الله، لها نفس الحقِّ المقدَّس في إصدار الأحكام؟ فَلْنَرَ إلى أي مدى بلغت في الواقع السلطة المخوَّلة للمبادئ الأخرى.

ثانيًا: السُّنة:

والحقُّ أن جميع العلماء متَّفقون على أن يروا في تعاليم السُّنة العمليَّة، أو مأثور النبي، ﷺ[1]: مصدرًا ثانيًا، عظيم الأهمية، للشريعة الإسلامية، بعد القرآن، كلمة الله.

والقرآن نفسه قد طلب إلى المؤمنين أن ينقادوا، دون حرج، لجميع أوامر النبي ﷺ، متى أخذوا أنفسهم بالإيمان به، ومن ذلك قوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]. وقوله: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]. وقوله: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧]. وقوله: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النور: ٥٦].

غير أننا إذا ما نظرنا إلى حقيقة الأمر نجد أن جميع الأوامر النبويَّة لا تفرض تكليفًا نهائيًا، مهما يكن شأنه، شرعيًّا أو دينيًّا، إلا بقدْرٍ، وبشرط أن ترتدي الفكرة التي يشتمل عليها صفة الوحي، صراحة أو ضمنًا.

فإذا عدمت هذه الصفة الإلهيَّة، لم يعد للدرس أو المثال الذي قاله (الإنسان) سلطان على أحد.

وقد وردت هذه التفرقة مشارًا إليها في النصِّ القرآني، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

على أن النبي ﷺ، هو الذي قرَّر ذلك بأوضح وجه وأصرحه، حين قال: «إذا أمرتُكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر، ولكن إذا حدَّثتكم عن الله شيئًا فخذوا به، فإني لن أكذب على الله»[2].

---

(١) نقصد بهذا مجموع أقواله وأفعاله، وتقريراته، وجميع مواقفه الضمنية، استحسانًا أو رفضًا.

(٢) رواه مسلم في الفضائل (٢٣٦٢)، عن رافع بن خديج. دون قوله: «فإني لن أكذب على الله». وإنما رواها مسلم في الفضائل (٢٣٦١)، عن طلحة بن عبيد الله. والحديثان في تأبير النخل.

ولم يكتفِ النبي ﷺ، بإعلان أنَّ آراءه حول أمور الدنيا ليست معصومة من الخطأ، من حيث كانت خارج نطاق رسالته، وهو في ذلك يقول لصحابته ولأمته: «أنتم أعلم بأمر دنياكم»[1]. وإنما أضاف إلى ذلك أنه ربَّما يقع في أخطاء، صغيرة أو كبيرة، حين يتعرَّض لموضوع من موضوعات رسالته الإلهيَّة نفسها، أعني: النظام الأخلاقي، أو التشريعي، أو العبادي، ما لم يكن مؤيَّدًا بالوحي.

وهكذا وجدنا القرآن يعاتبه في مواقف كثيرة؛ لأنه رقَّ لحال المشركين، فوقف منهم موقفًا يتَّسم بالرحمة، حيث كان ينبغي أن يكون أكثر تشدُّدًا: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧]. ويخاطبه في موقف آخر: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]. وفي موقف ثالث: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣].

ومن أمثلة ذلك أيضًا: موقفه في إحدى حالات السرقة التي رُفعت إليه، على ما ورد في القرآن، فكاد يُخدع في حكمه، ولولا مساعدة الوحي له لأدان البريء، وبرَّأ المذنب[2]، وفي ذلك يقول القرآن: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ [النساء: ١٠٥].

وليس يخرج عن هذا السياق تلك العظة البليغة التي وجَّهها النبي ﷺ ذات يوم إلى متخاصمين قبل أن يفصل بينهما، قال صلوات الله عليه فيما رُوِي عن أم سلمة: «إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إليَّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحُجَّته من بعض، فأقضي نحو ما أسمع، فمَن قضيتُ له بحقِّ أخيه شيئًا فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار»[3].

---

(١) رواه مسلم في الفضائل (٢٣٦٣)، عن عائشة.

(٢) رواه الترمذي في التفسير (٣٠٣٦) وقال: هذا حديث غريب، وحسَّنه الألباني في صحيح الترمذي.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الأحكام (٢٦٨٠)، ومسلم في الأقضية (١٧١٣)، كما رواه أحمد (٢٥٦٧٠)، والترمذي في الأحكام (١٣٣٩)، والنسائي في آداب القضاة (٥٤٠١)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣١٧).

فالحكم القضائي الدنيوي لا يسقط الحكم الأخلاقي الأخروي. وهذا يعني أن ما لا يسري عليه ولا يضبطه سلطان التشريع والقضاء والجزاء الدنيوي، لا يبقى غُفْلًا من أي حكم أو تبعة أو مسؤولية، بل يسري عليه سلطان الأخلاق والحساب الأخروي. كما أن أحكام الظاهر لا تُسقط حقائقَ الباطن وأحكامَه. ومن هنا قرَّر الفقهاء أن «حكم الحاكم لا يحل حرامًا ولا يحرم حلالًا»؛ أي: أن ما يكون حرامًا وباطلًا في علم الله وحكمه، إذا لم يتمكن القاضي من معرفة بطلانه، فحَكَمَ به لمن ادعاه وأثبته زورًا، فهو باقٍ على تحريمه وبطلانه من الناحية الدينية الأخروية. =

وفضلًا عن ذلك كان يحدث له أحيانًا وهو يؤمُّ صلاة الجماعة أن ينسى، أو يزيد فيها بعض التفاصيل، ممَّا يخالف صحَّتها. وفي ذلك يروي البخاري: فلما سَلَّمَ قيل له: يا رسول الله، أحدَثَ في الصلاة شيء؟ قال: «وما ذاك؟». قالوا: صليتَ كذا وكذا. فثنى رجليه واستقبل القبلة، وسجد سجدتين، ثم سلم، فلما أقبل علينا بوجهه قال: «إنه لو حدث في الصلاة شيء لنبَّأتكم به، ولكن إنما أنا بشر مثلكم، أنسى كما تنسون، فإذا نسيتُ فذكروني»[1].

فالنبي ﷺ يعلن في موقف معيَّن أنه معصوم، حين يكون مبلِّغًا ـ كما رأينا ـ أمرًا، بوصفه رسول الله، فإذا ما بلَّغ رسالته، وبيَّنها للناس واستودعها ذاكرة الجماعة، فإن النقص الفطري الذي لا يفتأ يصيب انتباه الإنسان ـ مهما يكن عقله قويًّا ذكيًّا ـ قد يجوز أن يظهر أحيانًا عنده، ولكن مع فارق هام هو: أن النبي ﷺ، لا يمكن أن يستمرَّ مطلقًا على رأي خاطئ. وإذا لم يعُدْ إلى الصواب بالطريق المعتادة، فإنَّ الوحي يتدخَّل حتمًا لتصحيح خطئه، وإقامته على الصِّراط المستقيم، وإلا وقعت الجماعة كلُّها في الخطأ، والتزمت باتباعه في طريق الضلال، والله سبحانه يقول: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥].

فلولا هذا التقويم المستمرُّ لنجم عن تخلُّفه أن تصبح كلُّ أوامر النبي وأحكامه التي لم يقوِّمها الوحي: موافقًا عليها ضمنًا، ولتلقَّاها الناس ومعهم الحُجَّة البالغة على أنها أحكام إلهيَّة. وقِس على ذلك سائر أحواله، فهي معدودة من حيث المبدأ أمثلة يُقتدى بها، وينظِّم المسلمون على أساسها سلوكهم، ما لم يصدر عنه ما ينقضها.

وموجز القول: إن كلَّ حديث صحيح لم يرِد ما ينسخه، وكان موضوعه جزءًا من رسالة النبي ﷺ، بحيث أصبح في نهاية الأمر تعبيرًا عن الإرادة

= يقول العلامة الشيخ مصطفى الزرقا ﵀ في المدخل الفقهي العام (١/ ٥٦): «ومن هنا افترق الفقه الإسلامي حتى في القسم المدني منه ـ وهو المعاملات ـ عن القوانين المدنية الوضعية (أي التي ليس لها صفة دينية، بل هي من وضع الأمم لنفسها). ففي تلك القوانين، لا محل لفكرة الحلال والحرام، ولا عبرة لبواطن الأمور، بل العبرة للظواهر والصور؛ فما أمكن منه القانونُ وقضت به الأحكام كان حقًّا سائغًا، وما لم يكن منه فليس بحق. أما الفقه الإسلامي، فللاعتبار الديني في مبناه، كانت فكرة الحلال والحرام رقيبًا باطنيًّا، ترافق الإنسان وتنادي به في كل عمل. والعبرة في تعلق الحقوق للحقائق، وإن كان القضاء يجري ضرورة على الظاهر».

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الصلاة (٤٠١)، ومسلم في المساجد (٥٧٢)، عن ابن مسعود.

الإلهيَّة: هذا الحديث له في نظر المسلمين نفس السلطة الأخلاقيَّة التي للنصِّ القرآني. ولو اشتمل الحديث علاوة على ذلك، تفصيلات وتحديدات ـ أكثر مما اشتمل عليه النص القرآني ـ فإن هذا الحديث هو الذي يحكم النص القرآني؛ فهو يفسِّره، ويُحدِّد أهميته، ويبيِّن نماذج تطبيقه.

ثالثًا: الإجماع:

وهكذا رأينا من كلِّ وجه، وفي أي ظرف، يمكن لسُنَّة النبي ﷺ أن تكون مبدأً للإلزام، فما الظن إذن بتلك السلطة الرفيعة التي خُصَّ بها المصدر الآخر للتشريع، والمسمَّى بـ (الإجماع)، أو الحكم المجتمع عليه في الأمَّة؟

الحقُّ أن سلطة الإجماع يمكن أن تُستقى من بعض النصوص القرآنية، مثل قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وليس يهمُّنا أن يقال: إن هذه الآية موجَّهة إلى الأمَّة المحمدية بعامة، أو هي موجَّهة إلى الجيل الأول الذي شهد الوحي، وهو قول أكثر احتمالًا[1]، فهناك دائمًا ـ أنى توجَّهنا ـ جماعة من الناس، رأيهم مجتمِع، وقد يصدقه الكتاب الكريم، ليصبح رأيًا منزَّهًا من الناحية الأخلاقيَّة، يجلُّ عن أن يرضى شرًّا، أو يمنع خيرًا.

وهناك استدلال مماثل يفيد مزيَّة الإجماع، ويمكن أن يُستقَى من آية أخرى، فبعد أن قرَّر القرآن لأولي الأمر من المسلمين نفس حقِّ الطاعة الذي قرَّره لله ورسوله، نجده يضيف مباشرة تحفُّظًا، هو أنه في حال النزاع يجب الرجوع إلى السلطتين الرئيسيتين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]. ومن هذا النصِّ يُؤْخذ أنه طالما وُجد اتفاق مشترك، فلن يكون هنالك مقتضًى للُّجوء إلى أيِّ معيار آخر، لإقرار العدالة، فيما يواجه أولي الأمر من ظروف.

فإذا ما رجعنا إلى الوثائق التي ترويها السُّنة، فسوف نرى أن هذا الامتياز غير مقتصر مطلقًا على عصر الصحابة، على ما قد يُفهم من هذه النصوص القرآنية، ولكنه ممتدٌّ بلا نهاية إلى جميع الأجيال المسلمة.

---

(١) بل نرى أن الرأي الآخر هو الأرجح؛ لأنها تتحدَّث عن (الأمة)، لا عن جيل من أجيالها، وإن كان هو الجيل الأول.

وحسبنا هنا أن نذكر نصًّا منها، معتَرَفًا بصحته، وهو غاية في الصراحة في هذا الصدد، قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمَّتي ظاهرين على الحقِّ، لا يضرُّهم مَن خذلهم، حتى يأتيَهم أمر الله وهم ظاهرون»[1]. وفي رواية: «حتى تقوم الساعة»[2].

وإذا كانت عصبة الحقِّ لا تزال باقية في العالم الإسلامي، فإن فكرة الاتفاق الإجماعي على الضلالة سوف تكون إذن مستبعَدة، على أنها أمر محال من الوجهة العملية في العالم الإسلامي.

فقد انتهى الرأي إلى اعتبار الإجماع في أيِّ عصر سلطة عليا لا معقِّب لها، وهي تستطيع أن تحكم على نصوص القرآن والحديث ذاتها، ولا يمكن أن تُحكَم بهما، ولا أن تُبطَل برأي آخر، سابق أو لاحق. وعامة المسلمين يخضعون في الواقع لهذه السلطة دون مناقشة، اللهم فيما خلا بعضَ الخوارج والمعتزلة والشيعة[3]»[4] اهـ.

ونضيف إلى ما قاله شيخنا ممَّا استدلَّ به الفقهاء على الإجماع قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥]. فاعتبروا اتباع غير سبيل المؤمنين يمثِّل خروجًا عن إجماع الأمَّة، ولذلك دخل في الردع القرآني لأصحاب هذا السلوك.

وقال تعالى في القرآن المكيِّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنعام: ٥٥]. فللمجرمين سبيلهم، وهي واضحة للمؤمنين، ليبتعدوا عنها، ويحذروا منها.

وفي سورة لقمان يقول تعالى في وصية الإنسان بوالديه: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [لقمان: ١٥].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في فرض الخمس (٣١١٦)، ومسلم في الإمارة (١٠٣٧)، عن معاوية بن أبي سفيان.

(٢) رواه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٣١٢).

(٣) ينظر: إرشاد الفحول للشوكاني (١/ ١٩٧ ـ ١٩٨)، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ١٩٩٩م.

(٤) دستور الأخلاق في القرآن ص٣٧ ـ ٤٣.

والإجماع المقصود هنا: هو اتفاق العلماء، الذين وصلوا إلى مرتبة الاجتهاد المستقلِّ في فَهم الشريعة الإسلامية من مصادرها، بعد استفراغ الوُسْع.

فلا بدَّ أن يكون هؤلاء العلماء ممثِّلين للأمة في قاراتها ومناطقها وأجناسها وأوطانها المتعدِّدة، ولا بدَّ أن يكون كل واحد منهم قد حصَّل من العلم ما أوصله إلى استيفاء شروط المجتهد، ولا بدَّ أن تكون الحرية متاحة للجميع، لا يرهَقون أو يرهَق أحد منهم بما يرهبه، أو يوقعه في حرج، ولا بدَّ أن يصلوا إلى رأي أو حلٍّ يتفق عليه الجميع، فإذا اختلفوا لا يُلزَمون برأي البعض، إلا إذا اتفقوا على الأخذ برأي الأغلبية، أو أغلبية معيَّنة كنسبة الثُّلُثين مثلًا.

رابعًا: القياس:

«على حين آمنت المدرسة الظاهرية، أو التفسيرية، بوجوب الاقتصار على المصادر الثلاثة السابقة: (الكتاب، والسُّنة، والإجماع). فقد مضت المذاهب الأخرى، استنادًا إلى ما فعله صحابة النبي ﷺ، وإلى رأي أكثر تابعيهم؛ إلى مصدر رابع وأخير، أُطلق عليه: القياس[1].

أيجب أن نعتقد أن نظريَّتهم هذه تنزع إلى أن تخلع على هذا النوع من التشريع صفة الاستقلال العقلي، الذي سبق أن رفضناه بالنسبة إلى القرار الإجماعي، وبالنسبة إلى النبي نفسه؟

كلَّا، فهذا الاستدلال بمقتضى تعريفه نفسه يفترض وجود حالة نقيس عليها، تُمثَّل بها الحالة الجديدة، وعليه فالحالة النموذج ينبغي أن يسبق ذكرها في القرآن، أو في الحديث، أو في الإجماع. وفضلًا عن ذلك فإن الطابع المشترك بين الحالتين يجب: إما أن يُنشئ علةَ التشريع ـ انظر: قياس العلة[2] ـ وإما أن ينطوي عليها ـ انظر: قياس الشبه[3] ـ والمراد بالعلة: السبب الذي من أجله طُبِّق حَلُّ الحالة الأولى.

---

(١) القياس لغةً: التقدير، تقول قست الشيء بالشيء قدرته على مثاله. وعرّف إمام الحرمين القياس في البرهان (٢/ ٧٤٥) بقوله: «القياس: حمل معلوم على معلوم في إثبات حكم لهما أو نفيه عنهما بأمر يجمع بينهما في إثبات حكم أو صفة أو نفيهما».

(٢) قياس العلة: وهو القياس الذي يحتاج إلى ذكر الوصف المعلَّل به، لينظر فيه المخالف فيوافق على صحة العلة أو يبطلها، وأمثلته كثيرة في كلام الفقهاء، ومنها: قياس النبيذ على الخمر بعلة الإسكار.

(٣) قياس الشبه: الفرع المتردد بين أصلين فيلحق بأكثرهما شبهًا. أي: هو إلحاق الفرعِ المترددِ بين أصلين بأكثرهما شبهًا به. =

وبناء على ذلك فإذا كان هذا الطابع المشترك قد عُيِّنَ صراحة في النص، أو اعترف به الإجماع، على أنه سبب وجود الحل الأصلي، فليس هنالك أية صعوبة، حتى من قِبَل المدرسة الظاهرية، لكي نجعل هذا الطابع دليلًا، بل شرطًا ضروريًا وكافيًا للحكم الصادر من قبلُ، ومن ثَمَّ لا صعوبة أيضًا في تعميم هذا الحكم وتطبيقه أينما توفرت العلة الثابتة.

بيد أنه في الحال التي لا يمكن فيها استخراج هذا التعليل، أو هذه العلاقة السببيَّة، إلا بواسطة جهد دقيق في البرهنة، قلَّ أو كثُر: أيجب في هذه الحال أن نعتدَّ هذا التعليل بما يُستَقى منه من نتائج، مما تقتضيه رُوح الشريعة المنزَّلة؟

في رأينا أن الإجابة عن هذا السؤال ينبغي أن تشتمل درجات، ولكن سكوت المدرسة الظاهرية عنه لا يعد - على الأقل - مانعًا من إساءة استعمال بعض الفقهاء للحرية العقلية.

وبعكس ذلك مذهب المالكية، الذي مضى إلى ما هو أبعد من ذلك في الاتجاه المتحرِّر، مستندًا إلى ما حدث من أمثلة على عهد المسلمين الأوائل.

فالإمام مالك يوافق على هذه البرهنة القياسية، لا استنادًا إلى نصٍّ محدَّد فحسب يضع نفس الحل لمشكلة محددة مماثلة للمشكلة المدروسة، بل كذلك استنادًا إلى الطرق العامة التي لجأت إليها الشريعة في مواضع لا تحصى، أقل شبهًا أو أكثر بما نحن بصدده، والتي تستخرج من مجموعها تلك الفكرة الثابتة التي تقول: إن هذا النوع من الخير هدف جوهري يسعى الشرع لتحقيقه بكلِّ الوسائل الممكنة. فالحالة الجديدة حينئذ لا تقدم لنا سوى وسيلة أخرى يجب أن تستخدم عندما تفرض بدورها نفسها؛ لتحقيق هذا الخير النوعي الذي يسميه مالك: المصلحة المرسلة.

وبفضل هذا المبدأ، استطاع هذا الفقيه أن يحلَّ عددًا من مشكلات

= وثبت في الشرع اعتبار الأشباه، قال النبي ﷺ للذي سألَه عن القُبلةِ في الصوم: «أرأيتَ لو تَمضْمَضتَ». وقال للخَثعمية حين سألته عن إدراكِ فريضةِ الحجِّ لأبيها وهو شيخٌ لا يَستمسكُ على الراحلةِ لتحجُّ عنه: «أرأيتِ لو كان على أبيكِ دينٌ فقضيتِه، أكانَ ذلك ينفعُه؟ فَدَينُ الله أحق».

وقد كتب عمر بن الخطاب ﷺ إلى أبي موسى الأشعري رحمة الله عليه: الفَهم الفَهم فيما تَلَجْلج في صَدرك مما ليس في كتاب الله ولا سُنةِ رسولِ الله، ثم اعرفِ الأشباه والأمثال وقِس بأشبهها بالحق.

الأخلاق والشريعة في اتجاه جدُّ أصيل، وإن اصطدم حينًا بنصوص الشريعة[1].

على أننا مهما تعمقنا في مختلف تيارات الفكر التشريعي في الإسلام، فإن حقيقة معينة تظلُّ ثابتة لا تقبل جدلًا، هي أن الغاية النهائيَّة وراء كلِّ جهود الفقهاء ليست إلا التوصُّل إلى ذلكم المنبع الوحيد الذي يجب أن يستقي منه الناس جميعًا، من قريب، أو من بعيد: حكم الله، وهو الحكم الذي يسجِّله القرآن في المقام الأول مباشرة، ثم يأتي الحديث ليبيِّنه ويحدِّده.

وإذا لم يَرد الحكم في نصِّ الكتاب أو السُّنة؛ فإن القياس يحاول أن يكشف عنه في روحهما، وفي مفهومهما العميق. ويأتي أخيرًا دور الإجماع، محاولًا إدراك هذا الحكم في فحوى مجموعهما.

---

(١) لنأخذ على ذلك المثال التالي: هل يجوز في حال الحرب أن نضرب في اتجاه جنودنا الذين أسرهم العدو، واستتر خلفهم ليضربنا ويحتل أرضنا، أم أن من الواجب على عكس ذلك أن نمسك عن الضرب رعاية للشرع الصريح الذي يمنعنا أن نستبيح دم بريء؟ والله يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١].

يجيب الإمام مالك عن هذا السؤال مرجحًا الأخذ بأخف الضررين، ويعلل لذلك بأننا لو بقينا دون عمل، احترامًا لهذا العدد القليل من جنودنا، الذين جعلهم سوء الحظ درعًا للعدو. فإن بقية الجيش وهي الكثرة الكاثرة منه، قد تتعرض للهلاك، ثم لن ينجو أيضًا أسرانا من نفس المصير بعد ذلك. ولا ريب إذن في أن الشرع الإسلامي يقدم دائمًا إنقاذ الجماعة، ومصلحتها المشتركة والدائمة، على حياة الأفراد ومصالحهم العاجلة. ويختم حديثه بقوله: إننا مع احتياطنا للحفاظ على رجالنا، لا ينبغي أن نوقف الحرب، بل يجب أن نواصلها، ولو أصيبوا من جرائها.

وإليك مثالًا آخر ذا طابع فقهي: هل للقاضي الحق في أن يأمر بحبس متهم في سرقة، دون أن يجد ضده دليلًا ماديًا، أو شهادة، أو اعترافًا، على حين قد يكون في هذه الظروف غير مذنب؟ إن نص الشرع - كما نعلم - يمنع من الإضرار بالناس في أشخاصهم، أو أموالهم، أو أعراضهم، ما داموا لم يستحلوا حرامًا. ففي مسلم، كتاب البر: «كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه». وفي البخاري، كتاب الحج: «فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام».

بيد أن الإمام مالكًا يعلل ذلك على الوجه التالي: بما أن من النادر أن يُقر مجرم بجرمه، أو أن يرتكبه أمام شهود، أو أن يؤخذ في حال اقترافه للجريمة، فإن أكثر الجرائم سوف تمضي دون عقاب، إذا ما تمسكنا بهذه الأدلة الكاملة. وعليه، فمن المعلوم لنا أن الشرع قد عني عناية كبيرة بإقرار النظام الاجتماعي والحفاظ عليه، وأن يعمل بكلِّ وسيلة على أن يؤمن لكل فرد مقدرته على أن يمارس حقوقه، على ملكيته. فلا بد لنا إذن من أن نلجأ إلى إجراءات أقل تشددًا، يخضع لها المتهم، لا لكي نغتصب منه مطلقًا اعترافًا بما لم يفعل، مجردًا من أية صحة، من حيث كان صادرًا عن إكراه، بل بأمل أن نحمل هذا المتهم على أن يرشدنا إلى دليل واضح.

وجدير بالذكر في هذا المقام أن هذه المدرسة، ترى أيضًا أن مثل هذه الإجراءات لا تكون شرعية إلا بشرط أن تكون بداية هذا الدليل قد كشفت من قبل ضد المتهم. (حاشية دستور الأخلاق ص٤٩).

فالله سبحانه وحده هو إذن المشرِّع، وليس الآخرون سوى مقرِّرين لأمره، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

بيد أننا لم نمس بعدُ أعمق الجذور في الإلزام الأخلاقي في القرآن، فنحن لم نفعل حتى الآن سوى أن نردَّ الشرع الأخلاقي الفطري إلى نوع من الشرع الإلهي المتضمَّن في كيان العقل الإنساني ذاته. ولقد سبق أن أشرنا إلى قصور هذا النور الجزئي (أي: نور العقل) عن أن يقدِّم شرعًا تتوفَّر فيه - في وقت واحد - صفات: الحسية، والكمال، والشمول. كما أشرنا إلى ضرورة اللجوء إلى سلطة أخرى من أجل الحصول على هذه الصفات الثلاثة، وهي سلطة تستطيع أن تنير للناس طريقهم على خير وجه، بوساطة تعليم إيجابي محدَّد، وإن كانت ذات طبيعة عُلوية.

هذه السلطة التي يجب أن تكون ذات علم مطلق، ونور أبدي، لا يمكن أن تكون شيئًا آخر سوى الوجود الكامل l'être parfait.

ولقد انتهينا أخيرًا إلى أن رددنا جميع مصادر هذا الشرع الإيجابي إلى مصدر وحيد، وقصرنا جميع الأوامر إلى أمر واحد، ظاهر أو باطن، هو أمر الله.

على أن القرآن لا يقدِّم لنا هذا الأمر الإلهي على أنه سلطة مطلقة، مكتفية بنفسها، لكي تكون في أعيننا أساسًا لسلطان الواجب، بل إن مما يثير العبرة في هذا المقام أن نلحظ - على العكس - العناية الفائقة التي التزمها هذا الكتاب في غالب الأحيان، حين قرن كلَّ حكم في الشريعة بما يسوِّغه، وحين ربط كلَّ تعليم من تعاليمه بالقيمة الأخلاقيَّة التي تعد أساسه.

ومن ذلك أنه عندما يدعونا أن نتقبل من أهلينا كلَّ تسوية للصلح، حتى لو كانت في غير صالحنا: يؤيِّد دعوته بتلك الحكمة: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾ [النساء: ١٢٨].

وعندما يأمرنا أن نوفي الكيل، ونزن بالقسطاس المستقيم، يعقِّب على هذا الأمر بقوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ [الإسراء: ٣٥].

ولكي يسوغ قاعدة الحياء، التي تطلب من الرجال أن يغضوا أبصارهم، ويحفظوا فروجهم: نجده يسوق هذا التفسير: ﴿ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ﴾ [النور: ٣٠].

وبعد أن يأمرنا بتبيُّن السبب قبل أن نصدر حكمًا يقول: ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوْمًا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ۝٦﴾ [الحجرات: ٦].

وكذلك نجد الأمر الذي يقتضينا أن نكتب ديوننا، وآجال أدائها، مفسِّرًا بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وإنه ليكفينا عن تعداد أمثلة الأوامر الخاصة، أن نرى الطريقة التي يدفعنا بها إلى التماس القيم الروحية، وكيفية توجيهه بصفة عامة، فضلًا عن عدد هذه الأوامر، قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠]. وقال: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]. وقال: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وإنه ليشهدنا كذلك على المبدأ الأساسي الذي صدرت عنه الشريعة الإلهية كلُّها، حين صاغه فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف: ٢٨]. وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠].

وهكذا، فإن ما كنا نعتقد أنه الحلقة الأخيرة في سلسلة المراجع، لم يثبت أنه الأخير؛ فالعقل الإلهي، في هذا المجال، أكثر تشددًا من العقل الإنساني؛ فهو لا يريد أن يتمسَّك بشكل حكمه، ويجعل منه المبدأ الأول للإلزام الأخلاقي، وإنما هو يلجأ بدوره إلى معيار آخر، فيحيلنا إلى جوهر الواجب ذاته، إلى كيفية العمل، وإلى قيمته الذاتية.

فالأمر الإلهي يسوغ في نظرنا بتطابقه مع تلك الحقيقة الموضوعية، وهو بهذا التطابق يستحوذ على قبولنا؛ كما أنه يقيم على هذا القَبول سلطانه الأخلاقي.

بيد أن هذا الطابع العميق الذي يؤلِّف جوهر العدل، والخير في ذاته: لا يتسنى لنا أن نميزه بأنفسنا، دائمًا، وحيثما وجد؛ فشأنه شأن كل جوهر، لا نراه مباشرة في حالة كماله، وإنما نلمحه لمحًا، بفضل ذلك الجزء من النور، المحدود في امتداده، وفي قوَّته، والذي نستمدُّه من فطرتنا.

ليس هنالك إذن سوى نور واحد محض، وغير محدود، هو الذي يستطيع أن يضمَّ هذا الجوهر كاملًا، وفي ثقة تامة؛ ولذا كان من حقِّ المؤمنين أن

يتَّخذوا من العقل الإلهي وسيلة الهداية الأخلاقيَّة الكاملة، وإذن ففي فكرة القيمة يكمن المنبع الحقُّ للإلزام، فهي عقل العقل، وهي المرجع الأخير للحاسة الخلقية»[1].

---

(١) دستور الأخلاق في القرآن ص٤٣ ـ ٥٣.

الفصل الثاني

المسؤولية

بعد أن تحدَّث شيخنا الدكتور دراز رحمه الله، وأطال الحديث وعمَّقه في موضوع العنصر الأول، وهو الإلزام الأخلاقي، وما يتضمَّنه من أفكار ومعانٍ واعتقادات. انتقل إلى البحث في العنصر أو الركن أو المقوم الثاني الأساسي، وهو: (المسؤولية)، وعلى طريقة شيخنا في معالجة المواضيع الكبرى يحبُّ دائما أن يُمهِّد لها، ليتهيَّأ العقل الإنساني لحسن فَهمها وتقبُّلها، وإن كان فيها ما فيها من معانٍ عميقة، وأفكار عويصة، وما في الانقياد لها من مشقات بعيدة.

يقول شيخنا الدكتور دراز في كتابه (**دستور الأخلاق في القرآن**): «يرتبط بفكرة الإلزام ناتجان، يستلزم أحدهما الآخر بدوره ويؤيِّده ويدعمه، هما: فكرة المسؤولية، وفكرة الجزاء. والواقع أن هذه الأفكار الثلاثة يأخذ بعضها بحُجَز بعض، ولا تقبل الانفصام، فإذا ما وُجدت الأولى تتابعت الأخريان على إثرها؛ وإذا اختفت، ذهبتا على الفور في أعقابها.

فالإلزام بلا مسؤولية يعني القول بوجود إلزام بلا فرد مُلزَم، وليس بأقل استحالة من ذلك أن نفترض كائنًا ملزمًا ومسؤولًا، بدون أن تجد هذه الصفات ترجمتها وتحققها في (جزاء) مناسب، فإن معنى ذلك تعرية الكلمات من معانيها.

والمسؤولية المتولِّدة عن الإلزام، هي نفسها نوع خاص من الإلزام. وإذا عمِدنا إلى الجانب الاشتقاقي وجدنا أن عبارة (كونه مسؤولًا Être responsable) تعني: (كون الفرد مكلفًا بأن يقوم ببعض الأشياء، وبأن يقدِّم عنها حسابًا إلى زيد من الناس).

ولا ريب أننا نتكلم عن المسؤولية بالمعنى الحقيقي، الذي قد يتفاوت في

قوته، وقد يحدث أن يُستخدم هذا الاصطلاح بتوسيع دلالته أو إضعافها، ليدل على مجرَّد تبنِّي العمل. ولو لم يوجد إلزام، ولا إمكانيَّة سؤال أو إجابة، فمنذ كان الخالق وحده في هذا العالم «إلهًا متفرِّدًا»، يتصرَّف فيه متحكِّمًا، فإنه بهذا الاعتبار هو الصانع المسؤول عن أعماله، بأكمل معاني الكلمة ﷻ.

فلنقتصر إذن على مفهوم المسؤولية الإنسانيَّة، التي إن لم تفترض سلفًا فكرة إلزام صارم، فعلى الأقل: الفكرة المعادلة لمثلٍ أعلى، اصطلح عليه مقدَّمًا، بحيث يرى الإنسان أنه مسؤول عنه أمام نفسه.

وفي الدراسة التالية، سوف نبحث أولًا الصفات العامة التي تنبع من تحليل هذه الفكرة، ثم شروطها من الوجهة المزدوجة: الأخلاقيَّة، والدينيَّة، وأخيرًا جانبها الاجتماعي».

معنى المسؤوليَّة:

ما معنى (المسؤوليَّة) في علم الأخلاق وفلسفة الأخلاق؟

إنَّ معنى المسؤوليَّة: أن كلَّ إنسان مسؤول عن عمله، ومعنى ذلك: أنه مسؤول أمام ضميره أو ذاته أو حاسته الفطرية، فهي التي تلومه وتعاقبه وتحاسبه، إذا ترك مأمورًا، أو ارتكب محظورًا، وهي التي تمنحه السكينة والرضا إذا أدَّى ما أُمر به، وانتهى عما نُهِي عنه. وهذا ما تقوم به النفس التي سمَّاها الله تعالى: (النفس اللوامة)، وهي التي جاءت في القسم المنفي في أول سورة القيامة، حين قال تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ [القيامة: ١ ـ ٢]. والنفي للقَسَم هنا يعني أن المخاطب بالقرآن، وهم البشر جميعًا، ليسوا في حاجة إلى القَسَم في هذه القضية؛ لأنها في غاية الوضوح.

وهناك معنى آخر للمسؤوليَّة ينفرد به الدين عن غيره من الفلسفات الوضعيَّة: وهو المسؤولية أمام الله تبارك وتعالى، وهو ما بيَّنه القرآن وأكَّده في سوره المكيَّة والمدنيَّة، وهذه المسؤوليَّة تقع بتمامها في الآخرة. قال تعالى: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٦﴾ [الأعراف: ٦]. ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٩٣﴾ [الحجر: ٩٢ ـ ٩٣]. وقال تعالى عن الكفار: ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ۝٢٤﴾ [الصافات: ٢٤]. وقال: ﴿وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ۝١٣﴾ [العنكبوت: ١٣]. وقال تعالى عن القرآن: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ

لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف: ٤٤]. وقال تعالى يخاطب الكفار: ﴿لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النحل: ٥٦]. ﴿وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [النحل: ٩٣]. ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ [التكاثر: ٨].

والإنسان إنما يُسأل عن عمله الذي عمله بجهده وإرادته، وليس مسؤولًا عن ذنب غيره، ولا عن عمل سواه، إلا أن يكون هو مسؤولًا عنه، وقصَّر في رعاية مسؤوليته، ﴿وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان: ٣٣].

إنَّ المسؤوليَّة مسؤوليَّة شخصيَّة، لا يعاقب ولا يحاسب أحد بذنب غيره، مهما تكن درجةَ قُرْبه، قال تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [سبأ: ٢٥]. ومن لطائف التعبير أن نسب الإجرام إلى نفسه وجماعته، ولم ينسُب إلى المخاطبين ـ وهم المشركون ـ إلا العمل فقط.

ومن هنا نعجب من موقف الديانة المسيحيَّة ـ التي نعتقد أنها حُرِّفت بعد صيغتها الأولى ـ فهي تعتقد أن الناس يولدون بالخطيئة الأولى؛ خطيئة آدم أبي البشر الأول، حينما أكل من الشجرة التي نُهي عنها من بين شجر الجنة!

ولماذا يحملون ذنبها وهم لم يقترفوها، ولم يحضروها، وربما كان بينهم وبينها من القرون والدهور ما لا يعمله إلا الله؟! فكيف وقد تاب آدم من ذنبه وتاب الله عليه، وغُسِل من كلِّ أثر له؟ كما قال تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه: ١٢١ ـ ١٢٢]. على أن ذنب آدم ليس ذنبًا عظيمًا، بل هو ذنب من ذنوب الجوارح، دفعه إليه النسيان، وضعف العزم، كما قال القرآن: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه: ١١٥].

ومن هنا لا يُحمِّل القرآن جيلًا من أجيال الأمَّة، ولا فردًا من أفرادها ما فعله جيل أو فرد سابق عليها، ليس له تأثير فيه، ولا ضغط عليه، ولا توجيه له. كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البقرة: ١٣٤، ١٤١].

وكذلك قرَّر القرآن هذا المبدأ المهم الذي يمثِّل عدل الله تعالى مع خلقه: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وقد أكَّد القرآن أن هذا ما اتَّفقت عليه كتب الرسل الكبار من أولي العزم، كما قال سبحانه: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا

﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النجم: ٣٦ ـ ٤١].

وقد يشارك في الخطيئة أو المعصية الواحدة أكثر من واحد بحكم مشاركتهم فيها، فلكلٍّ من الإثم على قدر جهده ونيَّته فيها، فلو قتل مجموعة من البشر شخصًا بريئًا عمدًا؛ هذا أحضر السيف، وهذا شحذه، وهذا ضرب به، وهذا أمسك بالرِّجْل. فالإثم ليس على الضارب وحده، بل هم شركاء فيه. وقال عمر في رجل قُتِل باليمن: لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتُهم به[1].

وجريمة الرجل الذي يبدأ المعصية، ويسنُّها للناس، ليست كجريمة مَن يأتي بعده، وأجر الذي يبدأ الحسنة، ويسنُّها للناس من بعده، ليس كأجر مَن يأتي بعده. ولهذا قال النبي ﷺ: «مَن سنَّ في الإسلام سنَّة حسنة، فله أجرها، وأجر مَن عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومَن سنَّ في الإسلام سنَّة سيئة، كان عليه وزرها ووزر مَن عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[2].

وشبيهٌ بهذا من يبدأ جريمة مروِّعة يفتح بها أبوابًا للشرِّ كانت مغلقة، كما قال تعالى بعد قصة ابني آدم الأول الذين قتل أحدهما أخاه: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

ولا غرو أن أخبرنا الرسول الكريم أن الله تعالى حمَّل ابن آدم الشرير الذي قتل أخاه، وسنَّ جريمة القتل، كلَّ جريمة قتل تقع إلى يوم القيامة له نصيب منها[3]، فما أعظم وما أضخم ذلك!

القرآن يُحَمِّل المُضَلِّين إثم الضالين بسببهم:

ومن هنا حمَّل القرآن المُضلِّين إثم الضَّالِّين، فهم يشاركونهم في

---

(١) رواه البخاري في الديات (٦٨٩٦) معلَّقًا، ومالك في الموطأ (٢/ ٨٧١)، وابن أبي شيبة في الديات (٢٨٢٦٦)، وصحَّح إسناده الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١٢/ ٢٢٧).

(٢) رواه مسلم في الكسوف (١٠١٧)، وأحمد (١٩١٥٦)، عن جرير بن عبد الله.

(٣) إشارة إلى الحديث المتفق عليه: «لا تقتل نفس ظلمًا، إلا كان على ابن آدم الأول كِفْل من دمها؛ لأنه أول من سن القتل». رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٣٥)، ومسلم في القسامة (١٦٧٧)، عن ابن مسعود.

المسؤولية: هذا يحمل تَبِعة الإضلال، والتابع يحمل تبعة الضلال، قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النحل: ٢٥]. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت: ١٢ ـ ١٣].

والأثقال التي يحملونها هي أثقال الذين أضلُّوهم وصدُّوهم عن سبيل الله كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَـٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل: ٨٨].

من أجل ذلك نرى مجادلات فِرَق الضَّالِّين والمُضلِّين يوم القيامة، وهم يتلاومون، ويتبرَّأ بعضهم من بعض، ويكفُر بعضهم ببعض، ويلعن بعضهم بعضًا، كلُّ فرقة تحاول أن تلقي إثم ضلالها وكفرها على الطائفة الأخرى، الأتباع والمتبوعون، الرؤوس والأذناب، وبعد أن يفرغوا ما في باطن أنفسهم وصدورهم من البغض والحقد، وما في ألسنتهم من السبِّ والشتم، يحكم الله على الجميع بأنهم هالكون، وليس لهم إلا النار؛ جزاء بما كسبت أيدهم وما كانوا يكفرون. فهم كما قال الراجز[1]:

وليس فيهم من فتى مطيعِ   فلعنة اللّه على الجميعِ!

اقرأ قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة: ١٦٦ ـ ١٦٧].

وفي سورة الأعراف: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الأعراف: ٣٨ ـ ٣٩].

---

(١) هو: أبو زيد عبد الرحمن بن سعيد الأخضري المالكي في منظومته (الجوهرة القدسية).

وفي سورة سبأ، تقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سبأ: ٣١ ـ ٣٣].

المسؤولية شرطها البلوغ والعقل والقدرة والاختيار:

ويشترط الإسلام لتحمُّل الفرد المسؤولية الأخلاقيَّة (والدينية أيضًا): أن تتوافر فيه شروط أربعة: البلوغ والعقل والقدرة والاختيار.

شرط البلوغ بالسن:

الشرط الأول: البلوغ، وحدُّه الأدنى عند الفقهاء المسلمين: خمسَ عشرة سنة، وهو ما يراه كثير من الناس مناسبًا، وبعضهم يراه أكبر من ذلك. ويمكن بحث موضوع السن من جذوره في ضوء المذاهب والأدلة.

شرط توافر العقل:

والشرط الثاني: العقل، بحيث لا يتحمَّل المجنون مسؤوليَّة أيِّ عمل يرتكبه، فالعقل هو أساس التكليف. وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «رُفِع القلم عن ثلاثة: عن الصغير حتى يَكبَر، وعن المجنون حتى يُفيق، وعن النائم حتى يستيقظ»[١]. وذلك لأن النوم يحول بين الإنسان والتعقُّل وإدراك ما حوله ومَن حوله.

شرط القدرة وعدم الاضطرار:

والشرط الثالث، هو: القدرة، فالعاجز عن العمل لعائق أو لعجز أو لمرض، أو غير ذلك، لا يكون مسؤولًا أخلاقيًا عن العمل، ولهذا رفع الله الإثم عن المضطر إذا أكل المحرَّم في حالة الضرورة، كما قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [البقرة: ١٧٣].

---

(١) رواه أحمد (٢٤٦٩٤)، وقال مخرِّجوه: إسناده جيد، وأبو داود في الحدود (٤٣٩٨)، والنسائي في الطلاق (٣٤٣٢)، عن عائشة.

وقد تكرَّرت آيات الضرورة أربع مرات بعد ذكر ما حرَّم الله من الأطعمة: الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهِلَّ به لغير الله. ثم قرَّرها القرآن قاعدة عامة حين قال: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩].

توفر حرية الاختيار:

والشرط الرابع: توفُّر الاختيار الحر، فمَن أُكرِه على شيء بالسلاح أو بما لا يقدر على دفعه، فقال أو فعل ما لا يحب أن يقوله أو يفعله، فلا حرج عليه، حتى الكفر باللسان، ما دام القلب غير راكن إليه، بل هو مطمئن بالإيمان، كما قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [النحل: ١٠٦].

لا مسؤولية على مَن لم تتوافر له هذه الشروط الأربعة:

فمَن لم تتوفَّر له هذه الشروط الأربعة، لم تتحقَّق عليه المسؤولية الأخلاقيَّة.

وإذا وجدنا بعض النصوص توجِّه مسؤولية إلى مَن لا يستكملها، فهو من باب المجاز، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ [التكوير: ٨ ـ ٩].

وإذا قالوا في الأمثال: قال الجدار للمسمار: لم تشقُّني؟ قال: سل مَن يدقُّني! قلنا لهم: كل مخلوق مكلَّف بالغ لديه العقل والقدرة والاختيار، فهو مسؤول عن كلٍّ ما يصدر عنه ما عدا حالات الإغماء والنوم ونحوها، وما عدا ذلك فليس عليه مسؤولية.

الذي ليس عليه مسؤولية قط هو الله جلَّ جلاله، فهو خالق الخلق، ومالك الملك، يقول ما يشاء، ويفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، كما قال تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣]. ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران: ٢٦]. والله من أسمائه الحكيم، ومن صفاته الحكمة، فلا يصدر عنه ما ينافيها.

ما يسأل عنه الإنسان يوم الحساب:

والإنسان يُسأل يوم القيامة عن أشياء كثيرة: يُسأل عن أقواله وأعماله، الصغيرة والكبيرة، الحسنة والقبيحة، الصالحة والسيئة، المحلَّلة والمحرَّمة، ما كان منها هزلًا وما كان منها جادًا، ما كان مع الأقرباء، وما كان مع الأباعد، ما كان مع الأصدقاء، وما كان مع الأعداء، ما وقع باختياره وقصده، وما وقع بالخطأ والنسيان، ما كان عن طريق الضعف وخور الإرادة، وما كان عن طريق القوة والبطش، ما كان في الصغر الذي رفع القلم فيه عن الإنسان، بحيث لا يسأل مسؤولية المكلَّف، وما وقع وهو يملك السن والفعل والتكليف، ما كان في الصغر والطفولة، وما كان في الكهولة والشيخوخة، ما فعله الرجال، وما فعله النساء، ما فعله الشباب، وما فعله الشيوخ، ما فعله المثقَّفون، وما فعله الأميُّون، ما فعله الحكَّام، وما فعلته الشعوب، كل الناس سيسألون وسيحاسبون، عن أقوالهم وأعمالهم ونيَّاتهم وحركاتهم وسكناتهم.

دائرة العفو الإلهي:

هناك أعمال تدخل في دائرة العفو الإلهي؛ مثل **ما جاء عن طريق الخطأ والنسيان**، كما في قوله تعالى في ختام سورة البقرة: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وجاء في الحديث الصحيح: «إن الله تعالى قال: قد فعلتُ»[1].

وقال القرآن: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ [النساء: ٩٢]. رفع عن القاتل الإثم، ولكن حمَّله الدية والكفارة، حتى يحتاط الناس وينتبهوا، تدفعها عاقلته إعانة له، ومواساة لأهل القتيل، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾[2] ثم قالت

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٢٦)، وأحمد (٢٠٧٠)، والترمذي في التفسير (٢٩٩٢)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) قال الجصاص في (أحكام القرآن) (٣/ ١٩٤): «وليس في إيجاب الدية على العاقلة أخذهم بذنب الجاني، إنما الدية عندنا على القاتل، وأمر هؤلاء القوم بالدخول معه في تحملها على وجه المواساة له، من غير أن يلزمهم ذنب جنايته، وقد أوجب الله في أموال الأغنياء حقوقًا للفقراء من غير إلزامهم ذنبًا لم يذنبوه؛ =

الآيــة: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾ [النساء: ٩٢]. فكلُّ قتل لا بدَّ فيه من كفارة؛ تحرير رقبة مؤمنة، فمَن لم يجد فصيام شهرين متتابعين، ومَن قتل معاهدًا للمسلمين وهو كافر، فعليه الدية والكفارة. والعهد يعطي لصاحبه حرمة كحرمة المؤمن في إيجاب الدية والكفارة معًا.

والنسيان من الأسباب التي تُدخل الإنسان في عفو الله؛ إذ الناسي لا حيلة له، ولم يتعمَّد العمل ويقصده، وكما جاء في آية سورة البقرة الخاتمة، وما جاء في الحديث: «إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استُكرهوا عليه»[1].

ومَن هنا كان أكل الصائم وشربه ناسيًا، لا يجرح صومه، ولا يفطره، كما جاء في الحديث الصحيح: «مَن أكل ناسيًا وهو صائم، فليتمَّ صومه، فإنما أطعمه الله وسقاه»[2]. وقد نسي صاحب موسى، فقال: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ [الكهف: ٦٣].

وفي الأَيْمان قال الله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾ [البقرة: ٢٢٥]. وقال: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ [المائدة: ٨٩]. ولذلك اعتبر الفقهاء

= بل على وجه المواساة، وأمر بصلة الأرحام بكل وجه أمكن ذلك، وأمر ببر الوالدين، وهذه كلها أمور مندوب إليها للمواساة وصلاح ذات البين، فكذلك أمرت العاقلة بتحمل الدية عن قاتل الخطأ على جهة المواساة من غير إجحاف بهم به، وإنما يلزم كل رجل منهم ثلاثة دراهم أو أربعة دراهم، ويجعل ذلك في أعطياتهم إذا كانوا من أهل الديوان ومؤجلة ثلاث سنين، فهذا مما ندبوا إليه من مكارم الأخلاق، وقد كان تحمل الديات مشهورًا في العرب قبل الإسلام، وكان ذلك مما يعد من جميل أفعالهم ومكارم أخلاقهم، وقال النبي ﷺ: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». فهذا فعل مستحسن في العقول مقبول في الأخلاق».

وأضيف إلى قول الجصاص ﷫: أن القبيلة مسؤولة مسؤولية أدبية عن سلوك أبنائها وتربيتهم وتقاليدهم العامة بحيث لا يتصرف الأبناء وهم يشعرون أنهم من قبيلة كبيرة، فلا يبالون بالإساءة إلى غيرهم. فمن هنا يريد الإسلام أن يشعرهم أن عليهم مسؤولية واسعة عن أبنائهم وأحفادهم وأقاربهم، حتى إنه ليحملهم هذه المسؤولية في الاشتراك في الدية.

(١) رواه ابن ماجه في الطلاق (٢٠٤٥)، وابن حبان (٧٢١٩)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط البخاري، والطبراني في الأوسط (٢١٣٧)، والحاكم في الطلاق (٢/١٩٨): وصحَّحه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٦٦٤)، عن ابن عباس.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٩٣٣)، ومسلم (١١٥٥)، كلاهما في الصوم، كما رواه أحمد (٩١٣٦)، عن أبي هريرة.

الأيْمان ثلاثة: يمين اللغو: التي لا يُقصَد بها الحَلِف. واليمين المنعقدة: التي فيها الكفارة لمَن حنث، إطعام عشرة مساكين، أو صيام ثلاثة أيام لمَن عجز. واليمين الغموس: وهي اليمين الكاذبة التي تغمس صاحبها في النار. وهي التي يحلف فيها الإنسان، وهو يعلم أنه كاذب. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٧﴾ [آل عمران: ٧٧].

السؤال يوم القيامة:

إن الإنسان يُسأل أمام الله يوم القيامة عن كلِّ أعماله، ولكنه لا يُجزى ثوابًا أو عقابًا إلا عن أعماله الأخلاقيَّة، والإنسان ـ ما دام مكلَّفًا ـ فأعماله تندرج في الأخلاق؛ لأنها إما واجب أو مستحب، في ناحية الإيجاب، وإما حرام أو مكروه في ناحية السلب، وإما مباح، لا له، ولا عليه.

وقد قال ﷺ: «لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يُسأل عن خمس: عن عُمُره فيمَ أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وماذا عمل فيما علم»(١).

فهو يسأل عن العمر عامَّة، وعن الشباب خاصَّة؛ لأنه أهم جزء في العمر، فهو مرحلة القوة بين مرحلتي الضعف في حياة الإنسان، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [الروم: ٥٤].

كما يسأل عن علمه: ماذا عمل فيه؟ وعن ماله: من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟ فلا بدَّ أن يُكتسب من حِلِّه، ويُنفَق في محلِّه، في مصلحة صاحبه وأسرته، ومصلحة الناس وخير الأمَّة.

حساب الله يقوم على العدل الكامل في السيِّئات وعلى العدل والفضل في الحسنات:

وحساب الله تعالى للناس ليس كحساب الناس بعضهم لبعض، فهو حساب

---

(١) رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٤١٦)، وقال: حديث غريب، والبزار (١٤٣٥)، وأبو يعلى (٥٢٧١)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٢٨): حسن لغيره، عن ابن مسعود.

شامل، وحساب دقيق، وحساب سريع: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾ [آل عمران: ١٩].

وهذا الحساب يقوم على العدل الكامل في تقدير السيئات والشرور، وعلى العدل والفضل في تقدير الحسنات والخيرات، وهذا وضَّحه لنا القرآن، ووضَّحته السنَّة، يقول تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الأنعام: ١٦٠]. السيِّئة تُجزى بسيئة واحدة مثلها، أما الحسنة فالأصل فيها أن تُجزى بعشر أمثالها، ولكن الله لا يكتفي بهذا الأصل، بل يعطي كثيرًا من الناس أكثر من ذلك، فبعضهم يعطيه بدل الحسنة سبعمائة حسنة، وبعضهم يعطيه الله أضعافًا كثيرة، ومنهم مَن يُوَفَّى بغير حساب.

يقول تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢٦١]. وهذا لمن قال الله فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾ [البقرة: ٢٦٢]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء: ٤٠].

وهناك عمل كالصبر بأنواعه: الصبر على طاعة الله، والصبر عن معصية الله، والصبر على ما ابتلى الله به، والصبر على مشاقِّ الدعوة، ومن الأعمال ما يمنح الله أجره بغير حساب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: ١٠]. وأخبرنا الرسول الكريم أنَّ هناك أناسًا رضي الله عنهم، ورضوا عنه، يدخلون الجنة بغير حساب[1].

من فضل الله على عباده المؤمنين:

وهناك أناس يُجزَوْن بأثر أعمال التي عملوها في حياتهم، وبقي أثرها لهم بعد وفاتهم، كما قال تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ [يس: ١٢]. وفي الحديث الصحيح: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية،

(١) إشارة إلى الحديث المتفق عليه الذي رواه البخاري في الطب (٥٧٠٥)، ومسلم في الإيمان (٢٢٠)، عن ابن عباس.

أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[1]. والصدقة الجارية: ما أوقفه في حياته من خيرات تستمرُّ من بعده، مثل نخيل أو زيتون ينبت ويثمر، أو بئر يشرب الناس منها، أو مسجد يُصلَّى فيه، أو مدرسة يتعلَّم الأبناء فيها، أو نحو ذلك.

وكذلك كلُّ علم ينتفع الناس به في دينهم أو في دنياهم، مما ألَّف الرجل من كتب، وما فسَّر من قرآن، وما شرح من حديث، وما كان له من أشرطة تُرى أو تُسمَع، أو يستفاد منها بوجه من الوجوه، فهو مأجور عليها.

وكذلك دعوات المؤمنين له تنفعه من غير شكٍّ، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الحشر: ١٠]. فلا شك أن استغفارهم لمَن سبقوهم بالإيمان ينفعهم، ويسوق إليهم الخير، والله تعالى يذكر لنا دعاء إبراهيم: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم: ٤١]. وقد قام الدليل على أن أبا إبراهيم مات مشركًا، ولكنَّ دعاءه ينفع أمَّه، ودعاء المؤمنين ينفع آباءهم وأمهاتهم.

وكذلك أعطى الله المؤمنين مِنحًا من عنده يوم القيامة، أعطى الرجل المؤمن الذي تقبَّله الله وغفر له ورحمه، وأدخله في الصالحين؛ أن يُلحِق به ذريته وأولاده من بعده، أيْ: يضمهم إليه، ليكونوا معه في درجته في الجنة، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴿٢١﴾﴾ [الطور: ٢١]. واشترط القرآن أن تتبعهم ذريتهم بإيمان، فهذا ممَّا تفضَّل به ربُّنا عزَّ وجلَّ على الآباء الصَّالحين وأبنائهم المؤمنين، فرفع درجة الأبناء إلى مرتبة الآباء بفضل إيمانهم، فهذه كلُّها زيادة من فضل الله على بعض عباده من أهل الإيمان، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد: ٢١، الجمعة: ٤].

وقد قال تعالى فيما تفضَّل به على عباده المحسنين والمتقين في الآخرة: ﴿لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٣٨﴾﴾ [النور: ٣٨]. وفي سورة أخرى قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ

---

(١) رواه مسلم في الوصية (١٦٣١)، وأحمد (٨٨٤٤)، والترمذي في الأحكام (١٣٧٦)، والنسائي في الوصايا (٣٦٥١)، عن أبي هريرة.

﴿ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾ [فاطر: ٢٩ ـ ٣٠]. ومن مغفرته: أن يتجاوز عن السيئات وإن كثرت، ومن شكره: أن يقبل الحسنات وإن قلَّت.

الشفاعة للمؤمنين في الآخرة:

ومما أعطاه الله تعالى للمؤمنين: أن يشفعوا لإخوانهم الذين قصَّروا في بعض الأمور، فيغفر الله لهم ما يشاء من ذنوبهم، ويكفِّر عنهم ما شاء من سيئاتهم، والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض. وقد قال بعض المفسِّرين في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ [الشورى: ٢٦]. قالوا: فيشفِّعهم في إخوانهم.

وقد قال الله تعالى في المشركين: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: ٤٨]. مما يدل على أن المؤمنين مخالفون لهم، فتنفعهم شفاعة الشافعين.

وقد دلَّ القرآن على أن هناك شافعين يشفعون يوم القيامة، بشرط أن يكونوا مؤمنين، وألا يشفعوا لمشرك، وألا يشفعوا إلا من بعد إذن الله لهم، ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وفي اليوم الآخر لا شفاعة للمشركين، كما قال تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ [غافر: ١٨]. وقال تعالى على لسان المشركين: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الشعراء: ١٠٠ ـ ١٠١]. فتشفع الملائكة والأنبياء والمؤمنون، وذلك بعد إذن الله لهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم: ٢٦]. وقال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢٨].

والأنبياء يشفعون لأقوامهم من أهل التوحيد، وأعظمهم شفاعة في أمته محمد ﷺ، فهو بعد الشفاعة العظمى في الناس جميعًا، يشفع فيمن شاء الله من

أهل الإيمان، كما جاء في حديث الشفاعة الطويل[1].

شفاعة الصالحين لأهل التوحيد:

ثم يأتي دور المؤمنين من أهل الخير والتقوى، يشفِّعهم الله فيمن شاء من إخوانهم، فضلًا من الله تعالى عليهم، وهذا من مزيد فضل الله تعالى عليهم ببركة إيمانهم.

ولا ينبغي لأحد أن يعترض على مثل هذه المِنَح والمكرُمات الإلهيَّة؛ لأن هذا من فضل الله تبارك وتعالى على عباده: ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ [الأعراف: ١٥٦]. فالعذاب مُخصَّص لأهله، أما الرحمة فهي تسع كلَّ شيء، كما يسع رزقه تعالى كلَّ حيٍّ، من مؤمن أو كافر، ولهذا جاء في الحديث الصحيح: أن رحمته سبقت غضبه[2].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ۝٥٠﴾ [الحجر: ٤٩ ـ ٥٠]. فرغم أن الآية تجمع بين الرجاء والخوف نراها جعلت المغفرة والرحمة من أسمائه تعالى والعذاب من أفعاله. وفرق بينهما.

ومن رحمته تعالى: أنه لا يعاجل المشركين ولا العصاة بنقمته، بل يَسَع الجميع برحمته، ويَدَع لهم فرصة بعد أخرى لعلهم يتوبون.

ومن رحمته تعالى: أنه أمر الملائكة أن يستغفروا لبني آدم وهم يسبِّحون الله، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٩﴾ [غافر: ٧ ـ ٩]. فبنو آدم في أرضهم ينتفعون بهذه الدعوات من الملائكة في سماواتهم، وفي كلِّ مكان كانوا، وذلك جزاء إيمانهم، ولكنهم

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التوحيد (٧٥١٠)، ومسلم في الإيمان (١٩٣)، عن أنس بن مالك.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في التوحيد (٧٤٢٢)، ومسلم في التوبة (٢٧٥١)، عن أبي هريرة.

ينالون هذه الفائدة باستمرار، دون أن يصدر شيء غير الإيمان منهم يستحقون به هذا، إلا من فضل الله تعالى.

غير أن هذه التفضُّلات والإحسانات الإلهيَّة، لا تنال من قضية العدل الإلهيِّ بين البشر، فلا ينتقص من أحد حقَّه في جزاء عمله، بحيث لا ينقص من أجره شيء، كما لا يحمل أحد وزْرَ غيره، وإن كان أقرب الناس إليه، وهذا يعني أن المسؤولية شخصيَّة قبل كلِّ شيء.

وهذا ما قاله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه: ١١٢]. والظلم: أن يحمل ذنب غيره. والهضم: ألا ينال كلَّ حقِّه.

وفي القضية الأولى بفرعيها يقول تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النجم: ٣٩ ـ ٤١]. ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٧]. ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٦]. ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

وفي الجانب الآخر يقول تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]. ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧].

فما دام كلُّ إنسان وصل إليه حقُّه من المثوبة كافيًا غير منقوص، ولم يحمل أيُّ إنسان ذنب غيره، ووفَّى الله تعالى العدل حقَّه، كما يحبُّ سبحانه، فلله الفضل والمِنَّة بعد ذلك على مَن يشاء، ولا حجر على فضل الله تعالى ورحمته، قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: ٢]. ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣].

عمن يُسأل الإنسان يوم القيامة؟

قلنا: إنَّ أصل المسؤولية هي (الشخصية)، ولكنَّ هناك أناسًا يُسأل الإنسان عنهم يوم القيامة، بحكم ولايته عليهم، فكيف يولَّى عليهم ولا يُسأل عنهم؟

وكيف تلد المرأة طفلًا صغيرًا لا يعقل ولا يقدر على أشياء كثيرة، ولا يكون أحد مسؤولًا عنه؟ إن مسؤوليَّة الأم والأب عن الطفل مسؤولية شرعيَّة وأخلاقيَّة وقانونيَّة، ولا يستطيع أحد أن يتخلَّى عنها.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦]. والأسرة باعتبارها كيانًا واحدًا متكاملًا، يحرص الإسلام، كما تحرص الفطرة والمجتمع الصالح على إنشائه، تبدأ المسؤولية بالأب عن الأسرة، فهي شركة تبدأ بالزوجين: الرجل والمرأة، وكلُّ شركة لا بدَّ لها من رئيس، والزوج هو الرئيس الطبيعي أو العملي في الأسرة، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ﴾ [النساء: ٣٤]. الرجال لهم الأولويَّة في هذه الشركة بمقتضيات فطريَّة، وأخرى ماليَّة؛ بما أنفقوا من أموالهم، حيث دفعوا مهورًا، وأثَّثوا البيت، ووفَّروا النفقات المعيشيَّة، ويتكلَّف الرجل في ذلك كثيرًا، بحيث لو أساء التصرُّف وهَدَم الأسرة، فإنها تنهدم على أمِّ رأسه.

والقيادة للأسرة لا تعني (الفرعنة) على المرأة، أو إلغاء فكرها وإرادتها وكيانها في شأن الأسرة، فما يريد الإسلام هذا أبدًا، وإنما يريد حياة شُوريَّة، يدلي كلٌّ منهما برأيه في الحياة المزدوجة، وخصوصًا في عصرنا، حيث تعلَّمت المرأة، وأصبحت كائنًا له شخصيته وتأثيره في المجتمع، وربما كانت بعض النساء رئيسة لزوجها في العمل، حيث تكون مديرة المؤسسة أو الشركة أو المدرسة أو عميدة الكلية التي يعمل بها زوجها.

ثم تكون مسؤولية الأبوين عن الأطفال: الأم عن الإرضاع، والأب عن الإنفاق، وكلاهما عن الرعاية الأدبيَّة، والتربية الصالحة، الثقافيَّة والدينيَّة والجسميَّة والصحيَّة والاجتماعيَّة وغيرها، كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفۡسٌ إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوۡلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ وَعَلَى ٱلۡوَارِثِ مِثۡلُ ذَٰلِكَۗ فَإِنۡ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٖ مِّنۡهُمَا وَتَشَاوُرٖ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَاۗ وَإِنۡ أَرَدتُّمۡ أَن تَسۡتَرۡضِعُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا سَلَّمۡتُم مَّآ ءَاتَيۡتُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٢٣٣﴾ [البقرة: ٢٣٣].

ومن ذلك قوله ﷺ: «مُروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين،

واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرِّقوا بينهم في المضاجع»[1].

والأدب مطلوب في كلِّ سن، حتى دون سنِّ البلوغ، فكلُّ سن تحتاج إلى آداب تناسبها.

إنَّ لربِّ الأسرة مسؤولية، وإن للمرأة مسؤولية، وكلُّ واحد منهما يتحمَّل مسؤوليته في الأسرة على قدر ما منحه الله من قدرة وإمكانات.

وقد روى الشيخان، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ أنه قال: «كلُّكم راع ومسؤول عن رعيَّته، فالإمام راعٍ وهو مسؤول عن رعيته، والرجل في أهله راعٍ وهو مسؤول عن رعيته، والمرأةَ في بيت زوجها راعية وهي مسؤولة عن رعيتها، والخادم في مال سيده راعٍ وهو مسؤول عن رعيته»[2].

وبهذا حمَّل الرسول المعلِّم ﷺ كلَّ واحد في الأسرة، من الرجل والمرأة، حتى الغلام والخادم، مسؤوليَّتهم، وحمَّله رعاية هذه المسؤولية. وإن كنا للأسف رأينا المسلمين لم يحملوا هذه المسؤوليَّة، وضيَّعوها، وكلُّ إنسان لا يريد أن يتحمَّل المسؤولية ويضعها على غيره، فالمحكومون يريدون أن يلقوها على الحكَّام، والحكَّام يلقونها على المحكومين، والفقراء يريدون أن يحمِّلوها على الأغنياء، والأغنياء يريدون أن يحمِّلوها على غيرهم، مع أن الحديث حمَّل المسؤولية على الجميع حين قال: «كلُّكم راعٍ، وكلُّكم مسؤول عن رعيته».

الجميع مسؤولون، وأولُّهم الحكَّام، وهم أول مَن ذكرهم الرسول في حديثه حين قال: «الإمام راعٍ».

والإمام هو الرجل الأول المسؤول عن حكم الأمَّة وإقامة العدل فيها، الله يسأله، والشعب يسأله، ومن حقِّ كل إنسان أن يسأل، ومن واجب من سُئل أن يجيب، ثم الرعيَّة مسؤولون معه، ففي الحديث الصحيح: «إن الله سائل كلَّ راعٍ عما استرعاه، حفظ أم ضيَّع»[3].

---

(1) رواه أحمد (٦٧٥٦)، وقال مخرِّجوه: إسناده حسن، وأبو داود (٤٩٥)، والدارقطني (١/ ٢٣٠)، والبيهقي (٢/ ٢٢٩) ثلاثتهم في الصلاة، وصحَّحه الألباني في إرواء الغليل (٢٩٨)، عن عبد الله بن عمرو.

(2) متفق عليه: رواه البخاري في الاستقراض (٢٤٠٩)، ومسلم في الإمارة (١٨٢٩)، عن ابن عمر.

(3) رواه النسائي في الكبرى في عشرة النساء (٩١٢٩)، وأبو عوانة في الحدود (٧٠٣٦)، وابن حبان في السير (٤٤٩٢)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرطهما، وصحح إسناده الحافظ في الفتح (١٣/ ١١٣)، وصحَّحه الألباني في غاية المرام (٢٧١)، عن أنس ابن مالك.

وعلى قدر المسؤولية تكون التَّبِعة التي يتحمَّلها المكلَّف، على قدر ما حمل، وعلى قدر ما أدَّى، ولذا قال عمر بن الخطاب ﷺ: حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا[1].

وعن عمر بن عبد العزيز: إني قد وجدتُني وُلِّيتُ أمرَ هذه الأمَّة، أسودها وأحمرها، فذكرت الغريب القانع الضائع، والفقير المحتاج، والأسير المقهور، وأشباههم في أطراف الأرض؛ فعلمتُ أن الله تعالى سائلي عنهم، وأن محمدًا صلَّى الله عليه وسلم حجيجي فيهم؛ فخفتُ أن لا يثبت لي عند الله عذر، ولا يقوم لي مع محمد ﷺ حجَّة، فخفتُ على نفسي[2].

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه في الزهد (٣٥٦٠٠).

(٢) رواه أبو يوسف في الخراج ص٢٦.

الفصل الثالث

الجزاء

لكلِّ عمل خلقي - خيرًا كان أو شرًّا - أنواع من الجزاء في الإسلام، ثوابًا على العمل، أو عقابًا عليه، فهناك الجزاء القانوني أو الشرعي.

وهناك الجزاء الطبيعي أو المادي، الكوني أو القدري.

وهناك الجزاء الاجتماعي أو الأدبي.

وهناك الجزاء المعنوي الداخلي الخُلقي أو النفسي أو العقلي أو الرُّوحي.

وهناك - بعد ذلك كله - الجزاء الأخروي: الحسِّي والمعنوي.

الجزاء الطبيعي أو الكوني القدري:

ونعني به الجزاء الذي يترتَّب على العمل بحكم طبيعة الأشياء وفطرتها، ثوابًا وعقابًا، هذا الجزاء يتولَّاه القدر الأعلى بمقتضى نظام الأسباب والمُسببات، أي: نظام السنن المطَّردة التي أقام الله عليها هذا الكون. وهو الذي قال الله تعالى فيه: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [فاطر: ٤٣].

مثال ذلك: أن الله جعل الحياة الطيِّبة والمعيشة الرغدة، جزاء مَن آمن به واتَّقاه واتَّبع هداه، واستقام على طريقه.

كما جعل المعيشة الضَّنْك، والحياة المضطربة، جزاء مَن أعرض عن ذكره، وانحرف عن طريقه، وكفر بنعمته.

وهذا ما بيَّنه الله تعالى للإنسان الأول (آدم) وزوجه منذ خرجا من الجنة وأُهبطا إلى هذه الأرض، فذكر لهما ولذريتهما قانونه الذي لا يتخلَّف: ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا

﴿يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٣ ـ ١٢٤].

وبعد آدم، قال شيخ المرسلين نوح لقومه، الذين أعرضوا عن دعوته، وأشركوا بالله، ولم يزدهم دعاؤه لهم إلا فرارًا، وأصرُّوا واستكبروا استكبارًا، فنصح لهم نوح ودعاهم قائلًا: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: ١٠ ـ ١٢].

وبعده قال هود لقومه عاد، الذين استكبروا في الأرض، وقالوا من أشد منا قوة: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هود: ٥٢]. وهكذا كلُّ رسل الله جاؤوا إلى أقوامهم بخيري، الدنيا والآخرة: إذا هم آمنوا بالله ورسله، واستقاموا على الطريقة التي جاء بها الرسول.

الثواب على الخير والعقاب على الشر:

وقد تكرَّر هذا في القرآن في مواضع كثيرة، مثل قوله تعالى في جانب الثواب: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧]. ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف: ٩٦]. ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الجن: ١٦]. وقوله عن أهل الكتاب: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦]. ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣]. ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾﴾ [الطلاق: ٤].

وبجوار الأجْزيَة على الخير هناك أجْزيَة على الشرِّ، ربطها الله به، تصيب مَن عَمِله في الدنيا قبل الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٤]. ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

فما يصيب الناس في الدنيا وما يغشاهم من ضرٍّ؛ ليذيقهم بعض جزاء

أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [النحل: ٦١]. ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل: ١١٢]. ويذكر القرآن لنا في قصصه ما يبيِّن لنا هذه الحقيقة الكبيرة: أن الرخاء والأمن والاستقرار مع الإيمان والتقوى والصلاح والاستقامة، وأن الفقر والجوع والخوف والذلّ والهوان مع الكفر والانحراف والظلم واتباع الشهوات.

كيف تتحقق هذه الأجزية العاجلة للمؤمنين أو غيرهم؟

إن هذه الأجزية التي وصفها الله للناس جزاء أعمالهم من خير أو شرٍّ، كيف تتحقَّق لأصحابها؟ كيف ينزل هذا الثواب للصالحين والمستقيمين، وكيف يقع هذا العقاب للأشرار والفجار على رؤوسهم؟

لا تتحقَّق عن طريق خرق العوائد، ومجاوزة السنن، كما يتوهَّم بعض المتدينين؛ إنها تتحقَّق بطريق طبيعي، وَفقًا لسنن الله السائدة في أرضه، فالمؤمن التقي المستقيم أحسن الناس عملًا، وأفضلهم إنتاجًا، وأحرصهم على الانتفاع بوقته، وعلى نفع الناس، وأقدرهم على التعاون مع غيره، وأرعاهم للأمانة، وأحفظهم للمصلحة، ولكلِّ الأملاك والأدوات التي يستعملها، وأبعدهم عن الإضرار بنفسه أو غيره.. إلى غير ذلك من الفضائل التي لا تتوافر في إنسان كما تتوافر في المؤمن المستقيم، وهذه كلُّها لها آثارها اللازمة في الحياة، وثمارها الدانية القطوف؛ حياة طيبة، وماء غَدَقٌ، وبركات من السماء والأرض، ينعم بها الناس من فوقهم ومن تحت أرجلهم، ورزق يندفق على كلِّ مؤمن من حيث لا يحتسب، وتيسير لأمره في شتَّى نواحي الحياة.

وعكس هذا إذا كفر الناس بأنعم الله، فجرَوا وراء الشهوات، وهاموا في أودية الضلال، ففسدت ضمائرهم، وخربت عقولهم، وضلَّت أعمالهم، وانحلَّت روابطهم، وانعكس ذلك كلُّه على حياتهم المادية والاجتماعية، فإذا هم قد حُرموا الرخاء والسَّعة، وحُرموا الأمن والطمأنينة، كما قال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل: ١١٢].

ومن الأمثلة التي ضربها القرآن هنا قصة سبأ في اليمن: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ: ١٥ ـ ١٧].

الجزاء القانوني أو الشرعي:

ونعني بهذا الجزاء الذي يقوم على تنفيذه أُولو الأمر من القضاة والحكام، والولاة والأمراء، وأكثر ما يكون عقوبة على المخالفات والسَّيِّئات، وقلَّما يكون مكافآت على الحسنات والصالحات؛ لأن القانون عادة لا يتعامل مع الذين يتقنون أعمالهم، ويؤدُّونها في وقتها، مستكملة شرائطها، مستتمَّة الأركان، كاملة الآداب. فهؤلاء الذين تزدان بهم الحياة، وتتقدَّم بهم الأمم، ويدعو لهم الناس في كلِّ مكان، وليس للقانون عَلاقة بهم، إنما علاقته بالذين يفسدون في الأرض، ويأكلون الحقوق، ويعتدون على حرمات الناس، وأملاك الآخرين، معتمدين على القوة المادية أو البدنية أو العسكرية، أو معتمدين على حكام الجَور، الذين يستعينون بالأشرار، ويستفيدون بالفساق. وهي مشكلة من قديم: أن الظالم يستعين بالظالم، حتى ينزل الله نقمته بالجميع، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنفال: ٢٥].

ومن هذا القبيل في الجزاء الشرعي ما شرعه الإسلام في غنائم الحرب من المنقولات، حيث ترك أربعة أخماسها للغانمين المحاربين؛ لأنهم كانوا يُجهِّزون أنفسهم بكلِّ ما يلزم للحرب من سلاح وعتاد ونفقة، حتى الأحصنة التي كانت مراكبهم في الغزو والجهاد كانت ملكًا لهم.

ولكن رغم إباحة الغنائم للمقاتلين، أعلن النبيُّ ﷺ أن ذلك ينقص من أجورهم عند الله إلى حدٍّ كبير، ففي الصحيح مرفوعًا: «ما من غازية أو سريَّة تَغْزو فَتَغْنَم وتَسْلَم إلا كانوا قد تعجَّلوا ثلثي أجورهم، وما من غازيةٍ أو سَريَّةٍ تُخفق وتُصاب إلا تمَّ أجورهم»[1].

---

(١) رواه مسلم في الإمارة (١٩٠٦)، وأحمد (٦٥٧٧)، وأبو داود في الجهاد (٢٤٩٧)، عن عبد الله بن عمرو.

وأكثر ما يكون الجزاء القانوني عقوبة على فعل محظور، أو ترك مأمور.

الجزاء القانوني في الشرع أنواع أولها الحدود:

والجزاء القانوني في الشرع أنواع معروفة: نوع حدَّد الشارع قدره وصفته، وذلك في جرائم معيَّنة ذات صفة اجتماعيَّة غالبًا، وهو ما عُرف باسم (الحدود)؛ كحدِّ السرقة، وقطع الطريق، والزنى، والقذف، والقتل العمد.

وفيها جاء قوله تعالى في **حد السرقة**: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المائدة: ٣٨].

وفي قطع الطريق والسرقات الكبرى قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [المائدة: ٣٣].

وفي الزنى: جاء في القرآن قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ [النور: ٢]. وجاء في السنة في أحاديث صحيحة حد الرجم، وتحتاج إلى كلام لا يتَّسع له الوقت.

وفي القذف: جاء في القرآن قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [النور: ٤ ـ ٥].

والقتل العمد: جاء فيه قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [البقرة: ١٧٩].

وشرب الخمر: قد اختلف فيها. والرأي الذي أرجِّحه أن فيها تعزيرًا يقدِّره أهل الاجتهاد، ويثبت في القانون، ويقبل التغيير.

العقوبات القرآنية (الحدود) وعلاقتها بالأخلاق:

ومعظم العقوبات المغلَّظة في التشريع الإسلامي، إنما تتعلَّق بالأخلاق وبحماية الأخلاق، فأساسها خلقي، وهدفها الذي ترمي إليه خلقي.

ففي عقوبة الزنى يلاحظ الحرص على جعل من قام بتلك الجريمة عبرة

لغيره، بإقامة الحد عليه على ملأٍ من الناس حتى يكون زاجرًا للغير ومُبعدًا لهم عنه.

إن علة فرض حد الزنى مقنعة جدًّا؛ لأن فعلها يؤدِّي لمفاسد أخلاقية كثيرة، وأمثلة ذلك: توريث العداوة والبغضاء، بل قد ينتج عنه القتل وسفك الدماء؛ لأن أكثر البشر ذوي الأديان السماوية والوضعية يرونه محرمًا وعارًا. كما أنه يؤدي إلى ضياع الأنساب.

أما عقوبة السرقة وهي القطع، فذلك لحماية أموال الناس وممتلكاتهم من التعدي؛ لأن في ذلك ردعًا لكل من قد تسوِّل له نفسه أخذ مال الغير، لما في ذلك من ظلم.

السارق ظالم لنفسه قبل أن يظلم غيره، ولقد جنى على نفسه أولًا؛ لأنه أصبح باعتياد السرقة لا يطرق باب الكسب الحلال، والسارق جنى على غيره بسلب ماله الذي تعب في تحصيله، فجاءت العقوبة على هذه الجريمة؛ لأنها منافية للفطرة السوية التي تستنفر الوقوع في الرذائل، سعيًا للمحافظة على المبادئ الأخلاقية كالعدل واحترام حقوق الآخرين وممتلكاتهم.

وكذا الشأن في عقوبة القذف؛ فهي تعظيم لكرامة الإنسان وسعي لحفظها، وشُرِع حد القذف لما فيه من حماية للإنسان المقذوف من أذية الغير معنويًا، كيف لا، وفي القذف تجريح للأعراض، وتلويث للسمعة، وإشاعة للسوء والشكوك في الأسر؟ وتلك حالات تهدد البيوت بالانهيار، بل إن العقوبة جاءت من جنس الفعل، إذ بالإضافة للجلد يعاقب القاذف معنويًّا أيضًا برد شهادته، وتسجيل الفسق عليه، حتى ينزجر عن رذائل الأعمال، ويتربَّى من خلال هذه العقوبة على التحلي بفضائل الأعمال كالستر وحفظ اللسان.

التشديد في إثبات العقوبات المغلظة (الحدود):

وقد شدَّد الشرع في عقوبة هذه الجرائم، ولكنه شدَّد أكثر في إثباتها. فقلما تثبت جريمة الزنى بالشهود الأربعة العدول، الذين يرون الزاني والزانية في حالة التلبس الكامل، إلا بحيلة يرفضها الشرع، أو بأن يكون الشخصان قد انحلَّا تمامًا، ولا يباليان بالناس. وقلَّما يحدث هذا. ولذلك لم يثبت الزنى في التاريخ الإسلامي إلا بالإقرار أربع مرات. وذلك عندما يأتي الرجل أو المرأة يريد أن يلقى العقوبة راضيًا؛ ليلقى الله طاهرًا.

نوع الكفارات:

ومن العقوبات نوعٌ حدَّد الشارع قدره وصفته أيضًا، وهو ما كان في مخالفات ذات صبغة شخصية غالبًا، وهو ما عُرف باسم (الكفارات)، كالذي يحلف بالله على أمر مستقبل ثم يحنث فيه، والذي يقتل خطأ، والذي يجامع امرأته في نهار رمضان، والذي يظاهر من زوجته، بأن يحرِّمها على نفسه ويجعلها كظهر أمه.

العقوبات التعزيريَّة:

ومن العقوبات نوع ترك الشارع تحديده لاجتهاد أُولي الشأن من المسلمين، وذلك ما كان من مخالفات لم يقدِّر الشارع فيها حدًّا من النوع الأول، ولا كفارة من النوع الثاني، وهو ما عُرف باسم (التعزير)، كعقوبة التعسُّف في استعمال الحقِّ، ومضارَّة الغير، واحتكار طعام المسلمين، والامتناع عن بيع السلع لهم بثمن مثلها، والامتناع عن نفقة واجبة عليه، ونحو ذلك.

الجزاء الدنيوي:

ومن تلك العقوبات ما ذكره القرآن الكريم من عقوبة المجتمعات المترفة، حيث يصيبها داء الترف بالانحلال الأخلاقي، والتفكُّك الاجتماعي، حتى ينتهي بها إلى الدمار، وفي هذا يقول القرآن: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء: ١٦].

وليس من الضروري أن يكون التدمير المذكور هنا تدميرًا ماديًّا من نوع تدمير قوم لوط، ومَن على شاكلتهم، فقد يكون التدمير معنويًّا بأن يفقدوا حريتهم وسيادتهم على أرضهم، ويتسلَّط عليهم عدو غيرهم، فيستذلُّهم بعد عزٍّ، ويخيفهم بعد أمن.

وقد يكون التدمير بأن يفقدوا قوَّتهم الاقتصاديَّة، فتنضب مواردهم، وتجدب أرضهم، وتبور تجارتهم.. وما إلى ذلك، كما حدث لـ (سبأ). في اليمن: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ: ١٧].

الجزاء الأخروي:

وأعظم جزاء على الموبقات التي جناها الإنسان على نفسه، أو على غيره من الأفراد أو المجتمع أو الأمَّة، وعلى كلٍّ الذنوب والمخالفات التي اقترفها في معصية الله تعالى: هو جزاء الآخرة. وقد أعدَّه الله تعالى للكافرين والجاحدين بالله تعالى والمكذِّبين لرسله سبحانه، وأعدَّ للعصاة من أهل الدين المؤمنين ما يليق بهم إذا ماتوا دون أن يتوبوا منها.

أما مَن تاب من ذنبه، فإن الله تعالى يتوب عليه، كما قال تعالى في وصف عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٧٠].

وقد دعا الله المؤمنين جميعًا إلى التوبة فقال: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور: ٣١].

وقد خفَّف الله عن المؤمنين إذا وقفوا عند الصغائر ولم يتجاوزوها؛ خوفًا من الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء: ٣١].

وقد وصف الله المحسنين الذين يستحقُّون جنانه، فقال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [النجم: ٣١ ـ ٣٢]. وفي سورة أخرى: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الشورى: ٣٧].

ومعنى هذا: أنَّ الله سبحانه هو الرحيم بعباده، العليم بضعفهم، يخفِّف عنهم، ويراعي حالهم، كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء: ٢٨]. ولكنه تبارك وتعالى يسجِّل على الإنسان كلَّ أقواله وأعماله، وتحرُّكاته ووثَباته، صغيرها وكبيرها، ظاهرها وباطنها، دقيقها وجليلها، خَفيِّها وجليِّها، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف: ٨٠]. وقال: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ

رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٨]. ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار: ١٠ ـ ١٢]. ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩].

وما كتبناه هنا هو الجزاء عن السيِّئات التي أسخطت الله على عباده، الذين كان يحبُّ منهم أن يطيعوه ولا يخالفوا أمره، ومع هذا طالما ناداهم وهم مستغرقون في معاصيهم ومبارزتهم له سبحانه، وهو يقول: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣].

وهناك جزاء آخر على الطاعات والحسنات، سواء صغُرت أو كبُرت، فلن يضيع عند الله تعالى شيء منها، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨].

وقد قال لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ [لقمان: ١٦].

ولا يضيع عند الله عمل عامل من ذكر أو أنثى، كما قال تعالى مجيبًا لدعاء المؤمنين: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ [آل عمران: ١٩٥].

والله يجزي على كلِّ الأعمال سواء أكانت فرضًا أم نفلًا أم واجبًا أم سُنَّة مؤكَّدة أو غير مؤكَّدة، أو أي عمل، أو أي قول، أو أي جزء من عمل فيه خير، فلن يضيع عند الله، كما قال تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]. وقال: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وقد جرت سُنَّة الله أن يجزي على السيئة بمثلها، أما الحسنة فيجزي عليها بعشر أمثالها، وأحيانًا بسبعمائة ضعف، وأحيانًا لا يدخل جزاؤه تحت الحساب، كما قال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا

﴿يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٦٠]. وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦١]. ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

أثر النيّة الصالحة:

إنَّ الحسنة تكتب بمُجرَّد النيَّة الصادقة، وإن لم تُعمَل، ويُجزى صاحبها عليها وإن أدِّيت على سبيل الخطأ؛ بأن وضع مال الصدقة في يد سارق؛ أو يد زانية؛ أو يد غني، فإن الله يتقبَّلها منه، ولا يضيع أثرها، ويجعل كلَّ واحد من هؤلاء مستفيدًا منها بوجه ما، كما جاء في الحديث الصحيح: لعل السارق يتعفَّف عن سرقته، ولعل الزانية تتوب عن زناها، ولعل الغني يعتبر، فينفق مما آتاه الله تعالى[1].

والأعمال الصالحة جزاؤها الجنة، وليست الجنة هي: القصور والأشجار والأطعمة الطيبة والماء العذب والعشاء والحور العِين فقط، ولكن في الجنة هذه الطيبات المادية والحسية، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وهو ما عبَّر الله عنه بقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]. قالوا: ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ هي: الجنة. و﴿زِيَادَةٌ﴾ هي: رؤية الله تعالى، والتنعم بها مما لا يدرك كنهه، وهو ما عبَّر عنه القرآن بقوله: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥]. وفي سورة أخرى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ٧٢]. ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣].

الجزاء الروحي والخُلُقي والنفسي:

وهناك جزاء يجده الناس في هذه الدنيا، قبل أن يأتي جزاء يوم القيامة الموعود، فيستمر معه ذلك، بل هو مستمر، وهو: الجزاء الروحي، أو ما يسمَّى: الجزاء الخُلُقي أو النفسي. وهو يأتي في الثواب وفي العقاب، ثوابًا على الخيرات والحسنات، وعقابًا على الشرور والسيئات.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٢١)، ومسلم (١٠٢٢)، كلاهما في الزكاة، عن أبي هريرة.

ونكتفي فيه بما نذكره في حديثنا عن الجزاء عند شيخنا دراز.

الجزاء عند شيخنا د. دراز:

وقد أقام شيخنا العلامة دراز النظرية الأخلاقيَّة القرآنية على خمسة أسس، وجعل ـ كما تقدم ـ ثالثها الجزاء، قال:

«فالجزاء، إذن، هو رد فعل القانون على موقف الأشخاص الخاضعين لهذا القانون... وللجزاء ثلاثة ميادين... الجزاء الأخلاقي، والجزاء القانوني، والجزاء الإلهي»[1].

١ ـ الجزاء الأخلاقي:

ويتمثَّل هذا الجزاء الأخلاقي في الشعور بالراحة أو الألم، بالفرح أو الندم، التي يثيرها أداء الواجب الأخلاقي أو انتهاكه، فكلُّ سلوك أخلاقي يُنشئ حالة داخليَّة تتناسب معه، الرضا في حالة النجاح، والندم في حالة الفشل. ولا يترتب هذا الشعور على مسألة الخوف من العقاب أو توقع الثواب، بل هو شعور إنساني داخلي أصيل.

يضرب له مثالًا بالقانون (الفيزيولوجي) العضوي، بمعنى أن جزاء الظروف الصحية التي يعيش فيها الإنسان موجود آليًا في الصحة والمرض اللذين تسببهما، حتى لو لم يلقَ الإنسان بالًا لهما.

يقول الشيخ دراز: «إن المتعة والألم اللذين نحسُّ بهما بعد أن نفعل خيرًا أو شرًا، هما مع ذلك رد فعل لضميرنا على ذاته، أكثر من أن يكونا رد فعل للقانون علينا، فهما تعبيران طبيعيان عن هذا اللقاء، بين شعورين متلاقيين، في ذوقنا الخاص، أو متضادين، أي أننا تبعًا لتوافق شعورنا بالواقع أو تضاربه مع شعورنا بالمَثَل الأعلى ـ إما أن نتمتع بحالة من السلام والدعة، ناشئة عن هذا التوازن الداخلي، أي عن اتفاقنا مع ذواتنا... وإما أن نتألم لهذا التناقض، وذلك الضعف في قوانا، تألُّمَنا من تمزُّق في كياننا»[2].

---

(١) دستور الأخلاق في القرآن ص٢٤٥.

(٢) المصدر السابق ص٢٤٨ ـ ٢٤٩.

٢ ـ **الجزاء القانوني**:

ويتمثل الجزاء القانوني في الجانب العقابي وحده، الذي يضم كلًا من الإجراءات التأديبية والعقابية.

ولا يعنى الجزاء القانوني الإسلامي بجانب الثواب، مثله مثل بقية الجزاءات القانونية في الأمم الأخرى، وإن كان يمكن اعتبار الأمن الذي يوفِّره القانون على الحياة والأبدان والأعراض والأموال، والتقدير الاجتماعي العام الذي يحظى به الشرفاء في المجتمع: نوعًا من الجزاء القانوني السلبي.

ويشير شيخنا الشيخ دراز إلى مرتبتَيْن مختلفتَيْن في النظام العقابي في التشريع الإسلامي:

الحدود: وهي الجزاءات التي حدَّدها الشرع بدقة وصرامة، عن عدد قليل من الجرائم (الحرابة، والسرقة، وشرب الخمر، والزنى، والقذف).

التعزيرات: وتشمل بقية الجرائم، وعقوبتها متروكة لتقدير القاضي أو القانون.

أما الحدود فالعقوبة فيها محدَّدة تحديدًا دقيقًا كيفًا وكمًّا، ولا يتوقف تطبيقها على حالة المذنب، بأن كان ذا سوابق أم لا، ولا على مشاعر الضحايا. ومتى علمت السلطة العامَّة بالجريمة يصبح تطبيق الجزاء لا رجعة فيه.

يقول الرسول ﷺ: «تعافوا الحدود بينكم، فما بلغني من حدٍّ فقد وجب»[1].

ويعلق شيخنا دراز على النظرة المعاصرة للحدود فيقول: «نجد الضمير المعاصر قد أجفل فعلًا من هذه الإجراءات البالغة القسوة، والتي يقصد الإسلام بها أن يعالج به الاضطراب في السلوك الإنساني، وبعض جرائم القانون العام»[2].

ويفسر الشيخ هذا التحرُّج بأنه يعني النزاع بين القانون المنتهك، والفرد

---

(١) رواه الدارقطني (٣١٩٦)، والحاكم (٤/ ٣٨٣)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، كلاهما في الحدود، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) دستور الأخلاق في القرآن ص٢٦٦.

الذي انتهكه، بينما لا نجد حرجًا أن نوجه أقسى الضربات للعدو الذي يحتلُّ أرضنا، وأن نسلب حقَّه في الحياة! وذلك أن غريزة المحافظة على النفس تكبت مشاعرنا المنطوية على المودة والأخوة الإنسانيَّة، وتدفعها إلى الوراء.

«تلكم الأمَّة لا ينقصها العطف والرحمة والإنسانيَّة، ولكنها يجب أن تُسكِت تلك الرقة المصطنعة، وتتجاوزها بروح النظام والطاعة، ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢]. . . إن هذه القسوة ضد اللصوص ليست سوى قسوة ظاهرة، وفي نطاق النظرية، أما من الناحية العملية، فكلما كانت العقوبة أشد تنكيلًا قلَّ غالبًا تطبيقها، فعِظَمُ الجزاء يجعل مخالفته أدنى إغراءً وأقل إغواء»[١].

أما بقية الجرائم، التي لم يعيِّن الشرع فيها حدًّا، فمجال الاجتهاد فيها واسع، من حيث اختيار العقوبة، وإمكانية العفو، ومراعاة الظروف المحيطة بالجريمة، وغير ذلك.

٣ ـ الجزاء الإلهي:

وقد قارن شيخنا دراز هنا بين طرق التوجيه الكتابيَّة، وطرق التوجيه القرآنيَّة، وخلص إلى عدم الإشارة إلى الخير الأخلاقي لذاته في العهد القديم إلا فيما ندر فقال: «وهكذا لا نصادف منذ آدم حتى موسى إلى آخر عهده، أية إشارة في أي مكان إلى حياة بعد الموت، كأنما لم يكن لعقيدة الحياة الأخرى مكان في أديانهم»[٢].

بينما «نجد الأمل الإنجيلي مكانه دائمًا هو الآخرة، في حياة ما بعد الموت»[٣].

أما نظرية الجزاء القرآني، فهي «تقوم على أسس مختلفة، ولكنها يمكن أن ترتد إلى ثلاث مجموعات كبيرة هي: المسوِّغات الباطنة، واعتبار الظروف المحيطة وموقف الإنسان، واعتبارات النتائج المترتبة على العمل»[٤].

---

(١) دستور الأخلاق في القرآن ص٢٦٨.

(٢) دستور الأخلاق في القرآن ص٢٨٠.

(٣) دستور الأخلاق في القرآن ص٢٨١ ـ ٢٨٢.

(٤) دستور الأخلاق في القرآن ص٢٨٤.

أ ـ المسوغات الباطنة:

ويعني بها الرجوع في دعم التكليف عقليًا إلى قيمة أخلاقيَّة مرتبطة بهذا التكليف، وهي قيمة (إيجابيَّة) حين تدل على أمر، والعمل به. و(سلبيَّة) حين تتصل بنهي أو عصيان.

وهي قيمة موضوعية، كالحق والباطل، والعدل والظلم في ذاته، أو قيمة ذاتية كبصر العيون وعماها، وطهارتها ودنسها[1].

ويمكن ملاحظة ذلك في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [الرعد: ١٧].

ب ـ اعتبارات الظروف المحيطة وموقف الإنسان:

وهي فترة سابقة للجزءات، وتتمثَّل في «الرأي العام، وهو الشعور الذي نجده حين نظن أن إخواننا قد يحسون نحونا بإحساس طيب أو رديء، وأننا سنكون موضع إعجابهم أو احتقارهم»[2].

ويضيف إليها القرآن الشعور بمعية الملائكة، ومراقبة الله سبحانه الذي يعلم السر وأخفى، والذي ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢].

ج ـ اعتبارات النتائج المترتبة على العمل:

إذا نظرنا إلى هذه المجموعة نلاحظ قلَّة نسبية في النصوص التي تهتمُّ بما نطلق عليه عمومًا: (الجزاءات الطبيعية)، كالصحة والمرض وغيرها، «وهكذا تستهل الحياة الأخلاقيَّة بإدخال العنصر المثالي، (المثل الأعلى)، في مجال كان من قبل محتلًا بالعنصر الطبيعي»[3].

أما الجزاء الإلهي، «فعلى حين تجعل التوراة السعادة الموعودة في طيبات هذا العالم، ويحصرها الإنجيل تقريبًا في السماء، نجد أن القرآن يريد أن يجمع بين هذين المفهومين، وأن يوفق بينهما»[4].

---

(١) السابق ص٢٨٤.

(٢) السابق ص٣٢٠.

(٣) السابق ص٣٣٦، ٣٣٧.

(٤) السابق ص٣٤٣.

كقوله تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۝٢٠٠ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝٢٠١ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾ [البقرة: ٢٠٠ - ٢٠٢]. وقوله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝٨٥﴾ [البقرة: ٨٥].

وقد فصَّل شيخنا في أنواع الجزاء الإلهي، ما بين الجانب المادي، وتأييد الله للمؤمنين، والجانب العقلي والأخلاقي، والجانب الروحي، والجزاء الإلهي في الآخرة بشقيه الحسي والروحي، ومثله في جانب العذاب[1].

(١) على النحو الذي فصلنا في مقدمة كتابنا المنتقى من الترغيب والترهيب، وقد نقلنا بعضًا منه في موضعه من هذا الكتاب. انظر: المنتقى من الترغيب والترهيب (١/ ١١) وبعدها.

الفصل الرابع

نيَّة العمل والباعث فيه

لم ينظر الإسلام إلى حجم العمل، ولا إلى جمال صورته، ولا إلى عدد أنواعه أو أفراده، ولا إلى مقدار ما أُنفِق فيه، وإن كان كثيرون لا يفكرون إلا في هذه الجوانب الماديَّة والحسيَّة، وما قد تجلب لهم من منافع، وتُدْني لهم من شهوات، ولكن الله ﷻ، لا يهمه من هذا كله ـ بعد شرعية العمل ـ إلا النية التي تصحب العمل: هل هي له وحده خالصة لوجهه، وابتغاء مرضاته، أم أراد فيه صاحبه وجهًا آخر مما يبتغيه الناس من زهرة الدنيا؟

كلُّ عمل صالح أو قول طيب، فرديٍّ واجتماعيٍّ، دينيّ أو دنيويّ، يريد أن يتخذه المسلم سُلّمًا للرُّقِي والعروج في الدار الآخرة، وأن يكتب له من الأعمال الصالحة، التي يجد حظوتها عند الله، فلا بدَّ أن يسبق هذا العملَ (نية خالصة) يُبطنها صاحب العمل في ضميره، رجلًا كان أو امرأة. المهم أن يكون بالغًا عاقلًا، فالأطفال ـ أعني: الذين لم يدركوا سنَّ البلوغ ـ والمجانين، لا نيَّة لهم، حتى الأطفال المميِّزون يثابون على ما قدموا من خير، ولا يحاسبون على ما قدموا من شرٍّ؛ لأن نيتهم غير مكتملة، وإن لِيمُوا بعض اللوم بقدر ما لديهم من عقل. ولهذا يطالبون بالتأدُّب والتعليم والصلاة وغيرها قبل سن البلوغ. وفي هذا قال الشاعر:

وينفع الأدبُ الأحداثَ في صِغرٍ ... وليس ينفع عند الشَّيْبة الأدبُ
إن الغصون إذا قوَّمتها اعتدلت ... ولن تلين إذا قوَّمتها الخُشُبُ[1]

والنية هي: عقد القلب المقارن للفعل. أعني: العقد المصمِّم الجازم، وقد تسبقه خواطر وأحاديث نفس، لا ترتقي إلى درجة النية. ومن فضل الله

---

(١) من شعر صالح بن عبد القدوس.

علينا أنه لا يؤاخذنا بها، ويعفينا من تبعاتها، وفي هذا جاء الحديث الصحيح: «إن الله ﷻ تجاوز لأمتي عما حدَّثت به أنفسُها، ما لم تعمل أو تكلَّم به»[1].

وكم يخطر في بال الإنسان من أحاديث النفس، التي تتطاير هنا وهناك، مما تشتهيه نفسه من حرام لا يحل له، ممَّا ملكه الآخرون، وليس له سبيل إليه، إلا من طريق هذه الخواطر الطائرة. فليحمد الله على فضله ونعمته عليه أنه لا يسجِّلها عليه، ويضعها في ديوانه، وليحاول أن يشغل نفسه بالطيِّبات والخيرات التي تلهيها عن الشرور والسيئات، ومَن شغل نفسه بالحق، كان أولى أن تشغله عن الباطل.

وهذه النيَّة لا بدَّ أن تكون خالصة، ومعنى خلوصها: أن يُطهِّرها من كلِّ ما يدخل إلى النفس من الشوائب والرغائب، المشتَهيات من أمور الدنيا الماديَّة، كشهوتي البطن والفرج، أو المعنويَّة كحب المال والجاه والرياء، ولا يقبل العمل عند الله جلَّ شأنه إلا أن يكون خالصًا لله تعالى، لا تدخله أي رغبة دنيويَّة، ظاهرة أو خفيَّة.

ولهذا اشترط القرآن (الإخلاص) في كلِّ مَن يعبدون الله، ولذا قال في أهل الكتاب: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البينة: ٥]. وجعل هذه الصيغة بصورة الحصر، فلا تقبل منهم عبادة خالية من الإخلاص لله تعالى.

فاعمل ما شئتَ من الأعمال التي يعُدها الناس من (الصالحات)، ولكن لا يُقبَل منها، إلا ما خلا من الرياء والسمعة، وابتغاء الصِّيت والشهرة، أو المال والمنزلة في قلوب الناس، فصلاة المنافقين مرفوضة عند الله تعالى؛ لأنه يرائي بها الناس ليحسبوه من المؤمنين، وهو ليس منهم، فهو من الذين آمنت ألسنتهم، ولم تؤمن قلوبهم. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٤٢﴾ [النساء: ١٤٢].

وكذلك الزكاة والإنفاق في سبيل الله لا يتقبَّل الله منه، ويضاعف عليه الأجر، إلا ما كان لله وفي سبيل الله خالصًا، وهو ما نوَّه به القرآن الكريم،

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الطلاق (٥٢٦٩)، ومسلم في الإيمان (١٢٧)، عن أبي هريرة.

كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢٦١]. ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾ [البقرة: ٢٦٥].

وذمَّ المنافقين الذين يقدِّمون عباداتهم من الصَّلوات والزَّكوات رِياء وسمعة وابتغاء رضا الناس، وهذا ما لا يرضاه الله ولا يقبله، ومثله كمثل النقود المغشوشة من الذهب والفضة، ولكن دخلها النحاس والرصاص وغيرها فأفسدتها، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [التوبة: ٥٤].

وكلُّ عمل من أعمال الخير الذي يتَّخذه الناس من وسائل التقرُّب إلى الله من سائر العبادات كالصوم والحج والعمرة: لا تُقبل عند الله تعالى، إلا إذا كانت مختومة بخاتم الإخلاص لله وحده، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٤].

إنَّ الإسلام لا يريد من المسلم (أيَّ عملٍ)، يقدمه إلى ربه، يبتغي به الرقي إليه، والحظوة لديه، وعلو المنزلة بين يديه، ولكن يريد الله من المؤمنين (أحسن العمل)، لا مجرَّد العمل الحسن، كما نلاحظ ذلك في تعبيرات القرآن الكريم: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]. وفي آية أخرى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]. وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ [الكهف: ٧]. فعلَّل تعالى خلق السماوات والأرض، وخلق الموت والحياة، وجعْل ما على الأرض زينة لها؛ جعل العلة من ذلك كله أن يبلوَ الناس ويختبرهم: أيهم أحسن عملًا، وأفضل عملًا. وكأن المقصود في الاختبار: إبراز (الأحسنِينَ)، وتمييزهم بعملهم الأحسن والأمثل والأكمل.

ومثل ذلك جاء في القرآن: ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر: ٥٥]. ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر: ١٨].

ونجد القرآن دائمًا ينوّه ويشير إلى الخَصلة (التي هي أحسن)؛ لينبّه الناس إليها في أعمالهم التي يتقرَّبون بها إلى الله تعالى، كما في قوله في الدعوة إلى الله: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]. ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤]. ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [المؤمنون: ٩٦].

حتى في استثمار أموال اليتامى جاء في القرآن ـ مرتين ـ الأمر ألا يقترب منها المقتربون إلا بالتي هي أحسن، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢، الإسراء: ٣٤].

وفي مقام القول يقول الله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾ [الإسراء: ٥٣].

فالذي يطلبه القرآن من المؤمنين: التي هي أحسن دائمًا، من قول أو فعل، في عبادة أو في معاملة، في التعامل مع الله، أو في التعامل مع الناس، في معاملة مع الأشياء أو مع الأشخاص.

وكيف يكون العمل أحسن وأمثل عند الله تعالى؟

سئل في ذلك أحد أئمة المسلمين من أهل العلم والزهد والفضل، وهو أبو علي الفضيل بن عياض: ما أحسن العمل؟ قال: أخلصه وأصوبه، فإنه إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا، لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل حتى يكون خالصًا، والخالص إذا كان لله، والصواب إذا كان على السُّنَّة[١].

ومعنى كونه على السُّنَّة: أن يكون مشروعًا في نظر الإسلام، ليس ممَّا ابتدعه أهل الأهواء حسب أهوائهم، فإن هذه الابتداعات ضلالة، فمَن اختار لنفسه طريقة أو شعيرة أو عبادة يتقرَّب بها إلى الله، لم يأتِ بها كتاب أو سنَّة، فهي مردودة عليه، كما تُرَدُّ العملة الزائفة. وفي هذا جاء الحديث الصحيح والمتفق عليه عن عائشة: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»[٢]. أي مردود عليه.

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٨/ ٩٥).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الصلح (٢٦٩٧)، ومسلم في الأقضية (١٧١٨)، عن عائشة.

وكذلك ورد عنه: «مَن عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد»[(1)]. وقوله ﷺ: «إنَّ خيرَ الحديث كتاب الله، وخيرَ الهدْي هدْي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة»[(2)].

فلا بدَّ لكلِّ عمل يُرجى له القَبول عند ربنا: أن يتمتع بأمرين: أن يكون مشروعًا لا مبتدعًا. وأن يكون خالصًا لوجه الله تعالى. وكلُّ مَن يقرأ القرآن ويتدبره، فإنه تتضح له هذه الفكرة، فالله تعالى لا يقبل أي عمل، لكنْ عملَ المتقين، كما قال تعالى على لسان خير ابني آدم: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة: ٢٧].

والمتقون هم أهل الإخلاص، الذين قد يزدريهم الناس ويسخرون منهم، ولكنهم في مقام أمين عند ربهم، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [التوبة: ٧٩].

أما المنافقون فهم مرفوضون عند الله، لا يُقبلون إلا إذا أخلصوا توبتهم لله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾ [النساء: ١٤٥ ـ ١٤٦].

إعلاء القيمة الأخلاقيَّة للباعث على العمل والنية فيه:

لقد أعطى الإسلام القيمة الأخلاقيَّة الكبرى للباعث على العمل والنية فيه، لا لصورته وشكله، ومن هنا قال القرآن في الهدايا التي تُذبح في الحج: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

وقال رسول الله ﷺ فيما رواه عمر: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»[(3)]. وقال فيما رواه أبو هريرة: «مَن لم يَدَع قول الزور والعمل

---

(١) رواه مسلم في الأقضية (١٧١٨)، وأحمد (٢٥٤٧٢)، كلاهما عن عائشة، والبخاري (٩/١٠٧) معلقًا باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم...

(٢) رواه مسلم في الجمعة (٨٦٧)، عن جابر بن عبد الله.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (١)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٧)، عن عمر بن الخطاب.

به، فليس لله حاجة في أن يَدَع طعامه وشرابه»[(١)]. وقال فيما رواه أبو هريرة أيضًا: «من مات ولم يغزُ ولم يحدِّث نفسه بالغزو مات على شعبة من نفاق»[(٢)]. على معنى: أن الجهاد لم يكن يخطر على باله في بعض الأحيان، فهو يعيش مستَغرقًا في دنياه وغفلاته، بعيدًا عما تحتاجه الأمَّة.

حتى إنَّ المرء ليُثابُ في الإسلام على نيَّة عمل رَغِبَ فيه، وعزَمَ عليه، وإن حالت ظروفه الواقعيَّة بينه وبين إتمامه، أو الإتيان به، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

وفي باب الجهاد في سبيل الله نجد الحديث الصحيح المتفق عليه الذي رواه سهل بن حنيف: «مَن سأل الله الشهادة ـ أي: القتل في سبيل الله ـ بصدق، بلَّغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه»[(٣)].

وفي مقابلة هذا نجد العمل الحسن في صورته يردُّه الله على صاحبه، لِما شابه من فساد القصد، وسوء الباعث، كما في حديث: «أول الناس يقضى فيه يوم القيامة ثلاثة: رجل استشهد في سبيل الله، فأُتِيَ به، فعرَّفه نعمه فعرفها، فقال: ما عملتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتى استشهدتُ. فقال: كذبتَ، ولكنك قاتلتَ ليقال: هو جريء. وقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى أُلقي في النار.

ورجل تعلَّم العلم، وعلَّمه، وقرأ القرآن، فأُتِيَ به، فعرَّفه نعمه، فعرفها، فقال: فما عمِلْتَ فيها؟ قال: تعلَّمتُ فيك العلم، وعلَّمته، وقرأتُ القرآن فيك. قال: كذبتَ، ولكنك تعلمتَ العلم ليقال: هو عالم. وقد قيل، وقرأتَ القرآن ليقال: هو قارئ. وقد قيل. ثم أُمر به فسُحِب على وجهه حتى أُلقي في النار.

ورجل أوسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأُتِي به، فعرَّفه نعمه، فعرفها، قال: ما عملتَ فيها؟ قال: ما تركتُ من سبيل تحب أن يُنفَق

---

(١) رواه البخاري في الصوم (١٩٠٣)، وأحمد (٩٨٣٩)، وأبو داود (٢٣٦٢)، والترمذي (٧٠٧)، وابن ماجه (١٦٨٩)، ثلاثتهم في الصوم، عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم في الإمارة (١٩١٠)، وأحمد (٨٨٦٥)، وأبو داود (٢٥٠٢)، والنسائي (٣٠٩٧) كلاهما في الجهاد، عن أبي هريرة.

(٣) رواه مسلم في الإمارة (١٩٠٩)، وأبو داود في الصلاة (١٥٢٠)، والنسائي في الجهاد (٣١٦٢)، عن سهل بن حنيف.

فيها إلا أنفقتُ فيها. قال: كذبتَ، ولكن فعلت ليقال: هو جواد. فقد قيل، ثم أُمِر به، فسُحِبَ على وجهه حتى أُلقي في النار»[1].

ولهذا لما سُئل النبي ﷺ عن الرجل يُقاتل للمغنم، والرجل يُقاتل حَمِيَّة، والرجل يقاتل ليُرَى مكانه: أيهم في سبيل الله؟ فكان جوابه الجامع: «مَن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله»[2].

وبيَّن لنا الرسول المعلِّم في أحاديثه المستفيضة عن أهمية النيَّة وضرورتها لكي يصبح العمل عملًا إسلاميًّا مقبولًا عند الله تبارك وتعالى، ورفض كل عمل شكلي يحمل الصورة الإسلاميَّة المزخرفة، ولكن ليس في داخله الروح الإسلاميَّة، فهو أشبه بالتماثيل التي ليس فيها أي نوع من الحياة.

عن أبي أُمامة قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: أرأيتَ رجلًا غَزَا يلتمس الأجر والذِّكْر، ما له؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا شيء له». فأعادها ثلاث مرات، ويقول رسول الله ﷺ: «لا شيء له». ثم قال: «إن الله ﷻ لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا، وابتُغِيَ به وجهه»[3].

وهذا ما اهتمَّت به الأمَّة، وتوجَّه إليه علماؤها ومُرَبُّوها. يقول ابن عطاء الله في حِكَمه: إنَّ الله لا يحبُّ العمل المشترك، ولا القلب المشترك، العمل المشترك لا يَقبله، والقلب المشترك لا يُقبل عليه[4].

وفي القرآن: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنيَّة - وفي رواية: بالنيَّات - وإنما لكلِّ امرئ ما نوى، فمَن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومَن كانت هجرته إلى دنيا

---

(١) رواه مسلم في الإمارة (١٩٠٥)، وأحمد (٨٢٧٧)، والنسائي في الجهاد (٣١٣٧)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه الجماعة: البخاري في العلم (١٢٣)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٤)، وأبو داود (٢٥١٧)، والترمذي (١٦٤٦)، والنسائي (٣١٣٦)، وابن ماجه (٢٧٨٣)، أربعتهم في الجهاد، عن أبي موسى الأشعري.

(٣) رواه النسائي في الجهاد (٣١٤٠)، وجوَّد إسناده ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ٨١)، وحسَّن إسناده الألباني في الصحيحة (٥٢)، عن أبي أمامة الباهلي.

(٤) الحكمة (٢٠٣) من الحكم العطائية.

يصيبها، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[1].

والحديث من أصول السنة، بل من أصول الإسلام، حتى قال بعض السلف: هو ربع الإسلام. وقال آخر: بل ثُلُث الإسلام. وقال الشافعي: يدخل في سبعين بابًا من العلم.

ولا ريب أن النيَّة شرط لقبول العبادات، كما أنها تحوِّل العادات والمباحات إلى طاعات وقربات. كما دلَّت على ذلك أحاديث كثيرة. ولكن المعاصي والمحرمات لا تؤثر فيها النيَّة، فمَن أكل الربا أو الرِّشَا أو المَيْسر، ثم أراد أن يتصدَّق منه، رُدَّ عليه، ولا أثر لنيَّته، فإن الله طيِّب لا يقبل إلا طيِّبًا.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «يغزو جيشٌ الكعبةَ، فإذا كانوا ببيداء من الأرض، يُخسَف بأولهم وآخرهم». قالت: قلتُ: يا رسول الله، كيف يُخسَف بأولهم وآخرهم، وفيهم أسواقهم - يعني: أهل أسواقهم، أو السوقة: من الضعفاء والمغمورين - ومن ليس منهم؟ قال: «يُخسَف بأولهم وآخرهم، ثم يبعثون على نياتهم»[2].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما يُبعَث الناس على نيَّاتهم»[3]. وفي حديث جابر إلا أنه قال: «يحشر الناس»[4].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: رجعنا من غزوة تبوك مع النبي ﷺ فقال: «إنَّ أقوامًا خَلْفَنا بالمدينة ما سلكنا شِعْبا ولا واديًا إلا وهم معنا، حَبَسَهم العذر[5]»[6]. ولفظ أبي داود: أن النبي ﷺ قال: «لقد تركتم بالمدينة أقوامًا ما سِرْتم مسيرًا، ولا أنفقتم من نفقة، ولا قطعتم من وادٍ، إلا وهم معكم».

---

(١) رواه الجماعة: البخاري في بدء الوحي (١)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٧)، كما رواه أحمد (١٦٨)، وأبو داود في الطلاق (٢٢٠١)، والترمذي في الجهاد (١٦٤٧)، والنسائي في الطهارة (٧٥)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٢٧)، عن عمر.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في البيوع (٢١١٨)، ومسلم في الفتن (٢٨٨٤).

(٣) رواه أحمد (٩٠٩٠)، وقال مخرِّجوه: صحيح لغيره، وابن ماجه في الزهد (٤٢٢٩).

(٤) رواه ابن ماجه في الزهد (٤٢٣٠)، وصحَّحه الألباني في صحيح أبي داود (٣٤٠٨).

(٥) من هؤلاء: الذين لم يكن لديهم ركائب تنقلهم إلى تبوك، ولا أموال يشترون بها ركائب، وهم الذين ذكرهم القرآن بقوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ۝٩٢﴾ [التوبة: ٩٢].

(٦) رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٣٩)، وأحمد (١٢٠٠٩).

قالوا: يا رسول الله، وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ قال: «حبسهم المرض»[1].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله لا ينظر إلى أجسامكم، ولا إلى صُوَرِكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم»[2][3].

وعن أبي كَبْشَة الأنماريّ رضي الله عنه، أنه سمع النبي ﷺ يقول: «ثلاث أُقسِم عليهن، وأحدثكم حديثًا فاحفظوه». قال: «ما نقص مال عبد من صدقة، ولا ظُلِم عبد مَظلَمة صبر عليها، إلا زاده الله عِزًّا، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر». أو كلمة نحوها[4].

عن معن بن يزيد رضي الله عنهما قال: كان أبي يزيد أخرج دنانير يتصدَّق بها، فوضعها عند رجل في المسجد، فجئتُ فأخذتُها، فأتيتُه بها، فقال: والله ما إياك أردتُ. فخاصمتُه إلى رسول الله ﷺ، فقال: «لك ما نويتَ يا يزيد، ولك ما أخذتَ يا معن»[5].

وعن أبي الدرداء يبلغ به النبي ﷺ، قال: «مَن أتى فراشَه وهو ينوي أن يقوم يصلي من الليل، فغلبَتْه عيناه حتى أصبح: كُتِب له ما نوى، وكان نومُه صدقةً عليه من ربه»[6].

وبيَّن لنا الرسول المعلِّم: أن النيَّة الصالحة تصوِّب للإنسان ما قد يخطئ فيه فعلُه، فيضع الشيءَ في غير موضعه، أو في الموضع الخطأ، ولكن بركة النيَّة الصالحة لا تفارقه، فتنقل العمل من موضعه الخطأ، إلى الأثر الصالح، كما في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قال رجل: لأتصدقنَّ الليلة بصدقة. فخرج بصدقته، فوضعها في يد سارق، فأصبحوا

---

(١) أبو داود في الجهاد (٢٥٠٨).

(٢) لهذا كانت أعمال القلوب هي الأساس في الدين أمرًا ونهيًا. فأفضل العبادات عبادات القلوب، وأخطر المعاصي معاصي القلوب، وهي المهلكات.

(٣) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٤)، عن أبي هريرة.

(٤) رواه أحمد (١٨٠٣١)، وقال مخرِّجوه: حديث حسن، والترمذي في الزهد (٢٣٢٥)، وقال: حسن صحيح.

(٥) رواه البخاري في الزكاة (١٤٢٢)، وأحمد (١٥٨٦٠).

(٦) رواه النسائي في قيام الليل (١٧٨٧)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٤٤)، وابن خزيمة في الصلاة (١١٧٢)، وابن حبان في قيام الليل (٢٥٨٨)، وقال الأرناؤوط: إسناده جيد، وصحَّحه الألباني في الإرواء (٤٥٤)، من حديث أبي ذر أو أبي الدرداء على الشك.

يتحدثون: تُصُدِّق الليلة على سارق. فقال: اللهم لك الحمد، على سارق! لأتصدقنَّ بصدقة. فخرج بصدقته، فوضعها في يد زانية، فأصبحوا يتحدثون: تُصُدِّق الليلة على زانية. فقال: اللهم لك الحمد، على زانية! لأتصدقنَّ بصدقة. فخرج بصدقته، فوضعها في يد غنيٍّ، فأصبحوا يتحدثون: تُصُدِّق الليلة على غنيٍّ. فقال: اللهم لك الحمد، على سارق وزانية وغني! فأُتِي، فقيل له: أما صَدَقَتُك على سارق، فلعله أن يستعفَّ عن سرقته، وأما الزانية، فلعلها أن تستعفَّ عن زناها، وأما الغني، فلعله أن يعتبر فينفق مما أعطاه الله»[1].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٢١)، ومسلم (١٠٢٢)، كما رواه النسائي (٢٥٢٣)، ثلاثتهم في الزكاة.

الفصل الخامس

العمل وبذل الجهد

إرشاد الإسلام إلى ضرورة العمل وبذل الجهد في تحسينه:

أرشد الإسلام في نظرته الأخلاقيَّة العميقة إلى أمور مهمة في الأخلاق الإسلامية التي يريدها من أتباعه المؤمنين به، المخلصين لربهم، الذين يبتغون وجهه في كلٍّ ما يقومون به.

وقد تحدثنا عن ضرورة النيَّة والدوافع السليمة من النفس للعمل الأخلاقي، وبيَّنا ما لهذه النية من قيمة وثيقة في نظر الإسلام.

ولكنْ لا بدَّ لهذه النية الصادقة، وهذه الدوافع النفسيَّة الخيِّرة من الجدار الذي تستند إليه، وتقيم ركائزها عليه، وهو: العمل والجهد الإنساني، الذي يبذله المرء المؤمن في الأخلاق.

فالعمل مبدأ أساسي، وهو أمر لا بدَّ منه، ولا شك في وجوده. ولذلك كان حديث الرسول الذي له دلالة معنا: «إنما الأعمال بالنيات»[1]. ممَّا يدل على أن النيَّة لا بدَّ وراءها من عمل، يتمثل في جهد حقيقيٍّ يبذله الإنسان من نفسه، بعلمه وبقدرته وإرادته، فالعمل يتكامل مع النية، كما أن النية تتكامل مع العمل.

ولهذا يذكر لنا القرآن في عشرات المواضع الإيمان مقرونًا بعمل الصالحات، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾ [الكهف: ١٠٧].

ومن هنا نرى أن النيَّة الحسنة مطلوبة ولا شك، ولكن لا بدَّ لها من عمل تصحبه أو يصحبها.

---

(١) سبق تخريجه، ص٢٩٨.

ولتمام أيِّ عمل أخلاقي كما يحبُّه الإسلام، وكما يحبه رجال الأخلاق، لا بدَّ له من عمل إرادي، ومن جهد يبذله صاحبه مختارًا: جهد بدنيٍّ، وجهد عقليٍّ، وجهد نفسيٍّ، ليدخل في دائرة الأخيار، الذين يحبُّهم الناس ويثنون عليهم، أو الصالحين الذين يحبهم الله تعالى، ويثني عليهم الدين وأهله.

العمل المطلوب عمل البالغ العاقل المختار:

العمل الاختياري هو جزء أساسي لكي تتم العملية الأخلاقيَّة، فمَن لا يقدر على العمل الاختياريِّ المطلوب، لنقصه العقلي؛ لجنون ونحوه، أو لصغر السنِّ، لا يدخل معترك الأخلاق. ولهذا اشتهر عند المسلمين: أنه لا بدَّ من البلوغ والرُّشد معًا، ليتحقق الدخول في امتحان الأخلاق.

ومن هنا نجد أنَّ القرآن العظيم، والأحاديث الصِّحاح للرسول الكريم، توجب العمل بجوار الإيمان، لكي يصبح الإنسان من المقبولين عند الله. يقول تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [التوبة: ١٠٥].

فعل المأثور وترك المحظور:

والعمل الذي يُطلب من المؤمنين بالإسلام، ينقسم إلى قسمين: فعل الحسن، وترك القبيح. أو فعل المأمور، وترك المحظور. ولهذا أمر الله الناس جميعًا بالتقوى، وهي تشمل الأمرين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]. والتقوى أصلها اتقاء ما يكره الله ويسخطه على من اقترفه. وتشتمل أيضًا على عمل ما يحبُّه الله، ويرضى عن أهله، كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران: ١٣٣ ـ ١٣٥].

لا يكلِّف الله نفسًا إلا وسعها:

وهذا العمل مقدور لكلِّ مكلَّف، ومطلوب منه حسَب وُسعه، كما

قال ﷻ: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٣٣]. ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: ٧].

وما كان فوق الوُسْع لا يكلِّف اللهُ به مسلمًا، وهذا واضح في دين الإسلام، ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

ربما ظهر في بعض الديانات الأخرى غير ذلك في بعض الفترات عقابًا من الله لهم على ظلمهم، أو نتيجة ما أصابها من التَّحريف اللفظي والمعنوي، الكلي والجزئي، فوجدنا نصوص تكاليفها الشرعية تشدِّد على العباد، أمرًا أو نهيًا، إيجابًا أو سلبًا. وهذا ما جعل الإسلام يقرر اليسر والوسطيَّة بصراحة في هذا الأمر بوضوح وشدة، يقول الله تعالى في خواتيم سورة البقرة: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. وقال تعالى: ﴿أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾ [الرحمن: ٨ ـ ٩]. ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦]. ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ﴾ [الحج: ٧٨].

فالمطلوب من كلِّ مؤمن من بداية طريقه: اجتناب الشرور والسيئات، وعمل الخيرات والحسنات.

عمل الصَّالحات:

والله لا يطلب أي عمل، ولكن ما يسميه القرآن (عمل الصالحات). والصالحات: تعبير قرآني، يجمع كل ما يحتاج إليه الفرد، وتحتاج إليه الأسرة، ويحتاج إليه المجتمع والأمَّة من الصلاح اللازم لروحه ومادته، في نفسه، وفيما لا يستغني عنه. من هنا نجد قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ١ ـ ٣]. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾ [الكهف: ٣٠]. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾ [الكهف: ١٠٧]. إلى آيات كثيرة تكرَّرت في القرآن.

العمل المطلوب ما كان صوابًا وخالصًا:

ولكي يكون العمل من الصالحات المقبولة عند الله، لا بدَّ أن تتوافر فيه النية الصالحة، فلا يكون وراءه شرٌّ يخفيه. ولا بدَّ أن يكون هذا العمل مشروعًا، لا يكون مرفوضًا في نظر الشرع. فالذين يتقربون إلى الله بما لم يشرعه، لا يقبل عملهم، كما سبق الإشارة إلى قول الفضيل بن عياض في تفسير أحسن العمل: إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا صوابًا، وخلوصه أن يكون لله، وصوابه أن يكون على السنة[1]. أي: على الطريق المرضيِّ والمشروع من الله، فلا تُقبل عبادة مبتدَعة، لم يجئ بها كتاب ولا سنة.

لا بدَّ أن يكون العمل مشروعًا:

والعمل لا بدَّ أن يكون مشروعًا، فالله لا يقبل العمل المحرَّم المرفوض، فيتحول إلى عمل صالح، فمن عمل أعمالًا صالحة ـ ربما رآها الناس قيمة أو جليلة ـ ولكنها أعمال جاءت من طريق حرام شابه الرجس والتصرف الخاطئ.

فليس عمله مقبولًا عند الله من يكسب المال الحرام من عرق العمال، أو من مال الشعب، أو من مساعدة اللصوص الكبار، ثم يزعم أنه يمحو ذلك بالصدقة. هو واهم، فقد روى الشيخان عن النبي ﷺ: «من تصدَّق بعدْل تمرةٍ من كسب طيِّب، ولا يقبل الله إلا الطيب، فإن الله يقبلها بيمينه، ثم يُرَبِّيها لصاحبها كما يُرَبِّي أحدُكم فُلُوَّه، حتى تكون مثل الجبل»[2]. وفي صحيح مسلم الحديث المشهور: «إن الله طيب لا يقبل إلا طيِّبًا»[3].

ولهذا يُقصد بالعمل هنا: العمل المباح، وليس العمل المحرم، العمل الطيب، وليس العمل الخبيث.

المطلوب العمل بحسَب الاستطاعة:

وبعد ذلك يظل الفرد عُرضة لفتنة المجتمع رجاله ونسائه، ومن هناك كان

---

(١) سبق تخريجه، ص٤٠٢.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٤١٠)، ومسلم (١٠١٤)، كلاهما في الزكاة، وأحمد (٨٣٨١)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه مسلم في الزكاة (١٠١٥)، وأحمد (٨٣٤٧)، عن أبي هريرة.

لا بدَّ من الاستعداد للمقاومة والجهاد، والمعصوم مَنْ عصمه الله، ومَن سار على الدرب وصل، ومَن جدَّ وَجَدَ، ومَن زرع حصد، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

وليست هذه ناسخة لقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢]. فليس بينهما مناقضة؛ فالمؤمن مطالَبٌ أن يتقيَ الله حقَّ تقاته في كلِّ حين، وفي كلِّ مكان، وعلى كلِّ حال، ولكن حسَب استطاعته؛ إذ لا يُكَلَّف الإنسان إلا بما يستطيع، كما قال الشاعر:

إذا لم تستطعْ شيئًا فدعْه وجاوزْه إلى ما تستطيعُ[1]

وكما قال تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾، قال سبحانه: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج: ٧٨]. ولكن الجهاد المنشود ـ وإن كان حق الجهاد ـ لا يكون إلا وفق الاستطاعة، كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]. وهكذا تستمر حياة المؤمن كلها: تقوى وجهادًا وإعدادًا، وكذلك دعوة وإصلاحًا، كما قرَّر القرآن ذلك على لسان سيدنا شعيب الذي قال: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود: ٨٨].

العمل الذي يزيِّنه الإحسان:

والإسلام يطلب العمل الجيد أو المتقن، أي: الذي بذل صاحبه فيه جُهدًا خاصًّا حتى أصبح متقنًا؛ لأننا نعلم أن رسول الإسلام علَّم المسلمين أن الله لا يقبل إلا العمل الذي تعب فيه صاحبه حتى أحسنه، ولهذا أعلن عليه الصلاة والسلام هذا الحديث الرائع: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبحة»[2]. هذا ما رواه الإمام مسلم في صحيحه، وهو من أحاديث الأربعين النووية الشهيرة التي يحفظها كثير من المسلمين ويتداولونها.

وهذا الاتجاه في إحسان العمل نوع من الاقتداء بالخالق ﷻ، فإنه يحسن كل شيء عمله، كما قال القرآن: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة: ٧]. وقال: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

---

(١) من شعر عمرو بن معد يكرب.

(٢) سبق تخريجه، ص٢٦١.

والحديث الذي رواه مسلم يقتضي بظاهره أن الإحسان ـ بمعنى الإتقان والإحكام ـ فريضة على المسلمين، وإن المسلم لا ينبغي له أن يهمل في عمله، ويتهاون فيه، بحيث يصبح عمل المسلم إذا قُوْرِن بعمل الأوروبي أو الأمريكي أو الياباني أو الصيني، يُتعجَّب من رداءته، ولا يمكن لأمة الإسلام أن تصبح أمة صناعية كبرى في الأمم ما لم تتقن هذا الحديث وأمثاله من الموجِّهات الدينية والأخلاقيَّة.

بل العمل الأحسن:

بل يرغب الإسلام المسلم في أن يكون عمله الأحسن، بمعنى أن لا يكتفي بإحسان العمل فقط، بل يريد أن يكون عمله هو الأحسن. وهو ما نبهْنا عليه دائمًا إخوانَنا وأبناءنا من أبناء المسلمين، الذي يحبون أن يخدموا أمتهم الإسلامية، وأن يرتفعوا بها، ولن يرتفعوا بها بمجرد الشعارات والهتافات وكثرة الكلام، ولكن لا بدَّ من حسن تربية الأمَّة وتوجيه شبابها وشاباتها وأهلها جميعًا أن يتخلقوا بأخلاق الإسلام.

ومن خُلق الإسلام: أنه يريد للمسلمين: أن يصعدوا القمة، ولا يبقوا في قعر الوادي. فالله تعالى محسن يحب الإحسان، ويأمر بالإحسان، ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة: ١٩٥]. ورسوله يحب الإحسان: «إن الله يحب إذا عمل العبد عملًا أن يتقنه»[1]. بل يعلمنا القرآن: أن نرتقي من الحسن إلى الأحسن في كلِّ الأمور الدينية والدنيوية، كما قال تعالى: ﴿وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]. ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤]. ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢، الإسراء: ٣٤]. ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر: ٥٥]. ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٧ ـ ١٨]. ويقول الرسول المعلم: «إذا سألتم الله، فاسألوه الفردوس، فهو أوسط الجنة، وهو أعلى الجنة»[2]. وهكذا يعلم رسول الإسلام المسلم أن يسأل الله الجنة الأعلى.

---

(١) رواه أبو يعلى (٤٣٨٦)، والطبراني في الأوسط (٨٩٧)، والبيهقي في الشعب باب الأمانات (٥٣١٢)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (١٨٨٠)، عن عائشة.

(٢) رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٩٠)، وأحمد (٨٤١٩)، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٣٠)، عن أبي هريرة.

التطلُّع إلى الأحسن (الأفق الأعلى):

والإسلام يطالب المسلم بألا يرضي بالدنِيَّة، ولا يقبل الدرجة التي هي أدنى وأسفل، بل يتطلَّع أبدًا إلى الأفق الأعلى، يسأل الله أن يُسدِّد خطاه إليه، ويزيح العقبات من طريقه، ويمنحه القوَّة على حمله، والصبر على طول طريقه، فلا مجال هنا، إلا لأهل الصبر على طول الطريق، وتحمُّل المكاره، ومكابدة الآلام، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران: ١٨٦]. وقال تعالى على لسان نبيه يوسف: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف: ٩٠].

عبادة الله تعالى تحتاج إلى صبر مستمرٍّ، كما قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم: ٦٥].

ومعاملة الناس، ودعوتهم إلى الحقِّ والخير، تحتاج إلى صبر، كما قال تعالى لرسوله: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾﴾ [المعارج: ٥]. والصبر على أذاهم القولي والفعلي، في نفسك وأهلك، وكلِّ مَن تحبُّ: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾﴾ [المزمل: ١٠]. ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وهذا الصبر مطلوب أساسًا من المسلم ليكون عمله مزيَّنًا بالإحسان، فليس إحسان العمل نافلة، بل هو فريضة مكتوبة. ومعنى مكتوبة: أنها موثقة ومثبتة. وقد ذكرنا حديث النبي ﷺ: «إنَّ الله كتب الإحسان على كلِّ شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبح»(1). وبهذا الحديث أعلن الرسول المعلِّم: أن الله فرض الإحسان على كلِّ عمل يقوم به الإنسان بحريته وإرادته، فليس المطلوب منه أن يؤدِّي الأعمال الناقصة، أو الرديئة أو التي ينظر الناس إليها ويتمنَّون أن لو كانت كذا وكذا. وبهذا يظلُّ عمل المسلم قاصرًا عن القيمة المطلوبة، لا يستطيع أن ينافس غيره في السوق.

أنت تطلب المثل الأعلى، في مجتمع أعمى لا يرى، أصم لا يسمع، ولكن الله يحبُّ أن يتعلَّق قلبك بما هو أعلى وأحسن دائمًا، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

(1) رواه مسلم في الصيد والذبائح (١٩٥٥)، وأحمد (١٧١١٣)، وأبو داود في الضحايا (٢٨١٥)، عن شداد بن أوس، وهو من أحاديث الأربعين النووية.

وهذا هو السر في طلب القرآن من المؤمنين أن يكون ارتباطهم وتطلبهم إلى التي هي أحسن، فهم مأمورون أن يجادلوا في دعوتهم ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]. وأن يدفعوا عن أنفسهم ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤]. وأن لا يقربوا مال اليتيم ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢، الإسراء: ٣٤].

كما أمر الرسول أبناء أمته إذا سألوا الله أن يدخلهم الجنة: ألا يدعوا إلا بالفردوس، فإنها أعلى الجنان، ومنها تتفجر أنهار الجنة[1]. وهذا هو التعليم النبوي للمؤمنين، وهو يتّفق مع التعليم القرآني.

الإسلام يتدرَّج بالمسلم في التزكِّي:

ورغم أن الإسلام يعلِّم المسلم التطلع إلى الأحسن والأعلى دائمًا، يدرك أن هذا الأفق العالي لا يسهُل الرُّقِيُّ إليه إلا للقليلين، وبعد مدة من الزمن تحتاج إلى رياضة وتزكية وترقٍّ، فهو لهذا لا يوئِس المسلم من الوصول إلى الأحسن المرجوّ، ويقبل منه الحَسَن، بل يقبل ما دون الحَسَن، بل يتجوَّز عن السيئة إذا ما تداركها بالحسنة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود: ١١٤]. وكما جاء في الحديث النبوي: «وأتبع السيِّئةَ الحسنةَ تمحها»[2].

فمَن أغواه الشيطان يومًا، وساقه إلى معصية، فلا يجوز له أن ييْئس من رحمة الله، ولو كانت هذه المعصية كبيرة، فإنَّ عفو الله تعالى أكبر منها، وهو تعالى يقول لعباده: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣﴾ [الزمر: ٥٣].

وقد هيَّأ الله الملائكة في سماواته، تستغفر للمؤمنين على ما اقترفوه من سيئات: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن

---

(١) إشارة إلى ما رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٩٠)، وأحمد (٨٤١٩)، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٣٠)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد (٢١٩٨٨)، وقال مخرّجوه: حسن، والترمذي في البر والصلة (١٩٨٧) وقال: حسن صحيح، والحاكم في الإيمان (١/ ٥٤) وصحّحه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع (٩٧)، عن معاذ بن جبل.

تِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٩﴾ [غافر: ٧ ـ ٩].

هيَّأ الله ملائكته المسبِّحين بحمده، ليستغفروا لعباده من بني آدم المؤمنين به، فأي شرف أعظم من هذا الشرف؟ وأي فضل يداني هذا الفضل؟!

المهم أنه يطلب من المسلم ألا يستكبر أو يستكثر ذنبًا فعله، ما دام قد ندم عليه، واستغفر الله منه، كما لا ينبغي له أن يستصغر عملًا صدر منه، وإن بدا له أنه عمل خفيف الوزن، ضئيل الحمل، قليل القيمة، فإن الله تعالى يقبل من الأعمال ما كان مثقال ذرة، وهي الهباءة التي تظهر في ضوء الشمس، قال تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨].

ولذلك كانت عائشة والصحابة يتصدقون بالتمرة أو بشِقِّ التمرة، ويقولون: كم فيها من مثقال ذرة[1]! ويعلمون أنَّ الله لا يضيع عنده عمل عامل من ذكر أو أنثى، بعضهم من بعض.

ولذلك شدَّد القرآن نكيره على الذين يعيبون مَن يجودون بالصدقات القليلة، من المؤمنين الذين قلَّت مواردهم، قال تعالى في وصف هؤلاء المنافقين: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٩﴾ [التوبة: ٧٩].

لا تستقل عملًا خيِّرًا تقدمه لله، ولو كان أقل من القليل، فما كان قليلًا فإن الله يكثِّره، وما كان صغيرًا فإن الله يكبِّره.

الإخلاص يكثِّر العمل القليل:

والذي يؤكده الإسلام بآياته وأحاديثه: أنَّ العمل ـ وإن كان قليلًا أو صغيرًا أو حقيرًا ـ فإن الله تعالى يكثِّر قليله، ويُكبِّر صغيره، ويعظِّم حقيره. وعلى المسلم أن يقوم بكلِّ ما يقدر عليه من العمل الذي يحتاج إليه الناس، مما يمسح دمعة اليتيم، أو يُشبع جوعة المسكين، أو يستر عورة العريان، أو يروي كبد الظمآن، ولو كان بهيمة أو كلبًا، أو يسد ثغرة ولو يسيرة من خلل المجتمع.

---

(١) ذكره مالك في الموطأ (٢/ ٩٩٧) بلاغًا، عن عائشة.

فالإسلام يهتم بالكَيْف أكثر من اهتمامه بالكمِّ، ويهتم بالروح قبل اهتمامه بالمادة، ويهتم بالجوهر قبل اهتمامه بالشكل، ولذلك يفاضل بين الصدقات بعضها وبعض، بأمور غير الكثرة، ولكن بجوانب أخرى لها منزلة وقيمة عند الله. يقول عليه الصلاة والسلام: «أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح»[1]. فلأنه ذو رحم، والصدقة على المحتاج من ذوي الأرحام أفضل من الصدقة على غيره، ثم هو كاشح أي معادٍ، فهو لا يعطيه ليقابل مودة بمودة، بل يعطيه لله وحده.

وفي الحديث المتفق عليه: «أفضل الصدقة: أن تَصدَّقَ وأنت صحيحٌ شحيحٌ، تأمل الغنى، وتخشى الفقر»[2]. وهذه غير صدقة الشيخ الهَرِم، أو الشاب الذي هزمه المرض، بل هو صحيح الجسم، شحيح النفس، أمله في الغنى، وخشيته من الفقر.

وكذلك يقول الحديث الآخر: «أفضل الصدقة جهد المُقِلِّ، وابدأ بمن تعول»[3]. فهذه الصدقة من المُقِلِّ في ماله، الذي ليس عنده الوفرة والكثرة، بل محدود الدخل، كثير العيال، يجود بما ينفقه. وبهذا فُضِّل على غيره.

وفي هذا جاء الحديث الذي ذكرناه قبلُ: «سبق درهم مائة ألف درهم: رجل له درهمان، فأخذ أحدهما فتصدَّق به، وآخر له مال كثير فأخذ من عُرْض ماله مائة ألف فتصدق بها»[4]. فانظر كيف جعل الرسول المعلِّم التصدُّق بدرهم واحد من رجل أفضل من الصدقة بعشرة آلاف درهم من رجل آخر؛ لماذا؟ لأن الأول لم يكن عنده غير درهمين، فلما تصدَّق بأحدهما، يكون قد تصدَّق بنصف ثروته، مع أنه غالبًا في حاجة إليها.

على حين تصدَّق الآخر بمائة ألف درهم، ولكنه أخذها من عرض مال كثير، كما نرى الملياردير يكتب الشيك بمثل هذا المبلغ أو بأضعافه، وكأنه لم يدفع شيئًا، فهو قليل جدًّا من كثير جدًّا.

---

(١) رواه أحمد (٢٣٥٣٠) وقال مخرِّجوه: صحيح، والطبراني في الكبير (١٣٨/٤)، والأوسط (٣٢٧٩)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (١١١٠)، عن أبي أيوب الأنصاري.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الوصايا (٢٧٤٨)، ومسلم في الزكاة (١٠٣٢)، عن أبي هريرة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في النفقات (٥٣٥٦)، ومسلم في الزكاة (١٠٤٢)، عن أبي هريرة.

(٤) سبق تخريجه، ص٣١٧.

قُطَّاع الطريق على العمل الأخلاقي:

والعمل الأخلاقي لا يمر بسهولة، كما يظن بعض القاصرين، فهناك قُطَّاع طريق يقاومونه من الداخل ومن الخارج، وكلهم أقوياء، ولا بدَّ للإنسان المؤمن أن يستعين بالله عليهم، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥].

١ ـ النفس الأمَّارة بالسوء:

وأول هؤلاء القُطَّاع، هو: النفس الإنسانيَّة، التي بين جنْبي الإنسان، والتي سمَّاها القرآن: (أمَّارة بالسوء)، فليست حاكمة بالسوء، ولا مُلجِئة إليه، لكنها تأمر وتوسوس وتغري، وعلى الإنسان إذا كان مؤمنًا أن يرفض أمرها، ولا يقبل إغراءها، وبهذا ترتد كليلةً حسيرة، كما قال تعالى على لسان امرأة العزيز: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ [يوسف: ٥٣]. وهذه النفس هي التي طوَّعت لابن آدم الأول قتل أخيه فقتله، كما قال تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٣٠﴾ [المائدة: ٣٠]. ولم يكن هناك مجتمع ولا أحد يغريه بهذا الشر العملي الأول في الأرض، إلا نفسه.

والإنسان لديه هذه النفس الشريرة التي دفعته إلى قتل أخيه، ولديه بجوارها نفس أو جزء من نفس أخرى، تأبى على الإنسان ما فعله، وتبرز له ما عمله من شرٍّ، يتجلَّى ذلك في قوله، حين رأى الغراب يدفن أخاه: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِىۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١].

والنفس الإنسانيَّة في أصلها أمَّارة بالسوء، ولكنها مطويَّة على الخير والشرِّ معًا، هكذا سوَّاها الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشمس: ٧ ـ ٨]. ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان: ٣]. ففي سورة قدَّم الفجورَ على التقوى، وفي أخرى قدَّم الشُّكران على الكفران، ولذا قال: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد: ١٠]، أي: دلَّه الله على طريقي الخير والشر.

وهذا ممَّا ابتُلي به الإنسان: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾ [البلد: ٤]. أي: يكابد المشقَّات.

ثم بالمجاهدة للنفس، والمقاومة لنوازعها الشهوانية، وبفطمها عن أهوائها، ترتدع عن الشهوات والمقابح، لتنتقل إلى (**النفس اللوَّامة**) التي

أقسم الله بها حين قال: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ [القيامة: ١ ـ ٢]. ونفي القسم ـ كما بينا ـ يعني: أن الأمر لا يحتاج إلى قسم، فهو بيِّنٌ واضح ومؤكَّد.

ثم تنتقل النفس اللوامَّة إلى **(النفس المطمئنة)** كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٢٨].

وهي كلها نفس واحدة، تترقى وتتزكى بالرياضة والمجاهدة، حتى تنتقل من حال إلى أخرى، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٩].

فهذا النوع من الجهاد الصامت الذي لا يعمل فيه سلاح، ولا يُطلِق فرقعات، ولا يقتل أنفُسًا، ولا يحدث صدمات: هو الذي يعمل فيه مربُّو الأنفس، ويبنون منارات الجهاد التربوي.

وكما في إمكان النفس أن تترقَّى، في إمكانها أيضًا أن تتدنى وتتنزل من درجة إلى ما هو أدنى منها وأسفل، حتى تصل إلى ما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ۝١٤٥﴾ [النساء: ١٤٥].

٢ ـ الشيطان:

القاطع الثاني للطريق هو: الشيطان، وهو عدوٌّ أساسي للإنسان، ولكنه عدو خفي، لا نراه بأعيننا؛ لأنه مخلوق من غير طينتنا، وقد رآه أبونا الأول آدم، فجعل يكيد له حتى أغراه بالأكل من الشجرة التي نهاه الله عنها، ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ۝١٢٢﴾ [طه: ١٢١ ـ ١٢٢].

خلق الله آدم، وسوَّاه ونفخ فيه من روحه، وطلب من الملائكة أن تسجد له، فسجد الملائكة كلُّهم أجمعون، إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين.

كان إبليس من الجنِّ، كما قال القرآن، ولكن عاش مع الملائكة ـ كما قالوا ـ آلاف السنين، فأصبح يُعد منهم، وإذا صدر أمر إليهم صدر إليه معهم.

لما سأله الله عن سجوده قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۝٧٦ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٧٧ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٧٨﴾ [ص: ٧٦ـ٧٨]. وهذا الشيطان اللعين قال: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝١٦ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ۝١٧﴾ [الأعراف: ١٦ـ١٧].

وقد أُخرِج آدم من الجنَّة، وأُهبط إلى الأرض، ليعمل فيها وذريَّته، وظلَّ إبليس وذريَّته وأعوانه أعداء لهم، ليزينوا لهم في الأرض وليغووهم أجمعين.

وظلَّت المعركة بين بني آدم وبين الشيطان المضل وذُرِّيَّته إلى اليوم، ولكن الله لم يمكِّنه من التغلُّب المطلق على بني آدم، بل قال الشيطان: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٢ ـ ٨٣]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: ٤٢].

وظلَّت المعركة قائمة وحامية بين الشيطان وجنوده، وآدم وبنيه، يقاومونه ويستعيذون بالله من شرِّه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ [الناس: ١ ـ ٦].

ومع ما لإبليس وذريته وأعوانه من أدوات وأسلحة، فليس له من بني آدم إلا الوسوسة، وهو ما قاله الشيطان عن نفسه في الآخرة إذ يقول لأتباعه: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ﴾ [إبراهيم: ٢٢]. فالإنسان هو الذي استجاب له، ولو رفض دعوته لانتصر عليه.

٣ ـ الدنيا:

والعدو الثالث: الدنيا، التي تتزيَّن للناس، كما تتزين البَغِيُّ لعشاقها، وهي التي تفتنهم بما لديها من مال وبنين، ونساء وقناطير مقنطرة، وأنعام وحرْث. كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [آل عمران: ١٤].

فهذه هي مجمل شهوات الدنيا التي يلهث الناس وراءها، ويلغون عقولهم أو يجحدونها، من أجل الحصول عليها، بل ربما يقتل بعضهم بعضًا من أجلها.

وقد انتصر أهل الإيمان عليها عندما قارنوها بالآخرة، من ناحية الزمن، فالدنيا عمرها قصير، والآخرة هي دار الأبد، ومن ناحية المتاع، فهو متاع قليل، أيام معدودة، وأنفاس محدودة، ثم يتركك ويذهب إلى غيرك، وإلا تركته

أنت ووَرِثه غيرك، وهو متاع غَرور، يغُرُّ صاحبه ويخدعه بالبريق والزهو الذي يظهر عليه، وينسى ما يخبِّئه من غدر وضياع، ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝٧٧ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٧ ـ ٧٨].

وكيف يضيع الإنسان ما في الآخرة من نعيم أبديّ، ماديّ وروحيّ، فيه ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر؟ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٧﴾ [السجدة: ١٧]. وكما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٧٢﴾ [التوبة: ٧٢]. ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]. قال المفسرون: الحسنى هي الجنة، والزيادة: الاستمتاع برؤية الله ورضوانه. أما الكفار فقد قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥﴾ [المطففين: ١٥].

والمؤمن لا يستسلم للدنيا ومغرياتها، بل يجاهدها، ويجري وراء الآخرة، ليكسبها ويباهي بأن الله نجاه منها: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٩ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾ [النازعات: ٣٧ ـ ٤١].

٤ ـ الناس:

والعدو الرابع، هو: الناس. وليس كلُّ الناس أعداء وقطَّاعًا للطريق، ولكن أكثر الناس، كما قال تعالى في القرآن: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

كما بيَّن القرآن أن أكثر الناس لا يعقلون، ولا يعلمون، ولا يفقهون، ولا يؤمنون، ولا يشكرون. وأنَّ الصالحين قليل من الناس: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]. ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾ [سبأ: ١٣].

والإنسان يتأثر بهذه الكثرة الصَّادَّة عن سبيل الله، عن طريق العدوى، فالشرُّ يُعدي كما يعدي الأجربُ السليمَ، وعن طريق المحاكاة والتقليد الأعمى، كما يقلد الببغاء الإنسان، وعن طريق الوسوسة السرية والدعوة العلنية، بأساليبها التي لا حدود لها، ولا نهاية لها، ولهذا حذَّر الله رسوله فقال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [الجاثية: ١٨ ـ ١٩].

وخصوصًا إذا كان هؤلاء الناس يخالفونك في دينك أو اتجاهك، ويريدون أن يحرفوك عما أنت فيه، وأن يضمُّوك إليهم، فهنا يكون التحذير أكبر، كما قال تعالى آمرًا بتحكيم كتابه الذي أنزله، ومحذِّرًا من المخالفين الذين يكرهونه ولا يحبون انتشاره: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

ويُحذِّر القرآن من كثير من الأصناف الذين يضلون الناس، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨]. وفي سورة أخرى يقول: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [القلم: ٨ ـ ١٤].

وحذَّر القرآن من طاعة الكافرين في مكايدتهم للمؤمنين، وصناعة الأباطيل لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [آل عمران: ١٠٠ ـ ١٠١]. وقد دلَّت التفاسير القرآنية على أن ﴿يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾، أي: بعد وحدتكم متفرقين، فهم يسعون باستمرار لتمزيق عُرى المسلمين، وتفكيك وحدتهم، والله تعالى يقول: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣]. ويقول بعدها: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران: ١٠٥]. ويقول الرسول الكريم لأمته من بعده: «لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض»[1].

احذر من كل مَن يريد إضلالك عن دينك، عن عقيدتك، بأن يريد أن يخرجك من مِلَّتك، أو يريد أن يزحزحك عن طريقك المستقيم، فهو يحاول أن يخرج أهل الإيمان من أصل إيمانهم، فإن هو عجز عن أهل الإيمان الصادقين، حاول مع أهل الإسلام: أن يفتنهم عن إسلامهم: عن صلاتهم، عن زكاتهم، عن صيامهم، عن حجهم، عن سائر فرائضهم وأركانهم.

فإن عجز عنهم لجأ إلى أهل الإحسان، يريد أن ينزلهم من درجة الإحسان التي هي أعلى درجة في سلم الترقِّي إلى الله، فينزلهم إلى درجة مَن هو أدنى منهم، وهو يعتبر إنزال الإنسان من درجة إلى أدنى مكسبًا له.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (١٢١)، ومسلم في الإيمان (٦٥)، عن جرير بن عبد الله.

وهكذا صنع أعداء الإسلام من شياطين الجن والإنس، الذين يعادون الإنسان، وخصوصًا أهل الإيمان منهم. والله تعالى ذكر لنا ما يقوم به هؤلاء الشياطين جنًّا وإنسًا في كتابه، اقرأ في سورة الأنعام: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [الأنعام: ١١٢ - ١١٣]. أي: وكما جعلنا لك يا محمد أعداء يخالفونك ويعادونك، جعلنا لكل نبيٍّ من قبلك أيضًا أعداء، فلا يحزنك ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٨٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟﴾ [الأنعام: ٣٤]. وقال تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ [فصلت: ٤٣]. وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٤٣]. وقال ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ: إنه لم يأتِ أحد بمثل ما جئتَ به إلا عُودي[(١)].

وقوله: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾، بدل من ﴿عَدُوًّا﴾، أي: لهم أعداء من شياطين الإنس والجنِّ، والشيطان كلُّ مَن خرج عن نظيره بالشرِّ، ولا يعادي الرسل إلا الشياطين من هؤلاء وهؤلاء، قبَّحهم الله ولعنهم.

عن قتادة في قوله: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾، قال: من الجنِّ شياطين، ومن الإنس شياطين، يُوحي بعضهم إلى بعض[(٢)].

وذكر ابن كثير رحمه الله مجموعة من الأحاديث التي رواها الإمام أحمد والطبري، عن أبي ذر رضي الله عنه[(٣)]، لا تخلو أسانيدها من كلام، ولكنه قوَّاها بتعدد الطرق. قال: فهذه طرق لهذا الحديث! ومجموعها يفيد قوَّته وصحته[(٤)] والله أعلم.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (٣)، ومسلم في الإيمان (١٦٠)، عن عائشة.

(٢) رواه الطبري في التفسير (١٢/ ٥٥).

(٣) أتيت رسول الله ﷺ وهو في المسجد فجلست، فقال: «يا أبا ذر، هل صليت؟». قلت: لا. قال: «قم فصلِّ». قال: فقمت فصليت ثم جلست. فقال: «يا أبا ذر، تعوَّذ بالله من شر شياطين الإنس والجن». قال: قلت: يا رسول الله، وللإنس شياطين؟ قال: «نعم».

(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٢٠).

وذكر القرطبي في تفسيره ما قال مالك بن دينار: إن شيطان الإنس أشد عليَّ من شيطان الجن؛ وذلك أني إذا تعوذتُ بالله ذهب عني شيطان الجن، وشيطان الإنس يجيئني فيجرُّني إلى المعاصي عيانًا.

وسمع عمر بن الخطاب[1] امرأة تنشد:

إن النساء رياحين خُلقن لكم وكلُّكم يشتهي شمَّ الرياحين!

فأجابها عمر:

إن النساء شياطينٌ خُلقن لنا نعوذ بالله من شرِّ الشياطينِ![2]

لا يريد عمر كل النساء، فمنهن الصالحات القانتات، ومنهن آسية امرأة فرعون، ومريم بنة عمران، وفاطمة بنت محمد، وخديجة بنت خويلد، ولكن يريد أولئك اللائي لا همَّ لهن إلا الزينة والإغراء، كما جاء في الحديث: «ما تركت بعدي فتنة أضرَّ على الرجال من النساء»[3].

(١) المعروف أن هذا البيت للفضل بن إبراهيم يقول: مر شاعر بنسوة فأعجبه شأنهن.... انظر: الأذكياء لابن الجوزي ص٢٢٠.

(٢) تفسير القرطبي (٧/ ٦٨).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في النكاح (٥٠٩٦)، ومسلم في الذكر (٢٧٤٠)، عن أسامة بن زيد.



الفصل السادس

تتمة الأركان الخمسة لنظرية أخلاق الإسلام

بعد العناصر أو الأصول أو الأركان الخمسة التي بنى عليها الإسلام نظريته الأخلاقيَّة كما بيَّنها وشرحها وفصَّلها شيخنا الدكتور دراز رحمه الله، ولم نستطع أن ننقلها أو نلخصها بحال في بحثنا، نرى أن نضيف إليها بعض العناصر أو الجزئيَّات التي يمكن أن تدخل في بعض هذه الأصول الأساسيَّة، وإن كان بعض الناس يستحسن أن يراها مفصَّلة، فنحن لا نتَّهم شيخنا بأنه أغفل أو نسي بعض الأمور، ولكننا نتَّهم أنفسنا بأن عقولنا ومعارفنا لا تتَّسع لما أحب أن يجمعه الشيخ مُركَّزًا في الصحائف التي سجَّلها وأورثنا إياها.

نقول هنا مستمدين ممَّا قال شيخنا: أقام الإسلام صرح أخلاقه على جُملة الدعائم، أشبه بالأعمدة الخرسانية التي يقوم عليها البنيان الشاهق، أوصلها الباحثون الكبار، وعلى رأسهم دراز، في بحثهم إلى خمس، كلها راسخ ومكين، ولكننا وجدنا بعض الشروح والتفصيلات، أو المبادئ الجزئية مهمة للبيان والشرح، فلنذكر بعض هذه المبادئ التي قام عليها استكمال الصرح الأخلاقي في الإسلام.

١ ـ الإسلام دين الفطرة:

برَّأ الإسلامُ الفطرةَ الإنسانيَّة ممَّا وُصِمتْ به باطلًا، فليس الإنسان ذئبًا ولا قِردًا مُقنَّعًا، كما ذهب بعض الفلاسفة، ولم يولد ملوَّثًا بخطيئة أبيه آدم كما هي عقيدة المسيحية، فقد: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه: ١٢١ ـ ١٢٢]. فآدم قد أنهى ذنبه تمامًا بالتوبة، والتوبة تغسل الإنسان من الذنوب، كما يغسل الماء الجسم من الأوساخ. على أنه لو لم

يتُبْ، ما كان على أبنائه من شيء، فكل إنسان مُعلَّق بذنبه، لا يعاقب إنسان بذنب إنسان آخر، ولو كان أقرب الناس إليه، أبًا أو جدًّا، أو أمًّا، أو ابنًا أو أخًا، ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨﴾ [المدثر: ٣٨]. ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وكل مولود يولد على الفطرة النقيَّة، ويشبُّ قادرًا على سلوك أحد النَّجْدين أو الطريقين: الهدى أو الضلال، وهو ليس شيطانًا مفطورًا على الشرِّ، كما زعم المتشائمون، ولا ملاكًا مفطورًا على الخير، كما ادَّعى المتفائلون.

قال تعالى عن الإنسان: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد: ١٠]. ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان: ٣]. ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠﴾، [الشمس: ٧ ـ ١٠]. ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۝١٤﴾ [القيامة: ١٤].

فالإنسان يولد مُزوَّدًا بقوة فطريَّة قادرة على تمييز الخير من الشرِّ، والهُدَى من الضلال، مستعدَّة لسلوك طريق التقوى أو الفجور، حتى إن القرآن قدَّم الفجور على التقوى في الآية التي ذكرناها.

وهذه القوَّة هي التي سمَّاها القرآن (الهداية) في السورة الأخرى، وقدَّم فيها الشكر على الكفر، كما في قوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان: ٣].

والآيات الكثيرة التي وردت في القرآن في خلق آدم أبي البشر، تدلُّ على أنَّ الإنسان مخلوق ذو طبيعة مزدوجة، يجمع بين عنصرين، ربما يبدوان متناقضين، ولكنْ في الحقيقة هما متكاملان، لا بدَّ من كل منهما للآخر: الأول: مادي أرضي، هو الطين والتراب. والثاني: عنصر روحيٌّ سماوي، وهو ما نفَخَ اللهُ فيه من روحه سبحانه كما قال للملائكة: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۝٢٩ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٣٠﴾ [الحجر: ٢٩ ـ ٣٠].

فمن نظر إلى العنصر الماديِّ أو الطيني وحده، غلبت عليه النظرة التشاؤمية للإنسان، ومن نظر إلى العنصر الروحي وحده، غلبت عليه فكرة

التفاؤل. والعدل هو الوسط، أنه اجتمع فيه الجانبان: الطين أو الروح، وهو الذي يطابق الواقع، وهو الذي جاء به الإسلام، وقامت عليه أخلاق الإسلام.

٢ ـ عنصران تتكون منهما الحياة الخلقية: العلم والإرادة:

العلم ركن أساسي لقيام الأخلاق الإسلامية، فلا يمكن أن تقوم أخلاق أصيلة على جهل مبين.

إنما العلم يجب أن يكون في مقدِّمة التوجه الأخلاقي، والعلم في نظر الإسلام سابق للعمل، مُقدَّم عليه، ولذا قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٤]. فالعلم يهدي إلى الإيمان، والإيمان يهدي إلى الإخبات.

العلم والإرادة:

وقد أظهرت تعاليم الإسلام أن الحياة الخلقية تتكون من عنصرين:

الأول: العلم والمعرفة الواعية.

والثاني: التصميم والإرادة القوية، التي نسميها: (النية)، وهي ركن من الأركان الخمسة للأخلاق التي ذكرها الشيخ دراز.

فالمعرفة وحدها لا تؤدِّي إلى الفضيلة، كما قال سقراط، فكم من أناس عرفوا الخير ولم يفعلوه، أو عرفوا الحقيقة ولم يُذْعنوا لحكمها: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: ١٤]. وكم من أناس علموا الشر وعرفوه على حقيقته، ولكنهم اقترفوه.

وإرادة الخير دون وعي له، ولا معرفة به: لا تُحقِّق الفضيلة، كالقاضي الذي يقضي على جهل، فهو في النار، وإن أصاب بحكمه الحق في بعض الأحيان.

ولهذا كان فرضًا على المسلم أن يعرف ما عليه من واجبات نحو الله والناس، ونحو نفسه أيضًا، كما يجب عليه أن يُوجِّه إرادته إلى تقويم ميوله ونزعاته، وضبط دوافعه ونزواته، والسيطرة على أهوائه وشهواته، وهذا لا يتمُّ

إلا بجهاد نفسيٍّ طويل سمَّاه علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الجهاد الأكبر، وجاء فيه الحديث النبوي: «المهاجر من هجر ما نهى الله عنه، والمجاهد من جاهد هواه»[1]. وفي حديث آخر: «ليس الشديد بالصُّرعَة، وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»[2].

ولا بد أن يتعاون المجتمع مع المسلم على تزكية نفسه، فإن المؤمنين قوم يحب بعضهم بعضًا، ويساعد بعضهم بعضًا على كلِّ خير، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

٣ ـ الإسلام يؤكد ثبات العمل ودوامه بحيث يصبح اتجاهًا أصيلًا:

أكَّد الإسلام أنَّ بذل الجهد مطلوب لأداء العمل الصالح الذي يعتدُّ به عند الله، فلا بدَّ من العمل باعتباره ثمرة للإيمان، لذلك ذكر القرآن مرات كثيرة: الإيمان والعمل، أو عمل الصالحات. وهو أمر لازم، ولا معنى لإيمان لا يثمر عملًا.

وقد صوَّر القرآن المؤمنين في سوره المكية والمدنية في هيئة مؤمنين عاملين متخلقين بكلِّ الأخلاق الربَّانيَّة والإنسانيَّة، كما في أول البقرة، وأول سورة (المؤمنون)، وأوائل سورة الأنفال، وأواسط سورة الرعد، وأواخر سورة الفرقان (آيات عباد الرحمن)، وفي سورة الشورى والذاريات والإنسان، وغيرها.

ليس العمل الصالح هو الذي يأتي فلتة نادرة، أو شذوذًا عن قاعدة السلوك العامة، إنما هو الذي يصبح بتكراره وممارسته عن حبٍّ اتِّجاهًا أصيلًا، وخُلقًا ثابتًا، وعادةً دائمة، ولهذا قال الرسول المعلِّم: «أحبُّ الأعمال إلى الله أدومها وإن قل»[3]. ولا عجب أن ذمَّ القرآن: ﴿ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾﴾ [النَّجم: ٣٣ ـ ٣٤].

---

(١) رواه البخاري في الإيمان (١٠)، وأحمد (٦٥١٥)، وأبو داود في الجهاد (٢٤٨١)، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦١١٤)، ومسلم في البر والصلة (٢٦٠٩)، عن أبي هريرة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٤٦٤)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٨٣)، عن عائشة.

٤ ـ العمل الأخلاقي في الإسلام ما ينبعث الإنسان إليه مختارًا لا مكرهًا:

يحقق هذا ويعضده أن الإسلام لا يعتبر الفضيلة مُجرَّد عمل آليٍّ تسخيري، يؤدِّيه الإنسان على مضَض وكُره، كأنَّما يُساق إليه بالسوط سَوْقًا، إنما الفضيلة عمل انبعاثيٌّ يقوم به المرء ونفسه راغبة فيه، راضية به، محبَّة له، حريصة عليه.

أما الذي يفعل الخير عادة، أو تورُّطًا، ولا يجد في نفسه أريحية له، ولا ينشرح صدره بأدائه، وينقبض إذا تأخَّر عنه أو فرَّط فيه، فليس جديرًا أن يُعَدَّ في زمرة الأخيار الفضلاء، وقد ذمَّ القرآن هذا الصنف من الناس فقال: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا﴾ [التوبة: ٩٨]. وقال في شأن المنافقين: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ۝٥٤﴾ [التوبة: ٥٤]. وقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٤٢﴾ [النساء: ١٤٢].

٥ ـ الإسلام يعترف بالحاسة الخُلُقية والضمير المؤمن:

اعترف الإسلام بالقوة الفطريَّة التي سمَّوها: (الضمير) أو (الحاسة الخُلقية)، فقد قال الرسول ﷺ: «إذا أراد الله بامرئ خيرًا، جعل له واعظًا من نفسه»[(١)]. بل أعطى هذه القوة الفطريَّة حقَّ الفصل في الأمور المتشابهات، التي يلتبس فيها الخير بالشرِّ، والحَسَن بالسيِّئ، ولهذا جاء في الحديث: «دَعْ ما يَريبُك إلى ما لا يَريبك»[(٢)]. وهو من الأحاديث الشهيرة عند المسلمين، وأحد أحاديث الأربعين النووية المعروفة.

ولما جاء رجل يسأل النبي ﷺ عن البرِّ والإثم، قال له: «اسْتَفْتِ قلبَك، واسْتَفْتِ نَفْسَك، البرُّ ما اطمأنتْ إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس، وتردَّد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك»[(٣)].

(١) قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (٣/ ٤): رواه الديلمي في مسند الفردوس عن أم سلمة وإسناده جيد، وذكره الإمام أحمد في الزهد منسوبًا لابن سيرين، وكذلك أبو نعيم في الحلية (٢/ ٢٦٤)، وابن كثير في البداية والنهاية (٩/ ٣٠٣)، وضعفه الألباني في غاية المرام مرفوعًا (٤٨٤).

(٢) رواه أحمد (١٧٢٣) وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح، والترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع (٢٥١٨) وقال: حديث حسن صحيح، والنسائي في الأشربة (٥٧١١)، وابن حبان في الرقائق (٢/ ٤٩٨)، والحاكم في البيوع (٢/ ١٥) وصحَّح إسناده، ووافقه الذهبي، عن الحسن بن علي.

(٣) رواه أحمد (١٨٠٠٦) وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف، والدارمي في البيوع (٢٥٣٣)، وحسن إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٢٦٨٣)، وحسَّنه النووي في الأربعين الحديث السابع والعشرون، =

وبهذا أقرَّ الإسلام بوجود (الضمير) أو (الحاسَّة الخلقية) في فطرة البشر، ولكنه لم يثبت لها العصمة المطلقة في كلِّ الأمور، وفي كلِّ الأحيان، كما يزعم دُعاتها، فقد أشار الرسول ﷺ إلى أنَّ هذه القوة تُنمَّى بالإيمان، فقال: «مَن سرَّته حسنته، وساءته سيئته، فهو مؤمن»[1].

٦ ـ للعقل مكانته في عالم الأخلاق وكلما كان الإنسان أعقل كان عن الشر أبعد:

جعل الإسلام للعقل مكانةً في عالم الأخلاق، فهو مناط التكليف، وهو المخاطَب بأوامر الله تعالى ونواهيه، ولهذا جاء في الحديث: «رُفع القلمُ عن ثلاثة: عن الصبي حتى يعقل، وعن المجنون حتى يُفيق، وعن النائم حتى يستيقظ»[2]. لعدم وجود العقل المميِّز عندهم.

وكثير من أوامر الشرع الكليَّة العامَّة، تُرِكَ تحديدُها وتفصيلُها وتطبيقُها إلى العقول والضمائر، كما في قوله تعالى: ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]. ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]. ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥].

والقرآن الكريم يصف الفضلاء الأخيار من المؤمنين بأنهم: ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة: ٢٦٩]. أي: أصحاب العقول. وقد تكرَّرت في القرآن ست عشرة مرة؛ لينبِّه على أن اتِّباعَ الحق أو فعلَ الخير: لا يتمُّ إلا لِذِي عقل يميِّز بين الخير والشر، ويوازن بين الأعمال ونتائجها، فيدرك ما ينبغي وما لا ينبغي، ويدع ما لا ينبغي من أجل ما ينبغي. اقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ [الرعد: ١٩ ـ ٢٢].

ولما اتَّهم بعضُ المشركين الجامدين على أصنامهم النبيَّ ﷺ بالجنون! ردَّ

= وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٧٣٤): حسن لغيره، عن وابصة بن معبد.

(١) رواه أحمد (١١٤) وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح، والترمذي في الفتن (٢١٦٥) وقال: حسن صحيح غريب، والحاكم في العلم (١/ ١١٣) وصحَّحه على شرطهما، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٤٦)، عن عمر بن الخطاب.

(٢) رواه أحمد (٢٤٦٩٤) وقال مخرِّجوه: إسناده جيد، وأبو داود في الحدود (٤٣٩٨)، والنسائي في الطلاق (٣٤٣٢)، عن عائشة.

عليهم الله بقوله: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ۝٤﴾ [القلم: ٢ ـ ٤]. فدلَّ على أن الخُلق العظيم، لا بدَّ وراءه من عقل قويم، كما أن المجنون لا يصدر عنه خلق عظيم.

٧ ـ وسطيَّة الإسلام في التقريب بين عمل الخير لذاته وعمله لما وراءه:

لا نجد في الإسلام تناقضًا بين عمل الخير لذاته ـ كما يقول المثاليُّون ـ وبين عمله لما وراءه من سعادة ومنفعة للفرد والمجتمع ـ كما يقول الواقعيُّون ـ فقد ربطتْ سُنَّة الله وحكمته الخير والفضيلة بالسعادة والمنفعة في الدنيا أو في الآخرة، أو فيهما معًا، كما ربطتْ الشرَّ والرذيلة بالشقاء والضرر الخاص والعام في الدنيا والآخرة، وفي هذا يقول القرآن الكريم: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ﴾ [فصلت: ٤٦]. ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ﴾ [الإسراء: ٧]. ﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ۝٤٠﴾ [غافر: ٤٠].

ومن هنا نجد القرآن يقول مثلًا: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ۝٢٧٢﴾ [البقرة: ٢٧٢]. ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر: ٩]. ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١٠٣﴾ [التوبة: ١٠٣].

فمن وُقِيَ شحَّ نفسه، وأنفق المال للمستحقِّين: فقد حقَّق منفعة وخيرًا لنفسه في حياته هذه، بما يحصله فردًا من لذة روحية، وارتياح نفسي بأداء الواجب، وشعور باستكمال الشخصية، وجماعةً، بما يحصله المجتمع من وراء الإنفاق من خير عام، يتمثل في تقريب الفوارق، وسيادة الأخوَّة بين الناس، وإطفاء نار الصراع والأحقاد، ثم هو يوفَّى في الآخرة جزاء إنفاقه من الله سبحانه دون أن يُظلم مثقال ذرة.

وهو حين أدَّى واجب الإنفاق لم يُؤدِّه لقصد منفعة شخصيَّة له، بل أدَّاه ابتغاء وجه الله مَحْضًا خالصًا، وهو تعبيرٌ رُوحيٌّ عن معنى أداء الواجب لذاته، وقد ورد مثل هذا التعبير في القرآن في كثير من المواضع.

٨ ـ وقَّت الإسلام جزاءً على العمل في الدنيا والآخرة، وهو يمثل العدل الإلهي:

فقد بيَّن الإسلامُ أنَّ لكل عمل مستقيمًا كان أو منحرفًا؛ جزاءً من جنسه في الدنيا والآخرة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزَّلزلة: ٧ ـ ٨].

لقد جعلت اليهوديَّة الجزاء دنيويًا ماديًا محضًا، وجعلت المسيحيَّة في غالب وصاياها الجزاء أخرويًّا صِرْفًا، أما الإسلام فقد جمع بين الأمرين: مثوبة أو عقوبة.

ففي المثوبة يقول عن أهل الخير والإحسان: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣]. ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٩٧﴾ [النحل: ٩٧]. ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ۝٣٠﴾ [النحل: ٣٠].

وفي العقوبة عن أهل الشرِّ والإساءة يقول: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤﴾ [طه: ١٢٤]. ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ [الرعد: ٣٤].

وثواب الدنيا ليس ماديًّا فقط، كما يُخيَّل لبعض القاصرين، بل منه ما هو روحي: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]. أو عقلي: ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]. أو خلقي: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

والآخرة كذلك، ففيها النعيم الحسِّيُّ، كما في قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٤٣﴾ [المرسلات: ٤٣]. وفيها النعيم المعنوي، كما في قوله سبحانه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣]. ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩﴾ [الغاشية: ٨ ـ ٩]. ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥]. ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝٧٢﴾ [التوبة: ٧٢].

والعقاب مثل ذلك، هو مادي ومعنوي، في الدنيا وفي الآخرة: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ [آل عمران: ١٩٢].

الفصل السابع

القيم العليا الثلاث
(الحق ـ الخير ـ الجمال)
وصِلَتُها بأخلاق الإسلام وفلسفته

من القيم التي لها صلة بالأخلاق وفلسفتها، والتي دار بحثُها في الفلسفة بصفة عامَّة: قِيم سمَّوْها: القيم العُليا؛ التي تقدَّم على غيرها، والتي توضع في أعلى الدرجات، نظرًا لمكانتها عند الفلاسفة، وعند أهل الفكر والثقافة، ولأهميتها الذاتيَّة، ولأثرها في التربية والتكوين والتوجيه، ولذلك اعتُبرتْ من الأُسس والأصول، أو القواعد الأساسيَّة التي تقوم عليها الفلسفة بوصفها فلسفة، كما فعل الأستاذ الدكتور توفيق الطويل في كتابه (**أُسس الفلسفة**).

فالأساس الأول هو: ما يتعلق بنظرية المعرفة.

والأساس الثاني: ما يتعلق بالوجود: ويدخل فيه الوجود الواجب، والوجود الممكن، ويدخل هنا وجود الله بين الملاحدة والإلهيِّين.

والأساس الثالث: القيم.

وهي تقوم على أُصول ثلاثة لا يُختلف عليها.

القيمة الأولى: تتعلق بما يجب على المرء معرفته واعتقاده والالتزام به، والدعوة إليه، والدفاع عنه، وهو الأمر الثابت الذي لا ينبغي الاختلاف عليه، وهو **الحق**.

والقيمة الثانية: تتعلق بما يجب على المرء أن يحبَّه، ويفعله، ويشارك فيه، ويدعو إليه، وينوّه به، ويوسِّع دائرته ما استطاع، وهو: **الخير**.

والقيمة الثالثة: تتعلق بما ينبغي على المرء أن يحبَّه، ويسعَد به، ويبتهج

له، ويُشِيعُه بين الناس، ويرحِّب به في كل مكان، ويدافع عنه، وهو: **الجمال**.

هذه القيم العليا التي اتفق عليها الفلاسفة الكبار، في أنحاء العالم، وطول مراحل التاريخ، أيًا كان اتجاههم: دِينيًا أم دُنيويًا، توحيديًا أم وثنيًا، مثاليًا أم واقعيًا، فرديًا أم اجتماعيًا.

فما موقف الإسلام في أخلاقياته من هذه القيم الكبرى؟

هذا ما سنجيب عنه بوضوح وتفصيل في الصحائف التالية.

١ ـ الحق

لا شك أنَّ أول قيمة عُليا يُعنى بها الإسلام، ويسعى بكلِّ جِد إلى اكتشافها ومعرفتها، وإزاحة الظلمات والغبش عنها، حتى تتجلَّى للناس على حقيقتها، ويصوِّرها كما ينبغي أن تصوَّر، فكل شيء يُتصوَّر حسب طبيعته، فتصوُّرُ الحجر أو الطين ليس كتصوُّرِ الضوء أو الطيْف، وتصور المادة ليس كتصور الروح أو العقل. وكل شيء له تصوُّره الخاص به، فلا يُتَصوّرُ بغير تصوُّره.

الحق هو الله:

والمفروض في كل إنسان رُزق العقل الذي به يفكر، أن يتصور الحق العام، الذي يُحيط بالكون كله، وهو الرب الأعلى، أو الخالق الأعلى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ [الأعلى: ٢ ـ ٣].

وحين أرسل الله موسى وأخاه هارون إلى فرعون مصر؛ ليهدياه إلى التي هي أقوم، وبدأا بدعوته، قال لهما فرعون: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه: ٤٩ ـ ٥٠]. ربنا الذي أعطى كل شيء في هذا الوجود ما به يتمُّ عطاؤه، ثم وهب له من أنواع الهداية ما يكمل له ما يحتاج إليه في القيام بمهمته إلى النهاية.

﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾ [طه: ٥١ ـ ٥٢]. هناك أشياء يعرفها الإنسان، وأشياء لا يعرفها وليس عنده وسائل معرفتها، فأجاب موسى عليه السلام عما يعرفه، وما لا يعرفه وكله إلى أهله.

الحقيقة أن كل إنسان مطالب بأن يعرف الحقَّ، والحق الذي تعرفه الفطرة الإنسانيَّة بلا تلقين مكتسب، ولا تعليم معلِّم: هو الله، ومن لم يعرف أن الله تعالى هو: ربه ومعبوده ومَلِكه، فقد خسر معرفة الحقيقة الأولى.

والقرآن الكريم صريح كل الصراحة في إبداء هذه الحقيقة الكبرى: أن الله هو الحق، الذي يجب أن يسعى الناس إلى معرفته والتوجه إليه، قال تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢]. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾ [لقمان: ٣٠]. ومن لم ينكشف له ذلك في دنياه الفانية، فلا بدَّ أن ينكشف له هذا في آخرته: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ [النور: ٢٥].

كل إنسان عليه أن يعرف الحق بفطرته التي خُلق عليها، كما قال القرآن: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠].

وقال الرسول الكريم: «**كلُّ مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه، أو ينصِّرانه، أو يُمَجِّسانه**»[1]. ولكن الخالق العظيم المُنعم على عباده: لم يتركهم لفطرهم وحدها، بل أرسل إليهم رُسُلًا مبشِّرين ومنذرين: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وأنزل عليهم كُتبًا هادية، تهدي للتي هي أقوم: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

على الإنسان أن يعرف الحق، ويؤمن به، فالعلم هو دليل الإيمان، وهو سابق عليه، وهو المؤدِّي إلى الإيمان الحقيقي، ولا يخاف الإسلامُ - كما تخاف بعض الأديان - من دخول العقلانية في الإيمان، فالإيمان عند النصارى: ليس العلمُ ضروريًّا له، حتى يقول بعضهم: اعتقدْ وأنت أعمى! ويقول القسيس للرجل العادي: أغمض عينيك ثم اتبعني! وهو ضد المقرر عند المسلمين، الذي يؤكده القرآن، وسنة النبي محمد عليه الصلاة والسلام، فالإسلام يطلب البرهان في كل قضية، يقول تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجنائز (١٣٥٨)، ومسلم في القدر (٢٦٥٨)، عن أبي هريرة.

وحينما قال اليهود والنصارى: لن يدخل الجنة إلا مَن كان يهوديًا أو نصرانيًا، كذَّبهم القرآن بصريح العبارة، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة: ١١١]. ثم بيَّن من يستحق دخول الجنة من كل الفِئات، قال: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة: ١١٢]. وعندما حاول المشركون أن يهربوا من منطق المؤمنين، حين يجادلونهم ويحاصرونهم بالأدلة العقلية التي لا مهرب منها، كما في قول القرآن في سورة النمل: ﴿أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [النمل: ٦٤].

لا بد من الإيمان بالله الواحد الأحد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفُوًا أحد. ولا بدَّ بعد هذا الإيمان الحق أن تؤدي له حق العبادة، فهو خالقنا، وهو رازقنا، ومهيِّئ النعم الكبرى لنا، من فوقنا ومن تحتنا، وعن أيماننا وعن شمائلنا، وهو الذي سخر لنا الكون الكبير من حولنا ليخدمنا، وقرَّب إلينا كل ما نحن في حاجة إليه، فليس الله سبحانه في حاجة إلى ما في هذا الكون، بل هو الغني عن العالمين، ولكنه خلقه لنا: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]. ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]. ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: ٣٤].

كل هذه النعم من ربنا سبحانه تدفعنا دفعًا أن نقوم بحسن عبادته وحده، ولا نشرك به شيئًا. فإن مما أُصيبتْ به الأديان السماوية نفسها: أن أشركتْ مع الله آلهة أخرى، ادّعى لهم من ادّعى: أن لهم حقوقًا مع الله ﷻ، وما لأحد حق مع الله سبحانه، ولذا رفض هذا في دعوته إلى قيصر إمبراطور الروم، وإلى المقوقس حاكم مصر، وإلى النجاشي ملك الحبشة، وغيرهم من أمراء نصارى العرب، وختم رسائلهم بهذه الآية الجامعة: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤].

وعبادة الله تعالى تتضمَّن غاية الذل مع غاية الحب، كلاهما نقدمه إلى الله سبحانه: ﴿فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [يونس: ٣٢].

الانقياد لله واتباع شرعه:

وإذا عبد الإنسان ربه، فقد ألقى بزمامه إليه، وانقاد طائعًا إلى حكمه، وسلَّم له أمره، وغدت طاعته واجبة عليه، فيتّبع شرعه، ويرضى حكمه، فما رضيه الله فقد ارتضاه، وما سخطه الله فقد سخطه: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور: ٥١]. ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦]. ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٤٩ ـ ٥٠].

٢ ـ الخير

و(**الخير**) هو القيمة العُليا الثانية، التي اتفقتْ عليها الفلسفات بصفة عامة، وجاء بها الإسلام واضحةً شفافة ناصعة مشرقةً كنُور الشمس. الخير هو القيمة التي اشترك الرسلُ والأنبياء في الدعوة إليه، وإلى ترسيخه وتقديره ومحبته.

وكان الإسلام، وهو آخر الأديان السماويَّة التي ادَّخرها الله لتهدي عباده في الفترة الأخيرة من الحياة البشرية، والتي اختارها الخالق للناس، فأرسل إليهم الرسول الخاتم محمدًا النبي الأمِّيّ عليه الصلاة والسلام، الذي بعثه بالرسالة العالمية الخالدة، وأنزل عليه القرآن الكريم، ليحملَ إلى الناس آخرَ كلمات الله المنزلة، في صورة كتاب أُحكمتْ آياته ثم فُصِّلتْ من لدُن حكيم خبير، لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

الخير: كلمة كبيرة واسعة: تشمل ما يحتاج إليه البشر من الطعام والشراب، ومن اللباس والزينة، ومن الحديد والمعادن، ومن الخشب والفحم، ومن الصحة والعافية، ومن السِّتر والبركة، والرفق واليُسر، والمحبَّة والإخاء، والتعاون على البرِّ والتقوى، والتراحُم في السراء والضراء، والتضامن في السلم والحرب، والتصابر على الفقر والجوع، والتواصي بالصبر والمرحمة، وإيثار الغير بالشبع والمال وكل فضل.

وكل ما ينتظره الناس من غيرهم مما يحبونه لأنفسهم من مكرمات مادية ومعنوية، فهو الخير.

فعل الخير:

جاء الإسلام فأمر الناس بفعل الخير، فالخير يحتاج إلى فعل يقوم به بعض الناس الذين لم يقفوا عند الكلام وحده، بل انتقلوا إلى مرحلة العمل، ولذا قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٧٧ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج: ٧٧ - ٧٨]. ففي هاتين الآيتين خاطب الله الأمَّة التي يمثلها ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بثلاثة أشياء أساسية:

أولها: الركوع والسجود وعبادة الله ربهم.

وثانيها: فعل الخير لعلهم يفلحون.

وثالثها: الجهاد في الله حق جهاده.

في المجال الأول تتمثَّل علاقة المسلم بربه، وهي السجود والركوع وعبادة الله.

وفي المجال الثاني تتمثَّل علاقة المسلم بمجتمعه، وهي فعل الخير بكلِّ معانيه وعلاقاته.

وفي المجال الثالث تتمثَّل علاقة المسلم بأعدائه الذين يقاومون دعوته، ويقاتلون أهلها، وهو أن يجاهدوا هؤلاء في الله، لا في سبيل دنيا أو ملك أو طاغوت، حقَّ الجهاد، لا مجرَّد ضجَّة بلا عمل.

الدعوة إلى الخير:

ولم يكتفِ القرآن بفعل الخير، بل طلب من أمة الإسلام كلها أن تدعو إلى الخير، كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝١٠٤﴾ [آل عمران: ١٠٤]. والذي نرجِّحه في فهم الآية: أن تكون (من) في قوله ﴿مِّنكُمْ﴾ للبيان، أي لتكونوا كلُّكم أمةً تدعو إلى الخير، فكل الأمَّة تدعو إلى الخير بكلِّ ما تقدر عليه، كُلٌّ على قدر ما لديه، بدليل قوله تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، فحصر الفلاح فيهم، ومعنى هذا: أن غيرَهم لا حظَّ لهم فيه.

فهم جميعًا مُطالبون بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى يفلحوا.

المشاركة في الخير:

ومن لم يستطع أن يقوم بدورٍ كاملٍ في فعل الخير أو في الدعوة إليه، فإنَّه يستطيع أن يشارك فيه بجزء من الأجزاء، وإن قلَّ، فإن القليلَ على القليلِ كثيرٌ، والله سبحانه يقبل من كل مؤمن أيَّ عمل يقدِّمه، ولو شِقَّ تمرة، أو حبَّةَ عنب، أو كِسرةَ خبز، أو شربةَ ماءٍ، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨].

وقد روى الإمام أحمد وغيره من الأحاديث ما يدل على أن كل امرئٍ سيجد يوم القيامة ما يستصغره من الأعمال، يشهد له عند الله ﷻ[(١)].

نية الخير:

وحتى من لم يستطع أن يشارك في فعل الخير، أو الدعوة إليه بقدر ما، ولو كان صغيرًا، فإنه يستطيع أن يشارك فيه بنيَّته، وكل إنسان حرٌّ مختار في أن يمتلك نيّةً، ويصرفها إلى الوجهة التي يريد، وقد قال نبيُّنا عليه الصلاة والسلام: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»[(٢)] وبه بدأ الإمام البخاري جامعَه الصحيح.

وقد روى الإمام أحمد والترمذي، من حديث أبي كبشة الأنماري: «إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالًا وعلمًا، فهو يتَّقي فيه ربه، ويصِلُ فيه رحِمه، ويعلم لله فيه حقًّا، فهذا بأفضل المنازل. وعبد رزقه الله علمًا، ولم يرزقه مالًا، فهو صادق النية، يقول: لو إن لي مالًا لعملتُ بعمل فلان، فهو بنيته، فأجرهما سواء...»[(٣)]. قال الترمذي ـ واللفظ له ـ: حديث حسن صحيح.

---

(١) راجع هذه الأحاديث في تفسير ابن كثير (٨/ ٤٦٢ ـ ٤٦٤).

(٢) رواه الجماعة: البخاري في بدء الوحي (١)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٧)، وأبو داود في الطلاق (٢٢٠١)، والترمذي في الجهاد (١٦٤٧)، والنسائي في الطهارة (٧٥)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٢٧)، عن عمر بن الخطاب.

(٣) رواه أحمد (١٨٠٣١) وقال مخرِّجوه: حديث حسن، والترمذي في الزهد (٢٣٢٥) وقال: حسن صحيح، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٥٣٣٥).

فانظر كيف حصل هذا الرجل المُعْوِز الفقير، الذي ليس بيده دينار ولا درهم، ولكن لديه نيَّة طيبة، تمنَّى بها أن يكون له من المال ما للرجلِ الخيِّرِ المُنفق في سبيل الخير، وفي سبيل الله، فكان له مِن الأجْرِ ما أراد.

وروى أبو الدرداء يبلُغ به النبي ﷺ، قال: «من أتى فراشه وهو ينوي أن يقوم يصلي من الليل، فغلبته عيناه حتى أصبح، كُتب له ما نوَى، وكان نومُه صدقةً عليه من ربِّه عز وجل»[1].

٣ ـ الجمال

والقيمة العُليا الثالثة هي: الجمال.

والجمال هو: الحسن والبهجة والرَّوْحة. وكل ما يعبِّر عن هذا المعاني التي يَشعر الناس بها، كل الناس باديهم وحاضرهم، أمِّيهم ومتعلِّمهم، صغيرهم وكبيرهم، ذكرهم وأنثاهم. كلٌّ يُحس ويشعر في أعماق نفسه ـ دون تعليم ولا تلقين ـ بالجمال والحُسن، فيفرح به، ويسعد برؤيته وتذوقه، وينفر من عكسه، من كل منظر سيِّئ، أو مشهد قاسٍ.

ولذلك نجد القرآن الكريم ـ وهو مصدر المسلمين الأعلى في المعارف المهمة والدقيقة، التي قد تخفى على الكثيرين، أو تلتبس لديهم، أو تضطرب دلالاتها ـ يلفتنا إلى هذا الحُسْن أو الجمال الموجود في الكون كله، وإن غفل عنه الغافلون.

نجد هذا الجمال والحسنَ في كل ما خلق الله تعالى في الأرض وفي السماوات، كما في قوله تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]. فهو لا يصنع شيئًا إلا أعطاه حقه من الحسن والإتقان، كما قال موسى لفرعون: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه: ٥٠].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٦ ـ ٧]. فهو يشير إلى أنَّ كل ما خلقه الله فقد أحسنه وجمَّله، فهو لا يخلق شيئًا قبيحًا، كما قال الشاعر:

---

(١) رواه النسائي في قيام الليل (١٧٨٧)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٤٤)، وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢١)، عن أبي الدرداء.

إذا ما رأيتَ اللَّهَ في الكلِّ فاعِلًا   رأيتَ جميعَ الكائناتِ مِلاحًا[1]

ويبيِّن لنا القرآن الحُسْن والجمال في السماوات، ويُنبِّهنا إلى ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥].

فهذه النجوم التي نراها في السماء التي فوقنا من كل جانب، كلُّها في السماء الدنيا القريبة مِنَّا، والتي جعلها الله بمثابة المصابيح، لتنير لنا الكون، وتزدان بها الحياة، ويبدو أن السماوات الأخرى ليس لها هذه الخصيصة.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الحجر: ١٦]. وقال سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾ [ق: ٦].

ويبيِّن لنا القرآن كذلك الجمال والحُسْن فيما خلق من الأرض، وما أرسى فيها من الجبال، وما أخرج فيها من النباتات والزروع، وما أنبت من الروائع، ومن الأشجار والفواكه، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾﴾ [ق: ٧]. أي: حَسَنٌ جميل. وقال تعالى: ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩٩]. ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [النمل: ٦٠]. فانظر إلى قوله: ﴿حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾، أي: ذات جمال.

وقد طلب مني مرة مهندس حدائق إخباره عن آية تكون شعارًا له، فأعطيته هذه الآية، فكان في غاية العجب أن يكون في القرآن آية في هذا المعنى بهذا الوضوح.

ويُنبِّهنا القرآن على ما في الحيوانات من جمال وروعة، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النحل: ٨]. فانظر إلى هذه اللوحة الرائعة التي رسمها القرآن، كيف تراها في الطبيعة، وخصوصًا الآية التالية: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾﴾ [النحل: ٥ ـ ٦].

---

(١) من شعر العلامة الشيخ عبد الغني النابلسي رحمه الله.

فهو يشير إلى عنصر المنفعة في الأنعام، وإلى عنصر الجمال فيها من رواحها وسراحها.

قال الإمام أبو بكر بن العربي المالكي عند تفسير هذه الآية في كتابه **(أحكام القرآن)**: «الجمال يكون في الصورة وتركيب الخلقة، ويكون في الأخلاق الباطنة، ويكون في الأفعال.

فأما جمال الخلقة فهو أمر يدركه البصر، فيلقيه إلى القلب متلائمًا، فتتعلق به النفس من غير معرفة بوجه ذلك ولا بسببه لأحد من البشر.

وأما جمال الأخلاق، فبكونها على الصفات المحمودة من العلم والحكمة، والعدل والعفة، وكظم الغيظ، وإرادة الخير لكل واحد.

وأما جمال الأفعال فهو وجودها ملائمة لصالح الخلق، وقاضية بجلب المنافع إليهم، وصرف الشر عنهم»[1].

ويقول تعالى في شأن البحر: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [النحل: ١٤]. فهو تنبيه على عنصر المنفعة: تأكل لحمه الطري في السمك، وإلى عنصر الجمال: فيما يُستخرج منه من لؤلؤ ومَرجان. كما قال تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾﴾ [الرحمن: ١٩ ـ ٢٣].

ويشير القرآن إلى ما في الإنسان من حُسن وجمال وهبه الله له، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الإنفطار: ٦ ـ ٨]. وقال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: ٤].

وقال ﷻ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [التغابن: ٣]. ويقول النبي ﷺ في سجوده: «سجد وجهي للذي خلقه وصوَّره، وشقَّ سمعه وبصره، فتبارك الله أحسن الخالقين»[2].

---

(١) أحكام القرآن، لابن العربي (٣/١١٨).

(٢) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٧١)، وأحمد (٧٢٩)، عن علي بن أبي طالب.

ويسمع أحد الصحابة النبي ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة مَن كان في قلبه مثقال ذرة من كبر». فيقول: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة. فقال ﷺ: «إن الله جميل يحب الجمال. الكبر: بطر الحق، وغمط الناس»[1].

يبيِّن له بكلِّ جلاء: أن من صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى: الجمال، ومن أسمائه تعالى: الجميل، فهو جميل يحب الجمال في كل شيء، ما يهمه من حسن الثوب، وحسن النعل، وحسن الهيئة، يحبه الله ولا يكرهه، ولا يكره من فَعَلَه، وليس هو من الكبر الذي تُغلق الجنة في وجوه أصحابه، فالكبر: بَطَرُ الحق، أي: أن تردَّ الحق إذا جاءك من الناس، ازدراءً بهم. كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾ [البقرة: ٢٠٦]. والكِبر: أن تغمِطَ الناس، وتنظر إليهم باحتقار، من أجل نسبهم، أو فقرهم، أو ضعفهم، أو قلة علمهم، أو نحو ذلك. وقد قال عليه الصلاة والسلام: «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم»[2].

والمرء لا يدخل الجنَّة بسبب نسبه، أو غِناه، أو قوّة جسده، أو كثرة علمه، إنما يدخلها: ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ [ق: ٣٣]. ولهذا كان من دعاء خليل الله إبراهيم: ﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٧ ـ ٨٩]. القلب السليم: هو الذي سلم من الشرك والنفاق والابتداع والرياء والكِبْر وآفات القلوب. والحمد لله رب العالمين.

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (٩١)، وأحمد (٣٧٨٩)، وأبو داود في اللباس (٤٠٩١)، ابن مسعود.

(٢) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٤)، وأحمد في مسنده (٧٧١٣)، عن أبي هريرة.

الباب الرابع

الأخلاق العمليَّة

تمهيد
أهمية الأخلاق العمليَّة

الأخلاق العمليَّة: أهم ما تُعنى به الأديان السماويَّة، التي بعث الله بها رُسله إلى الناس، وأنزل كتبه إليهم، مثل اليهوديَّة التي بعث الله بها نبيَّه وكليمَه موسى، وأنزل عليه التوراة. والنصرانيَّة التي بعث الله بها نبيه وروحه عيسى بن مريم، وأنزل عليه الإنجيل، وختمها بالإسلام الذي بعث به نبيه، وخاتم رسله: محمدًا، وأنزل عليه كتابه الخالد القرآن: ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل: ٨٩]. ذلك، لأن من أهم ما تُعنى به الأديان بعد تصحيح العقائد والأفكار والمناهج، هو: تزكية العمل والسلوك الذي يقوم به الناس، إيجابًا كالفضائل المحمودة، وسلبًا كالرذائل المنهي عنها، كما في قوله تعالى في الوصايا العشر في سورة الأنعام: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥١ ـ ١٥٣].

ولهذا ركَّزت أوامر الدين، وتوجيهاته وترغيباته: على التَّحلِّي بفضائل الأخلاق، كما ركَّزت نواهي الدين وتحذيراته وترهيباته: على التَّخلِّي عن رذائل الأخلاق، كما يُفهَم من كلمة (التزكية)، التي هي من أهم أعمال الرسول محمد ﷺ الأساسية، والتي حدَّثنا القرآن عنها في أربع آيات من كتابه، آخرها

في سورة الجمعة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة: ٢].

فليست مهمة رسل الله الكرام: أن يشرحوا للناس الأخلاق النظريَّة، وما فيها من فلسفات مختلفة وربما متناقضة، ويبيِّنوا لهم المقياس الخُلقي، ويناقشوا المخالفين في مقاييسهم، ويدخلوا في مجادلات فكريَّة مع المعارضين لهم كليًّا أو جزئيًّا، هل مقياس الحكم الخلقي هو العقل؟ أم هو الشهوة واللذة؟ أم هو المنفعة؟ وأي منفعة يبتغيها؟ أهي منفعة الفرد؟ أم منفعة المجموع؟ وهل المقصود المنافع المادية أم المنافع الأدبية؟ وهل مقياس الحكم الخلقي في الضمير أم في ما سمَّوه الحاسة الخلقية، أم هو القوة التي تمثل الجبروت والهيمنة على الناس أم هو شيء من عند غير البشر، وهو الخالق سبحانه، الذي أنزل عليهم الكتب وبعث الرسل فليس هناك إلا الأخلاق الدينية؟ وأي دين يعتمده الناس: اليهودية أو المسيحية أو الإسلام؟

لم يدخل الأنبياء والرسل في الجدال مع الناس في هذه الأمور التي اختلفوا فيها، وزاد فيها اختلافهم.

مهمة الرسل:

إنما مهمَّتهم الأولى: الدعوة المباشرة للناس، بأن يُحسنوا التعامل مع ربِّهم، ومع أنفسهم، ومع أقوامهم، ومع أعدائهم، ومع الكون كلِّه، بما ينبغي التعامل به مع هؤلاء.

ربما اتَّسع الإسلام أكثر من غيره للدخول في هذه الساحة الكبيرة، وما فيها من فلسفات متصارعة، ومذاهب متناقضة، وتيارات متضاربة، وألقى فيها بما عنده من منارات مضيئة، وهدايات بيِّنة، ومن معالم شارحة، تنتهي بالبشر: ﴿لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]. كما ذكر القرآن، وكما بيَّنَّاه للناس من قبلُ في دراستنا هذه، وكما بيَّنه بصورة أوسع وأعمق شيخنا العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله، في كتابه القيم: (**دستور الأخلاق في القرآن**)، الذي قدَّمه في فرنسا إلى جامعة (السوربون)؛ ليكون رسالته العليا لنيْل الدكتوراه، وكان موضع التقدير والثناء، والذي تحدثنا عنه في الباب السابق.

بل نقول: إنَّ الأديان كلَّها، حتى غير الكتابيَّة أو السماويَّة منها، كالأديان

الأرضيَّة أو الوثنيَّة أو الوضعيَّة ـ سمِّها كما تسمِّيها ـ اهتمتْ بهذه الأخلاق العمليَّة، أكثر من اهتمامها بغيرها؛ لأهميتها القصوى للحياة الإنسانيَّة، وللحاجة والضرورة إليها.

لهذا ينبغي أن يشتدَّ اهتمامنا بهذا الجانب من دراسة الأخلاق، فهو الذي يحتاج إليه الأفراد في حياتهم العمليَّة والواقعيَّة، وتحتاج إليه الأُسَر في تعاملاتها الأصليَّة والفرعيَّة، وتحتاج إليه المجتمعات والشعوب والأمم في تعاملاتها الداخليَّة والخارجيَّة، وتحتاج إليه الدول والحكومات في سياستها العلنيَّة والسريَّة، والكبيرة والصغيرة، والمحليَّة والإقليميَّة والدوليَّة، في حالة السلم وفي حالة الحرب، في حالة السراء وفي حالة الضراء.

اهتمام الإسلام بالأخلاق العمليَّة:

ومن أجل ذلك اهتمَّ آخرُ الأديان السماوية (الإسلام) وعظُم تركيزه على هذه الأخلاق العمليَّة، التي يصاحبها الناس ويمارسونها في حياتهم، ويعيشون معها وتعيش معهم في كلِّ يوم، ويهتمُّ بها أنواع علمائهم، مع اختلاف تخصصاتهم: من فقهاء ومحدِّثين، ومتكلِّمين وصوفيين، وجامعين لأكثر من نوع من هذه العلوم، أو جامعين لها كلها.

يسعى الإسلام بكلِّ مصادره وبكلِّ تعاليمه، وكلِّ مقوماته، ليكون للمسلم مجموعة من الأخلاق والفضائل العالية، حتى قال عليه الصلاة والسلام: «إنما بُعثتُ لأتمِّم صالح الأخلاق». أو «مكارم الأخلاق»[1].

وكل سُوَر القرآن وآياته: تؤكِّد هذا المعنى الكبير، وكلُّ أحاديث الرسول الكريم، وأفعاله وتقريراته تزيد هذا المعنى وضوحًا وتأكيدًا، وهو ما اتَّفق عليه إجماع علماء المسلمين من كلِّ الاتجاهات، حتى نقل بعضُ علماء المتصوفة عن بعض علماء السلف: التصوُّف هو الخُلُق، فمن زاد عليك في الخُلق، فقد زاد عليك في التصوُّف[2].

وعلَّق الإمام ابن القيم في كتابه الموسوعي **(مدارج السالكين)** على ذلك،

---

(١) سبق تخريجه، ص١٢.

(٢) سبق تخريجه، ص١٣.

فقال: بل الدين كله هو الخُلق، فمن زاد عليك في الخُلق، فقد زاد عليك في الدين[1].

ولا غرْوَ أن مدح الله رسوله بهذه المدحة الكبرى، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤]. ولما سُئلت زوجه عائشة أم المؤمنين عن خلقه ﷺ، فقالت: «كان خلقه القرآن»[2]. ورضي الله عن عائشة، ما كان أفقهها، فقد أحسنت في وصف خلقه عليه السلام.

ومن هنا كان حرص الإسلام على أن يكون المسلم مُتحلِّيًا بمكارم الأخلاق، التي تفرَّقتْ مع رسل الله وأنبيائه أجمعين، وتَجمَّعت في محمد عليه الصلاة والسلام، كما أصرَّ الإسلام بكلِّ وضوح وقوة: على أن يكون الإنسان عابدًا لله تعالى، باعتباره ربه الذي خلقه فسوَّاه فعدَله، وصوَّره فأحسن صوَره، وخلقه في أحسن تقويم، وسخَّر له ما في السماوات وما في الأرض، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، وبعث له الرسول لتعليمه، وأنزل عليه الكتاب ليكمِّله، وضبَطَ حياته بالأحكام الشرعية، لينفِّذ ما يحبه الله منه، ويجتنب ما يكرهه الله منه، ولذلك أنزل عليه في كتابه: (افعلْ) و(لا تفعلْ)، أوامرَ ونواهيَ؛ ليستقيم على أمره، ويكون هواه تبعًا لما جاء به رسوله، ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة، ويطعم الطعام، ويُفشي السلام، ويُحسن الصيام، ليدخل الجنة بسلام.

مَن قرأ القرآن اتَّضح له ماذا يريد رب العباد منهم؛ ليكونوا له عابدين خاشعين، لربهم قانتين، إنه لا يريد منهم عبادة تُرْهِقُهم، وتُحْنِي ظهورَهم، ولا يريد منهم صيامًا يُجيعهم، ويضعف أجسامَهم، ولا يريد منهم زكاة تأخذ أموالَهم، وتتركهم فقراء يتكفَّفون الناس، ولا يريد منهم حجًّا يقهرهم، ويكلِّفهم فوق طاقتهم، بل إنما فرض حجَّ البيت على مَن استطاع إليه سبيلًا، وكلُّ العبادات إنما تجب بحسب الوُسع والاستطاعة: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. وكلُّ الطاعات والقربات المفروضة على المسلمين: إنما تجب حسب الوسع والاستطاعة: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: ٧].

---

(١) سبق تخريجه، ص. ١٤.

(٢) سبق تخريجه، ص٢٠.

وقال ﷺ: «ما نهيتُكم عنه، فاجتنبوه، وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم، فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم، واختلافهم على أنبيائهم»[1]. فالمنهيَّات مجتنبة لا محالة، والمأمورات مطلوبة حسب الاستطاعة.

وما حرَّم الله على العباد من المُحرَّمات يباح عند الضرورة، فالضرورات تبيح المحظورات، وعندما ذكر الله ما حرَّمه من الأطعمة، من الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهِلَّ به لغير الله، قال تعالى بعدها: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [البقرة: ١٧٣].

وفي سورة النساء التي حرَّم الله فيها ما حرَّم من أموال اليتامى، ومن إيذائهم، وحرَّم ما حرَّم من النساء الأقارب اللاتي تشتد قرابتهنَّ: من الأمهات والبنات والأخوات والعمَّات والخالات، وغيرهنَّ ممن حُرّمن من الرضاعة والمصاهرة والزواج، وغير ذلك، قال الله تعالى في أعقاب ذلك: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء: ٢٦ ـ ٢٨].

أنواع الأخلاق العمليَّة:

والأخلاق العمليَّة التي اهتمَّتْ بها الأديان، ليست نوعًا واحدًا، إنما هي عدَّة أنواع وأصناف، تدخل في كلِّ ما دخل فيه البشر.

فهناك: **الأخلاق الربَّانيَّة**، ويُسمِّيها البعض الأخلاق الدينيَّة، وتقابلها: **الأخلاق الإنسانيَّة**. وهذا التقسيم من حيث تعلُّق الأخلاق بمَن تتعامل معه أساسًا: أهو الله الرب تبارك وتعالى؟ أم هو الإنسان؟ فتُسمَّى الأخلاق الأولى: **الربَّانيَّة**، وتُسمَّى الثانية: **الإنسانيَّة**.

وهذه الأخلاق الإنسانيَّة يمكن تقسيمها إلى نوعين:

١ ـ الأخلاق الفرديَّة.

٢ ـ والأخلاق الاجتماعيَّة.

ويمكن تقسيم الأخلاق الاجتماعيَّة إلى عدَّة أقسام:

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٢٨٨)، ومسلم في الفضائل (١٣٣٧)، عن أبي هريرة.

فهناك **الأخلاق الأُسريَّة**: التي تتعلَّق بالعلاقة بين الأزواج بعضهم وبعض، وبينهم وبين الأولاد، وذرياتهم، وبينهم وبين الآباء والأمهات، والأقارب بعضهم وبعض.

وهناك **أخلاق المجتمع**: التي تتعلق بالعلاقة بين فئات المجتمع بعضهم وبعض، وخصوصًا بين الأغنياء والفقراء، وبين الأقوياء والضعفاء، وبين الطبقات الاجتماعيَّة المختلفة.

وهناك **أخلاق الأمَّة**: فمِمَّا لا شك فيه أنَّ الإسلام قد جعل هناك المجتمعات الإسلاميَّة المختلفة، وإن تباعدتْ أمصارها، واختلفتْ أجناسها وألوانها، وتنوَّعتْ ألسنتها ولغاتها، جَعَل منها أمَّة واحدة: في عقيدتها وأساسها الفكريّ والاعتقاديّ، وفي شعائرها التعبديَّة، وفي أسسها الأخلاقيَّة والعمليَّة، فهذه أخلاق الأمَّة.

وهناك **أخلاق الدولة**: وهي التي تقود الأمَّة وتحكمها وَفقًا لعقيدتها وشريعتها ومبادئها، وتكون هي المسؤولة عن الأمَّة في توجيهها وتشريعها، وأحكامها وأخلاقها.

وهناك **أخلاق العالَم**، أو قل: الأخلاق الدوليَّة: الأخلاق التي تحكم العالَم، وتحكم الدول المختلفة، التي ليست من الدول الإسلاميَّة، ولكن تربطها بالدول الإسلاميَّة علاقات عالميَّة، من الإخاء والعدل والأمانة والحرية والكرامة.

والأخلاق الإسلاميَّة تدخل كلَّ مجالات الحياة، لا يُستثنَى جانبٌ منها دون أن تدخل فيه، موجِّهةً ناصحة، مُرغِّبةً ومُرهِّبة، حافزة وزاجرة؛ إذ لا انفصال في الإسلام بين العلم والأخلاق، ولا بين العمل والأخلاق، ولا بين الاقتصاد والأخلاق، ولا بين السياسة والأخلاق، ولا بين الحرب والأخلاق.

ولا بأس أن نعرض نماذج لكلٍّ منها تكفي لتوضيح الصورة الخُلُقيَّة والسلوكيَّة، التي يبتغيها الإسلام من أبنائه في علاقتهم بالله، أو بأنفسهم، أو بالآخرين: أفرادًا وجماعات.

وعلينا هنا: أن نبدأ بتقسيمنا الأول للأخلاق العمليَّة، وهو انقسامها إلى أخلاق ربَّانيَّة وأخلاق إنسانيَّة.

ولنبدأ حديثنا عن: الأخلاق الربَّانيَّة أخلاق الإنسان مع مَن فوقه، وهو الله. باعتبارها الأخلاق الأولى التي يُطالَب بها الإنسان، يطالِب بها الدين، وتطالِب بها الفطرة.

الفصل الأول

الأخلاق الربَّانيَّة
أخلاق الإنسان مع مَنْ هو فوقه

وأعني بها: الأخلاق والفضائل التي تُحدِّد علاقة النفس البشريَّة بالله تعالى، من تقوى الله، وحبِّه وذكره، وشكره وحُسْن عبادته، والتوبة إليه، والرجاء في رحمته، والخشية من عذابه، والاعتصام به، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والحياء منه، والشكر لنعمته، والصبر على طاعته، والصبر عن معصيته، والرضا بحكمه، وإخلاص النيَّة له، والوفاء بعهده، والمسارعة في مرضاته، ومحبَّة أوليائه، ومعاداة أعدائه، والزهد فيما يعوق السير إليه.

إلى غير ذلك من الأخلاق التي ترسم الطريق لصلة الإنسان بخالقه، وهي الأخلاق التي يُشرق بها القلب، وترفرف بها الروح، مقتربة من الملأ الأعلى. وهذه هي الأخلاق التي عُني بها علمُ التصوف في الدرجة الأولى، وتوفَّر عليها شيوخه المُربُّون الصادقون؛ لتصفية الأرواح، وتطهير القلوب، وربطها بخالقها، والتنبيه على آفات النفوس وأمراضها، ومداخل الشيطان إليها، وقايةً لها من الوقوع في الشر، وعلاجًا لها إن سقطت فيه، والترقي بها في مدارج الكمال الممكن للبشر.

ونعرض هنا لأهم هذه الفضائل وأبرزها، حسبما دلَّ عليه القرآن والسنة.

١ ـ الإخلاص لله سبحانه

والإخلاص معناه: أن يجعل المسلمُ غايةَ سعيه: وجْهَ الله تعالى، واكتسابَ مرضاته، وأن يتجرَّد من كلِّ الدوافع الماديَّة والدنيويَّة، التي يسعى الناس وراءها من مال أو جاه، أو لقب أو مظهر، أو شهرة أو محْمَدة، أو نحو ذلك، وأن يكون شعاره ما خاطب الله به رسوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي

وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣].

إن الدعوات لا تنتصر بطُلَّاب الأضواء، وعُبَّاد الشهرة والظهور، بل بمن سمَّاهم الحديث الشريف: «الأبرار الأتقياء الأخفياء، الذين إن حَضروا لم يُعرفوا، وإن غابوا لم يفتقدوا، قلوبهم مصابيح الهدى»[1].

إنَّ تصفية السرائر من غبش الرغبات الدنيويَّة، بحيث يكون العمل خالصًا لله تعالى، يحتاج إلى مجاهدة عظيمة للنفس ودوافعها، والتنبُّه إلى مداخل الشيطان إليها، ولكن الله تعالى لا يقبل من العمل، إلا ما كان خالصًا لوجهه: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠]. فكل جهد يُبذَل لهذه الغاية ليس ضائعًا.

وإذا كانت عبادة الله هي الغاية التي من أجلها خلق الله الكائنات المُكلَّفة العاقلة، المنظورة لنا وغير المنظورة، الإنس والجن، فلا قيمة لهذه العبادة ما لم يكن رُوحها الإخلاص لله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البيِّنة: ٥]. ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾ [الزُّمر: ١١].

وعلى المسلم أن يجتهد في تخليص نيَّته من كلِّ شَوْب، في الأعمال الدينيَّة التي يُبتغى بها وجه الله تعالى، ولا يُبطلها بالرياء، الذي هو وصف المنافقين الذين: ﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

ولهذا اشترط الإسلام النيَّة في كل عبادة يتقرَّب بها المرء إلى ربه، وكان أول حديث افتتح به الإمام البخاري جامعه الصحيح: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»[2].

ولهذا قد يُثاب الإنسان على عمل نواه، وإن لم يقدر على عمله، فقد

(١) رواه ابن ماجه في الفتن (٣٩٨٩)، والحاكم في الإيمان (١/ ٤) وقال: صحيح لا علة له، وفي الرقاق (٤/ ٣٢٨) وصحَّحه، وأما في زوائد ابن ماجه (١٤١٠)، فضعفه بابن لهيعة، مع أن الراوي عنه هو عبد الله بن وهب، والتحقيق: أنه إذا روى عنه أحد العبادلة ومنهم ابن وهب ـ فحديثه مقبول، ويصححه كثير من المحققين. وكان الأولى أن يضعف في سند ابن ماجه بعيسى بن عبد الرحمن فهو متروك. وسند الحاكم في الموضع الأول ليس فيه ابن لهيعة ولا عيسى، فهو العمدة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (١)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٧)، عن عمر بن الخطاب.

يكتب الله أجر المهاجر لمن نوى الهجرة، ثم عاجله الموت، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ [النساء: ١٠٠].

وهذا يكون في عمل الصالحات، كما يكون في عمل السيئات.

وقال عليه الصلاة والسلام: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار». فقلت: يا رسول الله! هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصًا على قتل صاحبه»[1].

وقد يقتلُ شخصٌ آدميًا، فيكون قتله سببًا في دخوله جهنم، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء: ٩٣].

وقد يقتل آخرُ شخصًا، فلا يكون عليه وزر؛ لأنه لم ينوِ قتله، ولكن وقع قتله خطًا، فعليه كفارة، وعلى عاقلته الدِّيَة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾ [النساء: ٩٢].

وقد يقتل شخصٌ آخرَ، ولكنه ليس عليه شيء؛ لأن الشخص قَتَل قبل ذلك، وقد حُكم عليه بالإعدام قصاصًا، وكُلف الرجل بقتله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [البقرة: ١٧٩]. فهو مُكلَّف من جهة الدولة بالقصاص، تحقيقًا للعدالة، فلا حرج عليه.

٢ ـ مراقبة الله

مراقبة الله تعالى عند العمل: حتى يأخذ حقه من الإحسان والإتقان.

ولهذا حين سأل جبريل النبيَّ ﷺ عن (الإحسان) قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[2].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الإيمان (٣١)، ومسلم في الفتن (٢٨٨٨)، عن أبي بكرة.

(٢) متفق عليه، رواه البخاري في الإيمان (٥٠)، ومسلم في الإيمان (٩) عن أبي هريرة.

وهذا مطلوب في كل عمل ديني أو دنيوي، فإحسان العمل فريضة على كل مسلم، فإنَّ الله كتب الإحسان على كل شيء. ولا يحفز على الإحسان شيء مثل يقينه بأن الله تعالى مطَّلع عليه، وناظر إليه، يسمع ويرى.

ويتأكَّد ذلك إذا كان العمل ذا طبيعة دينية مثل العمل في الدعوة الإسلامية والحركة الإسلامية، وهو إما فرض عين، وإما فرض كفاية يقوم فيه العاملون بالنيابة عن غيرهم من القاعدين والمتفرجين، بل المثبطين والمتحاملين من أبناء الأمة.

إنَّ العامل في هذا الميدان لا يفتقر إلى رقابة، ولا إلى تفتيش إداري؛ لأنه عليه رقابة من داخل ذاته، وهو أول مفتش على نفسه. وهو يذكر أبدًا قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤﴾ [الحديد: ٤].

٣ ـ محاسبة النفس

فإذا كان تصحيح النية قبل العمل، والمراقبة عند العمل، فإن المحاسبة تأتي بعد العمل.

وقد جاء في الحديث: «الكيِّس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنَّى على الله»[١]. والكيِّس: العاقل، ومعنى «دان نفسه»: أي حاسبها. كما نقله النووي عن الترمذي وغيره من العلماء[٢].

وجاء عن عمر: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم[٣].

وعن ميمون بن مهران: التقيُّ أشدُّ حسابًا لنفسه من سلطان غاشم، ومن شريك شحيح[٤].

وهذه المحاسبة للنفس تدفع بها دائمًا إلى الاجتهاد في تصويب الخطأ،

---

(١) رواه أحمد (١٧١٢٣) وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف، والترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٥٩) وقال: حديث حسن، وابن ماجه في الزهد (٤٢٦٠)، والحاكم في التوبة (٤/ ٢٨٠) وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، عن شداد بن أوس.

(٢) رياض الصالحين (١/ ٤٢).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه في الزهد (٣٥٦٠٠).

(٤) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٦١/ ٣٥٣).

واستكمال النقص، والتطلع إلى الكمال، وتبعد بالمرء عن الإعجاب، والغرور بعمله، والازدراء لغيره.

وهذه المحاسبة أصل من الأصول الأخلاقية والتربوية في الإسلام. ولهذا أجمع على ضرورتها المتصوِّفة والأخلاقيُّون والمربُّون.

والناس يردِّدون اليوم كلمة (النقد الذاتي) ولا حرج في استعمال الكلمة، إنما الحرج في اعتبار هذا المعنى جديدًا علينا، مقتبسًا من غيرنا. وما هو إلا محاسبة النفس التي جاء بها قرآننا وسنتُنا، وحفلت بها مصادر ثقافتنا.

٤ ـ التوكل على الله

التوكل على الله: بمعنى الثقة به والاعتماد على قوَّته ومعونته في مواجهة المصاعب والشدائد، فهو بذلك يُسند ظهره إلى ركن شديد، ويضع يده إلى يدِ مَن لا يضيع حليفُه، ولا يُخذل مَن استنصر به: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [آل عمران: ١٦٠]. ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطَّلاق: ٣]. ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾ [النساء: ٨١]. ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنفال: ٤٩]. هو عزيز، فلا يذِلُّ مَن التجأ إلى حماه، وحكيم فلا يضيع مَن وثق بتدبيره.

وقديمًا قال رُسُل الله في مواجهة الطغاة من أقوامهم وقد هدَّدوا وتوعدوا: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [إبراهيم: ١٢].

ليس معنى التوكل: اطِّراح الأسباب، أو التقصير في بذل الجهد، اتكالًا على عون الله، فهذا تواكُل لا توكُّل.

ولما ترك أحد الأعراب ناقته سائبة، بدعوى التوكل على الله تعالى، خطَّأه النبي ﷺ، وقال له: «اعقلها ـ أو قيِّدها ـ وتوكَّل»[1].

وقد أصبح هذا الحديث النبوي شعارَ كلِّ مسلم: أن يجتهد في تعاطي

(١) رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٥١٧) وقال: حديث غريب، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٨/ ٣٩٠)، وحسَّنه الألباني في تخريج مشكلة الفقر (٢٢)، عن أنس بن مالك.

الأسباب، واتِّخاذ الاحتياطات، وترتيب المُقدمات، ويدعَ النتائج بعدها لله وحده، كما فعل النبي ﷺ في هجرته، حيث هيَّأ لها ما يلزم لنجاح الرحلة، وتعْمِية المشركين عنه، فبعد أن هيَّأ الرواحل، والرفيق والدليل، واختار الغار الذي سيلجأ إليه في طريقٍ غير طريق يثرب ـ مهْجَرِه ـ وأعدَّ من يأتيه بالطعام والأخبار، ومن يُعفِّي على آثار الأقدام، فلمَّا دخل الغار وصاحبُه معه، وانتهى المشركون في بحثهم اللَّاهث عنه إلى الغار، قال أبو بكر في إشفاق وحَذَبٍ: يا رسول الله، لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا. فقال الرسول ﷺ في ثقة واطمئنان: «يا أبا بكر، ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما؟ لا تحزن إن الله معنا»[1].

٥ ـ حبُّ الله تعالى

وحبُّ المسلم لربِّه تعالى: حبٌّ حقيقيٌّ لا مَجازي، عميق لا سطحي، أصيل لا طارئ، فإن عبادة الله ـ التي هي غاية الوجود الإنساني، ومهمة المسلم الأولى في الحياة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦] ـ إذا حلَّلناها إلى عناصرها الأوَّليَّة، وجدناها تتكوَّن من عنصرين أساسين ممتزجين هما: تمام المحبة لله، مع تمام الخضوع له.

وإنما يحب المسلم ربَّه سبحانه لِمَا غرسه الإسلامُ في أعماقه: أنه تعالى مَجْمع الجمال والجلال والكمال، ولا يخفى أن الإنسان مفطور على حبِّ الجمال وعشق الكمال، كما تدلُّ على ذلك الوقائع والشواهد، فكيف بمَن هو مصدرٌ لكلِّ جمال، وينبوعٌ لكلِّ كمال في هذا الوجود؟!

ويحبُّ المسلم ربَّه كذلك؛ لأن كل ما يغمره من نِعَم وخيرات في نفسه، وفيما حوله، ومَن حوله، وفي الكون كلِّه؛ إنَّما هو من فضل الله تعالى وإحسانه: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

والإنسان مفطور على حبِّ صاحب الإحسان، فكيف بمَن حياتنا وبقاؤنا وهداياتنا به، ومنه جلَّ شأنه، ومَن لا نرى الخير إلا مِن عنده؟ إنه سبحانه أحقُّ أن نحبَّه من كل ما سواه.

وإذا كُنَّا نُحب آباءنا وأمهاتنا ـ لأنهم سبب وجودنا ونمائنا ـ فالله تعالى هو

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري في التفسير (٤٦٦٣)، ومسلم في فضائل الصحابة (٦٣١٩)، كما رواه أحمد (١٢)، والترمذي في تفسير القرآن (٣٠٩٦)، عن أنس بن مالك.

مُسبِّب الأسباب كلِّها، وهو مُجري كلّ خير ينالنا بواسطة أو بغير واسطة.

ويحب المسلم ربه كذلك، لمعنًى أعمق وأبعد، نبَّه عليه الإمام الغزالي في (**إحيائه**)، وهو يرجع إلى ما في تكوين الإنسان من عنصر ربَّاني، يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩]. وقوله عليه الصلاة والسلام: «إن الله خلق آدم على صورته»[١]. وليس المراد بها قطعًا المُشابهة في الصورة الحسِّيَّة الظاهرة، فإنَّ الله يتنزَّه عن أن تكون له صورة كصور المخلوقات: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. وإنما المراد هنا ما يُميِّز الله به الإنسانَ حين جعله حيًّا عالمًا، قادرًا مريدًا، سميعًا بصيرًا متكلِّمًا، فمنحه ربُّه أوصافًا باطنة من أوصافه تعالى - مع الفارق الكبير طبعًا[٢] - فهذه العلاقة المعنويَّة الباطنة، من أسرار انجذاب العبد إلى ربِّه، وإقباله بكلِّ قلبه عليه، فيجد عنده الحُبَّ والمودَّة، والترحيب والتقريب، حتى جاء عنه تعالى: «مَن تقرّب إليَّ شبرًا تقرَّبتُ إليه ذراعًا، ومَن تقرَّب إلي ذراعًا تقرَّبت إليه باعًا»[٣].

ومن أسمائه تعالى (الودود) كما في سورة البروج: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤﴾ [البروج: ١٤]. وهو الذي يودُّ أولياءه ويحبُّهم، ومن أوصافه أنه: ﴿يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧٦﴾ [آل عمران: ٧٦]. كما يحبُّ المقسطين والمحسنين والصابرين والتوابين والمتطهرين، كما بيَّن ذلك القرآن.

وقد وصف الله تعالى المؤمنين المرجوِّين لنصرة دينه إذا ارتدَّ عنه مَن ارتد، بقوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]. فهي محبَّة متبادلة بينهم وبين ربِّهم، وقد بدأ بمحبَّته تعالى لهم، وثنَّى بمحبتهم له. وفي آية أخرى يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

علامات محبة الله تعالى:

وحبُّ الله ليس دعوى تُدَّعى، ولا كلامًا يُقال، بل هو معنى راسخ في النفس يؤثِّر في كلِّ تصرفات الإنسان وعلاقاته.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الاستئذان (٦٢٢٧)، ومسلم في البر والصلة (٢٨٤١)، عن أبي هريرة.

(٢) ولا يخفى على عاقل أنّ صفات الخالق لائقة بجلاله وكماله، وصفات المخلوقين مناسبة لحالهم، وبين الصفة والصفة كما بين الذات والذات.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في التوحيد (٧٤٠٥)، ومسلم في التوبة (٢٦٧٥)، عن أبي هريرة.

وأول علاماته: اتباع رسول الله، والسير على منهاجه، كما قيل: إن المُحبَّ لمن يُحبُّ مُطيع، وفي القرآن: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣٢].

ومن علاماته: أن يحبَّ كلَّ مَن يحبُّه اللهُ، وكلَّ مَن يحبُّ اللهَ، وبعبارة أخرى: أن يكون حبُّه وبغضُه في الله، وفي الحديث المتفق عليه: «ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحبَّ المرءَ لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار»[1].

ومن علاماته: إيثار مرضاة الله تعالى على كلِّ ما يتعلَّق الناس به ويحرصون عليه من مالٍ وولد، وأهلٍ ووطن، ومصالح وعلائق، بحيث لو وُضع حبُّ الله ورسوله في كِفَّة، وكل مشتهيات الحياة الدنيا وروابطها في كفة أخرى؛ لرجح حب الله في نفس المؤمن: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤].

٦ ـ خشية الله عز وجل

وأساسها: الشعور بأنَّ الله تعالى مطَّلع على السِّرِّ والنَّجوى، وأن كلَّ امرئ موقوف بين يديه، مُحاسَب على ما قدَّم، ومخلَّد فيما عمل من خير أو شر: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [الانفطار: ١٩].

ولهذا وصف الله تعالى المتقين بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنبياء: ٤٩].

وحكى عن الأبرار من عباده قولَهم: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [الإنسان: ١٠].

ووصف الله السابقين إلى الخيرات بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣)، كلاهما في الإيمان، كما رواه أحمد (١٣٥٩٢)، والترمذي في الإيمان (٢٦٢٤)، عن أنس.

مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون: ٥٧ ـ ٦٠].

وقد جاء في الحديث أن عائشة قالت: في هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون: ٦٠]: يا رسول الله، هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر، وهو يخاف الله؟ قال: «لا يا بنت أبي بكر، يا بنت الصديق، ولكنه الذي يصلِّي ويصوم ويتصدَّق، وهو يخاف الله ﷻ»[1].

٧ ـ الرجاء في رحمة الله

هذا الرجاء بجوار الخشية والخوف من الله: هو الذي يُحدِث التوازن في نفس المسلم، فهو يخاف ربَّه خوفًا لا يبلغ به مرحلة اليأس من رحمة الله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف: ٨٧]. كما أنه لا يرجوه رجاءً ينتهي به إلى درجة الأمن من مكر الله: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٩]. بل شأن المسلم مع ربه هو كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزُّمر: ٩].

ومهما تعاظمت ذنوبه، فإن عفوَ الله ورحمته أعظم منها: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزُّمر: ٥٣]. فإنه سبحانه هنا يأمر رسوله أن يخاطب هؤلاء الذين أسرفوا على أنفسهم بالمعصية، ويخاطبهم بأنهم: عباد الله ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ﴾.

قال الله لرسوله ﷺ: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ [فصِّلت: ٤٣]. ولذا قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر: ٤٩ ـ ٥٠]. وأنه سبحانه: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾ [غافر: ٣].

---

(١) رواه أحمد (٢٥٢٦٣) وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف لانقطاعه، والترمذي في التفسير (٣١٧٥) وسكت عنه، وابن ماجه في الزهد (٤١٩٨)، وصحَّحه الألباني في صحيح الترمذي (٢٥٣٧).

٨ ـ الشكر لنعماء الله

والشكر يكون بالقلب: وذلك بالاعتراف بفضل الله الذي لا تُعدُّ نعمه ولا تُحصى، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]. ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]. ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

ويكون باللسان: بالحمد والثناء على الله تعالى، كما نبَّه على ذلك بمثل قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُواْ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الزخرف: ١٢ ـ ١٤]. وهذا ما علَّمه القرآن لنا: أن نقول حين نركب السفُن أو القطارات، والسيارات والطائرات والأنعام، متذكِّرين نعمة الله علينا، ومتذكرين أنَّا إليه راجعون.

وبالجوارح كُلِّها: وذلك باستخدام النعمة فيما خُلقتْ له، بحيث تكون عونًا على طاعة الله تعالى، ومنفعةً لخلْقه، لا أداة لمعصيته، أو الإضرار بالناس: ﴿كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ [سبأ: ١٥].

والشكر لله: هو الذي يجعل صاحبه أهلًا لبقاء النعمة، وزيادتها لديه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم: ٧].

وضرب القرآن أمثلة لأفراد وأقوام كفروا نعمة الله، ولم يُؤدُّوا شكره، فسلبهم الله إياها: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ: ١٧].

وقد ذكر القرآن نماذج وأمثلة حيَّة لعباده الشاكرين، لعلَّ أبرزهم سليمان عليه السلام، الذي آتاه الله مُلكًا لم يؤتَ لأحد من بعده، وعلَّمه منطق الطير، وقال حين سمع النملة وقولها لقومها: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل: ١٩].

٩ ـ الصبر على أمر الله

والصبر: هو العنصر المُكمِّل للشكر، فالحياة: نعماء وبأساء، أو سرَّاء وضرَّاء، فالنعماء والسرَّاء: تُقابَل بالشكر، والبأساء والضراء: تقابَل بالصبر، ولهذا قرَنَ الله تعالى بين وصف الصبر والشكر في عدد من آيات كتاب الله بهذه الصبغة: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾ [إبراهيم: ٥].

وفي الحديث الصحيح: «عجبًا لأمر المؤمن! إنَّ أمره كلَّه له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سرَّاء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرَّاء صبر، فكان خيرًا له»[1].

والصبر قد يكون على ابتلاء الله وقضائه، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٦].

وقد يكون على طاعة الله تعالى وعبادته، كما في قوله تعالى: ﴿رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم: ٦٥]. ومنه صبر إسماعيل وقد عرض عليه أبوه أن يذبحه تقرُّبًا إلى الله تعالى، فقال: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصَّفات: ١٠٢].

ويدخل في ذلك الصبر على مشاقِّ الدعوة إلى الله، وأذى المعاندين من خلقه، كقوله تعالى لرسوله منذ فجر الدعوة: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾﴾ [المدثر: ١ ـ ٧]. ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقد حكى القرآن قول الرُّسل لأقوامهم: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا﴾ [إبراهيم: ١٢].

وقد نبَّه الله المؤمنين ليوطِّنوا أنفسهم على تحمُّل الأذى المنتظر، الذي لا مفرَّ منه في سبيل دعوتهم، مُقسمًا مؤكِّدًا: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران: ١٨٦].

وقد يكون الصبر عن مشتهيات النفس، مما لا يحبه الله، كالصبر عن مقابلة السيئة بمثلها، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل: ١٢٦].

---

(١) رواه مسلم في الزهد والرقائق (٧٦٩٢)، وأحمد (١٨٩٣٤)، عن صهيب.

١٠ - التوبة إلى الله تعالى

والتوبة تَعني الرجوع إلى الله، فإنَّ الشأن في الإنسان أن يكون مع الله دائمًا بالطاعة والإنابة، وإنما خُلق الإنسان ليكون لله، ولكنه بالمعاصي يشرد من الله، ويبعد عن ساحته، وهو بالتوبة يُصحِّح مساره، ويرجع إلى وضعه الصحيح من ربِّه.

والقرآن الكريم يأمر المؤمنين جمعيًا بالتوبة: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٣١﴾ [النور: ٣١]. وذلك أن الله لم يخلق الإنسان ملاكًا مُطهَّرًا، بل خلقه على طبيعة مزدوجة، فيه عنصر ماديٌّ يجذبه إلى الأرض، وعنصر روحيٌّ يعلو به إلى السماء، فهو في شدٍّ وجذب، بين غرائزه الهابطة، وأشواقه الصاعدة، وقلَّما يسلم مِن تقصيرٍ فيما أُمِر به، أو إلمام بما نُهِيَ عنه. وحسب المرء ذنبًا أن يشعر أنه لا ذنب له، كيف؟ وقد قال سيد البشر: «يا أيُّها الناس، توبوا إلى الله، فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة»[١].

وهكذا كلما شفَّتْ روح الإنسان، وارتقى في سُلَّم السير إلى الله، شعر بعظم حقِّ الله عليه، واستصغر عمله في حقِّ ربِّه، فأحسَّ التفريط، وسارع إلى التوبة والاستغفار.

والواجب على العاصي أن يُسارع بالتوبة، قبل أن تتراكم أصداء الذنوب على قلبه، فيصدأ ويقسو، ويسودَّ يومًا بعد يوم، حتى لا تنفذ إليه أشعة الخير بعدُ، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾ [المطففين: ١٤].

كما يجب أن يعلم أن ذنوبه لا تُغلق بابَ الله دونه، فالله ينادي عباده دائمًا ليتوبوا إليه، ويبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل[٢].

ورسوله عليه الصلاة السلام يقول: «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله فيغفر لهم»[٣]. ويقول ﷺ: «كل بني آدم خطَّاء، وخير الخطائين التوابون»[٤].

---

(١) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٠٢)، وأحمد (١٨٢٩١)، وأبو داود في الصلاة (١٥١٥)، عن الأغر بن يسار المزني.

(٢) إشارة إلى الحديث: «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها». رواه مسلم في التوبة (٢٧٥٩)، وأحمد (١٩٥٢٩)، عن أبي موسى.

(٣) رواه مسلم في التوبة (٢٧٤٩)، وأحمد (٨٠٨٢)، عن أبي هريرة.

(٤) رواه أحمد (١٣٠٤٩) وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٩٩)، وقال: حديث غريب، وابن ماجه في الزهد (٤٢٥١)، وصحَّحه الألباني في المشكاة (٢٣٤١)، عن أنس.

ولا عجب أن يخطئ ابن آدم، فقد أخطأ أبوه من قبلُ، حين أكل من الشجرة، ولكنه غسل خطأه بالتوبة، حين قال هو زوجه: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٣]. ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة: ٣٧].

إنما العجيب هنا أن يتمادى الآدمي في خطئه، ولا يرجع إلى ربِّه منيبًا مستغفرًا، فيكون بذلك ظالمًا لنفسه: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجرات: ١١].

والتوبة المطلوبة هي التوبة النصوح: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التَّحريم: ٨]. والتوبة النصوح هي التوبة التي يجتمع فيها الشعور بالندم، والحسرة على ما مضى من الذنب، مع العزم المصرِّ على عدم العودة إليه، بجانب الإقلاع بالفعل عنه، وإحلال الصالحات محلَّ السيئات من العمل.

وبهذا يتجدَّد بناء الإيمان الذي نالت منه الذنوب: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٧٠].

١١ ـ تقوى الله سبحانه

وجماع الأخلاق الدينيَّة كلها يتمثل في هذه الكلمة الجامعة: التقوى، أو تقوى الله.

وهي وصيَّة الله للأوَّلين والآخرين، كما قال تعالى في كتابه: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٣١].

وهي أفضل ما يتزوَّد به المرء في سفره إلى دار القرار: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة: ١٩٧].

وهي الضمان الموثَّق لرعاية أوامر الله ونواهيه، وتحويل تعليماته إلى واقع مَرْئيٍّ سليم. ولهذا كثيرًا ما نجد القرآن يختم تشريعاته ووصاياه، بقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

والتقوى ليست طقوسًا ولا كلامًا ولا مظاهر، إنَّها في الأساس قلب يوقن برقابة الله تعالى، وبحتميَّة لقائه وحسابه وجزائه، فيتَّقي ما يُسخطه، ويحرص على ما يُرضيه تعالى، ومن هنا قال النبي ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى أجسادكم، ولا إلى صُوَركم ولكن ينظر إلى قلوبكم». وأشار إلى صدره، وقال معلِّمًا

لأمته: «التقوى هاهنا»[1]. يكررها ثلاث مرات.

واليقين القلبيُّ الذي من لوازمه الخشية والحياء من الله تعالى، لا بدَّ أن يكون له ثمرة تتجلَّى في عمل الصالحات، واجتناب السيئات، فقد وصف الله المتقين في مطلع سورة البقرة وأوائل المصحف الشريف بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [البقرة: ٣]. وفي سورة آل عمران: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٣٤﴾ [آل عمران: ١٣٤].

والتَّقيُّ لا يمتاز عن غيره بالعصمة من الخطايا، فهو بشر كسائر الناس، ولكنه إذا همَّت نفسه بالمعصية، أو وسوس له الشيطان بسوء، سرعان ما يتذكَّر جلال الله تعالى، وأنه يسمع ويرى، ويتذكَّر وقوفه بين يديه للحساب، فيبصر الطريق واضحًا، ويمضي في سبيل الخير راشدًا، وفي هذا يقول القرآن: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۝٢٠١﴾ [الأعراف: ٢٠١].

فإن زلَّتْ قدمه يومًا في طريق المعصية، وغلبت وسوسةُ شيطانِ الشر فيه، على إلهام ملاك الخير، لم يستسلم لشيطانه، ولم يغرق في أوحال الشر إلى آذانه، بل ما أسرع ما ينهض من عثرته، ويصحو من سكرته، ذاكرًا نفسه بالذنب، وربه بالمغفرة، فيقف على عتبة الله تائبًا مستغفرًا ضارعًا.

اسمع معي إلى ما وصف الله به المتقين الذين أعد لهم جنات عرضها السماوات والأرض إذ يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٣٥ أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ۝١٣٦﴾ [آل عمران: ١٣٥ ـ ١٣٦].

وجدير بمَن رُزق هذه التقوى أن ينير الله بصيرته، ويجعل له من كلِّ ضيق مخرجًا، ومن كلِّ عُسْر يسرًا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]. ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطَّلاق: ٢ ـ ٣]. ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ۝٤﴾ [الطَّلاق: ٤]. ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ۝٥﴾ [الطلاق: ٥].

---

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٤)، وأحمد (٧٧٢٧)، عن أبي هريرة.

تعقيب
مناقشة رأي بعض الغربيين والمستشرقين في الأخلاق الإسلامية الربانية

دعاوى شاذة لبعض الغربيين:

زعم بعض الكتَّاب الغربيين: أن الأخلاق الإسلاميَّة خَطِرة على الفرد؛ لأنها حافلة بروح الخضوع والاستسلام السلبيّ للقوّة الإلهيَّة، هذا الاستسلام الذي يوجِبه اسمُ الإسلام نفسه.

إنهم يذهبون إلى أنَّ الإنسان الذي يستبدُّ به مِثْلُ هذا الحسِّ تجاهَ الإله الجبار، من الاتِّكال عليه، وتفويض أمره إليه تفويضًا كاملًا، وإخْضاع إرادته الحرَّة لإرادتِه سبحانه؛ لا يمكن أن يعمُر نفسَه الحافزُ ذاتُه الذي يحفِّز مَن يقف أمامَ الله وقفةَ السيدِ المُطلَق لِضميره.

وزعم آخرون في تصوير الإسلام لعِلاقة الإنسان بالله تعالى أنها علاقة العبد بسيِّده؛ تضعُ الإنسان في مرتبة الذُّل والدونيَّة، وتُشعِره أبدًا بالضعف والاستكانة!!

وقال آخرون: إن تصور المسلمين للخالق أنه إله جبَّار متكبِّر قهَّار، وأنه ذو بطش شديد، وأنه عزيز ذو انتقام، وأن الإنسان يحب دائمًا أن يخافه ويخشاه، هذه الأفكار والمشاعر تؤثر في نفسيَّة المسلم، وتجعلها دائمًا في حالة رُعب وخوف، بدلَ أن يكون في حالة أمْن وسكينة.

وهذه المزاعم كلها تقوم على تخيُّلات ومبالغات لا سند لها من دين الإسلام الصحيح، لا من قرآنه، ولا من سُنَّته، ولا من هَدْي الصحابة ومن اتَّبعهم بإحسان، ولا من أقوال الأئمة الثقات.

والحق أنَّ الخلاف بيننا وبين هؤلاء إنما هو خلاف معرفيٌّ أساسًا؛ لأنه خلاف في معنى (الإله)، ومعنى (الإنسان)، فهم لا يعرفون حقيقة (الألوهيَّة)، كما يعرضها الإسلام، ولم يقدُروا اللهَ حق قدره. ولم يعرفوا (الإنسانيَّة) حق معرفتها، فليس الإنسان إلهًا يفعل ما يشاء، وليس الإنسان أيضًا حيوانًا لا فكر له ولا إرادة، بل هو مخلوق مُكرَّم من الله، استخلفه في أرضه، تحكمه قوانين الحياة والموت.

ولا يوجد كتاب عرَّف بالله تعالى، وكشف عن أسمائه الحُسنى وصفاته العُلا، وعن أفعاله في كونه، وآياته في الأنفس والآفاق، وخاطب العقل والعاطفة والكيان الإنسانيَّ كله بذلك: غير القرآن الذي أبدع في ذلك وشفى.

العبوديَّة لله هي عين الحريَّة:

ومَن قرأ القرآن وتدبَّره في سوره المكيَّة والمدنيَّة، لم يسْتنكِف أن يكون عبدًا لله باختياره وإرادته، كما أنه عبدٌ له باضطراره، حيث تجري عليه قوانينه وسننه في الحياة والموت، والصحة والمرض، والقدرة والعجز، والقوة والضعف، وغيرها.

والعبوديَّة لله هي عين الحرية؛ لأنها التحرُّر من العبوديَّة للبشر ولِلذَّات وللأسماء وللأوهام، وإنما الذي أفسد حياة البشر عبوديَّةُ بعضِهم لبعض، واتِّخاذ بعضهم لبعضٍ أربابًا من دون الله، من ملوك الدنيا، أو من رجال الدين، وهذا ما جاء الإسلام ليُبطله، ويمحو آياتِه؛ ولذا كان رسول الإسلام يختم رسائله إلى قيصر وأمراء أهل الكتاب من النصارى بالآية الكريمة: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤].

دفاع المستشرقة لورا فيشيا عن أخلاق الإسلام:

تقول المستشرقة الإيطالية لوريا فيشيا في كتابها **(دفاع عن الإسلام)**: «إن الإسلام لم يكن قطُّ عقبةً في سبيل الكمال الخلقي، وليس هذا فحسب، بل لقد وُفِّق قبل أي دين آخر ـ إذْ كان يملك في ذات نفسه قوَّةً فعَّالة موجهةً نحوَ الأفعال الحميدة ـ إلى تهذيب الناس، والارتفاع بهم نحو الله، وإنما نجح الإسلام؛ لأنه لم يكن أقل اهتمامًا بالمسؤوليَّة الأخلاقيَّة، عن أقرانه من الأديان التوحيديَّة الأخرى، التي اعترف بأن أنبياءها إخوانه؛ ولأنه كان من بعض النواحي أكثر عناية بهذه المسؤولية من أولئك الأنبياء، إذ أدخل في حسابه الضعف البشري، ودعا أتباعه إلى مُثُل عليا غير بعيدة عن متناولهم، فالفضائل نفسها التي تقدِّمها اليهودية والنصرانية بوصفها الغاية القصوى لحياة الإنسان الأخلاقيَّة، لا يقدِّمها الإسلام كمُثُل عليا فحسب، بل يأمر بها كمُثُل عليا أيضًا».

أي: يمارسها الإنسان في حدود استطاعته، مجاهدًا في سبيل التزكّي والترقي نفسَه، حتى يصبح من الذين ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت: ٣٠].

«ومن هذه المثل العليا: الإشفاق على المخلوقات جميعًا، وحُسْن التفهُّم والصفْح، والبساطة، واللياقة في العلاقات الاجتماعيَّة، وتقبل الرزايا، وما إلى ذلك، والآيات القرآنية التي تؤكد على العمل الصالح تعدّ بالآلاف»[(١)].

«إن ثَمَّة حديثًا شهيرًا يقول: «لا رهبانية في الإسلام»[(٢)]. والواقع أن الإسلام لا يبالي بالزهديَّة أو النُّسكيَّة بتعذيبها العقيم للجسد، وما تنطوي عليه من ضروب الحرمان غير الضروريَّة، وبصياماتها الموصولة، ولياليها المنفقة في الصلاة، وفيما يتصل بهذا الجانب لا تطالب السنةُ الإسلامية بأكثر من حياة أمينة إنشائية، يسلك فيها المرء منتصف الطريق، متذكِّرًا الله من ناحية، ومحترمًا حقوق الجسد والأسرة والمجتمع وحاجاتها من ناحية ثانية.

قال الرسول ﷺ موجِّهًا الخطاب إلى فتًى مُتَّقد الحماسة أكثر مما ينبغي (هو عبد الله بن عمرو بن العاص): «إن لجسدك عليك حقًّا، ولزوْرك عليك حقًّا، ولزوجك عليك حقًّا، فأعطِ كل ذي حق حقه»[(٣)].

وقال لذلك الرجل الذي سأله النصح في موضوع الصدقات (تقصد سعد بن أبي وقاص، الذي مرض، وأراد أن يوصي بماله كله، أو ثلثيه، أو نصفه، فرفض ذلك النبي ﷺ، فلما عرض سعد الوصية بثلث ماله، أقره النبي، وقال له ما ذكرته): «تصدَّق بثلث مالك، والثلث كثير، إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس»[(٤)].

والتبتل الصارم موضوع نقد قاسٍ في الإسلام، وهو يتنافى مع السنَّة التي

---

(١) دفاع عن الإسلام ص٧٦. ترجمة منير البعلبكي ـ نشر دار العلم للملايين بلبنان ـ الطبعة الخامسة ١٩٨١.

(٢) لم يصح حديث بهذا اللفظ (لا رهبانية في الإسلام)، ولكن صحَّ النهي عن التبتل والخصاء، عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: رد رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون التبتل، ولو أذن له لاختصينا. متفق عليه: رواه البخاري (٥٠٧٣)، ومسلم (١٤٠٢)، كلاهما في النكاح.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الصوم (١٩٧٥)، ومسلم في الصيام (١١٥٩)، عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٢٧٤٢)، ومسلم (١٦٢٨)، كلاهما في الوصايا، كما رواه أحمد (١٤٤٠)، والنسائي في الوصايا (٣٦٢٧)، عن سعد بن أبي وقاص.

أقامها محمد ﷺ، وقد حثَّ الرسولُ أتباعه على الزواج[1].

ونحن نقول: إنَّ الإسلام قد حرّم السفاح، وشرَعَ النكاح، أي: الزواج، ورغَّب فيه، وهو سنة النبيين جميعًا، وحرَّم التبتل والرهبانيَّة القاسية، ووقف ضد المجموعة المتعبِّدة المتشدِّدة، من الثلاثة الذين فرضوا على أنفسهم طُولَ الصيام، وطول القيام، وقال ثالثهم: لا أتزوج النساء. فقال ﷺ: «أنا أخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[2].

وتقول الكاتبة: «إن القيودَ التي فرضها الإسلام على أتباعه ـ في موضوع التمتع بالحياة ـ قليلةٌ يتساوى فيها الجميع، وتنمُّ عن حكمة بالغة، واليوم حين تُشَنُّ في العالم الغربي حملة قاسية على معاقرة الخمر، وحين يحاول الغرب، أن يضع حدًّا للقمار (الميسر) عن طريق التحريم والتعقيد، هل يستطيع أحد أن يلوم الإسلام لإيصاده في عنف بابَي الخطر هذين (الخمر ـ الميسر)، ولمحاربته إيَّاهما بوصفهما سببين في إفساد الروح والثروة جميعًا؟»[3].

السنة المحمديَّة ومدى تأثيرها في تحديد الحياة الإسلامية:

«إن الأحاديث النبويَّة لَتحملُ إلينا تحديدًا للرحمة والإحسان ليس أجمل منه، وهي تردف ذلك بتحديد ليس أدق منه للمفاهيم الأخلاقيَّة، وغنيٌّ عن البيان أن آيات القرآن التي لو أُخذتْ وحدها لما كانت كافية لتنظيم الحياة الإنسانيَّة كلها في مختلف أحداثها وإمكانياتها، فقد أُتبعتْ وأُردفتْ وأُكملتْ بمجموعة من الأحاديث المأثورة التي ترقى إلى الرسول ﷺ، وليس يضير هذه الأحاديث أن يشك المرء في صحة بعضها وقدسيَّته، فحتى لو سلَّمنا بأنها لا ترقى كلها إلى محمد نفسه، فإن كثرتها تجسد روح الجماعة الإسلامية القديمة التي امتزجتْ بروح الإسلام الحقيقية، وتحمل إلينا مفاهيم تلك الجماعة ومطامحها»[4].

«إن السنة النبويَّة هي أقوى سند لمفهوم الحياة السليمة، وهنا يحسن بنا أن

(١) دفاع عن الإسلام ص٨٨.
(٢) سبق تخريجه، ص٩٨.
(٣) دفاع عن الإسلام ص٨٩.
(٤) المصدر السابق ص٨٤.

نكرر ما قلناه سابقًا عندما تحدثنا عن الأحاديث النبويَّة التي تنطوي على أسمى المفاهيم الأخلاقيَّة، فنقول: ما ضرَّ لو أثار أحد مسألة صحَّة نِسْبة هذه الأحاديث إلى الرسول ﷺ؟ إن العالم الإسلامي يتقبل اليوم هذه الأحاديث كشيء صحيح، وهو يتَّبع وصاياها في الأعم الأغلب»[١].

الدين الذي يريده الناس:

تقول الكاتبة: «إن الناس في حاجة إلى دين، ولكنهم يريدون من هذا الدين، في الوقت نفسه، أن يلبِّي حاجاتهم، وألا يكون قريبًا إلى عواطفهم فقط، بل أن يقدم إليهم أيضًا الطمأنينة والسلامة في هذه الحياة الحاضرة، وفي الحياة الآخرة معًا، والواقع أنَّ الإسلام يُعنَى بهذه المطالب على الوجه الأكمل؛ لأنه ليس مجرد عقيدة، ولكنه ـ إلى ذلك أيضًا ـ فلسفة حياة.

إنه يُعلِّم التفكير الصائب، والعمل الصالح، والكلام الصادق، وهو لهذه الأسباب يتخذ سبيله إلى عقل الإنسان وقلبه في غير عسر»[٢].

البر الذي جاء به الإسلام:

«لقد اعترفتْ جميع الأديان إلى حدٍّ ما، بالأهمية الأخلاقيَّة والاجتماعية الكبرى التي ينطوي عليها تقديم الصدقات، وأوصت بذلك بوصفه تعبيرًا حسيًّا عن الرحمة، وسبيلًا ملائمًا لالتماس لطف الله وكرمه، ولكن الإسلام يتمتع وحده بالمجد المتمثل في جعل الصدقة إلزامية، ناقلًا تعاليم المسيح إلى دنيا (الأمْر)، ومن ثم إلى دنيا (الواقع)، فكل مسلم مُلزَم بحكم القانون، بأن يُخصِّص جزءًا من ثروته لمصلحة الفقراء والمحتاجين والمساكين والمسافرين والغرباء (ابن السبيل)، وبأداء هذه الفريضة الدينية يختبر المؤمن حسًّا أعمق من الإنسانيَّة، ويطهر روحه من الشح، ويأخذ في حرارة الأمل بالفوز بالمكافأة الإلهية»[٣].

تشير الكاتبة المنصفة إلى حقيقة هامة، وهي ما تميَّز به الإسلام عن الأديان الأخرى في مجال البر والإحسان، فلم يكتفِ بالترغيب في ذلك،

---

(١) المصدر السابق ص٨٨.

(٢) المصدر السابق ص٩٠.

(٣) المصدر السابق ص٧٠.

وحثَّ الناس عليه، وترك ذلك لضمير المؤمن وحده، بل ارتقى بذلك فنظَّم هذا الجانب أروع تنظيم، وارتقى بدرجة الإلزام فيه، فأوصلها إلى أرفع منزلة، وهي منزلة (الفريضة الركنية)، وهكذا رأينا (الزكاة) ركنًا من أركان الإسلام العملية الخمسة، وجعل عليها ثلاثة حراس: حارس من داخل ضمير الفرد، وهو وازع الإيمان، وحارس من ضمير المجتمع تمثله فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحارس من قبل السلطة المأمورة بجمع الزكاة وتفريقها بوساطة (العاملين عليها)، كما نصَّ القرآن في الآية (٦٠) من سورة التوبة، التي حددت مصارف الزكاة.

ولقد حدَّد الإسلام موارد الزكاة ومصارفها ومقادير الواجب فيها حتى تمكن المطالبة بها، والمحاسبة عليها. وهو ما شرحناه وفصلناه بأحكامه وفلسفته في كتابنا الكبير **(فقه الزكاة)** في جزأين. وهذا ما تميز به نظام الإسلام، ومنهج الإسلام.

ما تحققه شعيرة الحج للمسلمين:

تقول الكاتبة: «وعلى كل مسلم إذا توافرت فيه بعض الشروط أن يقوم بالحج إلى مكة مرة واحدة في حياته على الأقل، ومن طبيعة القوى العميقة المكنونة في هذه الشعيرة أن يعجز العقل البشري عن اعتناقها إلا في القليل النادر.

ومع ذلك فإن ما يمكن استيعابه من تلك القوى في سهولة ويسر يكشف عن حكمة كاملة، فليس في استطاعة أحد أن ينكر الفائدة التي يَجْنيها الإسلام من اجتماع المسلمين السنويِّ في مكان واحد، يسعون إليه من مختلف أرجاء العالم.

إن العرب والفرس والترك والأفغان والهنود وأبناء شبه جزيرة الملايو وجزر إندونيسيا والفلبين، وأبناء المغرب والسودان وإفريقية وغيرهم، كلهم يتَّجهون نحو الكعبة المقدَّسة لمجرد التماس الغفران من الله الرحمن الرحيم، وهم إذ يلتقون في مثل ذلك المكان لمثل هذا الغرض، إنما ينشِئون صلاتٍ جديدة من المحبة والأخوَّة.

مرة واحدة في حياة المسلم على الأقل تُلغى الفروق كافَّة بين الفقير والغني، بين الشحَّاذ والأمير إلغاءً تامًّا؛ ذلك أن كل حاج مسلم يلبس خلال

أداء تلك الفريضة المقدَّسة الثياب البسيطة نفسها، ويُخلِّف وراءه حُلاه الشخصيَّة، ويتَّخذ لنفسه شعارًا واحدًا ليس غير، هو كلمة: (الله أكبر)[1]، والشعائر التي يتعيَّن على الحجاج أداؤها من مثل الطواف ببيت الله (الكعبة)، واللقاء قربَ جبل عرفات، وتقديم الذبائح عند مِنى، توقظ من نفسه ذكرى الأنبياء، والآباء العظام، الذين عاشوا في المواطن نفسها خلال العصور السالفة، إنها تعيد إلى الحياة أعمال إبراهيم مؤسس الدين الخالص، وأعمال ابنه إسماعيل وزوجته هاجر، وهي توقظ في الحاجِّ النزعة إلى تقليدهم في تعاطفهم، وفي خضوعهم لمشيئة الله»[2].

الإسلام هو المنهج المتكامل المتوازن:

إنَّ الإسلام هو المنهج الذي رسمه الله للمسلم ليسير عليه في حياته كلها، وتسير عليه الأمَّة المسلمة كلها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء: ٩٢].

فهو يصحب المسلم في رحلة الحياة من بدايتها إلى نهايتها، من لحظة الميلاد إلى ساعة الوفاة، ولهذا رأينا في الإسلام تشريعات وتوجيهات تتعلق بالمولود عندما يرى نور الحياة، مثل: تسميته، واختيار أحسن الأسماء له، والذبح عنه، وهو ما عُرف باسم العقيقة، وغير ذلك من أحكام جمعها ابن القيِّم في رسالة سمَّاها (**تحفة الودود في أحكام المولود**).

ويظل الإسلام يصحب الكائن الإنساني في أطواره كلها، من الطفولة إلى الصبا، إلى الشباب، إلى الكهولة، إلى الشيخوخة، حتى يدخل القبر، والأحكام التي تتعلق بالمرض والوفاة معروفة لدى عامة المسلمين، وهي التي تعرض في الفقه الإسلامي تحت عنوان (أحكام الجنائز)، وقد عرضنا لمجملها في كتابنا الكبير عن فقه الآداب (**أدب المسلم مع الله والناس**)[3].

وكما يصحب الإسلام المسلم طُوليًّا أو زمنيًّا ـ في عمره كله ـ يصحبه أيضًا عرضيًّا أو مكانيًّا في مجالات حياته كلها كذلك، في البيت، وفي

---

(١) أعتقد أنها: تقصد (لبيك اللَّهُمَّ لبيك)، فهي الشعار الأبرز للحج، وإن كان التكبير واردًا.

(٢) دفاع عن الإسلام ص٧٠ ـ ٧١.

(٣) الكتاب لا يزال تحت الطبع.

المسجد، وفي السوق أو المزرعة أو المدرسة أو العمل، يصحبه حين ينام وحين يستيقظ، وحين يعمل ويكدُّ لدنياه، وحين يلهو ويروِّح عن نفسه، حين يتعبَّد لربه، وحين يتعامل مع خلْقه.

وكما يمتدُّ الإسلام في حياة المسلم طولًا وعرضًا يمتد فيها عمقًا، فهو مع المسلم في كل شئونه وأحواله المادية والروحية والفكرية والعاطفية.

إنه مع المسلم بأوامره ونواهيه، وتشريعاته ووصاياه، في أكله وشربه، وفي ملبسه وزينته، وفي مشيئته وجلسته، وفي فرحه وحزنه، وفي ضحكه وبكائه، وفي جده وهزله، وفي خلوته وجلوته.

إنه مع المسلم في علاقته بنفسه، وفي علاقته بربه، وفي علاقته بأسرته، وفي علاقته بجيرانه وعشرائه، وفي علاقته بمجتمعه الكبير، وفي علاقته بأهل ملَّته، وفي علاقته بمخالفيه في دينه.

الإسلام هو منهج الله للإنسان كله:

إنَّ هذا الدين هو منهج الله للإنسان: الإنسان روحًا، والإنسان جسمًا، والإنسان عاطفة، والإنسان إرادة، والإنسان عقلًا، الإنسان فردًا، والإنسان في الأسرة، والإنسان في الأمَّة، والإنسان في الدولة، والإنسان في العالم.

فهو يشرِّع له ويوجِّهه في كل أحواله، وفي كافة أموره، حتى لا يَتِيه في الدرب، ولا تتفرق به السُبل؛ ولهذا يقول علماء الإسلام: إن الشريعة تشمل كافَّة أفعال المكلَّفين.

إنَّ المسلم مقيَّد بحدود الله وشريعة ربه وأحكامه وأخلاقه في حياته كلها: في ثقافة فكره، وعواطف قلبه، وسلوك جوارحه، وتوجه إرادته، وبعبارة أخرى: في اعتقاداته وأفكاره ومشاعره، وأقواله وأعماله وأخلاقه، فهو إذا تعلَّم أو فكَّر مقيَّد بأمر الله ونهيه، أي: بشرع الله، وهو إذا أحبَّ أو كره، رضي أو سخط، مقيَّد بشرع الله، ولهذا جاء في الحديث: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به»[1]. وهو من أحاديث الأربعين النووية.

---

(١) رواه ابن أبي عاصم في السنة (١٥)، وابن بطة في الإبانة (٢٧٩)، والبيهقي في المدخل للسنن الكبرى (٢٠٩)، وصحح إسناده النووي في آخر الأربعين النووية، وقال الحافظ في فتح الباري (١٣/ ٢٨٩): رجاله ثقات، عن عبد الله بن عمرو.

وفي حديث أنس من الصحيحين: «ثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يُحبَّ المرءَ لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله، كما يكره أن يقذف في النار»[1].

وهو إذا عبَّر عن فكره أو شعوره، بلسانه أو قلمه أو ريشته، بشعره أو نثره أو رسمه، مقيد بشرع الله، وهو إذا تحرَّك بجوارحه لعملٍ ما، مقيَّد بشرع الله، وهو في ذلك لا يشعر بأن شرع الله سيف مسلَّط عليه، بل نور لعقله يوجهه ويهديه، وروح لقلبه يحييه ويغذيه.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣)، كلاهما في الإيمان، كما رواه أحمد (١٣٥٩٢)، والترمذي في الإيمان (٢٦٢٤)، عن أنس.



الفصل الثاني

الأخلاق الإنسانيَّة الفرديَّة

دعا الإسلام إلى مجموعة من الأخلاق والفضائل العمليَّة، لا تستقيم حياة الإنسان ـ ماديَّة أو روحيَّة، فرديَّة أو اجتماعيَّة، محليَّة أو عالميَّة ـ إلَّا بها.

تشمل هذه الأخلاق أو الفضائل ما يمكن أن نسمِّيه (الأخلاق الربَّانيَّة) أو (الدينيَّة)، و(الأخلاق الإنسانيَّة)، ويشمل القسم الإنساني منها: أخلاق الإنسان مع ما هو دونه من حيوانات ونباتات وجمادات، كما يشمل أخلاق الإنسان مع من هو مثله من الإنسان ومن نظيره من الجنّ. وكذلك تشمل الأخلاق الفرديَّة، والأخلاق الاجتماعيَّة، وهذه الأخيرة تنظِّم أخلاق الأسرة، والمجتمع والأمَّة والدولة أو العلاقات الدَّوْليَّة والعالميَّة، أو قُل: تنظم العلاقات الأسريَّة والاقتصاديَّة والسياسيَّة والدوليَّة.

تشمل الأخلاق في الإسلام ما يمكن أن نسمِّيه: (الأخلاق الإنسانيَّة) التي تنظر إلى الإنسان من حيث كونه إنسانًا، وتهتمُّ بكلٍّ ما يرقى بإنسانيَّته، ويحافظ عليها من القوة الشهوية، التي تُلحقه بالبهائم والأنعام، أو القوة الغضبيَّة، التي تُلحقه بالسباع ذوات الأنياب. هذه الأخلاق تتمثَّل فيما عرفته البشرية من: العدل والإحسان، والصدق والأمانة، والبر والرحمة، والعفة والإحصان، والشجاعة والسخاء، والحلم والعفو عند المقدرة، والاقتصاد والحياء، والعزَّة والتواضع والرفق، إلى غير ذلك من الأخلاق التي تُنظِّم علاقة الإنسان بنفسه وبأخيه الإنسان، وتنظِّم علاقته بأمَّته وبغيرها من الأمم، وتهتمُّ بها الأخلاق (الفلسفيَّة) أو (المدنيَّة)، كما تهتم بها كل الأخلاق.

الأخلاق الإنسانيَّة فرديَّة واجتماعيَّة:

والأخلاق الإنسانيَّة تشمل ما يسميه بعضهم: (الأخلاق الشخصية) أو (الفردية)، كالعفة والشجاعة، والحياء والإباء، ونحوها من الفضائل، التي تنظِّم

حياة الفرد، وتجعل دوافعه وقواه في حالة تعادل وتوازن ورقيٍّ.

كما تشمل أيضًا (الأخلاق الاجتماعية)، من العدل والإحسان، وإيتاء ذي القربى، والرحمة بالضعفاء، والبر بالفقراء، والتعاون والنظام، والإخاء والتضحية، والصدق والأمانة والإيثار، وما إلى ذلك من الفضائل، التي تجعل علاقة الناس بعضهم ببعض في حالة من الرقيِّ والانسجام والتلاؤم.

تقسيمات لا بدَّ منها للأخلاق:

ولا بد لنا هنا: أن نقسم الأخلاق الإنسانيَّة إلى أخلاق فرديَّة، أي: يهتم بها الفرد قبل كل شيء، وأخلاق اجتماعيَّة. والأخلاق الاجتماعية تنقسم إلى أخلاق الأسرة، وأخلاق المجتمع، وأخلاق الأمَّة، وأخلاق الدولة، وأخلاق العالَم.

وأبادر فأقول هنا: إن التمييز بين ما هو فردي شخصي، وما هو اجتماعي من الأخلاق: أمر صعب، وذلك لتبادل التأثير بين الفرد والجماعة، وذوبان الحدود بينهما، وقلما توجد فضيلة شخصيَّة أو فرديَّة، إلا وجدنا لها ارتباطًا بالمجتمع وتأثيرًا فيه.

والحقيقة أنَّ الأخلاق كلها تكاد تكون اجتماعيَّة، فإذا سمَّينا بعضًا منها فرديًا، فإنما كان ذلك بحسب الطابع الغالب عليه، لا أنه منفصل تمامًا عن المجتمع.

وعلى هذا الأساس نذكر بعض الأخلاق التي تعتبر في الغالب الأعمِّ: فرديَّة شخصيَّة، أو يعدُّونها: أخلاق الفرد.

الأخلاق الإنسانيَّة الفردية:

والأخلاق الفرديَّة يمكن تقسيمها إلى قسمين:

١ ـ **أخلاق الإنسان مع الإنسان**، أيْ: مع من هو مثله. وهو الحيوان الناطق المريد، المُكرَّم من الله تعالى خالقه.

٢ ـ **أخلاق الإنسان مع مَنْ هو دونه**: أيْ: مع الكائنات الأخرى دون الإنسان: كـ**(الحيوان)** من السِّباع والزواحف والحشرات والأسماك والحيوانات المائية... إلخ هذه الفئات.

وما ليس من أنواع الحيوانات من الكائنات الحيَّة النامية الحسَّاسة، كـ(**النباتات**) بأنواعها وأجناسها، وماذا علينا نحن البشر أمام هذه الكائنات التي لا تتحرك كما يتحرك الحيوان بإرادته.

• وما بعد ذلك من (**الجمادات**)، التي لا تُحسُّ ولا تتحرك، ولا تعِي ما يجري عليها، ممَّا في هذا الكون الكبير، بعلويِّه وسفليِّه، وما في السماوات وما في الأرض والجبال.

وهذه الأنواع لها تعلق بالبيئة وأحوالها، وما يتَّصل بها من أخلاق ومعاملات.

٣ ـ وأخيرًا: هناك **أخلاق تتعلَّق بالكائنات العاقلة الأخرى**، وهي الكائنات غير المنظورة لنا، والتي لا تراها أعيُننا، وإن كانت هي ترانا، بعض هذه الكائنات مكلَّفة مثلنا، مطلوب منها أن تعبد الله تعالى كما نعبده، وأن تستجيب لدعوة الرسل الكرام كما استجبنا لها، وهي تُجزى على أعمالها: حسنةً كانت أو سيئةً، وتدخل الجنة، أو تدخل النار، وهي التي تُعرف باسم (**الجنّ**)، وقد نزلت فيهم سورة كاملة من القرآن، تُسمَّى: (سورة الجن). وفي القرآن قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨].

ورأيي: أن هذه الفئة يجب أن تدخل في التعامل في دائرة ما بين الإنسان ونظيره من المكلَّفين.

وبعض هذه الكائنات غير المنظورة لنا: ليست مكلَّفة كما كُلِّفنا، إنما هي مخلوقة من نور، مطهَّرة من الريب والمعاصي، تعبد الله تعالى بفطرتها لا تعصيه، كما قال الله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء: ٢٠]. ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢٨]. وهؤلاء هم الذين سماهم القرآن والسُّنَّة: (**الملائكة**)، وهم: (جنود الله)، المبعوثون إلى الأرض من السماوات، وهم مبثوثون في الكون كله، أرضه وسمائه: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم: ٦]. وحسب الدين هنا أنه يأمرنا أن نؤمن بوجود هؤلاء، وبما هيَّأ الله لهم من مهامَّ في الكون بإذنه، فعلى أهل الدين والإيمان جميعًا أن يكونوا كما قال الله تعالى في القرآن: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: ٢٨٥].

(١)
أخلاق الإنسان مع من هو مثله
(أخلاق الإنسان مع الإنسان)

الأخلاق الفرديَّة للإنسان أنواع، وكل نوع يتعامل به مع مثله من أبناء جنسه، وهم النوع المكلَّف بعبادة الله وإعمار الأرض، والخلافة عن الله في هذا الكون الذي نعيش فيه.

فقد خلق الله هذا النوع الإنساني؛ ليسكن الأرض ويعمرها ويُحْيِيها، ويقوم العقلاء فيها لعبادة الله وحده.

فإذا كان هناك في السماوات العُلا وفي الأرض أيضًا مخلوقات علويَّة، ليست مثلنا، عرفناها عن طريق الأنبياء والرسل الذين حدَّثونا عنها، وعن وظائفها في الكون، وهي مخلوقات نورانيَّة (مخلوقة من نور) ليست ماديَّة مثلنا، لا نستطيع بقدرتنا العاديَّة أن نراها، وهي تقدر أن ترانا وتتعامل معنا دون أن نُحسَّ بها.

هذه المخلوقات هي (الملائكة)، التي فطرها الله على طاعته وعبادته: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾ [الأنبياء: ٢٠]. ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ۝٢٨﴾ [الأنبياء: ٢٨]. ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم: ٦].

فهذا الإنسان مخلوق، خلَقَه الله بعد الملائكة، حتى إنَّ القرآن حكى لنا: أن الله ﷻ قد حدَّث الملائكة في شأن خلق الإنسان قبل أن يخلقه، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾ [البقرة: ٣٠].

وخلق الله سبحانه الإنسان الأول: آدم أبا البشر ﷺ، وخلق له زوجًا من جنسه، وجعل منهما رجالًا كثيرًا ونساء، وامتلأت جنبات الأرض من ذريته، وأرسل إليهم ربهم رسله مبشِّرين ومنذرين، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

وكان منهاج الله تعالى الذي أخذه عليهم منذ آدم وزوجه، حين وسوس لهما الشيطان، ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: ١٢١ - ١٢٦].

كلَّفَ الله سبحانه الإنسانَ بأمور ثلاثة أساسيَّة، تُعتبر هي مقاصد الله تعالى من خلقه، ذكرها العلامة الراغب الأصفهاني[1]، وهي:

الأمر الأول: عبادة الله سبحانه، والائتمار بأمره، والانتهاء عن نهيه، والقيام بكلِّ تكليفاته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

الأمر الثاني: عمارة الأرض التي يسكن فيها الإنسان وإحياؤها، والاستمتاع بما فيها من خير وجمال، كما قال تعالى على لسان صالح ﷺ لقومه (ثمود): ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]. ومعنى (استعمركم): أي طلبَ إليكم أن تعمروها، ولا تَدَعُوها خرابًا.

الأمر الثالث: أن ينوب الإنسان عن ربِّه في إقامة الحق والعدل في الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: ٣٠]. وبهذا استخلفَ الله الإنسان في الأرض.

وهكذا نزل آدم وزوجه حواء إلى الأرض، وبدأتْ ذرِّيَّتهما تسكن الأرض، وتزرع الحبوب، وترعى الحيوانات، وتتوب إلى الله، وبدأ الاحتكاك، ثم الصراع بين بني آدم، وهم أبناء أب واحد وأم واحدة، فكانت أولُ جريمة في الأرض أن قتل أحد ابني آدم أخاه، قال تعالى في كتابه القرآن: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ

---

(١) انظر: تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين ص٤٨، دار مكتبة الحياة، بيروت، عام النشر: ١٩٨٣م.

﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٢٧ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٨ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٩ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٣٠﴾ [المائدة: ٢٧ ـ ٣٠].

وقد أظهرت هذه القصة: أن نفس الإنسان التي بين جنْبيه، أمَّارة بالسوء، إلا ما رحِم ربي، وأنها هي التي أضمرت الحسد للأخ الذي تقبَّل الله منه قربانه، ولم يتقبل من الآخر، وأنها هي التي جعلته يتوعَّده بالقتل ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾، وأنها هي التي طوَّعت له قتل أخيه، فقتله، فأصبح من الخاسرين، لا مجال هنا لأن يُقال: إنَّ المجتمع هو الذي هيَّأ له هذه الجريمة، وفسح له سبُلَها، فلم يكن هناك مجتمع، ولم تبدأ جريمة بعدُ، كانت جريمته هي الجريمة البشريَّة الأولى، ولهذا أخبرنا رسول الله الكريم محمد آخر الرسل أنه: «لا تُقتل نفسٌ ظُلمًا، إلا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دمِها؛ لأنه أوَّل منْ سنَّ القتل»[1].

الأخلاق والمُثُل الفرديَّة المطلوبة من الإنسان:

الأخلاق والمُثُل الفردية المطلوبة من الإنسان هي: أن يقوم بحقِّ أخيه الإنسان، ويتعاون معه على نُصرة الحق، وعمل الخير، فما استطاع المرء أن يقوم به وحده فلا بأس. ومن عجز بمفرده أن يقوم به، فليسْعَ مع غيره: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضا»[2]. بل لو اشتركا في العمل الذي يقوم به الفرد وحده، لكان خيرًا.

وعلى القويِّ أن يبذل من قوَّته لأخيه الضعيف، فهي نعمة منَّ الله بها عليه، للآخرين فيها حق، وعلى الغني أن يعاون الفقير بما استطاع حتى يَخرُج من جُحر فقره، فإن لم يخرج من دائرة فقره، فعلى الأغنياء معاونته حتى يستغنِي، ولهذا فرض الإسلام الزكاة، تؤخذ من أموال الأغنياء في القوم لتُردُّ على فقرائهم، وقال عليه الصلاة والسلام: «لا تحل الصدقة لغنيٍّ، ولا لذي مِرَّة سويٍّ»[3].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٣٥)، ومسلم في القسامة (١٦٧٧)، عن ابن مسعود.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الصلاة (٤٨١)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٥)، عن أبي موسى الأشعري.

(٣) رواه أحمد (٦٥٣٠) وقال مخرِّجوه: إسناده قوي، وأبو داود في الزكاة (١٦٣٤)، والترمذي في الزكاة (٦٥٢)، وقال: حسن، وصحَّحه الألباني في صحيح أبي داود (١٤٤٤)، عن عبد الله بن عمرو.

ولا بد من الرعاية للفقير والمسكين، واليتيم وابن السبيل، كما قال تعالى في القرآن المكي (الذي أنزله الله قبل الهجرة): ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الإسراء: ٢٦]. ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [البقرة: ٢١٥].

وعلى المسلم أن يرحم مَن في الأرض؛ ليرحمه من في السماء، يرحم الرجل والمرأة، ويرحم الطفل والشيخ، ويرحم الشاب ومن بلغ من الكبر عتيًّا، ويرحم المسلم وغير المسلم، ويرحم القريب والبعيد، ويبرَّ كل إنسان بما تستحقه إنسانيته، كما سنشرح ذلك عندما نتحدَّث عن (الأخلاق الاجتماعية).

وعلى الإنسان أن يتحلَّى بكلِّ الفضائل التي يجب أن يتحلَّى بها الإنسان الكامل - أو الأقرب إلى الكمال - في أخلاقه وفضائله وصفاته، وأن يتخلَّى عن الرذائل، التي تُشين الإنسان إذا تخلَّق بها وأصبحت هي المعبِّرة عنه والمكوِّنة لشخصيته.

وأذكر بإيجاز بعض الأخلاق الفردية التي يجب أن يتخلق بها المسلم:

١ - الحياء

والحياء هو: انقباض النفس عن فعل ما يُستقبَح شرعًا أو عقلًا أو عُرفًا، فهو وازع ذاتي، يردع صاحبه عن الخوض في الشرور والقبائح من غير خوف أو رجاء من أحد.

قال المؤرِّخ البحَّاثة ابن مِسْكَوَيْهِ (ت٤٢١): «أول ما ينبغي أن يُتفرَّس في الصبيِّ ويُستَدَلَّ بهِ على عقله: الحياء؛ فإنه يدلُّ على أنه قد أحسَّ بالقبيح، ومع إحساسهِ به هو يحذرُهُ ويتجنَّبُهُ ويخافُ أن يظهرَ منه أو فيه. فإذا نظرْتَ إلى الصَّبيِّ، فوجدتَهُ مستحييًا مُطرِقًا بطرْفهِ إلى الأرضِ، غير وَقَاح الوجه ولا محدِّقٍ إليك؛ فهو أوَّلُ دليلِ نجابته، والشاهد لك على أنَّ نفْسه قد أحسَّتْ بالجميل والقبيح، وأنَّ حياءه هو انحسار نفسه؛ خوفًا من قبيح يظهر، وهذا ليس بشيء أكثر من إيثار الجميل والهرب من القبيح بالتميز والعقل»[1].

وقد دعا الرسول ﷺ إلى الحياء، ونوَّه به في أحاديث كثيرة، مثل:

---

(١) تهذيب الأخلاق لمسكويه ٤٨.

«الإيمان بضع وستون ـ أو: بضع وسبعون ـ شعبة، والحياء شعبة من الإيمان»[1].

«الحياء من الإيمان»[2]. «الحياء لا يأتي إلا بخير»[3].

«لكل دين خلق، وخلق الإسلام الحياء»[4].

«إنَّ ممَّا أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت»[5].

والحياء حسنٌ، ومحمودٌ للرجال والنساء جميعًا، فقد وصف أبو سعيد الخدري ﷺ النبيَّ ﷺ بأنه: «كان أشدَّ حياءً من العذراء في خدرها»[6]. ولكنه في النساء أحسن؛ لملاءمته للطبيعة الرقيقة للمرأة؛ ولأن حياءها يحفظ عليها عفتها وسمعتها وعِرضها، وقال الشاعر[7]:

إذا لم تخشَ عاقبةَ الليالي ... ولمْ تستَحْيِ فافعَلْ ما تَشاءُ
فلا واللَّهِ ما في العيشِ خيرٌ ... ولا الدُّنيا إذا ذَهبَ الحَياءُ
يَعِيش المَرْءُ ما استحْيَا بِخَيرٍ ... ويبقى العودُ ما بقيَ اللحاءُ

ولكن الجرأة في الحق مطلوبة، كما أن الإفراط في الحياء قد ينتهي إلى (خجل) تضيع به الحقوق، ويجترئ به السفهاء على الشرفاء، فهناك أشياء لا ينبغي الحياء فيها، مثل: تعلُّم الدين، وطلب الحق، وإنكار المنكر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦]. وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ

(١) سبق تخريجه، ص٥١.
(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الإيمان (٢٤)، ومسلم (٥٩)، عن عبد الله بن عمر.
(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦١١٧)، ومسلم في الإيمان (٣٧)، كما رواه أحمد (١٩٨٣٠)، عن عمران بن حصين.
(٤) رواه ابن ماجه في الزهد (٤١٨١)، وأبو يعلى (٣٥٧٣)، والطبراني في الأوسط (١٧٥٨)، وحسَّنه الألباني في الصحيحة (٩٤٠)، عن أنس بن مالك.
(٥) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٨٣)، وأحمد (١٧٠٩٠)، وأبو داود في الأدب (٤٧٩٧)، وابن ماجه في الزهد (٤١٨٣)، عن أبي مسعود الأنصاري.
(٦) متفق عليه: رواه البخاري في المناقب (٣٥٦٢)، ومسلم في الفضائل (٢٣٢٠)، عن أبي سعيد الخدري.
(٧) هو أبو تمام.

﴿طَعَامٍ غَيْرَ نَظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

٢ ـ التواضع

ونعني به: أن يتجرَّد من نزعة الكِبْر والخُيلاء، والإعجاب بالنفس. فهذه آفات مهلكات، ورذائل موبقات، ونعني به أن يخفض جناحه للناس، ولا يعاملهم بشعور الاستعلاء عليهم، أو الاستخفاف بهم، أو الاستغناء عنهم.

وما أبلغ ما حذَّر الله ورسوله من تلك الآفة الخُلقية المدمِّرة، استمعْ إلى القرآن الكريم يقول: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزمر: ٦٠].

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [غافر: ٣٥].

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الإسراء: ٣٧].

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾ [لقمان: ١٨].

وفي الحديث:

«لا يدخل الجنة مَن كان في قلبه مثقال ذرة من كبْر»[١].

«إن الله أوحى إليَّ: أن تواضعوا، حتى لا يفخر بعضكم على بعض»[٢].

«بحسب امرئ من الشر: أن يحقر أخاه المسلم»[٣].

وكان النبي ﷺ مثلًا أعلى في تواضعه، فقد كان يخصف نعله، ويرقع ثوبه، ويحلب شاته، ويساعد أهله، ويطحن مع الجارية والغلام، ويجلس بين

---

(١) سبق تخريجه، ص٧٥.

(٢) رواه مسلم في صفة الجنة (٢٨٦٥)، وأبو داود في الأدب (٤٨٩٥)، وابن ماجه في الزهد (٤١٧٩)، عن عياض بن حمار.

(٣) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٤)، وأحمد (٧٧٢٧)، وأبو داود في الأدب (٤٨٨٢)، عن أبي هريرة.

أصحابه كأي واحد منهم، حتى يجيء الرجل الغريب، فيقول: أيُّكم محمد؟

ولما دخل عليه بعض الناس هابه وارتعد أمامه، فقال ﷺ، مؤنسًا ومقوّيًا: «هوِّن عليك، فلستُ بمَلِك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد بمكة»[1].

٣ ـ العزة

وهذا خلق يكمل التواضع ويفسِّر المراد منه، فليس المراد بالتواضع: أن يضع المرء نفسه موضع الذل أو المهانة، كيف وقد جمع الله للمسلم عزَّة إلى عزة، وكرامة إلى كرامة؟ عزته وكرامته بوصفه إنسانًا: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]. وعزته وكرامته باعتباره مسلمًا: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]. ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠].

وأما قوله تعالى في وصف المؤمنين المرجُوِّين لنصرة الإسلام: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]. فالمراد بالذل هنا: غاية التعطُّف، ونهاية التلطُّف، بدليل تعديه بـ (على) وليس باللام، وما أشبه الذل هنا بالرحمة في وصف أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

والذل (بهذا المعنى) لم يُمدح في القرآن إلا في الموضع المذكور، وفي موضع آخر، وهو: علاقته بوالديه، وخاصة عند الكِبَر: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤].

أما الذل بمعناه الحقيقي، فهو رذيلة مُحرَّمة على المسلم، بعد أن أعزَّه الله بالإسلام.

وفي القرآن الكريم تصوير بالغ الشدَّة والهول لمن يقبلون الهوان والمذلَّة في أوطانهم، وهم قادرون على الهجرة منها، والخلاص من تحكُّم الآخرين في رقابهم ومصائرهم، لنقرأ معًا هذه الآية، وفيها صورة مُعبِّرة لهؤلاء ساعة الوفاة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى

(١) رواه ابن ماجه في الأطعمة (٣٣١٢)، والحاكم في المغازي والسير (٣/ ٤٧) وصحَّحه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٦٧٧)، عن أبي مسعود.

﴿ٱلْأَرْضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [النساء: ٩٧].

ثم يستثني القرآن أصحاب الأعذار فيقول: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء: ٩٨ ـ ٩٩].

٤ ـ التفاؤل

ونعني به: أن ينظر إلى الحياة والأحياء، وإلى الحاضر والمستقبل، بعين الأمل والاستبشار، فلا يلبس المسلم المنظار الأسود في نظرته إلى نفسه، أو إلى غيره، أو إلى الكون من حوله.

ومن ثَمَّ كان النبي ﷺ يحب الفأل الحسن، وينكر التطيُّر والتشاؤم أشد الإنكار، ويعتبر الطيرة ضربًا من الشرك، وعلى مَن أحسَّ بشيء من ذلك في نفسه أن يقول: «اللهمَّ لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك، ولا إله غيرك»[(١)]. ويمضي في وجهته وعنه ﷺ: «من رَدَّته الطِّيَرة عن حاجته، فقد أشرك»[(٢)].

وقد علَّم الرسولُ الكريم ﷺ المسلمَ أن يقول حين يُصبح ويُمسي ثلاث مرات: «اللهم إني أصبحت ـ أو أمسيت ـ منك في نعمة وعافية وستر، فأتمَّ عليَّ نعمتك وعافيتك وسترك في الدنيا والآخرة»[(٣)]. وذلك ليكون على ذكر بشكل دائم بما يغمره من فضل الله تعالى ونعمائه.

وما أكثر الأذكار والأدعية التي علمها الإسلامُ للمسلم في المناسبات المختلفة، وهي تتضمَّن الحمد لله تعالى.

فهو إذا فرغ من أكله قال: «الحمد لله»[(٤)].

---

(١) رواه ابن وهب في جامعه (٦٥٩)، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) رواه أحمد (٧٠٤٥) وقال مخرِّجوه: حديث حسن، والطبراني (١٣/ ٢٢)، عن عبد الله بن عمرو.

(٣) رواه ابن السني في عمل اليوم والليلة (٥٥)، عن ابن عباس.

(٤) رواه البخاري في الأطعمة (٥٤٥٨)، عن أبي أمامة.

أو من شربه الماء العذب، قال: «الحمد لله الذي جعله عذبًا فراتًا برحمته»[1].

أو من لبسه ثوبًا جديدًا: «الحمد لله الذي كساني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة»[2].

وإذا أظلمت الدنيا يومًا في عين المسلم أيقن أنَّ بعد ظلامها فجرًا، وأن مع عسرها يسرًا، ولم ييْئس من الرخاء بعد الشدَّة، والفرج بعد الكربة، كيف وقد اعتبر القرآن اليأس من لوازم الكفر، والقنوط من ثمرات الضلال.

يقول تعالى على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف: ٨٧]. وعلى لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحجر: ٥٦].

والمسلم لا يضيق بالحياة، وإن أحدقتْ به المِحن؛ لأنه يعلم أن في طيِّ كل محنة منحة، ففيها تمحيص وتربية، وتمييز وتصفية، وحسبه أنها لم تكن في دينه، ولم تكن أكبر منها، وأنه يرجو ثواب الله عليها، وبهذا تستحيل المصائب عند غيره إلى نِعَم عنده، فيلقاها بشعور الشاكر، أكثر من شعور الصابر.

ولهذا كان النبي ﷺ إذا أصابه ما يُحبُّ قال: «الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات». وإذا أصابه ما يكره قال: «الحمد لله على كل حال»[3].

٥ ـ العفة

وهي: التَّنَزُّه والابتعاد عمَّا حرَّم الله من متعلقات شهوتَي البطن والفرج، فهما أكثر ما أفسد الناس في الدنيا، وما أدخلهم النار في الآخرة.

فتشمل العفة: التَّنزُّه عن أكل الحرام، وكسب الحرام، من ربا أو ميْسر،

---

(١) رواه الطبراني في الدعاء (٨٩٩)، وأبو نعيم في الحلية (٨/ ١٣٧)، والبيهقي في الشعب باب تعديد نعم الله (٤٤٧٩)، وضعفه الألباني في الضعيفة (٤٢٠٢)، عن أبي جعفر مرسلًا.

(٢) رواه أبو داود في اللباس (٤٠٢٣)، وأبو يعلى (١٤٨٨)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٠٤٢): حسن لغيره، عن أنس بن مالك.

(٣) رواه ابن ماجه في الأدب (٣٨٠٣)، والطبراني في الأوسط (٦٩٩٩)، والحاكم في الدعاء (١/ ٤٩٩)، وصحح إسناده على شرط الشيخين، وسكت عنه الذهبي، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٤٦٤٠)، عن عائشة.

أو ظلم أو غش، أو تجارة في محظور، أو أيَّة صورة من صور آكل أموال الناس بالباطل.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧٨ - ٢٧٩].

وفي الحديث: «كل جسم نَبَتَ من سُحْت، فالنار أولى به»[1].

ويتضاعف إثم المال الحرام، إذا كان ليتيم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء: ١٠].

كما تشمل العفة في العلاقات الجنسيَّة، ابتداءً من غضِّ البصر، إلى حفظ الفرج، يقول الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣٠ - ٣١].

ولا تعني العفَّة هنا الامتناع عن النساء بالكلِّيَّة، فهذه هي الرهبانيَّة التي رفضها الإسلام، وأنكر على من حاولها؛ لأنه يُحرِّم طيبات ما أحلَّ الله، إنما المقصود هنا العلاقة المحرَّمة لا غير.

وقد وصف الله المؤمنين بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾﴾ [المؤمنون: ٥ - ٧].

ولهذا اشتدَّ الإسلام في تحريم الزنى، واعتبره من كبائر الإثم، بل حرم كل ما يقرِّب منه، ويؤدِّي إليه من تبرُّج بزينة، أو خضوع بقول، أو تكسُّر في مشية، أو نظرة بشهوة، أو لمسة بريبة، أو قُبلة أو خلوة، وفي هذا يقول القرآن: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء: ٣٢]. وإنما قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ﴾؛ ليسدَّ الذرائع الموصلة إلى الفاحشة، ويغلق الأبواب التي تهبُّ منها رياح الفتنة.

---

(١) رواه أحمد (١٤٤٤١) وقال مخرِّجوه: إسناده قوي على شرط مسلم. والترمذي في السفر (٦١٤)، وقال: حسن غريب، وابن حبان في الصلاة (١٧٢٣)، عن جابر بن عبد الله.

وفي الحديث: «لا تُتْبع النظرةَ النظرة، وإنَّما لك الأولى، وليست لك الآخرة»[1].

٦ ـ النظافة

والإسلام يحبُّ من المسلم أن يكون نظيفًا كلَّه: حسًّا ومعنًى، ظاهرًا وباطنًا، جسمًا وروحًا، وإلى هذا يشير القرآن بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ۝٢٢٢﴾ [البقرة: ٢٢٢]. فالتوبة إشارة إلى النظافة الباطنيَّة أو المعنويَّة، والتطهُّر إشارة إلى النظافة الظاهريَّة أو الحسيَّة.

والنظافة أو الطهارة ـ بما فيها الحسِّي والمعنوي ـ تمثِّل نصف الإيمان، وهو ما يتعلّق بالتخلِّي عن الرذائل، إلى جوار النصف الآخر، وهو ما يتصل بالتحلِّي بالفضائل. فالإيمان تخلية وتحلية، وإلى هذا يشير الحديث الصحيح: «الطهور شطر الإيمان»[2]. وتمثل ذلك الطهور في الثوب والبدن ومكان الصلاة، كما تمثل في الوضوء، والغسل من الجنابة للرجال والنساء، ومن الحيض للمرأة.

ومن أجل تدريب المسلم على النظافة أو الطهارة، حتى تصبح له خلقًا ثابتًا، اشترطها الإسلام للصلاة، ولذلك كان أول ما يدرسه المسلم في علم الفقه (كتاب الطهارة)، ومن أجل ذلك ارتبطت النظافة بالعبادة والعقيدة، حتى شاعت بين المسلمين هذه الحكمة المعبِّرة: (النظافة من الإيمان).

ومن أوائل ما نزل من القرآن قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ [المدَّثر: ٤].

ولقد عُني الإسلام بنظافة الجسم عامة، وأجزاء منه خاصة، مثل: الفم بالاستياك: «السواك مطهرة للفم، مرضاة للرب»[3]. واليدين، وخاصة قبل الطعام وبعده، والشَّعر: «مَن كان له شعر فليكرمه»[4]. وإزالة الزوائد من

---

(١) رواه أحمد (١٣٧٣) وقال مخرِّجوه: حسن لغيره، وابن أبي شيبة في الفضائل (٣٢٠٨٣)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٩٠٢): حسن لغيره، عن على بن أبي طالب.

(٢) سبق تخريجه، ص٢٠٠.

(٣) رواه أحمد (٢٤٢٠٣) وقال مخرِّجوه: صحيح لغيره، والنسائي (٥)، وابن حبان (١٠٦٧)، كلاهما في الطهارة، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٥١٧)، عن عائشة.

(٤) رواه أبو داود في الترجل (٤١٦٣)، والطحاوي في مشكل الآثار (٨/ ٤٣٤)، والطبراني في الأوسط (٨٤٨٥)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٥٠٠)، عن أبي هريرة.

الشعر، مثل شعر العانة، ونتف ما تحت الإبْط، وتقليم الأظافر ونحوه.

وكما دعا إلى نظافة المساجد دعا أيضًا إلى نظافة البيوت: «إن الله نظيف يحب النظافة، فنظفوا أفنيتكم ولا تشبهوا باليهود»[1]. وإلى نظافة الطرقات: «إماطة الأذى عن الطريق صدقة»[2].

ولم يكتفِ بالنظافة وحدها، فدعا إلى التزيُّن بأجمل اللباس، والتَّطيُّب بأحسن الطيب، ولا سيما في مجامع الناس كالحج، والأعياد. وفي القرآن: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: ٣١]. ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وفي السُّنَّة: «إنَّ الله جميل يحب الجمال»[3].

٧ ـ الاعتدال

ونعني بالاعتدال هنا: التوسط الإيجابي، فالإسلام لا يكتفي من المسلم بالتعفُّف عن الحرام من مطالب الجسد، حتى يضيف إلى ذلك القصد والتوسُّط في تناول الحلال الطيِّب، بلا تجاوز للحد، ولا تضييق على النفس، بل يضع الإسلامُ أمَّته على المنهج الوسط للأمَّة الوسط، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ [البقرة: ١٤٣].

فإذا كان بعض الناس يتوسَّع في تناول الحلال، والاستمتاع بالطيِّبات، حتى يؤذي جسمه ونفسه، وقد يُفضي إلى الإضرار بغيره، فإن الإسلام يقول له على لسان رسوله: «كلْ واشرب والبس، في غير إسراف ولا مخيلة»[4]. «لا تُسرف، ولو كنتَ على نَهَر جارٍ»[5].

---

(١) رواه الترمذي في الأدب (٢٧٩٩) وقال: هذا حديث غريب وخالد بن إلياس يضعف، والبزار (١١١٤)، وضعفه الألباني في تخريج الحلال والحرام (١١٣)، عن سعد بن أبي وقاص.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٩١، ٢٩٨٩)، ومسلم في الزكاة (١٠٠٩)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه مسلم في الإيمان (٩١)، وأحمد (٣٧٨٩)، وأبو داود في اللباس (٤٠٩١)، عن ابن مسعود.

(٤) رواه أحمد (٦٦٩٥) وقال مخرِّجوه: إسناده حسن، والنسائي في الزكاة (٢٥٥٩)، عن عبد الله بن عمرو.

(٥) رواه أحمد (٧٠٦٥) وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف، وابن ماجه في الطهارة (٤٢٥)، وقال =

ويقول القرآن مخاطبًا الناس كافة: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾ [الأعراف: ٣١].

ولا غرو، فالإسلام يكره الغلوَّ والتَّجاوز، ولو في عبادة الله تعالى، حتى إنه ليكفكف من غلواء كل متحمِّس متطرف، ويردُّه إلى صراط الاعتدال قائلًا: «إن لجسدك عليك حقًا، ولأهلك عليك حقًّا...»[1]. فأولى أن يكره التطرف في التمتع بطيبات الدنيا.

وإذا كانت بعض الأديان والنِّحل تفرض على أتباعها التقشُّف والحرمان من المتع الحلال، إلى حدِّ تحريم الطيِّبات، كما هو اتِّجاه البوذيَّة الهندية، والمانوية الفارسية، والرواقية اليونانية، والرهبانيَّة المسيحية، فإنَّ الإسلام ينكر بشدَّة هذا الاتجاه المتزمِّت ويؤكِّد أنَّ الله لم يخلق الطيبات ليحرمها على عباده، وأن تحريمها من قبل البعض إنما هو افتئات على الله تعالى، وقولٌ عليه بغير علم: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ﴾ [الأعراف: ٣٢].

ومن أجل هذا وجَّه الله خطابه للمؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٨٧ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ٨٨﴾ [المائدة: ٨٧ ـ ٨٨].

كل الممنوع هنا: هو الاعتداء على النفس أو الغير: ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ﴾، وكل المطلوب هنا هو مراعاة تقوى الله ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

يؤكِّد القرآن هذا الاعتدال في الاستمتاع، والاعتدال في الإنفاق، الذي حثَّ عليه القرآن في أكثر من موضع، فوصف به عباد الرحمن: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ٦٧﴾ [الفرقان: ٦٧]. وأمر به في وصايا الحكمة: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ٢٩﴾ [الإسراء: ٢٩].

حتى الاعتدال في المشي والصوت: ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩﴾ [لقمان: ١٩].

= الشيخ شاكر في تخريج المسند (٧٠٦٥): ونقل شارحه عن زوائد البوصيري قال: إسناده ضعيف، لضعف حيي بن عبد الله وابن لهيعة. ونحن نخالفه في هذا، كما ذكرنا مرارًا بشأن ابن لهيعة، وكما رجحنا توثيق حيي بن عبد الله في (٦٥٩٦)، وحسَّنه الألباني في الصحيحة (٣٢٩٢)، عن عبد الله ابن عمرو.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الصوم (١٩٧٥)، ومسلم في الصيام (١١٥٩)، عن عبد الله بن عمرو.

على أنَّ من روائع الإسلام أنه لم يقصر وصاياه على الاعتدال في النواحي الماديَّة والحسيَّة فقط، بل تجاوزها إلى التوصية بالاعتدال في العواطف والمشاعر النفسيَّة، من الحب والكره، والرضا والغضب، والفرح والحزن.

فلا ينبغي للمسلم أن يستخفَّ به الفرح إذا فرح، أو يستبدَّ به الحزن إذا حزن: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣].

ولا ينبغي للمسلم إذا رضي أن يدخله رضاه في الباطل، وإذا غضب أن يخرجه غضبه عن الحق: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢]. ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ [المائدة: ٨].

ولا ينبغي للمسلم أن يغلوَ في حبِّه إذا أحب، ولا في كرهه إذا كره، وفي الأثر: «أَحْبِب حبيبَك هَوْنًا ما، عسى أن يكون بغيضك يومًا ما، وأبغض بغيضك هَوْنًا ما، عسى أن يكون حبيبك يومًا ما»[1]. وفي القرآن: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَاللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾ [الممتحنة: ٧].

إنَّ الاعتدال والتوسُّط خُلُقٌ يميِّز الفرد المسلم والأمَّة المسلمة في شئون الحياة كلها، لا إفراط ولا تفريط، ولا طغيان ولا إخسار، وعلى هذا قام خلق الله، كما قام أمره: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝٩﴾ [الرَّحمن: ٧ ـ ٩].

٨ ـ القناعة

ومعناها: الرضا بما قسم الله للإنسان من مواهب وقدرات ماديَّة وأدبيَّة، مما لا اختيار له فيه، ولا يدَ له عليه، والحد من سَوْرة الطمع والتطلُّع إلى ما ليس له، وإلى ما عند غيره، فإن بعض الناس لو أُوتيَ كنوز قارون لم تشبع نَهْمته، ولم تُروَ غُلَّته، فهو لا يقنع بقليل، ولا يشبع من كثير، إنه جهنميُّ النزعة، كلما قيل له: هل امتلأت؟ يقول: هل من مزيد؟

وهنا يأتي توجيه الإسلام ليقول له: «ليس الغنى عن كثرة العَرَض، إنما الغنى غنى النفس»[2].

---

(١) رواه الترمذي في البر والصلة (١٩٩٧) وقال: هذا حديث غريب، والطبراني في الأوسط (٣٣٩٥)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (١٧٨)، عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٤٤٦)، ومسلم في الزكاة (١٠٥١)، عن أبي هريرة.

الغنى ليس إذن أموالًا بالكمِّ، إنما هو شعور يقوم بالكيْف. فلا يكفي أن تمتلئ خزانتك بالذهب والجواهر، إذا كانت نفسك فارغةً من الرضا، إن هذا الرضا هو الكنز الذي لا يقدَّر بثمن، ولا يفنيه الزمن، وفيه جاءت الوصية النبويَّة: «ارضَ بما قَسَم الله لك، تكُنْ أغنى الناس»(١).

وإنَّ مما يساعد المسلم على القناعة بما رزق الله، أن ينظر إلى نعم الله تعالى عنده نظرة واقعية بصيرة، فسيجد صغيرها كبيرًا، وقليلها كثيرًا، وهيِّنها عظيمًا عند التأمل، وحسبه أن يتيسَّر له الأمن والعافية والقوت، فهي خير له من ثروة طويلة عريضة: «مَن أصبح آمنًا في سِرْبه، معافًى في بدنه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»(٢).

يؤكد هذا الشعور الراضي: أن لا يتطلَّع المرء دائمًا إلى من أُوتوا من الناحية المادية حظًّا أحسن منه، فهذا يُتعبه ويؤذيه، بل عليه أن ينظر إلى من هم أدنى حظًّا منه، وما أكثرهم، وسيجد حينئذ أنه بالنسبة إليهم في خير ونعمة، وفي هذا جاء الحديث الشريف: «لا تنظروا إلى مَن هو أعلى منكم، ولكن انظروا إلى مَن هو دونكم، فذلك أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم»(٣).

٩ ـ مجاهدة النفس

مجاهدة النفس أساس العمل الأخلاقي كله، فقد سوَّى الله النفس البشريَّة، وفطرها على الاستعداد للفجور استعدادَها للتقوى، وربما كان استعدادها للفجور أقوى؛ ولهذا قدَّمه في الآية؛ لأنه أخف عليها، وأحبُّ إليها، فلا بدَّ من بذل جهد دائب، للبُعد بها عن طريق الفجور، والسَّيْر بها في طريق التقوى، حتى تتزكَّى وتتطَّهر، وتنتصر على أهوائها، وترتفع بالإنسان إلى أفق الملائكة، بدل أن تتدسَّى وتتدنس، فتهبط إلى حضيض البهائم، أو دَرْك الشياطين.

يقول الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٧ ـ ١٠].

---

(١) رواه أحمد (٨٠٩٥) وقال مخرِّجوه: حديث جيد، والترمذي في الزهد (٢٣٠٥) وقال: حديث غريب، عن أبي هريرة.

(٢) رواه الترمذي في الزهد (٢٣٤٦) وقال: حديث حسن غريب، وابن ماجه في الزهد (٤١٤١)، وحسَّنه الألباني في الصحيحة (٢٣١٨)، عن عبيد الله بن محصن الأنصاري.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٤٩٠) بنحوه، ومسلم في الزهد (٢٩٦٣)، عن أبي هريرة.

إنَّ أسوأ ما يعوق الإنسان عن التطهُّر والرقي: لا يتمثل في العقبات الخارجية، بقدر ما يتمثَّل في العوائق الآتية من داخل النفس، ونعني بها أهواءها وشهواتها، التي يُعمِي حبُّها ويُصِمُّ، ويُضل أتباعَها عن رؤية الغاية، واستبانة الطريق، فلا تعجب إذا أضاء القرآن النور الأحمر أمام المسلم، ليحذره من الهوى الذي يتَّبعه بعضُ الناس إلى درجة العبادة، وهو شرُّ إله عُبِد في الأرض. فلنقرأ معًا هذه الآيات النيِّرات: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]. ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]. ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ٢٣].

ولقد قصَّ علينا القرآن قصَّةَ إنسانٍ آتاه الله آياته، فانسلخ منها، وأخلد إلى الأرض، واتَّبع هواه، فمثلُه كمَثَل الكلب: ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف: ١٧٦].

لا بدَّ إذن لمن أراد العلاج والفوز بالجنة أن يجاهد نفسه ويروِّضها بصبر وثبات، حتى تنتهي عن هواها، وتعرف هداها: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النَّازعات: ٤٠ ـ ٤١].

وإنَّ هذه المجاهدة الداخلية ربما كانت أشقَّ من مجاهدة العدو الخارجي الظاهر، حتى سمَّاها بعض السلف: (الجهاد الأكبر)، ولكنها وحدها الموصِّلة إلى الخير، الهادية إلى سواء السبيل: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩].

١٠ ـ المحافظة على الذات

وفلسفة الإسلام هنا: أن ذات الإنسان ليست ملكَ نفسِه، يتصرف فيها كيف يشاء، إنما هي وديعة الله وأمانته، فلا يجوز التَّصرُّف فيها بغير ما يُرضيه، بل يجب المحافظة عليها ظاهرًا وباطنًا، جسمًا وروحًا.

لا يجوز الإضرار بالجسم أو بالنفس عمدًا، ولا يجوز إهمالهما أو أحدهما كسلًا.

والانتحار بسرعة أو ببطء من أكبر المحرَّمات في الإسلام: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [النساء: ٢٩].

حتى أعلن الرسول ﷺ أن مَن بادر الله بنفسه حرَّم الله عليه الجنة، وعذَّبه بما قتل نفسه به في جهنم خالدًا مخلَّدًا فيها أبدًا[1].

إنَّ الحياة ليست لهوًا ولا عبثًا، إنما هي رسالة يجب أن تؤدَّى، ونعمة يجب أن تُشكر، وليس لمخلوق أن يعتديَ على سلطة خالقه، فيسلب حياته دونَ إذنٍ منه.

بل لا يجوز لامرئ أن يضرَّ نفسه، بالفعل أو بالترك، بالمباشرة أو التَّسبُّب: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

ومن أجل حماية الذات: جسمًا وعقلًا ونفسًا، حرَّم الإسلام الخمر، ونهى عن كل مُسكِر ومفتِّر، وأمر بعقوبة كل مَن قارفها، أو ساعد عليها، ولعن في الخمر عشرة[2]: أحدُهم شاربها، وتسعة هم كل من ساهم في تسهيل شربها من قريب أو بعيد.

وهذه هي طريقة الإسلام: إذا حرَّم شيئًا، حرَّم معه كل ما يُفْضي إليه، أو يعين عليه.

ولهذا حرَّم قليل الخمر وكثيره، وأعلن أنَّ ما أسكر كثيره فقليله حرام، فإن القليل يجرُّ إلى الكثير، والشر يُعرف أوله بآخره، والحزم أن يسدَّ الباب الذي تهب منه الريح؛ لتستريح وتريح.

بل حرَّم الإسلام تناول كل ما يضر بالإنسان ماديًّا أو نفسيًّا، من مطعوم أو مشروب أو غيرهما، وَفقًا للحديث النبوي الذي أصبح في نظر الفقهاء كافة قاعدة شرعية قطعية: «لا ضرر ولا ضرار»[3]. أي: لا يحلُّ للإنسان أن يضرَّ نفسه، ولا أن يضارَّ غيره.

---

(١) إشارة إلى الحديث المتفق عليه: «... ومن قتل نفسه بحديدة عذب به في نار جهنم» رواه البخاري في الجنائز (١٣٦٣)، ومسلم في الإيمان (١١٠)، عن ثابت بن الضحاك.

(٢) إشارة إلى حديث: لعن رسول الله ﷺ في الخمر عشرة: عاصرها، ومعتصرها، وشاربها، وحاملها، والمحمولة إليه، وساقيها، وبائعها، وآكل ثمنها، والمشتري لها، والمشتراة له. رواه الترمذي في البيوع (١٢٩٥) وقال: حديث غريب، وابن ماجه في الأشربة (٣٣٨١)، والطبراني في الأوسط (٢/ ٩٢)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٢٣٥٧)، عن أنس.

(٣) سبق تخريجه، ص١٩١.

١١ ـ التبيُّن واستقلال الشخصيَّة

لا يقبل الإسلام من المسلم أن يميل مع كل ريح، ويتبع كل ناعق، ويصدِّق كل ما يقال، بل يجب عليه ألا يقبل دعوى إلا ببيِّنة، ولا يقبل خبرًا إلا بسنذ، ولا يُقْدم على خطوة إلا على هدًى.

وعليه كذلك أن يحذر من اتِّباع الظنون والتَّخمينات، أو اتِّباع العواطف والنزوات، أو السير وراء الناس تعصُّبًا وتقليدًا، بالحق أو بالباطل، فكل هذا مما حذَّر الله ورسوله منه.

يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ [النساء: ٩٤].

وقد آتى الله الإنسان أدوات المعرفة والتحقق، فلا يسوغ له أن يعطِّلها، وهو قادر بها أن يسمع ويرى ويعقل: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦].

وأنكر الله سبحانه على المشركين جرْيَهم خلف الظنون في مواضع لا يُطلب فيها غير اليقين، فقال: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [يونس: ٣٦].

وفي موضع آخر يقول: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ﴾ [النَّجم: ٢٣]. وإذا اجتمع هذان ـ اتِّباع الظن، واتِّباع الهوى ـ كان من ورائهما الضلال البعيد.

ويُشدِّد القرآن حملته على التابعين أو المقلِّدين الذين ألغَوا عقولهم، وباتوا يفكرون برؤوس غيرهم، سواء كان هذا التقليد أو التبعية من الأبناء للآباء: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة: ١٧٠].

أم كان تبعيّة المرؤوسين للرؤساء، وتبعية الشعوب للسادة والكبراء: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾﴾ [الأحزاب: ٦٧].

أم كان بتبعيَّة الفرد للعامّة، بحيث يسير وراءهم في الخطأ والصواب، والسيئ والحسن، وبذلك يغدو ذيلًا في القافلة لا رأسًا، وفي هذا جاء الحديث النبوي معلِّمًا ومحذِّرًا: «لا يكنْ أحدكم إمَّعة يقول: إنْ أحسنَ الناس أحسنتُ،

وإن أساؤوا أسأتُ، ولكن وطِّنوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تُحسنوا، وإن أساؤوا فلا تظلموا»[1].

١٢ ـ رعاية الوقت

فالوقت نعمة الله للإنسان، لينتفع بها في شؤون معاشه ومعاده، كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿١٢﴾﴾ [النحل: ١٢]. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان: ٦٢]. أي: جعل الليل يخلف النهار، والنهارَ يخلف الليل، فمن فاته عملٌ في أحدهما تداركه في الآخر.

ويشير القرآن إلى أهمية الوقت، إذ يُقْسِم بأجزائه، لينبِّه على قيمته وخطره في مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾﴾ [الليل: ١، ٢]. ﴿وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾﴾ [الفجر: ١]، ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾﴾ [الضحى: ١]، ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾﴾ [العصر: ١].

ويلفت القرآن الأنظار إلى قيمة الوقت، إذ يعرض مشهد الإنسان عند الموت، حيث يدعو ويتمنَّى لو يمهله الله ويمنحه فرصة مهما يكن قِصَرها، ليتدارك فيها تقصيره، ويقدِّم بعضَ ما يستطيع من خير، وهَيْهات هيهات: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾ [المنافقون: ١٠ ـ ١١].

ومشهد آخر لأهل النار الذين كفروا بالله وتمرَّدوا عليه: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾، ويجيئهم الرد الإلهي: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر: ٣٧].

وينبِّه الرسول الكريم على مسؤولية المرء عن وقته، فيبيِّن أنَّ كل إنسان سيُواجَهُ يوم الحساب بأربعة أسئلة رئيسية، منها اثنان عن الوقت: «عن عمره

---

(١) رواه الترمذي في البر والصلة (٢٠٠٧) وقال: حسن غريب، والبزار (٢٨٠٢). وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٦٢٧١)، عن حذيفة بن اليمان. ولكنه يتماشى مع القواعد العامة، والمبادئ الكلية في الإسلام.

فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه»[1]. فهو يُسأل عن العمر عامة، وعن الشباب خاصة.

وهنا تجيء الوصيَّة النبويَّة باغتنام الأوقات قبل أن تضيع فلا تعود: «اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هَرَمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وحياتك قبل موتك، وفراغك قبل شُغُلك»[2].

ولئن كانوا يقولون: (الوقت من ذهب). دلالة على نفاسته وعِظَم قدره عندهم، فالمسلمون يقولون: (الوقت هو الحياة)، كما قال حسن البنا، فما حياة الإنسان، إلا الوقت الذي يقضيه من المهد إلى اللحد. يقول الإمام الحسن البصري ﷺ: يا ابن آدم، إنما أنت أيام مجتمعة، كلما ذهب يوم ذهب بعضك[3].

وقال بعض السلف: ما من يوم ينشقُّ فجره إلا وينادي: يا ابن آدم أنا خلق جديد، وعلى عملك شهيد، فتزوَّد منِّي، فإذا مَضَيْتُ لا أعود إلى يوم القيامة.

وينبغي للمسلم أن يحرص على اغتنام الأوقات المفضَّلة عند الله، ليضاعف فيها نشاطه في طاعة الله، مثل وقت السحر من كل ليلة، ويوم الجمعة في كل أسبوع، وشهر رمضان في كل عام.

---

(١) رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٤١٧) وقال: حسن صحيح، وأبو يعلى (٧٤٣٤)، وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٢٦)، عن أبي برزة الأسلمي.

(٢) رواه النسائي في الكبرى في المواعظ (١١٨٣٢)، والحاكم في الرقاق (٤/٣٠٦)، وصحَّحه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (١٠٧٧)، عن ابن عباس.

(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢/١٤٨).

(٢)
أخلاق الإنسان الفرديَّة مع من دونه

ونتحدَّث هنا عن علاقة الإنسان أو قُل عن أخلاقه مع من دونه مِن (الحيوان والنبات والجمادات والكائنات غير المنظورة).

أ ـ أخلاق الإنسان مع الحيوان:

ممَّا شرعه الإسلام من الأخلاق: خُلُق الإنسان مع الحيوانات المتنوِّعة في الأرض، وهو وحده الذي ملَّكه الله العقل، فبه أصبح مالكًا لها، وسيدًا عليها، حتى إنَّ الطفلَ الصغير ليقودُ البقرة والجاموسة، والثور والجمل، بسهولة ويسر.

ولذلك يقول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس: ٧١ ـ ٧٣]. وهذه هي الحيوانات المستأنسة، التي استأنسها الإنسان، وهيَّأها للتعايش معه، فتحرث له أرضه، وتروي له زرعه، وتحمل له أثقاله، وتدرُّ له ألبانها، ومنحته أجسادها لتحمل له من أصوافها وأوبارها، وتُهيِّئ له نفسها ليأكل من لحومها إذا ذبحها أو ضحَّى بها، وبعضها متهيِّئ له لركوبها، وحمل متاعه عليها، ونقْله إلى بلد آخر، كما قال الله تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النحل: ٥ ـ ٨].

وهناك حيوانات أخرى هيّأها الله للإنسان، وإن لم تكن مستأنسة له،

يستطيع أن يصطادها في البرِّ، أو يصطادها في البحر، وكلُّ ما في البحر يجوز أكله، كما يجوز صيده، كما قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ﴾ [المائدة: ٩٦]. حتى ما سُمِّي منها: (خنزير البحر)، فهو متاع للإنسان، لا حُرمة فيه.

أما حيوانات البر فمنها المباح صيده، والمباح ذبحه إذا تمكَّن منه، مثل الظِّباء والحُبارى، والبقر الوحشي، والحُمُر الوحشيَّة، وهو ليس وحشيًا بمعنى أنه يأكل الإنسان، وإنما وحشيَّته تتمثل عدم إطاعته للإنسان، كالأنعام من الإبل والبقر والغنم.

وهناك الوحوش التي تُهدِّد الإنسان بأنيابها، ويمكنها أن تأكله وتفترسه، مثل: الأسد والنمر والفهد والذئب والثعلب، وغيرها من سباع البر، وإن كان هناك من يقول: إن أكلها ليس حرامًا، وإنما هي مكروهة فقط. ويستدلُّون على ذلك بقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام: ١٤٥]. وهو مذهب ابن عباس، وإليه ينزع الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه، والخلاف فيها معروف[1].

الرحمة بالحيوان:

ومن الأخلاق التي جاء بها الإسلام ممَّا يخصُّ الحيوان: الرحمةُ، وهي من صفات الرحمن الرحيم تبارك وتعالى، وهي الصفة الكبرى التي جعلها الله خاصةَ رسالةِ محمد الأولى، حيث قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقد جاء الإسلام بخلق الرحمة، وحثَّ عليه، ورغَّب فيه، وخصوصًا فيما يتعلق بالضعفاء وبالحيوانات والطيور وغيرها.

وكنتُ قد كتبتُ منذ أكثر من ثلاثين عامًا فصلًا بعنوان: (من أخلاقيات الشريعة: الرفق بالحيوان) ضمن كتابي **(مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية)**، أشرتُ فيه إلى معالم الرفق والرحمة من نصوص الوحْيَين: القرآن والسنة، وما

---

(١) المدونة (١/ ٤٥٠).

أُثر عن السلف حول هذا الموضوع، وأقوال علماء الأمَّة وفقهائها، فكان ممَّا ذكرته تحت هذا العنوان: «ومن هذا الباب ـ مراعاة المُثل الأخلاقيَّة لذاتها ـ وما جاء في الشريعة خاصًّا بالرفق والحيوان ورحمته ورعايته، وتجنُّب إيذائه أو إضاعته والقسوة عليه، فإيذاء الحيوان لا يترتب عليه اضطراب العلاقات في المجتمع، ولا يُحدِث فيه هزَّة ولا رجّة؛ لأن هذه العُجْم لن تتفق يومًا على ثورة جماعية، ولن تُضرِب عن الحمْل والركوب، وجرِّ العربات والمحاريث والسواقي، فتتعطَّل مصالح أربابها، ولن ترفع أمرها إلى القضاء لينصفها من مُلَّكها.

ولهذا كان الرفق بها، ومراعاة حاجاتها، أمرًا أخلاقيًّا بحْتًا، يدخل في باب العدل والإحسان، والرحمة ومراعاة تقوى الله ﷻ.

أحاديث نبويَّة تؤكِّد الرفق والرحمة بالحيوان:

وفي هذا جاءت أحاديث شتَّى منها:

ما رواه الشيخان، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «بينا رجل يمشي، فاشتدَّ عليه العطش، فنزل بئرًا، فشرب منها، ثم خرج، فإذا هو بكلب يلْهث، يأكل الثَّرَى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي، فملأ خفَّه، ثم أمسكه بفِيه، ثم رقِيَ، فسقَى الكلب، فشكر الله له، فغفر له». قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجرًا؟ قال: «في كلِّ كبدٍ رطْبة أجرٌ»[1]. أي كل كائن حيّ تُحسن إليه: لك فيه أجر ومثوبة عند الله.

فانظر كيف كانت مثوبة هذا الرجل الذي بذل جهده حتى سقى الكلب العطشان، وقرَّر رسول الإسلام هذا المبدأ العام: أنَّ كل مَن أحسن إلى كائن حيٍّ، لا يضيع أجره ومثوبته عند الله، وإن كان كلبًا لا مالكَ له.

وعن معاوية بن قُرَّة، عن أبيه رضي الله عنه، أنَّ رجلًا قال: يا رسول الله، إني لأرحم الشاة أن أذبحها، فقال: «والشاة إن رحمتها رحمك الله»[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رجلًا أضجع شاة، وهو يحدُّ شفرته، فقال

---

(١) متفق عليه: البخاري في الأدب (٦٠٠٩)، ومسلم في السلام (٢٢٤٤).

(٢) رواه أحمد (١٥٥٩٢) وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح، والبخاري في الأدب المفرد (٣٧٣)، والبزار (٣٣١٩).

النبي ﷺ: «أتريد أن تُمِيتها موتَتَين؟ هلَّا أحددْتَ شفرتك قبل أن تُضْجعها»[1].

وعن الشريد رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قتل عصفورًا عبثًا، عجَّ إلى الله عز وجل يوم القيامة منه، يقول: يا ربِّ، إنَّ فلانًا قتلني عبثًا، ولم يقتلني لمنفعة»[2].

وعن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «ما من إنسان قتل عصفورًا، فما فوقها بغير حقِّها، إلا سأله الله عز وجل عنها». قيل: يا رسول الله، وما حقُّها؟ قال: «يذبحها فيأكلها، ولا يقطع رأسها يرمي بها»[3]. وفي هذا وعِيدٌ للذين يجعلون صيدَ الطيور مَلعَبةً، فيصطادونها، ولا يهتمُّون بجمعها وطبخها وأكلها، فليحضِّروا جوابًا لسؤال الله تعالى يوم القيامة!!

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، أنه مرَّ بفتيان من قريش، قد نصبوا طيرًا، أو دجاجة يترامَوْنها، وقد جعلوا لصاحب الطير كل خاطئة من نبْلهم، فلمَّا رأَوا ابن عمر تفرَّقوا، فقال ابن عمر: مَن فعل هذا؟ لعن الله مَن فعل هذا، إن رسول الله ﷺ: «لعن من اتخذ شيئًا فيه الروح غرضًا»[4].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حُمَّرة معها فرْخان، فأخذنا فرخَيْها، فجاءت الحُمَّرةُ فجعلتْ تُعَرِّش[5]، فجاء النبي ﷺ، فقال: «من فجَعَ هذه بولدَيْها؟ ردُّوا ولدَيْها إليها». ورأى قريةَ نملٍ قد حرَّقْناها، فقال: «من حرَّقَ هذه؟». قلنا: نحن. قال: «إنه لا ينبغي أن يعذِّب بالنار إلا ربُّ النار»[6].

---

(1) رواه الطبراني في الكبير (11/ 332)، والأوسط (3590)، والحاكم في الأضاحي (4/ 231)، وصحَّحه على شرط البخاري، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (6033): رجاله رجال الصحيح، وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (1090).

(2) رواه أحمد (19470) وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف، والنسائي في الضحايا (4446)، وابن حبان في الذبائح (5894)، وضعَّفه الألباني في بلوغ المرام (46)، ويقويه الحديث التالي.

(3) رواه أحمد (6550) وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف، وصحَّح إسناده الشيخ أحمد شاكر في تخريجه للمسند، والنسائي في الصيد والذبائح (4349)، والحاكم (4/ 233) وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (1092): حسن لغيره. انظر تعليقنا على الحديثين ص576، 577 من (المنتقى من الترغيب والترهيب) طبع دار الوفاء.

(4) متفق عليه: رواه البخاري (5515)، ومسلم (1958)، كلاهما في الصيد والذبائح.

(5) التعريش: أن ترتفع وتظلل بجناحيها على من تحتها. النهاية عرش.

(6) رواه أبو داود في الجهاد (2675)، وصحح إسناده النووي في رياض الصالحين (1610)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (487).

وعن عبد الله بن جعفر، قال: أردفني رسول الله ﷺ، خلفه ذات يوم، فأَسَرَّ إليَّ حديثًا، لا أُحدِّث به أحدًا من الناس، وكان أحبُّ ما استتر به رسول الله ﷺ لحاجته هدفًا، أو حائش نخْلٍ، قال: فدخل حائطًا لرجل من الأنصار، فإذا فيه جَمَلٌ، فلما رأى النبي ﷺ: حنَّ وذرفتْ عيناه، فأتاه النبي ﷺ، فمسح ذِفْراه، فسكت، فقال: «من ربُّ هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟». فجاء فتى من الأنصار، فقال: لي يا رسول الله. فقال: «أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملَّكك الله إياها! فإنه شكا إليَّ أنك تُجيعُه وتُدْئِبُه»[1].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: «دخلتْ امرأة النار في هرَّة ربطتها، فلم تطعمْها، ولم تدَعْها تأكل من خَشاش الأرض»[2].

وعن سهل بن الحنظلية رضي الله عنه، قال: مرَّ رسول الله ﷺ ببعير، قد لحق ظهرُه ببطنه، فقال: «اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة، فاركبوها صالحة، وكُلُوها صالحة»[3].

وعن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ صلَّى صلاة الكسوف، فقال: «دَنَتْ منِّي النار، حتى قلتُ: أي ربِّ، وأنا معهم. فإذا امرأة». حسبتُ أنه قال: «تخدِشُها هرةٌ، قلتُ: ما شأن هذه؟ قالوا: حبَسَتْها حتى ماتتْ جوعًا»[4].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ النبي ﷺ قال: «دنا رجلٌ إلى بئر، فنزل فشرب منها، وعلى البئر كلب يلهث، فرحمه، فنزع إحدى خُفَّيْه، فغرف له فسقاه، فشكر الله له، فأدخله الجنة»[5].

وعن جابر، قال: نهى رسول الله ﷺ، عن الضرب في الوجه، وعن الوسم في الوجه[6].

---

(١) رواه أحمد (١٧٤٥) وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، وأبو داود في الجهاد (٢٥٤٩). ومعنى تدئبه: تكده وتتعبه. النهاية دأب.

(٢) سبق تخريجه، ص٢٩٤.

(٣) رواه أبو داود في الجهاد (٢٥٤٨)، وابن خزيمة في المناسك (٢٥٤٥)، وصحَّح إسناده النووي في رياض الصالحين (٩٦٦)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٣).

(٤) رواه البخاري في الأذان (٧٤٥)، وأحمد (٢٦٩٦٣).

(٥) متفق عليه: البخاري في المظالم (٢٤٦٦)، ومسلم في السلام (٢٢٤٤).

(٦) رواه مسلم في اللباس والزينة (٢١١٦)، وأحمد (١٤٤٢٤).

وعنه أيضًا، أنَّ النبي ﷺ، مرَّ عليه حمار قد وُسِم في وجهه فقال: «لعن الله الذي وسمه»[1].

التطبيقات العلميَّة للتوجيهات النَّبويَّة:

وبهذا كان الخلفاء والأمراء يزجرون كل من قسا على الحيوان. جاء في (العُتبية): «قال مالك: إنَّ عمر بن الخطاب مرَّ بحمار عليه لَبِنٌ، فوضع عنه طوبتين، فأتت سيدته (مالكته) لعمر، فقالت: يا عمر، ما لك ولِحِماري؟ أَلَكَ عليه سلطان؟ قال: فما يُقْعِدني في هذا الموضع؟!».

وعقَّب ابنُ رشد على قول عمر، فقال: «المعنى في هذا بيِّن؛ لأن المصطفى ﷺ قال: «كلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام راعٍ، وهو مسؤول عن رعيته...»[2].

وقد قال عمر في مثل هذا: لو مات جَمَل بشاطئ الفرات ضياعًا، لخشيتُ أن يسألني الله عنه»[3] اهـ.

وروى عبد الرزاق، عن ابن سيرين قال: رأى عمر بن الخطاب رجلًا يسحب شاة برجلها ليذبحها، فقال له: «ويلك! قُدْها إلى الموت قَوْدًا جميلًا»[4].

وفي طبقات ابن سعد، عن المسيب بن دارم، قال: رأيت عمر بن الخطاب ضرب جمَّالًا، وقال: لِمَ تُحمِّل بعيرك ما لا يُطيق![5].

وعلى سنَّة عمر الأول سار عمر الثاني ابن عبد العزيز.

ففي فضائل عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم: أن عمر كتب إلى صاحب السكك: أن لا يحملوا أحدًا بلجام ثقيل، ولا ينخس بمقرعة في أسفلها حديدة.

(١) رواه مسلم في اللباس والزينة (٢١١٧).

(٢) متفق عليه: البخاري في الجمعة (٨٩٣)، ومسلم في الإمارة (١٨٢٩)، عن ابن عمر.

(٣) التراتيب الإدارية (١/ ٢٦٨)، والبيان والتحصيل، لابن رشد (١٧/ ٥٠٩)، تحقيق: د. محمد حجي وآخرون، نشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت ـ لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

(٤) رواه عبد الرزاق في المناسك (٨٦٠٥)، موقوفًا، وهو منقطع (ابن سيرين لم يدرك عمر).

(٥) الطبقات الكبرى لابن سعد (٧/ ٩١).

وكتب أيضًا إلى حيان بمصر: بلغني أن بمصر إبلًا نقَّالات، يُحمل على البعير منها ألف رَطْل، فإذا أتاك كتابي هذا، فلا أعرفن أنه يُحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل[1] اهـ.

الفقهاء يفصِّلون في شرح الواجب على مالك الدابَّة:

وجاء الفقهاء ففصَّلوا ما يجب على مالك الدابَّة من النفقة والرعاية في كتاب النفقات من كتب الفقه، كما فصَّلوا ما يجب على الإنسان نحو الكلب والطير ونحوها، تفصيلًا لم يخطر ببال أحدٍ من البشر في تلك الأعصار، وهو تفصيل لم تدفع إليه المنفعة الماديَّة، أو المصلحة الاجتماعيَّة فحسب، كما هو الشأن في القوانين الوضعيَّة، بل الدافعية إليه ـ فوق ذلك كلِّه ـ دافع أخلاقي محْض، وهو رفع الظلم والأذى والضرر عن كائن حي ذي كبد رطبة، يُحسُّ ويشعر ويتألَّم، وإن لم يكن له لسان يشكو به ويتكلم.

ومن هذا التفصيل نراهم يُحدِّدون متى يجوز ضرْب الدابة؟ وأين تُضرب؟ وبِمَ تُضرب؟ وكيف تُضرب؟ فنراهم يقولون: تُضرب الدابَّة على النِّفار، ولا تُضرب على العثار؛ لأن العثار لا يدَ لها فيه، بخلاف النفار والحُرونة.

ويقولون: لا تُضرب في الوجه، ولا تُضرب بحديدة، أو بمقرعة أسفلها حديدة، كما نقلنا ذلك عن عمر بن عبد العزيز.

وأنقل هنا فقرات من كتابٍ فقهيٍّ مُعتبر عند الحنابلة، وهو (**شرح غاية المنتهى**) قال: «وعلى مالك البهيمة: إطعامُها ولو عطبتْ (أي لم يُرجَ منها منفعة)، وعليه سقيها حتى تنتهي إلى أول شبع، وأول ريٍّ دون غايتهما، لحديث ابن عمر، قال: «عُذِّبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت جوعًا...»[2] الحديث. فإن عجز عن نفقتها أُجبر على بيع أو إجارة، أو ذبح مأكول؛ إزالةً لضررها وظلمها؛ ولأنها تتلف إذا تُركتْ بلا نَفقة، وإضاعة المالَ منهيٌّ عنه.

فإن أَبَى فعْلَ شيءٍ من ذلك: فعَلَ الحاكمُ الأصلح من الثلاثة، أو اقترض عليه، وأنفق عليه، كما لو امتنع من أداء الدين.

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن عبد الحكم ص١٤١، والتراتيب الإدارية (٢/ ١٥٢).

(٢) سبق تخريجه، ص٢٩٤.

ويحْرُم لعنها (أي البهيمة)، لما روى أحمد ومسلم، عن عمران بن حصين: أنه ﷺ كان في سفر، فلعنت امرأة ناقة، فقال: «خذوا ما عليها ودعوها، فإنها ملعونة». قال عمران: فكأنِّي أراها الآن تمشي في الناس، ما يعْرِض لها أحد[1].

ولمسلم من حديث أبي الدرداء، أنه قال: «لا يكون اللعَّانون شفعاء ولا شهداء، يوم القيامة»[2].

ويحْرُم تحميلها (أي البهيمة) مشقًّا (أي ما يشق عليها)؛ لأنه تعذيب لها. ويحْرُم حلبها ما يضرُّ ولدَها؛ لأن لبنها مخلوق له، أشبه ولد الأمَّة، ويُسنُّ للحلَّاب أن يقُصَّ أظفاره؛ لئلَّا يجرح الضرع.

ويحْرُم ضربُ وجهٍ، ووسم (أي كيٌّ) فيه (أي في الوجه)؛ لأنه عليه الصلاة والسلام لعَنَ مَن ضرب أو وسم الوجه، ونهى عنه، ذكره في الفروع. ويُكره جزُّ معرفة[3] وناصية، وجزُّ ذَنَب، وتعليق جرس أو وتر للخبر. ويكره له إطعامه فوق طاقته، وإكراهه على الأكل، على ما اتخذه الناس عادة لأجل التسمين، قاله في (الغنية).

ويجب على مُقتنِي الكلب المباح أن يُطعمه ويسقيه، أو يرسله؛ لأن عدم ذلك تعذيب له. ولا يحلُّ حبس شيء من البهائم لتهلك جوعًا أو عطشًا؛ لأنه تعذيب، ولو غير معصومة[4]، لحديث: «فإذا قتلتم، فأحسنوا القتلة»[5]»[6] اهـ.

ابن رحَّال المغربي يُفصِّل في حبس الطير:

وقد فهم بعض الناس من حديث: «يا أبا عمير، ما فعل النغير؟»[7]. جواز اللعب بالطير للصبيان، أو حبسه للفرجة عليه، والتمتُّع بمنظره على وجه الإطلاق، بدون قيود أو شروط.

---

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٩٥)، وأحمد (١٩٨٧٠).

(٢) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٩٨)، وأبو داود في الأدب (٤٩٠٧).

(٣) المعرفة: منبت عُرف الفرس من ناصيته. انظر: لسان العرب عرف.

(٤) أي: ولو كانت مما يجوز قتله، كالفواسق الخمس، لا يجوز قتلها تجويعًا.

(٥) رواه مسلم في الصيد والذبائح (١٩٥٥)، وأحمد (١٧١١٣)، عن شداد بن أوس.

(٦) مطالب أولي النهى (٥/ ٢٦٢ ـ ٢٩٤).

(٧) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٢٠٣)، ومسلم في الآداب (٢١٥٠)، عن أنس.

وقد تصدَّى لذلك العلَّامة المغربي المالكي، الشيخ أبو علي بن رحَّال، فقال: «وما ذُكر من حبس الطير: إنما هو إذا لم يكن فيه تعذيب أو تجويع أو تعطيش، ولو بمظنَّة الغفلة عنه، أو بحبسه مع طير آخر ينقب رأسه، كما تفعله الديوك في الأقفاص، ينقب بعضها رأس بعض، حتى إنَّ الديك يقتل آخر، وهذا كله حرام بإجماع؛ لأنَّ تعذيب الحيوان لا يُختلف في تحريمه، والفائدة يتأتَّى وجودها بلا تعذيب، وهذا إن كان يحبسه وحده، أو مع من لا ينقبه، أو يعمل بينهما حائلًا، بحيث لا يصل بعضه إلى بعض، ويتفقده بالأكل والشرب، كما يتفقد أولاده، ويضع للطير ما يركب عليه كخشبة، وأما أن يضعه على الأرض بلا شيء، فذلك يُضرُّ به غاية الضرر في البرد، وهذه الأمور لا تحتاج إلى جلب نصٍّ فيه لوضوحها.

وكم رأينا مَن يعذِّب الدجاج في الأقفاص على وجوه مختلفة من أنواع العذاب.

وكذا حبس الكبش بلا أكل ولا شرب، أو بغل يربطه في موضع، ويغلق عليه حتى يكاد يموت جوعًا، ومَن لا رحمة فيه لا يَعتبِر في الدفع عن الدواب إلا ما يقتلها، أو يُضعف بدنها، وأما عذابها في نفسها إذا سلِمتْ مما ذُكر، فلا يبالي به، وذلك كلُّه حرام، وعقوبته في الدنيا والآخرة إن لم يعفُ الله».

ثم قال: «وكثير من الناس يسمع مثلًا أن الطير يجوز حبسه، وأن العصفور يجوز أن يُلعب به، ويستدل بحديث: «يا أبا عُمير، ما فعل النُّغير؟». ويعتمد على ذلك بلا شرطِ عدمِ تعذيبه، وهذه مسألة عظيمة الأجر والعقاب.

وكذا تحميل الدواب أكثر مما تقدر عليه بحسب العادة، وغير ذلك، وذلك كله من نزْع الرحمة من القلوب، ولكن: «إنما يرحم الله من عباده الرحماء»[1]»[2] اهـ.

موقف القضاء الإسلامي من الإساءة إلى الحيوان:

وليست مراعاة هذه الأحكام الخاصَّة برعاية الحيوان والإحسان إليه: موكولة إلى ضمائر الأفراد فقط، فمن فرَّط فيها، أو تهاون بها، لم يكن للقضاء ولا للدولة عليه سلطان.

---

(١) متفق عليه: البخاري في التوحيد (٧٤٤٨)، ومسلم في الجنائز (٩٢٣)، عن أسامة بن زيد.

(٢) التراتيب الإدارية (٢/ ١٥١ ـ ١٥٢).

كلا، فقد رأينا العُمرَين - ابن الخطاب وابن عبد العزيز - يُلزمان الرعيَّة بالرفق إلزامًا، وإنما لم يفعل ذلك النبي ﷺ؛ لأن الناس في عهده كانت تكفيهم الموعظة لتغيير سلوكهم دون الحاجة إلى إلزام قضائي، أو تدخل حكومي.

أما بعد ذلك فمن حقِّ السلطان والقاضي والمحتسب: أن يتدخَّلوا لإزالة الظلم عن هذه المخلوقات المظلومة، ومِن واجب أي مسلم شاهَدَ هذا الظلم أو القسوة أن ينهى عنه، ومن حقه أن يرفعه إلى أولي الأمر ليعملوا على رفعه.

قال العلامة الماوردي في **(الأحكام السلطانيَّة)**: «إذا كان من أرباب المواشي مَن يستعملها فيما لا تُطيق الدوام عليه، أنكره المحتسبُ عليه، ومنعه منه»[1] اهـ.

ولما قال ابن رشد: «يُقضى للعبد على سيده إن قصَّر عمَّا يجب له عليه بالمعروف في مطعمه وملبسه، بخلاف ما يملكه من الدوابِّ، فإنه يؤمر بتقوى الله في إجاعته، ولا يُقضَى عليه بعلَفِها»[2]. ردَّه مستعظمًا له الشيخُ أبو عليِّ بن رحال في باب النفقاتِ من شرح المختصر - يعني متن خليل - بنص ابن عبد البر في **(الكافي)**: «والرفق بالدواب في ركوبها، والحمل عليها: واجبُ سُنَّة، فإنها عُجم لا تشكو، و«في كلِّ كبد رطبة أجر»[3]. هذا قول رسول الله ﷺ، فإذا كان في الإحسان إليها أجر، فكذلك في الإساءة إليها وزر.

ولا يُحمل على الدواب أكثر من طاقتها، ولا تُضرب وجوهها، ولا تُتَّخذ ظهورها كراسيَّ، ولا تُقلَّد الأجراس، ولا تُستعمل ليلًا، إلا أن يُرَوَّح عنها نهارًا، ولا يحلُّ حبس بهيمة مربوطة عن السرح والانتشار بغير علف ولا طعام». قال ابن رحال: «فإن قول ابن رشد: الدابة لا يُقضى عليه بعلفها... إلخ. يلزم ابن رشد أن الدابة إذا حمَّلها مالكها ما لا تُطيقه من الحمل أو الشغل، يعذبها عذابًا شديدًا بلا فائدة، أنه لا يُقضَى على المالك بترك ذلك، وأنه يُترك هو وإياها، ويُؤمر بتقوى الله فيها فقط، وذلك لا يحلُّ أصلًا مع

---

(١) انظر الأحكام السلطانية ص٢٧٢، ط. دار الحديث القاهرة.

(٢) البيان والتحصيل، لابن رشد (٩/ ٢٠٨)، دار الغرب الإسلامي، لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م، تحقيق: د محمد حجي وآخرون.

(٣) سبق تخريجه، ص٢٩٤.

مخالفة ذلك لكلام الناس، وحديث: «في كل كبد رطبة أجر». رأيت أبا عمر قال: يلزم عليه أن الإساءة فيها وزر، والوزر منكر، والمنكر يجب تغييره ـ كما أشار إليه ابن عرفة ـ ولو كان الناس يُزجَرون بقول الإمام لهم: اتقوا الله في كذا. ما شُرِعت الزواجر، والقتل، والسجون، والتعزيرات»[1] اهـ.

وبهذه النقول النيرة يتبيَّن لنا روعة هذه الأحكام الخاصة بالرفق بالحيوان، وسبقها بقرون طويلة كل ما عرفه الناس عن ذلك في العصر الحديث، بل فاقته بمراحل ومراحل.

وهذا كلُّه يدلنا على عظمة الإسلام، وعلى أن شريعته شريعة أخلاقية ولا ريب.

من غرائب (كانت):

ومن غريب ما يُروَى عن (كانت): أن الناس ليس عليهم واجبات نحو الكائنات الدنيا، لأنه ليس لهم حقٌّ قِبَلها، وكل واجب لا بدَّ أن يقابله حق، وهذه المقدمة يمكن الطعن فيها، وعدم التسليم بها.

ولو سلمنا بصحتها، فإن الرفق بالحيوان، والعناية بكلٍّ ما ملكت يمين الإنسان، في مقابلة حق التسخير، الذي خوَّله الله للإنسان على سائر الكائنات: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس: ٧١ ـ ٧٣]. فالشكر مقابل حق التسخير والتذليل والإنعام، ومن الشكر: الإحسان إليها، والعناية بها، ووقايتها من كل ما يؤذيها.

ب ـ أخلاق الإنسان مع الكائنات الحيَّة من النبات:

تحدَّثنا عن الأخلاق في الإسلام وموقفها من أجناس الحيوانات والسباع والزواحف والطيور والحشرات والأسماك والحيوانات المائيَّة، وكل ما كان من هذه الأنواع الحيَّة الحسَّاسة المتحرِّكة بإرادتها، والآن نتحدَّث عن مجموعة أخرى من الكائنات الحية، ولكن حياتها أدنى من حياة الحيوانات، فلا شك أن فيها حياة، وفيها نموٌّ، وفيها غذاء، وفيها تزاوج، وفيها ذكورة وأنوثة يحتاج

---

(١) التراتيب الإدارية (٢/ ١٥٣ ـ ١٥٤).

بعضها لبعض، وهي فصائل متنوعة تنوعًا يُعدُّ بالملايين، وكلها تدخل ضمن الكائنات النباتيَّة، التي خلقها الله في هذه الأرض، بعضها يزرعه الله تعالى نفسه دون تدخل من الإنسان، وبعضها يزرعه الإنسان.

كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الواقعة: ٦٣ ـ ٦٧].

ويقول سبحانه: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [يس: ٣٣ ـ ٣٥].

ويقول ﷻ: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد: ٤].

ويقول ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾ [النحل: ١٠ ـ ١١].

ويقول تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ [ق: ٧ ـ ١١].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنعام: ٩٩].

فتدبَّروا قوله تعالى: ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾، وفي آية أخرى يقول في آخرها: ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الأنعام: ١٤١].

فأنت تجمع في هذه الزروع ومنتجاتها بين التَّنعُّم بالأكل من ثمراتها، كما قال تعالى: ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾، وبين التفكُّه بالنظر إلى ما

فيها من عنصر الجمال، كما في قوله سبحانه: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾، ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾.

إنَّ القرآن يعتبر نعمة الزروع من أعظم أفضال الله على الإنسان، وعلى الأنعام والحيوانات الآكلة للعشب، ولذلك يتفضل الله على عباده بعد أن بيَّن لهم ما صنعه لهم في الكون: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس: ٢٤ - ٣٢]. كل هذه الكائنات والمزروعات جعلها الله للإنسان، ولأنعامه التي يستخدمها لمصالحه وزراعة أرضه، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [السجدة: ٢٧]. فانظر في هذه الآية، كيف قدم الله الأنعام على أصحابها؛ لأنهم أول ما يستفيد من هذا الزرع قبل أن يستفيد الإنسان نفسه!

وكما أنَّ نعم الله تعالى على الإنسان أن يأكل من هذه النباتات والزروع والحبوب والثمار، فعليه أن يُخرِج حقَّ الله تعالى للفقراء والمساكين والأصناف المستحقَّة منها، فلهم فيها حقوق، كما أن لزارع الأرض أو مالكها حقًّا، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۚ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ۖ﴾ [الأنعام: ١٤١].

فإذا كان من حقِّ صاحب الأرض والزرع أن يأكل من ثمره إذا أثمر، فإنَّ من واجبه: أن يُؤتي حقَّه يوم حصاده، سواء فسَّرناه بحقِّ الزرع عند الحصاد، أم فسَّرناه بحقِّ الزرع إذا وصل إلى زارعه، وأصبح صالحًا للانتفاع به، فوجب على من زرعه إخراج الواجب فيه، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ ۖ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

قال العلامة أبو بكر بن العربي في تفسير آية سورة الأنعام: «وأما أبو حنيفة فجعل الآية مرآته فأبصر الحقَّ، فأوجبها في المأكول قوتًا كان أو غيره، وبيَّن النبي ﷺ ذلك في عموم قوله: «وفيما سقت السماء العُشر»[(١)]»[(٢)] اهـ.

---

(١) رواه البخاري (١٤٨٣)، عن ابن عمر.

(٢) انظر أحكام القرآن لابن العربي (٢/ ٢٨٣)، بتحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط. الثالثة ٢٠٠٤م.

إنَّ على الإنسان المسلم أن ينظر فيما خلق الله من أنواع الزروع والحبوب والأشجار والأزهار والورود والحشائش، ويستفيد منها لمطالبه الضروريَّة، ولمطالبه الحاجيَّة، ولمطالبه التَّحْسينيَّة.

عليه أن يزرع بالتعاون مع إخوانه وجيرانه وشركائه ما لا بدَّ منه من الحبوب والثمار، التي يحتاج إليها في قوته الآدمي، ويهيِّئ لها من الأسباب والأدوات، ما لا بدَّ منه، حسب مستوى عصره، وجهد جماعته.

وفي حالات القحْط والمجاعة يجب على أهل الرأي في الجماعة أن يصنعوا ما صنع سيدنا يوسف عليه السلام، ويخطِّطوا لمواجهة الأزمة، بالتخزين أيام الخصب، والتقليل من الاستهلاك أيام الشدَّة، وتنظيم الأمور بالعدل والإنصاف، حتى تنتهي المجاعة، ويُغيث اللهُ الناس.

وينبغي للناس أن ينظِّموا أمر المياه التي يحتاج إليها الناس لشربهم ونظافتهم، وزروعهم ومواشيهم، ويتقاسموا ذلك بالمعروف، ولا يجور بعضهم على بعض.

وعلى الناس أن يزرعوا من الأشجار ما يحتاجون إليه في القوت؛ كالحبوب والزيتون، وأشجار الزيوت، وما يحتاجون إليه للتفكُّه والتلذُّذ؛ كالنخيل والأعناب، والرمان والطلح، وغيرها من أنواع الفواكه، والمكسرات؛ كاللوز والبندق والجوز، وغيرها.

وهناك من الأشجار ما يحتاج إليه الإنسان ليستظلَّ بظلِّه، وخصوصًا في أيام الصيف التي تتوقَّد فيها حرارة الشمس، ويكون الناس في حاجة إلى كل ظلٍّ يُذكِّرهم بظلال الجنَّة.

وتحتاج بعض المجتمعات ـ وخصوصًا حول المدن الصناعيَّة الكبرى ـ إلى أشجار متراصَّة متراكبة، في مسافات واسعة، مهمتها أن تصبح حدائق شجريَّة فقط؛ لتكون رصيدًا حيًّا للبلاد الممتلئة بالسكان والصناعات، فهذه الأشجار التي لا فائدة لها غير الظلال، مُكمِّلة لحياة هذه المدن، وحافظة لها.

وعلى الناس كذلك أن يستكملوا نعمةَ الله عليهم بالاستفادة من غرس وزراعة الأزهار والورود، التي تملأ جنَبات الأودية والشطآن، بأصناف وأنواع وألوان من الأزهار والورود التي تشرح رؤيتُها الصدور، وتبتهج بها الأعين، وتنعم بطيب روائحها الأنوف، وتتفكر العقول في فنون جمالها، وروائع

أشكالها، وكيف يستخرج الكثيرون منها أنواعًا من الأدوية لبعض الأمراض، مما يُمصُّ أو يُستنشق أو يُبلع، أو يوضع تحت الجفن، أو غير ذلك، مما جرَّبه البشر، فوجدوه نافعًا لهم، فتواصوا به.

وجرَّب الناس كيف يمكن أن يأخذوا من الشجر بعضه لبعض، فيُطعِّموا بعضه ببعض، فيستفيدوا ألوانًا جديدة، ويزدادوا فضلًا من الله ونعمة.

المهم ألا يستأثر بعض الناس ببعضها، فيحتكر بعضهم لنفسه ولمن معه القِطَع والمساحات الكبيرة التي تُقدر بالملايين أو البلايين، على حين لا يجد غيره قطعة صغيرة يزرعها لنفسه بما يقدر عليه، ولا بدَّ للناس من شرع يرضونه، يُوفِّيهم ما لهم من حقوق، ويفرض عليهم ما يُصلحهم من واجبات، وكيف تُمتلك الأراضي؟ وما عليها من حقوق للآخرين؟ وكيف تؤخذ منهم؟ وما مقدارها؟ وهو ما صنعه الإسلام بإيجاب الزكاة، وهي أول الحقوق في الأرض، وليست آخرها.

ومن توجيهات الإسلام للناس في الزروع: أن يتعاونوا في عدَّة أمور، لتصلح حياتهم:

أولًا: أن يتعاونوا معًا لتوفير المياه التي يحتاجون إليها لأنفسهم ولأنعامهم ولزروعهم، فلا بدَّ أن يشدَّ بعضُهم أزر بعض لإيجاد الماء، بعمل بعض السدود، أو باستخراجه من الأرض، أو بالعناية ببعض الأنهار، أو غير ذلك، فالمرء قليل بنفسه، كثير بإخوانه، والرجل ضعيف بمفرده، قويٌّ بجماعته.

ثانيًا: لا بدَّ أن ينسِّقوا فيما بينهم ما يحتاجون إلى زراعته مما لا بدَّ لهم منه لأنفسهم، أو لحيواناتهم وطيورهم، فلا يزرعون كلُّهم قطنًا، فلا يجدون في النهاية حبًّا يأكلون منه، أو يزرعون رُمَّانًا، فلا يجدون من القمح ما هم أشد حاجة إليه، أو يقتصرون على زراعة الحبوب المطلوبة، فلا يجدون من الفواكه والخضروات ما هو ضروري لحياتهم، لا بدَّ لهم أن ينظِّموا ذلك كلّه، وفْق الحاجة التي تفرضها الجماعة.

ثالثًا: لا بدَّ أن يراعوا العدل في كلِّ ما يُقيمونه من معاملات، فلا يجور قويٌّ على ضعيف، ولا يبخل غنيٌّ على فقير، ولا يأكل ربُّ العمل حقَّ العامل، بل يوفي الأجير أجره قبل أن يجف عرقه، كما في الحديث الشريف[1]، ولا

(١) إشارة إلى حديث: «أعطوا الأجير أجره، قبل أن يجف عرقه». رواه ابن ماجه في الرهن (٢٤٤٣)، =

يبيت رجل شبعان، وجاره إلي جنبه جائع، فقد برئ منه رسول الله ﷺ[1]، ولا بدَّ للضعيف أن يقوَّى، وللمريض أن يُعالج، وللمسكين أن يُعطَى، كما قال تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الإسراء: ٢٦].

رابعًا: ألا يجور أحدٌ على حقِّ غيره، وأن يلتزم الجميع بحماية الحقوق العامة، فلا يعتدي أحد على شجرة صغيرة، أو نبتة مورِقة، ولا يسعى أحد في إيذاء زرع لغيره، ولا إيذاء زرعٍ عامٍّ، ليس ملكًا لشخص معين، إنما هو ملك المجموع، كما جاء في الحديث الشريف: «مَن قطع سِدْرة صوَّب الله رأسه في النار»[2]. وزعم العلامة الألباني: أن المقصود سِدْر الحرم. ولا يوجد دليل على ذلك.

وسُئل أبو داود عن معنى هذا الحديث فقال: «هذا الحديث مختصر، يعني من قطع سدرةً في فلاةٍ يستظل بها ابنُ السبيل والبهائم، عبثًا وظلمًا بغير حق يكون له فيها، صوَّب اللهُ رأسَه في النار»[3].

وهو ما سار عليه خلفاء رسول الله، فهذا أبو بكر ﷺ يودِّع جيش أسامة، ويوصيه بجوامع آداب الإسلام وأخلاقه، حتى ولو كانوا في حرب مع العدوِّ، فيقول: لا تخونوا، ولا تغدروا، ولا تغلُّوا، ولا تمثّلوا، ولا تقتلوا طفلًا، ولا شيخًا كبيرًا، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلًا ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرةً مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرًا إلا لمأكلة[4].

ج ـ أخلاق الإنسان مع ما دون النبات في الأرض والسماء:

تحدَّثنا عن أخلاق الإسلام، وما تطلبه من الإنسان مع أخيه الإنسان، ومع أنواع الحيوانات وفصائلها، وأنواع النبات والمزروعات، وبقي أن ننظر في

= والقضاعي في مسند الشهاب (٧٤٤)، وصحَّحه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٩٨٠)، عن ابن عمر.

(١) رواه الطبراني (١/ ٢٥٩)، والبزار (٧٤٢٩)، وحسن إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٢٤٣)، والهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٣٠٥)، وابن حجر في القول المسدد (٢١)، عن أنس بن مالك.

(٢) رواه أبو داود في الأدب (٥٢٣٩)، والنسائي في الكبرى في السير (٨٥٥٧)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٦١٤)، عن عبد الله بن حبشي. والمراد بالسدرة: شجرة السدر (النبق) التي يكثر وجودها في البراري.

(٣) انظر: سنن أبي داود وتعقيبه على الحديث سالف الذكر (٥٢٣٩).

(٤) انظر الكامل لابن الأثير (٢/ ١٩٦)، بتحقيق عمر عبد السلام تدمري، ط. دار الكتاب العربي، بيروت، ط. الأولى ١٩٩٧م.

أخلاق الإسلام وما تطلبه من سلوك مع باقي أنواع الكائنات في العالم الكبير من فوقنا ومن تحتنا، وعن يميننا وعن شمائلنا، في علويِّنا وسفليِّنا، عالم السماء والأرض.

إنَّ أخلاق الإسلام تتميَّز بالشمول والاستيعاب، الذي يشمل كل شيء في الكون، ولو كان ممَّا لا يَعْقِل أو لا يُحس ولا يتحرَّك، وليس من عالم الحيوان، ولا عالم النبات.

إنَّ الإنسان يعيش في عالم كبير، خلقه الله تعالى، وهو لا يحتاج إلى شيء فيه، بل كلُّ شيء فيه في حاجة إلى الله ليبقى ويستمر، ويصل إلى ما يريده الله له، فالله غنيٌّ عن العالمين.

ولكن الإنسان هو الذي في حاجة إلى هذا العالم، فهو يحتاج إلى الأرض لتكون له بساطًا وفراشًا ومهادًا، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ [نوح: ١٩ ـ ٢٠]. ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢]. ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾﴾ [النبأ: ٦]. ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: ١٥]. ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ ۖ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾﴾ [الرحمن: ١٠ ـ ١١].

وفي الأرض خلق الله الماء الذي به حياة الإنسان والحيوان والنبات، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [النازعات: ٣٠ ـ ٣٣].

فأرشدنا الله أنه أخرج ماء الأرض من الأرض، فالماء الذي ينزل من السماء أصله من الأرض؛ لأنه مُتَبخِّر من ماء البحار، التي هي ثلاثة أرباع الأرض، ولذلك قال الشاعر العربي[1] في ممدوحه:

كالبحر يُمطره السحابُ وما لَهُ فضلٌ عليه؛ لأنه من مائه

وقال تعالى بعد أن ذكر الزرع في سورة الواقعة: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الواقعة: ٦٣ ـ ٦٤]. قال ﷻ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الواقعة: ٦٨ ـ ٧٠].

---

(١) هو أبو عبد الله الأسطرلابي.

ويلفتنا القرآن إلى السماء أو إلى السماوات من فوقنا، وهي كون كبير كبير، تُعدُّ الأرض بالنسبة إليه شيئًا صغيرًا جدًّا جدًّا، فهي جزء محدود قليل من المجموعة الشمسية، التي تُعدُّ شمسنا جزءًا منها، وهذه المجموعة واحدة من ملايين المجموعات التي تضمُّها مجرَّتنا التي نسكنها، والتي نسمِّيها: (سكَّة التبَّانة)؛ لأن النجوم فيها كأنها منثورة ومبعثرة، كما يُبعثر التبن في الطريق الذي يذرَّى فيه القمح.

وهذه المجرة جزء من ملايين المَجرَّات التي يتكوَّن منها عالمنا، وهي التي تتميَّز بأن تظهر فيها النجوم التي زُيِّنتْ بها السماء الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: ٥]. وكأنَّ كل ما يعرفه علم الفلك المعاصر من مجموعات نجميَّة: كلها من مكوِّنات وخصائص السماء الدنيا، أما السماوات الأخرى، فالله أعلم بها: «اللهمَّ لك الحمد، ملءَ السماوات، وملءَ الأرض، وملءَ ما شئت من شيء بعد»[1].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢].

د ـ أخلاق الإنسان مع الكائنات غير المنظورة:

وهناك جانب من الأخلاق في الإسلام، يتعلَّق بكائنات، عرَفها الناس عن طريق الدين، والإيمان بالغيب، وأشرنا إليها فيما سبق، بعضها يُسمَّى: (الجن)، وهم جنس من المخلوقات المكلَّفة بعبادة الله تعالى، وطاعته فيما أمرهم به، والرسل مكلَّفون أن يبلِّغوا إليهم رسالتهم، ومنهم المؤمن والكافر، والمطيع والعاصي، كما قال تعالى على لسان الجن الذين استمعوا إلى محمد خاتم رسل الله: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾﴾ [الجن: ١ ـ ٢]. واستمرُّوا يتحدثون إلى أن قالوا: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ [الجن: ١٤ ـ ١٥].

وفي القرآن الكريم، وفي الأحاديث النبويَّة كلام كثير عن الجنِّ وأوصافهم وأحوالهم وموقفهم من البشر، وعن أنواعهم وخصالهم، وما يأكلون وما

---

(١) رواه مسلم في الصلاة (٤٧٦)، وأحمد (١٩١١٨)، عن عبد الله بن أبي أوفى.

يشربون وما يعملون، وقد استخدمهم نبي الله سليمان: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣]. ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾ [ص: ٣٦ ـ ٣٩].

وهؤلاء الجن فيهم المؤمن الصالح، وفيهم المؤمن العاصي، وفيهم الكافر الخبيث، الذي هو من جند شرِّيرهم الأكبر إبليس، الذي رفض أن يسجد للإنسان الأول، أبي البشر آدم عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠]. وسأله ربه: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ [ص: ٧٥ ـ ٧٦]. وطلب من الله أن يمهله ليقوم بدوره في فتنة آدم وذرِّيَّته: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الحجر: ٣٦] ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: ٣٩ ـ ٤٢]. فكانت المعركة بين إبليس وآدم وذريَّته، وقد حذَّر الله تعالى من هذا الشيطان الأكبر، ومن عداوته الأصليَّة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر: ٦].

وقد أمرنا الله تبارك وتعالى أن نؤمن بوجود الجنِّ، وإن كنا لا نراهم، وبوجود الشياطين الذين يوسوسون للناس، ودعانا أن نستعين به سبحانه من شرورهم: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ [الناس: ١ ـ ٦]. ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ [المؤمنون: ٩٧ ـ ٩٨].

ولم يكلفنا الله تعالى بشيء عملي نقوم به نحو الجن، اللهم إلا في أمر يسير؛ لأننا عمليًا لا نحسُّ بهم، وإن كان بعض الناس يحكي لنا قصصًا عن اتصالهم به، أو اتصاله بهم.

ومن تلك الأمور اليسيرة التي كُلفنا بها نحو الجن عدم الاستنجاء بالعظم والروثة؛ لأن العظم من طعامهم، والروث من طعام دوابِّهم، كما روى مسلم،

عن ابن مسعود ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «أتاني داعي الجن، فذهبتُ معه فقرأتُ عليهم القرآن». قال (أي ابن مسعود): فانطلق بنا، فأرانا آثارهم، وآثار نيرانهم وسألوه الزاد، فقال: «لكم كلُّ عظم ذُكِرَ اسمُ الله عليه يقع في أيديكم أوفرَ ما يكون لحمًا، وكلُّ بعْرةٍ علفٌ لدوابِّكم». فقال رسول الله ﷺ: «فلا تستنجوا بهما؛ فإنهما طعام إخوانكم»(١).

عالم الملائكة الأطهار:

وهناك كائنات غير منظورة أخرى تشاركنا في هذا الكون، ولكنها غير مرئية لنا، وهم غير مكلّفين على خلاف الجن، ولكنهم عقلاء أحياء موجودون، يعملون جنودًا لله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

هؤلاء هم الملائكة، وكلُّهم أطهار، لا تتحكَّم فيهم غريزة، ولا يخضعون لوسوسة الشياطين، وإنما هم مفطورون على طاعة الله فيما وَكَلَه إليهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم: ٦]. ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾ [الأنبياء: ٢٠].

أصناف الملائكة ووظائفهم:

منهم الموكلون بحفظ الإنسان: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾ [الانفطار: ١٠ ـ ١٢]. ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ۝٨٠﴾ [الزخرف: ٨٠]. ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [ق: ١٧ ـ ١٨]. ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝٤٩﴾ [الكهف: ٤٩].

ومنهم الموكلون بالموت: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۝١١﴾ [السجدة: ١١].

ومنهم ملائكة الجنَّة الذين يستقبلون أهلها ممّن استحقُّوا دخولها، ويقولون لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ۝٧٣﴾ [الزمر: ٧٣].

---

(١) رواه مسلم في الصلاة (٤٥٠)، وأحمد (٤١٤٩)، وأبو داود في الطهارة (٣٩)، والترمذي في التفسير (٣٢٥٨)، عن ابن مسعود.

ومنهم خزنة جهنَّم، وعلى رأسهم (مالك): ﴿وَنَادَوْا يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ۝٧٧ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ۝٧٨﴾ [الزخرف: ٧٧ ـ ٧٨].

الإيمان بهم على وجه الإجمال والتفصيل:

ومن أركان الإيمان: أن نؤمن بهؤلاء الملائكة، كما نؤمن بكتب الله التي أنزلها، وبرسل الله التي أرسلها: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٢٨٥﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ومن حقّ الملائكة علينا أن نؤمن بهم على وجه الإجمال، ومن أخلَّ بهذا الحق فجحد وجود الملائكة ـ كما وقع لبعض الفلاسفة ـ فقد خرج عن ملَّة الإسلام، كما جاء في الآية الكريمة: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ۝١٣٦﴾ [النساء: ١٣٦].

وأما الإيمان على وجه التفصيل: فنؤمن بحقيقتهم، بمعنى أنهم ذواتٌ حقيقيَّة وليست معنويَّة أو مجازيَّة، وأنّهم خُلقوا من نور، وأنهم لا يأكلون ولا يشربون، ولا يتزاوجون ولا يتناسلون، يسبحون الليل والنهار لا يفتُرون، وغير ذلك من الأمور.

وأن نؤمن كذلك بما جاء في الكتاب والسنة الصحيحة الثابتة من وظائفهم، كالتوكيل بالقطر، أو قبض الأرواح، أو حراسة نار جهنم، وبما أعطاهم من القدرة على التشكُّل والتصوُّر، وكذلك الإيمان بما ورد من أسمائهم، كجبريل وميكائيل وإسرافيل، وملك الموت، ومالكُ خازن جهنم، وغيرهم ممن جاءت النصوص بتسميتهم.

الملائكة عباد مربوبون لا حول لهم ولا قوة إلا بربهم وخالقهم:

والملائكة خلق من خلق الله، لا شأن لهم في الخلق والتدبير وتصريف الأمور، بل هم جند من جنود الله يعملون بأمر الله، والله تعالى هو الذي بيده الأمر كله لا شريك له في ذلك. كما أنه لا يجوز صرف شيء من أنواع العبادة لهم، بل يجب إخلاص العبادة لخالقهم وخالق الخلق أجمعين.

وقد بيّن الله تعالى ذلك، فقال ﷻ: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝٨٠﴾ [آل عمران: ٨٠].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦ - ٢٧].

فالملائكة عباد مربوبون، لا حول لهم ولا قوة إلا بربّهم وخالقهم.

موالاة الملائكة ومحبتهم:

من أخلاق المؤمن مع الملائكة: موالاتهم ومحبتهم؛ لأنهم يطلبون من الله ﷻ أن يغفر لنا، وأن يتجاوز عن زلاتنا وأخطائنا، فهم يستغفرون لنا، ويدعون لنا بالوقاية من النار.

قال الله تعالى في الملائكة حَمَلة العرش ومن حوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾﴾ [غافر: ٧].

وهم يحبون الخير والهداية والسداد والرحمة لنا، ويدعون لنا مع الله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الأحزاب: ٤٣].

وهم أيضًا يطلبون من الله تعالى كلَّ يوم أن يعوِّض عمَّن بذل ماله ابتغاء مرضاة الله.

روى أبو هريرة ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «ما من يوم يصبح العباد فيه، إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعطِ منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعطِ ممْسكًا تلفًا»[1].

فلذلك تجب علينا موالاة الملائكة لموالاتهم لنا ونصرهم وتأييدهم واستغفارهم.

الاقتداء بالملائكة الكرام في حسن أدبهم مع الله:

ومن أخلاق المؤمن مع الملائكة الكرام: الاقتداء بهم، في حُسن الأدب مع الله تعالى، فهم لا يتقدَّمون بين يديه سبحانه بالقول، وهم بأمره يعملون، فلا يخالفونه قولًا وفعلًا، قال تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنبياء: ٢٧]. وقد أمرنا الله بهذا الأدب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾ [الحجرات: ١].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٤٢)، ومسلم (١٠١٠).

وكذلك نقتدي بهم في مخاطبة الله سبحانه، كما نجد ذلك في الحوارات الغيبيَّة المبثوثة في كتاب الله، ففي قصة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ التي ذُكرت في سورة البقرة، علَّم ربُّنا تبارك وتعالى آدم أسماء الأشياء كلَّها، ثم قال للملائكة: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ [البقرة: ٣١]. فلم يعتذروا عن الإجابة ببيان قصور علمهم فحسب، بل قالوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ [البقرة: ٣٢]. فنزّهوا الله تعالى عن كل نقصٍ وعيب، وبيَّنوا أنَّ سؤالهم عن استخلاف الإنسان في الأرض لم يكن على وجه الاعتراض، ولكن كان على وجه الاستعلام، واعترفوا بفضل الله عليهم بتعليمهم ما لم يكونوا يعلمون، ثم ختموا قولهم بالإقرار بعلم الله وحكمته.

ومن أدبهم كذلك: ما جاء في قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا، في وصفِ حال تلقِّي الملائكة لأوامر الله تبارك وتعالى: «إذا قضى الله الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خُضعانًا لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فزِّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق وهو العلي الكبير»(١).

وكلها كلمات تظهر الإجلال والتعظيم لله سبحانه، والذل والانكسار والخشوع بين يديه إلى حدِّ الفزع: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢٨]. والاعتراف التام بأن ما يقوله الله حقٌّ وصدق.

ومن ذلك سبحانه عن الملائكة: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: ٤١].

حُسن ثنائهم ومدحهم لله عَزَّ وَجَلَّ:

ومن الاقتداء بهم: حُسْن الثناء والمدح لله جَلَّ جَلَالُهُ، والتأدُّب بأدب الدعاء في تقديم الثناء على الله، كما ذكر الله من دعائهم: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾﴾ [غافر: ٧].

أثر الإيمان بالملائكة في أخلاق المسلم:

للإيمان بالملائكة الكرام عَلَيْهِمُ السَّلَامُ آثار عظيمة على سلوك الإنسان، وعلاقته بربه، وعلاقته بخلقه والكون من حوله. من تلك الآثار:

---

(١) رواه البخاري في التفسير (٤٧٠١).

١ ـ الإيمان بعظمة الله تعالى وقدرته الذي خلق الملائكة من نور ذوي أجنحة مثنى وثلاث ورباع، يزيد في الخلق ما يشاء.

٢ ـ بذل العبد جهده في طاعة ربه سبحانه، اقتداء بالملائكة الكرام، الذين يتنافسون في التقرب إليه مع عصمتهم من الذنوب، وقربهم من ربهم جل وعلا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۝٢٠٦﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

٣ ـ الله تعالى جعل من ملائكته الكرام المقرَّبين حفظة وحرسًا للإنسان، تكريمًا له، حيث جعلهم ـ وهم الذين فطرهم الله تعالى على طاعته ـ في خدمة الإنسان وفي حفظه وحراسته، فأيُّ تكريم للإنسان أعظم من هذا؟!

٤ ـ إقرار الإنسان بضعفه، وتذكره فضل الله عليه بأن وكل له ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه؛ جبرًا لضعفه وشدًّا من أزره.

٥ ـ دفع الغرور عن النفس، والافتخار بالعمل، فالملائكة على دأبهم في طاعته سبحانه متذللون له خاضعون لأوامره سبحانه: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾ [الأنبياء: ٢٠]. وهم مع ذلك يسألونه الصفح والمغفرة عن التقصير في العمل، كما في الحديث أن الملائكة تقول لربها يوم القيامة: «سبحانك ما عبدناك حق عبادتك»[1]. فالمسلم مهما بلغ في عبادته، فلن يبلغ مقدار عبادة الملائكة، فهو أولى بالبعد عن العُجب والتيه والاغترار بالعمل.

٦ ـ **الاجتهاد في البعد عمَّا حرمه الله، خوفًا وحياء من الله سبحانه، ثم حياء من الملائكة** الذين لا يفارقون بني آدم، ويكتبون ويسجلون أعمالهم، ولا سيما أن الله وصفهم بأنهم كرام، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾ [الانفطار: ١٠ ـ ١٢].

لقد جعل الله تعالى الحفَظة من ملائكته الكرام على الإنسان لإشعاره أنه ليس سائبًا يفعل ما يشاء، ويترك ما يشاء، وأن أعماله لا تنتهي بمجرَّد عملها، ولكنها محفوظة مسجَّلة له أو عليه، فليحذر أن يرى في صحيفته غدًا ما يسوؤه.

حينما يكون الإنسان في مكان يعلم أنَّ فيه أجهزة تنصَّت عليه، فإنه يحترس من الكلمة يقولها، أو إن كان هناك (كاميرا خفيَّة) تصوِّر حركاته، فماذا

---

(١) رواه الحاكم في الأهوال (٤/ ٥٨٦)، وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، عن سلمان الفارسي.

يصنع؟ لا شك أنه يتحرَّى أن يكون حريصًا، وكفى بهذا رادعًا للإنسان عن أن يقترف المنكرات، أو يعبَّ من الشهوات، أو يسير في ركاب الشيطان، بل لا بد أن يحاسب نفسه، وأن يقف مع نفسه يراقبها ويؤدِّبها، ويقول لها: كيف تفعلين كذا، وكيف تتركين كذا؟ ولماذا؟ وهذا شأن صاحب (النفس اللوامة)، أو ما يُسمُّونه في عصرنا (الضمير الحي) فهؤلاء الحفَظَة وَكَلَهم الله لمثل هذه المعاني.

٧ ـ **الاقتداء بهم في أدبهم مع الله، وحسن عبادتهم ونظامهم، وإتقان أعمالهم**: فقد روى مسلم: عن جابر بن سمرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «ألا تصفُّون كما تصفُّ الملائكة عند ربها؟». فقلنا: يا رسول الله، وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: «يتمُّون الصفوف الأُوَل، ويتراصُّون في الصف»[1]. حثَّ النبي ﷺ الصحابة على الاصطفاف في الصلاة، كما تصف الملائكة عند ربها، وذلك لحسن نظامهم عند وقوفهم بين يدي ربهم.

٨ ـ **الحذر من إيذاء الملائكة الكرام** ممَّا يسبِّب نفورهم من بيوتنا ومجالسنا، لتعمَّ بيوتنا ومجالسنا الرحمة والبركة.

وكذلك اجتناب موجبات لعنهم لنا. واللعنة هي الطرد والإبعاد من رحمة الله تبارك وتعالى، وهذه شر عقوبة أن يُطرد الإنسان من رحمة الله التي وَسِعَت كل شيء، وأن لا تَسَعه هذه الرحمة، كما قال ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٦١﴾ [البقرة: ١٦١].

٩ ـ **الحرص على صلاة الملائكة علينا**، وفي صلاة الملائكة على العبد: الاستغفار له، والثناء عليه، والتنويه بالعمل الذي أكسبه صلاتهم.

وبصلاة الملائكة على العبد يُنقل من ظلمات الجهل والضلال والكفر إلى نور العلم والهدى والإيمان واليقين، قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ٤٣﴾ [الأحزاب: ٤٣].

١٠ ـ وكما يحرص المؤمن على كثير من الأقوال والأعمال التي ينال بها صلاة الملائكة، كذلك يحرص على التَّحلي بكثير من الأعمال التي يباهي الله تعالى بها ملائكته في الملأ الأعلى[2].

---

(١) رواه مسلم في الصلاة (٤٣٠)، وأحمد (٢٠٩٦٤).

(٢) من فصل الإيمان بالملائكة في سلسلة: عقائد الإسلام، للمؤلف.

الفصل الثالث

الأخلاق الإنسانيَّة الجماعيَّة

تشمل الأخلاق في الإسلام ما يمكن أن نسمِّيه: (الأخلاقَ الإنسانيَّة) التي تنظر إلى الإنسان من حيث كونُه إنسانًا، وتهتمُّ بكلٍّ ما يرقى بإنسانيَّته، ويحافظ عليها من القوة الشهوية، التي تُلحقه بالبهائم والأنعام، أو القوة الغضبيَّة، التي تُلحقه بالسباع ذوات الأنياب. هذه الأخلاق تتمثَّل فيما عرفته البشريَّة من: العدل والإحسان، والصدق والأمانة، والبر والرحمة، والعفة والإحصان، والشجاعة والسخاء، والحلم والعفو عند المقدرة، والاقتصاد والحياء، والعزة والتواضع والرفق.. إلى غير ذلك من الأخلاق التي تنظِّم علاقة الإنسان بنفسه وبأخيه الإنسان، وتنظِّم علاقته بأمَّته وبغيرها من الأمم، وتهتمُّ بها الأخلاق (الفلسفيَّة) أو (المدنيَّة)، كما تهتم بها كل الأخلاق.

مفهوم الأخلاق الاجتماعيَّة:

ونعني بها الفضائل التي لا يستقرُّ كيان مجتمع بغيرها، فهي الأسس المعنويَّة لبنائه، وهي التي تقوم بها العلاقات بين الناس على أقوى الدعائم، وأوثق العُرى، وهي التي تصون المؤسسات أن يعبث بها العابثون، وتحفظ القوانين أن يتلاعب بها المحتالون، فبالأخلاق تبني المجتمعاتُ نهضتَها في السلم، وبالأخلاق تنتصر على عدوها في الحرب.

من هذه الأخلاق الاجتماعية: ما يتعلق بالأسرة المسلمة، ومنها ما يتعلق بالمجتمع المسلم، ومنها ما يتعلق بالأمَّة الكبرى، ومنها ما يتعلق بالدولة، ومنها ما يتعلق بالعالم، هذه الأخلاق تشمل البر والخير والعدل والإحسان، وإيتاء ذي القربى، والرحمة بالضعفاء، والبر بالفقراء، والتعاون والنظام، والإخاء والتضحية، والصدق والأمانة والإيثار.. وما إلى ذلك من الفضائل، التي تجعل علاقة الناس بعضهم ببعض في حالة من الرُّقيّ والانسجام والتلاؤم.

والمطلوب هنا: أن يتَّسع المجال هنا للحديث عن كلٍّ ما دعا إليه الإسلام من فضائل اجتماعيَّة في شتَّى مجالات الحياة، إنما نكتفي ببيان جملة مناسبة منها، دون إيجاز مُخلٍّ، أو تطويل مُملٍّ، مذكِّرين بما أومأنا إليه من قبل: أن الأخلاق التي اعتبرناها فرديَّة أو شخصيَّة ليست بمعزل عن التأثير في المجتمع، وهل المجتمع إلا أفراد تربطهم روابط خاصة؟ وهل الأفراد إلا لَبِناتُ البنيان الاجتماعي؟ فلْنُثَنِّ بعدما بدأنا بأخلاق الفرد: بأخلاق الأسرة.

(١)
أخلاق الأسرة

كما عُني الإسلام بأخلاق الفرد، حتى يصبح فردًا صالحًا في نفسه، مصلحًا لغيره، لا يحمل بذور العدوى السيِّئة من ميكروبات الأمراض التي يتناقلها الناس بعضهم من بعض، فتفسد عليهم حياتهم، ويُفسدون بها على الناس حياتهم، إن لم يعنهم الله بمدده وتوفيقه، فيتذكروا ما نسوه، ويتنبَّهوا لما غفلوا عنه، ويعيدوا ما ضعف من معاني الخير في أنفسهم.

وبعد ذلك لا بدَّ للفرد أن يكمل نفسه، بالبحث عن الطرف الآخر الذي يكمله ويضبط أمره، كما ينضبط أمر الآخر به، فكل منهما لا بدَّ منه لصاحبه، كما قال تعالى: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [النساء: ٢٥]. أي: الرجل من المرأة، والمرأة من الرجل، كل منهما لا يستغني عن الآخر.

ولذلك كان لا بدَّ من إحياء هذا الشعور الفطريِّ الطبيعيِّ في كلا الجنسين، حتى إذا قَوِي واستوى، كان لا بدَّ من البحث عن الشريك، ليتعرَّف إليه، ويختاره بعد المعرفة والثقة.

التعارف والاختيار:

ولذلك شرع الإسلام طريق التعارف، الذي يبدأ عادة من الرجل؛ لأنه الأجرأ في تلك الأمور من المرأة. ومن أجل هذا اعتبر الإسلام أن هناك قبل الزواج ما يعرف بـ (الخِطبة)، وهي التقدم إلى المرأة وأهلها بطلب الموافقة على الزواج، فإذا تمَّ التوافق من الطرفين، فقد تم هذا الترابط العُرفيُّ الأوليُّ.

وينبغي ألا يتم ذلك إلا برؤية كلٍّ منهما للآخر، فالعين هي رسول القلب، ولا بدَّ لكلٍّ منهما أن يسمع كلام الآخر، فبالكلام يُعرف نوع تفكير الإنسان،

وهل هو تفكير سليم أم تفكير أعوج؟ وهل صوته سليم مقبول أو صوته فيه خشونة زائدة أو ليونة زائدة؟ وقد قال النبي ﷺ لمَن خطب امرأة وأراد أن يتزوجها: «انظر إليها؛ فإنه أحرى أن يؤدم بينكما»[1].

وقال لآخر خطب امرأة من الأنصار: «انظر إليها؛ فإن في أعين الأنصار شيئًا»[2].

فقه الزواج ومعرفة المحرَّمات:

ولا بد للشباب المسلم قبل أن يبدأ الخِطبة أن يكون لديه قسط ـ ولو قليلًا ـ من فقه الزواج، بحيث يعرف المحرَّمات من الزواج التي حرَّمها القرآن: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [النساء: ٢٢ ـ ٢٣].

وقد حرَّم الله على المؤمنين الزواج من المشركات، من عابدات الأوثان، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾ [البقرة: ٢٢١]. فبين الفرق بين الفئتين، بأن المشركين يدعون بشركهم إلى النار، أما المؤمنون فهم دعاة الجنة، ولا يلتقي أهل الجنة وأهل النار على فراش واحد.

وإذا حرم الإسلام زواج المشرك فمن باب أولى أن الزواج من أهل

---

(١) رواه أحمد (١٨١٣٧) وقال مخرِّجوه: حديث صحيح، والترمذي (١٠٨٧) وحسَّنه، والنسائي (٣٢٣٥)، وابن ماجه (١٨٦٥)، ثلاثتهم في النكاح، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٩٦)، عن المغيرة بن شعبة.

(٢) رواه مسلم في النكاح (١٤٢٤)، وأحمد (٧٨٤٢)، والنسائي في النكاح (٣٢٤٧)، عن أبي هريرة.

الإلحاد الذين يكفرون بالله تعالى وبكلٍّ كتبه وبكل رسله، وباليوم الآخر. قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء: ١٣٦].

ولكن الإسلام أجاز الزواج من نساء أهل الكتاب، ونعني بهم: الذين يؤمنون بكتب سماوية معروفة نزلت على أنبيائهم، وآمنوا بها، وإن حُرفت هذه الكتب، ولم تبقَ على أصلها الذي أنزله الله، مثل اليهود والنصارى، وهم الذين اعتبرهم القرآن أهل الكتاب، وناداهم: يا أهل الكتاب.

قال تعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ [المائدة: ٥]. فأباح مؤاكلة أهل الكتاب، ممَّا ذبحوه من الدجاج والبقر والغنم ونحوها، كما أباح مصاهرتهم والتزوج من بناتهم ونسائهم، ما دمن مؤمنات بدينهنَّ، أما التي انسلخت من دينها ومن الدين كله، فلا تصلح زوجة لمسلم؛ لأنها كافرة، وهو مسلم. وكذلك التي تديَّنت بدين لا يعترف به الإسلام، مثل البهائية، وقد أخبرني مسلم يعيش في أمريكا أنه تزوج امرأة على أنها مسيحية، فاكتشف أنها بهائية. فقلتُ له: لا يحل لك أن تتزوجها.

وكذلك حرم الإسلام المرأة المتزوجة: أن يتزوجها رجل آخر، وهي في عصمة زوجها، بل لا بدَّ أن تُطلَّق منه، وتقضي عدَّتها منه، ثم تستطيع أن تتزوج بعد ذلك. قال تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ﴾ [النساء: ٢٤].

ولذلك القرآن حرَّم زواج الرجل من امرأة زانية، إلا إذا تابت، وكذلك حرَّم زواج المرأة من رجل زان إلا إذا تاب، كما قال تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [النور: ٣].

وبعد ذلك يحل للإنسان أن يتزوج من يختار من النساء: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ [النساء: ٢٤].

أهم ما يُطْلَب في الزوجين:

ولا بد أن يعرف أهم ما يحرص عليه الإسلام في الزوجين، وأهم الصفات المرغوبة فيهما، فقد قال رسول الله ﷺ: «إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه، فزوجوه، إلَّا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»[١].

وإذا كان النبي ﷺ قال هذا لأهل المرأة، فقد قال للزوج: «تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، وجمالها، ولدينها. فاظفر بذات الدين تربت يداك»[٢].

وقال: «الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة»[٣].

فإذا كانت المرأة الجميلة جوهرة ثمينة؛ فإن المرأة الصالحة كنز عظيم.

والخطبة ـ على كل حال ـ إنما هي مقدمة للزواج شرعًا ولغةً وعرفًا، فليعلم كلاهما: أنه لا يزال غريبًا عن الآخر، حتى يُعقد العقد، الذي سمَّاه القرآن (الميثاق الغليظ). وقبل هذا الميثاق الغليظ يمكن أن يرى أحدهما الآخر، ويتجالسا في وجود أحد الأصهار، ويتعرف كل منهما إلى صاحبه معرفة أجود وأعمق. ولكن لا يجوز أن يختلي أحدهما بالآخر، كما يتهاون في ذلك بعض الناس، ثم كثيرًا ما لا تنتهي الخطبة بالزواج، فيحدث ندم وشجار ونكار، ما جلبه إلا التهاون في أحكام الشرع.

المهر الميسَّر:

ومما لا بدَّ منه في الزواج الإسلامي: أن يدفع الرجل صداقًا أو صَدُقة أو مهرًا، للمرأة التي يريد أن يتزوجها، وليس هذا الزواج ثَمَنًا للمرأة، فالمرأة ليست سلعة يشتريها الرجل، ليمتلكها، إنما هي إنسان يُزَفُّ إلى إنسان مثله، ولذلك كان المهر إشارة من الرجل إلى تكريمه للمرأة، وأنه يبذل لها هذا المهر (نِحْلَة) لها.

---

(١) رواه الترمذي (١٠٨٤) موصولًا ومرسلًا، (وإنما يعني بقوله: مرسلًا انقطاع ما بين ابن عجلان وأبي هريرة)، وقد رجح البخاري المنقطع على المتصل، وابن ماجه (١٩٦٧)، كلاهما في النكاح، وحسَّنه الألباني في الصحيحة (١٠٢٢)، عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في النكاح (٥٠٩٠)، ومسلم في الرضاع (١٤٦٦)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه مسلم في الرضاع (١٤٦٧)، وأحمد (٦٥٦٧)، والنسائي (٣٢٣٢)، وابن ماجه (١٨٥٥)، كلاهما في النكاح، عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

ومعنى النِّحلة: أنها هدية ومنحة وهبة لها، لا ثمن للبُضع، كما عبر بعض الناس. وهي عبارة لم يأتِ بها قرآن ولا حديث، قال الله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾﴾ [النساء: ٤].

والتوصيات الإسلامية بالتخفيف والتيسير في هذا الأمر، وعدم النزول على طبائع الكبراء والمغالين في هذه الأمور من عبيد الدنيا، وعشَّاق الغلو في زينتها ولهوها، وقد كانت المهور التي دفعها النبي لنسائه غايةً في السهولة والبساطة، بما تيسر للناس في ذلك الوقت، وكذلك حينما زوَّج بناته، وكان منهن فاطمة التي زوجها علي بن أبي طالب، وسأله: «ماذا عندك؟». قال: ما عندي من شيء غير درعي الحُطَمِيَّة. قال: «أعطها إيَّاها»[1].

وماذا تفعل المرأة بالدرع؟ إنه يريد إثبات المهر والتيسير فيه.

وقال عليه الصلاة والسلام: «خير الصَّداق أيسره»[2]. وفي رواية: «خير النكاح أيسره»[3]. مما يدل على ترغيب الإسلام في التيسير، وكراهية للتعسير.

إن بعض بلاد المسلمين عسَّروا ما يسَّر الله، وعقَّدوا ما سهَّل الله؛ فأصبح الزواج أمرًا شاقًّا على الناس، وبعضهم نقل التكاليف من الرجل إلى المرأة، أو إلى أبيها، فأصبح الناس في الهند وباكستان وبنجلاديش إذا أصيب أحدهم بعدد من البنات، فكأنما ابتُلي بعدد من المصائب؛ لأنه عليه أن يقدم للمُعْرِس الخاطب لابنته من الأموال ما تنوء به كواهله، ويضيق به صدره، وتقصر عنه يده.

وقريب من ذلك في مصر، حيث يصبح على أبي البنت أن يهيِّئ لها بيتًا من عدَّة غرف، تليق بها وبأهلها وبالزوج، وكلُّ هذا خراب على الرجل، وتعسير عليه في حياته.

وعلى العلماء والمصلحين والمفكرين: أن يفكروا في هذه الأمور تفكيرًا

---

(١) رواه أبو داود (٢١٢٥)، والنسائي (٣٣٧٥)، كلاهما في النكاح، وصحَّحه الألباني في صحيح أبي داود (١٨٤٩)، عن ابن عباس.

(٢) رواه الحاكم في النكاح (٢/ ١٨١)، وصحَّحه على شرط الشيخان، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٣٢٧٩)، عن عقبة بن عامر.

(٣) رواه أبو داود (٢١١٧)، وابن حبان (٤٠٧٢)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح، كلاهما في النكاح، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٨٤٢)، عن عقبة بن عامر.

جديًّا، مبنيًّا على حقائق الشرع، وحقائق الواقع، وقدرات الناس، ورغبة الشبَّان والشابات في الزواج الحلال المبكر، الذي أصبح يتأخر كثيرًا في كثير من الأقطار والبلدان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

والأولى بأبناء المسلمين: أن يلتزموا بالإسلام الصحيح، ولا يحاولوا أن ينقصوه، ولا أن يزيدوا عليه، فقد جاء دينًا وسطًا سهلًا ميسَّرًا، في عباداته وفي معاملاته، ودخول الناس فيه بأهوائهم أو بمغالاتهم هو الذي ضيَّع جوهر الإسلام.

لا نحب الشباب الذين يعرضون عن الزواج، كنوع من الرهبانيَّة المتزمِّتة التي عرفها النصارى، ورفضها الإسلام، وربما صنفها بعضهم كنوع من فلسفة المتزمتين، وربما ترك بعضهم الزواج، إيغالًا في المشي وراء عُبَّاد الشهوات، الذين لا يحلون حلالًا، ولا يحرِّمون حرامًا.

إتمام الزواج وتحقيق مقاصده:

فإذا اتفق الطرفان على كل ما لا بدَّ منه، ممَّا تعارف عليه الناس، ممَّا لا يخالف شرع الله تعالى، وما جاء به القرآن والسنَّة، فليتقدَّما على بركة الله لعقد العقد، وتمكين الأمر، وإعطاء كلٍّ منهما حقَّه، لتحقيق ما شرع الله في الزواج من السكون النفسي للروح، والمودة والرحمة لهما ولأهلهما، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: ٢١]. فبيَّن المقاصد النفسيَّة والحسيَّة والاجتماعيَّة في الزواج.

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [النحل: ٧٢]. بيَّن في هذه الآية المقاصد النوعيَّة في الزواج، فبه يحافظ الإنسان على النوع الإنساني، كلما استمر الناس في هذا الزواج. فمن أهم مقاصد الزواج: التناسل؛ كما في الحديث: «تزوَّجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم»[1]. والنَّسل هو أحد المقاصد الأصليَّة للبشريَّة كلها.

---

(١) رواه أبو داود (٢٠٥٠)، والنسائي (٣٢٢٧)، كلاهما في النكاح، وأبو عوانة (٤٠١٨)، وابن حبان في النكاح (٤٠٥٦)، وقال الأرناؤوط: إسناده قوي، وصحَّحه الألباني في صحيح أبي داود (١٧٨٩)، عن معقل بن يسار.

وإنَّ من الكوارث الكبرى التي أصيبت بها البشريَّة في عصرنا هذا: انتشار الشذوذ الجنسي، الذي بدأ من الغرب، وصدَّروه إلى بلاد شتَّى، وباركته بعض الكنائس، وأصبح يُهدِّد الجنس البشري كله، وهو زواج الرجال بالرجال، وزواج النساء بالنساء. وهذا شر مما فعله قوم لوط، الذين اعتبر القرآن فعلتهم فاحشة ما سبقهم بها من أحد من العالمين، وقال القرآن عنهم بأنهم: يجهلون، ويأتون في ناديهم المنكر، وهم مسرفون، ومفسدون وعادون، ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦)﴾ [الشعراء: ١٦٥ - ١٦٦].

فهذا شرٌّ من عمل قوم لوط؛ لأنه يشمل الجنسين، وهو يُعمَل علنًا، وعلى مرأى ومسمع من الناس، ولو استمر هذا في حياة الناس، ولم يُقاوم، ستنتهي البشرية بهذا الوباء المشؤوم.

ومن مقاصد الزواج: ضمُّ الأسر بعضها إلى بعض، برباط المصاهرة، الذي جعله الله رباطًا طبيعيًا بجوار النَّسب، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ [الفرقان: ٥٤]. فالنَّسب عن طريق قرابة الولادة، والصهر عن طريق قرابة الزواج.

وإن من مقاصد الزواج: أن يجد الشباب العزب الذي لم يعد يعرف للحياة الطيبة معنى: أن يجد المرأة التي تهيِّئ له بيته، وتدبر له منزله، وتطهو له طعامه، وتحافظ على نفسها وماله وولده، كما قال القرآن الكريم: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤].

وقال الشاعر:

إذا لم يكنْ في منزل المرء حرَّةٌ ... تدبِّره ضاعتْ مصالحُ دارهِ[1]

وقد افتخر أحد الآباء بأنه أحسن إلى أولاده حين اختار لهم أمًّا صالحة، فينبغي أن يعترفوا له بهذا الفضل، وفي هذا قال الشاعر على لسان أحد الآباء لأبنائه:

وأول إحساني إليكم تخيُّري ... لماجدة الأعراق بادٍ عفافها[2]

---

(١) من شعر أبي منصور الثعالبي.

(٢) من شعر الرياشي.

الحياة الزوجيَّة الإسلاميَّة:

الحياة الزوجية الإسلامية، التي يختارها الشباب الصالحون، ويدخلون فيها بنية صادقة، وعزيمة صالحة، سينجحون فيها؛ لأنهم يعلمون أنها حياة لها شروط مطلوبة، ولها آداب مستحبة، ولها ثمرات يانعة، ولا بدَّ لمن يريدها أن يدفع لها ما تريد، حتى يستحقها، ومن يخطب الحسناء لم يغلها المهر[1]. وهي لا تريد من الإنسان إلا أن يكون معها رجلًا، والرجال قليل، وأن يصدق العزم، ويطهِّر القلب، ويُجدِّد النيَّة، ليعيش حياة الربَّانيين، الذين يخشون ربَّهم، ويخافون سوء الحساب.

لا بد لمن يريد الحياة الزوجيَّة الإسلاميَّة: أن يرضى بالحلال من العيش، ولا يتطلع إلى الحرام أبدًا، ولو عاش مُقِلًّا، حتى يوسِّع الله عليه، ومن سنن الله تعالى أن يجعل مع كل عسر يسرًا، ومع كل ليل فجرًا، ولا بدَّ لكلا الزوجين أن يصبرا على ذلك، وأن يتواصيا عليه.

وقد كانت الزوجة في العصور الماضية تقول لزوجها إذا خرج من البيت للكسب: يا أبا فلان، إيَّاك وكسب الحرام، فإنا نصبر على الجوع والطَّوَى، ولا نصبر على حرِّ النار وغضب الجبَّار.

وعلى الزوج أن يصبر على ما تطلبه الزوجة ولا يستطيع أن يأتي به، فلا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، وقد علمنا الله أن ننفق على قدر ما لدينا، قال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾ [الطلاق: ٧].

ولا ينبغي له أن يعتبر أن الأولاد هم سبب تضييق رزقه عليه، فإنَّ كل واحد يأتي ومعه رزقه، ولا يجوز أن نَضيق بأولادنا، ونفعل كما فعل أهل الجاهليَّة الذي ضاقوا بأولادهم، حتى قتلوهم؛ لأنهم زاحموهم في لقمة العيش، ولهذا اعتبر النبي الكريم من أشد الذنوب إثمًا عند الله: «أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك»[2]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]. وقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ

---

(١) عجز بيت لأبي فراس الحمداني، وصدره: (تهون علينا في المعالي نفوسنا).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٧٦١)، ومسلم في الإيمان (٨٦)، عن ابن مسعود.

﴿نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء: ٣١]. وقال تعالى في مواقف القيامة: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ [التكوير: ٨ ـ ٩]. وقال مبيِّنًا ضلال العرب في جاهليتهم: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأنعام: ١٤٠].

وعلى النساء أن يصبرن مع أزواجهنَّ، كما على الرجال أن يعاشروا النساء بالمعروف، وإن أحسُّوا في بعض الأحيان بالكراهية لهنَّ في أنفسهم، فليضغط على هذه العواطف المستترة، وليلجأ إلى ميزان العقل، وليغلب الربح البعيد على الربح القريب. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾[1] ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ [النساء: ١٩ ـ ٢١].

وأباح الإسلام للأزواج ـ بل استحبَّ لهم ـ أن ينجبوا ما شاء الله لهم من الأبناء والبنات، ولا يجوز لهم أن يضيقوا بالبنات. كما كان أهل الجاهليَّة يفعلون، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل: ٥٨ ـ ٥٩].

ومن ابتُلي بالبنات وحدهن، فعليه أن يحمد الله عليهن، إذا رُزق بالصنفين فعليه أن يرحمهم كلهم بنات وبنين.

في حالة تعدُّد الزوجات:

والأصل في الإنسان المتزوِّج: أن يكون له زوجة واحدة، وفي العادة نرى

---

(١) قال الإمام الشافعي في أحكام القرآن (١/ ٢١٥): «فأباح عشرتهن ـ على الكراهية ـ: بالمعروف، وأخبر: أن الله ﷻ قد يجعل في الكره خيرًا كثيرًا، والخير الكثير: الأجر في الصبر، وتأدية الحق إلى من يكره، أو التطوُّل عليه. وقد يغتبط ـ وهو كاره لها ـ: بأخلاقها، ودينها، وكفاءتها، وبذلها، وميراثها: إن كان لها».

عدد النساء مثل الرجال أو قريبًا منه، ولكن الصالحات للزواج من النساء أكثر في الغالب من عدد القادرين على الزواج من الرجال، وتزداد النساء بعد الحروب الكبيرة والطويلة التي تصيب الناس، ولهذا عدَّد الناس الزوجات من قديم، وأباحت لهم أديانهم وأعرافهم ذلك، وبالغ في ذلك بعضهم، فكان عنده المئات من النساء، زوجات وسُرِّيَّات ممَّا ملكت الأيمان، فلما جاء الإسلام اعترف بهذا الواقع، ولكن أدخل عليه بعض التعديلات، فأجاز التَّعدد عند الحاجة إليه إلى أربع، واشترط لذلك أن يتوفر العدل، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: ٣].

وقد بيَّن القرآن حقيقة العدل المطلوب، وهو العدل الممكن الذي يقدر عليه الرجال، أما العدل الذي لا يُقدَر عليه، فليس هو بمطلوب هنا، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ [النساء: ١٢٩]. فالمطلوب ألا يميل الرجل كل الميل إلى إحدى نسائه على حساب امرأة أو نساء أخريات، وبعض الميل يغتفر.

الطلاق عند تعذر الوفاق!

ومن أخلاق الأسرة: أنَّ الإسلام لا يجبر المسلم على أن يبقى مع المرأة وهو يكرهها، وهي تكرهه، ولا يطيق أحدهما مجرَّد رؤية الآخر. والأصل في الزواج أن تتحقق السكينة والمودة والرحمة بين الزوجين، فإذا لم يكن بينهما إلا التنافر، فلا معنى للإبقاء على العشرة الظاهريَّة.

لهذا يشتد الإسلام عند الخطبة، في اختيار الزوجة، ويتمسك بضرورة الرؤية، وبأهمية القبول والرضا من كلٍّ من الرجل والمرأة، ولا يجب أن يدخل في عِشرة تفرض عليه ويعيشها كرهًا.

فإذا ما تزوج الرجل ووجد الكراهية، فلا ينبغي أن يسلم لها بسرعة، ويسارع بإظهار ذلك، بل يجب عليه أن يصبر ويصابر أولًا، فإذا لم يجد فائدة، فقد رخص الله له الفراق، كما قال تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

شرع الإسلام الطلاق، ولكن لا يستحب للرجل أن يوقعه بسرعة، فلا بدَّ للمرء أن يكون صبورًا، لا يتأثر بأدنى شيء، ويسارع بفك الرباط، وهدم هذه

المؤسسة التي سمَّى القرآن رباطها (ميثاقًا غليظًا)، فلا بدَّ من المصابرة والتأنِّي، كما قال تعالى: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [النساء: ١٩]. ويقول الحديث الشريف: «لا يَفْرَكْ - أي يكره ويبغض - مؤمن مؤمنة، إن سخط منها خلقًا رضي منها آخر»[1].

أي يجب أن يكون المرء واقعيًّا، فقلَّ من النساء من يجمع خصال الخير كلها في نفسه، بحسبه أن فيها بعض المكارم والحسنات، كما أن فيها بعض العيوب، ولكن لا ينبغي أن ينظر للعيب بالمنظار المعظِّم، أو بالميكروسكوب الذي يضخِّم الأشياء بأضعاف حجمها الحقيقي.

وإذا هبت ريح الشقاق والخلاف في الأسرة، فإن كانت من الرجل؛ فعلى المرأة أن تعالجها بحسن الحيلة والمصالحة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ﴾ [النساء: ١٢٨].

وهذا ما رأيناه عند أم المؤمنين سودة بنت زمعة حين كبر سنّها، وخافت أن يستغني الرسول عنها ويطلقها، فبادرت بإعطاء ليلتها الدورية لعائشة التي يحبها الرسول الكريم، لتبقى في نسائه، وتحظى به زوجًا في الجنة.

وإذا جاء الخلاف من قِبَل الزوجة، فقد أمر الله تعالى الرجال بالتلطف في معالجة هذا الذي سمَّاه القرآن (نشوزًا)، وذلك بالوعظ والكلام الجميل والمؤثر في نفس المرأة، فإن لم ينفع، انتقل إلى الهجر في المضجع، أي: لا يترك حجرتها، ويعيش في حجرة أخرى، بل يبقى معها على سرير واحد، ولكنه يعطيها ظهره، وبهذا تشعر أنه يمكن أن يستغني عنها، وهذا يؤلمها ويؤثِّر فيها، فإن لم ينفع ذلك جرَّب الضرب الخفيف، إذا رأى ذلك يصلُح للمرأة، فبعض النساء لا يُصلِحُهن إلا الضرب، وبعضهم لا يطقن الضرب، ولا يقبلنه بحال، والرجل هو الذي يعلم بالعشرة هل يصلح ذلك لامرأته أو لا، ومهما اضطُر إلى الضرب لا ينبغي أن يضرب ضربًا مبرِّحًا، أو يمس الوجه، أو يترك أثرًا.

على أن الرسول المعلم لم يضرب امرأة قط، ولا خادمًا، ولا دابة، ودعا الرجال أن يكونوا مثله، ولا يضربوا نساءهم[2].

---

(١) رواه مسلم في الرضاع (١٤٦٩)، وأحمد (٨٣٦٣)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم في الفضائل (٢٣٢٨)، عن عائشة.

وإن كان الشقاق من الجهتين: الرجل والمرأة، فهنا نجد القرآن شرع التحكيم: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [النساء: ٣٥]. فهذه المحكمة العائليَّة، التي تنظر في أسباب النزاع بين الزوجين، وتحاول التوفيق، وتقترح المقترحات البناءة، وإذا صدق الحكمان في نيتهما، فالله تعالى قادر على أن يوفِّق بينهما.

وقد بعث عمر حَكَمين في قضية، فقضيا أيامًا بين الزوجين، وأخفقا وعادا فاشلين، فقال لهما عمر: أصلحا نيَّاتكما وعودا. فعادا بعزم جديد، وتوجُّه جديد، واجتهدا وحاولا، ودعوا الله، فوصلا إلى اتفاق وإصلاح[1].

فإذا لم تفلح هذه الطرائق المختلفة في حلِّ الإشكال، وكان النزاع بينهما شديد الوطء، وأصرَّ الزوج على الطلاق، فلا بدَّ من الاستجابة له، إذ لا طاقة لأحد أن يعيش باستمرار مع من يكره، وقد قالوا: إن من أعظم البلايا مصاحبة مَن لا يوافقك ولا يفارقك.

وقال أبو الطيب:

ومن نكد الدنيا على الحُرّ أن يرى ... عدوًّا له ما من صداقته بدُّ!

وقال:

واحتمال الأذى ورؤية جانيـ ... ـهِ غذاءٌ تضوى به الأجسام

وقد أوقع الشرع الطلاق لطلقة واحدة، والأصل فيها أن تكون رجعيَّة، يستطيع الزوج أن يعيد زوجته بعدها مرة أخرى، ثم مرة أخرى، أما في الثالثة فهو الطلاق البائن، الذي لا رجعة له، كما ذكر القرآن: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾ [البقرة: ٢٢٩ ـ ٢٣٠].

(١) انظر: إحياء علوم الدين (٢/ ٤٩).

واعتبر العلماء هذا الطلاق المشروع أبغض الحلال إلى الله، وجاء في هذا حديث «أبغض الحلال إلى الله الطلاق»[1].

عدَّة الطلاق:

وفرض الإسلام بعد الطلاق: العِدَّة، وأمر أن تبقى المرأة في الطلاق الرجعي في بيت الزوجية، لعل بقاءها في تلك العدة يصلح العلاقة بينهما، كما قال تعالى في سورة الطلاق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ۝١ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ [الطلاق: ١ ـ ٢].

وما دامت المرأة في حال العدة يمكن للزوج أن يراجعها ويعيدها إلى الحياة الزوجية، فإذا مضت العدة، وقع الطلاق، ولا تعود إلى الزوج إلا بعقد جديد ومهر جديد.

وللمطلقات في حال العدة: النفقة والسُّكنى على الزوج؛ لأن الزوج ما زال بعلًا لها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنۡ أَرَادُوٓاْ إِصۡلَٰحٗاۚ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

والعدة للمطلقة: انقضاء ثلاث حِيَض على المرأة التي تحيض.

أما التي لا تحيض لصغر سنِّها أو لكبره، فعدتها ثلاثة أشهر، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾ [الطلاق: ٤].

أما المرأة الحامل، فعدتها: أن تضع حملها، طال أو قصر. كما قال تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ [الطلاق: ٤].

وأما المتوفى عنها زوجها، فعدتها: أربعة أشهر وعشرة أيام، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ﴾ [البقرة: ٢٣٤].

---

(١) رواه أبو داود (٢١٧٨)، وابن ماجه (٢٠١٨) كلاهما في الطلاق، وضعفه الألباني في إرواء الغليل (٢٠٤٠)، عن ابن عمر.

كما أن القرآن قرَّر للنساء المطلقات نفقة، أو متاعًا جعله حقًّا على المتقين، لا يجوز لهم أن يعتبروه نافلة أو يضيعوه، كما قال تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾ [البقرة: ٢٤١].

ولا يجوز للرجل أن يُضارَّ المرأة، فإنَّ المضارَّة حرام، ولا ضرر ولا ضرار في الإسلام، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ﴾ [الطلاق: ٦].

والمرأة المطلقة إذا كانت والِدة، عليها أنِ تُرضِع ولدها حولَيْن كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة، وعلى المولود له ـ وهو الأب ـ رزقهن وكسوتهن بالمعروف، كما قال القرآن: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ﴾ [البقرة: ٢٣٣]. وقال تعالى في سورة الطلاق: ﴿وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾﴾ [الطلاق: ٦].

الوصايا والميراث:

ومن الأخلاق المهمة في الأسرة: ما يتعلق بالوصايا والمواريث، فقد كتب الله الوصيَّة على المسلمين إذا تركوا مالًا له اعتبار وقيمة عند الناس، وسأل سعد بن أبي وقاص الرسول الكريم: بمَ يوصي؟ هل يوصي بثلثي ماله؟ بنصف ماله؟ بكلِّ ماله؟ فلم يجز له ذلك. قال: بالثلث؟ فقال: «الثلث، والثلث كثير، إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس»[1].

وقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ [البقرة: ١٨٠].

وقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «لا وصية لوارث»[2].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٧٤٢)، ومسلم (١٦٢٨)، كلاهما في الوصايا، كما رواه أحمد (١٤٤٠)، والنسائي في الوصايا (٣٦٢٧)، عن سعد بن أبي وقاص.

(٢) رواه أحمد (٢٢٢٩٤) وقال مخرّجوه: إسناده حسن، وأبو داود (٢٨٧٠)، والترمذي (٢١٢٠) =

ذلك أن الوارث قد حدَّد الله له نصيبه من التركة حسب قرابته وموضعه وأخذه، ولكن قد يوجد من القرابة ما لا نصيب له في تركة الميت، مثل امرأته إذا كانت كتابية، وكذلك أمه أو أبيه، إذا أسلم وأحدهما أو كلاهما لم يدخل في الإسلام، أو ابنه أو بنته، إذا أسلم ولم يسلما. فهؤلاء ليس لهم حقٌّ في الميراث، فلهم حق في الوصية.

وكذلك قسم القرآن التركة بين الوارثين، كما قال تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (٧)﴾ [النساء: ٧]. وفي السورة النساء بيانٌ لأنصباء المستحقِّين، في قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١) وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢)﴾ [النساء: ١١ ـ ١٢]. وفي قوله: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٧٦)﴾ [النساء: ١٧٦].

ولا يجوز لبعض الناس من الوارثين أن يجور على غيره من المستحقين، ويحاول أن يحرمه من نصيبه الذي قرَّره الله له، كما لا يجوز للآباء أن يكتبوا

= وحسنه، وابن ماجه (٢٧١٣)، ثلاثتهم في الوصايا، والبيهقي في الفرائض (٦/ ٢١٢)، وحسَّن الحافظ ابن حجر إسناده في التلخيص الحبير (٣/ ٢٠٢)، وصحَّحه الألباني في الجامع الصغير (٢٦٧٠)، عن أبي أمامة الباهلي.

بعض ما يملكون للذكور دون الإناث، أو لأبناء زوجة، ليحرموا أبناء الزوجة الأخرى، أو يكتبوا للبنت كل التركة، ليحرموا العصبات والأرحام، فالأولى ألا تعترض على الله ﷻ ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠].

• دخول الأخلاق في تأسيس الأحكام التشريعية في العلاقات الزوجية:

يقول أخونا الداعية الفقيه الدكتور أحمد الريسوني في بحثه: (الأخلاق والتشريع في القرآن الكريم)(١): «الناظر في أحكام القرآن(٢)، يجد أن كثيرًا منها تمَّ ربطه ودمجه بشكل صريح مع علله ومقاصده الخلقية. وهذا واقع في جميع المجالات التشريعية؛ من عبادات، ومعاملات مالية واجتماعية، وسياسة شرعية، وعلاقات خارجية في السلم والحرب... وهذا الربط القرآني بين الأحكام والأخلاق، لا بد وأن ينعكس في الاجتهاد الفقهي في الفتوى والتشريع.

وفيما يلي بعض النماذج لتأسيس الأحكام على الأخلاق، وهي من مجال واحد، بل من جانب واحد من هذا المجال، وتتعلق بالعلاقات الزوجية.

للفقهاء قاعدة جليلة(٣) يعبِّرون بها عن الخصوصيَّة الأخلاقيَّة لفقه العلاقات الزوجية، وهي قولهم: «النكاح مبنيٌّ على المكارمة». أو «مَبْنَى النكاح على المكارمة»(٤)، أو «مبنى النكاح على المسامحة والمروءة»(٥). وللمقارنة وتمام المعنى يقولون: «البيع مبني على المشاحَّة، والنكاح مبني على المكارمة»(٦).

والمكارمة هنا تعني تعامل الزوجين بكرم متبادل، يتمثل في أن يؤديَ كل منهما حق الآخر ويزيدَ عليه، وأن يتسامح ويتغاضى عن بعض حقوقه، حبًّا وكرامة وهدية. فهذه هي طبيعة الزواج والعلاقات الزوجية.

---

(١) المقدم للحلقة النقاشية التي نظمها مركز دراسات التشريع الإسلامي والأخلاق، في كلية الدراسات الإسلامية بالدوحة بتاريخ ٤ ـ ٦ كانون الثاني/ يناير ٢٠١٥، في موضوع (القرآن والأخلاق)، والتي شاركت فيها.

(٢) والسُّنَّة النبوية كذلك.

(٣) أكثر ما توجد هذه القاعدة عند المالكية، ثم الحنفية.

(٤) حاشية الدسوقي على الشرح الكبير للدردير، (٢/ ٣٠٥) ـ نشر دار الفكر بلبنان، والتحرير والتنوير لمحمد الطاهر ابن عاشور (٤/ ٢٤).

(٥) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع لعلاء الدين لكاساني (٢/ ٢٨٣) ـ نشر دار الكتب العلمية ـ الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.

(٦) شرح مختصر خليل للخرشي (٣/ ٢٣٧) ـ دار الفكر بلبنان.

أما الحرص على الاستيفاء التام لجميع الحقوق، مع المشاحَّة والمحاسبة والمخاصمة على النَّقيرِ والقِطْمِيرِ، والجلِيلِ وَالحَقِير، فهذا لا يليق بالزواج والعلاقة الزوجية. فالعلاقة الزوجيَّة ليست تجارة ولا إجارة، ولا معاوضة على المنافع والحقوق[1].

وهذا المعنى الكبير قد صرحت به وحثت على مراعاته آيات عديدة من الذكر الحكيم»[2].

ثم قال حفظه الله: «والخلاصة والعبرة من مضامين هذه الآيات وتوجيهاتها، هي أن علاقات الزوجين، وحقوقهما وواجباتهما المتبادلة: المالية والجسدية والمعنوية، يجب أن تكون محكومة بهذه القيم الخلقية النبيلة، التي جمعها الفقهاء في اعتبارهم الزواج مبنيًا على المكارمة والمسامحة والمروءة، لا على المشاحَّة والمحاسبة والأنانيَّة.

ومن هنا ندرك خطورة ذلك المسلك والمنزلق الذي تجر إليه بعض المفاهيم والدعوات «الحقوقية والتقدمية»، حين تتعامل مع العلاقات الزوجية، كتعاملها مع سائر العلاقات والحقوق والنزاعات المدنية والمالية والمهنية والنقابية والطبقية... بحيث تشحنها بروح التحريض على المشاحَّة والتنافس والصراع والغلبة.

فالزواج الذي يتحول إلى حلبة تنافس وصراع خير له أن ينتهي، أو ألا يكون أصلًا، والزواج الذي لا ترفرف فوقه راية الأخلاق، لا قيمة له، بل لا بقاء له.

نموذج فقهي لاعتبار الأخلاق في الزواج:

ويتعلق بمسألة «**الزواج بنية الطلاق**».

وهذه المسألة مفادها: أن يتزوج شخص وفي عزمه نيَّةٌ مضمرة بأنه سيطلق في وقت معيَّن يستغني فيه عن هذا الزواج، ووقوع مثل هذا الزواج قديم، وكان أكثر ما يقع من رجال يرحلون بعيدًا عن أهلهم وموطنهم، ويمكثون في الغربة

---

(١) لمزيد من التوضيح والتطبيق، راجع القاعدة رقم ١٤٩٤، المجلد ٢٣، من (معلمة زايد للقواعد الفقهية والأصولية).

(٢) تقدم بيانها في كلامي عن مقاصد الزواج وغاياته.

زمنًا طويلًا، لأغراض تجارية ومهنية وغيرها، ولم يكن التزاور ولا أخذ الزوجة ميسورًا. وهنا يحتاج المتغرِّب لأن يتزوج في بلد المهجر، لكن عند نهاية مقامه في مهجره، يطلِّق ويعود إلى زوجته في بلده، أو يعود ليتزوج في بلده.

ومن قديم وقع الاختلاف في هذا الزواج ومدى مشروعيته، والجمهور على صحته وجوازه، وهو مكروه أو محرَّم عند بعض الفقهاء.

أما اليوم فقد كثر هذا الزواج وكثرت أسبابه ودواعيه...

فممن يلجؤون إليه:

الطلبة المسلمون الذين يهاجرون بمئات الآلاف للدراسة في البلدان الغربية، ويمكثون هناك عدَّة سنوات.

ومنهم المهاجرون للعمل في هذه الدول، أو في دول إسلامية غير بلدهم، وهم بالملايين.

ومنهم موظفو البعثات الدبلوماسيَّة والتجارية، وموظفو الشركات العالمية والمنظمات الدولية.

وهناك الموظفون المبتعثون للتدريب والتطوير في مختلف التخصصات.

فهؤلاء بعضهم يكونون عُزَّابًا، وبعضهم يكونون متزوجين ولهم أبناء، ولكن ربما يصعب عليهم اصطحاب أزواجهم وأبنائهم، ثم العودة بهم بعد سنتين أو ثلاث، أو أقل أو أكثر. فلذلك يلجأ البعض منهم إلى زواج عابر خاص بفترة الاغتراب، وهو «**الزواج بنيَّة الطلاق**».

وفي هذا العصر سبق أن أفتى الشيخ عبد العزيز بن باز، وغيره من علماء السعودية، بجوازه وصحته، وأفتى آخرون بمنعه...

لكن هذا «الزواج» تطور في السنين الأخيرة حتى أصبح ظاهرة خليجية، وأصبح مطلوبًا لذاته عند بعض الميسورين، حيث أصبحوا يسافرون أو يختلقون أسبابًا للسفر، خصيصًا لكي «يتزوجوا» لفترة من الزمن، ثم يعودون. فصرنا أمام: **السفر بنية الزواج، ثم الزواج بنية الطلاق**... أو أمام «**الزواج السياحي**»، كما سماه بعض الفقهاء.

ومن هنا بدأ يتزايد الإفتاء بمنعه وتحريمه، وبدأ القول بإباحته وسلامته

يتراجع؛ وذلك بناء على ما فيه من غش وتدليس على المرأة المتزوَّج بها وعلى ذويها، وأيضًا لما فيه من إهدار لروح الزواج ومقاصده ومسؤولياته.

ودون أن أطيل في بسط السجال الفقهي القديم والحديث في هذه المسألة، أكتفي بما ورد في فتويين معاصرتين، تعكسان التوجه الفقهي المتزايد نحو تحريم هذا الزواج، وتركزان خاصة على الاعتبارات الأخلاقية فيه، وذلك هو بيت القصيد عندنا.

الفتوى الأولى: لمركز الفتوى التابع لموقع الشبكة الإسلامية

ونصها: «الزواج بنية الطلاق: لا يخلو من حالتين: إما أن يَشترط في العقد بأنه يتزوجها لمدة شهر أو سنة، أو حتى تنتهي دراسته. فهذا نكاح متعة وهو حرام، والعقد فاسد.

وإما أن ينوي ذلك بدون أن يشترطه، فمذهب الجمهور عدم منعه. والمشهور من مذهب الحنابلة أنه حرام وأن العقد فاسد؛ لأنهم يقولون: إن المنْويَّ كالمشروط، لقول النبي ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»[1]. متفق عليه. ولأن الرجل لو تزوَّج امرأة من شخص طلقها ثلاثًا من أجل أن يحللها له ثم يطلقها؛ فإن النكاح فاسد، وإن كان ذلك بغير شرط؛ لأن المنوي كالمشروط، فإذا كانت نيَّة التحليل تفسد العقد، فكذلك نيَّة المتعة تفسد العقد. هذا هو قول الحنابلة.

والقول الثاني لأهل العلم: أنه يصح أن يتزوج المرأة وفي نيَّته أن يطلقها إذا فارق البلد، كهؤلاء الغرباء الذين يذهبون إلى الدراسة ونحو ذلك. قالوا: لأن هذا لم يَشترط، والفرق بينه وبين المتعة: أن المتعة إذا تم فيها الأجل حصل الفراق شاء الزوج أم أبى، بخلاف هذا فإنه يمكن أن يرغب في الزوجة، وتبقى عنده. وهذا أحد القولين لشيخ الإسلام ابن تيمية. وهذا الكلام صحيح، من جهة أنه لا ينطبق عليه تعريف المتعة.

ولكن لقائل أن يقول: إنه محرَّم من جهة أنه غش للزوجة وأهلها، وقد حرم النبي ﷺ الغش والخداع. فإن الزوجة لو علمت بأن هذا الرجل لا يريد

---

(١) سبق تخريجه، ص٢٩٨.

أن يتزوجها إلا لهذه المدة ما تزوَّجت به، وكذلك أهلها. كما أنه هو لا يرضى أن يتزوج ابنتَه شخص في نيَّته أن يُطلقها إذا انتهت حاجته منها، فكيف يرضى لنفسه أن يعامل غيره بما لا يرضاه لنفسه؟ يقول النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[1] متفق عليه. ومثل هذا الفعل غش وخداع وتغرير، ولأن فتح هذا الباب يترتب عليه مفاسد كبيرة، حيث إن أكثر الناس لا يمنعهم الهوى من تعدِّي محارم الله، وقد كرهه مالك رَحِمَهُ اللهُ.. وقال: إنه ليس من أخلاق المسلمين.

وعلى القول بالحرمة فلا فرق في الحكم بين المسلمة والنصرانية؛ فالغش حرام ومذموم في التعامل مع أي إنسان كان. والله أعلم»[2].

الفتوى الثانية: للمجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث

ونصها: «... فالعقد وإن كانت صورته صحيحة، ولكن الزوج آثم بغشه المرأة؛ وذلك لإضماره نيَّة الطلاق من حين العقد، والزواج في الإسلام يعني الديمومة والبقاء والاستقرار للحياة الزوجيَّة، والطلاق طارئ بعد العقد. ولهذا السبب حرم الزواج المؤقت واعتبر فاسدًا. كذلك فإن الإيجاب والقبول في الزواج شرطان أساسيان فيه[3]، والمرأة حين قبلته زوجًا فإنما كان مقصدُها حقيقةَ الزواج، ولو علمت أنه قبلها زوجة مؤقتة يطلقها متى شاء لرفضت ذلك، فإذا كان عازمًا الطلاق عند العقد أثَّر ذلك في صحة العقد، لأن المرأة بنت قبولها على غير ما أراد»[4].

ثم عقب الدكتور الريسوني: «بقي أن أضيف أنَّ الذين يبيحون الزواج بنيَّة الطلاق، يبنون ذلك على إثبات كونه مختلفًا عن نكاح المتعة، المجمع على تحريمه عند أهل السنة؛ فهو ليس فيه تصريح بالتوقيت الذي يبقى مكتومًا لدى الزوج، بينما زواج المتعة فيه تصريح بالتوقيت واتفاق عليه بين الطرفين. والحقيقة أن الزواج بنيَّة الطلاق أسوأ من نكاح المتعة؛ لأنه في حقيقته زواج مؤقت، ثم فيه غش وخداع للمرأة المتزوَّج بها ولذويها. فهو أولى بالتحريم».

---

(١) سيأتي تخريجه، ص٥٧٨.

(٢) (http://fatwa.islamweb.net/fatwa).

(٣) قلت ـ الريسوني ـ: بل هما ركن الزواج.

(٤) (http://e-cfr.org/new/?fatwa).

(٢)
أخلاق المجتمع

١ ـ توسيع دائرة فعل الخير:

أعلى الإسلامُ من شأن الأخلاق الاجتماعيَّة، بالأعمال التي يتعدّى نفعها إلى الغير، وجعل لها المكان الأول في جدول الصَّالحات.

تقرأ في أحاديث الرسول ﷺ: «اليومُ من إمام عادل أفضل من عبادة ستّين سنة»[١].

«ألا أدلكم على أفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: إصلاح ذات البين»[٢].

ويجعل القرآن (فعل الخير) إحدى شعب ثلاثٍ تتكوَّن منها رسالة المجتمع المسلم في الحياة، تقرأ ذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٧٧ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ [الحج: ٧٧ ـ ٧٨].

فالصلاة بركوعها وسجودها ـ وعبادة الله بصفة عامَّة ـ: هي الشعبة الأولى، التي تمثل واجب المسلم نحو ربه.

---

(١) رواه الطبراني (١١/ ٣٣٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٣٧٩)، وحسَّن إسناده العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (٤٤٨)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٩٨٩)، عن ابن عباس.

(٢) رواه أحمد (٢٧٥٠٨) وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح، وأبو داود في الأدب (٤٩١٩)، والترمذي في صفة القيامة (٢٥٠٩)، وقال: حديث حسن صحيح، وصحَّحه الألباني في تخريج الحلال والحرام (٤١٤)، عن أبي الدرداء.

وفعل الخير - بكلِّ ما تتَّسع له كلمة الخير من شمول وعمق - هو الشعبة الثانية، التي تمثل واجب المسلم نحو مجتمعه.

والجهاد في الله حقَّ الجهاد لهداية الناس ونشر رسالة الإسلام بينهم، ومقاومة الشر والباطل: هي الشعبة الثالثة، التي تمثل واجب المسلم نحو العالم كله.

وليس فعل الخير محصورًا في دائرة المسلمين وحدهم، بل تشمل كلَّ إنسان، ولو كان على غير دين الإسلام، ما دام مسالمًا للمسلمين، يقول تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ [الممتحنة: ٨]. فلم يكتفِ القرآن بالترغيب في العدل معهم، والإقساط إليهم، بل رغَّب في برِّهم، أي: الإحسان وإسداء الخير إليهم، واستخدم القرآن اللفظ الذي يستعمله المسلمون في حقِّ والديهم، وهو: برُّ الوالدين.

بل وسَّع الإسلام دائرة الخير، حتى تشمل كلَّ كائن حيّ، حتى رأينا النبيَّ ﷺ يُعلن أن الجنة فتحت أبوابها لبغيٍّ سقت كلبًا[1]، وإنَّ الله شكر لرجل سقى كلبًا على شدَّة ظمأ، فغفر له[2].

وليس فعل الخير هو المطلوب فقط من المسلم، بل الدلالة عليه والترغيب فيه والتنفير من ضده، وفي القرآن الكريم: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤]. وفي الحديث: «الدالُّ على الخير كفاعله»[3]. «من دلَّ على خير فله مثل أجر فاعله»[4].

---

(١) إشارة إلى الحديث المتفق عليه: «بينما كلب يطيف بركية، كاد يقتله العطش، إذ رأته بغي من بغايا بني إسرائيل، فنزعت موقها فسقته فغفر لها به». رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٦٧)، ومسلم في السلام (٢٢٤٥)، عن أبي هريرة.

(٢) إشارة إلى الحديث المتفق عليه: «بينا رجل يمشي، فاشتد عليه العطش، فنزل بئرًا، فشرب منها، ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي، فملأ خفه، ثم أمسكه بفيه، ثم رقي، فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له». رواه البخاري في المساقاة (٢٣٦٣)، ومسلم في السلام (٢٢٤٤)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه أحمد (٢٣٠٢٧) وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح، عن بريدة.

(٤) رواه مسلم في الإمارة (١٨٩٣)، وأحمد (١٧٠٨٤)، وأبو داود في الأدب (٥١٢٩)، عن أبي مسعود الأنصاري.

فمَن لم يستطع فعل الخير والدعوة إليه، فليجعله في نيَّته، فإنَّ نيَّة الخير كعمله.

٢ ـ العدل:

للعدل في الإسلام منزلة كبيرة بين الفضائل[١]، فهو إحدى القيم الأساسية العليا، التي تضبط سَيْر الحياة، وتُمسك المجتمعات أن تنهار، وقد دعا إليه الإسلام وأمر به، في مختلف جوانب الحياة.

فهناك العدل في القول: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

والعدل في الكتابة: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

والعدل في الشهادة: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطَّلاق: ٢].

والعدل في الحكم: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

والعدل في الأسرة وبين الزوجات: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾ [النساء: ٣].

والعدل بين الأولاد: «اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم»[٢].

والعدل في شؤون الحياة كلها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠].

وعلى المسلم أن يعدل مع البعيد عَدْلَه مع القريب، ومع العدُو عدلَهُ مع الصديق، ومع غير المسلم عدله مع المسلم، لا تدفعه عاطفة الحب أن يُحابيَ قريبًا أو صديقًا، ولا عاطفة الكراهية أن يجور على بعيد أو عدوٍّ.

وفي التحذير من المحاباة يقول القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ﴾ [النساء: ١٣٥].

وفي التَّحذير من الجور على المبغَضين أو المبغِضين يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]. ومعنى الشنآن: شدَّة بغضهم لكم، أو بغضكم لهم.

---

(١) سيأتي حديث مطول عن العدل في مبحث أخلاق الدولة، ص٥٩٧.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٥٨٧)، ومسلم (١٦٢٣) كلاهما في الهبة، عن النعمان بن بشير.

فعدل الإسلام للناس كلِّ الناس، محبِّهم وكارههم، قريبهم وبعيدهم، مسلمهم وكافرهم، حتى لقد نزلتْ تسع آيات من القرآن تحامي عن يهوديٍّ اتهمه بعض ضعفاء الإيمان من المسلمين بالسرقة ظلمًا، وهمَّ الرسولُ ﷺ أن يدافع عن اللصوص الحقيقيين؛ أخذًا بالظاهر الذي زيَّنوه له، كما جاء في سورة النساء: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾﴾ [النساء: ١٠٥ ـ ١٠٧]. وما بعدها من الآيات في هذا الموضوع.

وكما أمر الإسلام أبلغَ الأمرِ بـ (العدل)، نهى كذلك أشدَّ النَّهي عن (الظلم)، وأعلن أنَّ الله ﴿لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [آل عمران: ٥٧]. و﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة: ٢٥٨]. وأن الظلم يفضي إلى خراب الديار: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النمل: ٥٢]. وهلاك الأمم: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾ [الكهف: ٥٩].

ولم يكتفِ بالنهي عن الظلم، بل حرَّم مجرَّد الركون إلى الظالمين: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود: ١١٣]. فليحذر الظالمون: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

٣ ـ الإحسان:

والإحسان في أصل اللغة معناه: الإحكام والإتقان، وهو نوعان: إحسان يتعلق بالأعمال، وإحسان يتعلق بالأشخاص.

فإذا كان الإحسان للأعمال تعدَّى بنفسه، يقال: أحسن فلانٌ عملَ كذا، أي: أتقنه وجوَّده، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾ [الكهف: ٣٠].

وإذا تعلَّق الإحسان بالأشخاص تعدَّى بالباء، مثل قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [البقرة: ٨٣]. أو بـ (إلى)، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧]. وكما يقال: أحسِنْ إلى مَنْ أساء إليك.

والإحسان في صورتيه هاتين: خُلُقٌ أصيلٌ من أخلاق المسلم.

فالمسلم مُطَالَبٌ بأن يحسن كلَّ عمل يقوم به، أو يُوكَل إليه، دينيًا كان أو دنيويًّا، وليس هذا من النوافل والمكمِّلات، إنْ شاء فعلها، وإن شاء تركها، بل هو من الواجبات، التي يفرضها الدين وتحتِّمها مُثُله العليا.

استمع معي إلى هذا الحديث النبوي، وهو معروف عند كثير من المسلمين؛ لأنه من أحاديث الأربعين النووية المعروفة: «إنَّ الله كتب الإحسان على كلِّ شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلَة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبْحَة، وليحدَّ أحدُكم شفرتَه، ولْيُرح ذبيحته»[1].

وهذه العبارة: «إنَّ الله كَتَب»، تدلُّ على الفرضيَّة الموثَّقة والإلزام المؤكد، كما في القرآن: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ﴾ [البقرة: ١٧٨]. أو ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وفي حديث آخر: «إنَّ الله يحب من أحدكم إذا عمل عملًا أن يتقنه»[2].

فالله تعالى الذي كتب علينا إحسانَ كلِّ عمل نؤدِّيه، يحبُّ منا هذا الإحسان والإتقان، ولا أرفعَ ولا أعظمَ من عملٍ تكون ثمرته محبة الله ﷻ.

وفي هذا الإطار جاء تعريف الرسول ﷺ للإحسان في حديث جبريل المشهور: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[3].
فهذا إحسان العبادة، التي هي رسالة الإنسان في الوجود، إحسان مَن يرى الله الذي يعمل له نُصْب عينيه، فهو يجتهد في الإجادة والإتقان، أو على الأقل إحسان من يعلم أنَّ الله يراه ويراقبه، وإن لم يكن هو يراه.

ومن هذا المنطلق جاء مثل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: ١٢٥].

وقوله ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢].

---

(١) رواه مسلم في الصيد والذبائح (١٩٥٥)، وأحمد (١٧١١٣)، وأبو داود في الضحايا (٢٨١٥)، عن شداد بن أوس.

(٢) رواه أبو يعلى (٤٣٨٦)، والطبراني في الأوسط (٨٩٧)، والبيهقي في الشعب باب حفظ اللسان (٥٣١٤)، وحسَّنه الألباني في الصحيحة (١١١٣)، عن عائشة.

(٣) متفق عليه رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٨)، كلاهما في الإيمان، عن أبي هريرة.

وقد رتَّب القرآن على الإحسان أجزية وفضائل كثيرة، منها: معيَّة الله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٩]. ومنها: محبته تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٩٥﴾ [البقرة: ١٩٥]. ومنها: بشراه ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٣٧﴾ [الحج: ٣٧]. ومنها وعدهم بحسنة الدنيا: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ [النحل: ٣٠]. ومنها وعدهم بحُسنى الآخرة: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٦﴾ [يونس: ٢٦]. فكان جزاؤهم من جنس عملهم: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠﴾ [الرحمن: ٦٠].

والإحسان في الصورة الثانية، يقتضي أن يُحسن المسلم بالناس جميعًا، أو إلى الناس جميعًا، وبخاصَّة هؤلاء الأصناف التسعة المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ۝٣٦﴾ [النساء: ٣٦].

والمحسنون ـ بأيِّ المعنيين كانوا ـ هم من خِيرة عباد الله المتقين، ولهذا يُعرفون في القرآن بأهل التقوى، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ۝١٢٨﴾ [النحل: ١٢٨]. بل هم المتَّقون أنفسهم بأوصافهم وجزائهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ۝١٦﴾ [الذاريات: ١٥ ـ ١٦]. ثم وصف هؤلاء المتَّقين المحسنين بقوله: ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝١٩﴾ [الذاريات: ١٧ ـ ١٩].

٤ ـ الرحمة:

فضيلة من أعظم الفضائل الخلقيَّة في الإسلام، حتى إن القرآن ليجعلها عنوان الرسالة المحمديَّة، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. كما يقول الرسول ﷺ عن نفسه: «إنما أنا رحمة مهداة»[1].

فلا غرو أن يدعو الإسلام إلى الرحمة، ويُرتِّب عليها خيري الدنيا

---

(١) رواه الحاكم في الإيمان (١/ ٣٥)، وصحَّحه على شرطهما، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الالباني في الصحيحة (٤٩٠)، عن أبي هريرة.

والآخرة، فإذا كان من أسماء الله الحسنى ـ التي يردِّدها المسلم كل يوم عشرات المرات في البسملة داخل الصلاة وخارجها ـ اسما (الرحمن الرحيم)، فإن الرسول ﷺ يعلن في غير حديث أنه لا يستحق رحمة الله إلا من رحم عباد الله، وفي هذا يقول: «من لا يَرْحَم لا يُرْحَم»[1]. «ارحموا مَنْ في الأرض يرحمْكم مَنْ في السماء»[2].

ويبرأ الرسول من كلِّ من تجرَّد قلبه من الرحمة: «ليس منَّا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا»[3].

كما أعلن أنَّ الجنَّة ـ وهي مظهر رحمة الله تعالى ـ لا يدخلها إلا رحيم.

ولما قيل له: يا رسول الله كلنا رحيم، قال: «أما إنها ليست رحمة أحدكم صاحبه، ولكنها رحمة العامَّة»[4]. فهي رحمة لجميع الناس: أبيضهم وأسودهم، غنيّهم وفقيرهم، بل مسلمهم وكافرهم، فإن الإسلام لا يشتدُّ إلا على الكافر المحارب للمسلمين المؤذي لهم، ألا ترى كيف وصف الله الأبرار من عباده بقوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾ [الإنسان: ٨]. وقد كان الأسرى في ذلك الوقت من المشركين؟

بل الكافر المحارب نفسه ينهى الإسلام عن تعذيبه أو قتله بطريقة منافية للرحمة، أو التمثيل بجثته بعد موته، وغير ذلك مما يتنافى مع خُلُق الإنسان الرحيم.

بل إن هذه الرحمة لَتتجاوز الإنسانَ المكرّم إلى الحيوان الأعجم؛ ولهذا تكرَّرت وصايا الرسول بالرفق بالحيوان بأساليب شتَّى، ترغيبًا وترهيبًا، قبل أن

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٥٩٩٧)، ومسلم في الفضائل (٢٣١٨)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد (٦٤٩٤) وقال مخرِّجوه: صحيح لغيره، وأبو داود في الأدب (٤٩٤١)، والترمذي في البر والصلة (١٩٢٤)، وقال: حسن صحيح، والحاكم في البر والصلة (٤/١٥٩)، وقال: بعد أن ذكره مع أحاديث عدة في الباب: وهذه الأحاديث كلها صحيحة، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٩٢٥)، عن عبد الله بن عمرو.

(٣) رواه أحمد (٦٧٣٣) وقال مخرِّجوه: حديث صحيح، وأبو داود في الأدب (٤٩٤٣)، والترمذي في البر والصلة (١٩٢٠)، عن عبد الله بن عمرو.

(٤) عزاه المنذري في الترغيب والترهيب (٣٤٠٩) للطبراني وقال: رواته رواة الصحيح، وكذا الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٦٧١). ورواه النسائي في الكبرى في القضاء (٥٩٢٨)، والحاكم في البر والصلة (٤/١٦٧) وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، بلفظ: «والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تراحموا...»، عن أبي موسى الأشعري.

تعرف ذلك أوروبا بثلاثة عشر قرنًا[1].

٥ ـ الوفاء بالعهد:

ومن الفضائل التي أكَّدَها الإسلام: الوفاء بالعهود، سواء منها: عهد الإنسان مع نفسه، أو عهده مع غيره، عهده مع الله أو مع الناس، عهده مع الصَّديق أو مع العدو.

فإذا قطع المسلم عهدًا مع الله أن يفعل شيئًا أو يدعَه، ولو بينه وبين نفسه، وجب عليه أن يفي به، وإلا استحق الذم والعقاب من الله تعالى شأن المنافقين الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾ [التوبة: ٧٥ ـ ٧٨]. ويدخل في ذلك الوفاء بالنذر لمن التزمه، كما وصف الأبرار من عباده بقوله: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الإنسان: ٧].

وإذا عاهد المسلم إنسانًا على شيء، مسلمًا أو غير مسلم، كتابة أو مشافهة، لزمه أن يفي له، ولا يخيس بعهده، فتحلَّ عليه النقمة في الدنيا والآخرة: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الفتح: ١٠].

والوفاء بالعهود والالتزامات هو الذي يمنح التعامل بين الناس الثقة والاستقرار، ولهذا بدأ القرآن إحدى سوره الكبار كسورة المائدة بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

وجعل القرآن إحدى وصاياه العشر في سورة الأنعام: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وكذلك في وصايا سورة الإسراء: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾ [الإسراء: ٣٤].

---

(١) تقدمت الأحاديث في ذلك عند الحديث عن أخلاق المسلم مع من دونه، ص٥٠٢.

وفي سورة النحل أمَرَ ونهَى، وأكَّد وحذَّر: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ [النحل: ٩١].

ولما أخبر حذيفة ووالده اليمان النبيَّ ﷺ أنَّ المشركين أخذوا عليه العهد أن يتركوه على ألا يحارب مع النبي ﷺ، فأمره النبي بالوفاء بوعده، روى ذلك مسلم في صحيحه عن حذيفة بن اليمان، قال: ما منعنِي أنْ أشهدَ بدرًا إلَّا أني خرجتُ أنا وأبي حُسَيْل[1]. قال: فأخذنا كفارُ قريش، قالوا: إنَّكم تريدون محمدًا. فقلنا: ما نريده، ما نريد إلا المدينة، فأخذوا منَّا عهدَ الله وميثاقه لنَنْصَرِفَنَّ إلى المدينة، ولا نقاتل معه. فأتينا رسول الله ﷺ، فأخبرناه الخبر، فقال: «انصرفا، نفي لهم بعهدهم، ونستعين الله عليهم»[2].

٦ ـ الصدق:

الصدق فضيلة إنسانيَّة عالميَّة، ولا يستقيم التعامل بين الناس ـ أفرادًا وجماعات ـ وتبادل الثقة بينهم، إلا على أساسها.

وهو في نظر الإسلام يشمل القول والفعل والنيَّة جميعًا، كما أنه يشمل الصدق مع الناس، والصدق مع النفس، والصدق مع الله، ولكن الصدق أشهر ما يكون في الأقوال.

والصدق في القول معناه: الإخبار بما يطابق الواقع والاعتقاد جميعًا، فإذا طابق الواقع مع مخالفته لما يعتقد كان كاذبًا، يقول بلسانه ما ليس في قلبه، شأن المنافقين.

وفي هذا يقول القرآن: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾ [المنافقون: ١]. كذبهم الله تعالى في شهادتهم لمحمد ﷺ بالرسالة، مع مطابقتها للواقع، لمخالفتها لاعتقادهم، فهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم.

والصدق في الفعل: ألَّا يخالف عملُه قولَه، فإذا قال كلمة احترمها، وإذا

(١) اسم اليمان والد حذيفة، واليمان لقبه.

(٢) رواه مسلم في الجهاد والسير (١٧٨٧)، وأحمد (٢٣٣٥٤).

وعد بشيء أنجزه في ميقاته الموعود، وإذا تعهَّد بشيء حرص على أدائه كما ينبغي.

وقد ذمَّ الله ورسولُه مَن يقول ولا يفعل، ومن يعد ولا يفي، ومن يتعهد ولا يلتزم، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف: ٢ ـ ٣].

ويقول الرسول ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتُمن خان»[(١)].

وأثنى القرآن على نبيِّ الله إسماعيل فقال: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥٤﴾ [مريم: ٥٤].

والصدق مع الله: أن نتعامل مع الله بكلِّ صدق، فهو لا يخفى عليه خافية، ولا يغيب عنه سرٌّ ولا علانية، وهو يعلم باطنك كما يعمل ظاهرك، فهو قادر على أن يكشفك ويفضحك بين أقرب الناس إليك.

والصدق مع النفس: أن تواجهها بالواقع، ولا تفتري عليها، أو تقول لها غير الحق، فقد يخدع الإنسان غيره، ولكنه من الصعب أن يخدع نفسه.

والصِّدق مع الناس: ألا يكذب عليهم، ولا يخدعهم، ولا يتفق مع عدوهم، بل يكون ظاهره وباطنه معهم. وقد أوصانا النبي ﷺ بالصدق، فقال: «إنَّ الصدق يهدي إلى البِرِّ، وإنَّ البرَّ يهدي إلى الجنة، وإنَّ الرجل لَيَصْدُقُ حتى يكتب عند الله صديقًا. وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليَكْذِبُ حتى يُكتب عند الله كذَّابًا»[(٢)].

وقد أمرنا الإسلام أن نكون مع الصادقين: كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١١٩﴾ [التوبة: ١١٩]. وهم من صدقوا في دينهم وإيمانهم، وصدقوا في القول والفعل والنية، كقوله تعالى في آية ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ﴾، بعد أن ذكر البر الحقيقي: في العقيدة، وفي القول، وفي الفعل، وفي الخلق: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ۝١٧٧﴾ [البقرة: ١٧٧].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٣)، ومسلم (١٠٧)، كلاهما في الإيمان، عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠٩٤)، ومسلم في البر والصلة (٢٦٠٧)، عن ابن مسعود.

وقال في سورة الحجرات: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الآية: ١٥].

الكذب في الإصلاح بين الناس:

وأصل الكذب كله شرٌّ، وإن زعم الناس أن هناك كذبًا أبيض، ولكن الكذب كله أسود، وإنما استثنى الشرع الكذب إذا كان للإصلاح بين الناس، أو كان في الحرب، فإن الحرب خدعة، أو كان في سبيل إرضاء الزوجة، فهذا ما جاء في حديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، فيما رواه الإمام مسلم والإمام أحمد عنها، أنها سمعت رسول الله ﷺ، وهو يقول: «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس، فيقول خيرًا أو يُنمي خيرًا». قالتْ: ولم أسمعْه يُرخِّصُ في شيء ممَّا يقول الناس من الكذب إلا في ثلاث: الحرب، الإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها[1].

٧ ـ حُسْن الظنّ:

ومعناه: أن يُقَدِّم الجانب المضيء على الجانب المظلم في نظرته إلى الناس، ويحمل حالهم على الصلاح ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، مفترضًا أنَّ الأصل هو الخير والشر عارض، ولا سيما مَن آمن بالله واليوم الآخر، ورضي بالإسلام دينًا.

وفي المأثور: «خصلتان ليس فوقهما شيء من الخير: حُسْن الظنِّ بالله، وحُسْن الظن بالناس. وخصلتان ليس فوقهما شيءٌ من الشر: سوء الظنِّ بالله، وسوء الظنِّ بالناس»[2].

والقرآن العزيز يُحذِّر من سوء الظن، فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

والحديث النبوي يقول: «إيَّاكم والظنَّ، فإنَّ الظنَّ أكذب الحديث»[3].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الصلح (٢٦٩٢)، ومسلم البر والصلة (٢٦٠٥)، كما رواه أحمد (٢٧٢٧٢)، والنسائي في الكبرى في عشرة النساء (٩٠٧٤)، عن أم كلثوم بنت عقبة.

(٢) إحياء علوم الدين (٢/ ٢٠٨).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الفرائض (٦٧٢٤)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٦٣)، عن أبي هريرة.

ومن هنا أنكر القرآن الكريم على الذين سمعوا حديثَ الإفك فصدَّقوا الشائعات الآثمة، وكان عليهم أن يُغلِّبوا ظنَّ الخير على ظن السوء، يقول القرآن الكريم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾ [النور: ١١ ـ ١٣].

وكثيرًا ما يؤدِّي سوء الظن إلى التَّجسس على الناس، وتتبع عوراتهم، وهو منهيٌّ عنه، ثم غيبتهم وذكرهم بالسوء وهم غائبون لا يستطيعون أن يدافعوا عن أنفسهم. ولهذا قال تعالى بعدما أمر باجتناب كثير من الظن: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢]. وعن ابن عمر قال: صعد رسول الله ﷺ المنبر فنادى بصوت رفيع، فقال: «يا معشر مَن أسلم بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه، لا تؤذوا المسلمين ولا تعيِّروهم، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه مَن تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته، ومَن تتبع الله عورته يفضحه، ولو في جوف رحله».

قال: ونظر ابن عمر يومًا إلى البيت أو إلى الكعبة فقال: ما أعظمك وأعظم حرمتك، والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك[1].

وعن جابر رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ قبل موته بثلاثة أيام، يقول: «لا يموتنَّ أحدكم، إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل»[2].

وعن حيان أبي النضر قال: خرجتُ عائدًا ليزيد بن الأسود، فلقيتُ واثلة بن الأسقع وهو يريد عيادته، فدخلنا عليه، فلما رأى واثلة بسط يده وجعل يشير إليه، فأقبل واثلة حتى جلس، فأخذ يزيد بكفَّيْ واثلة، فجعلهما على وجهه، فقال له واثلة: كيف ظنك بالله؟ قال: ظني بالله ـ واللهِ ـ حسن. قال: فأبشر فإني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «قال الله جل وعلا: أنا عند ظن عبدي بي إن ظن خيرًا وإن ظن شرًّا»[3].

---

(١) رواه الترمذي في البر والصلة (٢٠٣٢)، وقال: حسن غريب، وابن حبان في الحظر والإباحة (٥٧٦٣)، وقال الأرناؤوط: إسناده قوى، وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٣٣٩).

(٢) رواه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٧٧)، وأحمد (١٤١٢٥)، عن جابر.

(٣) رواه ابن حبان الرقائق (٦٤١) وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح، والطبراني (٢٢/ ٨٧).

٨ ـ برُّ الوالدين:

من الأخلاق الاجتماعية المعروفة في الإسلام: برُّ الوالدين، وهو ثاني ما يطلبه الله من عباده بعد التوحيد، كما بيَّن ذلك القرآنُ في وصاياه وأوامره: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦]. ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]. ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤)﴾ [لقمان: ١٤].

فجعل القرآن برَّ الوالدين وشكرَهما والإحسان إليهما بعد الأمر بعبادة الله وتوحيده.

وكان هذا في الديانات السماوية السابقة على الإسلام، كما عند بني إسرائيل والنصارى، يذكر القرآن في ميثاق بني إسرائيل الذي أخذه الله عليهم: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣].

والمسيح عيسى بن مريم عليه السلام، يُنطقه الله في المهد صبيًّا ليبرِّئ أمه الصِّدِّيقة، ويقول: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢)﴾ [مريم: ٣٠ ـ ٣٢].

وبمثل ذلك ذُكِر يحيى عليه السلام، فكان مما قاله القرآن في شأنه: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (١٣) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤)﴾ [مريم: ١٢ ـ ١٤].

وتزداد الوصيَّة بهما في حالة الكِبَر والشيخوخة، التي يجب أن تُراعَى فيها حالتهما النفسية، فلا يجوز التأفُّف منهما، كما قال تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣)﴾ [الإسراء: ٢٣]. حتى قال العلماء: لو علم الله في العقوق شيئًا أدنى من (أفّ) لحرمه[١].

بل أمر تعالى بخفض جناح الذُّل لهما من الرحمة، مع تشديده على المسلمين على أنْ لا يعطوا الذل مِن أنفسهم لأحد غيرهما، إلا في حالة واحدة ذكرها القرآن، هي ذلُّ المؤمن على أخيه المؤمن: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

---

(١) الفردوس بمأثور الخطاب للديلمي (٣/ ٣٥٣).

قال تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ٢٤].

وقد ذكر لنا القرآن الأنبياء البرَرة مع آبائهم؛ ليكونوا أمثلة للقرون التالية، كما ذكر إبراهيم وابنه إسماعيل، وكما ذكر يعقوب وابنه يوسف، وكما ذكر داود وابنه سليمان، وكما ذكر زكريا وابنه يحيى، وكما ذكر المسيح وأمَّه مريم.

كما ذكرتْ لنا سنة النبي ﷺ، من الحض على بر الوالدين، وتأكيد طاعتهما والإحسان إليهما، وبرِّ أصدقائهما مِن بعدِهما الشيءَ الكثير، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فاستأذنه في الجهاد. فقال: «أحيٌّ والداك؟». قال: نعم. قال: «ففيهما فجاهد»[1].

وفي رواية لمسلم قال: أقبَلَ رجلٌ إلى نبي الله ﷺ، فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد، أبتغي الأجرَ مِن الله. قال: «فهلْ مِن والديك أحدٌ حيٌّ؟». قال: نعم، بل كلاهما. قال: «أفتبتغي الأجر من الله؟». قال: نعم. قال: «فارجعْ إلى والديك، فأحسِنْ صحبتَهما»[2].

وعن عبد الله بن عمرو ـ أيضًا ـ قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ، فقال: جئتُ أبايعك على الهجرة، وتركتُ أبويَّ يبكيان. فقال: «ارجعْ إليهم فأضحِكْهما كما أبكيتَهما»[3].

وعن أنس رضي الله عنه قال: أتى رجلٌ النبيَّ ﷺ فقال: إني أشتهي الجهاد، وإني لا أقدر عليه. قال: «هل بقي أحد والديك؟». قال: أمِّي. قال: «فأَبْلِ الله عذرًا في برِّها، فإذا فعلتَ ذلك، فأنت حاجٌّ ومعتمرٌ ومجاهدٌ»[4].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٠٤)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٤٩).

(٢) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٤٩).

(٣) رواه أحمد (٦٨٣٣) وقال مخرِّجوه: حديث حسن، وأبو داود في الجهاد (٢٥٢٨)، والنسائي في البيعة (٤١٦٣)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٨٢)، والحاكم في البر والصلة (٤/ ١٥٣) وصحَّحه، ووافقه الذهبي، وصحَّحه ابن الملقن في البدر المنير (٩/ ٤٠).

(٤) رواه أبو يعلى (٢٧٦٠)، والطبراني في الأوسط (٤٤٦٦)، والصغير (٢١٨)، وصحَّح إسناده الضياء في المختارة (١٨٥٧)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٣٩٩): رواه أبو يعلى والطبراني، ورجالهما رجال الصحيح غير ميمون بن نجيح ووثقه ابن حبان. ومعنى (فأبلِ الله عذرًا): اجتهدْ في الاعتذار إليه حتى يرضَى.

وهذه الأحاديث كلها فيما إذا لم يكن الجهاد فرضَ عين، كما في حالة غزو الكفار لبلد، فإن على أهله كافة النفير للدفاع، ويقدم حق الجماعة هنا على حق الوالدين وغيرهما، وكذلك إذا كان أبواه كافرين؛ إذ لا يُرجى منهما الرغبة في نصرة الإسلام.

وعن معاوية بن جاهمة: أن جاهمة جاء إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، أردتُ الغزو وجئتُك أستشيرك. فقال: «هل لك مِن أمٍّ؟». قال: نعم. فقال: «الزمْها فإنَّ الجنَّة عندَ رِجْلِها»[1].

ورواه الطبراني بإسناد جيد، ولفظه قال: أتيت رسول الله ﷺ أستشيره في الجهاد. فقال النبي ﷺ: «ألك والدانِ؟». قلتُ: نعم. قال: «الزمهما، فإنَّ الجنَّة تحت أرجلهما»[2].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رجلًا أتاه، فقال: إنَّ لي امرأةً، وإن أمِّي تأمُرني بطلاقها. فقال أبو الدرداء: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الوالد أوْسَط أبواب الجنة، فإن شئتَ فأضِعْ ذلك البابَ أو احفظْه»[3].

وعن ابنِ عمر رضي الله عنهما، قال: كانت تحتي امرأة أحبُّها، وكان عمر يكرهُها، فقال: لي طلِّقْها. فأبَيتُ، فأتى عمرُ النبيَّ ﷺ، فذكر ذلك له، فقال لي النبي ﷺ: «طلِّقْها»[4].

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الرجلَ ليُحرَم الرزقَ بالذنْب يُصيبُه، ولا يردُّ القدرَ إلا الدعاءَ، ولا يزيد في العمرِ إلا البرُّ»[5].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «بَرُّوا آباءَكم تَبرّكم أبناؤكم، وعفُّوا تعفَّ نساؤكم»[6].

---

(١) رواه أحمد (١٥٥٣٨) وقال مخرِّجوه: إسناده حسن، والنسائي في الجهاد (٣١٠٤)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٨١)، والحاكم في الجهاد (٢/ ١٠٤) وصحَّحه، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٤٨٥).

(٢) رواه الطبراني (٢/ ٢٨٩)، وجود إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٣٧٥١)، وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٤٨٥).

(٣) رواه أحمد (٢١٧١٧) وقال مخرِّجوه: إسناده حسن، والترمذي في البر والصلة (١٩٠٠)، وقال: حديث صحيح، وابن ماجه في الأدب (٣٦٦٣)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٩١٤).

(٤) رواه أحمد (٥٠١١) وقال مخرِّجوه: إسناده قوي، وأبو داود في الأدب (٥١٣٨)، والترمذي في الطلاق واللعان (١١٨٩) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه في الطلاق (٢٠٨٨). وهذا إذا كان الأب والأم من أهل التقوى والبصيرة؛ ولهذا قال الإمام أحمد لمن سأله في ذلك: إذا كان أبوك مثل عمر، فطلِّقها!

(٥) رواه أحمد (٢٢٤١٣) وقال مخرِّجوه: حسن لغيره دون قوله: «وإن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه»، وابن ماجه في الفتن (٤٠٢٢)، وابن حبان في الرقائق (٨٧٢)، والحاكم في الدعاء (١/ ٤٩٣) وصحح إسناده، ووافقه الذهبي.

(٦) رواه الطبراني في الأوسط (١٠٠٢)، وحسن إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٣٧٥٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٤٠٣): رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح غير شيخ الطبراني أحمد غير منسوب، والظاهر أنه من المكثرين من شيوخه فلذلك لم ينسبه.

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «رَغِم أنفه، ثم رَغِمَ أنفه، ثم رَغِمَ أنفه». قيل: مَنْ يا رسول الله؟ قال: «مَن أدرك والِدَيْه عند الكِبَر، أحدهما أو كليهما، ثم لم يدْخُلِ الجنةَ»(١).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، مَن أحقُّ الناس بحُسْن صَحَابَتي؟ قال: «أمُّك». قال: ثم مَن؟ قال: «أمُّك». قال: ثم مَن؟ قال: «أمُّك». قال: ثم مَن؟ قال: «ثم أبوك»(٢).

وعن أسماء بنت أبي بكر ﷺ، قالتْ: قدمت علي أمِّي وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ، فاستفتيتُ رسول الله ﷺ، قلتُ: قدمت عليّ أمي وهي راغبة، أفأصِلُ أمِّي؟ قال: «نعم صِلِي أمَّكِ»(٣).

وعن عبد الله بن دينار، عن عبد الله بن عمر ﷺ: أن رجلًا من الأعراب لقيه بطريق مكة، فسلم عليه عبدُ الله، وحمَلَه على حمار كان يركبه. وأعطاه عمامة، كانت على رأسه، فقال ابن دينار: فقلنا له: أصلحك الله، إنهم الأعرابُ، وإنهم يرضون باليسير! فقال عبد الله: إن أبا هذا كان وُدًّا لعمر بن الخطاب، وإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن أبرَّ البرِّ صِلة الولدِ أهلَ وُدِّ أبيه»(٤).

وعن أبي بردة قال: قدمتُ المدينة، فأتاني عبد الله بن عمر، فقال أتدري لِمَ أتيتك؟ قال: قلت: لا. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن أحبَّ أن يصِلَ أباه في قبره، فليصِلْ إخوان أبيه بعده». وإنه كان بين أبي عمر وبين أبيك إخاءٌ وودٌّ، فأحببْتُ أن أصِل ذاك(٥).

وقد حذَّر النبي ﷺ من نقيض البر والإحسان، فنهى ﷺ، عن العقوق والإساءة، وقَرَنَه بأكبر الكبائر كالإشراك بالله، وقتل النفس، وقول الزور، فعن أبي بكرة قال: قال النبي ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟». ثلاثًا. قالوا: بلى،

---

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٥١)، وأحمد (٧٤٥١)، والترمذي في الدعوات (٣٥٤٥).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٥٩٧١)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٤٨)، كما رواه أحمد (٨٣٤٤)، وابن ماجه في الوصايا (٢٧٠٦).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الهبة (٢٦٢٠)، ومسلم في الزكاة (١٠٠٣).

(٤) رواه مسلم البر والصلة (٢٥٥٢)، وأحمد (٥٦٥٣).

(٥) رواه أبو يعلى (٥٦٦٩)، وابن حبان في البر والإحسان (٤٣٢)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط البخاري، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٤٣٢).

يا رسول الله. قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين». وجلس وكان متكئًا، فقال: «ألا وقول الزور». قال: فما زال يكررها، حتى قلنا ليته سكت[1].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: «الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس»[2].

وعنه أيضًا، أن رسول الله ﷺ قال: «إن مِن أكبر الكبائر: أن يلعن الرجلُ والديه». قيل: يا رسول الله! وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: «يسبُّ أبا الرجل، فيسب أباه، ويسبُّ أمَّه، فيسب أمَّه»[3].

٩ ـ صلة الأرحام:

ومن الأخلاق الاجتماعيَّة الأصيلة في الإسلام: صلة الأرحام، ويُعبِّر عنها القرآنُ أحيانًا بـ﴿إِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠]. فكما يوصي الإسلامُ بالوالدين، يوصي أيضًا بالأقربين، وهم أقارب الإنسان من جهة أبيه، أو من جهة أمه، أو من جهة أولاده، يقول تعالى في آية الحقوق العشرة: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النساء: ٣٦]. وذَكَرَ (الباء) مُلْصَقةً بـ (ذي القربى)، ولم يذكُرْها فيما أخذه على بني إسرائيل.

وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾ [البقرة: ٢١٥].

ويقول عز وجل: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ [البقرة: ١٨٠].

ومن خلال هذه الآية اجتهد علماء الفقه المعاصرون في مصر وغيرها، بضرورة أن يوصي الجدُّ إلى أحفاده مِن البنينَ والبناتِ إذا مات آباؤهم في حياة جدهم، وحُرموا من الميراث، ولكن لم يُحرموا مِن حقِّهم في الوصيَّة المكتوبة

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٥٩٧٦)، ومسلم في الإيمان (٨٧)، كما رواه أحمد (٢٠٣٨٥)، الترمذي في البر والصلة (١٩٠١).

(٢) رواه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٧٥)، وأحمد (٦٨٨٤)، والنسائي في تحريم الدم (٤٠١١).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٥٩٧٣)، ومسلم في الإيمان (٩٠)، وأبو داود في الأدب (٥١٤١)، والترمذي في البر والصلة (١٩٠٢).

لهم والمفروضة لهم من الله، فيجب أن يُفرض على الجد أن يعطي الأحفادَ مِن تركته ما يأخذه الأبناء والبنات من أبيهم بالميراث، بشرط ألا يتجاوز حد الوصيَّة، وفي ذلك قانون مفصّل يُدَرَّسُ في الكليات الشرعية، يعرف بـ (الوصيّة الواجبة).

وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١].

وقال: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنفال: ٧٥].

وقال سبحانه: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الإسراء: ٢٦].

وقال: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الروم: ٣٨].

وهاتان الآيتان مِن القرآن المكيّ بالإجماع، مما يدل على أن تقرير هذه الحقوق بدأ مبكرًا في الإسلام.

وقال تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾﴾ [النساء: ٧].

ثم حدَّدَتِ سورة النساء نصيبَ القريب الذي يستحقُّه مِن تركة ميِّته، ومتى يحجب من الميراث؟ ومَن يحجبه؟ وغير ذلك مما فصله علماء الفقه.

وحذَّر الإسلام مِن قطع الأرحام، والإساءة إلى أولي القربى، واعتبر ذلك من الكبائر الموبقة، كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمد: ٢٢ ـ ٢٣].

وأهم ذوي القرابات بعد الوالدين: الأولادُ وذريَّاتهم، فهم جزء من الإنسان، هم منه، وهو منهم، وهم أول مرتبة: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ [النساء: ١١].

وبعد الأولاد حقُّ الإخوة، فالإخوة بعضهم أولياء بعض، ينصر بعضهم بعضًا، ويدافع بعضهم عن بعض، ويتحمَّل بعضهم آلام بعض، ويرث بعضُهم مِن بعض بشروط، فكل أخ للمرء كأنه بعضٌ من جسمه، ينبغي له أن يحافظ عليه، وأن يدفع عنه، وقد قال الشاعر:

أخـاكَ أخـاكَ إنّ مَـن لا أخـا لـه   كسـاعٍ إلى الـهَـيْـجا بـغـيـر سـلاح
وإنّ ابنَ عمّ المرء ـ فاعلمْ ـ جناحُه   وهل ينهض البازي بغير جناح[1]

وكما قال بعضهم عن الأسرة: إنها جناحك، الذي به تطير، وأصلك الذي إليه تصير.

كما ذكرتْ لنا سنَّة النبيِّ ﷺ من الحضّ على صلة الأرحام، والإحسان إليهم حتى وإن أساؤوا، ووصلهم وبرهم حتى وإن قطعوا، وبذل الصدقة والمعروف إليهم، ورغَّب ووعد بالجزاء العاجل والآجل: من بسط في الرزق، وبركة في العمر، وغفران للذنب، ووصل وتقرب لمن وصلها، وأوعد من قطع رحمه بتعجيل العقوبة له في الدنيا، أن الله يقطع من قطعها ويبعده، وقد جاءت بذلك الأحاديث والوصايا النبويَّة:

فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أتى رجلٌ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني أصبتُ ذنبًا عظيمًا، فهل لي مِن توبة؟ فقال: «هل لك مِن أمٍّ؟». قال: لا. قال: «فهل لك من خالة؟». قال: نعم، قال: «فبَرَّها»[2].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «مَن أحبَّ أن يُبسط له في رزقه، ويُنسأ له في أثره، فليصل رحمه»[3].

وعن أبي أيوب رضي الله عنه، أن أعرابيًا عرض لرسول الله ﷺ، وهو في سفر، فأخذ بخطام ناقته أو بزمامها، ثم قال: يا رسول الله ـ أو: يا محمد ـ أخبرني بما يقرِّبني من الجنة، ويُباعدني من النار؟ قال: فكفَّ النبي ﷺ، ثم نظَرَ في أصحابه، وقال: «لقد وُفِّقَ». أو: «لقد هُدِيَ». قال: «كيف قلتَ؟». قال: فأعادَها. فقال النبي ﷺ: «تعبدُ الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيمُ الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصلُ الرحم»[4].

---

(١) من شعر مسكين الدارمي.

(٢) رواه أحمد (٤٦٢٤) وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، والترمذي في البر الصلة (١٩٠٤) مرفوعًا ومرسلًا ورجَّح المرسل، وابن حبان في البر والإحسان (٤٣٥)، والحاكم في البر والصلة (٤/ ١٥٥)، وصحَّحه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب (٢٥٠٤).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٥٩٨٦)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٥٧)، كما رواه أحمد (١٣٥٨٥).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في الزكاة (١٣٩٦)، ومسلم في الإيمان (١٣).

وعن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ قال: «الرحم متعلِّقة بالعرش، تقول: مَن وصلني وصله الله، ومَن قطعني قطعه الله»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى خلق الخلق، حتى إذا فرغ منهم قامت الرَّحِم، فقالت: هذا مقام العائذ من القطيعة. قال: نعم، أما ترضين أن أصل مَن وصلك، وأقطع مَن قطعك؟ قالتْ: بلى، قال: فذاك لكِ». ثم قال رسول الله ﷺ: «اقرؤوا إن شئتم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ۝٢٣ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ۝٢٤﴾ [محمد: ٢٣ ـ ٢٤]»[2].

وعنه رضي الله عنه أنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن الرحم شَجِنَةٌ مِن الرحمن تقول: يا رب، إني قُطعتُ. يا رب، إني أُسِيء إليَّ. يا رب، إني ظُلمتُ. يا رب، يا رب». قال: «فيجيبها: أمَا ترضَيْن أن أصِلَ مَن وصلك، وأقطع مَن قطعك؟»[3].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «ليس الواصِل بالمكافئ، ولكنَّ الواصلَ الذي إذا قُطعتْ رحمه وصلَها»[4].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رجلًا قال: يا رسول الله، إن لي قرابةً أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إليَّ، وأحلم عليهم ويجهلون عليَّ. فقال: «إن كنتَ كما قلت، فكأنما تُسِفُّهم الملَّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمتَ على ذلك»[5].

وعن أم كلثوم بنت عقبة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ قال: «أفضل الصدقة على ذي

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٥٩٨٩)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٥٥)، كما رواه أحمد (٢٤٣٣٦).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٨٣٠)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٥٤)، كما رواه أحمد (٨٣٦٧).

(٣) رواه أحمد (٨٩٧٥) وقال مخرِّجوه: حديث صحيح، وابن حبان في البر والصلة (٤٤١)، ورواه البخاري في الأدب (٥٩٨٨) بلفظ: «إن الرحم شجنة من الرحمن، فقال الله: من وصلك وصلته، ومن قطعك قطعته».

(٤) رواه البخاري في الأدب (٥٩٩١)، وأحمد (٦٧٨٥)، وأبو داود في الزكاة (١٦٩٧)، والترمذي في البر والصلة (١٩٠٨).

(٥) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٥٨)، وأحمد (٧٩٩٢).

الرحم الكاشح»[1]. ومعنى «الكاشح»: أنه الذي يُضمر عداوته في كشحه، وهو خصره، ويعني أن أفضل الصدقة على ذي الرحم المُضْمِر العداوةَ في باطنه.

وعن عقبة بن عامر ﷺ قال: لقيتُ رسول الله ﷺ، فابتدأته، فأخذتُ بيده، فقلتُ: يا رسول الله، أخبرني بفواضل الأعمال. فقال: «يا عقبة، صِلْ مَن قطعَكَ، وأعطِ مَنْ حَرَمَكَ، وأعْرِضْ عمَّنْ ظَلَمَكَ»[2]. وزاد الحاكم في المستدرك: «ألَا ومَن أراد أن يُمدَّ في عمره، ويُبسطَ في رزقه، فلْيصلْ رحِمه».

وعن أبي بكرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من ذنب أجدرُ أن يعجِّل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدَّخِر له في الآخرة من البغي، وقطيعة الرحم»[3].

وعن جبير بن مطعم ﷺ، أنه سمع النبي ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة قاطعٌ»[4]. قال سفيان: يعني قاطع رحمٍ.

١٠ - إكرام الجار والإحسان إليه:

ومن الأخلاق الاجتماعية في الإسلام: ما أوصى به القرآن، وأوصتْ به السُّنَّة، من الإحسان إلى الجار، وقد ذكره القرآن في آية الحقوق العشرة مرتين في الآية، مرة باعتباره الجار ذي القربى، ومرة باعتباره الجار الجنب، أي: البعيد، قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء: ٣٦].

---

(١) رواه ابن خزيمة في الزكاة (٢٣٨٦)، والطبراني (٢٥/ ٨٠)، والحاكم في الزكاة (١/ ٤٠٦)، وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٨٩٤).

(٢) رواه أحمد (١٧٣٣٤) وقال مخرِّجوه: حديث حسن، والحاكم في البر والصلة (٤/ ١٦١)، وسكت عنه الذهبي، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٨٩١).

(٣) رواه أبو داود في الأدب (٤٩٠٢)، والترمذي في صفة القيامة (٢٥١١)، وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه في الزهد (٤٢١١)، والحاكم في التفسير (٢/ ٣٥٦) وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، ورواه الطبراني فقال فيه: «من قطيعة الرحم والخيانة والكذب، وإن أعجل البر ثوابًا لَصِلةُ الرحم، حتى إن أهل البيت ليكونون فجرة فتنمو أموالهم ويكثر عددهم إذا تواصلوا». ورواه ابن حبان في صحيحه في البر والإحسان (٤٥٥، ٤٥٦)، ففرقه في موضعين ولم يذكر الخيانة والكذب، وزاد في آخره: «وما من أهل بيت يتواصلون فيحتاجون».

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٥٩٨٤)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٥٦).

فأوصى الله تعالى هنا بحق الجار، سواء كان جارًا ذا قربى، أي: له حق القرابة مِن أخوّة أو بني عُمومة أو خُؤولة، أو كان جارًا جُنبًا، لا صلة له غير الجوار، فكلٌ له حقُّه، فمن الجيران ما له حقٌّ واحد، وهو حقُّ الجوار. ومنهم ما له حقان: حقُّ الجوار، وحقُّ الإسلام. ومنهم ما له حقوق ثلاثة: حقُّ الجوار، وحقُّ الإسلام، وحقُّ القرابة.

وسواء أكان الجوار عن اليمين أم الشمال، أم من الأمام أم الخلف، فكلها تُثبت حقَّ الجوار، وكُلَّما قرُب الجوار كان حقُّه أوكدَ وأوثق.

وعلى الجار أن يكون راعيًا وحافظًا لحقِّ جاره، لا ذئبًا يُغير عليه، وينهش ماله أو عرضه أو حرمته، وفي الحديث، عن المقداد بن الأسود، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «ما تقولون في الزنى؟». قالوا: حرَّمه الله ورسوله، فهو حرام إلى يوم القيامة. قال: فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «لأن يزني الرجل بعشرة نسوة، أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره». قال: فقال: «ما تقولون في السرقة؟». قالوا: حرَّمها الله ورسوله، فهي حرام. قال: «لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات، أيسر عليه من أن يسرق من جاره»[(١)].

وعن أبي هريرة[(٢)] وأبي شريح[(٣)] أن رسول الله ﷺ قال: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن». قالوا: وما ذاك، يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يأمَنُ جارُه بوائقَه». وزاد أحمد: قالوا: يا رسول الله، وما بوائقه؟ قال: «شرُّه»[(٤)].

وفي حديث آخر: قال: «والذي نفسي بيده، لا يؤمن عبدٌ حتى يحبَّ لجاره - أو قال: لأخيه - ما يحب لنفسه»[(٥)].

---

(١) رواه أحمد (٢٣٨٥٤) وقال مخرِّجوه: إسناده جيد، والبخاري في الأدب المفرد (١٠٣)، والبزار (٢١١٥)، والطبراني (٢٠/ ٢٥٦)، وصحَّحه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٧٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٣٠٨): رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط ورجاله ثقات.

(٢) رواه مسلم في الإيمان (٤٦)، وأحمد (٨٨٥٥).

(٣) رواه البخاري في الأدب (٦٠١٦).

(٤) رواه أحمد (٧٨٧٨) وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، عن أبي هريرة. وبرقم (١٦٣٧٢) وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، عن أبي شريح.

(٥) رواه مسلم في الإيمان (٤٦)، وعلقه البخاري عقب حديث (٦٠١٦) مجزومًا به، وأحمد (٧٨٧٨).

وعن ابن عباس رضى الله عنهما، أنه سمع النبي ﷺ يقول: «ليس المؤمن الذي يبيت وجاره إلى جنبه جائع وهو يعلم»[1].

وعن ابن عمر[2] وعائشة[3] ﷺ، قالا: قال رسول الله ﷺ: «ما زال يوصيني جبريل بالجار حتى ظننتُ أنه سيورثه».

وعن سعد بن أبي وقاص، مرفوعًا: «أربع من السعادة: المرأة الصالحة، والمسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهنيء. وأربع من الشقاء: الجار السوء، والمرأة السوء، والمركب السوء، والمسكن الضيّق»[4].

١١ - العناية بالمستضعفين من اليتامى والمساكين:

وكما عُنِيَ الإسلام بحقِّ الجار، عنيَ بحقوق المستضعفين بصفة عامة، سواء كان ضعفه بموت أبيه وهو صغير، مثل اليتيم، فقد تولى الله حمايته والدفاع عنه: من ناحية شخصه، فلا يُروَّع ولا يُؤذَى. ومن ناحية ماله، فلا يُنهب ولا يُبعثر. أو من ناحية كليهما، أو كان ضعفُه من ناحية فقر المال، ومَن لا مال له أصبح في الناس كالزرع الذي لا ماء له، ولذلك كانت وصية الله تعالى بالمسكين، وبإعطائه من الزكاة وما بعد الزكاة من أموال الغنائم وأموال الفيء وغيرها: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: ٧].

وقال تعالى في الحقوق العشرة: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [البقرة: ٨٣].

وفي آية تقسيم الغنائم: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١].

كما نرى في القرآن المكي في أول الإسلام قولَه تعالى في سورة الضحى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۞﴾ [الضحى: ٩]. وقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (١١٢)، وأبو يعلى (٢٦٩٩)، والطبراني (١٢/ ١٥٤)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٥٥٥): رجاله ثقات، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٤٩)، عن ابن عباس.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠١٥)، ومسلم في البر والصلة (٢٦٢٥).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠١٤)، ومسلم في البر والصلة (٢٦٢٤).

(٤) رواه ابن حبان في النكاح (٤٠٣٢) وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط البخاري، والبيهقي في الشعب في باب إكرام الجار (٩٥٥٦)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٨٢).

﴿بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ۝٢﴾ [الماعون: ١ ـ ٢]. أي: هذا شأن الإنسان الكافر ـ الذي يكذِّب بالقيامة وحساب الله للناس ـ أول صفاته: أنه يدُعُّ اليتيم، ويدفعه بعنف.

كما نزل في القرآن المكي العناية بأموال اليتيم، وكان ذلك في الوصايا العشر بسورة الأنعام، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الأنعام: ١٥٢]. وأكدها في وصايا الحكمة في سورة الإسراء المكية: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الإسراء: ٣٥]. وأكد النَّهي عن مجرَّد الاقتراب من أموال اليتامى بأيِّ طريقة من الطرق إلا بالطريقة التي هي أحسن، أي: لو كان هناك طريقتان لاستثمار مال اليتيم: طريقة جيدة وحسنة، وطريقة أجود منها وأحسن، فالمطلوب قرآنيًّا مِن المسلم: أن يسلُك الطريقة الأجود والأحسن، وهي التي يُصان فيها الأصل، ويُحسَن فيها تثمير الفرع.

وشدَّد القرآن غاية التشديد على الذين يبدِّدون أموال اليتامى ويُضيِّعونها، ولا يبالون في الحفاظ عليها، والبحث عن أحسن الوسائل، وأحسن الأساليب لاستثمارها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِى بُطُونِهِمۡ نَارًاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرًا ۝١٠﴾ [النساء: ١٠].

وفي الحديث الصحيح عن سهل بن سعد، قال رسول الله ﷺ: «أنا وكافل اليتيم[١] في الجنة هكذا». وأشار بالسبابة والوسطى، وفرَّج بينهما[٢].

وعن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «أنا أول من يُفتح له باب الجنة، إلا أنه تأتي امرأة تبادرني، فأقول لها: ما لك؟ ومن أنت؟ فتقول: أنا امرأة قعدتُ على أيتامٍ لي»[٣].

---

(١) كافل اليتيم: هو القائم بشؤونه المادية والأدبية. واليتيم: من مات أبوه قبل أن يبلغ الحلم من ذكر أو أنثى.

(٢) رواه البخاري (٦٠٠٥)، وأبو داود (٥١٥٠)، كلاهما في الأدب، والترمذي في البر والصلة (١٩١٨).

(٣) رواه أبو يعلى (٦٦٥١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٥١٩): فيه عبد السلام بن عجلان، وثقه أبو حاتم وابن حبان، وقال: يخطئ ويخالف وبقية رجاله ثقات، عن أبي هريرة.

١٢ ـ الحض على طعام المسكين:

ومن الأخلاق الاجتماعية التي انفرد بها القرآن، ولا نعرف لها نظيرًا في أخلاق العالَم، ولا في الكتب الدينيَّة العالميَّة: ما أوصى به القرآن وشدَّد الوصيَّة فيه، وهو ما سمَّاه القرآن: الحضَّ على طعام المسكين.

فلا شك أنَّ أول ما يطلبه الإنسان من حاجيَّاته: أن يأكل، كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨].

حتى إن رسلَ الله تعالى وأنبياءَه لا يستغنون عن البحث عن الطعام والمشي في الأسواق، كما ذكر القرآن مخاطبًا خاتم رسله محمدًا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠].

فدلَّ هذا كله على أن أكل الطعام للإنسان حقٌّ وضرورة للإنسان، لا يمكن الاستغناء عنه؛ ولذلك أكد القرآن هذه القضية، حين جعل الحض على طعام المسكين فريضة دينيَّة من فرائضه المقرَّرة، ولا غرو أن قال في إحدى سوره المكيَّة: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾﴾ [الماعون: ١ ـ ٣].

فبيَّن القرآن الكريم لمن يريد أن يستدل على الكافر المكذِّب بالدين ـ أي: بالجزاء والحساب يوم القيامة ـ منْ هو؟ فذلك مَن لا قلب له، ولا ضمير له، الذي يدفع اليتيم بغلظة وقسوة، ولا يحرّض غيره على طعام المسكين الجائع في المجتمع، وهو ما ذكره القرآن بصيغة أخرى في سورة الفجر المكية، حين عرض علينا صورة المجتمع المكي الجاهليَّ، فقال: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ [الفجر: ١٧ ـ ٢٠].

فهذا هو المجتمع الجاهلي، الذي لا يعترف فيه قويٌّ بحقِّ ضعيف، ولا غنيٌّ بحاجة فقير، وإنما كل واحد مشغول بنفسه، وبالتراث الذي يجمعه ويخزنه، وبحب المال الذي يستكثر منه، فهم لا يهتمُّون بإكرام اليتيم، ما دام لا يجد له ناصرًا، ولا يُعنى واحد بأن يحرِّض غيره من القادرين على إطعام المسكين، أي الفقير الذي لا يجد في بيته طعامًا يأكل منه هو ومَن يعنيه طعامه من أهلٍ وولدٍ، وليس معه نقود يشتري بها ما يحتاج إليه.

والمفروض أن هذه الدعوة إلى إطعام الفقير والمسكين الضائع: فريضة اجتماعية على المسلمين، نادى بها القرآن في هذه السورة، وفي سورة الماعون، وفي سورة الحاقة، حين عرض الله لأصحاب الشمال، الذين يأخذون كتبهم بشمائلهم يوم القيامة، يقول أحدهم: ﴿يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾﴾ [الحاقة: ٢٥ ـ ٢٧]. فيقول الله تعالى لهم: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾ [الحاقة: ٣٠ ـ ٣٤]. ومعنى هذا: إن كل فرد في المجتمع عليه واجب للمسكين: إما أن يطعمه من طعامه إن كان عنده طعام يمكنه أن يجد فيه ما يؤخذ منه، وإما بأن يحض وينادي الأمة وعامَّة الناس على طعامه.

١٣ ـ الإخاء:

ومن الأخلاق والقيم الإنسانيَّة الاجتماعيَّة التي دعا إليها الإسلام: الإخاء ـ أو الأخوَّة ـ ومعناه: أن يعيش الناس في المجتمع متحابِّين مترابطين متناصرين، يجمعهم شعور أبناء الأسرة الواحدة، التي يحب بعضها بعضًا، ويشد بعضها أزر بعض، يحس كل منها أن قوة أخيه قوة له، وأن ضعفه ضعف له، وأنه قليل بنفسه كثير بإخوانه.

ولأهمية هذه القيمة أو الفضيلة في بناء المجتمع المسلم سنفصِّل فيها بعض التفصيل، فهي جديرة أن يصدر فيها كتاب، كما صدر في العدالة الاجتماعية، وغيرها. ونحن ننقل في هذا البحث هنا من كتابنا (**ملامح المجتمع المسلم**)، حيث قلنا:

والقرآن يجعل الإخاء في المجتمع المؤمن صنو الإيمان، ولا ينفصل عنه، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

ويجعل القرآن الأخوَّة نعمة من أعظم النعم، فيقول: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ويقول في سورة أخرى ممتنًّا على رسوله الكريم: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال: ٦٢ ـ ٦٣].

ويقول النبي ﷺ: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يُسْلِمه»(١).

«لا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تناجشوا، وكونوا عباد الله إخوانًا»(٢).

وقد روى الإمام أحمد من حديث زيد بن أرقم، أن النبي ﷺ كان يقول دبر كل صلاة: «اللَّهم ربنا وربَّ كلِّ شيء ومليكه، أنا شهيد أنك الله وحدك لا شريك لك.

اللَّهم ربنا وربَّ كل شيء ومليكه، أنا شهيدٌ أنّ محمدًا عبدك ورسولك.

اللَّهم ربنا وربَّ كل شيء ومليكه، أنا شهيدٌ أنّ العباد كلهم إخوة»(٣).

فجعل إقرار مبدأ (الأخوَّة) بعد الشهادة لله تعالى بالوحدانيَّة، ولمحمد ﷺ بالعبوديَّة والرسالة.

وقوله: «أنَّ العباد كلهم إخوة». يحتمل معنيين، كلاهما صحيح:

الأول: أن العباد هنا هم البَشر كافَّة، فهم أخوة بعضهم لبعض، بحكم البنوة لآدم، والعبوديَّة لله سبحانه. وهذه أخوة إنسانيَّة عامَّة.

وقد وصف الله تعالى عددًا من الرسل في القرآن بأنهم إخوة لأقوامهم رغم كفرهم برسالتهم، لاشتراكهم معهم في الجنس والأصل، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف: ٦٥]. ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ [الأعراف: ٧٣]. ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥].

الثاني: أنّ العباد هنا هم المسلمون خاصَّة، بحكم اشتراكهم في مِلَّة واحدة، تضمُّهم عقيدة واحدة هي التوحيد، وقِبْلة واحدة هي الكعبة البيت الحرام، وكتاب واحد هو القرآن، ورسول واحد هو محمد عليه الصلاة والسلام، ومنهج واحد، هو شريعة الإسلام.

وهذه أخوة دينية خاصة، لا تنافي الأولى، إذ لا تنافي بين الخاص والعام.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في المظالم (٢٤٤٢)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٠)، عن ابن عمر.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠٦٦)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٦٣)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه أحمد (١٩٢٩٣)، وقال مخرجوه: إسناده ضعيف، وأبو داود في الصلاة (١٥٠٨)، والطبراني (٥/ ٢١٠)، وضعَّفه الألباني في ضعيف أبي داود (٣٢٥).

كل ما في الأمر أن لهذه الأخوة حقوقًا أكثر، بمقتضى وحدة العقيدة والشريعة، والفكر والسلوك.

المحبة ومراتبها:

ومن العناصر الأساسية لهذه الأخوة: المحبة، وأدنى درجات المحبة: **سلامة الصدور، من الحسد والبغضاء والأحقاد، وأسباب العداوة والشحناء.**

والقرآن يعتبر العداوة والبغضاء عقوبة قدرية يعاقب الله بها مَن يكفرون برسالاته، وينحرفون عن آياته، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١٤﴾ [المائدة: ١٤].

ويتحدَّث القرآن عن الخمر والميسر وهما من الكبائر الموبقة في نظر الإسلام، فيجعل العِلَّة الأولى في تحريمها، الجديرة بالنص عليها، هي إيقاع العداوة والبغضاء في المجتمع، رغم ما لهما من مضارَّ ومساوئ أخرى لا تخفى، فيقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: ٩١].

وقد جاء في الحديث تسمية هذه الآفات: «داء الأمم».

كما أنَّ الحديث سمَّاها: الحالقة، حالقة الدين لا حالقة الشَّعر، وذلك لخطرها على الجماعة وتماسكها المادي والمعنوي. وفي هذا يقول عليه الصلاة والسلام:

«دبَّ إليكم داء الأمم منْ قبلكم: الحسد والبغضاء. والبغضاء هي الحالقة، لا أقول: تحلق الشَّعر، ولكن تحلق الدين»(١).

«ألا أدلُّكم على أفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة؟ إصلاح ذات البَيْن، فإن فساد ذات البَيْن هي الحالقة»(٢).

---

(١) رواه أحمد (١٤١٢) وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف لانقطاعه، والترمذي في صفة القيامة (٢٥١٠)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢١٢٢)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ٦١): حسن لغيره، عن الزبير بن العوام.

(٢) رواه أحمد (٢٧٥٠٨) وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين، وأبو داود في =

«تُفتح أبواب الجنة يوم الاثنين والخميس، فيُغفر لكل عبد لا يُشرِك بالله شيئًا، إلا رجل كان بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: أنظروا هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا»(1).

«لا يحلُّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث: يلتقيان، فيُعرض هذا، ويُعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام»(2).

«ثلاثة لا ترتفع صلاتهم فوق رؤوسهم شِبرًا: رجل أمَّ قومًا وهم له كارهون، وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط، وأخَوان متصارمان»(3). أي متقاطعان.

إنَّ جوَّ البغضاء والشحناء جو عفن كريه، تروج فيه كل بضائع الشيطان، من سوء الظن والتَّجسس، والغيبة والنميمة، وقول الزور، والسب واللعن، وقد ينتهي إلى أن يقاتل الأخوة بعضهم بعضًا. وهذا هو الخطر، الذي حذَّر منه النبي الكريم ﷺ، واعتبره من أثر الجاهليَّة، وقال: «لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض»(4).

«سِباب المسلم فسوقٌ، وقتاله كفر»(5).

إصلاح ذات البين:

لهذا كان إصلاح ذات البَيْن من أفضل الأعمال والقربات إلى الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات: ١٠].

= الأدب (٤٩١٩)، والترمذي في صفة القيامة (٢٥٠٩) وقال: حديث صحيح، وصحَّحه الألباني في غاية المرام (٤١٤)، وابن حبان في الصلح (٥٠٩٢)، عن أبي الدرداء.

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٥)، وأحمد (٧٦٣٩)، وأبو داود في الأدب (٤٩١٦)، والترمذي في البر والصلة (٢٠٢٣)، عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الاستئذان (٦٢٣٧)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٦٠)، عن أبي أيوب.

(٣) رواه ابن ماجه في إقامة الصلاة (٩٧١)، قال البوصيري في مصباح الزجاجة (١/ ١١٩): إسناده صحيح ورجاله ثقات، وابن حبان الصلاة (١٧٥٧)، وقال الأرناؤوط: إسناده حسن، والطبراني (١١/ ٤٤٩)، وضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه (٢٠٦)، عن ابن عباس.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (١٢١)، ومسلم في الإيمان (٦٥)، عن جرير.

(٥) متفق عليه: رواه البخاري (٤٨)، ومسلم (٦٤)، كلاهما في الإيمان، عن ابن مسعود.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١﴾ [الأنفال: ١].

﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ١١٤﴾ [النساء: ١١٤].

بل جعلت الشريعة سهمًا من حصيلة الزكاة للغارمين في إصلاح ذات البَيْن، إعانة لهم على القيام بهذه المكرمات، التي كان يقوم بها أصحاب القلوب الكبيرة والهمم العالية، فيتحملون ما بين القبائل المتخاصمة من ديات ومغارم، وإن ضاقت بذلك أموالهم.

ولأهمية إصلاح ذات البَيْن، رخَّص النبي ﷺ لمَن يقوم بالإصلاح ألا يلتزم الصدق الكامل في وصف موقف كل طرف من الآخر، فنقل بعض العبارات كما قيلت، قد يؤجج نار الخصومة ولا يطفئها، فلا بأس بشيء من التزيين، وشيء من المعاريض، وفي هذا جاء الحديث الصحيح: «ليس بكذَّاب مَن أصلح بين اثنين فقال خيرًا أو أنمى خيرًا»[1].

أن تحب لأخيك ما تحبه لنفسك:

وأعلى من هذه الدرجة - درجة سلامة الصدور من الأحقاد والبغضاء - الدرجة التي عبَّر عنها الحديث الصحيح الذي يقول: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[2].

وفي لفظ: «والذي نفسي بيده لا يؤمن عبد حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير»[3].

ومقتضى ذلك: أن يكره له ما يكره لنفسه.

فإذا كان يحب لنفسه رَغَد العيش، أحبَّ ذلك لسائر الناس.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الصلح (٢٦٩٢)، ومسلم في البر والصلة (٢٦٠٥)، عن أم كلثوم بنت عقبة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥)، كلاهما في الإيمان، عن أنس.

(٣) رواه أحمد (١٣٦٢٩) وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، والنسائي في الإيمان (٥٠١٧)، عن أنس.

وإذا كان يحب أن يوفق في حياته الزوجيَّة، أحبَّ للناس أن يكونوا سعداء موفقين.

وإذا كان يحب أن يكون أولاده نجباء، أحبَّ ذلك لغيره.

وإذا كان لا يحب أن يذكره أحد بسوء في حضرته أو غَيْبته، كان موجب الإيمان ألا يحب ذلك للناس أجمعين.

فهو ينزل إخوانه منزلة نفسه في كل ما يحبُّ ويكره.

درجة الإيثار:

وثمَّت درجة أعلى من هذه وتلك: هي درجة الإيثار.

ومعنى الإيثار: أن يقدِّم أخاه على نفسه في كل ما يحب، فهو يجوع ليشبع أخوه، ويظمأ ليرتوي، ويسهر لينام، ويجهد ليرتاح، ويُعرِّض صدره للرصاص ليفدي أخاه.

وقد عرض لنا القرآن صورة وضيئة للمجتمع المسلم في المدينة، يتجلَّى فيها معنى الإيثار والبذل، من غير شحٍّ ولا بُخل. يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر: ٩].

وفي السُّنَّة نجد صورة أخرى تتمثَّل فيما رواه البخاري، أن سعد بن الربيع عرض على عبد الرحمن بن عوف ـ وقد آخى النبي ﷺ بينهما ـ أن يتنازل عن شطر ماله، وعن إحدى داريه، وإحدى زوجتيه، يطلقها ليتزوجها هو. فقال ابن عوف لسعد: بارك الله لك في أهلك، وبارك الله لك في دارك، وبارك الله لك في مالك، إنما أنا امرؤ تاجر، فدلوني على السوق[1]!

إيثار نادر قلَّ أن تعرف الدنيا له نظيرًا، يقابله تعفف كريم نبيل، وكلاهما يعطينا ملمحًا من ملامح المجتمع المسلم الذي أقامه الرسول الكريم ﷺ في المدينة، والذي نرنو إلى مثله دائمًا، باعتباره مثلًا أعلى للمجتمعات.

---

(١) رواه البخاري في البيوع (٢٠٤٩)، عن أنس.

سيادة المحبة والأخوة بين الناس:

والإسلام يحرص كل الحرص على أن تسود المحبة والأخوة بين الناس جميعًا: بين الشعوب بعضها وبعض، لا يفرِّق بينهما اختلاف عنصر أو لون أو لغة أو إقليم.

وبين الطبقات بعضها وبعض، فلا مجال لصراع أو حقد، وإن تفاوتوا في الثروة والمنزلة، وفضل الله بعضهم على بعض في الرزق.

وبين الحكام والمحكومين، فلا محل لاستعلاء حاكم على محكوم، فإن الحاكم هو وكيل الأمَّة؛ بل أجيرها، ولا لبغض محكوم لحاكم ما دام يأخذ حقه، كما يؤدي واجبه، وفي الحديث: «خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلُّون عليهم، ويصلُّون عليكم»[1]. أي: تدعون لهم، ويدعون لكم، فالصلاة هنا بمعناها اللغوي وهو الدعاء.

ربط النظريَّة بالتطبيق:

والإسلام لا يحب أن تكون دعوته مُجرَّد فكرة في الرؤوس، أو حلمًا في أخيلة المصلحين، بل يجب أن يربط الفكرة بالعمل، والنظرية بالتطبيق؛ لهذا دعا إلى مجموعة من الشعائر والآداب والتقاليد من شأنها أن توثق روابط المحبة بين الناس، إذا عملوا بها، وحافظوا عليها.

من ذلك: **إفشاء السلام** كلما لقي بعضهم بعضًا، وهذا ما نبَّه عليه الحديث الصحيح: «والذي نفسي بيده، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا. ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»[2].

ومن ذلك: **مجاملة الناس بعضهم لبعض،** في التهنئة عند النعمة، والتعزية عند المصيبة، وعيادة المريض، وتشميت العاطس.

ومن ذلك: **التهادي بين الناس في المناسبات الطيِّبة**. وفي الحديث: «تهادوا تحابُّوا»[3].

---

(١) رواه مسلم في الإمارة (١٨٥٥)، وأحمد (٢٣٩٨١)، عن عوف بن مالك.

(٢) رواه مسلم في الإيمان (٥٤)، وأحمد (٩٧٠٩)، وأبو داود في الأدب (٥١٩٣)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد (٥٩٤)، وأبو يعلى (٦١٤٨)، وحسَّن إسناده ابن حجر في بلوغ المرام (٩٤٢)، وحسَّنه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٤٦٣)، عن أبي هريرة.

ومن ذلك: **التلاقي**، الذي به تتعارف الوجوه، وتتصافح الأيدي، وهذا ما شرعه الإسلام بصلاة الجماعة والجمعة والعيدين.

التحذير من قطع أواصر المحبة والمودة بين الناس:

كما حرَّم الإسلام كل الرذائل الخُلُقية والاجتماعية التي تفضي إلى تقطع أواصر المحبة والمَودَّة بين الناس، ولهذا رأينا القرآن الكريم بعد أن قرَّر أن المؤمنين إخوة: أتبع ذلك بالنهي عن مجموعة من الرذائل التي تنافي الأخوة، وتُعمل في بنيانها هدمًا؛ مثل السخرية واللمْز والتنابز بالألقاب، والتَّجسس على الناس، وتتبُّع عوراتهم، وسوء الظن بهم، والحديث عنهم بسوء في غَيْبتهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات: ١١ ـ ١٢].

الوحدة من لوازم الإخاء:

ومن لوازم الأخوة ومظاهرها: الوحدة. وممَّا يضادها وينقضها: الفُرقة.

فالمجتمع المسلم المتآخي مجتمع واحد في عقائده الإيمانيَّة، وفي شعائره التعبديَّة، وفي مفاهيمه الفكريَّة، وفي فضائله الأخلاقيَّة، وفي اتجاهاته النفسيَّة، وآدابه السلوكيَّة، وفي تقاليده الاجتماعيَّة، وفي قيمه الإنسانيَّة، وفي أسسه التشريعيَّة. واحد في أهدافه التي تصل الأرض بالسماء، والدنيا بالآخرة، والخلق بالخالق، وفي أسس مناهجه التي تجمع بين المثالية والواقعية، وتوازن بين الثبات والتطور، وبين استلهام التراث والاستفادة من العصر.

واحد في مصادره التي يستمد منها هدايته، وهي القرآن الكريم والسُّنَّة المطهرة، وفي المَثَل الأعلى الذي يستمدُّ منه الأسوة الحسنة، وهو الرسول الأعظم ﷺ.

فهو مجتمع يؤمن بربٍّ واحد، وكتابٍ واحد، ورسولٍ واحد، ويتَّجه إلى قِبْلة واحدة بشعائر واحدة، ويحتكم في كل أموره إلى شريعة واحدة. وولاؤه

حيث كان ولاء واحد، لله ولرسوله ولأمة الإسلام. في الله يحب، وفيه يبغض، وفيه يصل، وفيه يقطع: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

لا ينبغي أن يفرق هذا المجتمع ما يفرق المجتمعات الأخرى من العصبية للجنس أو اللون، أو الوطن أو اللغة، أو الطبقة أو المذهب، أو غير ذلك مما يمزق الجماعات.

فالأخوة الإسلامية فوق كل العصبيات أيًا كان اسمها ونوعها.

التحذير من دسائس غير المسلمين:

والقرآن يحذِّر من دسائس غير المسلمين الذي يكيدون لهم ليفرقوا كلمتهم، ويمزقوا وحدتهم، كما فعل ذلك اليهود في الإيقاع بين الأوس والخزرج بعد أن جمعهم الله على الإسلام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۗ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [آل عمران: ١٠٠ ـ ١٠١]. إلى أن قال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وفي هذا السياق حذَّر من التفرُّق والاختلاف فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وبين آية الأمر بالاعتصام بحبل الله وآية التحذير من التفرق والاختلاف، ذكرت آية تكليف الأمَّة بالدعوة والأمر والنهي: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وهذا يدلنا على أنَّ الذي يوحد الأمَّة ويجمع شتاتها: وجود منهج موحد تعتصم به وترجع إليه، وهو هنا حبل الله: الإسلام والقرآن، ووجود رسالة

مشتركة تشتغل بها، وتجعلها أكبر همها، وهي هنا الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أما إذا قعدت الأمَّة عن الرسالة، أو فقدت المنهج، فإن السبل ستتفرق بها عن يمين وشمال، والشياطين ستتجاذبها من شرق وغرب، وهو ما حذر منه القرآن بقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣].

التنوع في إطار الوحدة الجامعة:

والوحدة المفروضة في الأمَّة المسلمة لا تعارض التنوع الذي يقتضيه اختلاف البيئات والأعراف بتأثير الحضارات المختلفة، والمواريث الثقافية المتعددة. فهو تنوع في إطار الوحدة الجامعة، وهو أشبه بتنوع المواهب والميول والأفكار والتخصصات، داخل الأسرة الواحدة، أو تنوع الأزهار والثمار داخل الحديقة الواحدة: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤].

ومن أهم ما جاء به الإسلام هنا: شرعيَّة تعدُّد الاجتهادات في إطار القواعد الكليَّة والنصوص القطعيَّة المتَّفق عليها، فلا يجوز أن ينكر مجتهد على مجتهد، وإن اختلف معه في المشرب، ولكلٍّ وجهته، ولكلٍّ أجره، أصاب أم أخطأ، ما دام من أهل الاجتهاد، واختلاف الآراء لا يجوز أن يكون سبب تفرق أو عداوة، فقد اختلف الصحابة وتابعوهم بإحسان في قضايا كثيرة، ولم يؤدهم ذلك إلى التفرق، بل وَسِع بعضهم بعضًا، وصلَّى بعضهم وراء بعض.

ومما يُضيِّق الخلاف أن أمر الإمام أو حُكْم الحاكم في المسائل الخلافية يرفع الخلاف، ويحسم النزاع من الناحية العملية.

التعاون والتناصر والتراحم:

ومن لوازم الإخاء في الإسلام: التعاون والتراحم والتناصر، إذ ما قيمة الأخوَّة إذا لم تعاون أخاك عند الحاجة، وتنصره عند الشدة، وترحمه عند الضعف؟

لقد صوَّر الرسول الكريم ﷺ مبلغ التعاون والترابط بين أبناء المجتمع

المسلم بعضه وبعض هذا التصوير البليغ المعبِّر حين قال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضًا». وشبَّك بين أصابعه[1]. فاللبنة وحدها ضعيفة مهما تكن متانتها، وآلاف اللبنات المبعثرة المتناثرة لا تصنع شيئًا، ولا تكوِّن بناءً. إنما يتكون البناء القوي من اللبنات المتماسكة المتراصة في صفوف منتظمة، وفق قانون معلوم، عندئذ يتكون من اللبنات جدار متين، ومن مجموع الجُدُر بيتٌ مكين، يصعب أن تنال منه أيدي الهدَّامين.

كما صوَّر مبلغ تراحم المجتمع وتكامله، وتعاطف بعضه مع بعض بقوله: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر»[2].

فهو ترابط عضوي، لا يستغني فيه جزء عن آخر، ولا ينفصل عنه، ولا يحيا بدونه، فلا يستغني الجهاز التنفسي عن الجهاز الهضمي، أو كلاهما عن الجهاز الدموي أو العصبي، فكل جزء متمِّم للآخر، وبتعاون الأجزاء وتلاحمها يحيا الكل، ويستمر نماؤه وعطاؤه.

ويقول: «المسلمون تتكافأ دماؤهم، يسعى بذمتهم أدناهم، ويجير عليهم أقصاهم، وهم يد على مَن سواهم، يَرُدُّ مُشِدُّهم على مُضْعِفهم، ومُتَسَرِّيهم على قاعدهم»[3].

ويُدخِل في نُصرة المسلم للمسلم عنصرًا جديدًا حين يقول: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا». قيل: ننصره مظلومًا، فكيف ننصره ظالمًا، يا رسول الله؟ قال: «تأخذ فوق يديه، أو تمنعه من الظلم فذلك نصر له»[4].

والقرآن الكريم يوجب التعاون ويأمر به بشرط أن يكون تعاونًا على البر والتقوى، ويحرِّمه وينهى عنه إذا كان على الإثم والعدوان. يقول تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة: ٢].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الصلاة (٤٨١)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٥)، عن أبي موسى.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠١١)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٦)، عن النعمان بن بشير.

(٣) رواه أحمد (٦٧٩٧)، وقال: حديث صحيح، وأبو داود في الجهاد (٢٧٥١)، وابن الجارود في المنتقى (١٠٧٣)، وصحَّحه الألباني في إرواء الغليل (٢٢٠٨)، عن عبد الله بن عمرو.

(٤) رواه البخاري في كتاب الإكراه (٦٩٥٢)، وأحمد (١٣٠٧٩)، والترمذي الفتن (٢٢٥٥)، عن أنس.

ويجعل المؤمنين أولياء بعضهم على بعض، بمقتضى عقد الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١]. وهذا في مقابلة وصف مجتمع المنافقين بقوله: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ﴾ [التوبة: ٦٧].

كما وصف مجتمع الصحابة بأنهم: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ﴾ [الفتح: ٢٩]. فالتراحم سِمَة أولى من سِمَات المجتمع المسلم.

ومقتضى ذلك: أن يشدَّ القويُّ أزر الضعيف، وأن يأخذ الغنيُّ بيد الفقير، وأن ينير العالِم الطريق للجاهل، وأن يرحم الكبير الصغير، كما يوقِّر الصغيرُ الكبير، ويعرف الجاهلُ للعالِم حقَّه، وأن يقف الجميع صفًّا واحدًا، في الشدائد والمعارك العسكرية والسلمية، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [الصف: ٤].

وفي قصص القرآن صور حيَّة للتعاون المثمر البنَّاء.

من ذلك: صور التعاون بين موسى وأخيه هارون، وقد سأل الله أن يشد به أزره في قيامه برسالته: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [طه: ٢٩ ـ ٣٥].

وكان الجواب الإلهي: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾ [القصص: ٣٥]. وبهذا كان هارون يعاون أخاه موسى في حضرته، ويَخْلُفه على قومه في غَيْبته. ومن صور التعاون: ما قصَّه علينا القرآن من إقامة سد ذي القرنين العظيم، ليقف حاجزًا ضد هجمات يأجوج ومأجوج، المفسدين في الأرض. وكان ثمرة للتعاون بين الحاكم الصالح والشعب الخائف من بغي الأقوياء عليه: ﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ [الكهف: ٩٤ ـ ٩٧].

التكافل المادي والأدبي:

ومن مظاهر هذا التعاون والتراحم والتناصر: التكافل بين أبناء المجتمع

المسلم، وهو تكافل مادي ومعنوي، اقتصادي وسياسي، عسكري ومدني، اجتماعي وثقافي.

يبدأ هذا التكافل بين الأقارب بعضهم وبعض، كما يفصِّل ذلك نظام النفقات في شريعة الإسلام، فالقريب الموسر ينفق على قريبة المعسر، وفق شروط وأحكام مفصَّلة في الفقه الإسلامي، كما قال الله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥].

ثم تتسع دائرة هذا التكافل لتشمل الجيران وأبناء الحي الواحد في البلد الواحد، بمقتضى حق الجوار، الذي أكده الإسلام، وفي الحديث: «ليس بمؤمن مَن بات شبعان وجاره إلى جنبه جائع»[1].

ورُوي: «أيُما أهل عَرْصة بات فيهم امرؤ جائع، فقد برئت منهم ذمة الله وذمة رسوله»[2].

ثم تتسع أكثر وأكثر بحيث تشمل الإقليم عن طريق الزكاة، التي أمر الرسول ﷺ أن تؤخذ من أغنياء كل إقليم لتُرَد على فقرائه، فوضع بذلك أساس التوزيع المحلي، على عكس ما كان يُصنع في الحضارات السابقة على الإسلام، فقد كانت الضرائب تؤخذ من مزارعي ومحترفي الأقاليم النائية والقرى البعيدة، لتوزع في المدن الكبيرة، ولا سيما عاصمة الملك أو الإمبراطور.

ثم تزداد اتساعًا ليشمل التكافل المجتمع كله.

ومنذ فجر الدعوة إلى الإسلام في مكة، والمسلمون أفراد معدودون مضطهَدون، ليس لهم كيان ولا سلطان؛ كان القرآن يدعو بقوة إلى هذا التكافل بجعل المجتمع كالأسرة الواحدة، يصب الواجد فيه على المحروم، ويحمل فيه الغنيُّ الفقير.

---

(١) سبق تخريجه، ص١٢.

(٢) رواه أحمد (٤٨٨٠) وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف، وأبو يعلى (٥٧٤٦)، والحاكم في البيوع (٢/ ١١)، وذكره ضمن عدة أحاديث، وقال: هذه الأحاديث الستة طلبتها وخرجتها في موضعها من هذا الكتاب، احتسابًا لما فيه الناس من الضيق، والله يكشفها، وإن لم يكن من شرط هذا الكتاب. وقال الذهبي: عمرو بن الحصين العقيلي تركوه، وأصبغ بن زيد الجهني فيه لين. عن ابن عمر.
والعرصة: كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء. لسان العرب عرص.

ولم يجعل القرآن ذلك شيئًا من نوافل الدين، يقوم به مَن ترقَّى في درجات الإيمان والإحسان، ولا يطالَب به الشخص العادي من الناس.

بل اعتبره القرآن أمرًا أساسيًّا من دعائم الدين، لا يحظى برضا الله مَن لم يقم به، ولا ينجو من عذابه مَن فرَّط فيه.

اقرأ في السور المكيَّة مثل هذه الآيات: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾ [البلد: ١١ ـ ١٧].

وقوله تعالى في سورة أخرى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّـٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [المدثر: ٣٨ ـ ٤٤].

فجعل مصيرهم النار؛ لأنهم أضاعوا حق الله بإضاعة الصلاة، وأضاعوا حق عباده، إذ لم يطعموا المسكين.

وإطعام المسكين كناية عن رعاية ضروراته وحاجاته، إذ لا معنى لأن نطعم المسكين وندعه مشرَّدًا بلا مأوى، أو عُريانًا بلا كسوة، أو مريضًا بلا علاج.

ولم يكتفِ القرآن بإيجاب إطعام المسكين، بل زاد على ذلك، فأوجب الحض على إطعامه، والحث على رعايته، وجعل إهمال ذلك من دلائل الكفر والتكذيب بالدين: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾﴾ [الماعون: ١ ـ ٣].

ويجعل ذلك مع الكفر بالله من موجبات العذاب الأليم، واصطلاء الجحيم، فيقول في شأن أصحاب الشمال ممن أطغاه ماله وسلطانه، فلم يغنِ عنه من الله شيئًا: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾ [الحاقة: ٣٠ ـ ٣٢]. ثم يذكر أسباب هذا الحكم الشديد، فيقول: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾ [الحاقة: ٣٣ ـ ٣٤].

ويزيد على ذلك فيوجب في المال حقًّا معلومًا، ليس بصدقة تطوعيَّة، ولا بإحسان اختياريٍّ، مَنْ شاء أدَّاه، ومَنْ شاء تركه، بل (حق) ـ أي (دَيْن) ـ في

عنق المكَلَّفين، وحق معلوم غير مجهول، كما في قوله تعالى في وصف المتقين: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ١٩﴾ [الذاريات: ١٩].

وفي سورة أخرى يصف الحق بالمعلوميَّة فيقول: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ٢٥﴾ [المعارج: ٢٤ ـ ٢٥].

وفي الحديث عن الزروع والثمار، والجنات المعروشات وغير المعروشات، يقول سبحانه: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ﴾ [الأنعام: ١٤١].

وهذا الحق هو الزكاة، التي فرضت في مكة غير محددة ولا مفصَّلة.

كل هذا في القرآن المكي، فلما أصبح للمسلمين دولة وسلطان، حُدِّدت أنصبة الزكاة ومقاديرها بوضوح، وبعث السُّعاة ليجمعوها من أهلها، ويصرفوها في محلها. وهم الذين سمَّاهم القرآن: (العاملين عليها)، وجعل لهم نصيبًا من حصيلة الزكاة نفسها، ضمانًا لحُسْن تحصيلها وتوزيعها.

ووصل الإسلام بهذه الفريضة الماليَّة إلى أعلى درجات الإلزام الخُلُقي والتشريعي، فجعلها ثالث أركان الإسلام، وأوجب أخذها كرهًا إن لم تُدفع طوعًا، ولم يتردد في قتال مَن منعوها، إذا كانوا ذوي شوكة وقوة.

وهذا التكافل المادي أو المعيشي ليس هو كل ما طلبه الإسلام في هذا المجال، بل هناك أنواع أخرى من التكافل، ذكرها العلامة الفقيه الداعية الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله وجعلها بالتكافل المعيشي عشرة كاملة[1]، فشملت: التكافل الأدبي، والعلمي، والسياسي، والدفاعي، والجنائي، والأخلاقي، والاقتصادي، والعبادي، والحضاري، والمعاشي، الذي اختُصَّ اليوم باسم (التكافل الاجتماعي).

أخوة لكل الفئات بلا طبقيَّة:

الأخوة في الإسلام تشمل كل فئات المجتمع، فليس هناك فئة من الناس أعلى من أن تؤاخي الآخرين، ولا فئة أهون من أن يؤاخيها الآخرون، لا يجوز أن يكون المال أو المنصب أو النَّسب، أو أي وضع اجتماعي أو مادي أو غير مادي؛ سببًا لاستعلاء بعض الناس على بعض.

---

(١) تراجع في كتابه اشتراكية الإسلام ص١١٢ ـ ١١٦.

فالحاكم أخو المحكوم، والراعي أخ لرعيته، وفي الحديث: «خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلُّون عليهم، ويصلون عليكم ـ أي تدعون لهم، ويدعون لكم ـ وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم»[(1)].

والسيد أخٌ لعبده، وإن أوجبت ظروف خاصة أن يكون تحت يده، وفي الصحيح: «إخوانكم خولكم ـ أي خدمكم ـ جعلهم الله تحت أيديكم، فمَن كان أخوه تحت يده، فليطعمه مما يأكل، ويلبسه مما يلبس، ولا تكلِّفوهم من العمل ما لا يطيقون، فإن كلفتموهم فأعينوهم»[(2)].

والأغنياء والفقراء، والعمال وأرباب العمل، والملاك والمستأجرون، كلهم أخوة بعضهم لبعض، فلا مجال ـ في ضوء تعاليم الإسلام ـ لصراع اجتماعي، أو حقد طبقي.

بل لا يوجد في المجتمع الإسلامي طبقات، كما عُرِف ذلك في المجتمع الغربي في العصور الوسطى، الذي عرف طبقات النبلاء والفرسان، ورجال الدين وغيرهم، وكانت هذه الطبقية تُتَوارث، بحكم القيم والتقاليد والقوانين السائدة.

وما زال بعض الأمم إلى اليوم يتوارث الطبقية بحكم عقائده وأعرافه وأنظمته، كما في الهند.

يوجد في الإسلام (أغنياء)، ولكنهم لا يكوِّنون طبقة تتوارث الغنى، بل هم أفراد يجري عليهم ما يجري على غيرهم، فالغني قد يفتقر، كما أن الفقير قد يغتني: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥﴾ [الشرح: ٥].

ويوجد في الإسلام (علماء دين)، ولكنهم لا يكوِّنون طبقة تتوارث هذه المهنة، بل هي وظيفة مفتوحة لكل مَن حصَّل مؤهلاتها من العلم والدراسة، وهي على كل حال ليست وظيفة كهنوتيَّة، كوظائف القسس ورجال الدين في الأديان الأخرى، إنما هي وظيفة تعليم ودعوة وإفتاء. فهم (علماء) لا (كهنة)!

وإذا كان الله تعالى يخاطب رسوله ﷺ بقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١﴾

---

(١) سبق تخريجه، ص٥٨٠.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الإيمان (٣٠)، ومسلم في الأيمان (١٦٦١)، عن أبي ذر.

﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ۝٢٢﴾ [الغاشية: ٢١ ـ ٢٢]. ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ۝٤٥﴾ [ق: ٤٥]. فكيف بورثته من العلماء؟ إنهم لن يكونوا ـ قطعًا ـ مسيطرين، ولا جبَّارين على الناس. إنَّما هم مُعلِّمون ومُذكِّرون.

(٣)
أخلاق الأمَّة

بعد أخلاق الأسرة والمجتمع، توجد (أخلاق الأمَّة). فنحن نريد بالمجتمع: الجماعات التي يوجد فيها الإنسان، وهي في الغالب مجتمعات تصغر وتكبر، حتى يمكن لبعضها أن يصل إلى مئات الملايين، ولكنه لا يمثل الأمَّة الكبرى: أمَّة الإسلام، أو أمَّة محمد عليه الصلاة والسلام.

يمكن أن يشمل المجتمع المصريين في قطرهم وشعبهم، أو السودانيين، أو العراقيين، أو الأتراك، أو الباكستانيين، أو البنجلاديشيين، أو الهنود بصفة عامة، وكل هذه مجتمعات إسلامية، ليست مجتمعات فردية، ولا مجتمعات أسرية، ولكنها لا تمثل مجتمع الأمَّة.

لقد عُنِيَ الإسلام بالمجتمع الكبير أو الأكبر، وهو الأمَّة، عنايته بالمجتمعات الصغيرة، وعُني الإسلام بالمجتمع الصغير عنايته بالفرد، فكلٌّ منهما يتأثَّر بالآخر ويؤثِّر فيه. وهل المجتمع إلا مجموعة من الأفراد ربطت بينهم روابط معيَّنة؟ فكان صلاح الفرد لازمًا لصلاح المجتمع، وصلاح المجتمع مطلوب لصلاح الأمَّة، فالفرد أشبه باللبِنة في البنيان، ولا صلاح للبنيان إذا كانت لَبِناته ضعيفة. ولا بدَّ لهذا البناء أن يكون له سقف يحميه، ويشدُّ أزْرَه، وذلك هو الدولة.

كما لا صلاح للفرد إلا في مجتمع يساعده على النمو السليم، والتكيُّف الصحيح، والسلوك القويم. وذلك بأن تقوم على رأس المجتمع دولة تنفذ تشريعاته وتوجيهاته، وتحرس عقائده وشعائره، فالمجتمع هو التربة التي تنبت فيها بذرة الفرد، والجماعة، وتنمو وتترعرع في مناخها، والانتفاع بسمائها وهوائها وشمسها. وما كانت الهجرة النبويَّة إلى المدينة، إلا سعيًا إلى مجتمع

مستقلٌ، تتجسَّد فيه عقائد الإسلام وقِيَمه، وشعائره وشرائعه، وتقوم عليه الدولة التي يرأسها النبي ﷺ.

وقد لمسنا في عصرنا محنة الفرد المسلم في المجتمعات التي لا تلتزم بالإسلام منهاجًا لحياتها، ناهيك بالمجتمعات التي تعادي شريعته، وتطارد دعوته، وكيف يعيش هذا الفرد في توتُّر وقلق وحَيْرة، نتيجة لما يحسُّ به من تناقض صارخ، بين ما يؤمن به من أوامر دينه ونواهيه من جهة، وما يُعايشه ويضغط عليه من أفكار المجتمع ومشاعره وتقاليده وأنظمته وقوانينه، التي يراها مخالفة لتوجيهات عقيدته، وأحكام شريعته، ودوافع أخلاقه، وروائع آدابه، ومواريث ثقافته، من جهة أخرى.

والإسلام لا يتصوَّر الإنسان وحده، إنما يتصوَّره في مجتمع، ولهذا توجَّهت التكاليف إليه بصيغة الجماعة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، ولم يجئ في القرآن: (يا أيها المؤمن). وذلك أن تكاليف الإسلام تحتاج إلى التكاتف والتضامن في حملها والقيام بأعبائها، يستوي في ذلك العبادات والمعاملات، والأحكام والأخلاق.

فإذا نظرنا إلى فريضة كالصلاة، وجدنا أنها لا يمكن أن تقام كما يريد الإسلام، إلا بمسجد يتعاون الجميع على بنائه، ومؤذن يُعْلم الناس بمواقيت الصلاة، وإمام يؤمُّهم، وخطيب يخطبهم، ومعلِّم يعلِّمهم، وهذا كلُّه لا يقوم به الفرد، وإنما ينظِّمه المجتمع، ويضع كل ما تحتاج إليه الصلاة في موضعه، ويداوم على رقابته، وتحسينه وتطويره.

وقد جعل القرآن أول أعمال الدولة المسلمة إذا مُكِّن لها في الأرض: أن تقيم الصلاة، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [الحج: ٤١].

ومثل ذلك يقال في فريضة الصوم، وضرورة ترتيب أمور الحياة في رمضان ترتيبًا يُعين على الصيام والقيام والسحور وغيرها.

ومن باب أولى: الزكاة، فالأصل فيها أنها تنظيم اجتماعيٌّ تُشرف عليه الدولة، بواسطة (العاملين عليها)، الذين نصَّ عليهم القرآن. ولذلك قال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

وكذلك كل شعائر الإسلام وأركانه، وآخرها الحج، الذي ينتقل الناس فيه

من بلادهم إلى الأرض المقدَّسة التي يقام فيها الحج، وهي مكة المكرمة، وأن ينظم البلد الذي قيام يُقام فيه الحج أمور الحج، وما يتطلبه من إعداد للطرق وللمرور وللزحام، للضعاف من الناس، ولا بدَّ من تنظيم الحجاج وتحديد أعدادهم في كل سنة بحسب أعداد المسلمين، ولا بدَّ من تنظيم الطواف والسعي والرمي والوقوف بالمشعر الحرام، وغيرها من الأمور التي تنوء بها الجبال، وتنشغل بها عشرات الألوف من الناس في الحجاز؛ مكة والمدينة وما قِبَلهما، وما يجب على العلماء من التيسير وحسن التفقيه للناس.

أما الأخلاق والمعاملات فلا يُتصوَّر أن تقوم ـ كما ينشدها الإسلام ـ إلا في ظلال مجتمع ملتزم بالإسلام، يتعبَّد لله بإقامة حياته على أساس الإسلام.

والمجتمع المسلم مجتمع متميِّز عن سائر المجتمعات، بمكوِّناته وخصائصه، فهو مجتمع ربَّانيٌّ، إنسانيٌّ، أخلاقيٌّ، متوازن. والمسلمون مُطالَبون بإقامة هذا المجتمع، حتى يمكِّنوا فيه لدينهم، ويجسِّدوا فيه شخصيَّتهم، ويحيَوْا في ظلِّه حياة إسلامية متكاملة: حياة توجِّهها العقيدة الإسلامية، وتزكِّيها العبادات الإسلامية، وتقودها المفاهيم الإسلامية، وتحرِّكها المشاعر الإسلامية، وتضبطها الأخلاق الإسلامية، وتجمِّلها الآداب الإسلامية، وتهيمن عليها القيم الإسلامية، وتحكمها التشريعات الإسلامية، وتوجِّه اقتصادها وفنونها وسياستها التعاليمُ الإسلامية.

فليس المجتمع المسلم، كما يتصوَّره أو يصوِّره الكثيرون هو فقط الذي يطبِّق الشريعة الإسلامية في جانبها القانوني، وخصوصًا جانب الحدود والعقوبات، فهذا تصوُّر وتصوير قاصر، بل ظالم لهذا المجتمع، واختصار لكلِّ مقوِّماته المتعدِّدة في مقوِّم واحد: هو التشريع. وفي جانب واحد من التشريع: هو التشريع الجزائي، أو الجنائي.

لهذا كان من المهم هنا: إلقاء الضوء على المُكوِّنات أو الملامح الأساسيَّة لهذا المجتمع الذي ننشده، والذي قامت حركات وجماعات إسلامية في شتَّى أنحاء العالم العربي والإسلامي تدعو إليه، ليحلَّ محل المجتمعات الحاضرة، التي اختلط فيها الإسلام بالجاهليَّة، سواء أكانت جاهلية وافدة، مما غزانا به الاستعمار الغربي بشقيِّه: الرأسمالي والاشتراكي، أم جاهليَّة موروثة، من رواسب عصور التخلُّف، التي ساء فيها فَهم المسلمين لدينهم، كما ساء تطبيقهم له، حكَّامًا ومحكومين.

مجتمع الأمَّة الذي نريده يعلو فوق المجتمعات كلها: يعلو على الأجناس من عرب وأتراك، وهنود وفرس وماليزيين وإندونيسيين وأفغانيين وغيرهم، ويعلو على الألوان من بيض وسود وملونين، ويعلو على الجغرافيا من آسيويين وإفريقيين وأوروبيين وغيرهم.

إنما نريد بالأمَّة: الأمَّة التي تنتمي إلى الإسلام والقرآن، وإلى الرسول عليه الصلاة والسلام. وهي لا شك أمة واحدة، تحكم وحدة العقيدة، ووحدة الشريعة، ووحدة الأخلاق والآداب، ووحدة الدار، لهم جميعًا في (دار الإسلام) ووحدة العبادة، فالأصل أنهم جميعًا كانوا يبايعون خليفة واحدًا، يقودهم جميعًا باسم الإسلام الذي يحكم بالقرآن والسنة.

ومن أجل هذا كرَّر القرآن الكريم أنَّ هذه الأمَّة أمة واحدة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء: ٩٢]. وقال: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ [المؤمنون: ٥٢]. وكأنما يشير القرآن إلى أمة العبادة والتقوى، اللتين أمر الله بهما في الآيتين لا تتمان ولا تصحَّان كلتاهما إلا بالوحدة أو بالاتحاد بين أبناء الأمَّة.

خطأ التعبير بالأمم الإسلامية:

وممَّا ننبِّه عليه دائمًا الكتاب والعلماء والمفكِّرين الإسلاميين: ألا يقولوا تعبير: (الأمم الإسلامية)، فقد تعوَّد بعض الكتاب أن يقول ذلك عن الأمَّة الإسلاميَّة، وكان يتصور أن أمة تصل اليوم إلى أكثر من مليار وثلثي المليار من البشر، لا يمكن أن تكون أمة واحدة، مع أننا رأينا أمة واحدة من نحو مليار وثلث من الناس في بلد واحد، وهو الصين.

ولقد رأينا من الناس الكبار في نظر المسلمين، مثل علامة دار العلوم الشيخ محمد الخضري، الذي كان علامة في الفقه وفي الأصول وفي التاريخ، وقد كتب في أصول الفقه، وفي تاريخ التشريع، وله اتجاهات تجديديَّة لا شك فيها، ولكنه كتب في التاريخ الإسلامي كتابه **(تاريخ الأمم الإسلامية)**!! وهذا ما ننبِّه عليه، حتى لا يتكرر الخطأ، الذي وقع دون تفكير في العنوان أو المصطلح، ولو نبَّهه عليه أي باحث لتنبَّه إليه، وصحَّح عبارته بما هو أنسب وأليق، وليس في العلم كبير، وكلُّ أحد يؤخذ منه ويرد عليه.

وكل ما طلبناه في أخلاق المجتمع الصغير، مطلوب هنا في المجتمع

الكبير، أقول: المجتمع الأكبر، مجتمع الأمَّة؛ لأن الأمَّة ما هي إلا مجتمع، ولكنه أكبر وأعلى من المجتمعات المحلية والإقليمية الصغيرة.

خصائص الأمة الإسلامية:

ومن خصائص الأمَّة: أنها أمة (مجعولة) أي: مصنوعة، ومن الذي صنعها؟ إنه الله، فهو الذي أخبرنا أنه جعل هذه الأمَّة وأخرج هذه الأمَّة.

أما جعلُها ففي قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. فالله هو الذي جعل هذه الأمَّة وصنعها لتكوين المثال الوسطي العملي للناس، فالناس عادة لا يكتفون بالكلام النظري، بل يحتاجون إلى أن يخرجوا من التجريد والتنظير إلى العمل والتطبيق.

وأراد الله للأمة: أن تكون وسطًا في كل أمورها العقديَّة والتشريعيَّة والأخلاقيَّة والتنفيذية، لا تنحرف إلى اليمين، ولا إلى اليسار، بل في (المركز الأوسط) الذي تلتقى عنده كل الجهات.

ولهذا رفضنا تيار أهل الغلو في الإسلام، كما رفضنا تيار أهل الجفاء في الإسلام، ولم نقبل الطغيان في الميزان، ولا الإخسار في الميزان، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩﴾ [الرحمن: ٧ ـ ٩].

الذي جعل هذه الأمَّة أمَّة وسطًا، تكون مضرب المثل للناس في صيغتها الاعتدالية في كل شيء، هو الذي أخرجها للناس أيضًا، فقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

في الآية الكريمة بيَّن الله تعالى أن هذه الأمَّة خير أمة أخرجت للناس، فمن الذي أخرجها للناس؟ لا ريب أن الذي جعلها أمة وسطًا، هو الذي أخرجها، وهو لم يخرجها لنفسها فقط، ولكنه أخرجها للناس: أي: لنفع الناس، وهداية الناس، وتنوير الناس، وإسعاد الناس.

وكلمة (الناس) تعني: البشر جميعًا، لا تعني شعبًا من الشعوب، ولا جنسًا من الأجناس، ولا سكان مكان معين من الأرض، ولو كان قارة من القارات.

فالذي أخرج هذه الأمَّة للناس هو الله ربُّ العالمين، ولماذا أخرجها للناس؟

بيَّن القرآن أنه أخرجها للناس، لما تميَّزت به من حمل الرسالة العالميَّة، التي بعث الله بها حامل هذا الدين، محمد بن عبد الله، فهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويؤمنون بالله. وصفهم الله بوصفين أساسيين:

الأول: يتعلق برسالتهم، فهي رسالة دعوة وأمر ونهي، كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤].

والوصف الثاني، هو: الإيمان بالله، وإنما أخَّره ليُظهر الوصف الآخر (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، وإن كان هذا الوصف (الإيمان بالله) هو الوصف الأصلي الذي لولاه لم يكن للأمة وجود ولا ميلاد.

ومع هذا فإن تقديم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيه دلالة على أنه سياج لحفظ إيمان الأمة وعقيدتها وثوابتها.

(٤)
أخلاق الدولة

يقوم المجتمع المسلم المنشود، والدولة المسلمة على أخلاق وفضائل تؤمن بها الأُمَّة المسلمة بدينها وشريعتها، فهي جزء منها، باعتبارها أوامر ونواهيَ، صادرة إليها من ربها سبحانه، فهي دولة أخلاقية.

تقوم الدولة المسلمة عليها ويقوم عليه ذلك المجتمع من آداب وتقاليد خاصة تجعله نسيجَ وحدِه، غير مقلِّد لغيره، ممن بَعُد عنه زمانًا، أو بَعُد عنه مكانًا.

كما يقوم المجتمع والأمَّة على ذلك كله، يقومان كذلك على القيم الإنسانيَّة والأخلاق الرفيعة، التي تتطلع إليها البَشرية الراقية.

وأعني بالقيم والأخلاق الإنسانيَّة تلك التي تقوم على احترام كرامة الإنسان وحريته وحرماته، وحقوقه، وصيانة دمه وعرضه، وماله وعقله ونسله، بوصفه إنسانًا، وعضوًا في مجتمع.

ونركز هنا على مجموعة من القيم الأساسية وهي: **العلم، والعمل، والحرية، والشورى، والأمانة، والعدل.**

١ ـ العلم:

العلم قيمة من القيم العليا، وهو كذلك خلق أصيل من الأخلاق الإسلامية، التي يتحلى بها المسلمون، ويتزكون بها، ويفتخرون بها، والتي جاء بها الإسلام، وأقام عليها حياة الإنسان الدينية والأخلاقيَّة، المعنوية والمادية، الأخرويَّة والدنيويَّة، وجعله طريق الإيمان وداعي العمل، وجعل الإنسان هو

المُرشَّح الأول للخلافة في الأرض، وبه فُضِّل آدم أبو البَشر على الملائكة، الذين تطلَّعوا إلى منصب الخلافة؛ لأنهم أعبد لله من الذين توقعوا منهم أن يفسدوا في الأرض ويسفكوا الدماء، فقال تعالى ردًّا عليهم: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٣٠ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٣١ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣٢ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ۝٣٣﴾ [البقرة: ٣٠ ـ ٣٣].

إنَّ الإسلام هو دين العلم، والقرآن كتاب العلم، وأول ما نزل منه على الرسول الكريم ﷺ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ [العلق: ١ ـ ٥]. والقراءة هي باب العلم، ومفتاح العلم.

والقرآن: ﴿كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣﴾ [فصلت: ٣]. والله تعالى يقول عن القرآن: ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

والقرآن يجعل العلم أساس التفاضل بين الناس: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾ [الزمر: ٩]. كما يجعل أهل العلم هم الشهداء لله تعالى بالتوحيد، مع الملائكة: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ [آل عمران: ١٨].

وأهل العلم كذلك هم المؤهَّلون لخشية الله تعالى وتقواه ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: ٢٨]. فلا يخشى الله إلا مَنْ عَرَفه، وإنما يُعرف الله بآثار قدرته ورحمته في خلقه، ولهذا جاءت هذه الجملة في سياق الحديث عن آيات الله تعالى في الكون: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ(١) وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ(٢) ۝٢٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ(٣) إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: ٢٧ ـ ٢٨].

---

(١) فيه إشارة إلى علم النبات والزراعة.

(٢) فيه إشارة إلى علم الجيولوجيا.

(٣) فيه إشارة إلى سائر علوم الحياة والإنسان وما يتعلق بهما.

والقرآن أعظم كتاب ينشئ (العقليَّة العلميَّة) التي تنبذ الخرافة، وتتمرَّد على التقليد الأعمى، للأجداد والآباء أو للسادة والكبراء، أو للعوام والدهماء، وترفض الظنون والأهواء في مقام البحث عن الحقائق والعقائد اليقينيَّة، ولا تقبل دعوى إلا ببرهان قاطع، من المشاهدة المؤكدة في الحسيَّات، ومن المنطق السليم في العقليات، ومن النقل الموثق في المرويات.

ويعتبر القرآن النظر فريضة، والتفكير عبادة، والبحث عن الحقيقة قُربة، واستخدام أدوات المعرفة شكرًا لنِعَم الله، وتعطيلها سبيلًا إلى جهنم.

اقرأ هذه الآيات في القرآن، وهي غيض من فيض:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة: ١٧٠].

﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب: ٦٧ ـ ٦٨].

﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأعراف: ٣٨].

﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾ [النجم: ٢٨].

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم: ٢٣].

﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [ص: ٢٦].

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: ٧٨].

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦].

﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأنعام: ١٤٣].

﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام: ١٤٨].

﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾﴾ [الأحقاف: ٤].

﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة: ١١١].

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١].

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ [سبأ: ٤٦].

وينوِّه القرآن في كثير من آياته بـ (أولي الألباب)، و(أولي النُّهى)، و(أولي الأبصار). والمراد بالبصر هنا: العقلي لا الحسي، ومنه قوله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر: ٢].

ويبيِّن أن في كتابه المسطور (القرآن)، وكتابه المنظور (الكون) آيات (لقوم يتفكرون)، و(لقوم يعقلون)، و(لقوم يعلمون).

وكم في القرآن من فواصل تنبِّه العقول الغافلة مثل: (أفلا تعقلون)؟ (أفلا تتفكرون)؟

وعلماء الإسلام متفقون على أنَّ طلب العلم فريضة على كلِّ مسلم ومسلمة - وهو ما رواه ابن ماجه وغيره: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[1] - وأن من العلم ما هو فرض عَيْن، ومنه ما هو فرض كفاية.

ففرض العَيْن: ما لا بدَّ للمسلم منه في فهم دينه عقيدةً وعبادةً وسلوكًا، وفي عمل دنياه، حتى يكفي نفسه وأسرته، ويُسهم في كفاية أمته.

وأرى أن مما هو مفروض اليوم فرض عين على المسلمين كافة: الخروج من سجن الأميَّة التي محيت في كثير من الأمم. وكان أولى الناس بمحوها أمة الإسلام.

وفرض الكفاية: كل ما به قوام الدين والدنيا للجماعة المسلمة، من علوم الدين وعلوم الدنيا.

---

(١) رواه ابن ماجه في المقدمة (٢٢٤)، وأبو يعلى (٢٨٣٧)، والطبراني في الأوسط (٩)، وصحَّحه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٨٣)، عن أنس.

ولهذا قرَّر علماء المسلمين أن تعلُّم الطب والهندسة وما سواهما من فروع العلم، كعلم الرياضيات والفيزياء والكيمياء، وعلوم الأرض، وعلوم الفلك، وعلوم البحار وغيرها، وكذلك تعلم الصناعات التي لا تقوم حياة الناس إلا بها، فرض كفاية على الأمَّة، فإذا وُجِد فيها عددٌ كافٍ من العلماء والخبراء والفنيِّين في كلِّ مجال، بحيث تُسَدُّ به الثغرات، وتُلبَّى الحاجات، فقد أدَّت الأمَّة واجبها، وسقط الإثم والحَرَج عنها، وإذا قصرت الأمَّة في جانب من هذه الجوانب الدنيوية، وغدت عالة على غيرها كليًا أو جزئيًا، فالأمَّة كلها آثمة، وبخاصة أولو الأمر فيها.

وعلى ضوء هذه المعاني قامت حضارة إسلامية رفيعة البنيان، متينة الأركان، جامعة بين العلم والإيمان.

ولم يُعرف في هذه الحضارة ما عرف في أمم أخرى من الصراع بين العلم والدين، أو بين الحكمة والشريعة، أو بين العقل والنقل. بل كان كثير من علماء الشرع أطباء ورياضيِّين، وكيميائيين وفلكيين.. إلى غير ذلك، مثل: ابن رشد، والفخر الرازي، والخوارزمي، وابن النفيس، وابن خلدون وغيرهم.

وقد بيَّن الإمام محمد عبده أن أصول الإسلام تتفق كل الاتفاق مع العلم والمدنية، على خلاف أصول المسيحية. وأقام على ذلك البراهين الناصعة من النصوص الدينية، ومن تاريخ المسلمين والمسيحيِّين، وذلك في كتابه القيم **(الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية)**.

٢ ـ العمل الأحسن:

وهو ثمرة العلم، فالعلم في الإسلام لا يطلب لمجرد التلذذ والاستماع به، وإنما يطلب ليعمل به، وليكون منارًا لطالبه، ولهذا قيل في تراثنا: علم بلا عمل، كشجر بلا ثمر، أو سحاب بلا مطر.

وهو أيضًا ثمرة الإيمان الحق، إذ لا يُتصوَّر إيمان بلا عمل. وبهذا اقترن الإيمان بالعمل في عشرات الآيات من القرآن.

ومهما يختلف علماء الكلام في اعتبار العلم جزءًا من حقيقة الإيمان، أو شرطًا له، أو أثرًا له، فما لا ريب فيه أنَّ الإيمان الصادق لا بدَّ أن يثمر عملًا. ولهذا قرن القرآن بين الإيمان والعمل في عشرات من آياته، ولهذا قال السَّلَف:

الإيمان ما وقر في القلب، وصدّقه العمل[1].

والعمل المطلوب هو: بذل الجهد الواعي لتحقيق مقاصد الشارع من الإنسان فوق هذه الأرض.

وهذه المقاصد ـ كما أشار إليها القرآن، وكما ذكرناها قبل ـ تتحدَّد في ثلاثة ذكرها الإمام الراغب الأصفهاني في كتابه (**الذريعة إلى مكارم الشريعة**) وهي:

١ ـ العبادة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

٢ ـ الخلافة، كما قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].. يعني آدم وذريته.

٣ ـ العمارة، كما قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

وهذه الثلاثة متداخلة ومتلازمة، فالعمارة عند أدائها بقصد ونيَّة جزءٌ من العبادة، وقيام بحقِّ الخلافة، والعبادة بمعناها الواسع تشمل الخلافة والعمارة، ولا خلافة بغير عبادة وعمارة.

عمل الصالحات:

والعمل المنشود في الإسلام هو (عمل الصَّالحات)، والصالحات: تعبير قرآني جامع، يشمل كل ما يصلح به الدين والدنيا، وكل ما يصلح به الفرد والمجتمع. فهو يضم العبادات والمعاملات، أو عمل المعاش والمعاد، كما يعبر علماؤنا رحمهم الله.

ولقد بيَّن القرآن أن الله تعالى خلق السماوات والأرض، وخلق الموت والحياة، وجعل ما على الأرض زينة لها، لهدف واضح حدده بقوله سبحانه: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧، الملك: ٢]. وقوله: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ [الكهف: ٧].

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في الإيمان والرؤيا (٣٠٩٨٨)، وأحمد في الزهد (١٤٨٣)، من قول الحسن البصري.

ومعنى هذا: أنَّ الخالق جَلَّ شأنه لا يريد من الناس أي عمل، ولا مجرد العمل الحسن، بل يريد منهم **(العمل الأحسن)**.

فالسباق بينهم ليس بين العمل السيئ والحسن، بل بين العمل الحسن والأحسن.

ولا غرو أن وجدنا من العبارات القرآنيَّة المأنوسة عبارة: (التي هي أحسن)، فالمسلم يجادل ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]. ويدفع ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [المؤمنون: ٩٦]. ويستثمر مال اليتيم ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [الإسراء: ٣٤]. ويتبع أحسن ما أنزل إليه من ربه: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر: ٥٥]. ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٧ ـ ١٨].

فهو يرنو دائمًا إلى ما هو أحسن، وليس إلى مجرد الحسن. والنبي ﷺ يعلم الأمَّة أن يتطلعوا دائمًا إلى الأعلى والأحسن، ولذلك يقول: «إذا سألتم الله الجنَّة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنان»[1]. فلا يقول المسلم: يا رب ادخلني الجنة! ولو في آخر دفعة أو فوج، بل أن يكون في الفوج الأول.

والعمل الاقتصادي بكلِّ فروعه وأنواعه من أفضل القربات إلى الله، إذا صحَّت فيه النيَّة، وأُدي بإتقان، والتُزِمت فيه حدود الله. وخصوصًا العمل الإنتاجي، من زراعة وصناعة، وحديد وتعدين، وتشجير وتخضير، وإحياء وتعمير، وبناء وتثمير، وإلكترونيات.

وقد توارث العرب من قديم احتقار العمل اليدوي والحِرَفي، وكان أحدهم يؤثر أن يذهب إلى الأمير أو شيخ القبيلة، يسأله المعونة، على أن يبذل جهدًا يكفل له عيشًا يلائمه، فبيَّن لهم الرسول الكريم ﷺ أنَّ أي عمل لكسب العيش ـ وإن قلّ دخله، وكثر جهده ـ خير وأكرم من سؤال الناس، أعطوه أو منعوه.

يقول عليه الصلاة والسلام: «لأن يأخذ أحدكم حبله على ظهره، فيأتي بحزمة من الحطب فيبيعها، فيكفُّ الله بها وجهَه، خير من أن يسأل الناس، أعطوه أو منعوه»[2].

وفي الحث على الاحتراف يقول: «ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن

---

(١) سبق تخريجه، ص٤١٤.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٧٠)، ومسلم (١٠٤٢)، كلاهما في الزكاة، عن أبي هريرة.

يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده»[١]. فداود وهو مَلكٍ، كان يأكل من صناعة الدروع التي علمه الله صناعتها لتحصنهم من بأسهم.

وفي الحث على الزرع والغرس يقول: «ما من مسلم يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة، إلا كان له به صدقة»[٢].

ومن أروع التوجيهات النَّبويَّة في بيان قيمة العمل: الحديث الذي يقول: «إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا تقوم ـ أي الساعة ـ حتى يغرسها فليغرسها»[٣]. والفسيلة: النخلة الصغيرة، أي ما نسميه (الشتلة).

ولماذا يغرسها والساعة قائمة، وهو لن ينتفع بها، ولا أحد من بعده؟!

إنه دليل على أن العمل مطلوب لذاته، وأن على المسلم أن يظل عاملًا منتجًا، حتى تنفد آخر نقطة زيت في سراج الحياة! إنَّ العمل عبادة وقُرْبة، أكل الناس من ثمره أو لم يأكلوا.

ولو وعى المسلمون هذه التعليمات لفتح الله عليهم بركات من السماء والأرض، وأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم. وكانت مجتمعاتهم في طليعة مجتمعات العالَم إنتاجًا وثراءً، ولم يعيشوا كَلًّا على غيرهم من الأمم، حتى إنهم لا يكفون أنفسهم من القوت اليومي الذي به عيشهم وحياتهم وبلادهم بلاد زراعية، ولا من السلاح الذي يحتاجون إليه في حماية حرماتهم وأرضهم وعِرضهم، فلو كفَّ الآخرون أيديهم عنهم لهلكوا ماديًّا من الجوع، وهلكوا معنويًّا من الذل.

٣ ـ الحرية:

ومن القيم الإنسانيَّة التي عظَّم أمرها الإسلام: الحريَّة، التي ترفع عن

---

(١) رواه البخاري في البيوع (٢٠٧٢)، وابن ماجه في التجارات (٢١٣٨)، عن المقدام بن معديكرب.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في المزارعة (٢٣٢٠)، ومسلم في المساقاة (١٥٥٣)، كما رواه أحمد (١٣٥٥٤)، والترمذي في الأحكام (١٣٨٢)، عن أنس.

(٣) رواه أحمد (١٢٩٨١) وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، والبخاري في الأدب المفرد (٤٧٩)، والضياء في المختارة (٢٧١٥)، وصحح إسناده، وصحَّحه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩)، عن أنس بن مالك.

الإنسان كل ألوان الضغط والقهر والإكراه والإذلال. وتجعله كما أراد الله له: سيدًا في الكون، عبدًا لله وحده.

وتشمل هذه الحرية: الحرية الدينيَّة، والحرية الفكريَّة، والحرية السياسيَّة، والحريَّة المدنيَّة، وكل الحريات الحقيقيَّة.

ونعني بالحرية الدينية: حرية الاعتقاد، وحرية ممارسة الشعائر، فلا يقبل الإسلام بحال أن يُكْرَه أحدٌ على ترك دين رضيه واعتنقه، أو يُجبر على اعتناق دين لا يرضاه. ونصوص القرآن الكريم صريحة في ذلك كل الصراحة، ففي القرآن المكي يقول تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس: ٩٩]. وفي القرآن المدني يقول سبحانه: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ومن دخل في ذمَّة المسلمين من أصحاب الأديان الأخرى، فقد غدا يحمل (جنسية دار الإسلام)، له ما للمسلمين، وعليه ما عليهم في الجملة، إلا ما اقتضته طبيعة التميز الديني، فلا يفرض عليه كل ما يفرض على المسلمين، ولا يحرم عليه كل ما حرم على المسلمين.

ومن الناس مَن كتب في عصرنا يقول: إن التراث العربي والإسلامي لم يعرف الحرية بالمفهوم الحديث والمعاصر، الذي نقل إلينا من الغرب، بعد الثورة الفرنسية، إنما يعرف الحرية بمعنى (عدم الرق) فقط، فالحر مَن ليس عبدًا، والحرية مقابل الرق والعبودية، فنحن حين نؤمن بالحريَّة، أو ننادي بالحريَّة عالة على فرنسا، فقبلها لم نكن نعرف عنها شيئًا!!

وإني لأعجب أن يقول هذا أناس يزعمون ـ ويُزعم لهم ـ أنهم مثقفون وعلميون، وباحثون موضوعيون!

ونظرًا لأن بعض الناس قد يغره هذا الكلام المزوَّق، وجب علينا أن نضع أمامهم بعض الحقائق تبصرة وتذكرة:

أولًا: لا ننكر أن الأصل والحقيقة اللغوية في معنى الحرية، هو ما يقابل الرق الذي يعني تحكُّم الإنسان في آخر وتسلطه عليه. والحرية تعني التخلص من هذا التحكم والتسلط، وفكاك رقبته منه. ولكن ليس هذا هو المعنى الوحيد للكلمة.

لقد اتَّسعت الكلمة لتشمل تخلص الإنسان من كل تسلط عليه بغير حق، من سُلطة جائرة، أو قوة قاهرة.

وفي هذا جاءت كلمة عمر بن الخطاب لواليه على مصر عمرو بن العاص، وهي كلمة محفورة في ذاكرة التاريخ: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟[1]!

وهي كلمة أصبحت تُصدَّر بها الآن الدساتير ومواثيق حقوق الإنسان.

ويقول عليُّ بن أبي طالب في وصيَّته لابنه: ولا تكن عبدَ غيرك وقد جعلك الله حُرًّا[2].

وقد استعمل كثير من الشعراء كلمة (الحر) بمعنى الإنسان العزيز الكريم، كقول مَن قال:

العبد يُقرع بالعصا والحر تكفيه الملامةْ[3]

وقال الآخر:

والحر من دَان إنصافًا كما دِينا[4]!

وقال غيره في وصف بعض الحِسان العفيفات:

حور حرائر ما هممْنَ بريبةٍ كظباء مكّةَ صيدُهنَّ حرامُ[5]

وفي أمثال العرب: تجوع الحرَّة ولا تأكل بثدييها[6].

وقالوا: الصبر مرٌّ، لا يتجرعه إلا حر[7].

ثم إنَّ عدم وجود لفظ أو مصطلح معيَّن يدل على مفهوم أو مضمون نعرفه الآن، لا يعني بالضرورة عدم وجود هذا المدلول أو المضمون.

---

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم (١/ ١٨٣)، وحسن المحاضرة للسيوطي (١/ ١٩٣).
(٢) أدب الدنيا والدين للماوردي (١/ ٤١٩).
(٣) من شعر ابن مفرغ يهجو عباد بن زياد.
(٤) من شعر ابن زيدون.
(٥) المستطرف (٢/ ٣٥١)، ونسب في الحماسة البصرية (١/ ١٥٢) لعروة بن أذينة، بلفظ: (بيض نواعم ما هممن...).
(٦) مجمع الأمثال للميداني (٦١٩)، وجمهرة الأمثال للعسكري (٣٥٩).
(٧) نثر الدرر لأبي سعد منصور بن الحسين الآبي (١/ ٣٠٦).

فقد يوجد هذا المضمون أو المحتوى تحت لفظ أو مصطلح آخر، وقد يوجد منشورًا تحت كلمات أو مصطلحات أخرى.

فقد لا يجد الباحث في تراثنا كلمة (المساواة) مستخدمة كما نستخدمها نحن الآن.

ولكنه بأدنى بحث يجد مضمونها مبثوثًا منتشرًا، في آيات القرآن الكريم، وأحاديث الرسول العظيم، وفي عبادات الإسلام وشعائره، من الصلاة والصيام والحج والعمرة، وفي أحكام الإسلام وعقوباته التي لا تفرِّق بين الشريف والوضيع، وفي مبادئ الإسلام التي تحطم الفوارق بين الأجناس والألوان والطبقات، وتجعل الناس سواسية كأسنان المشط.

ومثل ذلك: الحرية، فقد يُعبَّر عنها بالكرامة: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠].

أو بالعزة: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

أو بتحريم القهر والنهر: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾ [الضحى: ٩ ـ ١٠].

أو بتحريم الإرهاب والترويع: «لا يحلُّ لمسلم أن يروِّع مسلمًا»[1].

أو بتحريم الضرب والتعذيب: «مَن جرَّد ظهر مسلم بغير حقٍّ، لقي الله وهو عليه غضبان»[2]. أو بغير ذلك من العبارات والأساليب.

وأكثر من ذلك: أن الإسلام يحرِّض على القتال وإعلان الحرب من أجل تحرير المستضعفين في الأرض من نيرِ الطغاة والمتجبِّرين. يقول تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ۝٧٥﴾ [النساء: ٧٥].

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢٣٠٦٤) وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح، وأبو داود في الأدب (٥٠٠٤)، وصحَّحه الألباني في غاية المرام (٤٤٧)، عن رجال من أصحاب النبي ﷺ.

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٨/١١٦)، والأوسط (٢٣٣٩)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٣٧٠٦): إسناده جيد، وكذا الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠٥٢١)، وقال الحافظ في الفتح (١٢/٨٥): في إسناده مقال، عن أبي إمامة.

وإذا لم يقدر الناس على مقاومة الطغيان والاستبداد، فلا أقل من أن يهاجروا من ديارهم، ولا يقبلوا على أنفسهم الهوان والبقاء تحت نِيرِ الظلم والاستعباد.

وقد توعَّد القرآن الكريم بالوعيد الشديد مَن رَضِيَ بهذه الحياة المهينة، واستسلم لها طائعًا، فلا هو قاوم مع المقاومين، ولا هو هاجر مع المهاجرين.

يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء: ٩٧ - ٩٩][1].

على أنَّ الذي يُعطي الإسلام حقَّه من الفهم والتدبر، يجد أن جوهره هو التوحيد، فهو روح الوجود الإسلامي، والتوحيد هو الأساس العقلي والفلسفي لتحقيق مبدأ الحرية، بل لتحقيق مبادئ الحرية والإخاء والمساواة جميعًا.

وكلمة التوحيد - كلمة (لا إله إلا الله) - تعني إسقاط المتألِّهين والمتجبِّرين في الأرض، وإنزالهم من عروش الربوبية المزيفة، والاستعلاء على الخلق، إلى ساحة المشاركة للناس جميعًا في العبودية لله، والبنوة لآدم.

ولهذا كانت رسائل النبي ﷺ إلى قيصر وأمراء النصارى وملوكهم في مصر والحبشة وغيرها مختومة بهذا النداء: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [آل عمران: ٦٤].

إن أعظم ما دمَّر حريَّة البَشر، وأتى على بنيانها من القواعد: اتِّخاذ بعض الناس بعضًا أربابًا من دون الله. ولكي يسترد الناس حرِّيَّتهم وكرامتهم يجب

---

(١) وينبغي أن يعلم أن هذه الآيات الكريمة في شأن المسلمين الذين يقيمون في دار الكفر، وليست في المسلمين الذين يغزوهم الكفار في دار الإسلام، فالواجب عليهم أن يتشبثوا بأرضهم وديارهم، وأن يصبروا على الأذى والاضطهاد، ولا يفرِّغوا لهم دار الإسلام، فيتمكنوا منها، ويرسخوا فيها، كما فعل الإسبان بعد طرد المسلمين من الأندلس، فقد خلصت لهم، وضاعت على المسلمين، وكما حاول الصرب أن يفعلوا بأهل البوسنة والهرسك، وكما تريد إسرائيل أن تفعل بالفلسطينيين، فلا يجوز لهم ترك الأرض لهم، فهي جزء من دار الإسلام، وإن حكمها الكفار، كما هو مذهب أبي حنيفة، وهو الصحيح، ما دامت متصلة بسائر دار الإسلام.

تحطيم هؤلاء الأرباب الأدعياء، والآلهة المزوَّرين، خصوصًا في أنفس الذين توهموهم أربابًا حقًّا، وهم مخلوقون مثلهم، لا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

ولقد وعى مشركو العرب هذه الحقيقة منذ دعا النبي ﷺ من أول يوم إلى التوحيد، وشهادة أنْ لا إلَه إلا الله، وعلموا أن وراء هذه الكلمة انقلابًا في الحياة الاجتماعية والسياسية، وأنها تؤذن بميلاد جديد لبني الإنسان، ولا سيما الفقراء والمستضعفين والمسحوقين، فلا غرو أن وقفوا في وجهها، وجنَّدوا كل قواهم لحرب كل مَن آمن بها، واستجاب لندائها.

٤ ـ الشورى:

ومن قيم الأخلاق الإنسانيَّة والاجتماعيَّة التي جاء بها الإسلام: **الشورى**.

ومعنى الشورى: ألا ينفرد الإنسان بالرأي وحده في الأمور التي تحتاج إلى مشاركة عقل آخر أو أكثر، فرأي الاثنين أو الجماعة أدنى إلى إدراك الصواب من رأي الواحد.

كما أنَّ التشاور في الأمر يفتح مغاليقه، ويتيح النظر إليه من مختلف زواياه، بمقتضى اختلاف اهتمامات الأفراد، واختلاف مداركهم وثقافاتهم، وبهذا يكون الحكم على الأمر مبنيًّا على تصور شامل، ودراسة مستوعبة.

فالإنسان بالشورى يضيف إلى عقله عقول الآخرين، وإلى علمه علوم الآخرين، وفي هذا يقول الشاعر العربي:

إذا بلغ الرأيُ المشورةَ فاستعنْ ... برأي نصيحٍ أو نصيحة حازم

ولا تحسبِ الشورى عليكَ غضاضةً ... فإنَّ الخوافي قوّةٌ للقوادمِ[1]

وقد دعا الإسلام إلى الشورى في حياة الفرد، وفي حياة الأسرة، وفي حياة المجتمع والأمَّة والدولة.

الشورى في حياة الفرد:

ففي حياة الفرد يربِّي الإسلامُ المسلمَ إذا أراد أن يقدم على أمر من الأمور

---

(١) من شعر بشار بن برد.

المهمة، التي تختلف فيها الوجهات، وتتعارض الآراء والرغبات، ويتردد فيها المرء بين الإقدام والإحجام، أن يستعين بأمرين يساعدانه على اتخاذ القرار الأصوب.

أحد هذين الأمرين: ربَّاني، وهو استخارة الله تعالى، وهي صلاة ركعتين يعقبها دعاء، مضمونه أن يختار الله له خير الأمرين في دينه ودنياه، ومعاشه ومعاده[١]. وهو دعاء معروف محفوظ.

والثاني: إنساني، وهو استشارة مَن يثق برأيه وخبرته ونصحه وإخلاصه.

وبهذا يجمع بين استخارة الخالق، واستشارة الخلق.

وقد حفظ المسلمون من تراثهم: لا خاب مَن استخار، ولا ندم مَن استشار.

وقد كان الصحابة ﷺ، يستشيرون النبي ﷺ في كثير من أمورهم الخاصة، فيشير عليهم بما يراه صوابًا أو أصوب أو أفضل، كما رأينا حين استشارته فاطمة بنت قيس في أمر زواجها، وقد أبدى الرغبة فيها رجلان: معاوية وأبو جهم، فقال لها: «أما معاوية فصعلوك لا مال له، وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه!»[٢]. أي يضرب النساء. واقترح عليها أن تتزوج أسامة بن زيد.

وكان الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام يستشير بعض أصحابه في أموره الخاصة كذلك، فقد رأيناه في أزمة (حديث الإفك) يستشير عليَّ بن أبي طالب، ويسأل أسامة بن زيد[٣].

الشورى في حياة الأسرة:

وفي حياة الأسرة يدعو الإسلام إلى أن تقوم الحياة الأسريَّة على أساس من التشاور والتراضي، وذلك منذ بداية تكوين الأسرة.

---

(١) رواه البخاري في الدعوات (٦٣٨٢)، وأحمد (١٤٧٠٧)، وأبو داود في فضائل القرآن (١٥٣٨)، عن جابر بن عبد الله.

(٢) رواه مسلم في الطلاق (١٤٨٠)، وأحمد (٢٧٣٣٣)، عن فاطمة بنت قيس.

(٣) إشارة إلى حديث الإفك المتفق عليه: رواه البخاري في الشهادات (٢٦٦١)، ومسلم في التوبة (٢٧٧٠)، عن عائشة.

ولهذا رفضت نصوص الشريعة أن يستبدَّ الأب بتزويج ابنته ـ ولو كانت بكرًا ـ دون أن يأخذ رأيها[١].

وأوجب التوجيه النبوي أن تُستأذن البكر، وإن كانت تستحيي، فجعل إذنها صماتها[٢]. فإن سكوتها عند عرض الأمر عليها دليل على الرضا والقبول.

وقد رد النبي ﷺ بعض عقود الزواج التي تمت بغير إرادة البنت؛ لأن الشرع لم يُجِز لأحد أن يتصرف في مالها وملكها بغير إذنها، فكيف بمصيرها ومستقبل حياتها[٣]؟!

بل رغَّبت السُنَّة آباء البنات أن يشاوروا أمهات بناتهن في أمر زواجهن، أي يشاور الرجل زوجته عند تزويج ابنتهما، وفي هذا جاء الحديث الذي رواه الإمام أحمد: «آمروا النساء في بناتهن»[٤].

وذلك أنَّ الأم أعلم بابنتها من الأب، فهي باعتبارها أنثى تعرف اتِّجاهها وعواطفها، والبنت تبوحُ لأمها عن أسرارها ما لا تجرؤ أن تبوح به لوالدها.

وبعد بناء الأسرة ينبغي للزوجين أن يتفاهما ويتشاورا فيما يهمُّ الحياة المشتركة بينهما، وفيما يهم كل واحد منهما على حدة، وفيما يهم حياة ذريتهما ومستقبلها.

ولا يجوز أن يُستهان برأي المرأة هنا، كما يشيع عند بعض الناس، فكم من امرأة كان رأيها خيرًا وبركة على أهلها وقومها.

وما كان أحصف رأي خديجة وموقفها في أول ساعات الوحي، ودورها في تثبيت فؤاد النبي ﷺ، والذهاب معه إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، ليطمئنه ويبشره[٥].

---

(١) إشارة إلى الحديث المتفق عليه: «لا تنكح الأيم حتى تستأمر، ولا تنكح البكر حتى تستأذن». قالوا: يا رسول الله، وكيف إذنها؟ قال: «أن تسكت». متفق عليه: رواه البخاري (٥١٣٦)، ومسلم (١٤١٩)، كلاهما في النكاح، عن أبي هريرة.

(٢) إشارة إلى الحديث المتفق عليه: رواه البخاري في الإكراه (٦٩٤٦)، ومسلم في النكاح (١٤٢٠)، عن عائشة.

(٣) إشارة إلى حديث خنساء بنت خذام الأنصارية: أن أباها زوجها وهي ثيب فكرهت ذلك «فأتت النبي ﷺ فرد نكاحها». رواه البخاري في الإكراه (٦٩٤٥)، وأحمد (٢٦٧٨٦).

(٤) رواه أحمد (٤٩٠٥) وقال مخرِّجوه: حديث حسن، وأبو داود (٢٠٩٥)، عن ابن عمر.

(٥) كما في حديث عائشة المتفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٩٥٣)، ومسلم في الإيمان (١٦٠).

وكذلك رأي أم سلمة يوم الحديبية[1]. وسيأتي الحديث عنه.

ومن الروائع القرآنية: التنبيهُ على ضرورة التشاور والتراضي بين الزوجين فيما يتصل برضاع الأولاد وفطامهم، ولو بعد الانفصال بينهما، يقول تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ...﴾ إلى أن قال: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ [البقرة: ٢٣٣].

الشورى في حياة المجتمع والأمَّة والدولة:

أما الشورى في حياة المجتمع والأمَّة والدولة المسلمة، فقد جعلها القرآن من المكوِّنات المهمة للجماعة المسلمة، وذلك في القرآن المكي الذي يرسي القواعد، ويضع الأسس للحياة الإسلامية. فقد ذكر الشورى في أوصاف المؤمنين، مقرونة بمجموعة من الصفات الأساسية التي لا يتم إسلام ولا إيمان إلا بها، وهي: الاستجابة لله تعالى، وإقام الصلاة، والإنفاق مما رزق الله، وهذا ما ذكر في السورة التي تحمل اسم (الشورى) يقول تعالى: ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ إلى أن قال: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الشورى: ٣٦، ٣٨].

والمراد بقوله ﴿وَأَمْرُهُمْ﴾: الأمر العام الذي يهم جماعتهم، ويؤثر في حياتهم المشتركة.

وهو (الأمر) الذي أمر الله تعالى رسوله بالمشاورة فيه. فقد قال تعالى في سورة آل عمران من القرآن المدني: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقد جاء هذا الأمر من الله ورسوله بعد غزوة (أحد)، التي شاور النبي فيها أصحابه، ونزل عن رأيه إلى رأي أكثريتهم، وكانت النتيجة ما أصاب المسلمين من قَرْح، وما اتخذه الله من شهداء: سبعين من خيار الصحابة، منهم حمزة ومصعب وسعد بن الربيع، وغيرهم.

ومع هذا أمر الله رسوله بالمشاورة لهم، ومعناه: استمرَّ على مشاورتهم،

---

(١) كما في الحديث الذي رواه البخاري في الشروط (٢٧٣١)، وأحمد (١٨٩١٠)، عن المسور بن مخرمة.

ففيها خير وبركة، وإن جاءت النتيجة في إحدى المرات على غير ما تحب، فالعبرة بالعاقبة.

وقد كان النبي ﷺ أكثر الناس مشاورة لأصحابه: شاورهم في غزوة (بدر)، قبل القتال، وفي أثنائه، وبعده. ولم يدخل المعركة إلا بعد أن اطمأن إلى رضا جمهورهم.

وشاورهم في (أحد)، فنزل عن رأيه إلى رأي الأكثرية التي رأت الخروج إلى القوم، لا القتال داخل المدينة.

وشاورهم في (الخندق)، وهمّ أن يصالح (غطفان) على شيء من ثمار المدينة، ليعزلهم عن قريش، وأبى ممثلو الأنصار ذلك، فوقف عند رأيهم.

وفي (الحديبية) شاور أم سلمة في امتناع أصحابه عن التحلُّل من إحرامهم بعد الصلح، فقد عزَّ عليهم ذلك بعد نِيَّة العمرة. فأشارت عليه أم سلمة أن يخرج إليهم، ويتحلل من إحرامه أمامهم دون أن يتكلم، فما إن رأوه فعل ذلك، حتى بادروا إلى الاقتداء به.

والإسلام كما يأمر الحاكم أن يستشير، يأمر الأمَّة أن تنصح له، كما جاء في الحديث الصحيح: «الدين النصيحة . . .لله، ولرسوله، ولكتابه، ولأئمة المسلمين، وعامتهم»[1].

وفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة عامة، تشمل الحكام والمحكومين كافة، كذلك فريضة التواصي بالحق، والتواصي بالصبر، التي لا نجاة للإنسان من خسران الدنيا والآخرة إلا بها. فليس في المسلمين أحد أكبر من أن يُوصَى ويُنصَح، ويُؤمَر ويُنهَى، وليس فيهم أحد أصغر من أن يوصي وينصح، ويأمر وينهي. وقد كان النبي ﷺ، يشار عليه بالرأي مخالفًا لرأيه فيأخذ به، ويدع رأيه الشخصي.

وقد بعث أبا هريرة يبشِّر الناس بأن: «مَن قال: لا إلَه إلا الله. دخل الجنة». فخشي عمر أن يفهمها الناس فهمًا مغلوطًا، ويفصلوا الكلمة عن العمل، ولذا أوقف أبا هريرة، وبيَّن للرسول ﷺ خوفه من أن يتَّكل الناس على

(١) سبق تخريجه، ص٩٠.

ذلك قائلًا: فخلهم يعملون. فقال الرسول ﷺ: «فخلهم يعملون»[1].

وقال أبو بكر في خطابه السياسي الأول بعد توليه الخلافة، يبيِّن منهجه في الحكم: إن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني. أطيعوني ما أطعتُ الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم[2].

وقال عمر: أيها الناس، مَن رأى منكم فيَّ اعوجاجًا فليقومني. فقال له أحدهم: لو رأينا فيك اعوجاجًا لقوَّمناه بحد سيوفنا! فقال عمر: الحمد لله الذي جعل في رعية عمر مَنْ يُقوِّم عمر بحد سيفه[3]!

وقال له بعضهم يومًا: اتَّقِ الله يا عمر! فأنكر عليه بعض مَن عنده أن يقول ذلك لأمير المؤمنين، فقال عمر: دعه، لا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نسمعها[4].

بل إنَّ الرسول ﷺ يشرع المعارضة المسلحة للأمير الفاجر بشرطين:

الأول: الانحراف البيِّن عن منهج الإسلام في عقيدته أو شريعته، وهو ما أطلق عليه الحديث النبوي: (الكفر البواح).

فقد أوصى الرسول ﷺ مَن بايعه من أصحابه أن يصبروا على أمرائهم، وإن استأثروا ببعض المكاسب الدنيوية دونهم، قال: «إلا أن تروا كفرًا بواحًا عندكم فيه من الله برهان»[5].

والثاني: أن تكون هناك قدرة على إزالة المنكر، دون أن يترتب على إزالته منكر أكبر منه، وإلا وجب تحمُّل المنكر الأدنى مخافة وقوع المنكر الأعلى. بناء على قاعدة (ارتكاب أخف الضررين، وأهون الشرين).

وعند هذا الخوف تنتقل المعارضة من القتال باليد، إلى السياسة باللسان والقلم، ثم إلى الإنكار بالقلب، وذلك أضعف الإيمان.

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (٣١)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه الطبري في تاريخه (٣/ ٢١٠)، وذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٩/ ٤١٤) وصحح إسناده، عن أنس بن مالك.

(٣) رواه ابن أبي شيبة في الزهد (٣٥٦٢٩).

(٤) رواه ابن شبة في تاريخ المدينة (٢/ ٧٧٣).

(٥) متفق عليه: رواه البخاري في الفتن (٧٠٥٦)، ومسلم في الإمارة (١٧٠٩)، عن عبادة بن الصامت.

وفي هذا جاء حديث ابن مسعود، عن النبي ﷺ: «ما من نبيٍّ بعثه الله في أمة قبلي، إلا كان له من أمَّته حواريُّون وأصحاب، يأخذون بسُنَّته، ويقتدون بأمره، ثم إنَّها تخلف من بعدهم خُلوف، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون. فمَنْ جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومَنْ جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومَن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»[1].

صورة طيِّبة عن الحكم الذي يقوم على الشورى:

والقرآن الكريم ينقل لنا صورة طيبة عن الحكم الذي يقوم على الشورى، ممثلًا في ملكة سبأ التي فاجأها كتاب سليمان عليه السلام يحمله الهدهد، فجمعت قومها وقالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [النمل: ٣٢ ـ ٣٥].

وقد انتهى هذا السلوك الشوري الحكيم بالملكة الرشيدة إلى أن أسلمت مع سليمان لله رب العالَمين، فنجت ونجا معها قومها من حرب خاسرة، وكسبت بذلك الدنيا والآخرة.

صورة مظلمة عن الحكم الذي يقوم على الطغيان والتسلط:

وينقل القرآن صورة أخرى مظلمة عن الحكم الذي يقوم على التألُّه والتسلُّط، مثل حكم فرعون الذي قال للناس: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: ٢٤]. ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]. والذي لا يستشير في الأمور الهامة إلا بطانته الخاصة، كما رأينا ذلك في قصة فرعون مع موسى، حين حاور فرعون فأفحمه، فهدده بالسجن، فقال موسى: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الشعراء: ٣٠ ـ ٣٥].

فهذه ليست استشارة حقيقية؛ لأنها تخص (الملأ حوله) فقط، ثم هي

---

(١) رواه مسلم (٥٠)، وأبو عوانة (٩٨)، كلاهما في الإيمان، عن ابن مسعود.

استشارة موجَّهة، فهو لا يأخذ رأيهم في شأن موسى، وماذا تكون رسالته، وما حقيقة أمره؟ بل حكم عليه قبل أن يسألهم الرأي: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ﴾.

علوُّ فرعون في الأرض بغير الحق وطغيانه:

وقد بيّن القرآن حقيقة حكم فرعون، وموقفه من رعيته حين قال: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص: ٤].

فهذا (العُلُوُّ) في الأرض هو ما نعبِّر عنه في لغة السياسة المعاصرة بكلمة (الطغيان).

وقد كرَّر القرآن ذلك في وصف فرعون: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الدخان: ٣١]. ولهذا قال الله لموسى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [النازعات: ١٧]. وفي مقام آخر وصفه بالجمع بين الطغيان والفساد، فقال: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: ١٠ ـ ١٤].

ولم يكن علو فرعون وطغيانه على بني إسرائيل وحدهم، بل على المصريِّين أيضًا، إذا خطر لأحدهم أو لفئة منهم أن يخرجوا عن خطه، ويتمردوا على ربوبيته.

وهذا ما تجلَّى واضحًا في موقفه من السَّحَرة المصريين الذين جلبهم من كل صوب لينصروه على موسى، فخذله الله بهم، حين آمنوا برب العالمين رب هارون وموسى، بعد أن تبين لهم الحق من الباطل.

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾ [طه: ٧١].

وانظر إلى قوله: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾، إنه يريد أن يحجر على عقول الناس وقلوبهم، فلا يجوز لعقل أن يقتنع بشيء، ولا لقلب أن يؤمن بأمر، إلا بإذنه وبعد تصريح منه!!

القوى الدنسة المتحالفة مع فرعون:

لقد ذمَّ القرآن فرعون، وذمَّ القوى الدنسة المتحالفة معه، مثل (قارون) الذي كان من قوم موسى، فبغى عليهم وانضمَّ إلى فرعون وحاشيته، وأصبح يمثل الرأسمالية البشعة الجشِعة، التي لا ترى لأحد عليها حقًّا فيما تملَّك من مال، كما جسَّدها قارون بقوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: ٧٨].

ومثل (هامان)، الذي يمثِّل السياسيين النفعيين الذين يضعون قدراتهم الذهنيَّة والتَّنفيذيَّة في خدمة الطاغية الأكبر، فهو عقله المفكر، وساعده المنفِّذ!

كما شمل القرآن بالذمِّ أعوان الطغاة من الجنود الذين يعتبرون أدوات في أيديهم، يستخدمونها لجلد الشعوب وقهرها، ولهذا قال القرآن: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ۝٨﴾ [القصص: ٨].

ويقول عن فرعون: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠﴾ [القصص: ٤٠]. وكلمة (الجنود) تشمل كل أعوان الطاغية من عسكريين ومدنيين، الذين ينفذون أوامره بلا تردد.

القرآن يحارب الطغيان والاستبداد من عدة نواح:

من ناحية الحملة على الطغاة والمتجبرين في الأرض: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ۝٣٥﴾ [غافر: ٣٥]. ﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ۝١٥﴾ [إبراهيم: ١٥].

ومن ناحية الحملة على الأعوان المباشرين من كبار، مثل هامان وقارون، أو صغار، مثل جنود فرعون.

ومن ناحية ثالثة: الحملة على الشعوب التي تسلِّم قيادها للطغاة، دون أن تسألهم يومًا: لِمَ؟ أو كيف؟ بَلْهَ أن تقول: لا، بملء فِيها!

لقد ذمَّ القرآن قوم نوح على لسانه بقوله: ﴿رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا ۝٢١﴾ [نوح: ٢١].

وذمَّ عادًا قوم هود بقوله: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ۝٥٩ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ [هود: ٥٩ ـ ٦٠].

وذمَّ قوم فرعون بقوله: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزخرف: ٥٤].

وعرض القرآن لنا صورًا جمَّة من مشاهد الآخرة، وفيها يتلاوم السادة الكبراء المضِلُّون، وأتباعهم المضلَّلون، ويتبرأ بعضهم من بعض، ويلعن بعضهم بعضًا، ويحاول كل فريق أن يُلقي بالتبعة على الآخر. ولكن الله يحكم على الجميع بأنهم من أهل النار.

﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب: ٦٧ ـ ٦٨].

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة: ١٦٦ ـ ١٦٧].

الرضا والبيعة الاختياريَّة:

إنَّ أساس قبول القيادة السياسية للأمة في الإسلام هو: الرضا والبيعة الاختياريَّة.

فمَن رضيَه المسلمون إمامًا ـ أي: أميرًا ورئيسًا لهم ـ وبايعوه على ذلك، فهو الوليُّ الشرعيُّ الذي تجب طاعته في المعروف، وتجب المناصحة له بالحق، والمعاونة له على كل خير.

والإسلام لا يحب أن يؤمَّ رجلٌ الناسَ في صلاة الجماعة وهم له كارهون، فكيف يقبل أن يقود رجل الأمَّة كلها في شؤونها العامة، وهي له كارهة، وبه ضائقة، وعليه ساخطة؟

جاء في الحديث الشريف: «ثلاثة لا تُرفع صلاتهم فوق رؤوسهم شِبرًا: رجل أمَّ قومًا وهم له كارهون، وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط، وأخوان متصارمان»[1].

---

(١) رواه ابن ماجة في إقامة الصلاة (٩٧١)، قال البوصيري في مصباح الزجاجة (١/ ١١٩): إسناده صحيح ورجاله ثقات، وابن حبان الصلاة (١٧٥٧)، وقال الأرناؤوط: إسناده حسن، والطبراني (١١/ ٤٤٩)، عن ابن عباس.

٥ ـ الأمانة:

أداء الأمانات إلى أهلها:

ومن أخلاق الدولة أيضًا: أداء الأمانات إلى أهلها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]. وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنفال: ٢٧]. فأداء الأمانة فرض، أما الخيانة فهي مُحرَّمة، سواء أكانت خيانة الله ورسوله، أم خيانة الخلق، وهو ما أطلق عليه القرآن عبارة: ﴿وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، أي: يخون بعضكم بعضًا. وهي خيانة قد تكون في المال، بالسرقة والرشوة والنَّصب والغش والتزوير، وقد تكون في غير المال، كأنْ يأتمنه على أهله وولده، فيخونه فيهم. والإسلام يُحرِّم كل الخيانات.

وقال تعالى في وصف المؤمنين الصَّادقين: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾﴾ [المؤمنون: ٨]. ووصف الله الرسل والأنبياء الذين بعثهم إلى أقوامهم بالبينات والهدى بأنهم (أمناء) على ما ابتعثهم الله به، فقال كل منهم لقومه ـ مثل هود لعاد، وصالح لثمود، ونوح ولوط.. وغيرهم ـ: ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ [الشعراء: ١٠٧]. ووصف عزيز مصر يوسف بعد أن حقق في أمره، وظهرت براءته ونصاعة صفحته للناس: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾ [يوسف: ٥٤].

وقد اعتبر علماء الكلام من المسلمين: أن الأمانة إحدى الفضائل الأربع الأساسية التي يجب أن تصف بها الرسل، وهي: **الصدق والأمانة والتبليغ والفطانة**. وكان من أوصاف رسولنا في الجاهليَّة: الأمين.

وقد وُصف جبريل ملك الوحي، الذي نزل بالقرآن على قلب محمد بوصف الأمين ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [التكوير: ١٩ ـ ٢١]. وقال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣].

وذمَّ تعالى الخائنين في كتابه، وذكر أنه لا يحبهم ولا يهديهم، كما قال: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنفال: ٥٨]. وذكر الله على لسان امرأة العزيز: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [يوسف: ٥٢]. وحينما سأل سليمان الملأ من

حوله، وفيهم الجن والإنس: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ٣٨ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ٣٩﴾ [النمل: ٣٨ ـ ٣٩].

وعن عمران بن حُصَين رضي الله عنهما، عن النبيِّ ﷺ قال: «خيركم قرني، ثمَّ الذين يلونهم، ثمَّ الذين يلونهم، ثمَّ يكون بعدهم قوم يشهدون ولا يُستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السِّمَن»[1]. فهؤلاء بعد القرون الثلاثة الخيِّرة، حين يبدأ ظهور الانحراف في الأمَّة، ومن علاماته: أنهم يخونون ولا يؤتمنون. ورعاية الأمانات من خصال المؤمنين.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «أربع من كُنَّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومَن كان فيه خصلة منهنَّ كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتُمن خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»[2].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: القتل في سبيل الله، يكفِّر الذنوب كلها إلا الأمانة[3]. رواه أحمد في غير المسند. وذكر عبد الله ابنه في كتاب **(الزهد)** أنه سأل أباه عنه فقال: إسناده جيد[4]. والمعروف: أن الموقوف في مثل هذه الأمور كأنه مرفوع.

ولما للخيانة من آثار سيِّئة في النفس والحياة والناس، كان الرسول المعلم يستعيذ بالله منها، كما روى أبو داود والنسائي وابن ماجه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الجوع، فإنه بئس الضجيع، وأعوذ بك من الخيانة، فإنها بئست البطانة»[5].

وعن أنس رضي الله عنه قال: ما خطبنا رسول الله ﷺ إلا قال: «لا إيمان لمن لا

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الشهادات (٢٦٥١)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٣٥).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨)، كلاهما في الإيمان.

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٤٨٨٥).

(٤) انظر: الترغيب والترهيب للمنذري (٤٥٤٠).

(٥) رواه أبو داود في الصلاة (١٥٤٧)، والنسائي في الاستعاذة (٥٤٦٨)، وابن ماجه في الأطعمة (٣٣٥٤)، وصحح إسناده النووي في رياض الصالحين (١٤٨٥)، وحسَّنه ابن حجر في نتائج الأفكار (٣/ ٨٨)، وحسَّنه الألباني في صحيح أبي داود (١٣٨٣).

أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له»[1].

وقد بنى شيخ الإسلام ابن تيمية رسالته القيمة التي كتبها في السياسة الشرعية على آيتين من كتاب الله تعالى، سمَّاهما: آيتي الأمراء.

ومما يجب أن نقرأه من هذه الرسالة قوله في بدايتها:

«أما بعد، فهذه رسالة مختصرة[2] فيها جوامع من السياسة الإلهيَّة والآيات النبويَّة، لا يستغني عنها الراعي والرعيَّة، اقتضاها من أوجب الله نصحه من ولاة الأمور، كما قال النبي ﷺ، فيما ثبت عنه من غير وجه في صحيح مسلم وغيره: «إنَّ الله يرضى لكم ثلاثًا: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تَفرَّقوا، وأن تناصحوا من ولَّاه الله أمركم»[3]. وهذه الرسالة مبنيَّة على آيتين في كتاب الله: وهما قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ۝٥٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ۝٥٩﴾ [النساء: ٥٨ ـ ٥٩].

قال العلماء: نزلت الآية الأولى في ولاة الأمور؛ عليهم أن يؤدُّوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل، ونزلت الثانية في الرعيَّة من الجيوش وغيرهم، عليهم أن يطيعوا أولي الأمر الفاعلين لذلك في قسمهم وحكمهم ومغازيهم وغير ذلك؛ إلا أن يأمروا بمعصية الله، فإذا أمروا بمعصية الله فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فإن تنازعوا في شيء ردُّوه إلى كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ، وإن لم تفعل ولاة الأمر ذلك، أُطيعوا فيما يأمرون به من طاعة الله ورسوله؛ لأن ذلك من طاعة الله ورسوله، وأُدِّيت

---

(١) رواه أحمد (١٢٣٨٣) وقال مخرِّجوه: حديث حسن، وأبو يعلى (٢٨٦٣)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٠٤).

(٢) تسمى **(السياسة الشرعية)** يقال: إن ابن تيمية كتبها في ليلة، لما سأله الإمام أن يعلق له شيئًا من أحكام الرعايا، وما ينبغي للمتولي. هذا التعليق في الفتاوى (٢٨/ ٢٤٤).

وأنا استغرب أن يستطيع أي إنسان أن يؤلف كتابًا بهذا العمق وبهذا التفصيل، وبهذا الوضوح في ليلة. ولا أستبعد أن يكون هذا كله من محفوظه، فمثله قادر على ذلك، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ولكن المشكلة في التفكير والكتابة الطويلة!!

(٣) رواه مسلم في الأقضية (١٧١٥) ولم يذكر: «وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم»، وأحمد (٨٧٩٩)، وصحَّح إسناد هذه الزيادة مخرجو المسند، عن أبي هريرة.

حقوقهم إليهم كما أمر الله ورسوله، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢]. وإذا كانت الآية قد أوجبت أداء الأمانات إلى أهلها، والحكم بالعدل، فهذان جماع السياسة العادلة والولاية الصَّالحة.

أداء الأمانات: استعمال الأصلح:

أما أداء الأمانات ففيه نوعان:

أحدهما: الولايات:

الولايات: وهو كان سبب نزول الآية، فإن النبيَّ ﷺ لما فتح مكة وتسلَّم مفاتيح الكعبة من بني شيبة، طلبها منه العباس، ليجمع له بين سقاية الحاج وسدانة البيت، فأنزل الله هذه الآية، فدفع مفاتيح الكعبة إلى بني شيبة.

فيجب على وليِّ الأمر أن يولِّي على كل عمل من أعمال المسلمين، أصلح من يجده لذلك العمل. قال النبي ﷺ: «مَن وَلِيَ من أمر المسلمين شيئًا، فولَّى رجلًا، وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه فقد خان اللهَ ورسولَهُ»[١]. وفي رواية: «مَن ولَّى رجلًا على عصابة، وهو يجد في تلك العصابة مَنْ هو أرضى لله منه، فقد خان اللهَ ورسولَه وخان المؤمنين»[٢]. رواه الحاكم في صحيحه.

وروى بعضهم أنه من قول عمر لابن عمر، روي ذلك عنه. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «من ولي من أمر المسلمين شيئًا، فولَّى رجلًا لمودَّة أو قرابة بينهما، فقد خان الله ورسوله والمسلمين»[٣]. وهذا واجب عليه. فيجب عليه البحث عن المستحقِّين للولايات من نوَّابه على الأمصار: من الأمراء الذين هم نواب ذي السلطان والقضاة ونحوهم، ومن أمراء الأجناد ومقدَّمي العساكر الصغار والكبار، وولاة الأموال: من الوزراء، والكتاب، والشَّادين[٤]، والسُّعاة على الخراج والصدقات، وغير ذلك من الأموال التي للمسلمين.

---

(١) رواه ابن أبي عاصم في السنة (١٤٦٢)، عن ابن عباس.

(٢) رواه الحاكم في الأحكام (٤/ ٩٢)، وصحح إسناده، وقال الذهبي: فيه حسين بن قيس، وهو ضعيف، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٣٣٤٥): واه، وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (١٣٣٩)، عن ابن عباس.

(٣) رواه عبد الرزاق في جامع معمر (٢٠٦٩٣).

(٤) الشادي: المغني وطالب الأدب والعلم وهو الأوفق هنا.

وعلى كل واحد من هؤلاء، أن يستنيب ويستعمل أصلح من يجده؛ وينتهي ذلك إلى أئمة الصلاة والمؤذنين، والمقرئين، والمعلِّمين، وأمراء الحاج، والبُرُد (جميع بريد)، والعيون الذين هم القُصَّاد، وخزان الأموال، وحراس الحصون والحدادين الذين هم البوابون على الحصون والمدائن، ونقباء العساكر الكبار والصغار، وعرفاء القبائل والأسواق، ورؤساء القرى الذين هم الدهاقين. فيجب على كل من ولي شيئًا من أمر المسلمين، من هؤلاء وغيرهم، أن يستعمل فيما تحت يده في كل موضع أصلح من يقدر عليه، ولا يقدِّم الرجل لكونه طلب الولاية، أو سبق في الطلب؛ بل يكون ذلك سببًا للمنع؛ فإن في الصحيح عن النبي ﷺ: «أن قومًا دخلوا عليه فسألوه ولاية؛ فقال: إنا لا نولِّي أمرَنا هذا من طلبه»(١).

وقال لعبد الرحمن بن سمرة: «يا عبد الرحمن! لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أُعنت عليها؛ وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها»(٢). أخرجاه في الصحيحين.

وقال ﷺ: «من طلب القضاء واستعان عليه وُكِل إليه، ومن لم يطلب القضاء ولم يستعن عليه؛ أنزل الله عليه ملكًا يسدده»(٣). رواه أهل السنن.

فإن عدل عن الأحق الأصلح إلى غيره، لأجل قرابة بينهما، أو ولاء عتاقة أو صداقة، أو مرافقة في بلد أو مذهب؛ أو طريقة، أو جنب: كالعربية، والفارسية، والتركية، والرومية، أو لرشوة يأخذها منه من مال أو منفعة، أو غير ذلك من الأسباب، أو لضغن في قلبه على الأحق، أو عداوة بينهما: فقد خان الله ورسوله والمؤمنين، ودخل فيما نهي عنه في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنفال: ٢٧]. ثم قال: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنفال: ٢٨]. فإن الرجل لحبِّه لولده، أو لعتيقه، قد يُؤْثره في بعض الولايات،

(١) متفق عليه: رواه البخاري في استتابة المرتدين (٦٩٢٣)، ومسلم في الإمارة (١٧٣٣)، عن أبي موسى الأشعري.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الأحكام (٧١٤٦)، ومسلم في الأيمان (١٦٥٢).

(٣) رواه أحمد (١٣٣٠٢) وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف، وأبو داود في الأقضية (٣٥٧٨)، والترمذي (١٣٢٤) وقال: حسن غريب، وابن ماجه (٢٣٠٩)، كلاهما في الأحكام، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٥٦٨٨)، عن أنس.

أو يعطيه ما لا يستحقه؛ فيكون قد خان أمانته؛ وكذلك قد يؤثره زيادة في ماله أو حفظه؛ بأخذ ما لا يستحقه، أو محاباة مَن يداهنه في بعض الولايات، فيكون قد خان الله ورسوله، وخان أمانته.

ثمَّ إنَّ المُؤدِّي للأمانة مع مخالفة هواه يثبِّته الله، فيحفظه في أهله وماله بعدَه، والمطيع لهواه يعاقبه الله بنقيض قصده، فيذل أهله ويذهب ماله. وفي ذلك الحكاية المشهورة: أن بعض خلفاء بني العباس، سأل بعض العلماء أن يحدثه عمَّا أدرك، فقال: أدركت عمر بن عبد العزيز، قيل له: يا أمير المؤمنين، أقفرت أفواه بنيك من هذا المال، وتركتهم فقراء لا شيء لهم ـ وكان في مرض موته ـ فقال: أدخلوهم عليَّ. فأدخلوهم: وهم بضعة عشر ذكرًا، ليس فيهم بالغ، فلما رآهم ذرفت عيناه، ثم قال لهم: يا بَنِيَّ، والله ما منعتكم حقًّا هو لكم، ولم أكن بالذي آخذ أموال الناس فأدفعها إليكم؛ وإنما أنتم أحد رجلين: إما صالح، فالله يتولى الصالحين؛ وإما غير صالح، فلا أخلف له ما يستعين به على معصية الله، قوموا عني. قال: فلقد رأيت بعض بنيه، حمل على مائة فرس في سبيل الله. يعني أعطاها لمَن يغزو عليها[1].

قلت: هذا وقد كان خليفة المسلمين، من أقصى المشرق: بلاد الترك، إلى أقصى المغرب: بلاد الأندلس وغيرها، ومن جزائر قبرص وثغور الشام والعواصم كطرسوس ونحوها، إلى أقصى اليمن. وإنما أخذ كل واحد من أولاده من تركته شيئًا يسيرًا، يقال: أقل من عشرين درهمًا.

قال: وحضرت بعض الخلفاء وقد اقتسم تركته بنوه، فأخذ كل واحد منهم ستمائة ألف دينار، ولقد رأيت بعضهم يتكفف الناس. أي يسألهم بكفِّه.

وفي هذا الباب من الحكايات والوقائع المشاهدة في الزمان، والمسموعة عما قبله؛ ما فيه عبرة لكل ذي لب، وقد دلَّت سنَّة رسول الله ﷺ على أن الولاية أمانة يجب أداؤها في مواضع: مثل ما تقدم، ومثل قوله لأبي ذر ﷺ في الإمارة: «إنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيهما»[2]. رواه مسلم.

وروى البخاري في صحيحه، عن أبي هريرة ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «إذا

---

(١) مجموع الفتاوي (٢٨/ ٢٤٩).

(٢) رواه مسلم في الإمارة (١٨٢٥)، وأحمد (٢١٥١٣).

ضُيِّعت الأمانة، فانتظر الساعة. قيل: يا رسول الله، وما إضاعتها؟ قال: إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»[1]. وقد أجمع المسلمون على معنى هذا؛ فإنَّ وصيَّ اليتيم، وناظر الوقف، ووكيل الرجل في ماله؛ عليه أن يتصرَّف له بالأصلح فالأصلح، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٣٤]. ولم يقل إلا بالتي هي حَسَنةٌ. وذلك لأنَّ الوالي راعٍ على الناس بمنزلة راعي الغنم؛ كما قال النبي ﷺ: «كلكم راعٍ، وكلكم مسئولٌ عن رعيته، فالإمام الذي على الناس راعٍ، وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها، وهي مسئولة عن رعيتها، والولد راعٍ في مال أبيه، وهو مسئول عن رعيته؛ والعبد راعٍ في مال سيده، وهو مسئول عن رعيته؛ ألا فكلكم راعٍ، وكلكم مسئول عن رعيته»[2]. أخرجاه في الصحيحين.

وقال ﷺ: «ما من راعٍ يسترعيه الله رعية، يموت يوم يموت وهو غاشٌّ لها، إلا حرم الله عليه رائحةَ الجنة»[3]. رواه مسلم.

ودخل أبو مسلم الخولاني على معاوية بن أبي سفيان، فقال: السلام عليكم أيها الأجير. فقالوا: قُل: السلام عليك أيها الأمير. فقال: السلام عليك أيها الأجير. فقالوا: قل: السلام عليك أيها الأمير. فقال: السلام عليك أيها الأجير. فقالوا: قل: السلام عليك أيها الأمير. فقال: السلام عليك أيها الأجير. فقال معاوية: دعوا أبا مسلم، فإنه أعلم بما يقول. فقال: إنما أنت أجير، استأجرك رَبُّ هذه الغنم لرعايتها؛ فإن أنت هَنَأْتَ جَرْبَاها[4]، وداويت مرضاها، وحبست أولاها على أخراها: وفَّاك سيدها أجرك. وإن أنت لم تهنأ جرباها، ولم تداوِ مرضاها، ولم تحبس أولاها على أخراها: عاقبك سيدها[5].

وهذا ظاهر في الاعتبار: فإن الخلقَ عباد الله، والولاة نوَّاب الله على عباده، وهم وكلاء العباد على نفوسهم؛ بمنزلة أحد الشريكين مع الآخر؛ ففيهم معنى الولاية والوكالة؛ ثم الولي والوكيل متى استناب في أموره رجلًا، وترك

---

(١) رواه البخاري في العلم (٥٩)، وأحمد (٨٧٢٩)، عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الاستقراض (٢٤٠٩)، ومسلم في الإمارة (١٨٢٩)، عن ابن عمر.

(٣) رواه مسلم في الإيمان (١٤٢)، عن معقل بن يسار.

(٤) هنأ الإبل أي: طلاها بالهناء وهو القطران.

(٥) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢/ ١٢٥)، وابن عساكر في تاريخه (٢٧/ ٢٢٣).

من هو أصلح للتجارة أو العقار منه، وباع السلعة بثمن، وهو يجد مَن يشتريها بخير من ذلك الثمن؛ فقد خان صاحبه، لا سيما إن كان بين مَن حاباه وبينه مودة أو قرابة، فإن صاحبه يبغضه ويذمُّه، ويرى أنه قد خانه وداهن قريبه أو صديقه.

اختيار الأمثل فالأمثل:

إذا عرف هذا، فليس عليه أن يستعمل إلا أصلح الموجود، وقد لا يكون في موجوده من هو أصلح لتلك الولاية، فيختار الأمثل فالأمثل في كل منصب بحسبه، وإذا فعل ذلك بعد الاجتهاد التام، وأخْذه للولاية بحقها؛ فقد أدَّى الأمانة، وقام بالواجب في هذا، وصار في هذا الموضع من أئمة العدل المقسطين عند الله؛ وإن اختلَّ بعض الأمور بسبب من غيره، إذا لم يمكن إلا ذلك، فإن الله يقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]. ويقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وقال في الجهاد في سبيل الله: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ٨٤]. وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]. فمن أدَّى الواجب المقدور عليه فقد اهتدى.

وقال النبي ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»[١]. أخرجاه في الصحيحين؛ لكن إن كان منه عجز بلا حاجة إليه، أو خيانة عوقب على ذلك.

ركنا الولاية: القوة والأمانة:

وينبغي أن يعرف الأصلح في كل منصب، فإن الولاية لها ركنان: القوة والأمانة. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ [القصص: ٢٦]. **وقال صاحب مصر ليوسف** عليه السلام: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾ [يوسف: ٥٤]. **وقال تعالى في صفة جبريل:** ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [التكوير: ١٩ - ٢١].

والقوة في كلِّ ولاية بحسَبِها؛ فالقوة في إمارة الحرب ترجع إلى شجاعة

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٢٨٨)، ومسلم في الحج (١٣٣٧)، عن أبي هريرة.

القلب، وإلى الخبرة بالحروب، والمخادعة فيها، فإن الحرب خدْعة، وإلى القدرة على أنواع القتال: من رمي وطعنٍ وضرب وركوب، وكرٍّ، وفرٍّ، ونحو ذلك؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]. وقال النبيُّ ﷺ: «ارموا واركبوا، وأنْ ترموا أحبُّ إليَّ من أن تركبوا، ومن تعلَّم الرمي ثم نسيَه فليس منا»(١). وفي رواية: «فهي نعمة جحدها»(٢).

والقوة في الحكم بين الناس ترجع إلى العلم بالعدل الذي دلَّ عليه الكتاب والسنة، وإلى القدرة على تنفيذ الأحكام.

والأمانة ترجع إلى خشية الله، وألا يشتري بآياته ثمنًا قليلًا، وترك خشية الناس؛ وهذه الخصال الثلاث التي أخذها الله على كل من حكم على الناس، في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: ٤٤].

ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «القضاة ثلاثة: قاضيان في النار، وقاضٍ في الجنة. فرجل علم الحق وقضى بخلافه، فهو في النار، ورجل قضى بين الناس على جهل، فهو في النار، ورجل علم الحق وقضى به، فهو في الجنة»(٣). رواهِ أهل السنن.

والقاضي اسم كل من قضى بين اثنين وحكم بينهما، سواء كان خليفة، أو سلطانًا، أو نائبًا، أو واليًا؛ أو كان منصوبًا ليقضيَ بالشرع، أو نائبًا له، حتى من يحكم بين الصبيان في الخطوط، إذا تخايروا. هكذا ذكر أصحاب رسول الله ﷺ، وهو ظاهر»(٤).

---

(١) رواه مسلم في الإمارة (١٩١٩)، عن عقبة بن عامر.

(٢) رواه البزار (٩٠٩٥)، والطبراني في الصغير (٥٤٣)، والأوسط (٤١٧٧)، وحسَّن إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٢٠٢٨)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٢٩٤): صحيح لغيره، عن أبي هريرة.

(٣) رواه أبو داود في الأقضية (٣٥٧٣)، والترمذي (١٣٢٢)، وابن ماجه (٢٣١٥)، كلاهما في الأحكام، والحاكم (٤/ ٩٠) وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٤٤٤٦)، عن بريدة.

(٤) السياسة الشرعية ص٥ ـ ١٣، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف، السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ.

وقد أطال ابن تيمية الحديث في الأمانات وفي الحدود وفي الحقوق، وفصَّل فيها تفصيلات، لا بدَّ من الرجوع إليها، ليعرف الناس ما لهم وما عليهم.

وكذلك ما ذكره من العدل، وضرورة إقامته بين الناس. ثم الواجب على الرعية، وما عليهم من واجبات، وما لهم من حقوق، وهذه كلها موضحة في الشرع الحكيم.

٦ ـ العدل:

ومن القيم الإنسانيَّة الأساسيَّة التي جاء بها الإسلام، وجعلها من مقوِّمات الحياة الفرديَّة والأسريَّة والاجتماعيَّة والسياسيَّة: (العدل).

حتى جعل القرآن إقامة القِسْط ـ أي العدل ـ بين الناس هو هدف الرسالات السماويَّة كلها، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

وليس ثمَّة تنويه بقيمة القِسط أو العدل أعظم، من أن يكون هو المقصود الأول من إرسال الله تعالى رسله، وإنزاله كتبه، فبالعدل أُنزلت الكُتُب، وبُعِثت الرسل، وبالعدل قامت السماوات والأرض.

والمراد بالعدل: أن يُعطَى كلُّ ذي حقٍّ حقَّه، سواء أكان صاحب الحق فردًا أم جماعة، أم شيئًا من الأشياء، أم معنى من المعاني، بلا طغيان ولا إخسار، فلا يبخس حقه، ولا يجور على حق غيره.

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾ [الرحمن: ٧ ـ ٩].

العدل مع النفس والأسرة والناس:

والإسلام يأمر المسلم بالعدل مع النفس: بأن يوازن بين حقِّ نفسه، وحقِّ ربه، وحقوق غيره.

فقد قال عليه الصلاة والسلام لعبد الله بن عمرو، حين جار على حقِّ نفسه بمداومة صيام النهار وقيام الليل: «إنَّ لبدنك عليك حقًّا، وإن لعينك عليك حقًّا، وإن لأهلك عليك حقًّا، وإن لزَوْرك عليك حقًّا»[1].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٩٧٥)، ومسلم (١١٥٩)، كلاهما في الصيام، عن عبد الله بن عمرو.

ويأمر الإسلام بالعدل مع الأسرة: مع الزوجة، أو الزوجات، ومع الأبناء والبنات.

يقول تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾ [النساء: ٣].

ويقول الرسول ﷺ: «اتقوا الله واعدلوا في أولادكم»[1]. وحين أراد بشير بن سعد الأنصاري أن يشهده عليه الصلاة والسلام على هبة معينة آثر بها بعض أولاده، سأله النبي ﷺ: «أكل أولادك أعطيتهم مثل هذا؟». قال: لا. قال: «أشْهِدْ على ذلك غيري، فإني لا أشهد على جور»[2].

ويأمر الإسلام بالعدل مع الناس كل الناس: عدل المسلم مع مَن يحب، وعدل المسلم مع مَن يكره، لا تدفعه عاطفة الحب إلى المحاباة بالباطل، ولا تمنعه عاطفة الكره من الإنصاف، وإعطاء الحقِّ لمَن يستحقُّ.

يقول تعالى في العدل مع مَن نحب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ﴾ [النساء: ١٣٥].

ويقول سبحانه في العدل مع مَن نعادي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ [المائدة: ٨].

وكم حفل التاريخ السياسي والقضائي في الإسلام بمواقف رائعة، حكم فيها لغير المسلمين ضد المسلمين، وللرعية ضد الرعاة.

العدل في القول والشهادة والحكم:

يأمر الإسلام بالعدل في القول، فلا يخرجه الغضب عن قول الحق، ولا يدخله الرضا في قول الباطل. يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٥٨٧)، ومسلم (١٦٢٣)، كلاهما في الهبات، عن النعمان بن بشير.

(٢) رواه مسلم في الهبات (١٦٢٣)، عن النعمان بن بشير.

ويأمر بالعدل في الشهادة، فلا يجوز أن يكتمها إذا علمها، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

ولا يجوز له أن يمتنع عن حضورها إذا طُلِب لها، كما قال: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ [البقرة: ٢٨٢].

ولا يحل له أن يشهد إلا بما علم، لا يزيد ولا ينقص، ولا يحرِّف ولا يبدِّل، قال تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق: ٢]. ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٨].

ويأمر الإسلام بالعدل في الحكم. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

وقد استفاضت الأحاديث في فضل (الإمام العادل) فهو أحد السبعة الذين يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله[١]، وأحد الثلاثة الذين لا تُرد لهم دعوة[٢].

تحريم الظلم:

وبقدر ما أمر الإسلام بالعدل وحثَّ عليه، حرَّم الظلم أشد التحريم، وقاومه أشدَّ المقاومة، سواء أكان ظلم النفس أم ظلم الغير، وبخاصَّة ظلم الأقوياء للضعفاء، وظلم الأغنياء للفقراء، وظلم الحُكَّام للمحكومين. وكلما اشتدَّ ضعف الإنسان كان ظلمه أشد إثمًا.

يقول الرسول ﷺ لمعاذ: «واتَّقِ دعوة المظلوم، فليس بينها وبين الله حجاب»[٣].

وقال: «دعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام، ويفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب: وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين»[٤].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٦٦٠)، ومسلم في الكسوف (١٠٣١)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد (٨٠٤٣) وقال مخرِّجوه: صحيح بطرقه وشواهده، والترمذي في الدعوات (٣٥٩٨) وقال: حديث حسن، وابن ماجه في الصيام (١٧٥٢)، عن أبي هريرة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الزكاة (١٤٩٦)، ومسلم في الإيمان (١٩)، عن ابن عباس.

(٤) رواه أحمد (٨٠٤٣) وقال مخرِّجوه: صحيح بطرقه وشواهده، والترمذي في الدعوات (٢٥٢٢)، وقال حديث حسن، وابن ماجه (١٧٥٢)، وابن خزيمة (١٩٠١) كلاهما في الصيام، عن أبي هريرة.

العدل الاجتماعي:

ومن أبرز أنواع العدل، الذي شدَّد فيه الإسلام ما سُمِّي في عصرنا: العدل الاجتماعي. ويراد به: العدل في توزيع الثروة، وإتاحة الفرصة المتكافئة لأبناء الأمَّة الواحدة، وإعطاء العاملين ثمرة أعمالهم وجهودهم، دون أن يسرقها القادرون وذوو النفوذ منهم، وتقريب الفوارق الشاسعة بين الأفراد والفئات بعضها وبعض، بالحد من طغيان الأغنياء، والعمل على رفع مستوى الفقراء.

وهذا الجانب سبق فيه الإسلام سبقًا بعيدًا، حتى إن القرآن منذ عهده المكي لم يغفل هذا الأمر الحيوي، بل أعطاه عناية بالغة، ومساحة واسعة.

فمَن لم يُطعم المسكين كان من أهل سقر المُعذَّبين في النار، ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [المدثر: ٤٣ ـ ٤٤].

ولا يكفي أن تطعم المسكين، بل يجب أن تحمل نصيبك في الدعوة إلى إطعامه، والحض على رعاية ضروراته وحاجاته: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾﴾ [الماعون: ١ ـ ٣].

وإهمال هذا الحض يضعه القرآن جنبًا إلى جنب مع الكفر بالله تعالى، الموجب للعذاب الأليم، وصُلِيِّ الجحيم: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾ [الحاقة: ٣٠ ـ ٣٤].

والمجتمع الجاهلي مجتمع مذموم مسخوط عليه من الله تعالى، لضياع الفئات الضعيفة فيه، وانشغال الأقوياء، بأكل التراث وحب المال: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ [الفجر: ١٧ ـ ٢٠].

لقد اهتم الإسلام بالطبقات الضعيفة في المجتمع، فشرع لهم من الأحكام والوسائل، ما يكفل لهم العمل الملائم لكل عاطل، والأجر العادل لكل عامل، والطعام الكافي لكل جائع، والعلاج الناجع لكل مريض، والكساء المناسب لكل عريان. والكفاية التامَّة لكل محتاج. وتشمل هذه الكفاية: المأكل والملبس والمسكن، وكل ما لا بدَّ له منه، على ما يليق بحاله، من غير إسراف ولا

تقتير، لنفس الشخص ولمن يعوله. وهذا تعريف الإمام النووي في **(المجموع)**[1].

وفرض لذلك الإسلام حقوقًا ماليَّة في أموال الأغنياء، أولها وأعظمها الزكاة. التي اعتبرها الإسلام ثالث أركانه، يؤدِّيها المسلم طوعًا واحتسابًا، وإلا أخذت منه كرهًا، ولو أن طائفة ذات شَوْكة امتنعت من أدائها قوتلت عليها بحد السيوف.

تؤخذ الزكاة من الأغنياء لتُرَد على الفقراء. فهي من الأمَّة وإليها.

والأرجح أن يُعطَى الفقير من الزكاة كفاية العمر الغالب لأمثاله، متى اتسعت حصيلة الزكاة لذلك، وبذلك يصبح في العام القادم يدًا معطية لا آخذة، عليا لا سفلى.

(١) المجموع (٦/ ١٩١).

(٥)
أخلاق العالَم

ونعني بأخلاق العالَم هذه: أخلاق المسلمين أو الأمَّة الإسلامية، مع غير المسلمين، أو مع الأمم الأخرى من العالَم.

فلا شك أن المسلمين هم جزء من العالم، وليسوا كل العالم، ولكن دعوتهم موجهة إلى العالم كله، فالمسلمون هم أمة الإجابة، وباقي العالم كله: أمة الدعوة. مطلوب من أمة الإسلام دعوتها هذه في عالمية الإسلام؛ كما ذكر ذلك القرآن في مثل قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان: ١].

وخاطب خاتم رسله محمدًا فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. بيّن الله في هذه الآية لرسوله المعلِّم: أنه لم يرسله إلا رحمة، ولكنها ليست رحمة خاصة للمسلمين أو للعرب من قومه، بل رحمة للعالمين في المشارق والمغارب، بل في السماوات والأرض، فهذه الرحمة تعمُّ الجن والإنس، بل تعمُّ الملائكة المقربين.

الأمَّة المسلمة داعية إلى السلم:

ولهذا تهتم الأمَّة الإسلامية بأن تحسن علاقتها بكلِّ الناس من حولها، والأصل فيها هي: السِّلم، كما قال الله تعالى لرسوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٢٠٨﴾ [البقرة: ٢٠٨]. فالمطلوب من أهل الإسلام أن يدخلوا في هذا السلام كافة، لا يُستثنى أحدهم من الدخول فيه، وهم إلى ذلك يدعون الآخرين إلى مشاركتهم في هذا الدخول في السلم، وبهذا ينتشر السلم في العالم كله.

والمعلوم أن الأمَّة الإسلامية كلها أمة سلام، وهي أولى الناس به، فالإسلام الذي تنتسب إليه الأمَّة والسلام، يشتقان من مادة لغوية واحدة هي: سلم (س ل م).

والسلام تحية المسلمين في الدنيا والآخرة، فالمسلم إذا لقي المسلم قال له: السلام عليكم. فيرد عليه: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. كما علَّمهما القرآن والسنة. وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: ٨٦]. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ [النساء: ٩٤].

وفي الآخرة قال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾ [الأحزاب: ٤٤]. وقال سبحانه: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٤].

والجنة التي يتشوَّف إليها المسلمون، ويدعون الله أن يدخلهم فيها، اسمها: دار السلام. كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأنعام: ١٢٧].

والله تعالى من أسمائه: السلام، كما قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ﴾ [الحشر: ٢٣].

ولهذا انتشر بين المسلمين دون غيرهم: اسم (عبد السلام).

أصل العلاقة بين المسلمين وغيرهم: السلام:

والحقيقة كما نفهمها من القرآن: أن أصل العلاقة بين المسلمين ـ أو أمة الإسلام ـ وغيرهم من الأمم هي: السلام، ما داموا مسالمين للمسلمين، فإذا كانت العلاقة بينهم وبين جيرانهم ومَن حولهم، تقوم على المودة والرحمة وحسن الجوار، فليس لهم من الإسلام إلا رد التحيَّة بأحسن منها، أو على الأقل بمثلها.

وهذا ما نقرؤه في آيات القرآن بوضوح، يقول تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البقرة: ١٩٠]. فأمر الله تعالى في الآية بقتال الذين يقاتلون المسلمين، ونهى عن العدوان في القتال.

كان الرسول لا يقاتِل أبدًا من لا يقاتله، ولا يعامل المحسن إلا بالإحسان: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن: ٦٠]. بل كثيرًا ما يقابل الإساءة بالإحسان، إذا لم يُضرُّ عليها، قال تعالى: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة: ١٣]. وليس من شأنه أن يقاتل من لا يقاتل: مثل؛ الأطفال والنساء والشيوخ، ومن لا شأن له بالحرب؛ مثل الفلاحين والتجار والمدنيِّين من الناس.

وقد أنكر النبي ﷺ قتلَ امرأة من المشركين وُجدت مقتولة في المعركة، وقال: «ما كانت هذه لتقاتل»[1]. وقال: «لا تقتلوا وليدًا ولا شيخًا»[2].

وكذلك خلفاء النبي ﷺ مثل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي من الخلفاء الراشدين، ما كانوا يقتلون المدنيين الذين لا يشاركون في الحرب بأجسامهم ولا رأيهم.

ثم نهى في الآية عن العدوان أيضًا فقال: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾، فالمسلم لا يعتدي على أحد، ولا يرضى العدوان لأحد من أبنائه، فالعدوان من قِبَل المسلمين محرَّم تحريمًا مطلقًا، ومنهيٌّ عنه، ولا يُقبَل من جهة المسلم.

وتقول تتمة الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾، وهذا التعليل لنفي العدوان دليل على أن هذا أمر دائم، فمحبة الله للأشياء وكراهيته لها ثابتة لا تتغير، ولذلك لا يجوز لقائل أن يقول: إن هذه الآية منسوخة، فهل أصبح الله يحب الاعتداء بعد أن كان يبغضه ويكرهه؟

ثم قال تعالى: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾﴾ [البقرة: ١٩١ ـ ١٩٢].

أمر القرآن الكريم أن يكونوا على مستوى المسئولية من المشركين الذين يحاربونهم، ما داموا يضمرون لهم الشر، فلا بدَّ أن يقابلوهم بمثله، الشر بالشر يُحسَم، والبادئ أظلم، ما داموا رافعين سيوفهم يقاتلون المسلمين، فلا بدَّ

---

(١) رواه أحمد (١٥٩٩٢) وقال مخرِّجوه: صحيح لغيره، وأبو داود في الجهاد (٢٦٦٩)، عن رباح بن ربيع.

(٢) رواه مسلم في الجهاد والسير (١٧٣١) دون قوله: «ولا شيخًا»، والطبراني في الأوسط (١٤٣١)، عن بريدة بن الحصيب.

للمسلمين أن يستمروا في قتالهم وقتلهم حيث ثقفوهم ووجدوهم، وأن يخرجوهم من حيث أخرجوهم، والأذى لا يقاوم إلا بالأذى.

الفتنة التي يتعرَّض لها المسلمون في دينهم أشدُّ من القتل:

وقد قرَّر القرآن قاعدة في غاية الأهمية، وهي: أن الفتنة التي يتعرض لها المسلمون في دينهم أشد من القتل، هذا ما قررته هذه الآية، وفي الآية الأخرى من سورة البقرة أيضًا: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧]. فالفتنة أكبر من القتل بالنظر إليها من حيث الكم، وأشد منه بالنظر إلى الكيف، فهي من أي جهة نظرت إليها كيفًا أو كمًّا أشد خطرًا وأبعد أثرًا.

وإنما كانت الفتنة والاضطهاد أشد وأكبر من القتل، مع أن القتل اعتداء على نفس الإنسان وحياته؛ لأن القتل هو اعتداء على الحياة الحسيَّة للإنسان، والفتنة اعتداء على الحياة الروحيَّة للإنسان، اعتداء على اختياره وإرادته، أي على كيانه الأدبي والمعنوي، وهذا أشد ما يكون، فهو اعتداء على حقيقة الإنسان، وهل الإنسان إلا عقل وإرادة؟!

قال: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾، هكذا يواجه القرآن هؤلاء المشركين الذين آمنوا بأديانهم، وكفروا بربهم، وفقدوا عقولهم، وأمسوا يتصرَّفون تصرفات حمقاء، ولا بدَّ للإسلام أن يعاملهم بمثل معاملتهم، فالأصل عند المسجد الحرام: ألا يقاتل أحد فيه، فالإسلام يحرم الأمكنة المقدسة، ويحرم الأزمنة الحرام، وهي الأشهر الحرم الأربعة؛ ذا القَعدة، وذا الحجة، ومحرَّمًا، ورجبًا، ولكن من تجاوز ما حرم الله واعتدى على الإسلام وأهله، فعلى المسلمين أن يدافعوا عن أنفسهم، فمن قاتلهم في المسجد الحرام قاتلوه في المسجد الحرام، ولا يجوز لهم أن يبدؤوا هم بقتال في المسجد الحرام، فإذا قاتلهم المشركون فيه فقد استحقوا أن يقاتلهم المسلمون ويقتلوهم، وهذا هو جزاء الكافرين المعتدين.

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فإذا رجع هؤلاء إلى عقولهم وإنسانيتهم، وانتهوا عن هذا التصرف المعادي الذي لا نقف عنده، فالإسلام يرحِّب بالرجوع والتوبة إلى الله، فإن الله غفور رحيم.

وفي هذا السياق قال الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة: ١٩٣].

أمر القرآن المسلمين مرة أخرى بمعاملة الكفار الذين يقاتلون المسلمين معتدين عليهم، فهم الذين بدؤوا المسلمين بالقتال، ولم يبدأهم المسلمون، ولم يعتدوا عليهم قط، فأمر الله بقتالهم، والاستمرار فيه ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾، وفي آية في سورة الأنفال: ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

ومعنى: ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾، أن الفتنة في الدين موجودة. ومعنى الفتنة: اضطهاد الإنسان في دينه، وتعريضه للأذى والتعذيب البدني والنفسي، ليضعف من قوته، ويفر من دينه، خشية مما هو واقع به، وما يتوقع أن يزيد عليه.

﴿وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾، وهذا القتال من المسلمين لا يراد منه كسب ولا شيء من الدنيا، إنما يراد: أن تزول الفتنة عن الناس، ويعيش كل إنسان حُرًّا، كما خلقه الله، ويكون الدين ـ أو يكون الدين كله ـ لله تبارك وتعالى، فالدينُ دينُ الله، ومن أجله يدخل الناس الدين، ليتقرَّبوا إليه، وليفردوه بالعبادة والاستعانة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]. فيجب أن يكون هذا الدين خالصًا لله سبحانه، يؤمن به من يؤمن، فلا يمنعه أحد، ولا يؤذيه أحد، ولا يعتدي عليه أحد. وهذا شأن ما كان لله، وليس لأحد غيره فيه نصيب، وما كان لله دام واتصل، وما كان لغير الله انقطع وانفصل.

﴿فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، وحين ينتهي المشركون عن هذا التصرف الوحشي، الذي لا يليق بالآدمي المكرم، فقد انتهى العدوان عليهم؛ لأنه من المقرر لدى المسلمين: أن لا عدوان إلا على الظالمين.

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ۝١٩٤﴾ [البقرة: ١٩٤].

أعلمهم القرآن أن الإسلام يحترم المقدَّسات الزمانية والمكانية، فهو يحترم المسجد الحرام في الأمكنة، ويحترم الشهر الحرام في الأزمنة، فمن اخترق حرمة الشهر الحرام وقاتل المسلمين فيه، فقد فرض على المسلمين أن يردوا بالمثل ويقاتلوه في الشهر الحرام، وهذا معنى قوله: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾.

فالأصل في شريعة الإسلام تحريم القتال في الأشهر الحرم؛ كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا

﴿ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ [المائدة: ٢]. وقال: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ [المائدة: ٩٧].

وهذا التحريم من الله باقٍ، ومستمر لم يُنسخ، وحين وقع من المسلمين عن طريق الخطأ قتال في الشهر الحرام، وحاول المشركون أن ينفخوا فيه، ويعطوه أكثر من حجمه، دافع الله عنهم وقال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ [البقرة: ٢١٧].

المسلمون مطالبون بإعداد ما استطاعوا من قوة:

ومن يقرأ القرآن الكريم بتدبُّر وتأمل، بعيدًا عن كثرة الأقاويل، التي تبعد الناس عن حقيقة القرآن، فسيجد أنه فتح الباب للناس جميعًا ليعيشوا آمنين مطمئنين، بعيدين عن معامع الصراع، وآفات الحروب، وخسائر الدماء والأرواح، التي تضاعفت في زماننا عن الأزمان الماضية، لخطورة الأسلحة التي تستعمل في الحروب، وقدرتها على قتل الكثير من البشر، وتهديم الكثير من البيوت، وإفساد الكثير من الزروع والمصانع، وكل ما يحتاج إليه الناس.

لهذا أمرنا بإعداد ما نستطيع من القوة والسلاح، حفظًا لأمتنا، وحرصًا على سلامتنا، وإخافةً لعدونا أن يقترب منا، أو يفكر في الاعتداء علينا، كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنفال: ٦٠]. والمطلوب: إعداد القوة البشريَّة المدرَّبة، وإعداد القوى الماديَّة الملائمة التي لا بدَّ منها.

وقد جاءت أحاديث كثيرة ترشد إلى ضرورة اقتناء كل الأسلحة المطلوبة بحيث لا نتخلف عن غيرنا.

ويقول تعالى وهو يحدثنا عن صلاة الخوف أو صلاة الحرب: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟

حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [النساء: ١٠٢ ـ ١٠٤].

وفي سورة النساء قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴿٧١﴾﴾ [النساء: ٧١].

تبيِّن الآية أنَّ الجهاد له متطلبات تختلف من حين لآخر، ومن معركة لأخرى، فأحيانًا قد تقتضي الحرب المطلوبة أن يقسَّم الجيش إلى فرق صغيرة تذهب كل منها في مهمة، وأحيانًا تقتضي الحرب المطلوبة: أن تعد الأمَّة كلها في مواجهة العدو المجتمع لها، والمتهيئ لحربها في جهة معيَّنة، وعلى أن تجمع شملها، وتركز قوتها في هذا الصدد.

من جَنَح للسلم جنحنا له:

ومع هذا علَّمنا القرآن ألا نرفض السلم إذا طلبه العدو ومال إليه، فنحن أحباب السلم وأهله، وبودِّنا لو عاش الناس جميعًا في السلم، يقول تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنفال: ٦١ ـ ٦٢].

فهكذا نجد القرآن بهذا الأسلوب الصريح يُحرِّض المؤمنين على قَبول السلم والجنوح إليه إذا جنح عدونا إليه، ولو كان ذلك بعد قتال بيننا وبينه، فنحن لا نضيع فرصة تلوح لنا، لنحقن فيها الدماء، ونحفظ فيها الأنفس، ونهيئ فيه الأمن للناس، ولذلك قال تعالى: ﴿فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾. إنما قال ذلك؛ لأن البعض يتخوَّف من جنوح الآخرين للسلم؛ لأنهم قوم كفار أو مشركون، ولا أمان لهم، ولذلك يتخوف منهم دائمًا، فقال تعالى: ﴿فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾، ولكن أن يكون واثقًا من أنهم يريدون سلامًا وصلحًا، ولا يريدون شرًّا وغدرًا، ولا ينوون شرًّا وغدرًا.

وزيادة في طمأنة المسلمين قال: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، يعني: أن القوم إذا كانوا كاذبين، وإنما يظهرون اللين، ويبطنون الخبث والخداع، فالله هو الذي يحميك، وهو الذي أيدك بنصره وملائكته وجنده وبالمؤمنين من المهاجرين والأنصار، الذين عزورك ونصروك، واتبعوا النور الذي أنزل معه.


النادي الشبابي





إنني أشعر أنَّ الأخلاق جزء أساسي من كياني، أو من ثقافتي الإسلامية، وكلَّما اقتربتُ من نصوص القرآن والسنة، وغُصْت فيهما، وأصغيت إلى علمائهما الراسخين، رأيتني أزداد قربًا والتصاقًا بها.

ومن يتدبر الإسلام في آيات كتابه، وسنة نبيه، ويتأمل نصوصها وروحها: يدرك أن الإسلام في جوهره رسالة أخلاقية، بكل ما تحمله هذه الكلمة من عمق وشمول. وقد صحَّ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إنما بُعثتُ لأتمِّم مكارم الأخلاق».

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: «الدين كله هو الخُلُق، فمن زاد عليك في الخُلُق، فقد زاد عليك في الدين».

فعلينا جميعًا أن نقف مع الداعين لبناء الأخلاق القويمة، المؤسَّسة على الإيمان والعقل، فإن أمة تُبنى على إيمان عميق، وخُلُق وثيق، لا يمكن أن تُهزَم أبدًا، وسينصرها الله في كل الميادين، وينصر أجيالها الصالحين المُصْلحين، الذين يقودونها بمواريث النبوة الهادية، والعقول المشرقة، إلى قيم الحقِّ والخير.



القاهره - المعادي - شارع المعراج
almashriq.books@gmail.com

